رِحلَةٌ إلى الدَّارِ الآخِرَةِ

يحتوي على قصة المهدي المنتظر والمسيح الدجال

جمع وترتيب
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا



جمع وترتيب
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

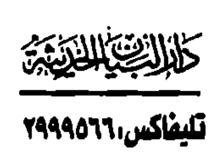


الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٩٤٣/ ٢٠٠٥

مكتبة الصفا



١٢٧ ميدان الأزهر - القاهرة ت: ٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٩٧٤ / ٠١٠١٤٣١١١٤

بين يدى الكتاب

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى مِنْ شرورِ أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فلا مُضل له، ومنْ يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٠، ٧١).

* الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصّر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد بالحق فأرداهم فى الحافرة، فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظُلمة اللحود، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوامّ والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى الوحل والتراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل. فانظر هل وجدوا من الموت حصنًا وعزّا، واتخذوا من دونه حجابًا وحرزًا، وانظر: ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (مريم:٩٨).

فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر بالملك والبقاء، وأذلّ أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموتَ مخلِّصًا للأتقياء، وموعدًا فى حقهم للقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحبسًا ضيقًا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة، وصلى الله على رسوله محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

● **أما بعد:** فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقرّه، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا فى الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلاّ لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلّع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار ولا تربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، ويراها فى أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت»[1].

مشيناهـا خُطًا كُتبـت علينـا ... ومن كُتبت عليه خُطًا مشاهـا
وأرزاق لـنـا متفـرقـــات ... فمـن لـم تأتـه منا أتاهـا
ومـن كُتبـت منيتـه بـأرضٍ ... فليس يموت فى أرض سواها

* إن هذا الامتداد الإنسانى المتلاحق سيتوقف يومًا، سيأتى اليوم الذى ينتهى فيه الوجود الإنسانى كله، بل سيُدَمَّر فيه الكون كله، فتنطفىء نجوم الليل جميعًا، وتتوقف أمواج البحر، وييبس الزرع كله، وتجف مياه الأنهار والعيون.

ولكن هذا الفناء ليس هو النهاية، بل هو مرحلة فى الأطوار التى يمر الإنسان بها، وسيأتى يوم نعود جميعًا فيه إلى الحياة، لنحاسَب على ما قدمنا وعملنا.

إن الإيمان بالرجعة إلى الحياة، ثم الخلود بعد ذلك ضرورى لتقويم مسار الإنسان،فالإنسان مركوز فى أعماق نفسه حب الخلود والبقاء، ولذا فإن إبليس أغرى آدم بالأكل من الشجرة المحرم عليه الأكل منها مدعيًا أن الأكل منها يمنحه وزوجه الخلود ﴿قَالَ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلدْ وَمُلْك لا يَبْلَى﴾.

والكفر بالبعث والنشور يُحدث شقوة للنفوس البشرية، كما يُحدث انحرافًا فى مسيرة البشر فى الحياة.

ولما كان الارتباط بين حياتنا هذه وحياتنا الأخرى وثيقًا، إذ كانت هذه الحياة بمثابة الحرث والزرع، وكانت تلك بمثابة الجنى والحصاد، كان لا بد للإنسان من أن يعلم عن حياته الآخرة ما يدعوه للاستعداد لها، وإقامة حياته الدنيا على النمط الذى يحقق له فى الآخرة خيرًا وفضلاً.

ولما كانت الحياة الأخرى غيب لا يستطيع أصحاب العقول الثاقبة، والقلوب المبصرة

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالى (٤/ ٤٧٥).

اختراق حُجبها فضلاً عمن هم دونهم، فإن الله تولى إخبارهم عن مسارهم فى رحلتهم بعد الحياة، وعن مصيرهم المحتوم، ومزج الحديث عن الحياة الأخرى بالحديث عن هذه الحياة مزجًا يجعلهما متداخلتين، تحقيقًا لإصلاح النفوس وتقويمها(١).

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع أعظم رحلة فى الوجود كله ـ رحلة إلى الدار الآخرة ـ لنعلم كل مرحلة من مراحل تلك الرحلة ولنتزود بالزاد الحقيقى الذى يجعل تلك الرحلة هى رحلة السعادة والنعيم والخلود.

تزود مـن الدنيـــا فإنـك لا تـدرى ... إذا جـن ليـل هل تعيش إلى الفجرِ

فكم من عـروس زينوهــا لزوجهـا ... وقد أُخذت أرواحهم ليلة القـــدرِ

وكم من صغار يُرجى طول عمرهم ... وقد أُدخلت أرواحهم ظلمــة القبرِ

وكم من سليم مـــات مـن غير علة ... وكـم من سقيم عاش حينًا من الدهرِ

وكم مـن فتى يمسى ويصبـح لاهيًا ... وقد نُسجت أكفانه وهـــو لا يدرى

وكم من ساكنٍ عنـد الصباح بقصره ... وعند المسا قـد كان من ساكن القبرِ

فكن مخلصـا واعمل الخير دائمــا ... لعـلك تحظى بالمثوبـــة والأجـرِ

وداوم علـى تقـوى الإلـه فإنهــا ... أمان من الأهـوال فى موقف الحشرِ

ولقد حرصت كل الحرص على أن أجمع بين ثنايا هذا الكتاب كل الأحاديث الصحيحة والحسنة الثابتة عن الصادق المصدوق ﷺ... سائلاً ربى (عز وجل) أن ينفع بهذا الكتاب كل من رام الانتفاع به وأن يجعله حاديًا لنا للسير فى طريق أهل الإيمان الذين ترتقى قلوبهم إلى درجة الإحسان وترتقى أرواحهم وأجسادهم إلى النعيم فى الجنان والفوز بالرضوان فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه أفقر خلق الله إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

(١) القيامة الصغرى/ د. عمر الأشقر (ص: ٥: ٧) بتصرف.

• المراد باليوم الآخر •

إن المراد من اليوم الآخر أمران: الأول: فناء هذه العوالم كلها، وانتهاء هذه الحياة بكاملها. والثانى: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها، فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية، إذ هو يوم واحد لا ثانى له فيها البتة. فالإيمان باليوم الآخر مقتض للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال، واختلاف أحوال كما هو مقتضٍ كذلك لتصديق الله تعالى فى إخباره عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وعذاب، وما يجرى فيها من أمور عظام، كبعث الخلائق، وحشرهم وحسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الارادية الاختيارية التى قاموا بها فى هذه الحياة الدنيا[1].

• وجوب الإيمان باليوم الآخر •

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم فى الكون، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها، وابتداء حياة أخرى وهى الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة، من بعث الخلائق وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم.

هذا الإيمان ليس واجبًا فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تُبنى عقيدة المؤمن، فلا تتم إذًا عقيدته إلا به، ولا تصح إلا عليه.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة:١٧٧).

ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن، ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، فقد ذكره فى عشرات السور منه، وفى مئات الآيات، مرة بوصفه، والحديث عنه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقه:١٣:١٨).

---

(١) عقيدة المؤمن/ الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص: ٣٢١).

ومرة تقريره، وتأكيد مجيئه، كقوله تعالى من سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج:٦:٧).

وقوله تعالى: من سورة التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن:٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء:٣٨).

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء:٥٩).

فى عدة آيات من كتاب الله تعالى.

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح، وعليهما مدار استقامة المرء فى هذه الحياة، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئًا، وأن مَن عدمهما قد عدم كل خير، وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة فى نفسه وأصبح من شر البرية.

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة، وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خُلقه، وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه، ولا لغيره، وهو شر كله، لا يؤمَن جانبه، ولا يُطمأن إليه، ولا تسكن النفوس عنده، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير، وينابيع الفضيلة والكمال البشرى[١].

• الاستعداد ليوم الرحيل •

يقول الإمام ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ: يجب على مَن لا يدرى متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل مَن يموت الأشياخ، وأكثر مَن يموت الشبان، ولهذا يندر مَن يكبر، فالحذر الحذر من المعاصى. فإن عواقبها سيئة، فكم من معصية لا يزال صاحبها فى هبوط أبدًا من تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا[٢].

---

(١) بتصرف من عقيدة المؤمن.

(٢) صيد الخاطر للإمام ابن الجوزى (ص: ٢٠٥ ـ ٢٠٦) بتصرف.

ولقد قال ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك»[1].

وقال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتجهزوا للعرض على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٨).

ولذلك فإن على كل مسلمٍ أن يقف مع نفسه وقفة يحاسبها فى الدنيا على كل فعلة فعلها وعلى كل كلمة قالها، فإن من حاسب نفسه فى الدنيا خفَّ عليه الحساب فى الآخرة.

• كلمات على فراش الموت •

ولقد كان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حتى عند سكرات الموت!!!... فلنتأمل سويًا تلك الكلمات.

قيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام:٩٤). ثم مات.

ولما حضرت معاذًا رضى الله عنه الوفاة قال: اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُكب عند حلق الذكر.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه. فقال: بل واطرباه غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

وحُكى أن هارون الرشيد انتقي أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة:٢٨:٢٩).

(١) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

هكذا كانوا يرون الحقيقة الكبرى (الموت) واضحة جلية جلاء الشمس فى رابعة النهار.

ـ بل هذا الإمام ابن الجوزى يبكى عند الموت فيقول له تلاميذه: يا إمام ألست قد فعلت كذا وكذا؟! فقال: والله إننى أخشى أن أكون فرّطت ونافقت فيحقّ علىَّ قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الزمر:٤٧، ٤٨).

ثم قال: ولقد تاب على يدىّ فى مجالس الذكر أكثر من مائتى ألف. وأسلم على يدىّ أكثر من مائتى نفس.

وكم سالت عين متجبر بوعظى لم تكن تسيل. ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظرى إلى تقصيرى وزللى.

ولقد جلست يومًا فرأيت حولى أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا مَن قَدْ رَقَّ قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسى: كيف بك إن نَجَوْا وهلكت: فصحت بلسان وجدى: إلهى وسيدى إن قضيت علىّ بالعذاب غدًا فلا تعلمهم بعذابى، صيانة لكرمك لا لأجلى، لئلا يقولوا عذّب الله من دلّ عليه[1].

● سلفنا الصالح والاستعداد للآخرة ●

لقد ضرب سلفنا الصالح المثل الأعظم فى الاستعداد للآخرة بالعمل الصالح بكل أنواعه، سواءً كان من أعمال القلوب أو الألسنة أو الجوارح.. فلم يتركوا بابًا من أبواب الخير إلا وكانوا يتسابقون إلى الدخول منه، ولم يتركوا بابًا من أبواب الشر إلا وكانوا يحذرون منه ومن الدخول فيه.. وكل ذلك لأنهم امتثلوا قول الحق جل وعلا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى

(١) صيد الخاطر: (ص: ٢٤٩).

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣:١٣٦).

* وكان استعدادهم للقاء الله لا يتوقف عند بعض الكلمات التى تخرج من الأفواه وليس لها رصيد من العبودية فى القلوب، بل كانت جوانحهم وجوارحهم تنقاد طوعًا أو كرهًا لطاعة الله ولسان حال كل واحد منهم: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه:٨٤).

* فتجد أنهم يخلصون العمل لله؛ لأنهم قرأوا قوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر:٣).

وقول النبى ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه»[١].

وكان إبراهيم التيمى يقول: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته، وكان الشعبى رحمه الله يقول: من أدب العلماء إذا علموا أن يعملوا، فإذا عملوا شُغلوا بذلك عن الناس، فإذا شُغلوا فُقدوا، وإذا فُقدوا طُلبوا، وإذا طُلبوا هربوا، خوفًا على دينهم من الفتن.

* وكانوا دائمًا يؤثرون ويقدمون أعمال الآخرة على كل مصالحهم الدنيوية؛ لأن قلوبهم أيقنت وأذعنت لقول الله جل وعلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء:١٨، ١٩).

قال ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»[٢].

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: «من خطب الدنيا طلبت منه دينه كله فى صداقها، لا يرضيها منه إلا ذلك».

وقال علىّ رضى الله عنه: ارتحلت الآخرة مقبلة، وارتحلت الدنيا مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

(١) رواه النسائى (٦/ ٢٥) كتاب الجهاد، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٢).
(٢) رواه الترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).

* ومع ذلك كانوا يخافون من التقصير.. وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر:١٨).

* وكانوا يشعرون مع كل هذا بأن أعمالهم ضئيلة لا تصلح أن يقفوا بها بين يدى الله جل وعلا وذلك لأنهم يعلمون أن النبى ﷺ قال: «لو أن رجلاً يُجر على وجهه من يوم وُلد إلى يوم يموت هرمًا فى مرضاة الله عز وجل لحقَّره يوم القيامة»[1].

* وكل ذلك جعل قلوبهم رقيقة ودموعهم غزيرة من خشية الله تعالى.

كان لعمر بن الخطاب فى وجهه خطان أسودان من كثرة الدموع. وكان ابن عباس رضى الله عنهما أسفل عينيه مثل الشراك البالى من كثرة البكاء.

وقال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين[2].

وقال علىّ رضى الله عنه: رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئًا يشبههم، كانوا يصبحون شعثًا صفرًا غبرًا، بين أعينهم أمثال رُكَب الماعز، قد باتوا سجدًا وقيامًا، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا تمادوا كما يميد الشجر يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع، فو الله لكأنى بالقوم باتوا غافلين.

* وكان الواحد منهم إذا وقع فى ذنب فإنه يسارع بالتوبة والعودة إلى الله جل وعلا.

قال تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

سُئل سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ: ما علامة التوبة النصوح؟ فقال: أربعة أشياء: قلة الدنيا وذلة النفس، وكثرة التقرب إلى الله تعالى بالطاعات ورؤية القلة والنقص فى ذلك.

وكان عمر رضى الله عنه يقول: جالسوا التوابين فإنهم أرقّ أفئدة.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥) والبخارى فى «التاريخ الكبير» وقال الألبانى فى السلسلة الصحيحة: وهذا إسناد جيد.

(٢) أخرجه البخارى (١١/ ٣١٩) الرقاق.

* وكانوا يخافون من الرياء وغيره من الآفات التى تُبطل الأعمال، فكان الواحد منهم يُخفى عمله عن أخيه، بل عن زوجته وأولاده خشية أن يحبط عمله بالرياء وغيره.

كان أبو حازم رحمه الله تعالى يقول: قد رضى علماء زماننا هذا بالكلام وتركوا العمل. وقد كان السلف رضى الله عنهم يفعلون ولا يقولون، ثم صار الذين بعدهم يفعلون ويقولون، ثم صار الذين بعدهم يقولون ولا يفعلون، وسيأتى زمان أهله لا يقولون ولا يفعلون.

بل لقد طلب الناس من سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أن يجلس يحدثهم فَأَبَى وقال: ما أنا بأهل أن أحدث ولا أنتم بأهل أن تسمعوا، وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل: افتضحوا فاصطلحوا.

* وكانوا يخافون من مظالم العباد خوفًا شديدًا؛ لأنهم يعلمون أن النبى ﷺ قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أُخذ من سيئات صاحبه فجُعلت عليه»[١].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة؛ ويأتى قد شتم هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه ثم طُرح فى النار»[٢].

* وكانوا يخافون من التقصير فى شكرهم لله ـ جل وعلا ـ قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٤).

وكان مجاهد ومكحول رحمهما الله تعالى يقولان فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر:٨) إنه الشراب البارد وظل المساكن، وشبع البطن، واعتدال الخلق، ولذة النوم.

وكان سهل التسترى رحمه الله تعالى يقول: أداء الشكر لله تعالى أنك لا تعصيه

(١) أخرجه البخارى (٥/ ١٠١) المظالم، وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٦٥١١).
(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٣٦) البر والصلة.

بنعمه عليك، فإن جوارحك كلها من نعمه عليك فلا تعصه بشيء منها.

* ولذلك امتن الله عليهم ورزقهم بنعمة التقوى التى لا توازيها الدنيا بما فيها.

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: «لا يبلغ أحدٌ مقام التقوى حتى لا يكون له فعل ولا قول يفتضح به فى الدنيا والآخرة، وقد قال له رجل مَرة: متى يبلغ العبد سنام التقوى؟ فقال: إذ وضع جميع ما فى قلبه من الخواطر فى طبق، وطاف به فى السوق لم يستح من شيء فيه.

وقال رجل للفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: أى البلاد تحب لى أن أقيم فيه؟ فقال: ليس بينك وبين بلد نسب، بل خير البلاد ما حملك على التقوى.

* وكانوا يخافون ربهم خوفا عظيما ويرجون ثواب هذا الخوف، فقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن:٤٦). وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠:٤١).

وقال ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[(١)].

وقد قيل للشعبى رحمه الله تعالى مرة: أَفْتِنَا أيها العالم، فقال: لا تقولوا لمثلى عالم، فإن العالم هو الذى تقطعت مفاصله من خشيةِ الله.

وكان علىّ بن الحسين إذا توضأ اصفر، فيقال له: ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدى مَن أريد أن أقوم.

* وكانوا يخافون من سوء الخاتمة ويهتمون بأمر الموت اهتمامًا عظيمًا.

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»، فقلت: يا نبى الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»[(٢)].

وقال ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذى وأبو نعيم والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٢) رواه الترمذى والحاكم عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٧).

(٣) رواه البخارى (٦/ ٣٠٣) بدء الخلق ـ ومسلم (١٦/ ١٩٠) القدر.

وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا رأى أحدًا يحمل جنازة يقول لها: امض إلى ربك فَإِنَّا على إثرك مَاضُون.

وكان مكحول الدمشقى يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإِنَّا رائحُون، موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول والآخر لا يعتبر.

وكان ثابت يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متلفعًا باكيًا. وذلك لأنهم كانوا يتذكرون جنازة أنفسهم، فلا يبكون على الميت، ولكن على أنفسهم.

فجدير بمن الموت مصرعه، والقبر مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا فى ذلك، ولا استعداد إلا له.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ (فصلت:٣٠).

قال بعض السلف: إنما تقول الملائكة ذلك لمن طال خوفه من الله عز وجل وحزنه مما فرط منه، أما من لم يخف الله عز وجل ولم يحزن على ما فاته من الخير فلا يقال له شىء من ذلك[١].

أخى الكريم.. أختى الفاضلة: كانت تلك بعض أحوال سلفنا الصالح ـ رضى الله عنهم ـ مع الاستعداد للقاء الله بالطاعة والحب والخوف والرجاء ومحاسبة النفس، فتلك هى مؤهلات النجاة فى ذلك اليوم الذى يشيب لهوله الولدان.

فنسأل الله أن يتغمدنا بعفوه ومغفرته ورحمته

* * *

(١) مستفاد من رسالة (من أخلاق السلف) لأحمد فريد.

طول الأمل... والغفلة عن الآخرة

قال ﷺ: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»(١).

وقال ﷺ: «يهرم ابن آدم ويشبُّ فيه اثنتان: الحرص على المال والحرص على العمر»(٢).

إلام تُغر بالأمل الطويل ... وليس إلى الإقامة من سبيلِ
فدع عنك التعلل بالأماني ... فما بعد المشيب سوى الرحيل
أتأمن أن تدوم على الليالي ... وكم أفنينَ قبلك من خليل
وما زالت بنات الدهر تُفنى ... بنى الأيام جيلاً بعد جيلِ

● **قال بعض الحكماء:** عجبت ممن يحزن على نقصان ماله ولا يحزن على فناء عمره، وعجبت من الدنيا مولية عنه والآخرة مقبلة عليه يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة.

● **وقال أحد الزهاد:** كونوا من الله على حذر، ومن دنياكم على خطر، ومن الموت على وجل، ولقدوم الآخرة على عجل.

● **وقال أبو الدرداء:** ابن آدم طأ الأرض بقدمك؛ فإنها عن قليلٍ قبرك، ابن آدم إنما أنت أيام فكلما ذهب يوم ذهب بعضك، ابن آدم إنك لم تزل فى هدم عمرك منذ يوم ولدتك أمك(٣).

* * *

(١) أخرجه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أنس.
(٢) أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن أنس.
(٣) الزهد الكبير (ص: ٢٣٣).

• نعوذ بالله من طول الأمل •

جميل أن نحمل فى قلوبنا أملاً، لكى نعمِّر الكون بكل أنواع الخير، فالإنسان مفطور على حُب الحياة.. لكن لابد أن نحذر من أن يحول طول الأمل بيننا وبين طاعة الله عز وجل.

فإن صاحب الأمل الطويل فى الدنيا يركن غالبًا إلى الشهوات والملذات، ولذلك نجد قلبه لا يتحرك لآيات الله وكلام رسول الله ﷺ. ومن أجل ذلك حذَّر النبى ﷺ من طول الأمل.

فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كُن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك... زاد أحمد والترمذى: «وعدَّ نفسك من أهل القبور»[١].

ولقد قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر:٣).

قال الإمام القرطبى: وطول الأمل داء عُضال ومرض مزمن ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.. ولذا قال رسول الله ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»[٢].

ويُروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخٍ لكم ناصح؟! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثرًا ويبنون مشيدًا ويأملون بعيدًا، فأصبح جمعهم بُورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا. هذه عاد قد

---

(١) رواه البخارى وأحمد والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٤٥٧٩).

(٢) رواه أحمد فى الزهد والطبرانى فى الكبير والبيهقى عن ابن عمرو، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٤٥).

ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً. فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

يا ذا المؤمل آمالاً وإن بَعُدت ... منه ويزعم أن يحظى بأقصاها

أنَّى تفوز بما ترجوه ويْكَ وما ... أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل، وصدق رضى الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة[١].

وقال علىّ ـ رضى الله عنه ـ: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة.

وجاء فى الأثر: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا[٢].

* أقام معروف الصلاة، ثم قال لمحمد بن أبى توبة: تقدَّم، فقال: إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى، نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل[٣].

* وقيل لإبراهيم بن عيسى اليشكرى كيف أصبحت؟ فقال: «أصبحت فى أجل منقوص وعمل محفوظ والموت فى رقابنا والقيامة من ورائنا ولا ندرى ما يفعل الله بنا»[٤].

* وعن سلمة بن بشير أن أبا هريرة رضى الله عنه بكى فى مرضه فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكى لبعد سفرى، وقلة زادى وأنى أصبحت فى صعود مهبطه على جنة أو نار فلا أدرى إلى أيتها يسلك بى»[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى (١٠/ ٧ ـ ٨) ط. دار الحديث.
(٢) أختاه إنما أنت أيام/ للمصنف (ص: ٥٣: ٥٦).
(٣) الزهد الكبير (ص: ٢٣٨).
(٤) الزهد الكبير (ص: ٢٤٩).
(٥) الزهد الكبير (ص: ٢٤٨).

* وقال حاتم: ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ما تأكل وما تلبس، وأين تسكن؟ فأقول: آكل الموت وألبس الكفن، وأسكن القبر، قال ـ رحمه الله ـ: الزم خدمة مولاك تأتيك الدنيا راغمة، والجنة عاشقة.

* قالت رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى: ما رأيت ثلجًا قط إلا ذكرت تطاير الصحف، ولا رأيت جرادًا قط إلا ذكرت الحشر، ولا سمعت أذانًا قط إلا ذكرت منادى القيامة، قالت: وقلت لنفسى: كونى فى الدنيا بمنزلة الطير الواقع حتى يأتيك قضاءه.

* وقال الحسن: حقيقٌ على من كان الموت موعده، والقبر مورده والحساب مشهده، أن يطول بكاؤه وحزنه.

* وقال الفضيل بن عياض: كفى بالله محبًا وبالقرآن مؤنسًا وبالموت واعظًا وكفى بخشية الله علمًا والاغترار بالله جهلاً.

* نظر الحسن إلى ميت يُدفن فقال: والله إن أمرًا هذا أوله لحرى أن يخاف آخره، وإن أمرًا هذا آخره لحرى أن يزهد فى أوله.

* وقال ابن عيينة: أوحش ما يكون ابن آدم فى ثلاثة مواطن: فى يوم ولد فيخرج إلى دارهم، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانًا لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهدًا لم ير مثله قط، قال الله تعالى ليحيى بن زكريا فى هذه المواطن: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم:١٥)[١].

* وكانت إحدى العابدات إذا أصبحت قالت: يا نفس هذا اليوم ساعدينى يومى هذا فلعلك لا ترين بياض يوم أبدًا، وإذا أمست، قالت: يا نفس هذه الليلة ساعدينى ليلتى هذه فلعلك لا ترين سواد ليلة أبدًا فما زالت تخدع وتدفع يومها بليلها وليلها بنهارها حتى ماتت على ذلك[٢].

* وقالوا للفضيل بن عياض: يا أبا على كم سنك؟ فقال:

بلغت الثمانين أو جزتها	فماذا أؤمل أو أنتظر
أتت لى ثمانون من مولدى	ودون الثمانين ما يعتبر
علتنى السنون فأبليننى	فرقَّت عظامى وكلَّ البصر

(١، ٢) الزهد الكبير (ص: ٢٥٤).

* وكان الحسن إذا أمسى يقول:

وما الدنيا بباقية لحي ... وما حيٌّ على الدنيا بباق

• اغتنم خمسًا قبل خمسٍ •

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمك، وصحتكَ قبل سُقمِك، وغناكَ قبل فَقْرِك، وفَراغك قبل شُغُلك، وحياتك قبل موتك»[(١)].

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[(٢)].

* وأنشد أبو عبد الله بن أيوب:

اغتنم فى الفراغ فَضْلَ ركوعٍ ... فعسى أن يكون موتك بَغْتَهْ

كم صحيح رأيت من غير سقمٍ ... ذهبتْ نفسهُ الصحيحة فَلْتَه[(٣)]

* وعن ميمون بن مهران أنه قال: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز يومًا وعنده سابق البربرى الشاعر وهو ينشد شعرًا، فانتهى بشعره إلى هذه الأبيات:

وكم من صحيحٍ باتَ للموت آمنًا ... أتته المنايا بغتةً بعدما هجعْ

ولم يستطع إذ جاءه الموت بغتةً ... فرارًا ولا منه بقوته امتَنَعْ

فأصبح تبكيه النساء مقنَّعًا ... ولا يسمعُ الداعى وإن صوتَه رفَعْ

وقُرِّب من لحد صار مقيلَهُ ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جَمَعْ

ولا يترك الموتَ الغنىَّ لماله ... ولا مُعْدَمًا فى الحال ذا حاجة يَدَعْ

قال: فلم يزل عمر رضى الله عنه يبكى ويضطرب، حتى غُشى عليه[(٤)].

* وعن صالح بن موسى الطلحى عن أبيه قال: اجتهد الأشعرى قبل موته اجتهادًا

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٢) أخرجه البخارى/ كتاب الرقاق - باب: الصحة والفراغ.

(٣) الزهد الكبير/ للبيهقى (ص: ٢٣٥).

(٤) الزهد الكبير (ص: ٢٦٣).

شديدًا، فقيل له: لو أمسكت أو رفقتَ بنفسك بعض الرفق؟

فقال: إن الخيلِ إذا أُرسلت فقاربتْ رأسَ مجراها، أخرجتْ جميعَ ما عندها، والذى بقى من أجَلى أقلُّ من ذلك!.

قال: فلم يزل على ذلك حتى مات(١).

* وكان الحسن يقول فى موعظته: المبادرة عبادة، المبادرة! فإنما هى الأنفاس، لو قد حُبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تقرَّبون بها إلى الله عز وجل.

رحم الله امرءًا نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية:

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ .

ثم يبكى ويقول: آخر العدد خروجُ نفسك... آخر العدد فراق أهلك.

آخر العدد دخولك فى قبرك(٢).

* وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

التؤدة فى كل شىء خير، إلا فى أمر الآخرة(٣).

* وعن عبد الواحد بن صفوان قال: كنا مع الحسن فى جنازة، فقال: رحم الله امرءًا عمل لمثل هذا اليوم. إنكم اليوم تَقْدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور. فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب(٤).

• الأمر أعجل من ذلك •

* عن هشام بن يحيى الغسانى، عن أبيه أنه قال: ما نمتُ يومًا قطُّ فحدثتُ نفسى أنى أستيقظُ منه!

* عن الحسن قال: قيل: يا أبا سعيد، ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك!(٥).

(١) قصر الأمل (ص: ١٠٨) وإحياء علوم الدين (٤/ ٦٦٩).
(٢) الإحياء (٤/ ٦٦٨).
(٣) الزهد/ للإمام أحمد (١/ ٢٩).
(٤) قصر الأمل (ص: ١٠٥).
(٥) قصر الأمل (ص: ٤٥).

* وكان حبيب يقول لزوجته: إن متُّ في اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني، وافعلي كذا، واصنعي كذا. فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هذا يقوله في كل يوم[(١)].

* ويقول شميط بن عجلان: طالت آمالكم، فجدَّدتم منازلكم من الدنيا، وطيبتم منها معايشكم، وتلذَّذتم فيها بطيبِ الطعام، ولين اللباس، كأنكم للدنيا خُلقتم! أوَ لا تعلمون أن الموت أمامكم؟ أولاَ تعلمون أن ملَكَ الموت موكَّل بآجالكم، لا يذهب عنه من المدة شيء؟.

ثم يقول: لا تكونوا ـ رحمكم الله ـ أقلَّ شيء بالموت اكتراثًا، وأعظمَ شي عن الموت غفلة، فما ينتظر الحيُّ إلا الموت! وما ينتظر المسافرُ إلا الظَّعن[(٢)].

* وعن سلمان الفارسي قال: ثلاثٌ أعجبتني، ثم أضحكتني! مؤمِّلُ الدنيا والموتُ يطلبه، وغافلٌ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ ملء فيه ولا يدري أساخطٌ ربُّ العالمين عليه أم راضٍ عنه.

وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني: فراقُ محمد ﷺ وحزبه والأحبة، وهولُ المطلع، والوقوفُ بين يدي ربي، لا أدري إلى الجنة يُؤمَرُ بي أو إلى النار!

* وعن إبراهيم بن نَشيط قال: قال لي أبو زُرعة الشامي:

لأقولنَّ لك قولاً ما قلتهُ لأحدٍ سواك!

ما خرجتُ من المسجد منذ عشرين سنة فحدثتُ نفسي أن أرجع إليه[(٣)].

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ والشمسُ على أطراف السَّعَف، فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا إلى ما مضى منه»[(٤)].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثْتُ أنا والساعة كهاتين»[(٥)].

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٣٢٠).

(٢) قصر الأمل (ص: ٥٨).

(٣) قصر الأمل (ص: ٦٠).

(٤) قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» بإسناد حسن.

(٥) أخرجه البخاري (٧/ ١٩١) وابن ماجه (٢/ ١٣٤١) (٤٠٤٠).

* وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال: «مالى وللدنيا وما للدنيا ومالى والذى نفسى بيده ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يومٍ صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح وتركها»[١].

* وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

وقال: إذا سرَّك أن تنظر إلى الدنيا بعدك، فانظر إليها بعد غيرك[٢].

* أين من جمع الأموال وتمولها، وطاف البلاد وجولها، وشق أنهار الأرض وجدولها رأت والله كل عاملة عملها، ونزلت بعد سفرها منزلها، عنت الوجوه على جسور المنايا الحوابس وأذل قبر الموت الشوامس[٣].

• كلمات من ذهب •

* عن صالح بن رستم قال: سمعت الحسن يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس: ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك وتُبعث وحدك وتحاسب وحدك ابن آم وأنت المعنى وإياك يُراد[٤].

* وكان يقول: حقيقٌ على من عرف أن الموت مورده، والقيامة موعده والوقوف بين يدى الجبار مشهده أن تطول فى الدنيا حسرته، وفى العمل الصالح رغبته».

* وعن هاشم عن الحسن قال: ما أكثر عبدٌ ذكر الموت إلا رأى ذلك فى عمله ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[٥].

* وعاد الحسن عليلاً فوافقه وهو فى الموت، ورأى تقلبه وشدة ما نزل به فلما رجع إلى داره قدموا له طعامًا فقال: عليكم بطعامكم وشرابكم فإنى رأيت مصرعًا لا بُد لى منه ولا أزال أعمل حتى ألقاه وتأخر عن الطعام أيامًا حتى لُطف به فأكل[٦].

* وكان يقول: عباد الله إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت فعليكم

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٩).
(٢) الزهد/ للحسن البصرى (ص: ٨٢).
(٣) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٣١٣).
(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٥٥).
(٥) الزهد/ للإمام أحمد (٢٣٦).
(٦) الحسن البصرى (ص: ٩٠).

بالمداومة فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩).

* وقال صالح المرى: دخلت على الحسن يومًا فوجدته ينشد:

ليس من مات فاستراح بميتٍ ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من تراه كئيبًا ... كاسفًا باله قليل الرجاء

* ورأى الحسن شيخًا فى جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ أسألك بربك أتظن أن هذا الميت يود أن يُرد إلى الدنيا فيزيد من عمله الصالح ويستغفر الله من ذنوبه السالفة؟ فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول:

أى موعظة؟ وما أنفعها لو كان بالقلوب حياة، ولكن لا حياة لمن تنادى.

• وفى ذلك فليتنافس المتنافسون •

أيها الغافل ربح القوم وخسرت، وساروا إلى الحبيب وما سرت، وقاموا بالأوامر وضيعت ما به أُمرت، وسلموا من رق الهوى واغتررت فأُسرت، فالدنيا تخدمهم والسعادة تقدمهم حين يحشرون ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

لقد شُوقتم إلى الفضائل فما اشتقتم، وزجرتم عن الرذائل وأنتم فى سُكر الهوى ما أفقتم، فلو حاسبتم أنفسكم وحققتم، علمتم أنكم بغير وثيق توثقتم، فاطلبوا الخلاص من أسر الهوى فقد جد الطالبون ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا، واستعمل فى طاعته جميع جوارحنا، ولا جعلنا ممن يرضى بدون، ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [(١)].

أيا مـن يدَّعى الفهْمْ إلى كم يا أخـا الوهْمْ تعبِّى الذنب والذّمُ
وتُخطى الخطـأ الجَمْ

أمـا بان لك العيْبْ، أمــا أنذرك الشّيْبْ وما فى نُصحـه ريْبْ
ولا سَمْعُك قـد صمْ

(١) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٢٨٦).

أما نادى بك الموتْ أما أسمعك الصوْت أما تخشى من الفوْتْ
فتحتـــاط وتهتمْ
فكم تَسدرُ فى السَّهْوْ وتختالُ من الزَّهْوْ وتنصبُّ إلى اللهُــوُ
كأنَّ المـوتَ مــا عَمْ
كأنى بِكَ تَنْحَطّ إلى اللَّحْـدِ وتَنْغَطّ وقــد أسلمكَ الرَّهْطَ
إلى أضْيقَ منْ سَمْ
هناكَ الجِسمُ مَمْـدودْ ليستأكلَهُ الدُّودْ إلى أنْ ينخر العُــود
ويُمسِى العَظْمُ قد رَمْ
ومَنْ بعـد فلا بد من العرض إذا اعتُـدَ صِراطٌ جسْرُهُ مُـد
على النَّـارِ لمنْ أمْ
فَبادر أيها الغُمْرْ[1] لما يَحلُو به المُرّ فقـدْ كـادَ يَهى العُمرُ
ومـا أقلعتَ عن ذَمْ
ولا تركنْ إلى الدهر وإن لان وإنْ سَرّ فَتُلْقَى كَمَن اغترَ
بأفْعى تَنفُثُ السُّمْ
وخَفِّضْ من ترَافيكْ فإنَّ المـوت لاقيكْ وسَارٍ فى تراقيك
ومـا يَنكُلُ إنْ هَمْ
وزود نفسَكَ الخَيرْ ودَعْ ما يُعقبُ الضَّيْرْ[2] وهَيِّ مَركبَ السَّيرْ
وخَفْ من لُجَّة اليمْ
بِذا أُوصيتُ يَا صَاحْ وقد بُحْتُ كَمنْ بَاحْ فَطُوبَى لِفَتىً رَاحْ
بذكر المـوتِ يَهْتَمْ

***

(١) الجاهل الذى لم يجرب الأمور.
(٢) يقال: ضاره يضيره ضيراً إذا ضره.

• يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه •

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه، يا غافلاً عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعيًا إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذى له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صَرفَيْه، كم عايَن ميتًا لو اعتبر بعينيه، إنما أغار على شبابه هاجمٌ على فَوديه، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خيه؟ يا من يصير عن قليل إلى حُفْرة، تنبّه لنفسك من هذه السَّكرة، لو أنك تذكَّرت لحدك.

• أين الأحباب •

سألت الدار تخبرني ... عن الأحباب ما فعلوا

فقالت لي أناخ القو ... مُ أيامًا وقد رحلوا

فقلت فأين أطلبهم ... وأى منازلٍ نزلوا

فقالت بالقبور وقد ... لقوا والله ما فعلوا

أُناسٌ غرَّهم أملُ ... فبادرهم به الأجلُ

فنوا وبقى على الأيا ... مِ ما قالوا وما عملوا

وأُثبت في صحائفهم ... قبيحُ الفعل والزللُ

فلا يُستعتبون ولا ... لهم ملجأ ولا حيلُ

ندامى في قبورهم ... وما يغنى وقد حصلوا

• يا ناسى الموت وهو يذكره •

كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك، ونقض منزلك وهم مَشيبك، ومزَّق مالك وفرق عبيدك، وأخلى دارك وملأ بيدَك، أما رأيت قَرينك؟ أما أبصرت فقيدك؟. أين الوالدون وما ولدوا، أين الجبارون وأين ما قصدوا، أين أرباب المعاصى على ماذا وردوا، أما جَنوا ثمرات ما جنوا وحصدوا، أما قدموا على أعمالهم فى مآلهم، ووفَدُوا، أما خَلَوا فى ظلمات القَبور؟ بكوا والله وانفردوا، أما ذلوا وقَلُّوا بعد أن عَتوا ومَردُوا، أما طلبوا زادًا يكفى فى طريقهم ففقدوا، أما حلَّ الموتُ فَحلَّ عقد ما عقدوا، عاينوا والله كلَّ ما قَدَّموا ووجدوا، فمنهم أقوامٌ شقُوا وأقوامُ سَعِدوا.

• كيف يغفل من لا يُغفل عنه •

* يا عجبًا أنس بالدنيا مفارقها، وأمن النارَ واردُها، كيف يغفل من لا يُغفل عنه، كيف يفرح بالدنيا من يومُه يهدم شهرَه، وشهره يهدم سَنته وسنَته تَهدْم عُمره، كيف يلهو من يقوده عمُره إلى أجله وحياته إلى موته؟!.

• إنكم لم تخلقوا عبثًا ولن تتركوا سُدى •

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (القيامة:٣٦: ٤٠).

* عن القعقاع بن عجلان قال: خطب عمر بن عبد العزيز، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، إنكم لم تُخْلَقوا عبثًا، ولن تُتركوا سُدى. وإن لكم معاداً يجمعكم الله للحكم فيكم والفصل فيما بينكم، فخاب وشقى عبدٌ أخرجه الله من رحمته التى وسعت كلَّ شيء، وجنته التى عرضُها السماواتُ والأرض. وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف الله واتقى، وباع قليلاً بكثير، وفانيًا بباق، وشقْوةً بسعادة.

ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وسيخلفه بعدكم الباقون؟

ألا ترون أنكم فى كلِّ يوم تشيِّعون غاديًا أو رائحًا إلى الله، قد قضى نحبه، وانقطع أملُه، فيضعونه فى بطنِ صدعٍ من الأرض، غير موسد ولا ممهد؟ قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وراجه الحسابَ؟

وأيمُ الله إنى لأقول لكم مقالتى هذه، وما أعلمُ أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى، ولكنها سننٌ من الله عادلةٌ، أمرَ فيها بطاعته، ونهى فيها عن معصيته. وأستغفر الله.

ووضع كُمَّهُ على وجهه، فبكى حتى لثقت لحيته، فما عاد إلى مجلسه حتى مات ـ رحمه الله ـ [١].

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٥)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٦٣).

• مضى عمرك فى غير شىء •

يا حريصًا على الدنيا مضى عمرك فى غير شىء، وانقشع غيم الزمان لا عن هلال الهدى، مالذَّت الدنيا إلا لكافر لا يؤمن بالآخرة، أو لقليل العقل لا ينظر فى عاقبة، الدنيا خراب وأخرب منها قلب من يعمرها، إلى أى حين مع الصبا، أما يكفى ما قد مضى، إلى كم هذا الكرى أين التيقظ لحلول الثرى، كم قد قتل قبلك المنى وإنما يفهم أولو النهى يا أسير رقاده يا مريض فساده، يا معرضا عن رساه، يا من حب الدنيا فى سواد سواده، ما ينفعه النصح على كثرة ترداده.

فكم من صحيح بات للموت آمنًا ... أتته المنايا بغتة بعدما هجع
فلم يستطع إذ جاءه فجأة ... فرارًا ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مقنعا ... ولا يسمع الداعى وإن صوته رفع
وقُرب من لحدٍ فصار مقيله ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع[1]

• حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية •

* قال إبراهيم بن أدهم: قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف العبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب... الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط مُعذَّب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب يُحبط عمله[2].

• كم تركوا من جناتٍ وعيون •

* عن أبى بكر بن عياش قال:

لَمَّا دخل الناسُ مع على المدائن تمَثَّل رجلٌ من أصحابه:

جرتِ الرياح على مكان ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
وإذا النعيم وكل ما يُلهى به ... يومًا يصير إلى بلىً ونفاد

---

(١) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٣٨٦).

(٢) الإحياء (٤/ ٣٣٦).

فقال علي: لا تقل هكذا، ولكن قل كما قال الله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الدخان:٢٥ ـ ٢٨). إن هؤلاء القوم كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء القوم استحلوا فحلَّت بهم النِّقم، فلا تستحلوا الحرام فتحلَّ بكم النَّقم[١].

* وقال أحدهم:

يا أيها الباني الناسي منيَّته ... لا تأمنَنَّ فإن الموتَ مكتوبُ
على الخلائق إن سرُّوا وإن فرحوا ... فالموتُ حتفٌ لذي الآمال منصوبُ
لا تبنينَّ ديارًا لست تسكُنها ... وراجعْ لنفسك فيما يُغفَر الحوب[٢]

* وكان عمر بن عبد العزيز لا يبنى بنيانًا وقال: سنة رسول الله ﷺ خيرٌ من الدنيا وما فيها، لم يبنِ بنيانًا، ولم يضع لَبنة على لَبنة، ولا قصبة على قصبة[٣].

* وعن وهب بن منبِّه قال: لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله ليس له بيت يسكن فيه. فقيل له: يا نبى الله، لو اتخذت بيتًا يكنُّك.

قال: اليوم أموت، غدًا أموت. حتى أتاه الموت ولم يتخذ بيتًا![٤].

• موعظة بليغة •

* أيها الناس تقوَّواْ بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من النار الموقدة التى تَطَّلع على الأفئدة، فإنكم فى دار الثَّواءُ فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلَّون وخلائف من بعد القرون، الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارًا وأمدَّ أجسامًا وأعظم آثارًا، فجدّدوا الجبال وجابُوا الصخور، ونقَّبوا فى البلاد مؤيَّدين ببطش شديد وأجسام كالعمَاد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مُدتَّهم، وعفَّت آثارهم، وأخْوت منازلهم، وأَنْست ذكرهم، فما تُحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم رِكزًا. كانوا بلهو الأمل آمنيْن كبيَات قومٍ غافلين، أو كصباح قومٍ نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذى قد

(١) قصر الأمل (ص: ٢٠٦: ٢٠٧).
(٢) قصر الأمل (ص: ١٧٥).
(٣) وكذا رواه الحسن البصرى مرسلاً.
(٤) قصر الأمل (ص: ١٦٧).

نزل بساحتهم بَيَاتًا فأصبح كثير منهم فى ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون فى آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم.

* قال ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ:

اصبر لُمر حوادث الدهر ... فلتحمدنّ مغبة الصبرِ
واجهد لنفسك قبل ميتتها ... واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأن أهلك قد دعوك فلم ... تسمع وأنت محشرج الصدر
وكأنهم قد قلبوك على ظهر ... السرير وأنت لا تدرى
وكأنهم قد زودوك بما ... يتزود الهلكى من العطر
يا ليت شعرى كيف أنت إذا ... غُسِّلت بالكافور والسدر
يا ليت شعرى كيف أنت على ... بنش الضريح وظلمة القبر
يا ليت شعرى ما أقول إذا ... وُضع الكتاب صبيحة الحشر
ما حُجتى فيما أتيت على ... علم ومعرفة وما عذرى
يا سوأتا مما اكتسبت ويا ... أسفى على ما فات من عمرى
ألا أكون عقلت شأنى فاسـ ... ـتقبلت ما استدبرت من أمرى

• لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه •

* قال يحيى بن معاذ: «لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه»[1].

* وعن الحسن قال: الدنيا ثلاثة أيام: أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غدًا فلعلك لا تدركه، فاليوم لك فاعمل فيه.

* وقال روح بن مدرك وهو على المنبر: الآن قبل أن تسقم فتضنى، وتهرم فتبلى، ثم تموت فتنسى، ثم تقبر فتبلى، ثم تُبعث فتحيى، ثم تحضر فتدعى، ثم توقف فتجزى، بما قدمت وأمضيت، وأذهبت فأفنيت من موبقات سيئاتك، ومتلفات شهواتك فالآن الآن وأنتم سالمون[2].

---

(١) الزهد الكبير (ص: ٢٥٥).
(٢) الزهد الكبير (ص: ٢٣٥).

• رحم الله أعظماً نصبت فى الطاعة •

رحم الله أعظما نُصبت فى الطاعة وانتصبت، جَنّ عليها الليل فلما تمكّن وثبت كلما ذكرت جهنم رهبت وهربت، وكلما تصورت ذنوبها ناحت عليها وندبت.

كان ابن مسعود يبكى حتى أخذ بكفيه من دموعه فرمى بها، وكان عبد الله ابن عمر يبكى حتى نشفت دموعه وقلصت عيناه. وبكى هشام الدستوائى حتى فسدت عينه، كانت مفتوحة لا يبصر لها، وكان الفضيل قد ألف البكاء فربما بكى فى نومه فيسمعه أهل الدار.

بكى الباكون للرحمن ليلاً ... وباتوا دمعهم لا يسأمونا
بقاع الأرض من شوق إليهم ... تحن متى عليها يسجدونا[1]

• رحم الله عبداً عمل لساعة الموت •

* يقول شميط بن عجلان:

أيها المغترُّ بطول صحته، أما رأيت ميتًا قطُّ من غير سقم؟

أيها المغترُّ بطول المهلة، أما رأيت مأخوذًا من غير عُدة؟

إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدَّم من لذاتك.

أبالصحة تغترُّون؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترؤون؟!

إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروةُ مالك، ولا كثرة احتشادك.

أما علمت أن ساعة الموت ذاتُ كربٍ وغُصص وندامة على التفريط؟

ثم يقول:

رحم الله عبداً عمل لساعة الموت.

رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت.

رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت[2].

---

(١) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ٣٦٤).

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٤٧)، «قصر الأمل» ص (٦٢).

• لقد كنت فى غفلة من هذا •

قال ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ:

كأنك بالعمر قد انقرض، وهَجم عليك المرض، وفات كلُّ مراد وغرض، وإذا بالتلف قد عَرض أخَّاذا: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

شخَص البصرُ وسكن الصَّوْت، ولم يمكن التداركُ للفوْت، ونزل بك ملَك الموت فسامَت الروُّح وحاذى: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

عالجت أشدَّ الشدائد، فيا عجبًا مما تُكابد، كأنك قد سُقيت سُمَّ الأساود فقطَّع أفْلاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

بلغت الروحُ إلى التراقى، ولم تعرف الراقى من الساقى، ولم تدر عند الرحيل ما تلاقى، عِياذا بالله عياذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

ثم درجوك فى الكفن وحملوك إلى بيت العفَن، على العيب القبيح والأفَن، وإذا الحبيب من التراب قد حَفَن، وصرت فى القبر جُذاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

وتسربت عنك الأقارب تسرى، تقدُّ فى مالك وتَفْرِى، وغايةُ أمرهم أن تجرى دموعهم رذاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

قفلوا الأقفال وبضَّعوا البضاعة، ونسَوا ذكرك يا حبيبهم بعد ساعة وبقيت هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد وزرًا ولا معاذا ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

ثم قمت من قبرك فقيرًا، لا تملك من المال نَقيرًا، أصبحت بالذنوب عَقيرًا، فلو قدَّمت من الخير حقيرًا صار ملجأ وملاذًا، ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ .

كم يومٍ غابت شمسه وقلبك غائب، وكم ظلام أُسبل ستْرهَ وأنت فى عجائب، وكم أُسبغت علَيك نعمه وأنت للمعاصى تُواثبْ، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب، وكم يُنذرك سَلَب رفيقك وأنت لاعبْ، يا من يأمن الإقامةَ قد زُمَّت الركائب، أفق من سَكرتك قبل حسرتك على المعايب، وتذكَّر نزولَ حُفْرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائب، وبادر تحصيل الفضائل قبل فوت المطالب، فالسائق حثيث والحادى مُجدٌّ والموت طالب.

❊ ❊ ❊

الطريق إلى حسن الخاتمة

• علامات حُسن الخاتمة •

قال الشيخ الألبانى فى «أحكام الجنائز»[١].

«إن الشارع الحكيم قد جعل علامات بيِّنات يُستدل بها على حُسن الخاتمة، كتبها الله تعالى لنا بفضله ومنِّه، فأيما امرئٌ مات بإحداها كانت بشارة له، ويا لها من بشارة.

• **الأولى: نطقه بالشهادة عند الموت:**

قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[٢].

* وعن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال: «رأى عمر طلحة بن عبيد الله ثقيلاً فقال: مالك يا أبا فلان؟ لعلك ساءتك امرأة عمك يا أبا فلان؟ قال: لا (وأثنى على أبى بكر) إلا أنى سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا ما منعنى أن أسأله عنه إلا القدرة عليه حتى مات سمعته يقول: إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفَّس الله عنه كربته، فقال عمر: إنى لأعلم ما هى: قال: وما هى؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلا الله؟ قال طلحة: صدقت، هى والله هى[٣].

• **الثانية: الموت برشح الجبين:**

لحديث بريدة بن الخطيب رضى الله عنه: أنه كان بخراسان فعاد أخًا له وهو مريض فوجده بالموت، وإذا هو يعرق جبينه فقال الله أكبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موت المؤمن بعرق الجبين..»[٤].

---

(١) سنذكر كلام الشيخ مختصراً وسنزيد عليه بإذن الله.

(٢) رواه أبو داود وحسنه الألبانى فى الإرواء (٦٨٦).

(٣) رواه أحمد والحاكم، وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٤) رواه أحمد وحسنه الحاكم (١/ ٣٦١) ووافقه الذهبى.

● **الثالثة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها:**

لقوله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر...»(١).

● **الرابعة: الاستشهاد في ساحة القتال:**

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:١٦٩:١٧١).

وقال ﷺ: «للشهيد عند الله سبعُ خصال: يُغفرُ له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى حُلة الإيمان، ويُزوجُ اثنينَ وسبعين زوجةً من الحور العين، ويُجارُ من عذاب القبرِ، ويأمنُ من الفزع الأكبر، ويُوضعُ على رأسه تاجُ الوقارِ، الياقوتة منهُ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويشفعُ في سبعين إنسانًا من أهلِ بيته»(٢).

* وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله! ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(٣).

● **قال الشيخ الألباني (رحمه الله):**

(تنبيه): ترجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصًا من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد في المعركة، بدليل قوله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»(٤).

● **الخامسة والسادسة والسابعة: من صُرع عن دابته في سبيل الله ومن وقصه بعيره ومن لدغته هامة وهو في سبيل الله:**

* عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صُرِع عن دابته فهو شهيد»(٥).

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٣).

(٢) رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٨٢).

(٣) رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٣).

(٤) رواه مسلم (١٩٠٩)، وأبو داود (١٥٢٠)، والترمذي (١٦٥٣)، وابن ماجه (٢٧٩٧).

(٥) رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٣٦).

* عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فصل فى سبيل الله فمات، أو قُتل، أو وَقَصَتْه فرسُه أو بعيرُه، أو لدغته هامةٌ، أو مات على فراشه، بأىِّ حتفٍ شاء الله، فإنه شهيد، وإن له الجنة»[١].

• **قال المناوى فى «فيض القدير» (٦/١٦٣):**

و«من صُرِع عن دابته» فى سبيل الله فمات «فهو شهيد» أى: من شهداء المعركة إن كان سقوطه بسبب القتال، وعلى ذلك ترجم البخارى (باب فضل من صُرِع فى سبيل الله فمات فهو منهم)، أى: من المجاهدين، فلمّا كان الحديث ليس على شرطه، أشار إليه بالترجمة، وفى الباب ما رواه أبو داود، والحاكم، والطبرانى عن أبى مالك الأشعرى مرفوعًا. والصرع، كما فى القاموس وغيره: الطَّرْح على الأرض، وعلةٌ معروفة، والمراد: بالحديث السقوط عن الدابة حال قتال الكفار بسبب أى وجه كان؛ إما بطرح الدابة له، أو بعروض تلك العلَّة فى تلك الحالة عروضًا ناشئًا عن القتال، كأن أورثه شدة الانفعال».

• **الثامنة: من سأل الله الشهادة بصدقٍ ومات على ذلك:**

قال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[٢].

* وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل الله القتل فى سبيل الله، صادقًا من قلبه، أعطاه الله أجر شهيد، وإن مات على فراشه»[٣].

• **التاسعة والعاشرة: المائد فى البحر والغريق:**

المائد هو الذى يموت بسبب دوار البحر فله أجر شهيد.

* عن أم حرام رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «للمائد أجرُ شهيد، وللغريقِ أجرُ شهيدين»[٤].

* وعن أم حرام رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «المائدُ فى البحر الذى يُصيبه القىءُ له أجرُ شهيد، والغريق له أجر شهيدين»[٥].

---

(١) رواه أبو داود والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١٣).
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى.
(٣) رواه الترمذى وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٧٧).
(٤) رواه الطبرانى فى الكبير، وأبو داود ـ صحيح الجامع (٥١٨٧).
(٥) رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٢).

● **الحادية عشر: من افترسه السبع:**

* عن ابن قانع، عن ربيع الأنصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «الطَّعن والطاعون والهدم، وأكل السبع، والغرق، والحرق، والبطن، وذات الجنب - شهادةٌ»[1].

● **الثانية عشر: الشريق:**

قال ابن الأثير فى «النهاية»: هو الذى يشرق بالماء فيموت.

قال ابن حجر فى «الفتح» (٥٢/٦): «وللطبرانى من حديث ابن عباس مرفوعًا: «المرء يموت على فراشه فى سبيل الله شهيد». وقال ذلك أيضًا فى المبطون واللديغ والغريق والشريق والذى يفترسه السبع، والخارّ عن دابته، وصاحب الهدم، وذات الجنب».

● **الثالثة عشر: القابض على دينه فى وقت الفتن:**

* عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن من ورائكم زمانَ صبر، للمتمسك فيه أجرُ خمسين شهيداً منكم»[2].

* وعن عتبة بن غزوان، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من ورائكم أيامَ الصبر، للمتمسك فيهنَّ يومئذ بما أنتم عليه، أجرُ خمسين منكم». قالوا: يا نبى الله، أو منهم؟ قال: «بل منكم»[3].

● **الرابعة عشر: من تردَّى من رؤوس الجبال:**

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «إن من يتردَّى من رؤوس الجبال وتأكله السباع ويغرق فى البحار لشهيدٌ عند الله»[4].

* قلت: وذلك لمن مات على التوحيد، أما من مات على الشرك فلا يكون شهيداً ولا يرزقه الله نعمة الشهادة.

● **الخامسة عشر: المرابط فى سبيل الله:**

* لقوله ﷺ «الرباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه

---

(١) رواه ابن قانع، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٥٣).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٣٤).

(٣) صححه الألبانى بشواهده فى الصحيحة (٤٩٤) (١/ ٢٦٨).

(٤) إسناده صحيح: أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف»، كتاب الجهاد، باب فى الشهادة (٥/ ٢٦٩)، موقوفًا بإسناد صحيح، والطبرانى فى «معجمه».

قال الحافظ فى «الفتح» (٦/ ٥٢): إسناده صحيح، وأخرجه سعيد بن منصور فى «سننه».

عمله الذى كان يعمله، وأُجرى عليه رزقه، وأَمِن الفتان»[١].

* ولقوله ﷺ: «كل ميت يُختم على عمله إلا الذى مات مرابطًا فى سبيل الله فإنه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر»[٢].

• السادسة عشر: من قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله:

قال رسول الله ﷺ: «سيِّدُ الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ، فأمره ونهاه. فقتله»[٣].

• السابعة عشر: الموت على عمل صالح:

قال ﷺ: «من خُتم له بصيام يومٍ دخل الجنة»[٤].

وقال ﷺ: «... ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله خُتم له بها دخل الجنة»[٥].

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله»، قيل: كيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت، ثم يقبضهُ عليه»[٦].

• الثامنة عشر: من دعا بدعاء يونس (عليه السلام) أربعين مرة فى مرضه:

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء: ٨٧). إنه دعاء نبى الله يونس (عليه السلام). قال رسول الله ﷺ: «أيّما مسلم دعا بها فى مرضه أربعين مرة، فمات فى مرضه ذلك، أُعطى أجر شهيد، وإن برأ، برأ وقد غُفر له جميع ذنوبه»[٧].

• التاسعة عشر: الموت بالطاعون:

قال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[٨].

* وعن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون؟ فأخبرها نبى الله ﷺ: «أنه

(١) أخرجه مسلم (١٩١٣) الإمارة ـ والترمذى (١٦٦٥) فضائل الجهاد.
(٢) رواه أبو داود والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٦٢).
(٣) رواه الحاكم والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٧٥).
(٤) رواه البزار وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٤).
(٥) رواه أحمد (٥/ ٣٩١) وقال الألبانى: وإسناده صحيح.
(٦) رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٥).
(٧) رواه الحاكم (١/ ٥٠٦) وصححه ووافقه الذهبى.
(٨) أخرجه البخارى (١٠/ ١٩٠) الطب.

كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابراً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد»(١).

● **العشرون: الموت بالهدم:**

قال ﷺ: «الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد فى سبيل الله»(٢).

● **الحادية والعشرون: الموت بداء البطن:**

* لقول رسول الله ﷺ: «... ومن مات فى البطن فهو شهيد»(٣).

* وعن عبد الله بن يسار قال: كنت جالسًا وسليمان بن صرد وخالد بن عرفطة، فذكروا أن رجلاً توفى، مات ببطنه، فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهداء جنازته فقال أحدهم للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: «من يقتله بطنه فلن يعذب فى قبره».

فقال الآخر: بلى، وفى رواية: «صدقت»(٤).

● **الثانية والعشرون: المرأة تموت فى نفاسها بسبب ولدها:**

* عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة قال: فما تحوز له عن فراشه فقال: «أتدرى من شهداء أُمَّتى؟»، قالوا: قتل المسلم شهادة قال: «إن شهداء أمتى إذًا لقليل! قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة (يجرها ولدها بسرره إلى الجنة)»(٥).

● **الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون: الموت بالحرق وذات الجنب:**

قال ﷺ: «الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله: المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذى يموت تحت الهدم

---

(١) أخرجه البخارى (١٠/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) الطب.

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٥٠) الجهاد والسير ـ ومسلم (١٩١٤) الإمارة.

(٣) رواه مسلم (١٩١٥) «الإمارة»، وأحمد (٢/ ٤١٠).

(٤) رواه النسائى، وأحمد، وقال الألبانى: وسنده صحيح.

(٥) رواه أحمد والدارمى، وقال الألبانى: وإسناده صحيح.

شهيد، والمرأة تموت بجمع[١] شهيدة»[٢].

• الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون: الموت في سبيل الدفاع عن الدين والنفس والأهل:

لقوله ﷺ «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد»[٣].

* وقال رسول الله ﷺ «من قُتل دون مظلمته فهو شهيد»[٤].

• الثامنة والعشرون: الموت في سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه:

قال ﷺ «من قُتل دون ماله» ـ وفي رواية: «من أريد ماله بغير حق فقاتل فقُتل فهو شهيد»[٥].

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺفقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك». قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني، قال: «فأنت شهيد»، قال: أرأيت إن قتلته؟، قال: «هو في النار»[٦].

* وعن مخارق رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺفقال: الرجل يأتيني فيريد مالي؟ قال: «ذكِّرهُ بالله»، قال: فإن لم يذكر؟ قال: «فاستعن عليه من حولك من المسلمين». قال: فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين؟ قال: «فاستعن عليه السلطان». قال: فإن نأى السلطان عني (وعجل عليَّ؟) قال: «قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة، أو تمنع مالك»[٧] ـ أي تحمي مالك ـ.

---

(١) هي ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأضلاع: «أي تموت وفي بطنها ولد، وقيل التي تموت بكرًا، والجمع بالضم بمعنى المجموع، كذخر بمعنى المذخور، وكسر الكسائي الجيم، والمعنى أنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة». قلت: والمراد هنا الحمل قطعًا بدليل الحديث المتقدم بلفظ «يقتلها ولدها جمعاء».

(٢) رواه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أبو داود وأحمد، وصححه أحمد شاكر.

(٤) رواه النسائي وأحمد، وصححه أحمد شاكر.

(٥) رواه البخاري (٥/ ١٤٧)، والنسائي (٧/ ١١٦) الجنائز.

(٦) رواه مسلم (١٤٠) الإيمان، والنسائي (٧/ ١١٤) الجنائز.

(٧) رواه النسائي وأحمد، وقال الألباني: وسنده صحيح.

• التاسعة والعشرون: الموت غازيًا فى سبيل الله:

لقوله ﷺ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟»، قالوا: يا رسول الله من قُتل فى سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتى إذًا قليلٌ»، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قُتل فى سبيل الله فهو شهيدٌ، ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد، ومن مات فى الطاعون فهو شهيد، والغريق شهيد..»[(١)].

• الثلاثون: الموت بداء السل:

قال ﷺ: «القتل فى سبيل الله شهادة، والنفساء شهادة، والحرق شهادة، والغرق شهادة، والسل شهادة، والبطن شهادة»[(٢)].

• الحادية والثلاثون: الموت بالمدينة المنورة:

* عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإنى أشفع لمن يموت بها»[(٣)].

* فاللهم ارزقنا شهادةً فى سبيلك وأن نُدفن فى بلد حبيبك ﷺ .

• أسباب حسن الخاتمة •

(١) إقامة التوحيد لله (جل وعلا):

إن أمر العقيدة ليس أمرًا ثانويًا حتى نؤجله أو نؤخره، بل هو الأساس الذى يقوم عليه الدين كله... فالإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة وتلك الشريعة تنظم شئون الحياة ولا يقبل الله من قومٍ شريعتهم حتى تصحَّ عقيدتهم.

قال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌ والنارَ حق أدخله الله الجنة علىَ ما كان من العمل»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٥) الإمارة ـ وأحمد (٢/ ٣١٠).

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٣١٧) رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه مندل بن على، وفيه كلام كثير، وقد وُثق، وقال الألبانى: ويشهد له حديث راشد بن حبيش.

(٣) رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٥٤).

(٤) أخرجه البخارى (٣٤٣٥) كتاب الأنبياء ـ ومسلم (٢٨) الإيمان.

وفى حديث عتبان بن مالك «فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»[١].

وقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» قال الحافظ: معنى قوله: «على ما كان من العمل» أى من صلاح أو فساد؛ لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات.

* قال ﷺ: «المسلم إذا سُئل فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾»[٢].

فيا عبد الله أقم التوحيد لله فى قلبك فإنك سوف تجنى ثمراته فى حياتك وعند موتك وفى قبرك ويوم حشرك وسيقودك التوحيد لله جل وعلا إلى جنات النعيم وإلى رضوان الله (سبحانه وتعالى).

(٢) التقوى:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢). وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:١٩٧).

فالتقوى من أعظم الأسباب التى تقود المؤمن إلى حُسن الخاتمة.

فهى سبب لتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩).

وهى سبب لقبول الأعمال.. قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (المائدة:٢٧).

وهى سبب للخروج من كل ضيق كما قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (الطلاق:٢، ٣)، ولا شك أن العبد عند السكرات يكون فى ضيق وشدة فتكون التقوى سببًا لنجاته.

والتقوى سبب لتيسير السكرات على العبد المؤمن.. قال تعالى: ﴿ومن يتق الله

(١) أخرجه البخارى (٣٢٥) كتاب الصلاة ـ ومسلم (٢٦٣) المساجد.

(٢) متفق عليه عن البراء بن عازب.

يجعل له من أمره يسرًا﴾ (الطلاق:٤).

والتقوى سبب للنجاة من المهالك.. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم:٧١، ٧٢).

وهى سبب لدخول الجنة.. قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ (مريم:٦٣).

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم[١]: (وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين من يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه). اهـ.

وقال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[٢].

* وجاء سائل لأبى هريرة رضى الله عنه يسأله عن التقوى فقال أبو هريرة: «هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال السائل: نعم، قال أبو هريرة: فكيف صنعت؟ قال السائل: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه.

قال أبو هريرة: ذاك التقوى.

فأخذ ابن المعتز هذا المعنى الكبير وترجمه فى هذه الأبيات المعبرة فقال:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التُّقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

* وحد التقوى الذى حده عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: «أن يطاع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر»[٣].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨) ط. دار الرسالة.

(٢) الزهد لابن المبارك (ص: ٤٧٣).

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك موقوفًا.

(٣) الاستقامة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠:٣٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف:١٣، ١٤).

* وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: «قل: آمنتُ بالله. ثم استقم».

فالاستقامة كلمةٌ جامعة، آخذةٌ بمجامع الدّين، وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد.

ولقد سُئل صدِّيق الأمة وأعظمها استقامةً ـ أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ عن الاستقامة، فقال: أن لا تشرك بالله شيئًا. فأراد بها الاستقامة على مَحْضِ التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى، ولا تروغ روغان الثعالب.

وقال ابن تيمية (رحمه الله): أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

وقال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة، وربُّك يطالبك بالاستقامة.

فالاستقامة تتعلَّق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

* قال أبو إسحاق السبيعى: «لما احتُضر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، قال: لا تبكوا علىَّ، فإنى لم أتنطَّف بخطيئة منذ أسلمت».

لله درُّه، ثنتا عشرة سنة لم يفعل خطيئة، وحياتُه كلُّها طاعة.

«كان يصلِّى فى الصيف نصف النهار حتى تُكره الصلاة، ثم يصلِّى من الظهر إلى العصر».

• وهيب بن الورد (رحمه الله):

كان سفيان الثوريّ إذا حدّث الناس فى المسجد الحرام وفرغ من الحديث، قال: قوموا إلى الطبيب؛ يعنى: وهيبًا[١].

قال وهيب رحمه الله: إن استطعتَ أن لا يشغلك عن الله تعالى أحدٌ، فافعل.

وعن محمد بن يزيد قال: حَلَف وهيب أن لا يراه الله ولا أحدٌ من خلقه ضاحكًا، حتى يأتيه الرسل من قبَل الله عند الموت فيخبرونه بمنزله عند الله. قال: وكانوا يرون له الرؤيا أنه من أهل الجنَة، فإذا أُخبر بها اشتدً بكاؤه، وقال: قد حسبتُ أن يكون هذا من الشيطان.

عن عبد الله بن المبارك قال: قيل لوهيب بن الورد: أيجدُ طعم العبادة من يعصى الله؟ قال: لا، ولا مَن همً بمعصية.

وقال رحمه الله: لا يكون همٌّ أحدكم فى كثرة العمل، ولكن ليكن همُّه فى إحكامه وتحسينه؛ فإن العبد قد يصلِّى وهو يعصى الله فى صلاته، وقد يصوم وهو يعصى الله فى صيامه.

• أبو الطيب الطبرى (رحمه الله):

اشتهر اسمه، فملأ الأقطار. وشاع ذكره، فكان أكثر حديث السمَّار. وطاب ثناؤه، فكان أحسن من مِسْك الليل وكافور النهار.

«قال القاضى أبو بكر الشامى: قلت للقاضى أبى الطيب شيخنا ـ وقد عُمِّر ـ: لقد مُتِّعْتَ بجوارحك. فقال: لِمَ لا، والله ما عصيتُ الله بواحدة منها قط»[٢].

* وقال ابن دقيق العيد (رحمه الله): ما تكلمت بكلمة ولا فعلت فعلاً منذ أربعين سنة إلا وأعددت له جوابًا بين يدى الله (عز وجل).

* وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): إنى إلى الآن أُجدِّد إسلامى كل وقت.

ـ وهكذا تكون الاستقامة على الطاعة.. فأهل الاستقامة هم الذين تنزل عليهم الملائكة عند الموت لتبشرهم بجنة الرحمن التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا

(١) الحلية (٨/ ١٤٠).

(٢) طبقات السبكى (٥/ ١٥).

خطر على قلب بشر.

(٤) الإكثار من ذكر الموت:

فالإكثار من ذكر الموت يردع عن المعاصى ويُلَيِّن القلب القاسى. ومن أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة.

ومما يؤثر فى النفس من مشاهد الموت رؤية المحتضرين فإن فى النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته وتأمل صورته بعد مماته ما يقطع عن النفوس لذاتها ويمنع الأجفان من النوم والأبدان من الراحة ويبعث على العمل ويزيد فى الاجتهاد.

دخل الحسن البصرى على مريض يعوده فوجده فى سكرات الموت فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به فرجع إلى أهله بغير اللون الذى خرج به من عندهم فقالوا له: الطعام يرحمك الله فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه.

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت»[1].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما: أن النبى ﷺ سُئل: أى المؤمنين أكيس، قال: «أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم استعدادًا له أولئك هم الأكياس»[2].

وقال الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذى لُب فيها فرحًا، وما ألزم عبد قلبه الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: السعيد من وُعظ بغيره، وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: إذا ذُكر الموتى، فعد نفسك كأحدهم.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر

---

(١) رواه الترمذى والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١٠).

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٣٨٤) بمجموع طرقه.

الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[١].

• **أخي الحبيب:** إن المؤمن يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقاء الحبيب وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه (جل وعلا)، ولذا تراه يشتاق إلى الموت ليخرج من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.. ولذا قال معاذ بن جبل رضى الله عنه عند موته: حبيبٌ جاء على فاقة.

فذكر الموت يجعل العبد دائمًا فى طاعة الله، ومن ثَم يقوده إلى حُسن الخاتمة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (فإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة فهى نور فى القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار وما أعد الله فى هذه لأوليائه وفى هذه لأعدائه فأبصر الناس وقد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق وقد نزلت ملائكة السماوات فأحاط بهم وقد جاء الله وقد نُصب كرسيه لفصل القضاء وقد أشرقت الأرض بنوره ووُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، وقد نُصب الميزان وتطايرت الصحف واجتمعت الخصوم وتعلق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كثب وكثر العطاش وقل الوارد ونُصب الجسر للعبور ولُزَّ الناس إليه وقُسمت الأنوار دون الظلمة للعبور عليه والنار يحطم بعضها بعضًا تحته والمتساقطون فيها أضعاف الناجين فينفتح فى قلبه عين يرى بها ذلك ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يُريه الآخرة ودوامها والدنيا وسرعة انقضائها).

(٥) الصدق:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

قال ﷺ: «وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقًا»[٢]، وتالله إن تلك المنزلة لا يوفَق إليها إلا من أراد الله به خيرًا فى دينه ودنياه، وإلا لمن علم الله أنه سيموت على الإيمان والصدق.

وهذا مثل قول النبى ﷺ فى أهل بدر: «لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٣]. وبالفعل فقد ماتوا جميعًا على التوحيد.

---

(١) أخرجه البخارى (٨١) كتاب الرقاق ـ والترمذى (٣٧) الزهد.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى ـ صحيح الجامع (٤٠٧١).

(٣) أخرجه مسلم عن على (١٦/ ٨٢ ـ ح ١٦١) فضائل الصحابة.

* عن شداد بن الهاد رضى الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبى ﷺ سبيًا فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قِسْمٌ قسمه لك النبى ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «قسمته لك» قال: ما على هذا تبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى ها هنا، وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك».

فلبثوا قليلاً ثم نهضوا فى قتال العدو، فأُتى به النبى ﷺ يحمل قد أصابه السهم حيث أشار. فقال النبى ﷺ: «أهو هو»، قالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه».

ثم كفَّنه النبى ﷺ فى جُبة النبى ﷺ ثم قدمه فصلى عليه فكان فيما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فقُتل شهيدًا، أنا شهيد على ذلك»[1].

ـ يقول «أنس بن مالك» غاب عمى «أنس بن النضر» عن قتال يوم بدر فقال غبت عن أول قتال مع رسول الله ﷺ لئن أشهدنى الله قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ـ انهزموا ـ فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المسلمين ـ ثم مشى بسيفه فلقيه (سعد بن معاذ) فقال: أى سعد،والله إنى لأجد ريح الجنة دون أحد! ثم قاتل حتى قُتل، فقال سعد يا رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصنع ما صنع. قال أنس ابن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم،فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه ـ رؤوس الأصابع ـ قال أنس فكنا نتحدث أن هذه الآية: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً.... ﴾ نزلت فيه وفى أصحابه[2].

ـ وفى رواية أنه لما شاع خبر مقتل النبى ﷺ انهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أصحاب النبى فتوقف منهم مَن توقف عن القتال وألقى أسلحته مستكينًا ومر بهؤلاء أنس بن النضر وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتل

---

(١) رواه النسائى والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤١٥).

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى ٢٠/ ٨٥ وأسباب النزول للواحدى ١٣٧، والحديث متفق عليه عن أنس، أخرجه البخارى برقم (٤٠٤٧)، ورواه مسلم، باب فى قوله تعالى ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾. كتاب الجهاد.

رسول الله ﷺ ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله. ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ فقال أين يا أبا عمر؟ فقال أنس واها لريح الجنة يا سعد إنى أجده دون أُحد... ثم مضى فقاتل القوم حتى قُتل فما عُرف حتى عرفته أخته بعد نهاية المعركة ببنانه وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم[1].

فهذا أنس بن النضر رضى الله عنه يقوده صدقه إلى تلك الخاتمة السعيدة فيجد ريح الجنة قبل أن يقاتل.

* بل قال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[2].

وهكذا فإن العبد إذا صدق مع الله فإن الله يحفظ عليه إيمانه ويثبت قلبه على التوحيد ويرزقه حُسن الخاتمة.

(٦) حسن الظن بالله (جل وعلا):

وهذا من أعظم أسباب حُسن الخاتمة.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدى بى، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»[3].

* وعن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[4].

* وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه، وإذا كره لقائى كرهت لقاءه»[5].

* وعن أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك؟»،

---

(١) أخرجه البخارى برقم (٤٠٤٨) ومسلم فى كتاب الإمارة رقم (١٩٠٣/ ١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وأبو داود - صحيح الجامع (٦٢٧٦).

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم - صحيح الجامع (١٩٠٥).

(٤) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٠٩) صفة الجنة.

(٥) أخرجه البخارى وأحمد ومالك والنسائى عن أبى هريرة.

قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمّنه مما يخاف»[١].

والرجاء عند الموت أفضل؛ لأن الخوف سوط يساق به، وعند الموت يقف البصر فينبغى أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتى حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجرى عليه، ويخوفه فيما بين يديه، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو.

وقال سليمان التيمى لابنه عند الموت: يا بنى! حدثنى بالرُّخص، لعلىّ ألقى الله تعالى وأنا أُحسن الظن به[٢].

ـ قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «إنما العالم الذى لا يقنّط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم مكر الله».

ـ ويقول ابن مسعود رضى الله عنه: «ليغفرن الله عز وجل يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر».

ـ وروى أن مجوسيًا استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يُضفه وقال: إن أسلمت أضفتك فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه فردّه وأخبره فى الحال فتعجب من لطف الله تعالى فأسلم[٣].

ـ فهذه الأشياء والأخبار هى التى تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيئًا من ذلك إلا قليلاً لئلا يغتروا بحلم الله فيجترئوا على محارم الله.

ـ وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بالذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[٤].

بل هذا رجل من بنى إسرائيل يقص النبى ﷺ قصته فيقول: «إن رجلاً حضره الموت

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٦١) الزهد، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٠٥١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٤٧٨) ط. دار ابن رجب.

(٣) ذكرها الغزالى فى الإحياء (٤/ ١٥٣، ١٥٤) بصيغة التضعيف قيل. ولم يذكر لها سندًا ولا أصلاً.

(٤) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٧٦٣) الصحيحة (١٦٣٤).

فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مُتّ فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا جزلاً ثم أوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتُحشت ـ فاحترقت ـ فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يومًا راحًا فازروها في اليم.. ففعلوا ما أمرهم فجمعه الله وقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك فغفر له».

وفي رواية: «فجمعه الله فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك فتلقاه برحمته»[1].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرجُ من النار أربعةٌ يُعرضونَ على الله عز وجل فيأمرُ بهم إلى النار فيلتفتُ أحدهم فيقولُ: أي ربِّ قد كنتُ أرجو إن أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها فيقول: فلا نعيدك فيها»[2].

ـ فيا أخي المسلم أَحسِن الظن بالله ولا تموتَن إلا وأنت تحسن الظن بالله فهو حبيبك وهو راحمك وهو ربك وهو رازقك.

فلا ترجُ غيره ولا تطمع في رحمة مَن سواه والجأ إليه وتب إليه فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الأوابين[3].

ـ والجأ إليه سبحانه وتعالى وقل بلسان الحال والمقال:

لبثت ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ

فقلت يا أملي في كل نائبة ... ومَن عليه لكشف الضر أعتمدُ

أشكو إليك ذنوبًا أنت تعلمها ... ما لي على حَملها صبرٌ ولا جَلَدُ

وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً ... إليك يا خير من مُدّت إليه يدُ

فلا تردّنها يا رب خائبةً ... فبحر جودك يروي كل من يردُ

(٧) التوبة:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) متفق عليه عن حذيفة وأبي مسعود ـ صحيح الجامع (٢٠٧٤).
(٢) أخرجه مسلم وأحمد واللفظ له.
(٣) صدقوا ما عاهدوا/ للمصنف (ص: ١٤١).

نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨).

فعن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهل له من توبة، فقال: لا. فقتله فكمَّل به مائةً ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجُلٍ عالـمٍ، فقـال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاهُ الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكةُ الرحمة: جاء تائبًا مُقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكةُ العذابِ: إنه لم يعمل خيرًا قطُّ، فأتاهم ملكٌ فى صورةِ آدمىٍّ فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بينَ الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى، فهو له... فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكةُ الرحمة. قال قتادة: فقال الحسنُ: ذُكرَ لنا أنه لما أتاه الموتُ نأى بصدره. وفى رواية: «فأوحى الله إلى هذه: أن تقربى، وأوحى إلى هذه: أن تباعدى. وقال: قيسوا ما بينهما فوجداه إلى هذه أقرب بشبر فغُفر له»[(١)].

(فسبحان الله) يُسخِّر الله عز وجل الأرض كلها بجبالها وأنهارها وكل ما عليها لكى تتحرك من أجل تائبٍ واحد فكيف لو تاب المسلمون جميعًا؟!!!

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[(٢)].

وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[(٣)].

فمن تاب ومات على تلك التوبة فقد رزقه الله حُسن الخاتمة؛ لأنه يُبعث تائبًا يوم القيامة من كل الذنوب.. كما قال ﷺ: «من مات على شىء بعثه الله عليه»[(٤)].

* * *

(١) أخرجه مسلم عن أبى سعيد ـ كتاب التوبة ـ باب قبول التوبة.

(٢) رواه الترمذى وأحمد والحاكم، وصححه ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى.

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٣٠٠٨).

(٤) رواه أحمد والحاكم عن جابر ـ صحيح الجامع (٦٥٤٣).

● **وأما عن شروط التوبة فهى ستة:**

١ - الإقلاع عن الذنوب.

٢ - الندم على فعل تلك الذنوب.

٣ - العزم على أن لا يعود إليها أبداً.

٤ - الإخلاص فى التوبة.

٥ - التحلل من المظالم.. لقوله ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»(١).

٦ - التوبة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها: قال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٣).

(٨) الدعاء:

وذلك بأن تتوجه إلى الله (عز وجل) بالدعاء وتبكى وتتذلل بين يديه سبحانه بأن يثبت قلبك على الإيمان وأن يرزقك حُسن الخاتمة.

فها هو حبيبك ﷺ كان لا يفتر لسانه عن هذا الدعاء: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبى على دينك»(٤).

وها هو الحق (جل جلاله) يعلمنا ويحثنا على أن ندعو بهذا الدعاء العظيم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:٨).

فاعلم أخى الحبيب أنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه فالجأ إلى الله فى كل وقت وارفع أكفّ الضراعة إلى الملك قائلاً: اللهم إنى أبرأ من الثقة إلا بك ومن الأمل إلا فيك ومن التسليم إلا لك ومن التفويض إلا إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الرضا إلا

(١) أخرجه البخارى (٥/ ١٠١) المظالم.

(٢) أخرجه مسلم (١٧/ ٧٦) كتاب التوبة.

(٣) رواه أحمد فى المسند (٩/ ١٧:١٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

لم يغرغر: أى لم تبلغ روحه الحلقوم.

(٤) رواه الترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٧).

عنك، ومن الطلب إلا منك، ومن الصبر إلا على بابك، ومن الذل إلا فى طاعتك، ومن الرهبة إلا لجلالك العظيم، ومن الرجاء إلا لما فى يديك الكريمتين.

فتوجه إلى الله (عز وجل) بالدعاء فى ثلث الليل الأخير أن يرزقك حُسن الخاتمة وأن يكرمك بصحبة النبى ﷺ فى الجنة، وأن لا يحرمك من نعمة النظر إلى وجهه الكريم (سبحانه وتعالى).

(٩) قصر الأمل والتفكر فى حقارة الدنيا:

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:٢٠).

وقال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو عالمًا أو متعلمًا»[١].

فالمؤمن يعلم يقينًا أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وأنه سينسى كل شقاء بغمسة واحدة فى جنة الرحمن (جل وعلا)، ولذلك فهو لا يتعلق قلبه بأى شىء من حطام الدنيا، بل يمسى ويصبح وهو مشغول بالعمل لهذا الدين ولا يرى أمام عينيه إلا الجنة والنار فهو يعلم يقينًا أنه لا راحة إلا فى جنة العزيز الغفار.

واعلم أن السبب فى طول الأمل شيئان:

أحدهما: حب الدنيا، والثانى: الجهل.

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا. وأصل هذه الأمانى كلها، حبُّ الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبى ﷺ: «أحبب ما شئت فإنك مفارقه»[٢].

السبب الثانى: الجهل، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب.

---

(١) رواه ابن ماجه والطبرانى فى الأوسط، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤١٤).

(٢) رواه الشيرازى والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣).

* والناس متفاوتون فى طول الأمل تفاوتًا كثيرًا، ومنهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل.

وعن إبراهيم بن سبط قال: قال لى أبو زرعة: لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فحدثتنى نفسى أن أرجع إليه.

وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففى «صحيح البخارى» عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1].

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك»[2].

وقال عمر رضى الله عنه: التؤدة فى كل شىء خير، إلا ما كان من أمر الآخرة.

وكان الحسن يقول: عجبًا لقوم أُمروا بالزاد، ونودى فيهم بالرحيل، وحُبس أولهم على آخرهم، وهم قعود يلعبون.

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن، فكان ابن عمر يقوم فى الليل فيتوضأ ويصلى، ثم يغفى إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويصلى، ثم يغفى إغفاء الطير، ثم يقوم يصلى، يفعل ذلك مرارًا... وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة، وقال أبو بكر بن عياش: ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة[3].

* فمن انشغل بآخرته عن دنياه كانت همته فى الطاعة عالية... وهذا من أعظم السُبل إلى حُسن الخاتمة.

(١٠) البعد عن أسباب سوء الخاتمة:

وأخيرًا فإن من أسباب حُسن الخاتمة: الخوف من سوء الخاتمة والبُعد عن أسبابها «وهى مذكورة بالتفصيل فى كتيب آخر بعنوان الخوف من سوء الخاتمة».

---

(١) أخرجه البخارى (٨١) الرقاق ـ والترمذى (٣٧) الزهد.

(٢) رواه الحاكم والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٤٧٢: ٤٧٥) بتصرف شديد.

أما عن أسباب سوء الخاتمة فهى:

١ ـ فساد المعتقد والانغماس فى البدع.

٢ ـ النفاق ومخالفة الباطن للظاهر.

٣ ـ التسويف بالتوبة.

٤ ـ طول الأمل وحب الدنيا.

٥ ـ تعلق القلب بغير الله.

٦ ـ إلف المعاصى والإصرار عليها.

٧ ـ الانتحار واليأس من رحمة الله.

٨ ـ مصاحبة أهل الفساد.

٩ ـ عدم الاستقامة على الطاعة.

• خاتمة السعادة للأنبياء والصحابة والتابعين •

وها هى صور مشرقة من حُسن الخاتمة للأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم) الذين اصطفاهم الحق (جل وعلا) وصنعهم على عينه... والصحابة الذين حملوا أمانة هذا الدين العظيم للكون كله... والتابعين الذين ساروا على نهج الحبيب ﷺ وأصحابه (رضى الله عنهم).

• موت النبيين (عليهم الصلاة والسلام) •

• آدم عليه السلام:

* عن أُبىّ بن كعب رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «لما تُوفى آدم غسّلته الملائكة بالماء وترًا، وألحدوا له، وقالوا: هذه سنة آدم فى ولده»[١].

• موت خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام):

فى كتاب «فتح البارى» لابن حجر: أتى ملك الموت إبراهيم (عليه السلام) ليقبض روحه، فجلس أمامه.

(١) رواه الحاكم والطبرانى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٠٧).

قال: ماذا تريد؟

قال: أقبض روحك.

قال: وهل خليل يقبض روح خليله؟

فقال المَلَك: وهل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله!

فسكتِ إبراهيم عليه السلام فقُبضت روحه».

• موت الحبيب ﷺ:

* عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبيّ يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة».

قالت: فلما كان فى مرضِ النبى ﷺ الذى قُبض فيه، أخذته بُحَّة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين﴾ (النساء:٦٩)، فعلمت أنه قد خُيِّر»[١].

* وعن أنس رضى الله عنه: «لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه[٢]، فقالت فاطمة عليها السلام: واكربَ أبتاه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فلما مات قالت: يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، مَنْ جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟!»[٣].

• عثمان بن عفان (رضى الله عنه):

* عن مسلم أبى سعيد مولى عثمان: إن عثمان بن عفان رضى الله عنه أعتق عشرين مملوكًا له، ودعا بسراويل فشدّها عليه ـ ولم يلبسها فى جاهلية ولا إسلام ـ وقال: إنى رأيت رسول الله ﷺ البارحة فى المنام ورأيت أبا بكر وعمر، وإنهم قالوا: اصبر، فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه فقُتل وهو بين يديه[٤].

(١) أخرجه البخارى (٥/ ١٨١) التفسير.

(٢) أى: يغشاه الثقل شيئًا فشيئًا.

(٣) رواه البخارى فى «كتاب المغازى» باب مرض النبى ﷺ ووفاته (٥/ ١٤٤).

(٤) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٢): رواه عبد الله وأبو يعلى فى «الكبير» ورجالهما ثقات.

• علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه):

عن محمد بن على بن أبى طالب أن عليًا لما ضُرِب أوصى بنيه، ثم لم ينطق إلا بـ «لا إله إلا الله» حتى قبضه الله[١].

• سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه):

عن ابن شهاب الزهرى أن سعد بن أبى وقاص لما حضرته الوفاة، دعا بخَلَق جبة له من صوف، فقال: كفِّنونى فيها، فإنى لقيت المشركين فيها يوم بدر، وإنما كنتُ أُخبِّئها لهذا اليوم[٢].

وعن مصعب بن سعد أنه قال: كان رأس أبى فى حجرى، وهو يقضى. فبكيت، فرفع رأسه إلىّ، فقال: أى بنىّ ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك. قال: لا تبك فإن الله لا يعذبنى أبدًا، وإنى من أهل الجنة.

قال الذهبى: صدق والله، فهنيئًا له[٣].

• مرحبًا بالموت مرحبًا •

* عن عمرو بن قيس: أن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا؟ قال: فقيل: لم نصبح، حتى أُتِىَ فقيل له: قد أصبحت. قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار. مرحبًا بالموت. مرحبًا، زائر مُغِبّ[٤] حبيب جاء على فاقة، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى[٥] الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات[٦]، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلق الذكر»[٧].

* * *

(١) الثبات عند الممات (ص: ١٠٣).

(٢) وصايا العلماء عند حضور الموت (ص: ٤٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٢).

(٤) أى: قليل الزيارة.

(٥) كرى الأنهار أى: حفرها.

(٦) أى: صيام نهار الصيف، وقيام ليل الشتاء.

(٧) «الزهد» لأحمد (٢/ ١١٦)، و«حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩).

• غداً نلقى الأحبة... محمداً وحزبه •

* عن سعيد بن عبد العزيز: «قال بلال حين حضرته الوفاة: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه. قال: تقول امرأته: وابلالاه. قال: يقول هو: وافرحاه»[١].

• أمنية غالية •

* عن سعيد بن أبي وقاص أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا تدعو الله فخلوا في ناحية فدعا عبد الله ابن جحش فقال: «يارب إذا لقيت العدو غداً فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، فأقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد الله: مَنْ جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط»[٢].

• (جعفر) يطير مع الملائكة في الجنة •

ففي غزوة مؤتة استُشهد جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) وثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان، من حملة القرآن، أمام عَبَدة الصُلبان، عليهم لعائن الرحمن، في ذلك الزمان، وفي كل أوان.

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قُتل.

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء، ثم عقرها؛ فكان جعفر أول المسلمين عَقَرَ في الإسلام، ثم قاتل القوم حتى قُتل وهو يقول:

يا حبَّذا الجنة واقترابها ... طيبةً وباردٌ شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إنْ لاقيتها ضِرابها

قال ابن هشام:

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥٩).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٠٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وحدثنى من أثق به من أهل العلم أن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقُطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث يشاء.

وعن نافع أن ابن عمر أخبره: وقفت على جعفر يومئذ وهو قتيلٌ فعددتُ به خمسين طعنة وضربة، ليس منها شيءٌ فى دُبُره، يعنى فى ظهره»[١].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره»[٢].

«وكان ابن عمر إذا حيّا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين»[٣].

قال ابن كثير: «لأن الله تعالى عوضه عن يديه بجناحين فى الجنة»[٤].

• اليوم نلقى حبيبنا محمداً ﷺ •

وها هى خاتمة السعادة للصحابى الجليل عمار بن ياسر (رضى الله عنهما) الذى شهد له النبى ﷺ بأن الجنة اشتاقت إليه.

قال ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علىّ وعمار وسلمان»[٥].

وعن أبى البخترى قال: قال عمَّار يوم صفين: ائتونى بشربة لبن، قال: فشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ آخر شربة تشربها من الدنيا شربةُ لبنٍ» ثم تقدم فقُتل[٦].

وعن الزهرى: عن أبيه، عمَّن حدَّثه: سمع عماراً بصفِّين يقول: أزفت الجنان، وزُوجت الحور العين. اليوم نلقى حبيبنا محمداً ﷺ[٧].

* * *

(١) أخرجه البخارى (٤٢٦٠) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم ـ صحيح الجامع (٣٣٥٨).

(٣) رواه البخارى (٣٧٠٩) المغازى.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٥٦).

(٥) رواه الترمذى والحاكم عن أنس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٩) وابن سعد (٣/ ١/ ١٨٤) والحاكم (٣/ ٣٩٨).

(٧) سير أعلام النبلاء للذهبى (١/ ٤٢٥).

• عرش الرحمن يهتز لموته •

فها هو سعد بن معاذ يهتز لموته عرش الرحمن ـ جل جلاله ـ.

قال ﷺ «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[١].

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: لما توفى سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبى ﷺ ألا يرقا دمعُك ويذهب حزُنك بأن ابنك أولُ من ضحك الله له واهتز له العرش؟[٢].

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ «هذا العبد الصالح الذى تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمَّ ضَمةً ثم أُفرج عنه» يعنى سعدًا[٣].

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه أُهدى لرسول الله ﷺ جُبةٌ من سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «والذى نفسُ محمد بيده! إن مناديل سعد بن معاذ فى الجنة، أحسنُ من هذا»[٤].

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ: قال العلماء هذه إشارة إلى عظيم منزلة سعد فى الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه؛ لأن المنديل أدنى الثياب؛ لأنه مُعد للوسخ والامتهان فغيره أفضل، وفيه إثبات الجنة لسعد[٥].

• من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه •

ـ يقول «أنس بن مالك» غاب عمى «أنس بن النضر» عن قتال يوم بدر فقال غبت عن أول قتال مع رسول الله ﷺ لئن أشهدنى الله قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون ـ انهزموا ـ فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعنى

---

(١) متفق عليه عن جابر ـ وأخرجه مسلم وأحمد عن أنس.

(٢) قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٠٩) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى فى تلخيصه.

(٣) أخرجه النسائى (٤/ ١٠٠) فى الجنائز: باب ضمة القبر وضغطه، وابن سعد (٣/ ٢/ ٩) ـ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٨٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٦٩) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.

(٥) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٤).

المشركين - وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - ثم مشى بسيفه فلقيه (سعد بن معاذ) فقال: أى سعد، والله إنى لأجد ريح الجنة دون أحد! ثم قاتل حتى قُتل، فقال سعد يا رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصنع ما صنع. قال أنس ابن مالك: فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه - رؤوس الأصابع - قال أنس فكنا نتحدث أن هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤمنينَ رجَالٌ صدقُوا ما عَاهَدُوا الله عَلَيْه فمِنْهُم مَّن قَضى نَحْبَهُ ومَنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ومَاَ بَدَّلُوا تَبْديلاً..﴾ نزلت فيه وفى أصحابه[١].

• الله يكلمه بغير حجاب •

عن جابر بن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حَرَام، يوم أُحد، قال رسول الله ﷺ: «يا جابر! ألا أخبرك ما قال الله - عز وجل - لأبيك؟» قلتُ: بلى، قال: «ما كلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحًا[٢]، فقال: يا عبدى تمنَّ علىَّ أُعطك، قال: يارب تحيينى فأُقتلُ فيك ثانيةً. قال: إنه سبق منى «أنهم إليها لا يُرجعون» قال: يا رب فأبلغ مَن ورائى»، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتلُوا فِى سَبِيلِ اللَّه أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ﴾ [٣].

وفى رواية: أن جابر قال: قال لى رسول الله ﷺ: يا جابر أما علمت أنَّ الله - عز وجل - أحيا أباك فقال له: تَمَنَّ علىَّ، فقال: أُردُّ إلى الدنيا فأُقتل مرةً أخرى فقال: إنى قضيت الحكمَ أنهم إليها لا يرجعون»[٤].

والمرء يَحَارُ من كرامة الشهيد على الله.

إن أبا جابر لم يستشعر وحشةً لفراق أولاده، ولم تَسْتَشرِف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده، بل تطلَّع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرةً أُخرى عن أحبِّ شىءٍ فيها، ويتمشَّى بخُطى ثابتة إلى ساحة القتال[٥].

---

(١) أخرجه البخارى برقم (٤٠٤٧)، ورواه مسلم، باب فى قوله تعالى ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، كتاب الجهاد.

(٢) كفاحًا: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول... وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٣) أخرجه الترمذى (٣٠١٣) وصححه الحاكم (٣/ ٢٠٤) ووافقه الذهبى.

(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٦١) وقال العدوى فى فضائل الصحابة: هو صحيح لشواهده.

(٥) فى موكب الدعوة للشيخ محمد الغزالى (ص ٥٣).

• كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة •

لقد كان عمرو بن الجموح ـ رضى الله عنه ـ أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى أُحُد أراد أن يخرج معهم فقال له بنوه: إن الله جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنَّى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد، فأطأ بعرجتى فى الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد» وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة» فخرج مع رسول الله ﷺ ، فقُتل يوم أُحُد شهيدًا»[١].

وفى رواية: أنه «أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قاتلتُ فى سبيل الله حتى أُقتل، أأمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة؟ وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقُتل يوم أُحُد هو وابن أخيه ومولى له. فمر رسول الله ﷺ ، فقال: «كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجُعلوا فى قبرٍ واحد[٢].

• فزت ورب الكعبة •

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: «لما طُعن حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت وربِّ الكعبة»[٣].

• الملائكة تغسله •

وعن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل حنظلة ابن أبى عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة فسألوا صاحبته عنه ـ زوجته ـ فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جُنب، فقال رسول الله ﷺ: لذلك

(١) رواه ابن هشام (٢/ ١٣٩) عن ابن إسحاق، وبعضه فى المسند (٥/ ٢٩٩) من حديث أبى قتادة، وصحح الألبانى إسناده فى تحقيق فقه السيرة هامش (٢٨١).

(٢) قال الحافظ فى الفتح (٣/ ١٧٣): سنده حسن ـ رواه أحمد (٥/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه البخارى (٧/ ٤٤٦) المغازى.

غسلته الملائكة»[١].

* ولم تكن هذه الكرامة لحنظلة دون غيره بل كانت لحمزة (رضى الله عنه) عم النبى ﷺ... فقد قال ﷺ «رأيت الملائكة تُغسِّل حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب»[٢].

• رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة •

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم: ١١).

قال الحافظ: ومن فضائل آسية امرأة فرعون: اختارت القتل على المُلك، والعذاب فى الدنيا على النعيم الذى كانت فيه[٣].

قال ابن كثير: روى ابن جرير بسنده عن سليمان التيمى: كانت امرأة فرعون تُعذَّب فى الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها فى الجنة.

قال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها فى الجنة، فمضت على قولها، وانتُزعت روحها[٤].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها، فكان إذا تفرقوا عنها ظللتها الملائكة. فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم:١١). فكشف لها عن بيتها فى الجنة[٥].

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٠٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه وسكت عليه الذهبى - وقال الشيخ مصطفى العدوى فى فضائل الصحابة: إسناده حسن.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٦٣).

(٣) فتح البارى (٦/ ٥١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

(٥) رواه أبو يعلى (٦/ ٣٥) رقم (٢٥٠٨)، وصححه الألبانى فى الصحيحة رقم (٢٥٠٨).

• بشرى بالجنة من أرض الشرف والجهاد •

* عن أنس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». فقال عمير: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بَخ بَخٍ. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ؟». قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، فإنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل(١).

• (البراء) يقسم على الله فيبرّ الله قسمه •

قال ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذي طِمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه، منهم البراء ابن مالك»(٢).

وعن أنس مرفوعًا قال: «كم من ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبرَّه منهم البراء بن مالك»(٣).

فلما كان يوم فتح «تُستر» وقد تحصَّن «الفُرس» في إحدى القلاع فلم يستطع المسلمون فتحها في أول الأمر، فذهبوا إلى البراء بن مالك وقالوا له: أقسِم يا براء على ربك، فقال: «أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيي ﷺ فمُنحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيدًا»(٤).

• شمس الدنيا... الإمام الشافعي •

قال الربيع بن سليمان: دخل المزني على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال له: كيف أصبحت يا أستاذ؟

فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) رواه الترمذيّ والضياء عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٧٣).
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.
(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.

واردًا، ولسوء أعمالى ملاقيا.

قال: ثم رمى بطرفه نحو السماء واستعبر ثم أنشأ يقول:

إليكَ إله الخلق أرفَعُ رغبتى ... وإن كنتُ ياذا المنِّ والجُود مجرمـا
ولمَّا قسى قلبى وضاقت مذاهبُهُ ... جعلتُ الرجا منى لعفوك سُلَّما
تعاظمنى ذنبى فلمَّا قرنتُهُ ... بعفوكَ ربى كان عفوك أعظما
وما زِلتَ ذا عفو عن الذنبِ لم تَزَلْ ... تجُودُ وقد أغوى صفيك آدمَا
فإن تعف عنى تعف عن متمردٍ ... ظلومٍ غشوم ما يزايل مأثما
وإن تنتقم منى فلستُ بآيسٍ ... ولو أدخلتَ نفسى بجرمى جهنما
فجرمى عظيمٌ من قديم وحادث ... وعفوك ياذا العفو أعلى وأجسما[1]

• ماتت فرحًا برؤية الكعبة •

* عن عبد العزيز بن أبى رواد قال: دخل قوم حُجَّاج ومعهم امرأة تقول: أين بيت ربى؟ فيقولون: الساعة ترينه فلما رأوه قالوا: هذا بيت ربك أما تَرينَه؟ فخرجت تشتدّ وتقول: بيت ربى بيت ربى. حتى وضعت جبهتها على البيت، فوالله ما رُفعت إلا ميتة[2].

• كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبة لا يقطعها إلا الفائزون •

وها هى السيدة الربانية الصالحة نفيسة، ابنة الحسن بن زيد العلوية الحسنية: كانت ـ رحمها الله ـ من الصالحات، زاهدة نقية تقية، تقوم الليل، وتصوم النهار، وتكثر البكاء من خشية الله عز وجل، حتى قيل لها: «ترفقى بنفسك» لكثرة ما رأوا منها، فقالت: «كيف أرفق بنفسى وأمامى عقبة لا يقطعها إلا الفائزون؟»، حجّت ثلاثين مرة، وكانت تحفظ القرآن وتفسيره.

تُوفيت ـ رحمها الله تعالى ـ وهى صائمة، فألزموها الفطر، فقالت: «واعجباه! أنا منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه صائمة، أأفطر الآن؟! هذا لا يكون، وخرجت

(١) المنهج الأحمد/ (١/ ١٢٦: ١٢٧).

(٢) صفة الصفوة/ (٤/ ٤١٥).

من الدنيا، وقد انتهت قراءتها إلى قوله تعالى: ﴿قل لمن ما فى السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ (الأنعام:١٢)[١].

• يختم القرآن فى قبره قبل أن يموت •

عن عبد الله بن مسلم العبدى قال: قال مطرف لما حضره الموت: اللهم خِرْ لى فى الذى قضيته علَىَّ من أمر الدنيا والآخرة. قال: وأمرهم بأن يحملوه إلى قبره فختم فيه القرآن قبل أن يموت[٢].

• النور يخرج من قبره •

وحكى الشيخ القحطانى: أنه أنزل رجلاً فى قبره فى ليلة ظلماء شديدة الظلمة، وكان الجو غائمًا، وكان هذا الرجل من الدعاة، وقد مات ليلة الجمعة بعملية جراحية وصلى عليه الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله)، فقد كان له محاضرة فى الجامع الكبير الذى أحضر إليه الميت، وبعد المحاضرة ذهبنا للمقبرة، وطلبنا من أحد الإخوة أن يأتينا بسراج، أو كشاف لكى ننور القبر، ولكنه أبطأ علينا، فأخذت أعسُّ اللحد بيدى فقلت للإخوة: أعطونا الميت، فلما سللته من جهة الرجلين وضعته فى قبره فككت تلك الأربطة وكشفت عن وجه الميت، وإذا بالمصابيح والأنوار خرجت من ذلك القبر، وأنار القبر، ورآه كل من كان معى، وكانت رائحة المسك تخرج من ذلك القبر، ثم ذكر الشيخ بعض من حضروا وشاهدوا ذلك الأمر.

• مع الذين أنعم الله عليهم •

وقال محمد بن راشد: رأيت عبد الله بن المبارك فى النوم بعد موته فقلت: أليس قد مُتَّ؟ قال: بلى. قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب. قلت: فسفيان الثورى؟ قال: بخٍ بخٍ ذاك ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا﴾[٣].

---

(١) مرآة النساء/ (ص: ٨٢).

(٢) المحتضرين/ لابن أبى الدنيا (ص: ١٥٦).

(٣) العاقبة/ (ص: ١٣١).

• أهلاً بصديقي وحبيبي •

قال في تذكرة الإخوان: حدثني صاحب لنا أنه مات رجل في قريتهم، وكان مؤذنًا للقرية ولا يأخذ على ذلك أجرًا، وكانت له مزرعة لا يمنع أحدًا الأكل منها لا من إنسان ولا من حيوان، وكان كثير الصدقة، فمرض قبل موته لمدة أربعة أيام، وعند احتضاره اجتمعنا، وكان لا يكلمنا ويردد: استغفر الله لا إله إلا الله، وفجأة رفع يده في الهواء كأنه يصافح أحدًا وهو يقول: أهلاً بصديقي وحبيبي ثم مات (رحمه الله).

• ومسك الختام (أمي الحبيبة)[1] •

كانت أمي (رحمة الله عليها) عابدة زاهدة لا تطمع في أي شيء من حُطام الدنيا الفانية... كنت إذا رأيتها تذكرت قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣).. كانت تصلي قيام الليل على الرغم من شدة مرضها، وكانت تحب الخير لكل من حولها، وكان لسانها لا يفتر عن ذكر الله.

مات أبوها وهي في بطن أمها، وماتت أمها بعد ولادتها بشهر واحد فتجرعت غُصص اليُتم، وذاقت من العذاب ألوانًا، ولم يكن لها أخٌ أو أخت فعاشت كل أنواع الغُربة.

وعلى الرغم من ذلك كان لسانها لا يفتر عن كلمة «الحمد لله»... وكانت تدعو دائمًا ألا تطول عليها السكرات. فلما جاء اليوم الموعود سمعت أذان العصر فقامت لتتوضأ فما غسلت إلا كفها ووجهها. فقالت لها ابنة أختي: «يا ستي أنت ما توضأتي» فقالت لها أمي: «والله يا ابنتي ما تركوني حتى وضؤني» فتعجبت ابنة أختي!! وقامت أمي لتصلي العصر وهي جالسة ـ لشدة مرضها ـ ثم لما أرادت أن تكبِّر مرة أخرى قالت لها ابنة أختي: «يا ستي ليس هناك صلاة بعد العصر». فقالت لها أمي: «بل هناك صلوات كثيرة بس يا ريت الوقت يسمح» ودخلت في الصلاة وجاءتها السكرات وماتت وهي تصلي وكنا نلقّنها كلمة: «لا إله إلا الله» فكانت تقولها وظلت ترددها حتى ماتت.

وإذا بالمفاجأة السعيدة: فعلى الرغم من كِبر سنها إلا أن وجهها عاد ناصعًا وكأنها ابنة

(١) أي أمي أنا (محمود المصري).

عشرين سنة، وإذا بالوجه تعلوه ابتسامة جميلة وكأنها ترى الجنة فى تلك اللحظة. وإذا بالبشائر العظيمة ـ التى لا أستطيع أن أذكرها ـ تخبر بها الأخت التى قامت بتغسيلها... وإذا بالصالحين يجمعهم الله على غير موعد ويمتلئ المسجد للصلاة عليها، وذهبنا إلى القبر ونزلت لأدفن حبيبتى ـ التى نزف قلبىٍّ بموتها الدماء بدل الدموع ـ وإذا برائحة جميلة تصدر من قبرها.

وتتوالى البُشريات العظيمة فيعلم العلماء والدعاة فى مصر بخبر موت أمى فيدعون لها فى صلاة الجمعة وكان على رأسهم فضيلة الشيخ/ محمد حسان، وأبو إسحاق الحوينى، ومحمد عبد المقصود، وفوزى السعيد، وسيد حسين العفانى وغيرهم من علماء الأمة ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ فكان هؤلاء الأفاضل يدعون لها وآلاف البشر يؤمِّنون على دعائهم... فرأيتها فى المنام فى تلك الليلة وهى تقول: جزاك الله يا بنى خير الجزاء على كل الخير الذى وصلنى.

فأسأل الله أن يرحم أمى رحمة واسعة ـ وكل موتى المسلمين ـ وأن يجمعنى بها فى جنته ومستقر رحمته.

وأسأل الله (جل وعلا) أن يرزقنى وإياكم حُسن الخاتمة وأن يجمعنا جميعًا فى جنته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

وأُشهد الله (عز وجل) على أنى أحبكم جميعًا فى الله... فمن أحبنى فليدعُ لأمى بالمغفرة والرحمة وبأن يجعل الله قبرها روضة من رياض الجنة.

* * *

الخوف من سوء الخاتمة

• من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه •

عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت.

قال: ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان اللّه وكرامته، فليس شىء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحب لقاء اللّه، وأحبَّ اللّه لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشر بعذاب اللّه وعقوبته، فليس شىءُ أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء اللّه وكره اللّه لقاءه»[١].

قال الحافظ: قال ابن الأثير فى النهاية: المراد بلقاء اللّه هنا المصير إلى الدار الآخرة وطلب ما عند اللّه، وليس الغرض به الموت، لأن كلاً يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء اللّه، ومن آثرها وركن إليها كره لقَاء اللّه لأنه إنما يصل إليه بالموت، ..... وقول عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ والموت دون لقاء اللّه يبين أن الموت غير اللقاء، ولكنه معترض دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه ويحتمل مشاقه حتى يصل إلى الفوز باللقاء.

قال الطيبى: يريد أن قول عائشة إنا لنكره الموت يوهم أن المراد بلقاء اللّه فى الحديث الموت وليس كذلك، لأن لقاء اللّه غير الموت بدليل قوله فى الرواية الأخرى «والموت دون لقاء الله» لكن لما كان الموت وسيلة إلى لقاء اللّه عبر عنه بلقاء اللّه»[٢].

• إنما الأعمال بالخواتيم •

عن سهل بن سعد أن النبى ﷺ التقى هو والمشركون، وفى أصحابه رجلُ لا يدع شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال

---

(١) أخرجه البخارى (١١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) الرقاق.

(٢) فتح البارى (١١/ ٣٧٦).

رسول الله ﷺ: «هو من أهل النار» فقال رجل من القوم: أنا أصاحبه فاتَّبعه، فجُرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموتَ، فوضع نصلَ سيفه على الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: أشهد أنك رسول اللّه، وقصَّ عليه القصة، فقال رسول اللّه ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة» زاد البخاري رواية: «إنما الأعمال بالخواتيم»[1].

• الخواتيم ميراث السوابق •

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ:

وفي الجملة فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخاتمة، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقرّبين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا..

قال بعض السلف: ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السابق، وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم اللّه فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركتني لا أفرح أبدًا.

وكان سفيان الثوري يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًا، ويبكي ويقول: أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالك بن دينار يقوم طولَ ليله قابضًا على لحيته ويقول: يا رب قدْ علمتَ ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أي الدارين منزل مالك؟...

ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر[2].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

(٢) جامع العلوم والحكم/ لابن رجب الحنبلي (ص: ٥٠).

• خوف السلف من سوء الخاتمة •

* أبو بكر الصديق رضي الله عنه... عن البهي مولى مصعب بن الزبير قال: لما احتضر أبو بكر جاءت عائشة (رضي الله عنها) فتمثلت بهذا البيت:

لعمرُك ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا ... حشرجتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:١٩).

انظروا ثوبىَّ هذين، فاغسلوهما، وكفنونى فيهما، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت»[١].

• لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هول المطلع •

عن ابن عمر قال: كان رأس عمر فى حجرى فى مرضه الذى مات فيه، فقال لى: ضع خدى على الأرض.

فقلت: وما كان عليك كان فى حجرى أو على الأرض؟

فقال: ضعه لا أم لك.فوضعته، فقال: ويلى، وويل لأمى إن لم يرحمنى ربى[٢].

وفى رواية: لما طُعن عمر رضى الله عنه جاء ابن عباس فقال:يا أمير المؤمنين! أسلمت حين كفر الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس، وقتلت شهيداً ولم يختلف عليك اثنان، وتوفى رسول الله ﷺ وهو عنك راض، فقال له:

أعد علىّ مقالتك، فأعاد عليه فقال: المغرور مَن غررتموه، والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت لافتديت به من هو المطلع[٣].

* * *

(١) الزهد للإمام أحمد (٢/ ١٤) وطبقات ابن سعد (٣/ ١٩٧).
(٢) حلية الأولياء (١/ ٥٢) ـ المحتضرين لابن أبى الدنيا (ص: ٥٥).
(٣) وصايا العلماء (ص: ٣٨).

• القبر أول منازل الآخرة •

كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر يبكى حتى يبلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد».

قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه»[1].

وعن عبد الله بن الرومى، قال: «بلغنى أن عثمان رضى الله عنه قال: «لو أنى بين الجنة والنار، ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى، لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

• والله لكأن القوم باتوا غافلين •

وقال علىٌّ رضى اللّه عنه: واللّه لقد رأيت أصحاب محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم. لقد كانوا يصبحون شُعثًا غُبرًا، بين أعينهم أمثال رُكب المعز، قد باتوا للّه سجّدًا وقيامًا، يتلون كتاب اللّه تعالى، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا اللّه عزَّ وجل، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهطلت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

• أشتهى رحمة ربى •

وهذا ابن مسعود رضى الله عنه الذى ملأ الدنيا فقهًا وعلمًا يقول فى مرض الموت: «أشتهى رحمة ربى».

عن أبى ظبية قال: مرض عبد اللّه، فعاده عثمان، وقال: ما تشتكى؟

قال: ذُنوبى، قال: فما تشتهى؟ قال: رحمةَ ربى، قال: ألا آمر لك بطبيب؟

قال: الطبيبُ أمرضنى. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لى فيه[2].

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣٤٦١).

(٢) السير/ للإمام الذهبى (١/ ٤٩٨).

• أبكى على بُعد سفرى وقلة زادى •

عن سلم بن بشير أن أبا هريرة بكى فى مرضه فقيل له: ما يُبكيك؟

قال: ما أبكى على دنياكم هذه، ولكن على بُعد سفرى، وقلة زادى، وأنى أمسيتُ فى صُعود، ومهبطُه على جنة أو نار، فلا أدرى أيهما يؤخذ بى[(١)].

• فريق فى الجنة وفريق فى السعير •

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العَبرة قالت فاطمة: بأبى أنت ياأمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدى اللّه تعالى، فريق فى الجنة، وفريق فى السعير. ثم صرخ وغُشى عليه.

• وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون •

ولما نزل الموت بسليمان التيمى قيل: أبشر فقد كنت مجتهدًا فى طاعة اللّه تعالى فقال: لا تقولوا هكذا، فإنى لا أدرى ما يبدو لى من اللّه عز وجل فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ (الزمر:٤٧).

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى اللّه عنه: وددت أنى كنت كبشًا فذبحنى أهلى، فأكلوا لحمى، وحسَوا مرقى.

وقال عمران بن حصين: ياليتنى كنت رمادًا تذروه الرياح.

وقال حذيفة رضى اللّه عنه: وددت أن لى إنسانًا يكون فى مالى، ثم أغلق علىَّ بابى، فلا يدخل علىَّ أحد حتى ألحق باللّه عزَّ وجل.

وكان مجرى الدمع فى خد ابن عباس رضى الله عنهما كالشراك البالى.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ياليتنى كنت نسيًا منسيًا.

قال هرم بن حيان: وددت واللّه أنى شجرة أكلتنى ناقة، ثم قذفتنى بعرًا، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إنى أخاف الداهية الكبرى.

---

(١) الزهد/ لابن المبارك (ص: ٣٨) والسير (٢/ ٥٧٨).

وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغيّر، فيُقال: مالَك؟ يقول: أتدرون بين يدى مَن أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر.

• اللهم أقِل العثرة واغفر الزلة •

ولّما حَضَرَت معاويةَ بنَ أبى سفيانَ الوفاةُ قال: أقعدونى، فأقعدوه، فجعل يذكر اللّه تعالى ـ ويسبحه ويقدسه. ثم قال مخاصمًا نفسه: الآن تذكر ربك يامعاويةُ بعد الانحطام والانهدام، ألا كان ذلك وغصنُ الشباب نضيرٌ ريان، وبكى حتى علا بكاؤه ثم قال:

هو الموت لا منجى من الموت والذى أحـــاذر مـنه المـوت أدهـى وأفظـع

ثم قال: يارب ارحم الشيخَ العاصىَ ذا القلب القاسى، اللهم أقِلِ العثرةَ، واغفر الزلّةَ، وجُدْ بحلمك على من لم يرجُ غيرَك ولا وثق بأحد سِواك.

• اللهم لا برىء فأعتذر ولا قوى فأنتصر •

ويروى أن عمرو بنَ العاص رضى الله عنه لَما دنا منه الموتُ دعا بحراسه ورجاله فلمّا دخلوا عليه قال: هل تغنون عنى من اللّه شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فاذهبوا وتفرقوا عنى، ثم دعا بماء فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم قال: احملونى إلى المسجد، ففعلوا.

فقال: اللهم إنك أمرتنى فعصيتُ وائتمنتَنى فخنتُ وحددتَ لى فتعديتُ، اللهم لا برىءُ فأعتذر، ولا قوىٌ فأنتصر، بل مذنبٌ مستغفر، لا مُصرٌ ولا مستكبر[١].

• شىء يفوق الخيال •

أخى الحبيب:هل تصدق أن هناك من سمع أصوات المعذَّبين والمنعَّمين فى قبورهم؟!

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ فى أهوال القبور: وقد أطلع اللّه من شاء من عباده على كثير مما ورد فى هذه الأحاديث حتى سمعوه وشاهدوه عيانًا. ونحن نذكر بعض ما بلغنا من ذلك:عن عبد الله بن عبيد الأنصارى قال: كنت ممن دفن ثابت بن قيس بن شماس ـ رضى الله عنه ـ وكان أصيب يوم اليمامة، فلما أدخلناه القبر سمعناه يقول: «محمد رسول اللّه، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان الرحيم، فنظرنا فإذا هو ميت».

---

(١) اغتنام الأوقات فى الباقيات الصالحات/ الشيخ عبد العزيز السلمان (ص: ١٤٤).

ومن طريق العلاء بن عبد الكريم قال: مات رجل، وكان له أخ ضعيف البصر، قال أخوه: فدفناه، فلما انصرف الناس، وضعت رأسى على القبر، فإذا أنا بصوت من داخل القبر يقول: «من ربك؟ ومن نبيك؟ فسمعت صوت أخى وهو يقول: اللّه (ربى، ومحمد ﷺ نبيى)، قال الآخر: فما دينك؟ قال: الإسلام».

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب «المحتضرين» بإسناده عن أبى غالب صاحب أبى أمامة: أن فتى بالشام حضره الموت، فقال لعمه: «أرأيت لو أن اللّه دفعنى إلى والدتى ما كانت تصنع بى؟» قال: «إذًا والله تدخلك الجنة». فقال: «والله لله أرحم بى من والدتى»، فقُبض الفتى، فجزع عليه عبدالملك بن مروان قال: فدخلت القبر مع عمه فخطوا له خطا، ولم يلحدوه، قال: فقلنا باللبن[1] فسوينا عليه، فسقطت منها لبنة، فوثب عمه، فتأخر، قلت: «ما شأنك؟» قال: «ملىء قبره نورًا، وفسح له مد البصر»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه: قد سمع غير واحد أصوات المعذبين فى قبورهم، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو يعذب[3].

وقال أيضًا: قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومنامًا، ويعلمون ذلك ويتحققونه، وعندنا من ذلك أمور كثيرة[4].

وقال: وقد انكشفت لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا أصوات المعذبين فى قبورهم، ورأوهم بعيونهم يعذبون فى قبورهم، فى آثار كثيرة معروفة[5].

وقال ابن القيم رحمه اللّه: رؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانا لمن شاء اللّه أن يريه ذلك[6].

* * *

(١) اللبن: الطوب غير المحروق.
(٢) أهوال القبور/ لابن رجب الحنبلى (٣٨: ٤٠) بتصرف.
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٧٦).
(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٩٦).
(٦) الروح/ لابن القيم (ص: ٩٣).

• علامات سوء الخاتمة •

إن علامات سوء الخاتمة كثيرة جدًا ومنها على سبيل المثال:

التسخط والاعتراض على قضاء الله.. الأمن من مكر الله.. النفاق والرياء وحُب السمعة.. الغفلة عن ذكر الله (عز وجل).. إلى آخر تلك العلامات فمنها علامات تكون قبل الدفن ومنها ما يكون عند الدفن ومنها ما يكون بعد الدفن.

• علامات سوء الخاتمة قبل الموت:

فبعضهم عند موته يتلفظ بكلمات تُغضب اللّه (عز وجل) وذلك بأن يعترض على قضاء الله أو يُحال بينه وبين كلمة التوحيد أو ينطق بكلمة الكفر قبل الموت. فنعوذ بالله من الخُذلان.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي ـ رحمه اللّه ـ: (قال عبد العزيز بنُ أبى روَّاد: حضرْتُ رجلاً عند الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا اللّه، فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك. قال فسألتُ عنه فإذا هو مدمنُ خمر. وكان عبدالعزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته)[1].

ومنذُ سنوات جَرَتْ حادثةٌ فى القصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلُها أنَّ رجلاً فى حال احتضاره ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلى معه فى المسجد ـ واللّه أعلم بما فى القلوب ـ وقال: يا عبد اللّه، هذا المصحفُ الذى كنت تقرأ فيه، فاتق اللّه فى نفسكَ، ولقنه كلمة التوحيد، فقال: هو كافر بالمصحف، وبـ لا إله إلا اللّه، وخُتِمَ له على ذَلك الحال[2]، فنعوذُ باللّه ـ تعالى ـ من الخذلان.

ومنهم من كان فى سكرات الموت فيقولون له: قل لا إله إلا الله فيقول: هل رأى الحُب سُكارى.

ومنهم من قال عند موته: إن ربى ظلمنى.

قال ابن القيم ـ رحمه اللّه ـ: والحكايات فى هذه كثيرة جدًا، فمن كان مشغولاً باللّه

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص: ٥٠).

(٢) من محاضرة للشيخ عبد الرحيم الطحان بعنوان/ الخوف من سوء الخاتمة.

وبذكره ومحبته فى حال حياته وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى اللّه، ومن كان مشغولاً بغيره فى حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله باللّه وحضوره معه عند الموت، وما لم يدركه عناية ربه، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر اللّه حيثما كان، لأجل تلك اللحظة التى إن فاتت شقى شقاوة الأبد، فنسأل اللّه أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته[١].

• علامات سوء الخاتمة عند التغسيل:

يقول الشيخ القحطانى فى محاضرة له: إن بعض الأموات عندما كنت أغسلهم كان بعضهم تنقلب بشرته إلى السواد وبعضهم يقبض يده اليمنى وبعضهم يُدخل يده فى فرجه وبعضهم تشم رائحة الشواء من فرجه وبعضهم تسمعَ كأن أسياخًا من نار أُدخلت فى فرجه. يقول: ولقد جيء بميت فلما ابتدأنا بتغسيله انقلب لونه كأنه فحمةٌ سوداء وكان قبل ذلك أبيض البشرة، فخرجت من مكان التغسيل وأنا خائف فوجدت رجلاً واقفًا فقلت له: هذا الميت لكم؟ قال: نعم. قلت: أنت أبوه؟ قال: نعم، قلت: ما شأن الرجل؟ قال: هذا الرجل كان لا يصلى فقلت له خذ ميتك فغسّله[٢].

قال فى «تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان»: ولقد حدثنى عدد ممن يغسلون الموتى من مناطق مختلفة، عن بعض ما شاهدوه أثناء التغسيل من هذه العلامات، والغريب فى الأمر أنهم يتفقون على صفات معينة، يرونها على هؤلاء الموتى، وأكثر هذه الحوادث متشابهة، من ذلك أن الرجل الذى يموت على الخير يبدو وكأنه نائم وأما من مات على خلاف ذلك فيظهر عليه الفزع وخوف الموت، مع تغير فى وجهه، ولقد غسلت وشاركت فى التغسيل ورأيت بعض ذلك والحمد للّه.

حدثنى أحدهم فقال: غسلت رجلاً، وكان لونه مصفرًا، وفى أثناء التغسيل أخذ لونه يتغير إلى السواد من رأسه إلى وسطه فلما انتهيت من التغسيل فإذا به قد أصبح كالفحمة السوداء.

قال: وميت آخر كان وجهه أثناء التغسيل متوجهًا نحو كتفه الأيسر، فلما أرجعته نحو الكتف الأيمن عاد إلى الجهة اليسرى، حتى لما وضعته فى قبره ووجهته نحو القبلة انصرف وجهه عنها إلى أعلى.

(١) طريق الهجرتين (ص: ٣٠٨: ٣٠٩).
(٢) تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان (ص: ٤٧).

وحدثنى مغسلٌ آخر أنه غسل رجلاً وكان لونه مصفرًا، فلما فرغوا من التغسيل اسود وجه ذلك الرجل فقلت له: أسود مثل لحيتى؟ قال: أسود كالفحم، قال: ثم صار يخرج من عينيه دم أحمر وكأنه يبكى الدم والعياذ بالله.

وحدثنى مغسل آخر فقال: دخلت ذات مرة على بعض الإخوان وهم يغسلون ميتًا فرأيت وجهه مسودًا كأنه قرص محترق، وجسمه أصفر ومنظره مخيفًا، ثم جاء بعض أهله لينظروا إليه فلما رأوه على تلك الصورة فروا هاربين خوفًا منه[١].

• علامات سوء الخاتمة عند الدفن:

وقال الشيخ القحطانى: خرجت ذات يوم من المقبرة بعد صلاة العصر، وكنا قد قبرنا رجلاً وكان الطين عالقًا فى يدى، فأردت أن أغسلها، إذ جاءت جنازة فقال أحدهم وكانوا فى حدود الخمسين رجلاً: بالله عليك أن تساعدنا فى دفن هذا الرجل، فوالله لا نُحسن الدفن فسلك الرجل من جهة الرجلين وكان ثقيلاً، فأعاننى عليه بعضهم فوضعته فى القبر وطلبت لبنةً أضعها تحت رأسه وقد حللت الأربطة فنظرت فإذا برأس هذا الميت قد تحوّل ـ عياذًا بالله ـ من القبلة هكذا فحوَّل الشيخ رأسه، فقمت بردّ هذا الميت إلى القبلة وأخذت اللبنة الثانية ولكنى فى هذه المرة وجدت عينيه قد فُتحتا وأنفه وفمه يصبان الدم الأحمر القانى فداخلنى الخوف والوجل حتى إن رجلى لم تستطعا أن تحملانى داخل القبر، وقد رأى معى اثنان أو ثلاثة هذا المشهد الغريب الخطير ثم أعطونى اللبنة الثالثة، فوجدت أنه تحول فى المرة الثالثة فتركته وهربت من القبر نهائيًا، فقام الذين كانوا معى وتولوا عملية الدفن فردموه بالتراب ولم يغلقوا اللحد من شد الخوف ثم صرت أرى هذا الميت فى المنام سبع أو ثمانى مرات حتى سكّن الله قلبى عندما ذهبت إلى العمرة وجلست هناك فى حدود خمسة عشر يومًا حتى نسيت وعدت إلى الرياض[٢].

قال فى «تذكرة الإخوان»: وأما ما ظهر عند الإنزال فى القبر والعياذ بالله فحدثنى أحد المغسلين فقال: غسلت عددًا كبيرًا من الموتى لسنين طويلة، وأذكر أنى وجهت أكثر من مائة ميت كلهم صرفت وجوههم عن القبلة.

وحدثنى مغسل آخر قال: عندما وضعت أحد الموتى فى قبره ووجهته نحو القبلة، رأيت وجهه قد تحول إلى أسفل، ودخل أنفه فى التراب، ثم وجهته إلى القبلة ووضعت

(١) «تذكرة الإخوان» باختصار (ص: ٤٧ ـ ٤٨).

(٢) المرجع السابق (ص: ٤٨ ـ ٤٩).

تحت رأسه ترابًا، ولكنه عاد وأدخل أنفه فى التراب، ثم وضعت رملاً أكثر فى هذه المرة حتى لا يعود ولكنه عاد وأدخل أنفه فى التراب، ولم أزل معه حتى تكرر الأمر خمس مرات فلما يئست منه تركته وأغلقت القبر.

قال أحد الفضلاء: كنا فى رحلة دعوية إلى الأردن، وفى ذات يوم وقد صلينا الجمعة فى أحد مساجد مدينة الزرقاء وكان معنا بعض طلبة العلم وعالم من الكويت، وبينما نحن جلوس فى المسجد وقد انصرف الناس، إذا بقوم يدخلون باب المسجد بشكل غير طبيعى وهم يصيحون أين الشيخ، أين الشيخ؟ وجاءوا إلى الشيخ الكويتى فقالوا له: ياشيخ عندنا شاب توفى صباح هذا اليوم عن طريق حادث مرورى وإننا عندما حفرنا قبره إذا بنا نفاجأ بوجود ثعبان عظيم فى القبر، ونحن الآن لم نضع الشاب وما ندرى كيف نتصرف؟

يقول الراوى: فقام الشيخ وقمنا معه وذهبنا إلى المقبرة، ونظرنا فى القبر فوجدنا فيه ثعبانًا عظيمًا قد التوى: رأسه فى الداخل وذنبه فى الخارج، وعينه بارزة يطالع الناس.

قال الراوى: فقال الشيخ: دعوه واحفروا له مكانًا آخر.

يقول فذهبنا إلى مكان آخر بعد القبر الأول بمائتى متر تقريبًا، فحفرنا وبينما نحن فى نهايته إذا بالثعبان يخرج. فقال الشيخ: انظروا القبر الأول فإذا بالثعبان قد اخترق الأرض وخرج من القبر الأول مرة أخرى.

قال الشيخ: لو حفرنا ثالثًا ورابعًا سيخرج الثعبان فما لنا حيلة إلا أن نحاول إخراجه.

يقول الراوى: فجئنا بأسياخ وعصى فانحمل معنا وخرج من القبر وجلس على شفيره والناس كلهم ينظرون إليه، وأصاب الناس ذعرٌ وخوف، حتى إن بعضهم حصل له إغماء فحملته سيارة الإسعاف.

وحضر رجال الأمن ومنعوا الاتصال بالقبر إلا عن طريق العلماء وذوى الميت.

يقول الراوى: وبينما جىء بالجنازة وأدخلت القبر إذا بذلك الثعبان يتحرك حركة عظيمة ثار على أثرها الغبار، ثم دخل من أسفل القبر فهرب الذين داخل القبر من شدة الخوف، والتوى الثعبان على ذلك الميت وبدأ من رجليه حتى وصل رأسه، ثم اشتد عليه فحطمه: يقول الراوى: إنا كنا نسمع تحطيم عظامه كما تحطم حزمة الكراث.

يقول الراوى: ثم لما هدأت الغبرة وسكن الأمر جئنا لننظر فى القبر، وإذا الحال كما

هو عليه من تلوى ذلك الثعبان على الميت وما استطعنا أن نفعل شيئًا.

وقال الشيخ: اردموه، فدفناه ثم ذهبنا إلى والده فسألناه عن حال ابنه الشاب؟ فقال: إنه كان طيبًا مطيعًا إلا أنه لا يصلى، نعوذ باللّه من سوء الختام(١).

• علامات سوء الخاتمة بعد الدفن:

كان هناك رجل يعمل نباشًا للقبور فلما تاب إلى اللّه سأله أحد العلماء ما السر فى توبتك؟!!! فقال له الرجل: لقد كنت أنبش قبور المسلمين بعد دفنهم لأسرق الأكفان والأسنان الذهبية وغير ذلك فنبشت ألف قبر فما وجدت واحدًا منهم موجهًا للقبلة مع أن أقاربه دفنوه منذ ساعات وتركوه موجّهًا للقبلة!!! فقلت فى نفسى ما الذى حوّلهم عن القبلة؟ فعلمت أن ما فعلوه فى الدنيا ظهر فى قبورهم فعزمت على أن أتوب قبل أن يأتينى ملك الموت وأنا على تلك الحالة.

نعم يا إخوانى: ما فعلوه هنا ظهر هناك.. وما أدراك ما هناك !!!.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان منا رجلٌ من بنى النجار قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب لرسول الله ﷺ فانطلق هاربًا حتى لحق بأهل الكتاب، قال: فرفعوه، قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد ﷺ.

فأعجبوا به فما لبث أن قصم اللّه عنقه فيهم، فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذًا(٢).

• أسباب سوء الخاتمة •

وهى أسباب كثيرة وسنكتفى بذكر أهم تلك الأسباب:

(١) الشك والجحود والتعبّد بالبدع:

ومعناها: أن يعتقد فى ذات اللّه ـ تعالى ـ أو صفاته أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليدًا، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشفَ الغطاء عند الموت بان له بطلانُ ما اعتقده فظن أن جميع ما اعتقده لا أصل له.

---

(١) رسالة عاجلة إلى المسلمين/ (ص: ٤٦ ـ ٥٠).

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٦٢٤) الأنبياء.

وكم خُتِمَ لكثير من البشر بهذا عندما ابتدعوا فى دين الله ـ عز وجل ـ وزاغوا وانحرفوا عن صراطِ اللّه المستقيم، وظهرت حقيقتُهم فى أولِ لقاءٍ لهم مع ربِّ العالمين سبحانه.

هذا ابنُ الفارض عمرُ بنُ عليٍّ الحمويُّ (المتوفىَّ سنة ٦٣٢هـ) والذى كان ينعقُ بالاتحاد، ويقول بحلول اللّه ـ جل وعلا ـ فى مخلوقاته، وأن العبدَ رب والربَّ عبدٌ، عندما احُتضِرَ كما قال الأئمة الثقات الذين شاهدوه فى حالة الاحتضار نَظَمَ بيتين من الشعر وهو فى تلك الحالة يعبرُ فيها عن شقوته وعن هلاكه ويبكى ويقول:

إنْ كان منزلتى فى الحبِّ عندكم ... ما قد رأيـت فقد ضيعـتُ أيامى

أمنيـةٌ ظـفـرت نفـسى بهـا زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاثَ أحلامى[1]

وقال ذلك عندما عاين سخط اللّه ـ جل وعلا ـ وكُشفَ له عن حقيقة أمره، وقَلَّ أن يُخْتَمِ لمبتدع فى دين اللّه ـ تعالى ـ بالإيمان، ونسأل اللّه السلامةَ والعافية.

(٢) تسويف التوبة:

أخى الحبيب.. أختى الفاضلة: إن من أهم أسباب سوء الخاتمة ـ تسويف التوبة ـ فلا يزال العبد غارقًا فى الشهوات والشبهات وهو يؤجل التوبة يومًا بعد يوم حتى يأتيه ملك الموت فجأة فيصرخ هذا العبد ويندم على عمره الذى مضى فى معصية الله ويقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقال له: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:٩٩ ـ ١٠٠).

فيا لها من حسرة تجعل القلوب تبكى الدماء بدل الدموع.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاتَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر:٥٤ ـ ٦٠).

(١) من محاضرة للشيخ/ عبد الرحيم الطحان ـ بعنوان «الخوف من سوء الخاتمة».

وصدق من قال:

العمر ينقص والذنوب تزيدُ وتقال عثرات الفتى فيعودُ
هل يستطيع جحود ذنب واحد رجلٌ جوارحه عليه شهودُ
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهى تقليلها وعن الممات يحيدُ

فأقبل على اللّه يا أخى ولا تيأس من رحمة اللّه فرحمته وسعت كل شىء.. وذنبك مهما عظم فهو شىء وسوف تسعه رحمة اللّه (جل وعلا)... وإياك وتسويف التوبة لكى لا تندم حين لا ينفع الندم فكم من أُناسٍ هلكوا بسبب (سوف) إلى أن جاءهم ملك الموت وهم غارقون فى الذنوب والمعاصى.

قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون:١٠، ١١).

قال ابن كثير: «كل مفرّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا، ليستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات، كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه»[١].

قال الحسن البصرى ـ رحمه اللّه ـ: «هيهات هيهات، أهلك الناس الأمانى، قول بلا عمل، ومعرفة بغير صبر، وإيمان بلا يقين».

«البدار البدار قبل الفوات، الحذار الحذار من يوم الغفلات، قبل أن يقول المذنب: (رَبِّ ارْجِعُونِ)؛ فيقال: فات»[٢].

كلنا فى غفلة والموت يغدو ويروح
نُح على نفسك يا مسكينُ إن كنت تنوحُ

(٣) عدم الاستقامة على الطاعة:

قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (ابراهيم:٢٧).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٣).
(٢) التبصرة/ لابن الجوزى (١/ ١٧٧).

فأهل الاستقامة على الطاعة هم الذين يثبتهم اللّه (جل وعلا) فى الدنيا والآخرة وهم الذين تتنزل عليهم الملائكة عند الموت لتبشرهم بالجنة.. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠ ـ ٣٢).

أما الذين تتقاذفهم أمواج الفتنة والشهوات فهؤلاء الذين تُختم لهم بسوء الخاتمة.

قيل لأحد علماء سلفنا: فلان عرف طريق اللّه ثم رجع عنه. فقال: «لو وصلوا إليه ما رجعوا».

فمن عرف طريق الملك (جل وعلا) ثم أعرض عنه وتنكّبه، واختار طرق الغواية والضلال، وآثر الغيّ على الرشاد. والضلالة على الهُدى، والفجور على التقى، كان ذلك من أعظم أسباب سوء الخاتمة.

وقد ورد عند مسلم وأحمد وغيرهما من حديث عبد اللّه بن سرجس قال: كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب، والحور بعد الكور».

قال اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف:٥).

وقال عبد الحق الإشبيلى رحمه الله: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجداً للأذان والصلاة وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يومًا المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصرانى، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان، ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ماشأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك قالت: لماذا؟ قال: لقد سبيت لُبى، وأخذت بمجامع قلبى؟ قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا.

قال: أتزوجك؟ قالت: أنت مسلم، وأنا نصرانية، وأبى لا يزوجنى منك. قال: أتنصر؟ قالت: إن فعلت أفعل، فتنصّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم فى الدار، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم، رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات، فلم يظفر بها، وفاته دينه[1].

ويروى طاوس بن كيسان ـ رحمه الله ـ فيقول: كان رجل من بنى إسرائيل، وكان

(١) الداء والدواء/ (ص: ١٧٠).

عابدًا، وكان ربما داوى المجانين، وكانت امرأة جميلة أخذها الجنون، فجيء بها إليه فتركت عنده، فأعجبته، فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال:ـ إن عُلِم بهذا افتضحت فاقتلها، وادفنها فى بيتك، فقتلها ودفنها فى بيته، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها. فقال: ماتت، فلم يتهموه لصلاحه فيهم ورضاه، فجاءهم الشيطان فقال: إنها لم تمت، ولكنه وقع عليها، فحملت فقتلها ودفنها، وهى فى بيته فى مكان كذا وكذا، فجاء أهلها، فقالوا: ما نتهمك، ولكن أخبرنا أين دفنتها؟ ومن كان معك؟

ففتشوا بيته، فوجدوها حيث دفنها، فأخذ فسُجن فجاء الشيطان فقال: إن كنت تريد أن أخلصك مما أنت فيه وتخرج منه، فاكفر بالله،... فأطاع الشيطان وكفر فأُخذ فقتل، فتبرأ منه الشيطان حينئذ.

قال طاووس: فما أعلم إلا أن هذه الآية أنزلت فيه[1]. ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر:١٦).

(٤) طول الأمل:

أخى الحبيب.. أختى الفاضلة:

جميل أن نحمل فى قلوبنا أملاً، لكى نعمرِّ الكون بكل أنواع الخير، فالإنسان مفطور على حُب الحياة.. لكن لابد أن نحذر من أن يحول طول الأمل بيننا وبين طاعة الله عز وجل.

فإن صاحب الأمل الطويل فى الدنيا يركن غالبًا إلى الشهوات والملذات، ولذلك نجد قلبه لا يتحرك لآيات الله وكلام رسول الله ﷺ. ومن أجل ذلك حذَّر النبى ﷺ من طول الأمل.

فعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: أخذ رسول ﷺ بمنكبى فقال «كُن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك .. زاد أحمد والترمذى: «وعدَّ نفسك من أهل القبور»[2].

---

(١) خبر صحيح إلى طاوس. أخرجه عبد الرزاق (٣١٩٤) فى تفسيره، وعبد بن حميد كما فى الدر المنثور (٦/ ٢٠٠).

(٢) رواه البخارى وأحمد والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٤٥٧٩).

ولقد قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر:٣).

قال الإمام القرطبى: وطول الأمل داء عُضال ومرض مزمن ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.. ولذا قال رسول الله ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين. ويهلك آخرها بالبخل والأمل»(١).

ويُروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: ياأهل دمشق، ألا تسمعون من أخٍ لكم ناصح؟! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثرًا ويبنون مشيدًا ويأملون بعيدًا، فأصبح جمعهم بُورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً.فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين! وأنشد:

ياذا المؤمـل آمـالاً وإن بَعُـدت ... منه ويزعم أن يحظى بأقصاهـا
أنَّى تفوز بما ترجـوه ويْكَ ومـا ... أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

* وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل، وصدق رضى الله عنه! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة(٢).

وقال علىّ رضى الله عنه: إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة.

وجاء فى الأثر: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا(٣).

---

(١) رواه أحمد فى الزهد والطبرانى فى الكبير والبيهقى عن ابن عمرو، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٤٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى (١٠/ ٧ ـ ٨) ط. دار الحديث.

(٣) أختاه إنما أنت أيام/ للمصنف (ص: ٥٣ ـ ٥٦).

وطول الأمل له سببان:

أحدهما: الجهل: فيظن الشاب أن الموت بعيدٌ عنه لأنه مازال فى ريعان شبابه وصحته وعافيته.. وما علم هذا الشاب أن الموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً.

قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء:٧٨).

وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جُلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إلىّ كأنه يريدنى قال: فماذا تريد؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند! ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى قال: نعم كنت أتعجب منه لأنى كنت أُمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك[1]!

تزود من الدنيا فإنك لا تدرى	إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجرِ
فكم من فتى يمسى ويصبح لاهيا	وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها	وقد قبضت أرواحهم ليلة القدرِ
وكم من صغار يُرتجى طول عمرهم	وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبرِ
وكم من صحيح مات من غير علة	وكم من سقيم عاش حينًا من الدهرِ

أما السبب الثانى لطول الأمل: فهو حُب الدنيا.. وسنجعل هذا السبب مستقلاً لأهميته.

(٥) حب الدنيا:

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيمنى نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا.

وأصل هذه الأمانى كلها، حبُّ الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبى ﷺ:

---

(١) إحياء علوم الدين/ للإمام الغزالى (٥/ ١٤٩).

«أحبب ما شئت فإنك مفارقه»[١].

* قال ابن عباس (رضى الله عنهما): «يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية ومشّوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه الدنيا التى تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يُقذف بها فى جهنم فتنادى: أى رب أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها».

قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان مَن سكِر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين.

ومحب الدنيا أشدّ الناس عذابًا بها، وهو معذب فى دوره الثلاثة يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها، وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ويعذب يوم لقاء ربه... قال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة:٥٥).

قال القرطبى: ومثل هذا فى النّاس كثير ممن غلب عليه الاشتغال بالدنيا والهمُّ بها، أو سبب من أسبابها، حتى لقد حكى لنا أن بعض السماسرة جاءه الموت فقيل له: قل: لا إله إلا اللّه فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف... غلبت عليه «حب» السمسرة.

ولقد رأيت بعض الحُسَّاب وهو فى غاية المرض، يعقد بأصابعه ويحسب... وقيل لآخر قل: لا إله إلا اللّه فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلانية اعملوا فيها كذا.

قال ابن القيم: وأخبرنى من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول: للّه، فلس للّه، حتى قضى.

وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده وجعلوا يلقنوه «لا إله إلا اللّه» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيدٌ هذا كذا حتى قضى!

وسبحان اللّه كم شاهد الناس من هذا عبرًا؟ والذى يخفى عليهم من أحوال

---

(١) رواه الشيرازى والحاكم وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣).

المحتضرين أعظم وأعظم[١].

وقال لقمان لابنه: يابنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعًا.. وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

(٦) صحبة الأشرار:

قال ﷺ «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[٢].

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «أنت مع من أحببت» فالصاحب ساحب. إما أن يأخذ بيديك إلى مرضاة الله وإما أن يأخذ بيديك إلى معصية الله (جل وعلا) وكم من أُناس عاشوا على طاعة الله فلما اختلطوا بالعصاة والأشرار فإذا بهم ينتكسون على أعقابهم وينغمسون فى الذنوب والمعاصى ويموتون على ذلك.. بل ومنهم من يموت على الكفر بعد الإيمان.. ومنهم من يُحال بينه وبين الإيمان بسبب مصاحبة الأشرار.

* وها هو عقبة بن أبى معيط الذى مات على الكفر بسبب صحبة السوء ـ فقد رُوى أن عقبة كان صديقا لأبى بن خلف فصنع عقبة وليمة فدعا إليها قريشًا ودعا رسول الله ﷺ فلما قدم الطعام قال رسول الله ﷺ ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أنى رسول الله ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ (أبى بن خلف) ذلك قال لصديقه عقبه: صبأت؟ قال لا ولكن دخل علىّ رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامى حتى أشهد له بالرسالة.. فقال له (أبى بن خلف) وجهى من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبزق فى وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت... وكيت ففعل عدو الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان:٢٧ ـ ٢٩)[٣].

---

(١) الداء والدواء/ (ص: ١٤٣).

(٢) رواه الترمذى وأبو داود عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٣) التفسير الكبير/ (٢٤/ ٧٥).

يقول ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وسلك سبيلا غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرةً وأسفا وسواء كان نزولها فى (عقبة بن أبى معيط) أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم[١].

* عن سعيد بن المسيِّب عن أبيه قال: «لمَا حضرتْ أبا طالب الوفاةُ، جاءه رسولُ الله ﷺ، فوجد عندَه أبا جهلٍ وعبدَ الله بن أبى أُمَيَّةَ بن المُغيرة، فقال رسولُ الله ﷺ: «ياعمِّ قُلْ لا إله إلا اللهُ، كلمة أشهدُ لك بها عندَ الله»، فقال أبو جهلٍ وعبدُ الله بنُ أبى أُميَّة: يا أبا طالب أترغبُ عن ملَّة عبد المطَّلب؟ فلم يزل رسولُ الله ﷺ يَعرضُها عليه ويُعيدُ له تلك المقالَة، حتى قال أبو طالبٍ آخر ما كلَّمهم: هو على ملَّة عبد المطَّلب، وأبى أن يقول: لا إلَه إلا اللهُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أما والله لأستغفرنَّ لك مالَم أُنْهَ عنك». فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾، وأنزل الله تعالى فى أبى طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ [٢].

(٧) مخالفة الباطن للظاهر:

فقد يكون العبد ممن يُظهر الصلاح للناس فإذا خلا بنفسه أطلق العنان لشهواته وملذاته وحارب الله بالذنوب والمعاصى.

قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (النساء:١٠٨).

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وما سُمع بهذا، ولا علم به ـ والحمد لله ـ وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم. فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه[٣] الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيمًا، ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه، ... ويأخذ فى طريقه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته،

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٣) كتاب الإيمان.

(٣) يصطلمه: أى يستأصله عن دينه ويقطعه عنه.

كإبليس الذى عبد الله فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه،... وبرصيصا العابد الذى قال الله فى حقه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ (الحشر:١٦).

ويروى أن رجلاً علق بشخص وأحبه، فتمنَّع عنه واشتد نفاره فاشتد كلف البائس إلى أن لزم الفراش، فلم تزل الوسائط تمشى بينهما حتى وعد بأن (يعوده)، ـ أى يزوره ـ فأخبر بذلك ففرح واشتد فرحه وسروره، وانجلى عنه بعض ما كان يجده، فلما كان فى بعض الطريق رجع، وقال: والله لا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض بنفسى لمواقع التهم فأخبر بذلك البائس المسكين فسقط فى يده ورجع إلى أسوأ ما كان به وبدت علامات الموت وأماراته عليه.

قال الراوى: فسمعته يقول وهو فى تلك الحال:

سلامٌ يا راحة العليل ... وبرد ذل الدَّنف[1] النحيلِ

رضاك أشهى إلى فؤادى ... من رحمة الخالق الجليلِ

قال: فقلت له: يافلان، اتق الله تعالى فقال:قد كان ما كان... فقمت عنه، فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه. فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة[2].

(٨) تعلق القلب بغير الله:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

فحياة القلب فى تعلقه بالله (عز وجل) وشقاء القلب فى إعراض صاحبه عن الله (جل وعلا) فمن تعلق قلبه بغير الله فهذا إيذان بسوء الخاتمة.

فيا من تعلق قلبه بالمال أُهدى إليك هذه القصة.

إنها قصة الرجل الذى تعلّق قلبه بحب المال حبًا شديدًا، وهذا الرجل كان من الإحساء وقد بلغ من الكبر عتيًا، ليس له أحد، لا زوج ولا ولد ولا قريب، فانظر كيف صنع:

(١) الدنف: المرض الشديد الملازم لصاحبه.
(٢) الداء والدواء/ (ص: ٢٠٠).

جمع ذهبه أمامه، وبجواره زيت، وهو يخاطب الذهب: ياحبيبى، يامن أفنيت فيك عمرى، أموت وأتركك لغيرى، لا واللّه، أنا أعلم أن موتى قريب، وأن مرضى خطير، ولكنى سأدفنك معى، ثم يأخذ دينار الذهب، ويغمسه فى الزيت ويهوى به إلى فمه ويبلعه، فإذا بلعه أصابته كحة شديدة يكاد أن يموت منها، ثم يأخذ نَفَسه ويرفع ديناراً ثانيًا، ثم يغمسه فى الزيت ويهوى به فى فمه.. حتى مات من جرّاء ذلك»[١].

ويا من تعلَّق قلبه بالشهوات المحرمة أُهدى إليك هذه القصص:

ها هم أربعة من الشباب. كانوا يعملون فى دائرة واحدة. مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم، فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها. وبينما هم فى ذات يوم جالسين إذ سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها. وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التى حدّدوها. وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون، ومَرَّ عليهم أكثر من اسبوع فى تلك البلاد وهم بين زنا وخمور، وفعال لا تُرضى الرحمن، بينما هم فى ليلة من الليالى، وفى ساعة متأخرة من الليل، يجاهرون الله تعالى بالمعصية والفجور. نعم بينما هم فى غمرة اللهو والمجون إذا بأحد الأربعة يسقط مغشيًا عليه، فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم فى تلك الليلة الحمراء، يقول له: يا أخى، قل لا إله إلا الله، فيرد الشاب ـ عياذًا بالله ـ: إليك عنى. زدنى كأس الخمر وتعالى يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحال السيئة، نسأل الله ـ تعالى ـ السلامة والعافية.

ثم كان حال الثلاثة الآخرين لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره أنهم أخذوا يبكون، وخرجوا من المرقص تائبين، وجهزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده محمولاً فى تابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسواد ـ عياذًا بالله ـ.

* وهذه قصة معاصرة رواها الشيخ سعد البريك بارك الله فيه، وهى قصة شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى «بانكوك» للفسق والدعارة بينما كان فى سكره وغيه ينتظر خليلته، وقد تأخرت عليه ـ فما هى إلا لحظات حتى أقبلت عليه، فلما رآها خرَّ ساجدًا لها تعظيمًا، ولم ينهض من تلك السجدة الباطلة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

---

(١) من شريط قصص واقعية عن بعض الموتى لمجموعة من الدعاة.

• إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم •

قال الإمام ابن القيم: وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تُعطَى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها، فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها وهواها مرضها، وشفاها مخالفته.

فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا البته، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ (الانفطار:١٣، ١٤). مقصور عل نعيم الآخرةوجحيمها فقط، بل فى دورهم الثلاثة هم كذلك ـ أعنى دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار ـ فهؤلاء فى نعيم، وهؤلاء فى جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟

وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟! وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير الله عُذب به ثلاث مرات فى هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب فى هذه المعارضات، فإذا سُلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار.

وأما فى البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد، **فالهم** والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان فى أبدانهم، بل عملها فى النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه وارتياحًا بحبه وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه: واطرباه، ويقول الآخر: إن كان أهل

الجنة فى مثل هذا الحال إنهم لفى عيش طيب، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها. ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيف، ويقول الآخر: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[١].

(٩) سوء الظن بالله:

قال ﷺ: «إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدى بى إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشر»[٢].

وقال ﷺ: «لايموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله»[٣].

فمن أساء الظن بالله واعتقد أن الله لن يرزقه حُسن الخاتمة فإن الله لن يرزقه حُسن الخاتمة لأن سوء ظنه بالله (جل وعلا) هو الذى جعله من الخاسرين.

قال الإمام ابن القيم: إن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (الفتح:٦). وقال الله تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (فصلت:٢٣)[٤].

فيجب على العبد أن يُحسن الظن دائمًا بالله (عز وجل) فالله أولى بكل جميل.

عن أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك؟»، قال: أرجو الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وأمّنه مما يخاف»[٥].

---

(١) الداء والدواء/ (ص: ٩٩ ـ ١٠٠).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٠٩) صفة الجنة.

(٤) الداء والدواء/ (ص: ١٧١).

(٥) رواه ابن ماجه (٤٢٦١) الزهد ـ وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٠٥١).

(١٠) الإصرار على الذنوب والمعاصي:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ومن عقوباتها (أي: الذنوب والمعاصي) أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحدٍ يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده.

إلى أن قال: هذا وثَمَّ أمرٌ أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار، والإنتقال إلى الله، فربما تعذَّر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله... فقال: آه آه لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال: شاه رخّ[١] غلبتك ثم قضى ـ أي مات ـ.وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال:

يا رُب قائلة يومًا وقد تعبت كيف الطريق إلى حَمَّام منجابِ

ثم قضى... وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فجعل يهذى بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا حتى مات...وقيل لآخر ذلك فقال: ما ينفعنى ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها ؟ ثم مات ولم يقلها...وقيل لآخر ذلك فقال: ما يغنى عنى وما أعرف إنى صليت لله صلاة؟ ولم يقلها...وقيل لآخر ذلك فقال: أنا كافر بما تقول ولم يقلها وقضى...وقيل لآخر ذلك فقال: كلما أردت أن أقولها ولسانى يمسك عنها[٢].

وقالت عائشة (رضى الله عنها): كان النبى ﷺ يُكثر أن يقول:«يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على طاعتك» فقلت: يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى؟ قال: «وما يؤمننى يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلب قلب عبده قلبه»[٣].

* (قال العلماء): وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة، والإستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قُربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك، كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سُلب عنك فعاد

(١) اسم لأحجار الشطرنج.

(٢) الداء والدواء/ (ص: ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٣) رواه ابن أبى شيبة وأحمد وابن أبى عاصم بإسناد صحيح.

قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم.

* (روى) النسائى «عن عثمان رضى الله عنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبّد، فعلقت به امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها فطفقت الجارية كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتى أفضت إلى امرأة وضيئة ـ أى جميلة ـ عندها غلام، وباطية خمر، فقالت: إنى والله ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع علىَّ، أو تشرب من هذه الخمر كأسًا أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقينى من هذا الخمر فسقته كأسًا قال: زيدينى، فلم يزل يشرب حتى وقع عليها وقتل الغلام. فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر، إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه»[(١)].

قال الشيخ صدِّيق حسن خان: «فطول الإلف بالمعاصى يقتضى تذكرها عند الموت، وعودها فى القلب وتمثلها فيه، وميل النفس إليها وإن قبض روحه فى تلك الحالة يُختم له بالسوء.

عن عبد العزيز بن أبى رواد قال: «حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشهادة لا إله إلا الله فقال فى آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك قال: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر. وكان عبد العزيز يقول: «اتقوا الذنوب فإنها هى التى أوقعته»[(٢)].

شخصية مرموقة دائمة السفر إلى بلاد جنوب شرق آسيا كل صيف وبالأخص إلى دولة «تايلاند» فقد كان صاحب القصة متزوجًا ولديه أطفال وعمره لم يناهز الثلاثين عامًا، إلا أنه مازال على عادته القديمة لا يفكر إلا فى شهوته وملذاته سواء أكانت فى الحلال أم فى الحرام. لقد سافر من دولة الكويت ووجهه أبيض من بياض البيض، وكله شباب وقوة، وفى إحدى الليالى الساهرة هناك تعرّف على راقصة عاهرة فرافقها إلى إحدى الشقق، وكان بإنتظاره «ملك الموت»، فما إن قرب منها وجاءت اللحظة الحاسمة... نادى المنادى: الرحيل... الرحيل.. فقبضه ملك الموت، ورجع إلى بلده

(١) التذكرة/ للقرطبى (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩) ط. دار الصحابه.
(٢) جامع العلوم والحكم/ (ص: ١٧٣).

محملاً بالتابوت، وفُتح التابوت، وإذا بالمفاجأة الكبرى... وهى أن وجهه أصبح لونه أسود من سواد القار»[١].

※ وهذه قصة ثلاثة من الأصدقاء يجمع بينهم الطيش والعبس والمجون، كانوا يستدرجون الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ثم ينقلبون إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن.

يقول الراوى: ذهبنا كالمعتاد للمزرعة، وكان كل شىء جاهزًا،... الفريسة لكل واحد منًا، الشراب الملعون، شىء واحد نسيناه، وهو الطعام، وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء العشاء بسيارته، وكانت الساعة السادسة تقريبًا عندما انطلق، ومرت الساعات دون أن يعود، وفى العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتى أبحث عنه، وفى الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانب الطريق.

وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقى، والنار تلتهمها، وهى مقلوبة على أحد جانبيها، أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهلت عندما وجدت نصف جسده قد تفحم تمامًا، لكنه كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينه وأخذ يهذى: النار.. النار فقررت أن أحمله يسيارتى وأسرع به إلى المستشفى ولكنه قال بصوتٍ باك: لا فائدة، لن أصل فخنقتنى الدموع، وأنا أرى صديقى يموت أمامى.

وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له ؟ نظرت إليه بدهشة وسألته من هو ؟ قال بصوت كأنه قادم من بئرٍ عميق: الله.

أحسست بالرعب يجتاح جسدى، وفجأة أطلق صديقى صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه[٢].

(١١) نسيان الآخرة وعدم ذكر الموت:

إن الذى ينسى الموت ولا يذكره يُعاقَب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة.

فمن لم يذكر الموت لن يستعد له أبدًا ولذلك تجده غافلاً عن طاعة الله لأن الموت لا

(١) الوقت عمار أو دمار/ جاسم محمد المطوع (٢/ ٨٧).
(٢) «أخى الشاب إلى أين تسير ؟» / محمد أمين مرزا (ص: ١٠ ـ ١٢).

يخطر له على بال... أما الذى يذكر الموت فإنه يسارع إلى طاعة الله (عز وجل) وكأنه يموت بعد ساعة فلا تكاد تمر لحظة من حياته إلا وهو ذاكرٌ لله.

دخل الحسن البصرى على مريض يعوده فوجده فى سكرات الموت فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به فرجع إلى أهله بغير اللون الذى خرج به من عندهم فقالوا له: الطعام يرحمك الله فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم فو الله لقد رأيت مصرعًا لا أزل أعمل له حتى ألقاه.

أخى الحبيب: إن من جعل الموت نُصب عينيه بادر بالأعمال الصالحة حتى إذا وافته المنية مات على طاعة الله.

(١٢) الظلم:

فإن الظالم إن لم يتحلل من تلك المظالم ـ بأن يرد إلى كل واحد مظلمته ـ فإن الله لا يوفقه أبدًا إلى حُسن الخاتمة بل هو أقرب ما يكون لسوء الخاتمة لأن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافرًا فلو أن مسلمًا ظلم أى إنسان فقام ودعا عليه بأن يُختم له بسوء الخاتمة لاستجاب الله دعاءه.

قال ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته. وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»[١].

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمل على الغمام يقول الله: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين»[٢].

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢)[٤].

وقال ﷺ: «من اقتطع حق امرىءٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه

(١) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والضياء عن خزيمة بن ثابت ـ صحيح الجامع (١١٧).

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى والضياء عن أنس ـ صحيح الجامع (١١٩).

(٤) أخرجه البخارى (٨/ ٤٦٨٦) ـ ومسلم (٢٥٨٣).

الجنة» فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: «وإن قضيبًا من أراك»[١].

وقال ﷺ: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار»[٢].

• وبالمثال يتضح المقال •

وها أنا أسوق لحضراتكم بعض النماذج لسوء الخاتمة لنأخذ منها العظة والعبرة ولنحذر من الوقوع فى مثل ما وقعوا فيه من الكفر والكبر والتكبر والظلم والعدوان.

• والجزاء من جنس العمل •

وها هى خاتمة الشقاء لقاتلة يحيى بن زكريا (عليهما السلام):

* قال الحافظ ابن كثير: «روى الحافظ ابن عساكر فى «المستقصى فى فضائل الأقصى» عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة ـ يعنى دمشق ـ هدَّاد بن هدار، وكان قد زوّج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا.. وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا؛ وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها، ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه ـ وهو قائم يصلى فى مسجد جيرون ـ من أتاه برأسه فى صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره، فأخذت المرأة الطبق، وحملته على رأسها، وأتت به أمها، فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميْها،ثم إلى حقويها، وجعلت أمها تولول، والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خسف بها إلى منكبيها، فأمرت أمها السيّاف أن يضرب عنقها لتتسلى برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر.

(٣) البداية والنهاية (٢/ ٥١).

• فخسفنا به وبداره الأرض •

«أخرج ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: كان موسى يقول لبنى إسرائيل: إن الله يأمركم بكذا، حتى دخل عليهم فى أموالهم، فشقّ ذلك على قارون، فقال لبنى إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رُجم، فتعالَوا نجعل لبغى شيئًا حتى تقول: إن موسى فعل بها، فيُرجم فنستريح منه، ففعلوا ذلك فلما خطبهم موسى قالوا له: وإنْ كنت أنت؟ قال: وإن كنتُ أنا. فقالوا: قد زنيت، فجزع، فأرسلوا إلى المرأة، فلما جاءت عظم عليها موسى، وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل إلا صدقت، فأقرت بالحق، فخرّ موسى ساجدًا يبكى، فأوحى الله إليه: إنى أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت، فأمرها، فخسفت بقارون ومن معه»[1].

قال ابن كثير: خُسف به إلى الأرض السابعة.

* قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص:٨١).

قال قتادة: ما أغنى ماله وما جمعه، ولا خدمه لا حشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو فى نفسه منتصرًا لنفسه، فلا ناصر له من نفسه ولا غيره[2].

• نهاية فرعون •

وها هى خاتمة الشقاء للطاغية الذى ضُرب المثل بطغيانه إنه فرعون الذى قال «أنا ربكم الأعلى»... إنه المتكبر الذى قال: «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى» فأجراها الله من فوقه... والجزاء من جنس العمل.

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حَمَاء البحر فأدسه فى فىّ فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة»[3].

---

(١) «فتح البارى» (٦/ ٥١٦ ـ ٥١٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٧).

(٣) صحيح: رواه أحمد فى «مسنده»، والحاكم فى «المستدرك» عن ابن عباس، ورواه الترمذى، وابن جرير، والخطيب فى «تاريخه»، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» رقم (٤٣٥٣)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٠١٥).

وهكذا يكون العقاب لكل من حارب الله ورسوله ﷺ... فها هو فرعون الذى تطاول وعلا فى الأرض يهوى فى الأعماق ويمتلىء فمه بطين البحر.

• ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ •

وها هو أبو لهب (عليه من الله ما يستحقه) الذى عادى النبى ﷺ أشد العداء وحارب دعوته أشد المحاربة فلما جاء اليوم الذى مات فيه وإذا بالذل والهوان يلحقه ويُختم له بخاتمة أهل الشقاوة.

قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: رماه الله بالعدسة فقتلته، فلقد تركه ابناه بعد موته ثلاثًا، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش تتقى هذه العدسة، كما تتقى الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تدفنانه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رجموا عليه بالحجارة.

• ما لك... أقمأك الله •

عن أبى أُمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أُحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ ، وهو يمسح الدم عن وجهه: «ما لك، أقماك الله».

فسلط الله عليه تَيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطَّعه قطعةً قطعةً.

قال ابن حجر: ومجموع ما ذكر فى الأخبار أنه شُج وجهه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة وجحشت ركبته[1].

وعند ابن هشام من حديث أبى سعيد الخدرى: أن عبد الله بن قمئة جرحه ـ أى الرسول ﷺ فى وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَرِ فى وجنته ﷺ.

فماذا كان جزاء هذا الشقى؟!

---

(١) فتح البارى (٧/ ٤٣١).

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر: إن الذى رمى رسول الله ﷺ بأُحد، فجرحه فى وجهه، قال: خذها منى وأنا ابن قمئة، فقال: «أقماك الله».. قال فانصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع.

• هكذا ينتقم الله لأوليائه •

ذكر الإمام ابن القيم فى كتابه «الروح» عن القيروانى أنه ذكر فى كتاب «البستان» عن بعض السلف، قال: كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولنى فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العَشاء فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقلت: يا رسول الله! فلان يسب أصحابك، قال: مَن أصحابى؟ قلت: أبو بكر وعمر، فقال: «خذ هذه المدية[1] فاذبحه بها»، فأخذتها فأضجعته وذبحته ورأيت كأن يدى أصابها من دمه، فألقيت المدية وأهويت إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره، فقلت: ما هذا الصراخ؟ قالوا: فلان مات فجأة!، فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح!![2].

• إن أخذه أليمٌ شديد •

أقيم حفل راقص بمناسبة تقاعد بعض كبار الضباط الأتراك، وكان هذا الحفل الماجن فى قاعدة بحرية حضره كبار جنرالات تركيا وجنرالات من أمريكا وضباط كبار من إسرائيل، وراقصات من تركيا وراقصات إسرائيليات.. وبدأ الحفل الماجن بالرقص، ثم تقدم جنرال تركى إلى ضابط تركى صغير آمرًا له أن يتلو شيئًا من القرآن، وبعد ذلك أمره أن يفسر شيئًا من القرآن، فردّ الضابط بأنه لا يعرف تفسير الآيات وهنا قام الجنرال التركى بتمزيق المصحف ووضعه تحت قدميه.. وتحدّى العزيز القادر الذى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

هذا التمزيق فأين الحفظ، وخرج الضابط التركى الصغير مهرولاً من القاعدة خائفًا

(١) المدية: السكين.

(٢) «نهاية الظالمين» ص (١٥٨ ـ ١٥٩)، وكتاب «الروح» لابن القيم.

من انتقام الله وهو شاهد العيان الوحيد الذى قصّ ما حدث، وما إن أتم هذا الزنديق المارق كلماته الفجر حتى هبت نيران عظيمة تلتهم القاعدة بمن فيها، ثم ينشق البحر ليغيب فى باطنه تلك القاعدة.. ولم تستطع فرق الإنقاذ من الدول الثلاث أن تنتشل جثة كافر واحد ممن غيّبهم البحر لكفرهم وعتوهم وبعدها بقليل يبدأ زلزال تركيا المدمر المصحوب بالإعصار.. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢)[١].

• عبرة لمن يعتبر •

فى الخمسينيات وفى كلية الزراعة جامعة عين شمس بالقاهرة وقف أحد الطلبة، ممسكًا بساعته محدقًا نظره فيها، وهو يصرخ قائلاً: «إن كان الله موجودًا فليمتنى إذًا بعد ساعة، وكان مشهدًا عجيبًا شهده جمهرة من الطلاب والأساتذة، ومرّت الدقائق عجلى، وحين أتممت الساعة دقائقها انتفض الطالب يزهو بتحد، وهو يقول لزملائه: أرأيتم لو كان الله موجودًا لأماتنى، وانصرف الطلاب، وفيهم من وسوس له الشيطان، وفيهم من قال: إن الله أمهله لحكمة، وفيهم من هزّ رأسه وسخر منه! أمّا الشاب المذكور، فذهب إلى أهله مسرورًا، خرج يتمطى، ودخل منزله، فإذا والدته قد أعدّت مائدة الغذاء، وإذا والده قد أخذ مكانه على المائدة ينتظره، فهرع الولد مسرعًا إلى المغسلة، ووقف أمامها يغسل وجهه ويديه، ثم ينشفهما بالمنديل، وبينما هو كذلك، إذ به يسقط على الأرض جثة لا حراك بها!!

نعم لقد سقط ميتًا، وأثبت الطبيب فى تقريره، أن موته كان بسبب الماء الذى دخل فى أذنه!

قال الدكتور عبد الرزاق نوفل ـ رحمه الله ـ: «أبى الله إلا أن يموت كما يموت الحمار».

فالحمار إذا دخل الماء فى أذنه مات من ساعته!![٢].

* * *

(١) نقلاً من سكب العبرات (١/ ٥١٢) د. سيد حسين.

(٢) انظر: «المجلة العربية» عدد صفر (١٤١٣)، و«نهاية الظالمين» ص(١٥٩ ـ ١٦٠).

الموت والسكرات

• الموت فى اللغة والاصطلاح •

الحياة والموت متناقضان تناقض النور والظلام والبرودة والحرارة، ولذا فإن معاجم اللغة العربية تُعرف كل واحد منهما بأنه نقيض الآخر، ففى تعريف الحياة تقول: «الحياة نقيض الموت، والحى من كل شىء: نقيض الموت، والجمع أحياء»(١)، وفى تعريف الموت تقول: «الموت والمَوتَان ضد الحياة»(٢)، وأصل الموت فى لغة العرب: السكون، وكل ما سكن فقد مات(٣)، فتراهم يقولون: «ماتت النار موتا: إذا برد رمادها، فلم يبق من الجمر شىء، ومات الحر والبرد إذا باخ، وماتت الريح: ركدت وسكنت، وماتت الخمر: سكن غليانها، والموت مالا روح فيه»(٤).

وإذا كان السكون أصل الموت فى لغتنا، فإن الحركة أصل الحياة، ففى لسان العرب: «الحى كل متكلم ناطق، والحى من النبات ما كان طريا يهتز»(٥)، والحياة الإنسانية تتحقق بنفخ الروح فى جسد الجنين فى رحم أمهُ، والموت «انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار»(٦)(٧).

* * *

(١) لسان العرب، لابن منظور: (١/ ٧٧٤).
(٢) لسان العرب: (٣/ ٥٤٧).
(٣) لسان العرب: (٣/ ٥٤٧).
(٤) لسان العرب: (٣/ ٥٤٧)
(٥) لسان العرب: (١/ ٧٧٣).
(٦) التذكرة للقرطبى: (ص: ٤).
(٧) القيامة الصغرى/ د. عمر سليمان الأشقر (ص: ١٤).

• لا تغفلوا عن الحقيقة الكبرى •

* الموت حتم لازم، لا تمنع منه حصانة القلاع ولا يحول دونه الحجاب ولا تردُّه الأبواب قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء:٧٨).

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:١٦٨).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجمعة:٨).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس: حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل؛ ثم تأتى نهايتها حتمًا.. يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد.. يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأى ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت.. «كل نفس ذائقة الموت».. كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفس ونفس فى تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق فى شيء آخر. الفارق فى قيمة أخرى. الفارق فى المصير الأخير:

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

هذه هى القيمة التى يكون فيها الافتراق. وهذا هو المصير الذى يفترق فيه فلان عن فلان، القيمة الباقية التى تستحق السعى والكد. والمصير المخوف الذى يستحق أن يُحسب له ألف حساب:

«فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز»..

ولفظ «زُحزح» بذاته يصور معناه بجرسه، ويرسم هيئته، ويلقى مثله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها، ويدخل فى مجالها! فهو فى حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليُخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويُستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز..

صورة قوية. بل مشهد حى. فيه حركة وشد وجذب! وهو كذلك فى حقيقته وفى طبيعته. فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس فى حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هى زحزحتها عن النار! أليس الإنسان ـ حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة ـ يظل أبدًا مقصرًا فى العمل.. إلا أن يدركه فضل الله؟ بلى! وهذه هى الزحزحة عن النار؛ حين يدرك الإنسان فضل الله، فيزحزحه عن النار!

«وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».

إنها متاع. ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور. المتاع الذى يخدع الإنسان فيحسبه متاعًا. أو المتاع الذى ينشىء الغرور والخداع! فأما المتاع الحق. المتاع الذى يستحق الجهد فى تحصيله.. فهو ذاك.. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار[١].

* قيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى الأموات[٢].

وقد أحسن القرطبى فى وصف الموت حيث يقول: «إعلم أن الموت هو الخَطب الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس الذى طعمها أكره وأبشع، وأنه الأهذم للذات. والأفظع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمرًا يقطع أوصالك، ويفرق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر الفظيع، والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم»[٣].

* يُروى أن أعرابيًا كان يسير على جملٍ له، فخر ميتًا فنزل الأعرابى عنه، وجعل يطوف به، ويتفكر فيه، ويقول: مالك لا تقومٌ؟ مالك لا تنبعث؟

هذه أعضاؤك كاملة، وجوارحك سالمة، ما شأنك؟ ما الذى كان يحملك؟ ما الذى كان يبعثك؟ ما الذى صرعك؟ ما الذى عن الحركة منعك؟

---

(١) فى ظلال القرآن (١/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩).

(٢) التذكرة للقرطبى (ص: ٩٩).

(٣) التذكرة للقرطبى (ص: ٢٤).

ثم انصرف متفكرًا فى شأنه، متعجبا من أمره[١].

وأنشدَ فى بعض الشجعان مات حتف أنفه[٢]:

جاءته من قبل المنون إشارة	فهوى صريعًا لليدين وللفم
ورمى بمحكم درعه وبرمحه	وامتد ملقى كالفتيق الأعظم
لا يستجيب لصارخ إن يدعه	أبدًا ولا يرجى لخطب معظم
ذهبت بسالته ومرَّ صواره	لما رأى حبل المنية يرتمى
ياويحه من فارس ما باله	ذهبت مرارته ولما يُكْلَم
هذى يداه وهذه أعضاؤه	ما منه عضو غدا بمثلم
هيهات ما حبل الردى محتاجه	للمشرفى ولا اللسان اللهذم
هى ويحكم أمر الإله وحكمه	والله يقضى بالقضاء المحكم

• أكثروا ذكر هاذم اللذات •

قال اللَّه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوت وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عنِ النَّارِ وأُدخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وما الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتاعُ الغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

وقال تعالى: ﴿وما تَدرِى نَفسٌ مَاذا تَكْسِبُ غداً وما تَدرِى نَفَسٌ بِأَىِّ أَرضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان:٣٤).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لا يَسْتأْخِرُونَ ساعةً ولا يَستَقدمون﴾ (النحل:٦١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَموَالُكُمْ ولا أَولادُكم عَن ذكرِ اللَّه ومن يَفعَل ذلكَ فَأُولَئِكَ هم الخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا من مَّا رزَقْنَاكُم من قَبلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ المَوتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَولا أَخَّرْتَنى إلى أَجلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وأَكُنْ منَ الصَّالحِينَ * ولن يؤَخرَ اللَّه نَفسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا واللَّهُ خَبيرٌ بِمَا تَعمَلُونَ﴾ (المنافقون:٩ ـ ١١).

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارجِعُونِ * لَعَلِّى أَعمَلُ صَالِحًا

(١) التذكرة للقرطبى: (ص٤).

(٢) التذكرة للقرطبى: (ص٥).

فيما تَركتُ كَلاَّ إنَّهَا كَلمةٌ هو قَائلُهَا وَمن ورائهم بَرْزَخٌ إلى يَوْم يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفخَ فِى الصُّور فَلا أَنسَابَ بَيْنَهم يومئذ ولا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ موازينُهُ فَأُولئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ * وَمَن خَفَّت مَوازينُهُ فَأُولئكَ الَّذينَ خَسرُوا أَنفُسَهُم فى جَهَنَّمَ خَالدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُم فيهَا كَالحُونَ * أَلَمْ تَكُن آياتى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فكُنتُمْ بهَا تُكَذِّبُون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قال كَمْ لَبِثْتُمْ فى الأرض عَدَدَ سنينَ * قالُوا لَبثنا يومًا أَو بَعضَ يَوم فاسأَل العَادِّينَ * قال إن لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَليلاً لو أَنَّكُم كُنْتُمْ تَعلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إلَينَا لا تُرجَعُونَ﴾ (المؤمنون:٩٩ ـ ١١٥).

وقال تعالى: ﴿أَلَم يَأْنِ للَّذينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لذكر اللَّه وَمَا نَزَلَ من الحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذينَ أُوتُوا الكتاب من قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِم الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهم وكَثيرٌ منهُم فَاسقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

* عن ابن عمر رضى اللَّه عنهما قال: أَخَذَ رَسولُ اللَّه ﷺ بمنكبى فَقَالَ: «كُنْ فى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عابرُ سَبيل» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضى اللَّه عنهما يقول: إذا أَمسَيتَ، فَلا تَنْتَظرِ الصَّبَاحَ، وإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظرِ المَسَاءَ، وخذ من صحَّتكَ لمَرَضك ومن حَيَاتكَ لموتك[(١)].

وعنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «ما حَقُّ امْرِئٍ مُسلمٍ لَهُ شَيءٌ يُوصِى فيه. يبيتُ لَيْلَتَيْنِ إلاَّ وَوَصيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عنْدَهُ»[(٢)].

وفى رواية لمسلم: «يَبيتُ ثَلاثَ لَيَال» قال ابن عمر: مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنذُ سَمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ قال ذلكَ إلاَّ وَعنْدى وَصيَّتى.

وعن أَنس رضى اللَّه عنه قال: خَطَّ النَّبىُّ ﷺ خُطُوطًا فقال: «هَذا الإنسَانُ وَهَذا أَجَلُهُ.

---

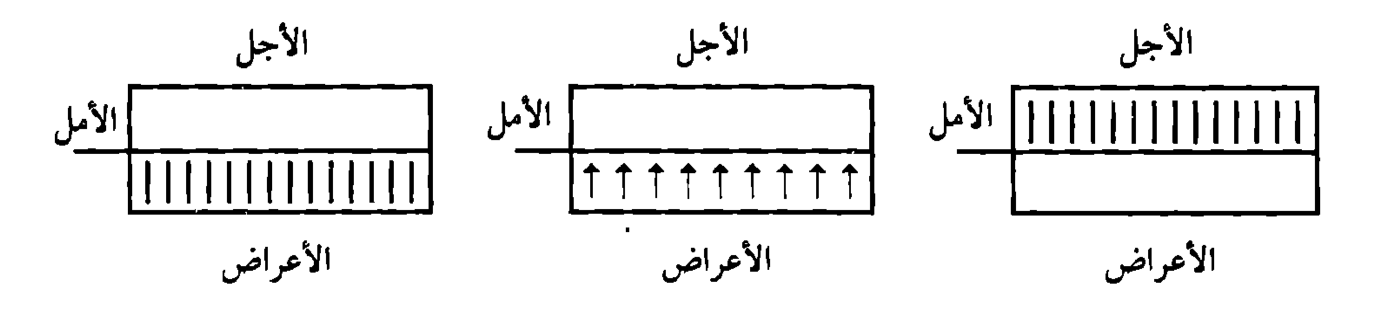
(١) [صحيح]: أخرجه البخارى (١١/ ٦٤١٦/ فتح) الرقاق.

(٢) [صحيح]: أخرجه البخارى (٥/ ٢٧٣٨/ فتح) الوصايا/ باب: الوصايا وقول النبى ﷺ وصية الرجل، ومسلم (١٦٢٧) فى الوصية.

* قال الشافعى ـ رحمه الله ـ: ومعنى الحديث: ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده. فيستحب تعجيلها، وأن يكتبها فى صحته، ويشهد عليه فيها. ويكتب فيها ما يحتاج إليه فإن تجدد له أمر يحتاج إلى الوصية به ألحقه بها.

فَبَيْنَما هو كَذَلكَ إذ جاءَ الخَطُّ الأَقْرَبُ»(١).

وعن ابن مسعُود رضىَ اللّه عنه قال: خَطَّ النَّبىُّ ﷺ خَطًا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًا فى الْوَسَط خَارجًا منْهُ، وَخَطَّ خُططًا صغَارًا إلى هَذَا الَّذى فى الوَسَط منْ جَانبه الَّذى فى الوَسَط، فقَالَ: «هَذَا الإنسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحيطًا به أو قَد أَحَاطَ به وَهَذَا الَّذى هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ وَهَذه الُخطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذا نَهَشَهُ هَذا»(٢). وَهَذه صُورَتهُ:



* وعن أبى هريرة قالَ: قالَ رسولُ اللّه ﷺ: «أَكْثِرُوا ذكْرَ هَاذمِ اللَّذَّات» يَعنى: المَوْتَ(٣).

* وعن أُبَىّ بن كعب رضى اللّهُ عنه: كانَ رَسولُ اللّه ﷺ إذا ذَهَبَ ثُلثُ اللَّيْلِ، قامَ فقالَ: «يا أَيها النَّاسُ اذْكُرُوا اللّه جَاءَت الراَجفَةُ تَتْبَعُهُا الرَّادفَةُ، جاءَ المَوْتُ بما فيه، جاءَ المَوْتُ بما فيه» قلتُ: يا رَسُولَ اللّه إنى أَكْثرُ الصَّلاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لكَ من صَلاتى؟ فقال: «ما شئْتَ» قُلْتُ: الربُّعَ؟ قال: «ما شئْتَ، فَإِنْ زدتَ فَهوَ خَيْرٌ لكَ» قُلْتُ: فَالنِّصْفَ؟ قالَ: «ما شئْتَ، فإِنْ زدْتَ فهو خَيرٌ لكَ» قُلْتُ: فَالثلثَين؟ قال: «ما شئْتَ، فإِنْ زدْتَ فهو خَيرٌ لكَ» قُلْتُ: أَجْعَلُ لكَ صَلاتى كُلَّها؟ قال: «إذًا تُكْفَى هَمَّكَ، ويُغْفَرُ لكَ ذَنْبُكَ»(٤).

---

(١) [صحيح]: أخرجه البخارى (١١/ ٦٤١٨/ فتح) الرقاق/ باب: فى الأمل.

(٢) [صحيح]: أخرجه البخارى (١١/ ٦٤١٧/ فتح) الرقاق/ باب: فى الأمل.

(٣) [صحيح]: أخرجه الترمذى (٤/ ٢٣٠٧) فى الزهد/ باب: ما جاء فى ذكر الموت، وابن ماجه (٤٢٥٨) فى الزهد/ باب: ذكر الموت والاستعداد له، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١٠) والمشكاة (١٦٠٧) والإرواء (٦٨٢) و«صحيح سنن الترمذى» (١٨٧٧).

(٤) [حسن]: أخرجه الترمذى (٤/ ٢٤٥٧) فى صفة القيامة، وحسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٣) والسلسلة الصحيحة (٩٥٢) و«صحيح سنن الترمذى» (١٩٩٩).

* وعن ابن عمر رضى الله عنهما: أن النبى ﷺ سُئل: أى المؤمنين أكيس قال: «أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم استعدادًا له أولئك هم الأكياس»[١].

وقال الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذى لُبٍ فيها فرحًا، وما ألزم عبد قلبه الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: السعيد من وُعظ بغيره، وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: إذا ذكر الموتى، فعُدَّ نفسك كأحدهم.

● **قال الإمام القرطبى:** قال علماؤنا رحمة الله عليهم: قوله ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللذات الموت» كلامٍ مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ فى الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغّص عليه لذته الحاضرة، ومنعه تمنيها فى المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ، وتزويق الألفاظ، وإلا ففى قوله عليه الصلاة والسلام: «أكثروا ذكر هادم اللذات» مع قوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ ما يكفل السامع له، ويشغل الناظر فيه[٢].

● أثر تذكر الموت فى إصلاح النفوس ●

إن لتذكر الموت أثر كبير فى إصلاح النفوس وتهذيبها، ذلك أن النفوس تؤثر الدنيا وملذاتها، وتطمع فى البقاء المديد فى هذه الحياة، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصى، وقد تقصر فى الطاعات، فإذا كان الموت دائما على بال العبد، فإنه يصغر الدنيا فى عينه، ويجعله يسعى فى إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره... فقد روى البيهقى فى شُعب الإيمان، وابن حبّان فى صحيحه والبزار فى مسنده بإسناد حسن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت، فإنه لم يذكره فى ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره فى سعة إلا ضيقها»[٣].

ويذكر ابن المبارك أن صالحًا المرى كان يقول: «إن ذكر الموت إذا فارقنى ساعة فسد

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٣٨٤) بمجموع طرقه.

(٢) التذكرة/ للإمام القرطبى (١/ ٤٧).

(٣) رواه البيهقى وابن حبان عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١١).

عليَّ قلبي»[١].

وقال القرطبي: قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب[٢].

وقال القرطبي أيضا: قال العلماء ـ رحمهم الله ـ ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور:

أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب.

الثاني: ذكر الموت، فيكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب[٣].

• مَن أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء •

قال الدقاق: من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف والتكاسل في العبادة.

فتفكر يا مغرور في الموت وسكراته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، وكفى بالموت مقرحًا، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهادمًا للذات، وقاطعًا للأمنيات، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك وانتقالك من موضعك، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأُخذت من فراشك، وغطائك إلى عرر[٤]، وغطوك من بعد لين لحافك

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص: ٨٨).

(٢) التذكرة (ص: ١٢).

(٣) التذكرة (ص: ١٢).

(٤) العرر: القود، والعرر أيضا القتال والشدة في الحرب، فشتان بين الحرب والنوم في الفراش.

بتراب ومدر[١]، فيا جامع المال، والمجتهد فى البنيان، ليس لك والله من مالك إلا الأكفان، بل هى والله للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذى جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا، بل تركته إلى من لا يحمدك، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك، ولقد أحسن من قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أى: اطلب[٢].

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويفنى المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه	والخُلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له	والإنس والجن فيما بينها تردُ
أين الملوك التى كانت لعزتها	من كل أوب إليها وافد يفدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب	لا بد من ورده يومًا كما وردوا

• منهمك .. وتائبٌ... وعارفٌ •

اعلم: أن المنهمك فى الدنيا المنكب فى غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتدىء، أو عارف منتبه.

فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، ويشتغل بذمه وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بُعدًا.

وأما التائب، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفى بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور فى كراهة الموت، ولا يدخل بهذا تحت قوله ﷺ: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»[٣] فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره، فهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يُعد كارهًا للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا.

وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائمًا، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد

(١) المدر: الطين أو الحجارة، والمراد: تذكر يا ابن آدم الموت، واعمل له من قبل أن يفجعك.
(٢) التذكرة (١/ ٥٠).
(٣) أخرجه البخارى (٨١) كتاب الرقاق ـ ومسلم (٤٨) كتاب الذكر والدعاء.

لقاء حبيبه، وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت، ويحبه ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء على فاقة.

فإذن التائب معذور فى كراهة الموت، وهذا معذور فى حبه الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة، بل تكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال، ففى ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك فى الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره[١].

• استحباب زيارة القبور للرجال •

ولأن أكثر الناس ينشغلون بالدنيا وحُطامها الزائل فيُستحب للرجال زيارة القبور لأنها تذكرهم بالآخرة.

* عن بُرَيْدَةَ رضى اللَّهُ عنه، قال: قال رسُولُ اللَّه ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَة القُبُورِ فَزُوروها»[٢].

وفى رواية: «فمن أراد أن يزور القبور فليزر فإنها تذكرنا بالآخرة».

* عن عائشَةَ رضى اللَّهُ عنها قالت: كان رسُولُ اللَّه ﷺ ، كُلَّما كان لَيْلَتها منْ رسول اللَّه ﷺ يَخْرُجُ منْ آخر اللَّيْل إلى البَقيعِ، فَيَقُولُ: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤمنينَ، وأَتَاكُمْ ما تُوعَدُونَ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وإِنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَد»[٣].

* وعن بُرَيْدَةَ رضى اللَّهُ عنهُ، قال: كَانَ النَّبىُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إذا خَرَجُوا إلى المَقابرِ أَنْ يَقُولَ قَائلُهُم: «السَّلامُ عَلَيكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ منَ المُؤْمنينَ والمُسْلمينَ ، وَإِنَّا إنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ للاَحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّه لَنَا ولَكُمُ العافِيَةَ»[٤].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٤٦٩: ٤٧٠).

(٢) [صحيح]: أخرجه مسلم (٩٧٧) كتاب الجنائز/ باب: استئذان النبى ﷺ ربه.

(٣) [صحيح]: أخرجه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز/ باب: ما يقال عند دخول القبور.

(٤) [صحيح]: أخرجه مسلم (٩٧٥) كتاب الجنائز/ باب: ما يقال عند دخول القبور.

• خير الناس من طال عمره وحسن عمله •

* واختلف السالكون أيما أفضل، مَن تمنّى الموت شوقًا إلى لقاء الله أو مَن تمنى الحياة رغبة فى طاعة الله؟ أو مَن فوّض الأمر إلى الله ورضى باختياره ولم يختر لنفسه شيئًا.

* فذهب قوم إلى تفضيل الموت على الحياة واستدل طائفة من الصحابة بقول الله عز وجل: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ (آل عمران:١٩٨).

* ولكن الأحاديث الصحيحة تدل على أن عمر المؤمن كلما طال ازداد بذلك ما له عند الله من خير، فلا ينبغى له أن يتمنى انقطاع ذلك، اللَّهم إلا أن يخشى الفتنة على دينه، فإنه إذا خشى الفتنة على دينه فقد خشى أن يفوته ما عند الله من خير، والموت خير له على هذه الحال.

قال ميمون بن مهران: لا خير فى الحياة إلا لتائب أو رجل يعمل فى الدرجات.

* عن أبى سلمة، عن طلحة بن عبيد الله أن رجلين من بلَى قدما على رسول الله ﷺ وكان إسلامهما جميعًا، فكان أحدهما أشد اجتهادًا من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستشهد ثم مكث الآخر بعده سنة ثم توفى.

قال طلحة: فرأيت فى المنام، بينا أنا عند باب الجنة، إذا أنا بهما، فخرج خارج من الجنة فأذن للذى توفى الآخر منهما، ثم خرج فأذن للذى استشهد، ثم رجع إلىّ فقال: ارجع فإنك لم يأن لك بعد.

فأصبح طلحة يحدث الناس فعجبوا لذلك فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وحدثوه الحديث: فقال: «من أى ذلك تعجبون؟» فقالوا: يا رسول الله هذا كان أشد الرجلين اجتهادًا ثم استشهد، ودخل هذا الآخر الجنة قبله، فقال رسول الله ﷺ: «أليس قد مكث هذا بعده سنة؟»، قالوا: بلى، قال: «وأدرك رمضان فصام وصلى كذا وكذا من سجدة فى السنة؟»، قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: «فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض»(١).

* وعن أبى بكرة رضى الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير

(١) رواه أحمد وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجه (٣١٧١).

الناس من طال عمره وحسن عمله، وشر الناس، من طال عمره وساء عمله»[١].

* «الموتى فى قبورهم يتحسرون على زيادة فى أعمالهم بتسبيحة وبركعة. ومنهم من يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك، فلا يقدرون على ذلك قد حيل بينهم وبين العمل غلقت منهم الرهون.

ورؤى بعضهم فى المنام فقال: ندمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل، وأنتم تعلمون ولا تعملون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان، أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة أحدنا أحب إليه من الدنيا وما فيها[٢].

• الموت كفارة لكل مسلم •

إنما كان الموت كفارة، لكل ما يلقاه الميت فى مرضه من الآلام والأوجاع، وقد قال ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى، من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[٣].

* وعن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «إذا بقى على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله شُدِّد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته من الجنة، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفًا فى الدنيا، هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه فى الدنيا ثم يصير إلى النار»[٤].

• لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله •

عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل وفاته بثلاثة أيام: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[٥].

(وذكره) ابن أبى الدنيا فى كتاب (حسن الظن بالله (تعالى)، وزاد: فإن قومًا قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال لهم تبارك وتعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٩٧).

(٢) لطائف المعارف (ص: ٣٢٨).

(٣) أخرجه البخارى (٥٦٤٧) ومسلم (٢٥٧١).

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى «ذكر الموت» كما فى شرح الصدور (ص: ٢٩).

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) وأحمد (٣/ ٣١٥).

فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت:٢٣).

وعن أنس أن النبى ﷺ دخل على شاب وهو فى الموت فقال: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد مؤمن فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف»[١].

* وحُسن الظن بالله تعالى، ينبغى أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه فى حال الصحة، وهو أن الله تعالى يرحمه ويتجاوز عنه ويغفر له... وينبغى لجلسائه أن يذكروه بذلك حتى يدخل فى قوله تعالى: «أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء»[٢].

* وقال الفضيل: «الخوف أفضل من الرجاء ما كان العبد صحيحًا فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف».

• من أحب الجنة فليحب الموت •

* وقال ابن عبد ربه لمكحول: «أتحبُّ الجنة؟ قال: وَمَن لا يحب الجنة؟!!، قال: فأحبَّ الموت، فإنك لن ترى الجنة حتى تموت»[٣].

* وعن حبان بن الأسود قال: الموت خير يُوصل الحبيب إلى الحبيب[٤].

* وقال عمر بن العزيز لبعض العلماء: عظنى، فقال: لست أول خليفة تموت؟ قال: زدنى، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر لذلك.

* وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرًا فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت، وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد.

* وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيّقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعّه عليك.

* وعن ابن مسعود رضى الله عنه: «ما من نفس بَرّة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة، إن كان برًا فقد قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ (آل عمران:١٩٨)، وإن

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وأبو نعيم بإسناد حسن.

(٢) رواه أحمد والبيهقى فى الشعب، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٦٥).

(٣) «حلية الأولياء» (٥/ ١٧٧).

(٤) «الحلية» (١٠/ ٩).

كان فاجرًا، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ (آل عمران:١٧٨).

* وقال عمر بن عبد العزيز: «إنما خُلقتم للأبد، وإنما تُنقلون من دار إلى دار»[١].

* وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما على الأرض نفس تموت، ولها عند الله خير، تحب أن ترجع إليكم، ولها نعيم الدنيا وما فيها إلا قتيل فإنه يحب أن يرجع فيُقتل مرة أخرى»[٢].

* وعن فضالة بن عُبيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهم من آمن بك، وشهد أنى رسولك فحبِّب إليه لقاءك، وسَهِّلْ عليه قضاءك، وأقلل له من الدنيا، ومَن لم يؤمن بك، ولم يشهد أنى رسولك، فلا تُحبِّبْ إليه لقاءك، ولا تُسَهِّل عليه قضاءك، وأكثر له من الدنيا»[٣].

* وعن محمود بن لبيد أن النبى ﷺ قال: «يكره ابن آدم الموت، والموت خير له من الفتنة»[٤].

* وصحّ عن الربيع بن خُثَيم أنه قال: «ما من غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت»[٥].

* وقال مالك بن مِغْول: «بلغنى أن أول سرور يدخل على المؤمن الموت، لما يرى من كرامة الله وثوابه».

* وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله»[٦].

* * *

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٨٧).

(٢) صحيح: رواه النسائى فى «المجتبى»، وابن المبارك فى «الجهاد»، وأحمد فى «مسنده»، والطبرانى.

(٣) إسناده قوى: رواه ابن حبان فى «صحيحه»، انظر: «الإحسان» (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) رقم (٢٠٨)، والطبرانى فى «الكبير» (١٨/ ٣١٣) رقم (٨٠٨)، وقال الشيخ حمدى عبد المجيد السلفى: رجاله ثقات.

(٤) رواه أحمد والبغوى فى شرح السنة وإسناده صحيح ـ انظر السلسلة الصحيحة (٨١٣).

(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٤)، و«الزهد» لابن المبارك رقم (٢٧٣)، و«الزهد» لوكيع (١/ ٣١٣).

(٦) أخرجه وكيع فى «الزهد» (١/ ٣١١)، وأحمد فى «الزهد» (١٥٦)، وابن المبارك فى «الزهد» (٦ ـ ٧)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٣٦). وإسناده إلى عبد الله بن مسعود موقوفًا صحيح.

• لا يكره الموت إلا أحد رجلين •

واعلم أخي الحبيب أنه لا يكره الموت إلا أحد رجلين:

* أحدهما: من لا يؤمن بالآخرة وعنده أن لا حياة ولا نعيم إلا في الدنيا كمن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ (البقرة:٩٦).

* والثاني: يُؤمن به ولكن يخاف ذنبه.

فأما من لم يكن كذلك فإنه يحبه، ويتمناه كما أحبّه الصالحون وتمنوه.

* قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1].

* وقال تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٩٤).

فالموت هو باب من أبواب الجنة، منه يُتوصل إليها، ولو لم يكن موتٌ لم تكن الجنة، ولذلك منّ الله تعالى به على الإنسان فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك:٢)، فقدّم الموت على الحياة تنبيهًا على أنه يتوصل به إلى الحياة الحقيقية، وعدّه علينا في نعمه[2]، فقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن:٢٦:٢٨)، وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (البقرة:٢٨).

فجعل الموت إنعامًا كما جعل الحياة إنعامًا؛ لأنه لما كانت الحياة الأخروية نعمة لا وصول إليها إلا بالموت، فالموت نعمة؛ لأن السبب الذي يتوصل به إلى النعمة نعمة. ولكون الموت ذريعة إلى السعادة الكبرى لم يكن الأنبياء والحكماء يخافونه حتى قال أحدهم: «والله ما أبالي أقع على الموت أو يقع الموت عليّ»، وكانوا يتوقعونه ويرون أنهم في حبس فينتظرون المبشر بإطلاقهم قال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران:١٥٨).

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن عائشة، وعن عبادة.

(٢) وعدّه الله تعالى مصيبة في سورة المائدة الآية (١٠٦)، قال تعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية.

• كراهة تمنى الموت بسبب كثرة الابتلاءات •

ويُكره للمؤمن أن يتمنى الموت عندما يشتد عليه البلاء إلا أن يخشى الفتنة فى دينه.

عنْ أبى هُريرة رضىَ اللَّهُ عنه أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قالَ: «لا يتمنيَّن أَحَدُكُمُ المَوْتَ إمَا مُحسنًا، فَلَعَلَّهُ يزْدادُ، وإمَّا مُسيئًا فَلَعلَّهُ يَسْتَعْتِبُ»(١).

وفى رواية لمسلم عن أبى هُرَيْرَةَ رضى اللَّهُ عنه عَنْ رسُول اللَّه ﷺ قال: «لا يتمنيَّن أَحَدُكُمُ المَوْتَ، وَلا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَه، إنَّهُ إذا ماتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وإنَّهُ لا يَزيدُ المُؤْمِنَ عُمرُهُ إلاَّ خَيرًا».

وعن أنس رضى اللَّه عنه قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «لايَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لضُرٍّ أَصَابَهُ فَإنْ كانَ لابُدَّ فاعلاً، فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ أَحْيِنى ما كانَت الحَيَاةُ خَيْرًا لى، وتَوَفَّنى إذا كانَت الوفاةُ خَيرًا لى»(٢).

قال الإمام النووى: «فيه التصريح بكراهة تمنى الموت لضرّ نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضرراً فى دينه، أو فتنة فيه، فلا كراهة فيه؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثانى خلائق من السلف عند خوف الفتنة فى أديانهم.

وفيه: أنه إن خالف ولم يصبر على حاله فى بلواه بالمرض ونحوه فليقل: اللهم أحينى إن كانت الحياة خيراً... إلخ، والأفضل الصبر والسكون للقضاء»(٣).

* قال الحافظ ابن حجر: «لا يتمنّين... أنه إذا حلّ به ـ أى الموت ـ لا يمنع من تمنيه رضًا.

* * *

(١) [صحيح]: أخرجه البخارى (١٠/ ٥٦٧٣/ فتح) المرضى/ باب: تمنى المريض الموت، ومسلم (٢٦٨٢) فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب: كراهة تمنى الموت.

(٢) [صحيح]: أخرجه البخارى (١٠/ ٥٦٧١/ فتح) المرضى ـ ومسلم (٢٦٨٠) الذكر.

(٣) مسلم بشرح النووى (٥/ ٥٣٧).

• تمنى الموت يقع على وجوه •

والتحقيق فى تلك المسألة: أن تمنى الموت يقع على وجوه:

* منها: تمنّيه لضر دنيوى ينزل بالعبد فيُنهى حينئذ عن تمنى الموت.

ووجه كراهيته فى هذا الحال أن المتمنى للموت لضر نزل به إنما يتمناه تعجيلاً للاستراحة من ضره وهو لا يدرى إلى ما يصير بعد الموت فلعله يصير إلى ضر أعظم من ضره فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار. وفى الحديث عن النبى ﷺ قال: «إنما يستريح مَن غُفِر له»(١)، فلهذا لا ينبغى له أن يدعو بالموت إلا أن يشترط أن يكون خيرًا له عند الله عز وجل.

* ومنها: تمنيه خوف الفتنة فى الدين فيجوز حينئذ. وقد تمنّاه ودعا به خشية فتنة الدين خلق من الصحابة وأئمة الإسلام... وفى حديث المنام: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون».

* تمنّى الموت عند حضور أسباب الشهادة: فيجوز ذلك أيضًا، وسؤال الصحابة الشهادة وتعرضهم لها عند حضور الجهاد كثير مشهور وكذلك سؤال مُعاذ لنفسه وأهل بيته الطاعون لما وقع بالشام.

* ومنها تمنى الموت لمن وثق بعمله شوقًا إلى لقاء الله عز وجل: فهذا يجوز أيضًا وقد فعله كثير من السلف.

* قال أبو الدرداء: أحب الموت اشتياقًا إلى ربى. وقال عنبسة الخولانى: كان من قبلكم لقاء الله أحب إليه من الشهد. وقال بعضهم: طال شوقى إليك فعجّل قدومى عليك. وقال بعضهم: لا تطيب نفسى بالموت إلا إذا ذكرت لقاء الله عز وجل فإننى حينئذ أشتاق إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه فى اليوم الحار الشديد حره إلى الماء البارد الشديد برده. وفى هذا يقول بعضهم:

أشتاق إليك يا قريبًا نائى ... شوق ظمأ إلى زلال الماء

وقد دل على جواز ذلك قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٩٤)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢٤٠٨٠)، وقال الألبانى فى الصحيحة (٤/٢٨٦) حديث (١٧١٠): صحيح لكثرة طرقه.

أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة:٦) فدلّ ذلك على أن أولياء الله لا يكرهون الموت بل يتمنونه، ثم أخبر أنهم ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فدل على أنه إنما يكره الموت من له ذنوب يخاف القدوم عليها، كما قال بعض السلف: ما يكره الموت إلا مريب. وفى حديث عمار بن ياسر عن النبى ﷺ: «أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة»(١)، فالشوق إلى الله تعالى إنما يكون بمحبة الموت.

قال أبو بكر الصديق لعمر رضى الله عنهما فى وصيته له عند الموت: إن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت ولا بد منه، وإن ضيّعتها لم يكن غائب أكره إليك من الموت ولن تُعجزه.

قال أبو حازم: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه ثم لا يضرّك متى مِت.

* سُئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصى فكقدوم الآبق على سيده الغضبان(٢).

* رُئى أحد الصالحين فى النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا لم يُر مثل الكريم إذا حلَّ به مطيع.. الدنيا كلها شهر الصيام للمتقين وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم... وصدق من قال:

وقد صُمت عن لذات دهرى كلها ... ويوم لقاكم ذاك فطر صيامى

* قال الحافظ ابن حجر: «لا يتمنيّن... أنه إذا حَل به - أى الموت - لا يمنع من تمنيه رضًا بلقاء الله ولا من طلبه من الله لذلك وهو كذلك، ولهذه النكتة عقّب البخارى حديث أبى هريرة بحديث عائشة: «اللَّهم اغفر لى، وارحمنى، وألحقنى بالرفيق الأعلى» إشارة إلى أن النهى مختص بالحالة التى قبل نزول الموت(٣).

* قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى يوم الجمل: ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة(٤).

(١) رواه النسائى وابن حبان والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٠١).

(٢) لطائف المعارف (ص: ٥٨٢: ٥٨٥) بتصرف.

(٣) فتح البارى (١٠/ ١٣٣ - ١٣٤).

(٤) كتاب المتمنين/ لابن أبى الدنيا (ص: ٦٢).

* وتمنى عطاء السلمى الموت، وقال: إنما يريد الحياة من يزداد خيراً فأما من يزداد شراً فما يصنع بالحياة[١].

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعًا: «والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمرّ الرجل على القبر فيتمرّغ عليه ويقول: يا ليتنى كنتُ مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدِّين إلا البلاء» (أخرجه مسلم).

• الموت مصيبة... والغفلة عنه من أعظم المصائب •

فالموت هائل وخطره عظيم والناس فى غفلة عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له.

«ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه. فالطريق فيه أن يفرّغ العبد قلبه عن كل شىء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه. وأنجع طريق فيه أن يذكر أقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حُسن صورهم. وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيّعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم».

* نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرّت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديدًا حتى ارتفع صوته»[٢].

قال القرطبى: قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار، وهو من أعظم المصائب، وقد سماه الله تعالى مصيبة، فى قوله (تعالى) ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ فالموت هو المصيبة العظمى والرزية الكبرى. قال علماؤنا: وأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وقلة التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرة لمن

---

(١) كتاب المتمنين/ لابن أبى الدنيا (ص: ٦٩).

(٢) «الإحياء» (٤/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

اعتبر وفكرة لمن تفكر، وفى خبر يروى عن النبى ﷺ: «لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمينًا»[١].

• ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ •

ومن أركان الإيمان... الإيمان (بالملائكة) الذين هم عباد الله المكرمون والسفرة بينه تعالى وبين رسله عليهم الصلاة والسلام (الكرام) خَلقًا وخُلقًا والكرام على الله تعالى (البررة) الطاهرين ذاتًا وصفة وأفعالا المطيعين لله عز وجل، وهم عباد من عباد الله عز وجل خلقهم الله تعالى من النور لعبادته، ليسوا بناتًا لله عز وجل ولا أولادًا، ولا شركاء معه ولا أندادًا... تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوًا كبيرًا[٢].

* ومن بين الملائكة الملَك الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت وأعوانه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة:١١)، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (الأنعام:٦١، ٦٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الأنفال:٥٠)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٢٨-٣٢) وغيرها من الآيات. وقد جاء فى الأحاديث أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله، إن كان محسنًا ففى أحسن هيئة وأجمل صورة بأعظم بشارة، وإن كان مسيئًا ففى أشنع هيئة وأفظع منظر بأغلظ وعيد، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها فى يده بل يضعونها فى أكفان وحنوط يليق بها كما قال تعالى:

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة:٨٣:٩٦) سبحان

---

(١) التذكرة (١/ ٣٧: ٣٨).

(٢) معارج القبول (٢/ ٥٣ ـ ٥٤) بتصرف.

الله وبحمده سبحان الله العظيم نستغفر الله[١].

* قال ابن بطة: «الإيمان بملك الموت ﷺ أنه يقبض الأرواح، ثم تُرد في الأجساد في القبور وهو يتصف بصفات من القدرة والسلطان وعظم الخلق وغيرهما من الصفات التي جعلته قادرًا على قبض أرواح كثيرة في أماكن مختلفة بعيدة الأطراف في لحظة واحدة»[٢].

قال ابن عباس: «خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب»[٣].

وصح عن مجاهد أنه قال عن ملك الموت: «حُويت له الأرض فجُعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء»[٤].

• مشهد السكرات ونداء ملك الموت •

* قال القرطبي: «مَثِّلْ نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمن قائل يقول: إن فلانا قد أوصى، وماله قد أحصى، ومن قائل يقول: إن فلانا ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر على رد الجواب. فَخَيِّلْ لنفسك، يا ابن آدم إذا أُخذت من فراشك إلى لوح مغسلك، فغسلك الغاسل، وأُلبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تحالله، وأين اليتامى ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبدا[٥].

ياله من مشهدٍ مهيب يتحدد من خلاله مصير العبد إما إلى ظلٍ ظليل وإما إلى شرٍ مقيل.

يقول صاحب الإحياء رحمه الله:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات

---

(١) معارج القبول (٢/ ٥٦).

(٢) «الشرح والإبانة» لابن بطة ص (٢٢٢)، و«البداية والنهاية» (١/ ٤٧)، و«شرح الطحاوية» ص(٤٤٠)، و«التذكرة» للقرطبي (١/ ٨٨)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٩٤).

(٣) «العظمة» لأبي الشيخ (٣/ ٩٢٤)، و«العرش» لابن أبي شيبة، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (٥٠٥)، وهو موقوف ورجال إسناده ثقات.

(٤) تفسير الطبري (٢١/ ٩٨) و«الحبائل في أخبار الملائك» (ص: ٣٥).

(٥) التذكرة (ص: ٢١).

الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء: كربٌ بيد سواك لا تدرى متى يغشاك. وقال لقمان لابنه: يابنى أمرٌ لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه أسد فيضربه خمس ضربات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور...... واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها.

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلا تسأل عن كربه، حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المنزوع نفس الروح؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه، إنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة.

أما العقل: فقد غشيه وشوّشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارًا وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغير لونه واربّد حتى ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته، وقد جُذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر فى داخله وخارجه، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه، وتتقلص الشفتان، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما، وتتخضر أنامله.

فلا تسل عن بدن يُجذب منه كل عرق من عروقه! ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيمًا فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع

العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيًا فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكُربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويُغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة، قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[(١)].

وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ (النساء:١٨). قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته! ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللّهم هون علىّ سكرات الموت»[(٢)] والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تُدرك بنور النبوة والولاية، ولذلك عظم خوف الأنبياء والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهون علىَّ هذه السكرة ـ يعنى الموت ـ فقد خفت الموت مخافة حتى أوقفنى خوفى من الموت على الموت....... وروى أن نفراً من بنى إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتًا تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه السجود قد خرج من القبور فقال: يا قوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبى..... وقالت عائشة رضى الله عنها لا أغبط أحد يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ .

وكان علىّ (رضى الله عنه) يحض على القتال ويقول: إن لم تُقتلوا تموتوا والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علىَّ من موت على فراش. وقال الأوزاعى: بلغنا أنَّ الميت يجد ألم الموت ما لم يُبعث من قبره. وقال شداد بن أوس: الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى فى القدور، ولو أن الميت رجع فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم.

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقى على المؤمن من درجاته شئ لم يبلغها بعمله شُدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة، وإذا كان للكافر معروف

(١) رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه عن ابن عمر وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرج الترمذى والنسائى فى الكبرى، والطبرانى فى الكبير، وأحمد فى المسند عن عائشة بلفظ: «اللهم أعنى على سكرات الموت»، وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (١١٧٦)، ورياض الصالحين (٩١٧).

لم يُجز به هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار.

وعن بعضهم: أنه كان يسأل كثيراً من المرضى كيف تجدون الموت ؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة.

وقال ﷺ: «موت الفجأة أخذة أسف»[١]...

وروى عن النبى ﷺ أنه كان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول: «لا إله إلا اللّه إن للموت لسكرات».

وفى رواية «اللهم أعنى على سكرات الموت»[٢].

وفاطمة رضى اللّه عنها تقول واكرباه لكربك يا أبتاه! وهو يقول «لا كرب على أبيك بعد اليوم»[٣].

وقال عمر رضى اللّه عنه لكعب الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أُدخل فى جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذّب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى.

فهذه سكرات الموت على أولياء اللّه وأحبابه، فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى.

• الذى يخفف عنه سكرات الموت •

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهيد الذى يسقط فى المعركة تخفف عنه سكرات الموت، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة»[٤].

❊ ❊ ❊

(١) رواه أحمد وأبو داود عن عبيد اللّه بن خالد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٣١).

(٢) أخرجه البخارى عن عائشة (٦٥١٠) باب سكرات الموت - كتاب الرقاق. وأما الزيادة فى قوله «اللّهم أعنّى على سكرات الموت» فهى عن أصحاب السنن سوى أبى داود بسند حسن

(٣) أخرجه البخارى عن أنس (٤٤٦٢) باب مرض النبى ﷺ ووفاته - كتاب المغازى.

(٤) رواه النسائى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٤٦).

• لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله •

قال ﷺ: «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله»[(١)].

قال القرطبى: قال علماؤنا: تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل بها المسلمون، وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم له بالسعادة، وليدخل فى عموم قوله عليه السلام: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[(٢)].

* فإذا تلقنها المحتضر وقالها مرة واحدة فلا تعاد عليه لئلا يضجر، وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين، والإلحاح عليه إذا هو تلقنها أو فهم ذلك عنه، قال ابن المبارك: «لقنوا الميت لا إله إلا الله فإذا قالها فدعوه».

قال أبو محمد عبد الحق: وإنما ذلك لأنه يخاف عليه إذا لج عليه بها أن يتبرم ويضجر، ويثقلها الشيطان عليه، فيكون سببًا لسوء الخاتمة[(٣)].

• يا لها من لحظات •

قال القرطبى: وفى الخبر: أنه إذا دنت منية المؤمن نزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى وملك يجذبها من قدمه اليسرى (وملك يجذبها من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى)، والنفس تنسل انسلال القطرة من السقاء وهم يجذبونها من أطراف البنان ورؤوس الأصابع. والكافر تنسل روحه كالسفود من الصوف المبتل. فمثِّل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمن قائل يقول: إن فلانًا قد أوصى، وماله قد أحصى، ومن قائل يقول: إن فلانًا ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأنى أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر على رد الجواب، ثم تبكى ابنتك وهى كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبى أبى من ليُتمى من بعدك؟ ومن لحاجتى؟ وأنت والله تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦) وأبو داود (٣١١٧) والترمذى (٩٨٣).

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه وأقره الذهبى.

(٣) التذكرة/ (١/ ٩٥).

(٤) التذكرة (١/ ٧٥: ٧٦) بتصرف.

لَيسَ الغَرِيْبُ غَرِيبَ الشَّامِ واليَمَنِ ... إنَّ الغَرِيْبَ غَرِيْبُ اللَّحْـدِ والكَفَنِ

إنَّ الغَـرِيْـبَ لَـهُ حَـقٌّ لِغُرْبَتِـه ... عَلَى المُقِيمينَ فى الأوْطَانِ والسَّكَنِ

لا تَنْـهَرنَّ غريبـًا حَـالَ غُربـتِـه ... الدَّهْـرُ يَنهَـرْهُ بالـذِّلِ والمِحَـنِ

سَفَرِىْ بعيـدٌ وزادِى لَنْ يُبَلِّغَنـى ... وَقوَّتـى ضَعُفَـتْ والموتُ يَطْلُبُنى

ولـى بَقَايَـا ذُنُوبٍ لَسْتُ أعلمُهَــا ... الله يَعْلَمُـها فى السِّر والعَلَـنِ

مـا أَحْلَـمَ الله عنِّى حَيـثُ أمهَلَنى ... وقـد تَمادَيْـتُ فى ذَنْبـى وَيَسْتُرنى

تمـرُ سَاعَــاتُ أيامى بـلا نَـدَمٍ ... ولا بُكَـاءٍ ولا خَـوفٍ ولا حَـزَنِ

أنا الـذى أُغْلقُ الأبْـوَابَ مُجْتَهِـدًا ... عـلى المعاصِى وعَـينُ الله تَنْظُرُنى

يا زَلةً كُتِبتْ فـى غَفْلـةٍ ذَهَبَـتْ ... يا حَسرةً بَقِيَتْ فى القلْبِ تُحْرِقُنى

دَعْنـى أنُـوحُ علـى نَفْسـى وأندبُها ... وأَقْطَـعُ الدَّهْـرَ بالتَـذْكيـرِ والحَـزَنِ

دَعْ عَنْكَ عَذْلى يَا مَنْ كـان يَعْذِلُنى ... لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بى كُنْت تَعْـذُرُنى

دَعْنى أسِحُّ دَمُوعـًا لا انْقطَـاعَ لَهَـا ... فَهَلْ عَسَى عَبْرَةٌ مِنْهَـا تُخَلِّصُنى

كَأَنَّنى بَيْنَ تِلْكَ الأهلِ مُنْطرِحـًا ... عـلى الفِـرَاشِ وَأيْدِيهِـمْ تُقَلِّبُنى

كَأَنَنى وَحَــولـى مَـنْ يَنُـوحُ ومَـنْ ... يَبْكِى عَلَىَّ وينْعَــانى وَيَنْــدبُنى

وقـدْ أتَوا بِطبيبٍ كَىْ يُعـالِجنى ... ولَم أَرَ الطَبِيـبَ اليـومَ يَنْفَـعُنى

وَاشْتَدَّ نَزْعِى وصَارَ الموتُ يَجْذِبُها ... مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بلاَ رِفْقٍ وَلا هَوَنِ

وَاستَخْرَجَ الرَوحَ مِنِّى فى تَغَرْغُرِهَا ... وصَارَ رِيقِى مَرِيرًا حِينَ غَرْغَرنَى

وَغَمَّضُونى وَرَاحَ الكُلُ وَانصرَفُوا ... بَعْدَ الإيَاسِ وَجَـدّوا فى شِرَا كَفَنى

وَقَامَ مَنْ كَانَ أحَبَّ الناسِ فى عَجَلٍ ... نَحْــــوَ المُغسِّلِ يأتِينى يُغَسِّلُنى

وقَالَ يا قَومُ نَبْغِى غَاسِلاً حذِقًا ... حُـــرًا أديبًا أرِيْبًا عـــارِفًا فَطِـنِ

فَجَــاءنِى رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدنـى ... مِنْ الثِيَــابِ وَأعْـرَانِى وأفْـرَدَنى

وَأوْدَعُونى عَلى الألوَاحِ مُنْطَرِحًا ... وصَارَ فَوْقى خَرِيرُ الماءِ يَنْظفُنى
وأسكَبَ الماءَ مِنْ فوقى وَغَسَّلَنى ... غَسلاً ثَلاثًا وَنَادَى القَوْمَ بالكَفَنِ
وَألْبسُونى ثِيَابًا لا كِمَامَ لَهَا ... وَصَارَ زَادى حَنُوطِى حينَ حَنَّطنى
وأخْرَجُونى منَ الدنيا فَوا أسَفا ... على رَحِيلِ بلا زَادٍ يُبلِّغُنى
وَحَمَّلُونِى على الأكْتَافِ أربَعَةٌ ... مِنَ الرجَالِ وخَلْفِى مَنْ يُشَيِّعُنى
وَقَدَّمُونِى إلى المِحرَابِ وانْصرَفُوا ... خَلفَ الإمَامِ فَصَلَّى ثُمَّ وَدعَنى
صَلَّوا عَلىَّ صَلاةً لا رُكُوعَ لَهَا ... وَلا سُجُودَ لَعَلَّ اللهَ يَرحَمُنى
وَأنزَلُونى إلى قَبْرِى عَلَى مَهَلِ ... وَقَدَّمُوا وَاحِدًا مِنهُم يُلَحِّدُنى
وَكَشَّفَ الثَوْبَ عَنْ وجَهى لِيَنْظُرَنى ... وَأسْبَلَ الدَّمْعَ مِن عَيَنَيه أغْرَقَنى
فَقَامَ مُحْتَزِمًا بالعَزْمِ مُشْتَمِلاً ... وَصَفَّفَ اللَّبِنَ مِنْ فَوقِى وَفَارقَنى
وَقَالَ هُلُّوا عَلَيه التُّرابَ واغْتَنِمُوا ... حُسْنَ الثَّوَابِ مِن الرحمن ذِى المِنَنِ
فى ظُلْمَة القَبْرِ لا أمٌ هُنَاكَ ولا ... أبٌ شَفِيقٌ ولا أخٌ يُؤنِّسُنى
وَهَالَنى صُورَةٌ فى العَين إذ نَظَرَتْ ... مِنْ هَوْلِ مطلَعِ مَا قَدْ كَانَ أدهَشَنى
مِنْ مُنْكرٍ وَنَكِيْرٍ مَا أقُولُ لَهُمْ ... قَدْ هَالَنِى أمرهم جدًا فأفزعنى
وأقعَدُونى وَجَدُّوا فى سُؤالِهِمُ ... مَا لِى سِوَاكَ إلهِى مَنْ يُخَلِّصُنى
فامْنُنْ عَلَىَّ بعَفْوٍ مِنْكَ يَا أمَلى ... فَإنَّنى مُوثَقٌ بالذَّنْبِ مُرتَهَنِ
تَقَاسَمَ الأهْلُ مَالِىْ بَعدَمَا انْصرَفُوا ... وَصَارَ وِزْرِى على ظَهْرِى فأثْقَلَنى
واسْتَبْدلَتْ زَوجَتى بَعْلاً لَهَا بَدَلِى ... وَحكَّمَتْهُ فى الأمْوالِ والسَكَنِ
وصَيَّرَتْ إبْنى عَبْدًا لِيَخْدِمَهُ ... وَصَارَ مَالِى لَهُمْ حلاً بِلا ثَمَنِ
فَلا تَغُرَنَّكَ الدُّنْيَا وزِينَتُهَا ... وانْظُرْ إلى فِعْلِهَا فى الأهل والوَطنِ
وانْظُرْ إلى مَنْ حَوَى الدنيا بأجْمَعِهَا ... هَل رَاحَ منها بِغَيْرِ الحَنْطِ والكَفنِ

خُذِ القَناعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وارض بِها	لَوْ لَمْ يَكُنْ لَك فيها إلا رَاحة البَدَن
يا زَارعَ الخيرِ تَحصُدْ بَعدَهُ ثَمرًا	يا زَارِعَ الشَرِّ مَوْقُوفٌ على الوَهَنِ
يَا نَفْسُ كُفِى عن العِصْيَانِ واكْتَسِبِى	فعْلاً جَمِيْلاً لَعلَّ الله يَرحَمُنِى
يَا نَفْسُ وَيحَكِ تُوبِى واعْمَلى حَسَنًا	عَسَى تُجزَيْن بَعْد الموتِ بالحَسَنِ
ثُمَّ الصَلاةُ على المُختَارِ سَيْدِنَا	مَا وضَّأَ البَرْقُ فى شَامٍ وفى يَمَنِ
والحَمد لله مُمْسِيْنَا ومُصْبِحِنَا	بالخَيْرِ والعَفْوِ والإحسَانِ والمِنَنِ[1]

• ويا لها من كرامة •

* وأخرج ابن المبارك وابن منده عن محمد بن كعب القرظى قال:

«إذا استنقعت[2] نفسُ العبد المُؤمن، جاءهُ ملكُ الموت، فقال: السلامُ عليك يا ولى الله، الله يُقرئُك السلام، ثم نزعَ بهذه الآية:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[3].

* وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال:

«تَخرجُ رُوحُ المؤمن، وهى أطيبُ ريحًا من المسك، فتصعدُ بها الملائكةُ الذين يتوفونها، فتلقاهم ملائكةٌ دون السماء، فيقولون:

من هذا الذى معكم؟

فيقولون: فلانٌ، ويذكرونهُ بأحسن عمله، فيقولون: حياكُمُ الله، وحيًّا من معكُمْ، فتُفتحُ له أبوابُ السماء، فيُصعدُ به من الباب الذى كان يصعدُ عملهُ منه، فيُشرقُ وجهه، فيأتى الرب، ولوجهه بُرهانٌ مثلُ الشمس»[4].

---

(١) من شعر الإمام على زين العابدين بن الحسين بن على (رضى الله عنهم جميعًا).

(٢) أى اجتمعت فى فيه، تريد أن تخرج، كما يستنقع الماء فى قراره.

(٣) «بشرى الكئيب» ص(٤٨)، وانظر: «الزهد» لابن المبارك رقم (٤٤٢).

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (١٣/ ٣٨٤)، والبيهقى فى «إثبات عذاب القبر» رقم (٢٥١)، وأبو نعيم فى «حلية الأولياء» (١/ ٢٦٢) من طريق حسين بن على عن زائدة، عن عاصم، عن سفيان، عن أبى موسى.

ونسبه الزبيدى فى «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٤٠٣) إلى اللالكائى.

* وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال:

«إذا توفَّى اللهُ العبدَ المؤمن، أرسلَ إليه ملكين بخرقة من الجنة، وريحان الجنة، فقالا: أيتُها الروحُ الطيبة، اخرُجى إلى روحٍ وريحان، وربٍ غيرِ غضبان.

اخرُجى، فنعمَ ما قَدَّمتِ.

فتخرُجُ كأطيب رائحة مسكٍ وَجَدَهَا أحدُكم بأَنْفِه.

وعلى أرجاء السماء ملائكةٌ يقولون: سبحان الله، لقد جاءَ من الأرض روحٌ طيبةٌ، فلا يمر بباب، إلا فُتح له، ولا ملكٌ إلا صلى عليه وشُفِّع، حتى يُؤتى به ربه، فتسجد الملائكةُ قَبْلَهُ، ثم يقولون:

ربنا هذا عبدك فلانٌ، توفيناهُ، أنت أعلمُ به.

فيقولُ: مُرُوهُ بالسجود، فتسجدُ النسمةُ، ثم يُدعَى ميكائيلُ، فيُقالُ:

اجعل هذه النسمةَ، مع أَنفُسِ المُؤمنين، حتى أسألكَ عنها يومَ القيامةِ.

فيُؤمرُ بقبرهِ، فيُوسعُ له، طُولهُ سبعون، وعرضهُ سبعون، ويُنبذُ فيه الريحان، ويُبسطُ له فيه الحرير، وإن كان معه شيءٌ من القرآن نوَّرهُ، وإلا جُعلَ له نورٌ مثل نورِ الشمس، فيُفتحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فينظرُ إلى مقعده فى الجنةِ بكرةً وعشيًا»[1].

* * *

(١) أخرجه هناد فى «الزهد» (١/ ١٢٩) رقم (١٦٨)، والطبرانى فى «الكبير» كما فى «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٢٧) وفيه: «رجاله ثقات».

وعزاه المصنف فى «الدر المنثور» (٢/ ٩٩)، وفى «شرح الصدور» (٢٧) إلى عبد بن حميد أيضًا، وقال: «سنده رجاله ثقات».

قلت: وهو عند عبد بن حميد فى «التفسير»، كما صرح به الزبيدى فى «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٤٠٢) وقال: «رجاله ثقات».

• دواهى الموت ثلاثة •

الأولى: شدة النزع كما ذكرناه.

الداهية الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب؛ فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته. فقد رُوى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك، قال بلى قال: فأعرض عنى..... فأعرض عنه. ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان، فُغشى على إبراهيم عليه السلام. ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه (أى يكفيه)، وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ: «إن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان إذا خرج أغلق الأبواب، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هى برجل فى الدار فقالت: من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء؟ فجاء داود فرآه فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمنع منى الحجاب، فقال: فأنت واللّه إذن ملك الموت ولزم داود عليه السلام مكانه»[1].

وروى أنّ عيسى عليه السلام مرَّ بجمجمة فضربها برجله فقال: تكلمى بإذن اللّه فقالت: يا روح اللّه أنا ملك زمان كذا وكذا وبينا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير مُلكى، إذ بدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حياله، ثم، خرجت نفسى إليه، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة! ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة[2].

فهذه داهية يلقاها العصاة ويُكفاها المطيعون، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك، ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره! فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال؟.

وأما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٩) باسناد جيد نحوه ـ وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت بلفظه.

(٢) ذكرها الغزالى فى الإحياء (٤/ ٤٦٤) وصدّرها بصيغة التضعيف: رُوى. ولم يذكر لها سنداً.

ذات يوم فدخل فإذا برجلٍ فى جوف البيت فقال: من أدخلك دارى؟ فقال: أدخلنيها ربها! فقال: أنا ربها. فقال: أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك، فقال: هل أنت من الملائكة ؟ قال: أنا ملك الموت قال: هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض عنى، فأعرِض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه (يكفيه).

ومنه مشاهدة الملكين الحافظين. قال وهيب: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعًا قالا له: جزاك اللّه عنا خيرًا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجرًا قالا له: لا جزاك اللّه عنا خيرًا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك اللّه عنا خيرًا. فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدًا. فو اللّه يا أخى. إنها اللحظة الحاسمة فى حياة المؤمن والكافر.

إنها اللحظة التى يسمع فيها النداء الذى يبشره بالرحمة أو النداء الذى يتوعده بالعذاب.

ولك أن تتخيل أيها الحبيب أن ملك الموت قد دخل عليك الآن وسينادى عليك ويقول. «يا أيتها النفس الـ .....». وأنت بين تلك الكربات وتلك الحسرات تسأل نفسك يا تُرى بأى نداء سوف يُنادى علىَّ؟ هل سيقول يا أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من اللّه ورضوان ؟! أم سينادى ويقول يا أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من اللّه وغضب؟!.

فإذا جاءك النداء الأول: (يا أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان) فذاك هو الفوز الذى لا فوز بعده، وتلك هى البشرى التى لا تدانيها الدنيا بما عليها.

وأما إن جاءك النداء الثانى عياذًا بالله (أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب)، فتلك هى الحسرة التى لا حسرة تدانيها فى هذه الدنيا.. إنه الوعيد والعذاب الذى لا ينتهى أبدًا.

ذُكر فى بعض الأخبار أن الميت ينادى عليه إذا وُضع على المغتسل: أين لسانك الفصيح ما أسكتك؟ أين صوتك الشجى ما أخرسك؟ أين ريحك العطر ما أنتنك؟ أين

حركاتك ما أسكنك؟ أين أموالك الكثيرة ما أفقرك؟ الويل لك إن كنت عاصيا، والبشرى لك إن كنت طائعا، وتناديه الملائكه إذا وضع فى القبر: يا عبد الله أنت تركت الدنيا أم الدنيا تركتك؟ أنت جمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك؟

عباد الله لا تغفلوا عن ذكر الموت، وتفكروا فيه قبل الفوت، فوالله ما بين أحدكم وبين طول الأسف، والندامة على ما قد سلف، إلا أن تنزل به المنية، غدوة أو عشية، فعظ نفسك قبل حلول الرزية......، ولقد قيل فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ (المنافقون:١٠).

قيل: الأجل القريب عند كشف الغطاء، يقول العبد عند الموت: يا ملك الموت أخرنى يوما أعمل فيه صالحا لنفسى، فيقول ملك الموت: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول أخرنى ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيقول: اتركنى أتكلم، فيقول فرغ كلامك فلا كلام، فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكظمه فتقطع الأوقات والأعمال ويبقى عدد الأنفاس ليشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره فإذا كان فى آخر نفس زهقت نفسه فيدركه ما سبقت له من شقاوة أو سعادة.

أما عن **الداهية الثالثة** فهى مشاهدة العُصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة؛ فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين: إما أبشر يا عدوّ الله بالنار، أو أبشر يا ولى الله بالجنة، ومن هنا كان خوف أرباب الألباب.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقلت: يا نبى الله: أكراهية الموت؟ فكلنا يكره الموت. قال: «ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بُشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بُشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه»[١].

• أتدرى ماذا يقول النعش •

دخل بهاء الدين السبكى على الشيخ برهان الدين الإبناسى يعوده ـ يزوره ـ وكان تجاههما نعش، فنظر السبكى إلى النعش، ثم قال للإبناسى: يا شيخ برهان الدين: أتدرى

(١) أخرجه مسلم عن عائشة ـ باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ـ كتاب الجنائز.

ما يقول هذا النعش؟ فقال إنه يقول:

انْظُرْ إليَّ بعَقْلكْ أَنَا المُعَدُّ لحَمْلكْ
أَنَا سَرِيرُ المَنَايَا كَمْ سارَ مِثْلِي بمِثْلكْ[1]

• بعض القصص الذى يبين لنا مشاهد الحسرة والفرحة عند لقاء الموت •

قال أشعث بن أسلم: سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ـ واسمه عزرائيل وله عينان، عين فى وجهه وعين فى قفاه ـ فقال: يا ملك الموت ما تصنع. إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع؟ قال: أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعى هاتين.

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام: ما لى أراك لا تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا؟ قال: ما أنا بذلك بأعلم منك! إنما هى صحف أو كتب تُلقَى إلىّ فيها أسماء،..... وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه ـ بعد مرات ـ وطلب دابة فأتى بها فلم تعجبه، حتى أتى بدواب فركب أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ فى منخره نفخة فملأه كبِرًا. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرًا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم عليه فلم يرد عليه السلام، فأخذ بلجام دابته فقال: أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرًا عظيمًا! قال: إن لى إليك حاجة قال: اصبر حتى أنزل قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال اذكرها! قال، هو سر، فأدنى له رأسه فسارّه وقال، أنا ملك الموت! فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعنى حتى أرجع إلى أهلى وأقضى حاجتى وأودعهم، قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدًا! فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة، ثم مضى ـ ملك الموت ـ فلقى عبدًا مؤمنًا فى تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال: إن لى إليك حاجة أذكرها فى أذنك فقال هات.... فسارّه وقال أنا ملك الموت! فقال: أهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته علىَّ فوالله ما كان فى الأرض غائب أحب إلىَّ أن ألقاه منك! فقال ملك الموت! اقض حاجتك التى خرجت لها، فقال ما لى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى! قال فاختر على أى حال شئت أن أقبض

(١) المنهل الصافى (١/ ٤١٣).

روحك! فقال: تقدر على ذلك؟ قال نعم إنى أُمرت بذلك، قال: فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ثم اقبض روحى وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد.

قال عطاء بن يسار: إذا كانت ليلة النصف من شعبان دُفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال: اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة قال: فإن العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبنى البنيان، وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى.

وقال الحسن: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنّة وبكاء، فيأخذ ملك الموت بعضادتى الباب فيقول: والله ما أكلت له رزقًا ولا أفنيت له عمرًا، ولا انتقصت له أجلاً، وإن لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا. قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم.

وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جُلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إلىَّ كأنه يريدنى قال: فماذا تريد؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند! ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى قال: نعم كنت أتعجب منه لأنى كنت أُمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك[1]!

فيا أخى الحبيب ألا تغتنم العمر فى طاعة الله جل وعلا قبل أن تسمع هذا النداء الذى يقرع القلوب والأسماع.

أيا عبدُ كم يراك اللـــه عاصيـا	حريصًا على الدنيا وللموت ناسيا
أنسيت لقاء الله واللحد والثرى	ويومًا عبـوسًا تشيب فيه النواصيا
لو أن المرء لم يلبس ثيابًا من التُقى	تجــرد عُريانًا ولو كـــان كاسيا
ولو أن الدنيــــا تدوم لأهلهـــا	لكــــان رسـول الله حيًا وباقيا
لكنهــــــا تفنى ويفنى نعيمُهـــا	وتبقى الذنوب والمعاصى كما هى

فهذه الدنيا التى تحرص على جمعها وتبذل الأوقات والساعات فى سبيل جمع

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى جـ٥ ـ باب فى سكرات الموت وشدته ـ صـ ١٣٩: ١٤٩ بتصرف.

حُطامها لو عُرِضت عليك (بكل ما فيها من ذهب وفضة وقصور وأنهار وأشجار) عند الموت لقلت بلسان الحال والمقال لا أريد إلا رحمة الله عز وجل، ولا أريد إلا النجاة من عذاب الله جل وعلا.

فإن كان الأمر كذلك فكيف تحرص على جزء يسير من الدنيا التى لو عُرِضت عليك عند الموت بأكملها لأعرضت عنها!!!

• كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين •

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسّال بجانب دمشق يلوى ثوبًا بيده ثم يضرب به المغسلة، فقال عبد الملك: ليتنى كنت غسالاً آكل من كسب يدى يومًا بيوم ولم آل من أمر الدنيا شيئًا، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمنّ ما هم فيه......... وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام:٩٤) . ثم مات.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ: كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار. فلما كان اليوم الذى قُبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر ـ بينى وبينه باب وهو فى قبة له ـ فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣).

ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلامًا فقلت لوصيفٍ له: انظر أنائم هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت.

وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال: أرى الرجل قد سُقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضًا على من لم يُسق السم! قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك، قال: ربى خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى إلى أذنى فتناولته. اللهم خر لعمر فى لقائك فلم يلبث إلا أيامًا حتى مات.... وقيل لما حضرته

الوفاة: بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننًا وأظهر بك عدلاً! فبكى ثم قال: أليس أوقف فأُسأل عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى أن لا تقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حجتها، فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات: ولما قرب وقت موته قال: أجلسونى! فأجلسوه فقال: أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر فقيل له فى ذلك فقال: إنى لأرى حضرة؛ ما هم بإنس ولا جن ثم قُبض رحمه الله.

وحُكى عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة:٢٨، ٢٩).

وفرش المأمون رمادًا واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

ولما حضرت معاذا رضى الله عنه الوفاة قال: اللهم إنى كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُكب عند حلق الذكر. ولما اشتد به النزع ونزع نزعًا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخنقنى خنقك فرعزتك إنك تعلم أن قلبى يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما أبكى جزعًا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا من الدنيا كزاد الراكب. فلما مات سلمان نظروا فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهمًا.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه فقال: بل واطرباه! غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات:٦١).

ولما حضرت إبراهيم النخعى الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولاً يبشرنى بالجنة أو بالنار.

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكى لذنب

أعلم أنى أتيته؛ ولكن أخاف أنى أتيت شيئًا حسبته هينًا وهو عند الله عظيم...... ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك؟ قال ما أبكى جزعًا من الموت ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل فى الشتاء.

* ولقد وعظ الله تعالى رسوله ﷺ بالموت فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠).

قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل، فقال: يا محمد، عش ما شئت. فإنك ميت. وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به. واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزَّه استغناؤه عن الناس»[١].

* وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل».

• تخيير الأنبياء عند الموت •

وهذا أمرٌ خاص بالأنبياء والرسل - صلوات ربى وسلامه عليهم - لا يشاركهم فيه أحدٌ من البشر.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يُقبض نبى قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخيّر»، فلما نزل به ورأسه على فخذى غشى عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف، ثم قال: «اللَّهم الرفيق الأعلى»، قلت: إذن لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذى كان يحدثنا به، قالت: «فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبى ﷺ قوله: «اللَّهم فى الرفيق الأعلى»[٢] وجاء فى إحدى رواياته[٣]: «فسمعت النبى ﷺ فى مرضه الذى مات فيه: وأخذته بُحةٌ يقول:

---

(١) رواه الشيرازى فى الألقاب والحاكم والبيهقى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣).

(٢) رواه البخارى فى كتاب الرقاق: باب من أحب لقاء الله، «فتح البارى» (١١/ ٣٥٧)، وقد أخرجه أيضًا مسلم فى «صحيحه»، ومالك فى «موطئه»، والترمذى فى «سننه»، وقد ساق روايات الحديث عن عائشة ابن الأثير فى «جامع الأصول» (١١/ ٦٧).

(٣) وهى عند جميعهم.

﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩)، قالت: فظننت أنه خُيِّر يومئذ».

* وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «إن الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله!»، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يُخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا».

يخيّر الأنبياء بين البقاء فى الدنيا والانتقال إلى ذلك المقام، ولا شك أن كل رسول يفضل النعيم المقيم على الدنيا وما فيها.

• شبهة... والرد عليها •

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أُرسل[١] ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكَّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت[٢]. قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطىّ يده بكلّ شعرة سنة. قال: أى رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. قال: فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمْية بحجر.

قال أبو هريرة رضى الله عنه: فقال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر»[٣].

* قال ابن حجر فى «الفتح»[٤]: «قال ابن خزيمة: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وقالوا: إن كان موسى عرفه فقد استخف به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقء عينه؟ والجواب أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ، وإنما بعثه إليه اختبارًا وإنما لطم موسى ملك الموت؛ لأنه رأى آدميًا دخل داره بغير إذنه ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر فى دار المسلم بغير إذن، وقد

---

(١) عند أحمد، ومسلم: «جاء ملك الموت إلى موسى فقال: أجب ربك فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها» وعند الطبرى: «كان ملك الموت يأتى الناس عيانًا، فأتى موسى فلطمه ففقأ عينه».

(٢) زاد همام: «وقد فقأ عينه، فردّ الله عليه عينه» وفى رواية: «فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عينى، ولولا كرامته عليك لشققت عليه».

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد والطبرى.

(٤) فتح البارى (٦/ ٥١٠).

جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط فى صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم لما قدّم لها المأكول، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه.

وعلى تقدير أن يكون عرفه فمن أين لهذا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر؟ ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتص له؟ ولخص الخطابى كلام ابن خزيمة وزاد فيه أن موسى دفعه عن نفسه لما رُكِّب فيه من الحدة وأن الله ردّ عين ملك الموت ليعلم موسى أنه جاءه من عند الله؛ فلهذا استسلم حينئذ.

وقال النووى: لا يمتنع أن يأذن الله لموسى فى هذه اللطمة امتحانًا للملطوم. وقال غيره: إنما لطمه؛ لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخيره، لما ثبت أنه لم يُقبض نبى حتى يخيّر، فلهذا لما خيّره فى المرة الثانية أذعن، قيل: وهذا أولى الأقوال بالصواب، وفيه نظر؛ لأنه يعود أصل السؤال فيُقال: لم أقدم ملك الموت على قبض نبى الله وأخلّ بالشرط؟ فيعود الجواب أن ذلك وقع امتحانًا».

* وهناك شُبهة أخرى ألا وهى: أن بعض المبتدعة يقولون: إن ملك الموت (عليه السلام) قال لله (عز وجل): أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت.... فيعقبون على ذلك ويقولون: وهل هناك رسولٌ أو حتى عبدٌ صالح يكره الموت؟.

والجواب: أجل إن العبد الصالح يكره الموت ـ لكنه لا يكره لقاء الله ـ إنما يكره الموت لأنه يحول بينه وبين العمل الصالح والتزود للآخرة.... والدليل على ذلك هذا الحديث:

فإن النبى ﷺ لما قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة (رضى الله عنها): إنا لنكره الموت.... الحديث[1].

فلم يُنكر عليها النبى ﷺ مقالتها ولو كان ذلك فيه مخالفة لأنكر عليها النبى ﷺ.

• إنك ميت وإنهم ميتون •

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن:٢٦:٢٧).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

---

(١) رواه البخارى (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)، والترمذى (١٠٦٧)، والنسائى (١٨٣٤).

وقال تعالى لحبيبه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (الأنبياء:٣٤).

فالموت حق على الإنس والجن لا ينجو منه أحدٌ ولو نجا منه أحدٌ لنجا منه سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ.

وفي الصحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال ﷺ: «أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والإنس والجن يموتون»

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»(١).

* وعن أنس رضي الله عنه قال: «لما قالت فاطمة ذلك، يعني لما وجد رسول الله ﷺ من كرب الموت ما وجد، قالت فاطمة: واكرباه، قال رسول الله ﷺ: «يا بُنية! إنه قد حضر بأبيك ما ليس الله بتاركٍ منه أحدًا لموافاة يوم القيامة»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسُّنح ـ قال إسماعيل: تعني العالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله فيقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله فقال: بأبي أنت طبت حيًا وميتًا والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج، فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر:٣٠)، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤) قال: فنشج الناس يبكون(٣).

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٧٥٥) المغازي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٤١)، قال الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٣٨): «وهذا إسناد حسن».

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٢٣: ٢٤) فضائل الصحابة.

• إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله •

قال ﷺ: «إذا أرادَ الله بعبد خيرًا استعملَه»، قيل: ما يستعملُه؟ قال: «يفتحُ لهُ عملاً صالحًا بين يدىْ موته حتَّى يرضَى عليه منْ حولهُ»(١).

وقال ﷺ: «إذا أرادَ الله بعبد خيرًا طهرهُ قبلَ موتِه» قالوا: وما طهورُ العبدِ؟ قال: عملٌ صالحٌ يلهمهُ إياهُ حتَّى يقبضهُ علَيه»(٢).

وقال ﷺ: «إذا أرادَ الله بعبد خيرًا عَسَلَهُ، قيلَ: وما عسلهُ؟ قالَ: يفتحُ لهُ عملاً صالحًا قبلَ موتِه، ثم يقبضهُ عليه»(٣).

• وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله •

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٥).

إن لكل نفس كتابًا مؤجلاً إلى أجل مرسوم. ولن تموت نفس حتى تستوفى هذا الأجل المرسوم، فالخوف والهلع، والحرص والتخلف، لا تطيل أجلاً. والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمرًا. فلا كان الجبن، ولا نامت أعين الجبناء. والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد!

بذلك تستقر حقيقة الأجل فى النفس، فتترك الاشتغال به، ولا تجعله فى الحساب، وهى تفكر فى الأداء والوفاء بالالتزامات والتكاليف الإيمانية. وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص، كما ترتفع على وهلة الخوف والفزع. وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه وبكل التزاماته، فى صبر وطمأنينة، وتوكل على الله الذى يملك الآجال وحده.

ثم ينتقل بالنفس خطوة وراء هذه القضية التى حسم فيها القول.. فإنه إذا كان العمر مكتوبًا، والأجل مرسومًا.. فلتنظر نفس ما قدمت لغد؛ ولتنظر نفس ماذا تريد.. أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان، وأن تحصر همها كله فى هذه الأرض، وأن تعيش لهذه الدنيا وحدها؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى، وإلى اهتمامات أرفع، وإلى حياة أكبر من هذه

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن عمرو بن الحمق وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٤).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٦).

(٣) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن أبى عنبة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٧).

الحياة؟.. مع تساوى هذا الهم وذاك فيما يختص بالعمر والحياة؟!

«ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها. ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها».

وشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! ـ مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل ـ والذى يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها.. إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت فى موعده المضروب بأجله المكتوب. والذى يتطلع إلى الأفق الآخر.. إنما يحيا حياة «الإنسان» الذى كرمه الله واستخلفه وأفرده بهذا المكان ثم يموت فى موعده المضروب بأجله المكتوب.. «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلاً»[1].

• وما تدرى نفس بأى أرض تموت •

ولا يعلم أى إنسان ـ مهما كانت منزلته ـ ميعاد موته فهذا من الغيب الذى استأثر الله بعلمه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:٣٤). وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام:٥٩).

* قال ﷺ: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»[2].

وقال ﷺ: «إذا أراد الله قبض عبد بأرضٍ جعل له فيها حاجة»[3].

ولذلك فعلى العبد أن يجتهد دائمًا فى طاعة الله لأنه لا يعلم متى يموت.

* * *

(١) فى ظلال القرآن (١/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الاستسقاء وفى كتاب التفسير.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير وأحمد عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١١).

• ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها •

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف:٣٤).

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الواقعة:٦٠).

وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء:٧٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ (آل عمران:١٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون:١١).

فكل إنسان له أجلٌ محدود لا يستطيع أن يتجاوزه بحال من الأحوال... فآجال العباد وأرزاقهم قد قدرها الله (عز وجل) قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وجرى بذلك القلم فى اللوح المحفوظ.

قال ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء»[(١)].

* وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «وكَّل الله بالرحم ملكًا، فيقول: أى رب نطفة، أى رب علقة، أى رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضى خلقها، قال: أى رب ذكر أم أنثى، أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كل ذلك فى بطن أمه»[(٢)].

* وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق - قال: «إن أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد...»[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٤٤/ ح ٢٦٥٣).

(٢) أخرجه البخارى (١١/ ٤٧٧) ومسلم (٤/ ٢٠٣٨/ ح ٢٦٤٦).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم والسياق له.

وفى «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبى ﷺ ، ورضى الله عنها: «اللَّهم أمتعنى بزوجى رسول الله، وبأبى أبى سفيان، وبأخى معاوية».

قال: فقال النبى ﷺ: «لقد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة. لن يعجل شىء قبل أجله، ولن يؤخر الله شيئًا بعد أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب النار، وعذاب فى القبر كان خيرًا وأفضل»[١].

• وقفة لطيفة •

قال تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد:٣٩).

وقال ﷺ: «من سرَّه أن يُبسط له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره فليصل رحمه»[٢].

فهناك من يسأل ويقول: إذا كان الله (عز وجل) يعلم كل شىء فما معنى «يمحو الله ما يشاء ويُثبت».. بل كيف يزيد الرزق والعمر إذا كان ذلك قد كُتب فى اللوح المحفوظ.

قال الإمام النووى ـ رحمه الله ـ:

وبسط الرزق توسيعه وكثرته وقيل: البركة فيه وأما التأخير فى الأجل ففيه سؤال مشهور وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وأجاب العلماء بأجوبة الصحيح منها أن هذه الزيادة بالبركة فى عمره والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه فى الآخرة وصيانتها عن الضياع فى غير ذلك، والثانى أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفى اللوح المحفوظ ونحو ذلك فيظهر لهم فى اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك وهو من معنى قوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت) فيه النسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره. ولا زيادة بل هى مستحيلة وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة وهو مراد الحديث والثالث أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده فكأنه لم يمت حكاه القاضى وهو ضعيف أو باطل والله أعلم[٣].

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب القدر ـ وأحمد فى المسند (١/ ٣٩٠، ٤١٣).

(٢) أخرجه البخارى (٤/ ٣٠١) ومسلم (٢٥/ ١١٤).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

● وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ:

«الذى سبق فى علم الله لا يتغيّر ولا يتبدّل، والذى يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك بما فى علم الحفظة والموكلين بالآدمى، فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة فى العمر والنقص، وأما ما فى علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله»[1].

● الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ●

عن محمد بن كعب القرظى قال: إذا استنقعت[2] نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك يا ولى الله، الله يقرئك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٣٢)[3].

* عن جابر رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُبعث كل عبد فى القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه»[4].

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٣٢).

طيبة نفوسهم بلقاء الله، معافين من الكرب وعذاب الموت، يقولون: سلام عليكم طمأنة لقلوبهم، وترحيبًا بقدومهم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعجيلاً لهم بالبشرى، وهم على أعتاب الآخرة جزاءً وفاقًا على ما كانوا يعملون»[5].

* قال علماء السلف: إن العبد المؤمن وهو يتقلّب فى نعيم الجنة لا ينسى طعم وحلاوة بشارة ملك الموت له عند خروج الروح... ونقيض ذلك للعاصى والكافر.

* وقال الفخر الرازى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أُمرواَ، واجتنابهم عن كل ما نُهوا عنه، ويدخل فيه كونهم

(١) فتح البارى (١١/ ٤٨٨).
(٢) استنقعت: هدأت واطمأنت استعدادًا لخروج الروح.
(٣) خبر حسن: أخرجه ابن المبارك والبيهقى وأبو نعيم.
(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد، وقال ابن كثير فى «التفسير» (٤/ ٤١٦): إسناد صحيح على شرط مسلم، ولم يخرّجاه.
(٥) «الظلال» (٤/ ٢١٦٩).

مبرئين من العوائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح، وأنها لم تُقبض إلا مع البشارة بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها وأكثر المفسرين على أن هذا التوفى هو قبض الأرواح[١].

* قال ابن كثير: أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيّبون؛ أى: مخلّصون من الشرك والدنس وكل سوء»[٢].

* وعن البراء بن عازب فى قوله (تعالى) ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه[٣].

• تردد الله (جل وعلا) فى قبض نفس المؤمن •

قال تعالى فى الحديث القدسى: (من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبَ إلىَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينّه، وإن استعاذنى لأعيذنّه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)[٤].

فانظر يا أخى إلى تلك المحبة التى تحدث بين الله وبين العبد، والسبب فى ذلك هو التقرب إلى الله بالنوافل التى هى سبب من أهم الأسباب التى تجلب محبة الله جل وعلا، ومن ثَم فإنك تتحصل على خيرى الدنيا والآخرة... كما قال الله تعالى: (كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يُبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه).

بل إنه من تمام الموافقة بين الله وبين العبد أن الله جل وعلا يخبر أنه ما تردد فى شىء تردده عن نفس عبده المؤمن (أى عن قبض نفس عبده المؤمن)، كما ورد فى رواية أخرى: (وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس المؤمن)... فلماذا؟ لأن العبد يكره الموت، والخالق جل وعلا يكره مساءته[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٥١٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٧).
(٣) خبر حسن: أخرجه ابن أبى شيبة والبيهقى فى شُعب الإيمان.
(٤) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ باب التواضع ـ كتاب الرقاق.
(٥) وأنذرهم يوم الحسرة/ للمصنف (ص: ١٥: ١٦).

• من مات فقد قامت قيامته •

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزى فيهما للذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

فالبعث الأول: مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول.

والبعث الثانى: يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها، ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار، وهو الحشر الثانى، ولهذا فى الحديث الصحيح: «وتؤمن بالبعث الآخر فإن البعث الأول لا ينكره أحد، وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب».

* وقال أيضًا: «وقد ذكر سبحانه وتعالى هاتين القيامتين ـ وهما الصغرى والكبرى ـ فى سورة المؤمنين، وسورة الواقعة، وسورة القيامة، وسورة المطففين، وسورة الفجر وغيرها من السور. وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها دارى جزاء المحسن والمسىء ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثانى فى دار القرار كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران:١٨٥)، وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم، فلا بد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصى له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه. هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس» ا.هـ[١].

«فالقيامة الصغرى هى الموت، فكل من مات فقد قامت قيامته، وحان حينه، ففى «صحيح البخارى»، و«مسلم» عن عائشة قالت: كان رجال من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسألونه عن الساعة، فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «إن يعش هذا، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم»[٢].

* قال ابن كثير: «والمراد انخرام قرنهم، ودخولهم فى عالم الآخرة، فإن كل من مات فقد دخل فى حكم الآخرة، وبعض الناس يقول: من مات فقد قامت قيامته، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح»[٣].

---

(١) كتاب الروح (ص: ٩٩).

(٢) مشكاة المصابيح (٣/ ٤٨).

(٣) النهاية/ لابن كثير (١/ ٢٤).

• حضور الشيطان عند الموت •

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصا على الإنسان حتى لا يفلت منه، ففى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة، فليمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدرى فى أى طعامه تكون البركة»، وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتى الإنسان فى تلك اللحظات الحرجة فى صورة أبيه أو أمّه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له، ويدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام، فهناك يزيغ الله من كُتبت له الشقاوة[١]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:٨).

وقد حدث عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: حضرت وفاة أبى أحمد، وبيدى خرقة لأشد لحييه، فكان يغرق، ثم يفيق، ويقول بيده: لا بعد، لا بعد، فعل هذا مرارا، فقلت له: يا أبت أى شيء يبدو منك؟ فقال: إن الشيطان قائم بحذائى عاض على أنامله، يقول: يا أحمد فُتّنى، وأنا أقول: لا بعد، لا بعد، حتى أموت[٢].

وقال القرطبى: سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبى، يقول: حضرت أخا شيخنا أبى جعفر أحمد بن محمد القرطبى بقرطبة، وقد احتضر، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فكان يقول: لا لا، فلما أفاق، ذكرنا له ذلك، فقال: أتانى شيطانان عن يمينى وعن شمالى، يقول أحدهما: مُت يهوديًا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مُت نصرانيًا فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا لا..»[٣].

ولكن هذا ليس لازما لكل أحد كما يقول ابن تيمية، بل من الناس من تُعرض عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه، وقد وقع ذلك لأقوام، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التى أُمرنا أن نستعيذ منها فى صلاتنا[٤]، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية

(١) التذكرة للقرطبى (ص: ٣٣).
(٢) التذكرة للقرطبى (ص: ٣٤).
(٣) التذكرة للقرطبى: (ص: ٣٤).
(٤) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٥٥)

أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان وقت موته، لأنه وقت الحاجة، واستدل بالحديث الذى فى الصحيح: «الأعمال بخواتيمها»، وقال ﷺ : «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»، ولهذا روى: «أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا فإنه إن فاتكم لن تظفروا به أبدا»(١).

• إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا •

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠:٣٢).

* يقول تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ أى أخلصوا العقيدة والعمل لوجه الله تعالى على ما شرع سبحانه وتعالى لهم وبقوا على ذلك حتى لقوا الله. كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: [قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها].

وعن سعيد بن عمران قال: قرأت عند أبى بكر الصديق رضى الله عنه هذه الآية... قال (هم الذين لم يشركوا بالله شيئًا) وعن ابن أبى حاتم بسنده عن عكرمه قال سُئل ابن عباس رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله تبارك وتعالى أرخص؟ قال قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله)... وعن ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ على أداء فرائضه.

وروى مسلم فى صحيحه والنسائى عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال [قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك قال ﷺ : «قل آمنت بالله ثم استقم» قلت يا رسول الله: ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: «هذا»].

---

(١) مجموع الفتاوى: (٤/ ٣٥٦). نقلاً من القيامة الصغرى (ص: ٢٩: ٣٠).

وقوله تعالى: ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ قال مجاهد وغيره: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أن لا تخافوا﴾ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا ﴿وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير، وهذا كما جاء فى حديث البراء رضى الله عنه قال [إن الملائكة تقول لروح المؤمن أخرجى أيتها الروح الطيبة، فى الجسد الطيب: كنت تعمرينه أخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان] وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفى قبره وحين يبعث.... وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدًا وهو الواقع.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾ أى تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار كنا أولياءكم أى قرناءكم فى الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور ونؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم، ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم﴾ أى فى الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون ﴿ولكم فيها ما تدّعون﴾ أى مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ أى ضيافةً، وعطاءً، وإنعامًا من غفور لذنوبكم رحيم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف(١).

• رحلة أرواح المؤمنين وأرواح الكافرين •

* عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع النبى ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ مُستقبل القبلة، وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عودٌ ينكتُ فى الأرض، فجعل ينظرُ إلى السماء، وينظرُ إلى الأرض، وجعل يرفعُ بصرهُ ويخفضهُ، ثلاثًا، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» ـ مرتين أو ثلاثًا ـ، ثم قال: «اللَّهم إنى أعوذُ بك من عذاب القبر» ـ ثلاثًا ـ ثم قال:

«إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكةٌ من السماء، بيضُ الوجوه، كأن وجوههم الشمسُ، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ(٢)

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤/ ١٠٠: ١٠١).

(٢) «بفتح المهملة: ما يُخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملكُ الموت عليه السلام[1] حتى يجلس عند رأسه فيقولُ: أيتُها النفس الطيبةُ ـ وفي رواية: المطمئنة ـ اخرُجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرجُ تسيلُ كما تسيل القطرةُ من في السقاء، فيأخذُها، ـ وفي رواية ـ: (حتى إذا خَرجت روحهُ صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكلُّ ملك في السماء، وفُتحت له أبوابُ السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يُعرج بروحه من قبلهم)، فإذا أخذها لم يدعُوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنُوط، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وهُم لا يُفرّطُونَ﴾، ويخرجُ منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يُمرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروحُ الطيب؟ فيقولون: فلانُ ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح لهم، فيُشيعهُ من كل سماء مُقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقولُ الله عز وجلّ: اكتُبوا كتاب عبدي في عليين، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوهُ إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى، قال: فيردُ إلى الأرض، وتُعادُ روحه في جسده، قال: فإنه يسمعُ خفقَ نعال أصحابه إذا ولوا عنه مُدبرين، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه، ويُجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولانَ له: ما دينُك؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول:هو رسول الله ﷺ فيقولان له: وما عَمَلكُ؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنتُ به، وصدقت، فينتهرهُ فيقولُ: من ربك؟ ما دينُك؟ من نبيُّك؟ وهي آخرُ فتنة تُعرض على المؤمن، فذلك حين يقولُ الله عز وجل: ﴿يُثبتُ الله الَّذينَ آمنُوا بالقوْل الثَّابت في الْحيَاة الدُّنْيَا﴾، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمدٌ ﷺ، فيُنادي مُناد في السماء: أنَ صدق عبدي، فَأفرشُوه من الجنة، وألبسُوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويُفسحُ له في قبره مدَّ بصره، قال: ويأتيه ـ وفي رواية ـ: (يُمثلُ له رجلٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثياب، طيبُ الريح، فيقولُ: أبشر بالذي يَسُركَ، أبشر برضوانٍ من الله، وجنات فيها

(١) قلت: هذا هو اسمهُ في الكتاب والسنة (ملك الموت)، وأما تسميته (بعزرائيل) فمما لا أصل له، خلافًا لما هو المشهورُ عند الناس، ولعله من الإسرائيليات!.

نعيمٌ مقيمٌ»، هذا يومُك الذى كنت تُوعدُ، فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير من أنت؟ فوجهُك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح فوالله ما علمتُك إلا كنت سريعًا فى طاعة الله، بطيئًا فى معصية الله، فجزاك الله خيرًا، ثم يُفتح له بابٌ من الجنة، وبابٌ من النار، فيقُال: هذا منزلُك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما فى الجنة قال: رب عجِّل قيامَ الساعة، كيما أرجع إلى أهلى ومالى، فيُقال له: اسكُن.

قال: وإن العبد الكافر ـ وفى رواية ـ: (الفاجر) إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ، سودُ الوجوه، معهم المُسوحُ[١] من النار، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلسَ عند رأسه، فيقولُ: أيتها النفسُ الخبيثةُ اخرجى إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق فى جسده فينتزعُها كما يُنتزع السفودُ الكثيرُ الشعب منَ الصوف المبلول، فتُقطعُ معها العروقُ والعصبُ، فيلعنهُ كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك فِى السماء، وتُغلق أبوابُ السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحهُ من قبلهم، فيأخذُها، فإذا أخذها، لم يدعُوها فى يدهً طرفةَ عين حتى يجعلُوها فى تلك المُسوحِ، ويخرجُ منها كأنتن ريحِ جيفة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فلانُ ابن فلان ـ بأقبحِ أسمائه التى كان يُسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيُستفتح له، فلا يُفتح له، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُم أبواب السماء ولا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فى سَمِّ الْخيَاط﴾[٢] فيقول الله عز وجل: اكتُبوا كتابهَ فى سجين فى الأرض السفلى، ثم يقال: أعيدُواَ عبدى إلى الأرض فإنى وعدتُهم أنى منها خلقتُهم، وفيها أعيدُهم، ومنها أخرجُهم تارةً أخرى، فتُطرح روحهُ من السماء طرحًا حتى تقعَ فى جسده، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ من السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوى به الريّح فِى مَكان سَحيق﴾ فتُعادُ روحهُ فى جسده، قال: فإنه لَيسمع خفقَ نعالِ أصحابه إذَا ولوا عنه.

ويأتيه ملكان شديدا الانتهار، فينتهرانه، ويُجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه[٣] لا أدرى، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقولُ: هاه هاه لا أدرى، فيقولان: فما تقولُ فى

(١) جمع المسح، بكسر الميم، وهو ما يُلبسُ من نسيجِ الشعرِ على البدن تقشفًا وقهرًا للبدن.

(٢) أى: ثقب الإبرة، والجَمَل هو الحيوانُ المعروف، وهو ما أتى عليه تسعُ سنوات.

(٣) هى كلمةٌ تقال فى الضحك وفى الإبعاد، وقد تقال للتوجع، وهو أليقُ بمعنى الحديث والله أعلم. كذا فى «الترغيب».

هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فلا يهتدى لاسمه، فيُقال: محمدٌ! فيقولُ: هاه هاه لا أدرى سمعتُ الناس يقولون ذاك! قال: فيُقال: لا دريت، ولا تلوت، فيُنادى مُناد من السماء أن: كذب، فأفرشُوا له من النار، وافتحُوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمُومها، ويُضيقُ عليه قبرهُ حتى تختلفَ فيه أضلاعهُ، ويأتيه - وفى رواية -: (ويُمثل له) رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثياب، مُنتنُ الريحِ، فيقولُ: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومُك الذى كُنت تُوعدُ، فيقولُ: وأنت فبشركَ الله بالشر من أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجىء بالشر! فيقول: أنا عملُك الخبيثُ، فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئًا عن طاعة الله، سريعًا إلى معصية الله، فجزاك الله شرًا، ثم يُقيضُ له أعمى أصمُّ أبكمُ فى يده مرزبة! لو ضُرب بها جبلٌ كان ترابًا، فيضربهُ ضربةً حتى يَصيرَ بها ترابًا، ثم يعيدهُ الله كما كان، فيضربهُ ضربةً أخرى، فيصيحُ صيحةً يسمعهُ كل شىء إلا الثقلين، ثم يُفتح له بابٌ من النار، ويُمهدُ من فُرُشِ النارِ، فيقول: رب لا تُقمِ الساعةَ»[1].

• فأما إن كان من المقربين •

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (الواقعة:٨٨ - ٩٥).

* يقول الطبرى: «فأما إن كان الميت من المقربين الذين قرّبهم الله من جواره فى جنانه ﴿فَرَوحٌ وَرَيْحَانٌ﴾، يقول: فله روح وريحان.

* عن على، عن ابن عباس: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾: راحة ومستراح.

* وعن ابن عباس: الريحان: المستريح من الدنيا، ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾: مغفرة ورحمة.

* وقال آخرون: الرّوح: الراحة، والريحان: الرزق.

* قال ابن كثير - رحمه الله -: «وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن»[2].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم والبيهقى والضياء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠١).

* وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ليس هذا سلام تحية ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قال: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات:١٠٩). ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ (الصافات:٧٩)، ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام:

* مقرّب له الروح والريحان وجنة النعيم.

* ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالمًا غانمًا.

* وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنُزل من حميم وتصلية جحيم.

فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله، ذكر ما يحصل له من السلامة[1].

* وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ [2]: «قيل إنه يُحيا بالسلام إكرامًا فعلى هذا فى محل السلام ثلاثة أقاويل:

أحدها: عند قبض روحه فى الدنيا يُسلم عليه ملك الموت، قاله الضحاك. وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.

الثانى: عند مساءلته فى القبر يسلم عليه منكر ونكير.

الثالث: عند بعثه فى القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها.

قلت: وقد يحتمل أن تسلم عليه فى المواطن الثلاثة، ويكون ذلك إكرامًا بعد إكرام».

لله ما أحلى السلام عند الموت قال تعالى: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم:١٥)، وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم:٣٣).

* وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾، أى: تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك، أى: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين. وقال قتادة وابن زيد: سلم

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧).
(٢) القرطبى: (١٧/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

من عذاب الله وسلّمت عليه ملائكة الله كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين، وهذا معنى حسن(١).

• كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين •

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (المطففين:١٨:٢٢).

* قال الإمام ابن القيم فى كتابه «حادى الأرواح»:

«أخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابة حقيقية، وخصّ تعالى كتاب الأبرار بأنه يُكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجّار تنويهًا بكتاب الأبرار، وما وقع لهم به، وإشهارًا له وإظهارًا بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع مَن تعظمه بين الأمراء، وخواص أهل المملكة، تنويهًا باسم المكتوب له، وإشادة بذكره، وهذا نوع من صلاة الله سبحانه وتعالى وملائكته على عبده». وقال: «فهذا التوقيع والمنشور الأول. ويكتب فى ديوان أهل الجنة يوم موته»(٢).

* وعن الضحاك قال: «إذا قُبض روحُ العبد المؤمن عُرجَ بها إلى السماء، فينطلقُ معه المقربونَ، ثم عُرجَ به إلى السماء الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، حتى ينتهُوا إلى سدرة المُنتهى، فيقُولونَ: عبدُك فُلانٌ ـ وهو أعلمُ به.

فيأتيه صكٌ، مَختُومٌ بأمنه من العذاَب، فذلك قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (المطففين:١٨:٢٢).

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «إن المُؤمن إذا احتضر أتته الملائكةُ بحريرة فيها مسكٌ وضبائرُ ريحانَ، فتُسلُ رُوحه، كما تُسل الشعرة من العجين، ويُقالُ: أيتها النفسُ المطمئنة، اخرجى راضية مرضيًا عنكَ، إلى روح الله تعالى وكرامته.

فإذا خرجت روجه، وُضعَت على ذلك المسك والريحان، وطُويت على الحريرة،

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٢).
(٢) حادى الأرواح (ص: ٧٠، ٧٣).

وذُهبَ به إلى عليين».

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن، إذا كان فى إقبال من الآخرة، وإدبار من الدنيا، نزلت ملائكةٌ من ملائكة الله - كأن وجوههُم الشمس - بكفنه وحنوطه، فيقعُدُونَ منهُ، حيثُ ينظر إليهم، فإذا خرجت رُوحهُ، صلى عليه كل ملكٍ بين السماءِ والأرضِ»(١).

• تلاقى أرواح المؤمنين •

* وقال رسول الله ﷺ: «إن المُؤمن إذا قُبض، أتتهُ ملائكةُ الرحمةِ بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجى، راضيةً مرضيًا عنك، إلى روحِ الله تعالى وريحَان، وربٍّ غير غضبان.

فَتخرجُ كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناولهُ بعضهم بعضًا، فيُسمُّونهُ بأحسن الأسماء لهُ حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون:

ما أطيب هذه الريحِ، التى جاءت من الأرض!!! كلما أتوا سماءً، قالوا ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين.

فهم أفرحُ به من أحدكم بغائبه إذا قدمَ. فيسألونهُ:

ما فعل فلانٌ؟

فيقولون: دعُوه حتى يستريح، فإنهُ كان فى غم الدنيا»(٢).

* وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال: إذا قُبضت نفس المؤمن تلقاها أهل

---

(١) أخرجه ابن منده فى «كتاب الأحوال» قاله الزبيدى فى «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٤٠١) وله شاهد صحيح من حديث البراء، ومن حديث أبى هريرة، وعبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه ابن منده (الإيمان) (٢/ ٩٦٨ - ٩٦٩) وأحمد (٢/ ٣٦٤) والنسائى فى المجتبى (٤/ ٨).
وأخرجه مختصرًا مسلم فى «كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها»: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢٢٠٢) رقم (٢٨٧٢).
وقال الحاكم: «وهذه الأسانيد كلها صحيحة».
وقال البوصيرى فى «مصباح الزجاجة» (٣/ ٣١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».
وقال الزبيدى فى «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٤٠٢):«حديث أبى هريرة بطرقه شاهد جيد لحديث البراء السابق».
وقال أبو نعيم: «هذا حديث متفق على عدالة ناقليه»، انظر: «الروح» ص (٧٠).

الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير فى الدنيا، فيقبلون عليه يسألونه فيقول بعضهم لبعض: أنظروا أخاكم حتى يستريح، فإنه كان فى كرب شديد قال: فيقبلون عليه فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول: إنه هلك فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذُهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية قال: فتُعرض عليهم أعماله فإن رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا وقالوا: اللهم هذه نعمتك على عبدك فأتمها، وإن رأوا شرًا قالوا: اللهم راجع بعبدك[1].

• بشارات للمؤمنين من رب العالمين •

وها هى باقة عطرة من البشارات التى يُكرم الله بها أولياءه عند أصعب لحظة تمر بالعبد ـ وهى لحظة الموت ـ.

وتالله إننى أجد الكلمات تتوارى خجلاً وحياءًا أمام إكرام الله (عز وجل) لأوليائه الذين عبدوه وأخلصوا العبادة له.

(١) رؤية العبد المؤمن لملائكة الرحمة ـ بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس.

(٢) ملك الموت يبشره بمغفرة الله ورضوانه.

(٣) ملك الموت يبلغه السلام من ربه (عز وجل).

(٤) خروج روحه بيُسرٍ وسهولة كما تسيل القطرة من فىّ السقاء.

(٥) خروج روحه فى كفنٍ من الجنة وحنوط من الجنة.

(٦) أنه يرى مقعدة من الجنة قبل الموت.

(٧) خروج روحه فى ريحان الجنة ومسك الجنة.

(٨) إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء.

(٩) تُفتح لروحه أبواب السماء.

(١٠) يخرج من روحه كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض

(١١) الملائكة تناديه بأحب أسمائه إليه.

---

(١) خبر حسن موقوف: أخرجه ابن المبارك (٤٤٣) فى الزهد موقوفًا.

(١٢) أنه يُشرق وجهه ويأتى ربه من الباب الذى كان يصعد عمله منه.

(١٣) يسمع ثناء الناس عليه وهو محمولٌ على الأعناق.

* وعن عمرو بن دينار قال: «ما من ميت يموت إلا روحه فى يد ملك ينظر إلى جسده، كيف يُغسل، وكيف يُكفن، وكيف يُمشى به، ويُقال له، وهو على سريره: اسمع ثناء الناس عليك»[١].

(١٤) يُشيعه من كل سماء مُقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى إلى السماء السابعة.

(١٥) يقول الله تعالى: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين... وكل ذلك بمشهدٍ من المقربين.

(١٦) ينادى منادٍ من السماء: أن صدق عبدى.

(١٧) تلتقى روحه بأرواح المؤمنين فيفرحون به ويفرح بهم.

قال ثابت البنانى: «بلغنا أن الميت إذا مات احتوشه أهله وأقاربه الذين تقدّموه فلهو أفرح بهم وهم أفرح به من المسافر إذا قدم إلى أهله»[٢].

(١٨) الملائكة تبشره: ألا خوف عليه ولا حزن على ما ترك من حُطام الدنيا الزائل ولا خوف عليه من الأهوال الآتية لأن الله سيحفظه منها.

(١٩) أنه يُبشَّر بصلاح ولده

قال مجاهد: «إن المؤمن يُبشَّر بصلاح ولده من بعده لتقرّ عينه»[٣].

(٢٠) أن الله يثبته عند سؤال الملكين.

(٢١) يُفرش له قبره من الجنة ويُفتح له باب إلى الجنة يأتيه من روحها وطيبها.

(٢٢) يُفسح له فى قبره مدَّ بصره.

(٢٣) يُمثَّل له عمله الصالح فى صورة رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح.

---

(١) «حلية الأولياء»(٣/ ٢٤٧)، و«أهوال القبور» لابن رجب (١١٨)، وصححه ابن القيم فى كتاب «الروح» ص(٢٠).

(٢) أهوال القبور/ لابن رجب (ص: ٥٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣/ ٢٧٩) وصححه ابن القيم فى (الروح) (ص: ٢٠).

(٢٤) يرى منزله الذى كان فى النار لو عصى ربه.

(٢٥) يرى منزله فى الجنة فيفرح ويقول: رب عجِّل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلى ومالى.

(٢٦) ومسك الختام: دخول روحه إلى جنة الرحمن ونعيم جسده فى قبره حتى يدخل الجنة يوم القيامة بروحه وجسده.

• مشاهد الحسرة عند الموت للعصاة والكافرين •

وها هى نبذة يسيرة نلقيها على مشاهد الحسرة التى تحدث للعصاة والكافرين عند الموت.

* رؤيته لملائكة العذاب ـ وهم غلاظٌ شداد سود الوجوه ـ فيذوب قلبه من الحزن والفزع فى آن واحد.. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان:٢٢).

* ملك الموت يبشره بسخط الله وغضبه وعذابه.

* يعلم مكانه من النار قبل نزع روحه.

* شدة نزع روحه من جسده حتى تتقطع العروق والأعصاب.

* الضرب والإهانة عند خروج الروح.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد:٢٧:٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (الأنفال:٥٠:٥١).

* قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ[1]: «ويقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرًا عظيمًا هائلاً فظيعًا منكرًا، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٩).

وقال الطبرى: «عن مجاهد ﴿يَضرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، قال: وأستاهم ولكن الله كريم يُكَنِّى»(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:٩٣).

* قال ابن كثير: «أى: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخرِجُوا أنفُسكمُ﴾، وذلك أن الكافر إذا احتُضر، بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه فى جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ(٢) بِمَا كُنتُم تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الْحَقِ﴾ الآية، أى: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون على اتباع آياته والانقياد لرسله»(٣).

* توضع روحه فى مسوحٍ من النار.

* يلعنه كل ملكٍ بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء.

* يخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض.

* تُغلق أبواب السماء دونه... ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم.

* تناديه الملائكة بأقبح أسمائه التى كان يُسمى بها فى الدنيا.

* يقول الله تعالى: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السُفلى.

* يتمنى الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحًا.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:٩٩-١٠٠).

(١) جامع البيان (١٦/ ١٠).

(٢) قال الطبرى (٧/ ١٨٣): «العرب إذا أرادت بالهون معنى الهوان، ضمت الهاء، وإذا أرادت به الرفق والدَّعة وخفة المؤنة، فتحت الهاء».

(٣) «تفسير ابن كثير»(٢/ ١٥٧).

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته ولهذا قال: ﴿رب ارجعون لعلى أعمل صالحًا فيما تركت﴾ كقوله تعالى: ﴿يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرد فنعمل غير الذى كنا نعمل﴾ وسؤال الرجعة يسألونه فى عدة مواطن: عند الاحتضار، ويوم النشور، ووقت العرض على الجبار، وحين يُعرضون على النار، وهم فى غمرات عذاب الجحيم، كما تخبر بذلك الآيات الكريمة[1].

* يدعو على نفسه بالويل عند حمل جنازته

قال ﷺ: «إذا وُضعت الجنازة واحتملها الرجالُ على أعناقهم، فإن كانت صالحةً، قالت: قدمُونى، وإن كانت غير صالحة، قالت: يا ويلها، أين يذهبُون بها؟ يسمعُ صوتَهَا كل شىء إلا الإنسان، ولو سمعهُ، لصُعق»[2].

* تُطرح روحه من السماء طرحًا حتى تقع فى جسده.

* لا يستطيع الإجابة على أسئلة الملكين.

* ينادى مناد من السماء: أن كذب عبدى.

* يُفرش له قبره من النار ويُفتح له باب إلى النار.

* يُضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه.

* يُمثل له عمله الخبيث على صورة رجل قبيح الوجه قبيح الثياب مُنتن الريح فيقول له: أبشر بالذى يسؤوك.

* يُقيض له أعمى أصم أبكم فيضربه بمرزبة لو ضُرب بها جبل كان ترابًا.

* يُفتح له باب من النار ويُمهد من فُرش النار.

* «تفكَّر يا مغرور فى الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مفزعًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهادمًا للذات، وقاطعًا للأمنيات.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه البخارى عن أبى سعيد الخدرى.

• الكفار يسألون الرجعة فى خمس مواطن •

وقد ذكر الله تعالى عن الكفار سؤالهم الرجعة فى عدة مواطن:

أ ـ عند الموت: قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:٩٩، ١٠٠).

ب ـ عند معاينة العذاب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (إبراهيم:٤٤).

جـ ـ إذا وقفوا على النار ورأوا ما فيها من عظيم الأهوال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:٢٧).

د ـ إذا وقفوا على ربهم وعرضوا عليه وهم ناكسو رءوسهم بين يديه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة:١٢).

هـ ـ وهم فى غمرات الجحيم وعذابها الأليم، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر:٣٧)[١].

❊ ❊ ❊

(١) مختصر معارج القبول (ص: ٢١٣، ٢١٤).

عذاب القبر ونعيمه

• إنه الرحيل •

عباد الله: إنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَنْ قد مضى قبلكم، ممَّن كان أطول منكم أعمارًا، وأعمر ديارًا، وأبعد آثارًا... أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المُسنَدةَ، والقبور اللاطئة الملحدة التى قد بُنى بالخراب فناؤها، وشُيد بالتراب بناؤها، فمَحلّها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين، لا يستأنسون بالأوطان، ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار، ودنو الدار... وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البِلَى، وأكلتهم الجنادل والثرى؟.

وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه، وارتهنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع.

سألت الدار تخبرنى ... عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لى أقام القوم أيـ ... ـامًا وقد رحلوا
فقلت وأين أطلبهم ... وأى منازل نزلوا
فقالت فى القبور ثووًا ... رهانًا بالذى فعلوا

• كأن القبر قد دنا •

عن يحيى بن أبى كثير: كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى خطبته: «أين الوضاءة الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم، الذين كانوا لا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب، أين الذين بنوا المدائن، وحصنوها بالحيطان؟ قد تضعضع بهم الدهر، وصاروا فى ظلمة القبور. الوحا الوحا، النجا النجا».

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن الحسن أنه مر به شاب، وعليه بُردة له حسنة فدعاه فقال: «ابن آدم معجب بشبابه، معجب بجماله، كأن القبر قد دنا ووارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك داو قلبك، فإنه حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم».

* وعن عمر بن ذر أنه كان يقول فى مواعظه: «لو علم أهل العافية ما تضمنت القبور من الأجساد البالية لجدّوا واجتهدوا فى أيامهم الخالية خوفًا من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار».

وكان أبو عمران الجونى يقول: «لا يغرنكم من ربكم طول النسيئة[1]، وحسن الطلب، فإن أخذه أليم شديد. حتى متى تبقى وجوه أولياء الله بين أطباق التراب؛ إنما هم محبوسون لبقية آجالكم حتى يبعثهم الله إلى جنته وثوابه».

* وعن ميمون بن مهران قال: «خرجت مع عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى المقابر، فلما نظر إلى القبور، بكى، ثم قال: يا أبا أيوب هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشتهم، أما تراهم صرعى، قد حلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء، وأصابت الهوام فى أبدانهم مقيلاً، ثم بكى حتى غُشى عليه ثم أفاق؛ فقال: فانطلق بنا فوالله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله عز وجل».

وعن محمد بن صالح التمار قال: كان صفوان ابن سليم يأتى البقيع فى الأيام، فمر بى، فاتبعته ذات يوم، وقلت: والله لأنظرنَّ ما يصنع، قال: فقنع رأسه، وجلس إلى قبر منها فلم يزل يبكى حتى رحمته، قال: فظننت أنه قبر بعض أهله، قال: فمر بى مرة أخرى، فاتبعته، فقعد إلى جنب قبر غيره، فقال مثل ذلك، قال: فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر وقلت: إنى ظننته أنه قبر بعض أهله، قال محمد: كلهم أهله وإخوانه، وإنما هو رجل يحرك قلبه بذكر الأموات كلما عرضت له قسوة.

* وعن مطرف الهذلى قال: كانت عجوز متعبدة فى عبد القيس، فعوتبت فى كثرة إتيانها القبور فقالت: «إن القلب القاسى إذا جفى لم يلينه إلا رسوم البلى، وإنى لآتى القبور وكأنى أنظر إليهم قد خرجوا من بين أطباقها، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة. وإلى تلك الأجساد البالية المتغيرة، وإلى تلك الأكفان الدنسة، فيا له من منظر».

(١) النسيئة: الإمهال، والتأجيل، أى: لا يغرنك إمهال الله لك وأنت قائم على الذنوب.

ولأبى العتاهية:

إنى سألت التراب ما فعلت ... بعدى وجوه فيك منعفرة
فأجابنى: صيرت ريحهم ... تؤذيك، بعد روائح عطرة
وأكلت أجسادًا منعمة كا ... ن النعيم يهزها نضرة
لم أُبق غير جماجم عريت ... بيض تلوح وأعظم نخرة(١)

• تجهزى يا نفس قبل الردى •

إنى أبثك من حديثى ... والحديث له شجونْ
غيرت موضع مرقدى ... يومًا فنافرنى السكونْ
قل لى فأول ليلة ... فى القبر كيف تُرى تكونْ

* كان عمر بن عبد العزيز فى جنازة فى مقبرة، فرأى قومًا يهربون من الشمس إلى الظل، فأنشد يقول بعد الصلاة على الرسول ﷺ:

منْ كان حين تصيبُ الشمسُ جبهته ... أو الغبار يخاف الشَّينْ والشَّعثَا
ويألفُ الظلَّ كى تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جَدثًا
فى ظل مقفرة غبراء مظلمة ... يُطيل تحت الثَّراء فى غمه اللبثا
تجهَّزى بجهازٍ تبلغين به ... يا نفسُ قبل الرَّدى لم تُخلقى عبَثًا

* وعن مالك بن دينار قال: خرجت أنا وحسان بن أبى سنان نزور المقابر، فلمّا أشرف عليها، سبقتهُ عبرته، ثم أقبل علىَّ، فقال: يا أبا يحيى! هذه عساكر الموتى، يُنتظر بها من بقى من الأحياء، ثم يُصَاح بهم صيحة، فإذا هم قيام ينظرون، فوضع مالك يده على رأسه، وجعل يبكى.

* وعن أبى عاصم الحيطى، قال: كنت أمشى مع محمد بن واسع، فأتينا المقابر، فدمعت عيناه، ثم قال: يا أبا عاصم لا يغرنك ما ترى من خمودهم، فكأنك بهم قد وثبوا من هذه الأجداث، من بين مسرور ومهموم.

* وعن ابن السماك قال: لا يغرنّك سكوت هذه القبور، فما أكثر المغمومين فيها،

---

(١) أهوال القبور (ص: ٢٢٢: ٢٢٣).

ولا يغرنك استواؤها فما أشد تفاوتهم.

* وعن حسين الجعفى، قال: أتى رجل قبرًا محفورًا، فاطلع فى اللحد، فبكى بكاءً شديدًا، واشتد بكاؤه. قال: والله أنت بيتى حقًا، والله لئن استطعت لأعمِّرنَّك.

* وهذه امرأة بالمدينة كانت تزهو، فدخلت يومًا المقابر، فرأت جمجمة، فصرخت، ثم رجعت مُنِيبةً، فدخل عليها نساؤها، فقلن: ما هذا؟ فقالت:

بكى قلبى لذكـر المـوت لمـا   رأيت جماجمًا جوف القبور

ثم قالت: أخرجن عنى، فلا تأتين منكم إلا امرأة ترغب فى عبادة الله - عز وجل - ثم أقبلت على عبادة الله تعالى حتى ماتت - رحمها الله تعالى.

* وعن عنبسة الخواص، أن رجلاً من الصدر الأول دخل المقابر، فمر بجمجمة بادية من بعض القبور، فحزن حزنًا شديدًا، ثم واراها، ثم التفت فلم ير إلا القبور، فحزن حزنًا شديدًا فحدّث نفسه، فقال: لو كشف لى عن بعضهم فسألته عما رأى. قال: فأُتى فى منامه، فقيل له: لا تغتر بتشييد القبور من فوقهم، فإن القوم قد بليت خدودهم فى التراب، فمن بين مسرور ينتظر ثواب الله - عز وجل - ، وبين مغموم آسفًا على عقابه، فإياك والغفلة عما رأيت،... فاجتهد الرجل بعد ذلك اجتهاداً شديدًا، حتى مات - رحمه الله تعالى - »[1].

• أنواع النفوس •

أخبر الحق تعالى عن ثلاثة أنواع: النفس الأمّارة، والنفس المطمئنة، والنفس اللوامة، وليس المراد أن لكل إنسان ثلاثة نفوس، وإنما المراد أن هذه صفات وأحوال لذات واحدة.

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر أنواع النفوس: «والتحقيق: أنها نفس واحدة، لها صفات، فهى أمارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها، وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة»[2].

* * *

(١) أهوال القبور (ص: ١٨٠، ١٨٥).

(٢) شرح الطحاوية (ص: ٤٤٥).

• غاية أمنية الأموات •

أخي الحبيب.... أختي الفاضلة: «غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يُفرطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها بالمعاصي[١].

* وقيل: «البصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره، فيرى مكانه بين أظهرهم، فيستعد للحوق بهم، ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، ويتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيعٌ له؛ لكان أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها؛ لأنهم عرفوا قدر الأعمار، وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يومٍ من العمر، ليتدارك المقصر به تقصيره، فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته، فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت قادر على تلك الساعة».

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: مر النبي ﷺ على قبر دُفن حديثًا، فقال: «ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتنفَّلُون يزيدهما هذا في عمله أحب إليه من بقية دُنياكم»[٢].

• أين مستقر الأرواح بعد الموت •

* قال الإمام ابن القيم: «وأما المسألة الخامسة عشرة وهي أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟ هل هي في السماء أم في الأرض؟ وهل هي في الجنة والنار أم لا؟ وهل تودع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها فتنعم وتعذب فيها أم تكون مجردة؟.

فهذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس واختلفوا فيها، وهي إنما تُتلقى من السمع فقط، واختُلف في ذلك:

* فقال قائلون: أرواح المؤمنين عند الله شهداء كانوا أم غير شهداء، إذا لم يحبسهم

---

(١) لطائف المعارف (ص: ٣٥٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٩٢٤)، وغيره، وصحح إسناده على شرط مسلم، الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٨٨).

عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم، وهذا مذهب أبى هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم.

* وقالت طائفة: هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

* وقالت طائفة: الأرواح على أفنية قبورها.

* وقال مالك: بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت.

وقال الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله: أرواح الكفار فى النار. وأرواح المؤمنين فى الجنة.

وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت بئر بحضرموت.

* وقال كعب: أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة. وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت خد إبليس.

* وقالت طائفة: أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله.

* وقالت طائفة أخرى، منهم ابن حزم: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

* بعد عرض ما سبق يترجح لنا أن الأرواح فى البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت.

• **أولاً:** أرواح الأنبياء، وهذه تكون فى خير المنازل فى أعلى عليين، فى الرفيق الأعلى، وقد سمعت السيدة عائشة الرسول ﷺ فى آخر لحظات حياته يقول: «اللَّهم الرفيق الأعلى»[1]، وهم متفاوتون فى منازلهم كما رآهم النبى ﷺ ليلة الإسراء. وهذا قول ابن القيم وشارح الطحاوية.

قال ابن رجب: فى «أهوال القبور»[2]: «أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فليس فيهم شك أن أرواحهم عند الله فى أعلى عليين».

• **ثانيًا:** أرواح الشهداء، وهؤلاء أحياء عند ربهم يُرزقون.

قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩)، وقد سأل مسروق عبد الله بن مسعود عن هـذه الآية، فقـال: «إنا قد سألنا

---

(١) «صحيح البخارى» كتاب الرقاق: باب من أحب لقاء الله، «فتح البارى» (١١/ ٣٥٧).

(٢) أهوال القبور/ لابن رجب (ص: ١٢٤).

رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «أرواحهم فى أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل» رواه مسلم فى صحيحه[١] عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأُحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب، معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ عنا إخواننا أنّا أحياء فى الجنة نُرزق، لئلا ينكلوا عن الحرب، ولا يزهدوا فى الجهاد، قال: فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩)[٢].

وفى «صحيح البخارى» عن أنس رضى الله عنه، قال: أصيب حارثة يوم بدر ـ وهو غلام ـ، فجاءت أمه إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى، فإن يكن فى الجنة صبرت واحتسبت، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ قال: «ويحك أو هبلت؟ جنة واحدة هى؟ إنها جنان كثيرة، وإنه فى جنة الفردوس»[٣].

وقال ﷺ: «رأيت جعفر بن أبى طالب مَلَكًا يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين»[٤].

● **الثالث:** أرواح المؤمنين الصالحين: تكون طيوراً تعلق شجر الجنة.

قال ﷺ: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلُق[٥] فى شجر الجنة حتى يبعثه الله إلى جسده يوم يبعثه»[٦].

● **الرابع:** أرواح العصاة: وستأتى النصوص التى تبين ما يلاقيه العصاة من العذاب،

---

(١) رواه مسلم رقم (١٨٨٧) فى الإمارة: باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة، والترمذى رقم (٣٠١٤و٣٠١٥) فى التفسير: باب ومن سورة آل عمران.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦)، وأبو داود رقم (٢٥٢٠) فى الجهاد: باب ما جاء فى فضل الشهادة، وصححه الحاكم (٢/ ٨٨). ووافقه الذهبى، وهو كما قالا.

(٣) البخارى رقم (٢٨٠٩) فى الجهاد: باب من أتاه سهم غرب فقتله، ورقم (٣٩٨٢) فى المغازى: باب فضل من شهد بدرًا ورقم (٦٥٥٠و ٦٥٦٧) فى الرقاق: باب صفة الجنة والنار، والترمذى رقم (٣١٧٣) فى «التفسير»: باب ومن سورة المؤمنين.

(٤) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٦٥).

(٥) أى: يأكل.

(٦) رواه مالك وأحمد والنسائى عن كعب بن مالك وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٧٣).

فمن ذلك أن الذى يكذب الكذبة تبلغ الآفاق يعذب بكلوب من حديد يدخل فى شدقه حتى يبلغ قفاه، والذى نام عن الصلاة المكتوبة يشدخ رأسه بصخرة،... والزناة والزوانى يُعذبون فى ثقب مثل التنور ضيق أعلاه وأسفله واسع، توقد النار من تحته، والمرابى يسبح فى بحر من دم، وعلى الشط من يلقمه حجارة. وقد ذكرنا الأحاديث التى تتحدث عن عذاب الذى لم يكن يستنزه من بوله، والذى يمشى بالنميمة بين الناس، والذى غلَّ من الغنيمة ونحو ذلك.

● **الخامس:** قال ابن القيم: «ومنهم: مَن يكون محبوسًا على باب الجنة كما فى الحديث الآخر: «رأيت صاحبكم محبوسًا على باب الجنة».

وعن سمرة بن جندب، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقال: «هاهنا أحد من بنى فلان؟» ثلاثًا، فلم يجبه أحد، ثم أجابه رجل، فقال: «إن فلانًا الذى توفى احتبس عن الجنة من أجل الدين الذى عليه، فإن شئتم فافتكُّوه، أو فافدوه، وإن شئتم فأسلموه إلى عذاب الله عز وجل»[١].

● **السادس:** من يكون مقرّه باب الجنة:

* قال ابن القيم فى «الروح»[٢]:

ومنهم: من يكون مقره باب الجنة كما فى حديث ابن عباس: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج رزقهم من الجنة بكرة وعشية» رواه أحمد،... وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء.

● **السابع:** أرواح الكفار: فى حديث أبى هريرة عند النسائى بعد وصف حال المؤمن إلى أن يبلغ مستقره فى الجنة، ذكر حال الكافر، وما يلاقيه عند النزع، وبعد أن تقبض روحه «تخرج منه كأنتن ريح، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، حتى يأتون به أرواح الكفار»[٣].

---

(١) أبو داود رقم (٣٣٤١) فى البيوع: باب فى التشديد فى الدين، والنسائى (٧/ ٣٢٥) فيه: باب التغليظ فى الدين، والحاكم (٢/ ٢٥) وإسناده حسن. انظر: «جامع الأصول» رقم (٢٥٣٣).

(٢) الروح (ص: ١٥٤).

(٣) أخرجه النسائى (٤/ ٨) كتاب الجنائز.

● **الثامن:** أطفال المشركين والراجح أنهم فى الجنة:

اختلف العلماء فى الأطفال الذين ماتوا وهم صغار.

* قال ابن حجر فى «الفتح»:

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا فى هذه المسألة على أقوال:

أحدها: أنهم فى مشيئة الله تعالى، وهو منقول عن الحمادين، وابن المبارك، وإسحاق، ونقله البيهقى عن الشافعى فى حق أولاد الكفار خاصة، قال ابن عبد البر، وهو مقتضى صنيع مالك، وليس عنده فى هذه المسألة شيء منصوص.

ثانيها: أنهم تبع لآبائهم، فأولاد المسلمين فى الجنة وأولاد الكفّار فى النار وحكاه ابن حزم عن الأزارق من الخوارج.

ثالثها: أنهم يكونون فى برزخ بين الجنة والنار؛ لأنهم لم يعملوا حسنات يدخلون بها الجنة، ولا سيئات يدخلون بها النار.

رابعها: خدم أهل الجنة.

خامسها: أنهم يصيرون ترابًا.

سادسها: هم فى النار حكاه عياض عن أحمد، وغلطه ابن تيمية بأنه قول لبعض أصحابه ولا يُحفظ عن الإمام أصلاً.

سابعها: أنهم يُمتحنون فى الآخرة بأن تُرفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن أَبَى عُذِّب. وقد صحّت مسألة الامتحان فى حق المجنون ومن مات فى الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» بأنه المذهب الصحيح.

ثامنها: أنهم فى الجنة. قال النووى: وهو المذهب الصحيح المختار الذى صار إليه المحققون، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وإذا كان لا يعذب العاقل كونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب الأولى ـ وهو الذى صار إليه البخارى.

ـ لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ «كل مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه...»[(١)].

---

(١) رواه البخارى فى «صحيحه»، كتاب الجنائز: باب ما قيل فى أولاد المشركين.

ـ ولحديث سمرة وفيه: «... والشيخ بأصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس»، وقد أخرجه البخارى فى التعبير بلفظ: «وأما الولدان الذين حوله فكل مولود يُولد على الفطرة». فقال بعض المسلمين: وأولاد المشركين؟ فقال: «وأولاد المشركين».

ـ وروى أحمد من طريق خنساء بنت معاوية بن صريم عن عمتها قالت: «قُلت: يا رسول الله من فى الجنة؟ قال: «النبى فى الجنة، والشهيد فى الجنة، والمولود فى الجنة» إسناده حسن.

ـ وروى أبو يعلى من حديث أنس مرفوعًا: «سألتُ ربى اللاهين من ذرية البشر ألا يعذبهم فأعطانيهم» إسناده حسن، وورد تفسير «اللاهين» بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعًا أخرجه البزار.

تاسعها: الوقف.

عاشرها: الإمساك وفى الفرق بينهما دقة»[1].

• القبر أول منازل الآخرة •

* عن هانىء مولى عثمان، قال: كان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتبكى من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»[2].

قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه»[3].

• لابن آدم بيتان •

* وعن عبد الله بن العيزار قال: لابن آدم بيتان: بيت على ظهر الأرض، وبيت فى بطن الأرض، فعمد إلى الذى على الأرض فزخرفه وزينه، وجعل فيه أبوابًا للشمال، وأبوابًا للجنوب، وصنع فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه، ثم عمد إلى الذى فى بطن

(١) «فتح البارى» (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).
(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن عثمان وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٨٤).
(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٢٣).

الأرض فخربه، فأتى عليه آت، فقال: أرأيت هذا الذى أراك قد أصلحته، كم تقيم فيه؟ قال: لا أدرى. قال: فالذى خربته، كم تقيم فيه؟ قال: فيه مقامى، قال: تُقرّ بهذا على نفسك، وأنت رجل تعقل؟!

* وروى ابن أبى الدنيا بإسناده، عن سلام بن صالح، قال: فُقدَ الحسن ذات يوم، فلما أمسى، قال له أصحابه: أين كنت اليوم؟ قال: كنت اليوم عند إخوان لى، إن نسيت ذكرونى، وإن غبت عنهم لم يغتابونى، فقال له أصحابه: نعم الإخوان والله هؤلاء، يا أبا سعيد، دلنا عليهم. قال: هؤلاء أهل القبور.

• يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن •

* وعن الحسن قال: يومان وليلتان لم تسمع الخلائق بمثلهن قط: ليلة تبيت مع أهل القبور لم تبت ليلة قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة، ويوم يأتيك البشير من الله تعالى، إما إلى الجنة وإما إلى النار، ويوم تُعطى كتابك إما بيمينك وإما بشمالك.

• لمثل هذا اليوم فأعدوا •

* عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: بينا نحن مع رسول الله ﷺ، إذ بصر بجماعة، فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟» قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ فبدّى بين يدى أصحابه مسرعًا، حتى انتهى إلى القبر فجثى عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: «أى إخوانى لمثل هذا اليوم فأعدوا»[١].

وقال ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»[٢].

وقال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تُرق القلب وتُدمع العين وتذكر الآخرة...»[٣].

* قال سفيان الثورى: «من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومنْ غفل عنه وجده حفرة من حفر النار».

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه عن البراء وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٥٩).

(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٧٧).

(٣) رواه الحاكم عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٨٤).

* وعن أبي عاصم الحيطى، قال: كنت أمشى مع محمد بن واسع، فأتينا المقابر، فدمّعت عيناه، ثم قال: يا أبا عاصم لا يغرنك ما ترى من خمودهم، فكأنك بهم قد وثبوا من هذه الأجداث، من بين مسرور ومهموم.

* وعن ابن السماك قال: لا يغرنّك سكوت هذه القبور، فما أكثر المغمومين فيها، ولا يغرنك استواؤها فما أشد تفاوتهم.

قف بالقبور وقل على ساحاتها ... منَ منكم المغمور فى ظُلُمَاتها
ومن المكرَّم منكم فى قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد ... لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسنٍ ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة ... يُفضى إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرمُ الطاغى بها متقلبٌ ... فى حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... فى شدَة التعذيب من لدغاتها

• القبر يتكلم •

* عن عُبيد بن عمير ـ رحمه الله ـ أنه قال: «يُجعل للقبر لسانًا ينطق به، فيقول: ابن آدم كيف نسيتنى؟! أما علمت أنى بيت الأكلة، وبيت الدود، وبيت الوحشة»[١].

* وعنه ـ رحمه الله ـ أنه قال: «إن القبر ليقول: يا ابن آدم ماذا أعددت لى؟ ألم تعلم أنى بيت الغربة، وبيت الوحدة، وبيت الأكلة، وبيت الدود»[٢].

* وقال أسيد بن عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ:

«بلغنى أن المؤمن إذا مات، وحُمل قال: أسرعوا بى فإذا وضع فى لحده كلمته الأرض فقالت له: إن كنتُ لأُحبك وأنت على ظهرى، فأنت الآن أحبّ إلىّ.

فإذا مات الكافر وحُمل قال: ارجعوا بى فإذا وضع فى لحده كلّمته الأرض فقالت: إن كنت لأبغضك وأنت على ظهرى، فأنت الآن أبغض إلىّ»[٣].

(١) رواه أبو نعيم بإسناد صحيح
(٢) أخرجه ابن أبى شيبةً فى المصنف (٨/ ٢٢٩) بإسناد صحيح.
(٣) أخرجه ابن المبارك بإسناد صحيح.

• ضمة القبر •

ضمة القبر لا ينجو منها أحد، صالحًا كان أو عاصيًا،.... صغيرًا كان أو كبيرًا.

* قال رسول الله ﷺ عن سعد بن معاذ رضى الله عنه: «هذا الذى تحرّك له العرش، وفُتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفًا من الملائكة، لقد ضُمّ ضمّة ثم فُرج عنه»(١).

* وقال رسول الله ﷺ: «إن للقبر ضغطة، لو كان أحد ناجيًا منها لنجا سعد بن معاذ»(٢).

بل إن الطفل الصغير لا ينجو من ضمة القبر.

* قال ﷺ: «لو أفلت أحدٌ من ضمة القبر لأفلت هذا الصبى»(٣).

وأخرج ابن أبى الدنيا عن محمد التيمى قال: «وكان يُقال: إن ضمة القبر، وإنما أصلها أنها أُمهم، ومنها خُلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما ردَّ الله تعالى أولادها، ضمتهم ضم الوالدة التى غاب عنها ولدها، ثم قدم عليها، فمن كان لله مُطيعًا، ضمتهُ برفقٍ، ومن كان عاصيًا، ضمته بعنفٍ، سخطًا منها عليه».

• وقفة لطيفة فى إثبات عذاب القبر ونعيمه •

* إن الله سبحانه جعل الدور ثلاثًا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعًا لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا، فتألمت بألمها والتذت براحتها، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح فى نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها والأرواح هناك ظاهرة، والأبدان خفية فى قبورها

---

(١) رواه النسائى عن ابن عمر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٩٨٧).

(٢) رواه أحمد عن عائشة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٨٠).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أيوب وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٣٨).

تجرى أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيمًا أو عذابًا، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيمًا أو عذابًا، فأحط بهذا الموضع علمًا واعرفه كما ينبغى يزيل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج، وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجًا فى الدنيا من حال النائم، فإن ما ينعم به أو يعذب فى نومه يجرى على روحه أصلاً، والبدن تبع له، وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيرًا مشاهدًا، فيرى النائم فى نومه أنه ضُرب فيصبح وأثر الضرب فى جسمه، ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه، ويذهب عنه الجوع والظمأ.. وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم فى نومه ويضرب ويبطش، ويدافع كأنه يقظان، وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع، فهكذا فى البرزخ بل أعظم، فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى، وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا أصلا، ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه، وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، مطابق للعقل وأنه حق لا مرية فيه، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أُتى كما قيل:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين فى فراش واحد وهذا روحه فى النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه. وهذا روحه فى العذاب ويستيقظ، وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر، فأمر البرزخ أعجب من ذلك[1].

• نعيم المؤمن فى قبره •

فالمؤمن ينتقل فى قبره من نعيم إلى نعيم.

فأول نعيم يلقاه فى قبره: أن الله (جل وعلا) يثبته عند سؤال الملكين... قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ

(١) الروح (ص: ٨٥: ٨٦).

اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم:٢٧).

ويرى المؤمن فى قبره (النار) التى وقاه الله منها ويرى مقعده ومكانه فى الجنة... وينور الله له قبره ويفسح له فى قبره بل وينام المؤمن فى قبره أطيب نومة ويكون فى قمة شوقه لمن يبشر أهله بالنعيم الذى يجده فى قبره.

* قال ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأُحد، جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب، معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنّا أحياء نُرزق، لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله تعالى: «أنا أبلغهم عنكم»[1].

* بل إن أعماله الصالحة تُمثَّل له وتؤنسه فى قبره كما جاء فى حديث البراء أنه «يُمثَّل له رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرّك، أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذى كنت تُوعد، فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح».

* بل إن الله يملأ عليه قبره خضرًا إلى يوم يُبعثون. كما جاء فى الحديث: «...ويُفسح له فى قبره ويُملأ عليه خضرًا إلى يوم يُبعثون».

* ويُفرش له قبره من الجنة.. كما فى حديث البراء: «فينادى منادٍ من السماء: أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة».

* ويُبشَّر بصلاح ولده فى قبره. قال مجاهد: «إن الرجل ليُبشَّر بصلاح ولده فى قبره».

• أما الصنف الآخر •

أما الصنف الآخر فينادَى عليه من السماء: أن كذب عبدى. وياله من خزى وياله من عذاب... ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويمتلىء عليه قبره ظُلمة... ويُفرش له قبره من النار ويُسلَّط عليه التنِّين الذى يلسعه وينهشه... بل ويُضرب بمطراقٍ حتى يصير ترابًا ثم يُعيده الله كما كان... ويُمثَّل له عمله فى قبره.

ففى حديث البراء: «ويأتيه رجل قبيح الوجه... فيقول أنا عملك الخبيث».

فنسأل الله العفو والعافية.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٠٥).

• الأرواح قسمان: منعمة ومعذبة •

الأرواح قسمان: مُنَعَّمة ومُعَذَّبة.

فأما المعذبة فهى فى شغل عن التزاور والتلاقى. وأما المنعمةُ المرسلة، غير المحبوسة، فتتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها فى الدنيا، وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح مع رفيقها، الذى هو على مثل عملها، وروح نبينا محمد ﷺ فى الرفيق الأعلى.

* قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩). هذه المعية ثابتةٌ فى الدنيا، وفى دار البرزخ، وفى دار الجزاء، والمرء مع من أحب فى هذه الدور الثلاثة»[١].

• الأدلة على عذاب القبر ونعيمه من القرآن الكريم •

لقد أنكر جماعة من الزنادقة عذاب القبر ونعيمه وجعلوا عامة المسلمين يشكون فى هذا الأمر... فإلى هؤلاء جميعًا نهدى بعض الأدلة من الكتاب والسُّنة على عذاب القبر ونعيمه.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:٩٣).

«وجه الدلالة من هذه الآية أنه إذا كان يُفعل به هذا وهو محتضر بين ظهرانى أهله صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وهم لا يرون شيئًا من ذلك ولا يسمعون شيئًا من ذلك التقريع والتوبيخ ولا يدرون بشىء من ذلك الضرب، غير أنهم يرون مجرد احتضاره وسياق نفسه، ولا يعلمون بشىء مما يقاسى من الشدائد، فلأن يُفعل له فى قبره أعظم منه ولا يعلمه من كشف عليه أولى وأظهر؛ لأنهم لم يطلعوا على ما يناله بين أظهرهم فكيف وقد انتقل إلى عالم غير عالمهم ودار غير دارهم»[٢].

* وقال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة:١٠١). وهذه الآية

(١) الروح/ لابن القيم (ص: ٢٦).

(٢) بتصرف من معارج القبول.

تدل على أن هناك عذابين سيصيبان المنافقين قبل عذاب يوم القيامة، العذاب الأول: ما يصيبهم الله به في الدنيا إما بعقاب من عنده وإما بأيدي المؤمنين، والعذاب الثاني: عذاب القبر.

قال الحسن البصري: «سنعذبهم مرتين: عذاب الدنيا، وعذاب القبر»[(١)].

* وقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٥:٤٦).

* والآية حجة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يُعرضون على النار غُدوًا وعشيًا، وهذا قبل يوم القيامة؛ لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ، قال القرطبي: «الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر»[(٢)].

* وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة:٢١)، وقد احتج بهذه الآية جماعة (منهم عبد الله بن عباس) على عذاب القبر، وفي الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعى به رجوعهم من الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه، فهم منها عذاب القبر فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال من العذاب الأدنى، ولم يقل ولنذيقنهم العذاب الأدنى... فتأمله.

وهذا نظير قول النبي ﷺ: «فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها» ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها، فإن الذي وصل إليه بعض ذلك وبقي له أكثره والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا بعض العذاب الأدنى، وبقي لهم ما هو أعظم منه»[(٣)].

* وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم:٢٧).

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٣٣).
(٢) فتح الباري (١١/ ٢٣٣).
(٣) الروح (ص: ١٠٢).

وفى الحديث الذى رواه البخارى عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ: «إذا أُقعد المؤمن فى قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، وفى رواية أخرى: وزاد: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزلت فى عذاب القبر».

* وقال تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (الواقعة:٨٣:٩٤).

وقد استدل الإمام ابن القيم بهذه الآيات على عذاب القبر «فى كتاب الروح».

* وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ (نوح:٢٥).

ـ قال الألوسى فى «روح المعانى»:

« ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ هى نار البرزخ والمراد: عذاب القبر. ومن مات فى ماء أو نار أو أكلته السباع أو الطير مثلاً أصابه ما يصيب المقبور من العذاب»(١).

* وقال فخر الدين الرازى فى «مفاتيح الغيب»: «تمسّك أصحابنا فى إثبات عذاب القبر بقوله: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ وذلك من وجهين:

الأول: أن الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء.

الثانى: أنه قال: ﴿فَأُدْخِلُوا﴾ على سبيل الإخبار عن الماضى. وهذا إنما يصدق لو وقع ذلك»(٢) اهـ.

* وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الطور:٤٥:٤٧).

---

(١) تفسير القرطبى (١٠/ ٦٧٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب/ للرازى (١٥/ ٧٥١).

قال ابن جرير في «تفسيره»[(١)]:

«عن البراء: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ قال: عذاب القبر.

وعن قتادة: أن ابن عباس كان يقول: إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ .

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به عذابًا دون يومهم الذي فيه يُصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة؛ لأنه في البرزخ، والجوع الذي أصاب كفار قريش...».

* وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يُعذَّب في الدنيا وقد يقال وهو أظهر: إن من مات منهم عذب في البرزخ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ»[(٢)].

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه:١٢٤).

قال رسول الله ﷺ: «عذاب القبر»[(٣)].

* وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النحل:٢٨، ٢٩).

* قال العلامة ابن كثير في «تفسيره»[(٤)]:

«يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم...

وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورهم من حرها

---

(١) تفسير ابن جرير (١١/ ٣٦: ٣٧).

(٢) الدر المنثور/ للسيوطي (٦/ ١٢٠) ـ والروح لابن القيم (ص: ١٠٢)

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٣٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٨).

وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم وخلدت فى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وعشيًا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعةُ أدخلُوا آل فِرعَوْن أشَدَّ العذابِ﴾ اهـ.

• ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون •

قال الإمام ابن القيم: إنه ينبغى أن يُعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه وهو ما بين الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٠). وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه، وأنه روضة أو حفرة نار، باعتبار غالب الخلق. فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذى تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار رمادًا، وذرى بعضه فى البحر وبعضه فى البر فى يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: قم فإذا هو قائم بين يدى الله، فسأله ما حملك على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يارب وأنت أعلم، فما تلافاه أن رحمه، فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التى صارت فى هذه الحال، حتى لو عُلق الميت على رءوس الأشجار فى مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح فى أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصى عليها منها شىء أراده، بل هى طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته[١].

• الأدلة على عذاب القبر من السُنة المطهرة •

اعلم ـ أخى الحبيب ـ أن الأحاديث الواردة فى عذاب القبر ونعيمه متواترة وهى أخبار ثابتة توجب العلم وتنفى الشك والريب.

---

(١) الروح (ص: ٩٨: ٩٩).

* يقول شارح الطحاوية: «وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم فى كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به فى هذه الدار، والشرع لا يأتى بما تحيله العقول بل إن الشرع قد يأتى بما تحار فيه العقول، فإن عودة الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود فى الدنيا، بل تعاد إليه إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا»(١).

* ويقول الإمام ابن القيم: «أما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبى ﷺ »(٢).

* ولقد ترجم الإمام البخارى فى كتاب الجنائز (لعذاب القبر) فقال: باب ما جاء فى عذاب القبر.

* عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «العبدُ إذا وُضع فى قبره وتولّى وذهب أصحابه حتى أنَّه لَيسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ﷺ ؟ فيقول: أشهد أنَّهُ عبد الله ورسوله. فيقال انظر إلى مقعدك من النَّار أبدلك الله به مقعداً من الجنة. قال النبى ﷺ: فيراهما جميعًا. وأمَّا الكافرُ أو المنافق فيقول: لا أدرى، كنتُ أقول ما يقول الناسُ. فيقال: لا دَرَيتَ ولا تليت، ثم يُضربُ بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيحُ صيحةً يسمعها من يليه إلا الثقلين» (أخرجه البخارى) ورواه مسلم من طرق عن قتادة بنحوه وزاد فيه:

«قال قتادة: وذُكر لنا أنَّهُ يفسح له فى قبره سبعون ذراعًا ـ يعنى المؤمن ـ ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون» (أخرجه مسلم).

وقال ﷺ: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع» (أخرجه مسلم).

* وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنَّ رسول الله ﷺ: «كان يعلمهم هذا الدعاء كما يُعلم السورة من القرآن قولوا: «اللَّهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجَّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات» (أخرجه مسلم).

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٤٥٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٣) ـ والروح (ص: ٧٠).

* وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحَدكمْ إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النَّار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» (متفق عليه).

* وعن عائشة رضى الله عنها قالت: دخلت علىّ عجوزان من عُجز يهود المدينة فقالتا: إنَّ أهل القبور، يعذَّبون فى قبورهم. قالت: فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا ودخل علىَّ رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا علىَّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم، فقال: صدقتا إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم، ثم قالت: فما رأيته بعدُ فى صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر» (أخرجه مسلم).

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إذا قُبر الميتُ ـ أو قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر والآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبدهُ ورسولهُ. فيقولان قد كنا نعلم أنَّك تقول هذا. ثم يُفسح له فى قبره سبعونَ ذراعًا فى سبعين ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم، فيقولان نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهليه إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون، فقلت مثله، لا أدرى. فيقولان: قد كنَّا نعلم أنَّك تقول ذلك. فيقال للأرض التئمى عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[١].

* وقال رسول الله ﷺ: «إذا وُضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإنْ كانت صالحة قالت: قَدِّمونى قدِّمونى، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق»[٢].

* وعن زيد بن ثابت قال: قال أبو سعيد ولم أشهده من النبى ﷺ فى حائط لبنى النجارِ على بغلة له ونحنُ معهُ إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعةَ، فقال: «مَنْ يعرفَ أصحابَ هذه الأقبر؟» فقال رجلٌ: أنا. قال: «فمتى ماتَ

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٢٤).
(٢) رواه البخارى (٣/ ٢٤٤) فى الجنائز: باب كلام الميت على الجنازة وفى (٣/ ١٨١) فى الجنائز: باب حمل الرجال الجنازة دون النساء، وباب قول الميت وهو على الجنازة: قدمونى.

هؤلاء؟» قال: ماتوا فى الإشراك. فقال: «إنَّ هذه الأمَّةُ تُبتلى فى قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار». قالوا: نعوذُ بالله من عذاب النار. فقال: «تعوذُوا بالله من عذاب القبر». قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: «تعوذُوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن». قالوا: نعوذُ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: «تعوذُوا بالله من فتنة الدجَّال». قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال»[1].

* وعن سمرة بن جندب قال: كان النبىﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول: «ما شاء الله». فسألنا يومًا فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» قلنا: لا، قال: «لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى وأخرجانى إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلّوب من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعله بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فِهر - أى: حجر - فيشدخ بها رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذى فى النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فردَّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بى الشجرة وأدخلانى دارًا لم أر قط أحسن منها، فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى دارًا هى أحسن وأفضل، قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت، قالا: نعم... الذى رأيته يشق شدقه كذاب يحدث بالكذب فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة. والذى رأيته يُشدخ رأسه فرجل علَّمه الله القرآن فنام عنه

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) الجنة وصفة نعيمها.

بالليل ولم يعمل به بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة. وأما الذى رأيت فى النقب فهم الزناة، والذى رأيته فى النهر فآكل الربا، وأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة فإبراهيم والصبيان حوله فأولاد الناس، والذى يوقد النار فمالك خازن النار، والدار الأولى دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل وهذا ميكائيل فرفع رأسه فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا: ذلك منزلك، قلت: دعانى أدخل منزلى قالا: إنه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته أتيت منزلك»(١).

* قال الإمام ابن القيم: «وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى مطابق لما فى نفس الأمر»(٢).

* وعن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: «صلّى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللَّهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نُزلهُ ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقِّه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدلهُ دارً خيرًا من داره وأهلاً خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجَنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار» قال: حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت. وفى رواية: «وقه فتنة القبر وعذاب النار»(٣).

• عذاب القبر ينال من هو مستحق •

قال الإمام ابن القيم: ومما ينبغى أن يُعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قُبر أو لم يُقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا ونُسف فى الهواء أو صلب أو غرق فى البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور»(٤).

* * *

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد.

(٢) الروح (ص: ٧٨: ٧٩).

(٣) أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد.

(٤) الروح (ص: ٧٨).

• أسباب عذاب القبر •

* قال الإمام ابن القيم: «ما الأسباب التى تعذب بها أصحاب القبور؟ فجوابها من وجهين: مجمل ومفصل:

أما المُجمل: فإنهم يُعذَّبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته وامتثلت أمره، واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده. فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه. فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب.

وأما الجواب المفصل: فقد أخبر النبى ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذَّبان فى قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس، ويترك الآخر الاستبراء من البول،....».

* فعذاب القبر من معاصى القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله.

* فالنمام والكذّاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والداعى إلى البدعة، والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف فى كلامه، وآكل الربا، وآكل أموال اليتامى ظلمًا، وآكل السحت من الرشوة، وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد، وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة «الحشيش»، والزانى واللوطى، والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر، وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه، والمحلل والمحلل له، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه، ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم، والحاكم بغير ما أنزل الله، والمفتى بخلاف ما شرعه الله، والمعين على الإثم والعدوان، وقاتل النفس التى حرم الله، والملحد فى حرم الله، والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها، والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ ، والنائحة والمستمع إليها، ونوَّاحى جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم، والذين يبنون المساجد على القبور يوقدون عليها القناديل والسرج، والمطففون فى استيفاء مالهم إذا أخذوا، وهضم ما عليهم إذا بذلوه، والجبارون والمتكبرون والمراءون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرّافين، فيسألونهم ويصدقونهم، وأعوان الظلمة الذين باعوا

آخرتهم بدنيا غيرهم، والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجاهر، والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك، والفاحش اللسان البذىء الذى تركه الخلق إتقاء شره وفُحشه، والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً، ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولا يحج مع قدرته على الحج، ولا يؤدى الحقوق مع قدرته عليها، ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة. ولا يبالى بما حصَّل المال من حلال أو حرامٍ، ولا يصل رحمه، ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم، بل يدُعّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، ويرائى العالمين، ويمنع الماعون، ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه، وبذنوبهم عن ذنبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يُعذبون فى قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها، ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب، وبواطنها حسرات وعذاب،... ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات. وفى باطنها الدواهى والبليات. تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها. ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها[١].

• الأسباب المفصلة لعذاب القبر •

(١) الشرك بالله والكفر به:

ومن أعظم أسباب عذاب القبر ـ الإشراك بالله ـ .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام:٩٣).

وذلك أن الكافر إذا احتُضر بشَّرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم وغضب الرحمن الرحيم فتفرق روحه فى جسده وتعصى وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تُخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْن عَذَابَ الْهُونِ..﴾ [٢].

---

(١) الروح/ لابن القيم (١٠٣: ١٠٦) بتصرف

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٦).

وقال تعالى عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦).

فالمراد بالنار هنا عذاب القبر ونيرانه لأن الله (عز وجل) قال بعدها: «ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب».

* وعن أبى أيوب قال: خرج النبى ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتًا فقال: «يهودٌ تُعذَّب فى قبورها» (متفق عليه).

(٢) النفاق:

إن المنافقين أشد خطرًا على الإسلام من الكفار الذين يجهرون بعداوتهم للإسلام وأهله... فهم الذين يُشعلون نار الفتنة بين المسلمين ويهدمون جدار الإسلام ـ باسم الإسلام ـ ولذلك فإن الله يُشعل قبورهم نارًا كما أشعلوا نيران الفتنة بين المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة:١٠١).

أما قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: إحداهما فى الدنيا والآخرة هى عذاب القبر.

وفى بعض أحاديث ـ سؤال الملكين ـ جاء التصريح بأن المنافق يُعذَّب فى قبره.

قال ﷺ: «.. وإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون قولاً، فقلت مثله، لا أدرى، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمى عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبًا،حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» (السلسلة الصحيحة:١٣٩١).

(٣) الكذب:

ففى الحديث الذى رواه البخارى عن سمرة بن جندب (رضى الله عنه) والذى يصوّر بعض مشاهد العذاب فى القبر... قال ﷺ: «... فانطلقنا، فأتينا على رجل مُستلق لقفاهُ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشرُ شدقهُ إلى قفاهُ، ومنخره إلى قفاهُ، وعينه إلى قفاهُ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعلُ به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغُ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانبُ كما كان ثم يعودُ عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى...» الحديث.

الكلوبُ: حديدة معوجة ينزع بها الشيء أو يعلق.

يُشرشِرُ: أي يقطع.

ثم جاء البيان في آخر الحديث بقول الملكين للرسول ﷺ: «... وأما الرجلُ الذي أتيتَ عليه يُشرشرُ شدقهُ إلى قفاهُ، ومنخره إلى قفاهُ، وعينهُ إلى قفاهُ، فإنهُ الرجل يغدو من بيته فيكذبُ الكذبة تبلغُ الآفاق...» الحديث.

وفي رواية: «أما الذي رأيته يُشق شدقهُ فكذابٌ يحدثُ بالكذبة فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيُصنعُ به ما رأيت إلى يوم القيامة...» (أخرجه البخاري).

(٤-٥) هجر القرآن بعد تعلمه والنوم عن الصلاة المكتوبة:

وفي نفس الحديث السابق يوضح لنا النبي ﷺ مشهد عذاب القبر لمن هجر القرآن بعد تعلّمه ولمن ينام عن الصلاة المكتوبة... قال ﷺ: «... وأنا أتينا على رجل مُضطجع، وإذا آخر قائمٌ عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغُ رأسهُ فيتدهدهُ الحجرُ ها هنا، فيتبعُ الحجر، فيأخذهُ فلا يرجعُ إليه حتى يصح رأسهُ كما كان، ثم يعودُ عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى!...».

«يَثْلَغْ رأسهُ»: أي يشدخه ويشقه.

«يَتَدَهْدَهُ»: أي يتدحرج والمراد أنه دفعه من عُلوٍ إلى أسفل وتدهده إذا انحط.

ثم جاء البيان في آخر الحديث بقول الملكين للرسول ﷺ: «... وأما الرجلُ الأول الذي أتيتَ عليه يُثلغُ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذُ القرآن فيرفضهُ وينامُ عن الصلاة المكتوبة».

وفي رواية: «والذي رأيته يُشدخُ رأسه فرجلٌ علمهُ الله القرآن، فنام عنهُ بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعلُ به إلى يوم القيامة» (أخرجه البخاري).

قال ابن حجر: قال ابن هبيرة: رفْض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس.

وقال أيضًا: يحتمل أن يكون التعذيب على مجموع الأمرين ترك القراءة وترك العمل.

أما النوم عن الصلاة المكتوبة وترك صلاتها مع جماعة المسلمين بل يثقل رأسه على

الفراش، فجزاؤه أن يُثلغ ويرضخ هذا الرأس الذى هذا فعله وشأنه، وهكذا يُعذب إلى قيام الساعة، فقد جاء فى بعض الروايات:

«... فيُفعل به إلى يوم القيامة»(١).

* وذكر أيضًا عن عمرو بن دينار قال: كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت فى ناحية المدينة، فاشتكت وكان يأتيها يعودها ثم ماتت فدفنها، فلما رجع ذكر أنه نسى شيئًا فى القبر كان معه، فاستعان برجل من أصحابه، قال: فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع، فقال للرجل: تنحَّ حتى أنظر على أى حال أختى، فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر مشتعل نارًا فردَّه وسوى القبر، فرجع إلى أمه فقال: ما كان حال أختى؟ فقالت: ما تسأل عنها وقد هلكت؟ فقال: لتخبرينى، قالت: كانت تؤخر الصلاة ولا تصلى فيما أظن بوضوء، وتأتى أبواب الجيران فتلقم أذنها أبوابهم وتُخرج حديثهم(٢).

(٦) أكل الربا:

وفى الحديث السابق أيضًا: «... فانطلقنا فأتينا على نهر حسبتُ أنه كان يقولُ أحمر مثل الدم، وإذا فى النهر رجلٌ سابحٌ يسبحُ، وإذا على شط النهر رجلٌ قد جمع عندهُ حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحُ، ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عندهُ الحجارة فيفغر ـ أى يفتح ـ له فاه فيُلقمه حجرًا فينطلق يسبح ثم يرجعُ إليه، كلما رجَعَ إليه فَغَرَ فاهُ فألقمه حجرًا...» الحديث.

وفى آخر الحديث: «وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا».

(٧) الزنا:

وفى الحديث السابق كذلك: «... فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: وأحسبُ أنه كان يقول: فإذا فيه لغطٌ وأصواتٌ، قال: فطلعنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عُراة، وإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسفل منهم إذا أتاهم ذلك اللهبُ ضوضوا....» ـ أى صاحوا ـ.

وفى آخر الحديث: «وأما الرجال والنساء العُراة الذين هم فى مثل بناء التنور فإنهم الزُناة والزوانى».

---

(١) فتح البارى (٣/ ٢٥١).

(٢) الروح (ص: ٩١).

* قال الحافظ ابن حجر فى «الفتح»[(١)]:

«مناسبة العرى لهم لاستحقاقهم أن يُفضحوا؛ لأن عادتهم أن يستتروا فى الخلوة فعوقبوا بالهتك، والحكمة فى إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى.

(٨، ٩) عدم الاستبراء من البول والمشى بين الناس بالنميمة:

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مر النبى ﷺ بحائط ـ أى بستان ـ من حيطان المدينة فسمعَ صوت إنسانين يُعذبان فى قبورهما، فقال النبى ﷺ: «إنهما ليُعذبان، وما يُعذبان فى كبير»، ثم قال: «بلى وإنهُ لكبير[(٢)] كان أحدهُما لا يستتر من بوله: وفى رواية: البول، وكان الآخر يمشى بالنميمة، ثم دعا بجريدة رطبة، وفى رواية: بعسيب رطب فكسرها كسرتين، وفى الرواية: فشقها نصفين، فوضع على كل قبر منهما كسرةً، فقيل له: يا رسول الله لِمَ فعلت هذا؟

* قال ﷺ: «لعلهُ أن يُخففَ عنهما ما لم ييبسا» (متفق عليه).

ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ: «إن عامة عذاب القبر من البول فتنزهوا منه»[(٣)].

* وقال ﷺ: «تنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه»[(٤)].

---

(١) فتح البارى (١٢/ ٤٦٥).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: وقيل: ويحتمل أن الضمير فى قوله: «وأنه» يعود على العذاب، لما ورد فى «صحيح ابن حبان» من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ: «يعذبان عذابًا شديدًا فى ذنب هين»، وقيل: المعنى ليس بكبير فى اعتقادهما أو فى اعتقاد المخاطبين وهو عند الله كبير كقوله تعالى ﴿وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم﴾ (النور: ١٥)، وقيل: ليس بكبير الاحتراز منه، أى كان لا يشق عليهما الاحتراز من ذلك، وهذا الأخير جزم به البغوى وغيره، ورجحه ابن دقيق العيد وجماعة، وقيل: ليس بكبير بمجرده وإنما صار كبيرًا بالمواظبة عليه، ويرشد إلى ذلك السياق فإنه وصف كلاً منهما بما يدل على تجدد ذلك منه واستمراره عليه للإتيان بصيغة المضارعة بعد حرف كان. والله أعلم. أهـ.

قال الحافظ: معنى «الاستتار» أنه لا يجعل بينه وبين بوله ستره، يعنى: لا يتحفظ منه، فتوافق رواية «لا يستنزه» لأنها من التنزه وهو الإبعاد، وفى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عند ابن خزيمة وصححه: «اكثر عذاب القبر من البول» أى: بسبب ترك التحرز منه. أهـ (الفتح: ١/ ٣٨٠) بتصرف.

(٣) رواه البزار والطبرانى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٠٢).

(٤) رواه الدارقطنى عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٠٢).

(١٠) الغيبة:

ففي الحديث السابق الذي ذكر فيه النبي ﷺ أن أحدهما كان لا يستتر من البول وأن الآخر كان يمشي بالنميمة...

جاء في بعض روايات هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «وأما الآخر فيُعذَّب في الغيبة»[١].

وعن ميمونة ـ مولاة النبي ﷺ ـ أن النبي ﷺ قال لها: «يا ميمونة إن من أشد عذاب القبر: من الغيبة والبول»[٢].

• سبب تخصيص عذاب القبر من البول والغيبة والنميمة •

وقد ذكر بعضهم السر في تخصيص البول والنميمة والغيبة بعذاب القبر وهو أن القبر أول منازل الآخرة، وفيه أنموذج ما يقع في يوم القيامة من العقاب والثواب. والمعاصي التي يعاقب عليها العبد يوم القيامة نوعان: حق لله، وحق لعباده، وأول ما يُقضى فيه يوم القيامة من حقوق الله: الصلاة، ومن حقوق العباد: الدماء.

وأما البرزخ فيقضى فيه في مقدمات هذين الحقين، ووسائلهما. فمقدمة الصلاة: الطهارة من الحدث والخبث، ومقدمة الدماء: النميمة، والوقيعة في الأعراض، وهما أيسر أنواع الأذى، فيبدأ في البرزخ بالمحاسبة، والعقاب عليهما.

(١١) جرّ الإزار خيلاء:

قال ﷺ: «بينما رجلٌ يجر إزاره إذ خُسف به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة» (أخرجه البخاري).

وفي رواية: «بينما رجل يمشي في حُلة تُعجبه نفسه مرجِل جُمته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة» (أخرجه البخاري).

قال الحافظ ابن حجر (رحمه الله): قال ابن فارس: التجلجل أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ويندفع من شق إلى شق... فالمعنى يتجلجل في الأرض أي ينزل فيها مضطربًا متدافعًا. اهـ.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه عن أبي بكرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤١).

(٢) رواه ابن سعد بإسنادٍ حسن.

(١٢) إيذاء الناس باللسان:

ففي حديث أبي هريرة (رضى الله عنه) ـ في رواية ابن حبان ـ أن النبي ﷺ قال: «كان أحدهما لا يستتر من البول وكان الآخر يؤذى الناس بلسانه ويمشى بينهم بالنميمة»[١].

وإيذاء الناس باللسان يكون بالسب واللعن والكذب والاستهزاء والسخرية والقذف والفحش والغيبة وغيرها.

(١٣) حبس الحيوان وتعذيبه:

قال ﷺ: «ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء»[٢].

ومن هذا المنطلق فإن الذى يعذب الحيوان ولا يرحمه فإن الله لا يرحمه لأن الرحمة لا تكون إلا للرحماء.

وفي حديث الكسوف الذى رواه مسلم عن جابر (رضى الله عنه): أن النبي ﷺ قال: «... وعُرِضت عليَّ النار فرأيت فيها امرأة من بنى إسرائيل تُعذَّب فى هرةٍ لها. ربطتها فلم تُطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» (أخرجه مسلم).

* قال البيهقى فى «إثبات عذاب القبر»[٣]: «ورأى النبى ﷺ حين صلى صلاة الخسوف من يجر قُصبه فى النار، ومن يُعذَّب فى السرقة، والمرأة التى كانت تعذب فى الهرة وقد صاروا فى قبورهم رميمًا فى أعين أهل زمانه، ولم ير من صلى معه من ذلك ما رأى».

(١٤) الدَّيْن:

فالميت قد يُحبس فى قبره بسبب الدَّين ولذلك يجب على كل مسلمٍ أن يرد إلى الناس حقوقهم قبل أن يترك الدنيا بكل ما فيها ويذوق العذاب الأليم بسبب تلك المظالم.

* عن جابر بن عبد الله قال: «توفى رجل فغسلناه وحنطناه وكفناه، ثم أتينا به النبى ﷺ ليصلى عليه فخطّ خطًا، ثم قال: «هل عليه دَيْن؟». قلنا: نعم. قال: «صلوا على صاحبكم»، فقال أبو قتادة: يا رسول الله دينه عليَّ؟، فقال النبى ﷺ: «هما عليك حق

(١) رواه ابن حبان وصححه الحافظ فى الفتح.
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن جرير وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٦).
(٣) «اثبات عذاب القبر» للبيهقى (ص: ٩٧).

وبرء الميت؟»، قال: نعم. فصلى عليه، ثم لقيه فى الغد فقال: «ما فعل الديناران؟». فقال: يا رسول الله إنما مات أمس. ثم لقيه من الغد فقال: «ما فعل الديناران؟»، فقال يا رسول الله قد قضيتهما. فقال رسول الله ﷺ: «الآن بردت عليه جلده»(١).

* وعن سعد بن الأطول رضى الله عنه: «أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم، وترك عيالاً، قال: فأردت أن أنفقها على عياله، قال: فقال لى نبى الله ﷺ: «إن أخاك محبوس بدَينه، فاذهب فاقض عنه»، فذهبت فقضيت عنه، ثم جئت، قلت: يا رسول الله، قد قضيت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة، وليست لها بينة، قال: «أعطها فإنها محقة» وفى رواية «صادقة»(٢).

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابى محبوس بسبب دينه، ويمكن أن يُفسر هذا الحبس الحديث الآخر حيث قال الرسول ﷺ: «إنه مأسور بدينه عن الجنة».

(١٥) الغلول من الغنيمة:

الغلول: هو أن يأخذ الغازى شيئًا من الغنيمة دون عرضه على ولى الأمر لقسمته.

قال ﷺ فى الرجل الذى أخذ الغلول: «والذى نفسى بيده إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تُصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا» ـ أى فى قبره» (متفق عليه).

(١٦) الإعراض عن ذكر الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه:١٢٤).

عن أبى سعيد فى قوله (معيشة ضنكا) قال: يُضيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عذاب القبر»(٣).

وقال الإمام ابن القيم فى الداء والدواء: وفُسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنه من المعيشة الضنك. ـ والآية تتناول ما هو أعمّ منه.

---

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) رواه أحمد وصححه الألبانى فى أحكام الجنائز.

(٣) رواه البزار وقال ابن كثير: إسناده جيد.

(١٧) النياحة على الميت:

قال ﷺ: «إن الميت يُعذَّب ببكاء أهله عليه» (متفق عليه).

وقال ﷺ: «الميت يُعذَّب فى قبره بما نيح عليه» (أخرجه مسلم).

وهذا العذاب يكون لمن أوصى أهله بالنياحة عليه بعد موته أو لمن لم يوص أهله بترك النياحة مع علمه أنهم سيفعلون ذلك.. أما من أوصى بترك النياحة فلما مات لم يتركوا النياحة عليه فهذا لا شىء عليه.

والمقصود بالبكاء المذكور فى الحديث الأول هو النياحة المذكورة فى الحديث الثانى وذلك لأن مجرد البكاء لا شىء فيه بالنسبة للميت وأهله لأن البكاء رقة فى القلب تظهر بوضوح عند الموت وفراق الأحبه... ولقد بكى النبى ﷺ عند موت ابنه إبراهيم وعند موت بعض أصحابه (رضى الله عنهم وعن إبراهيم).

(١٨) الإفطار فى رمضان من غير عذر:

عن أبى أمامة (رضى الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما أنا نائم أتانى رجلان فأخذا بضبعى فأتيا بى جبلاً وعرًا فقالا: اصعد. فقلت: إنى لا أطيقه. فقالا: إنا سنسهله لك... فصعدت حتى إذا كنت فى سواء الجبل. إذا بأصوات شديدة قلت: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا عواء أهل النار ثم انطلق بى فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دمًا، قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: الذين يفطرون قبل تحلة صومهم»[١].

(١٩) من منعت لبنها عن طفلها بغير عذر:

ففى الحديث السابق أن رسول الله ﷺ قال: «... ثم انطلق بى فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات. قلت: ما بال هؤلاء؟ قال: هؤلاء يمنعهن أولادهن ألبانهن...»[٢].

(٢٠) اللواط:

قال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[٣]. قال ابن عباس: «يُنظر أعلى بناء فى القرية فيُلقى منه ثم يُتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط».

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٩٩٥).

(٢) رواه ابن خزيمة والحاكم وابن حبان، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣٩٥١).

(٣) رواه أحمد والنسائى وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٨٩).

ولقد عاقب الله قوم لوط عقابًا شديداً فى الدنيا، وهذا مع ما ينتظرهم من العقوبة فى الآخرة... ولشناعة تلك الجريمة وقبحها عاقب الله مرتكبيها بأربعة أنواع لم يجمعها على قوم غيرهم: وهى أنه طمس أعينهم وجعل أعالى قراهم سافلها وأمطرهم بحجارة من سجيل منضود، وأرسل عليهم الصيحة، وفى هذه الشريعة صار القتل بالسيف ـ على الراجح ـ هو عقوبة الفاعل والمفعول به إذا كان عن رضى واختيار.

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: «إن اللوطى إذا مات من غير توبة فإنه يُمسخ فى قبره خنزير».

(٢١) السرقة:

ففى حديث الكسوف الذى رواه مسلم عن جابر (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «... وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قُصبه فى النار. كان يسرق الحاج بمحجنه فإن فطن له قال: إنما تعلَّق بمحجنى وإن غفل عنه ذهب به...».

والمحجن: عصا مغففة الطرف.

(٢٢) أمر الناس بالبر ونسيان النفس:

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف:٢، ٣).

وقال ﷺ: «رأيتُ ليلة أُسرى بى رجالاً تُقرضُ شفاههم بمقاريض من نار، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخُطباء من أمتكَ، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفُسهم، وهُمْ يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟!»[١].

وعند البيهقي: «أتيت ليلة أُسرى بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قُرضت وفَّت، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرءون كتاب الله ولا يعملون به»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) رواه أبو يعلى وابن حبان وصححه الألبانى فى الصحيحة بمجموع طرقه (٢٩١).

(٢) رواه البيهقى عن أنس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٩).

• الأسباب المنجية من عذاب القبر •

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«فجوابها أيضًا من وجهين: مجمل ومفصل.

* أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر، ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه فى يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسرورًا بتأخير أجله، حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقَّب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك، ولا قوة إلا بالله.

أما الجواب المُفصَّل: فنذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجى من عذاب القبر.

(١) الإيمان والتقوى والعمل الصالح:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق:٢، ٣).

ففى تلك الآيات وعد الله أهل التقوى بأن يجعل لهم مخرجًا من كل ضيق وليس هناك شدة ولا ضيق أعظم من شدة السكرات وخروج الروح ودخول القبر.

فمن كان فى الدنيا تقيًا فإن الفرَج والمخرج يكون له ثوابًا فى قبره...

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقد جاء فيما ينجى من عذاب القبر حديث فيه الشفاء، رواه أبو موسى المدينى وبيَّن علته فى كتابه فى «الترغيب والترهيب» وجعله شرحًا له رواه من حديث الفرج بن فضاله،... عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال: «إنى رأيت البارحة عجبًا، رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاء برُّه بوالديه فردَّ ملك الموت عنه. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فطيرَّ الشياطين عنه. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم.

ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشًا كلما دنا من حوض مُنع وطُرد، فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه وأرواه. ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوسًا حلقًا حلقًا، كلما دنا إلى حلقة طُرد ومنع، فجاءه غُسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي. ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن يساره ظلمة، ومن فوقه ظلمة، وهو متحير فيه فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار وشرورها فجاءته صدقته فصارت سترًا بينه وبين النار وظللاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتي جاثيًا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حُسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه. ورأيت رجلاً من أمتي خفَّ ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتي قائمًا على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي قد هوى فى النار فجاءته دمعته التى قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك. ورأيت رجلاً من أمتي قائمًا على الصراط، يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكَّن روعه ومضى. ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط يحبو أحيانًا ويتعلق أحيانًا فجاءته صلاته عليَّ فأقامته على قدميه وأنقذته. ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة» قال الحافظ أبو موسى: هذا حديث حسن جدًا، وقال الإمام ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام يعظم أمر هذا الحديث، وقال أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث»[١].

(٢) الاستقامة على طاعة الله (جل وعلا):

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

(١) الروح (ص: ١١٠: ١١٢).

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠:٣٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف:١٣، ١٤).

* فلقد أجرى الله الكريم عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه ومن مات على شىء بُعث عليه... فمن عاش على الطاعة مخلصًا لله ومتبعًا لهدى رسول الله ﷺ فإنه يموت على الطاعة وينور الله له قبره بتلك الطاعة بل ويصبح قبره روضة من رياض الجنة جزاءً لكل لحظة عاشها فى طاعة الله (جل وعلا).

(٣) الشهادة فى سبيل الله تعالى:

قال ﷺ: «للشَّهيد عندَ الله سَبعُ خصال: يُغفرُ لهُ فى أوَّل دَفعة من دمه، ويَرى مَقعده من الجنَّة، ويُحلَّى حُلَّةَ الإيمان، ويُزوجُ اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضعُ على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، ويَشفعُ فى سبعين إنسانًا من أهل بيته»(١).

بل قال رجلٌ للحبيب ﷺ: «يا رسول الله ما بال المؤمنين يُفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال ﷺ: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(٢).

* قال الشيخ الألبانى: (تنبيه): تُرجى هذه الشهادة لمن سألها مخلصًا من قلبه ولو لم يتيسر له الاستشهاد فى المعركة بدليل قوله ﷺ: «منْ سأل الله الشهادة بصدق، بلغهُ الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه» (أخرجه مسلم).

(٤) من مات شهيدًا فى غير حرب:

لقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ بأن هناك شهداء غير الذين يُقتلون فى سبيل الله... ولقد علمنا أن الشهيد يُجار من فتنة وعذاب القبر.

* قال ﷺ: «ما تعدون الشهيد فيكم؟» قالوا: يا رسول الله! من قُتل فى سبيل الله فهو شهيد. قال: «إن شهداء أمتى إذًا لقليل» قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «من قُتل فى سبيل الله فهو شهيد. ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد. ومن مات فى الطاعون فهو

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٨٢).

(٢) رواه النسائى والترمذى بإسناد صحيح.

شهيد. ومن مات فى البطن فهو شهيد» ﷺ (أخرجه مسلم).

* وقال ﷺ: «من فصل فى سبيل الله فمات أو قُتل أو رفصته فرسه أو بعيره أو لدغته هامة أو مات فى فراشه بأى حتف شاء الله فإنه شهيد وإن له الجنة»[١].

وقال ﷺ: «من قتله بطنه لم يُعذَّب فى قبره»[٢].

* والموت بداء البطن: هو الاستسقاء وانتفاخ البطن. وقيل: هو الإسهال. وقيل الذى يشتكى بطنه.

وقال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[٣].

وقال ﷺ: «من قُتل دون ماله فهو شهيد ومن قُتل دون دمه فهو شهيد ومن قُتل دون دينه فهو شهيد ومن قُتل دون أهله فهو شهيد»[٤].

وقال ﷺ: «من قُتل دون ماله مظلومًا فله الجنة»[٥].

وقال ﷺ: «من قُتل دون مظلمته فهو شهيد»[٦].

وقال ﷺ: «الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله: المطعون شهيد والغرق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد والحرق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع شهيدة»[٧].

تموت بجمع: أى تموت وفى بطنها ولد.

فكل هؤلاء الذين ذكرهم الحبيب ﷺ شهداء... والشهداء هم الذين أكرمهم الحق (جل وعلا) فى الدنيا بنعمة الشهادة وفى القبر بالنعيم والنجاة من الفتنة والعذاب... وفى الآخرة بالخلود فى الجنان مع الأحباب.

(٥) المرابطة فى سبيل الله تعالى:

قال ﷺ: «رباط يومٍ فى سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه ومن مات فيه وُقى فتنة

---

(١) رواه أبو داود والحاكم عن أبى مالك الأشعرى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤١٣).
(٢) رواه أحمد والترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٦١).
(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد والحاكم عن أنس.
(٤) رواه أحمد والترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٥).
(٥) رواه النسائى عن ابن عمرو وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٦).
(٦) رواه النسائى والضياء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٧).
(٧) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

القبر ونما له عمله إلى يوم القيامة»[١].

وقال ﷺ: «كل ميت يُختم على عمله إلا الذى مات مرابطًا فى سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمَّن من فتَّان القبر»[٢].

وفى رواية الطبرانى: «من مات مرابطًا فى سبيل الله أمَّنه الله من فتنة القبر».

(٦) قراءة سورة تبارك:

أيها الأخ الحبيب... أيتها الأخت الفاضلة:

لا تغفلوا عن قراءة سورة المُلك (تبارك) كل ليلة فلقد أخبر الحبيب ﷺ أنها تمنع من عذاب القبر.

قال ﷺ: «سورة تبارك هى المانعة من عذاب القبر»[٣].

وقال ﷺ: «سورة من القرآن ما هى إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة وهى تبارك»[٤].

(٧) تجنب أسباب عذاب القبر:

ومن أسباب النجاة من عذاب القبر أن يتجنب العبد كل الأسباب التى تؤدى إلى عذاب القبر: مثل النميمة وعدم الاستتار والتنزه من البول... والكذب وهجر القرآن وعدم العمل به... وأكل الربا والوقوع فى الزنا.

فكل هذه الأشياء من أسباب عذاب القبر فعلينا أن نتجنبها لننجو جميعًا من عذاب القبر.

وكذلك علينا أن نتجنب الأسباب التى تؤدى إلى سوء الخاتمة ألا وهى: الشك والجحود الذى تسببه البدع وفساد المعتقد والنفاق وحب المعاصى والإصرار عليها وتعلق القلب بغير الله والانتحار والعدول عن الاستقامة وتسويف التوبة وحب الدنيا وطول الأمل.

---

(١) رواه الترمذى عن سلمان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٨١).

(٢) رواه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٦٢).

(٣) رواه ابن مردويه عن ابن مسعود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٤٣).

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط والضياء عن أنس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٤٤).

(٨) التوبة الصادقة عند الموت:

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى كتاب (الروح) وهو يذكر أنفع الأسباب المنجية من عذاب القبر:

ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره أو ربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعود إلى الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإذا مات فى ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسرورًا بتأخر أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته. اهـ.

* وما أجمل أن يختم العبد تلك الساعة بسيد الاستغفار.

فقد قال ﷺ: «سيّدُ الاستغفار أنْ تقولَ: اللهمَّ أنتَ ربّى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدُك، وأنا على عهدكَ ووعدك ما استطعتُ؛ أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءَ بذنبى، فاغفر لى فإنه لا يغفرُ الذنوب إلا أنت.

قال: ومَن قَالها من النَّهار موقنًا بها فمات من يومه قبلَ أن يُمسى فهو من أهل الجنة، ومَنْ قالها من الليل وهو مُوقنٌ بها فمَات قبلَ أن يُصبح فهو من أهل الجنة»[1].

(٩) الموت فى ليلة الجمعة أو فى يوم الجمعة:

قال ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله تعالى فتنة القبر»[2].

وهذا السبب ليس من كسب العبد وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

قال الحكيم الترمذى: «ومن مات يوم الجمعة فقد انكشف الغطاء عما له عند الله تعالى؛ لأن يوم الجمعة لا تُسجَّر فيه جهنم وتغلق أبوابها ولا يعمل سلطان النار ما يعمل فى سائر الأيام، فإذا قبض الله عبدًا من عبيده، فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذلك دليلاً لسعادته وحسن مآربه، وأنه لم يقبض فى هذا اليوم العظيم إلا من كتب الله له السعادة عنده.

---

(١) أخرجه البخارى وأحمد والنسائى عن شداد بن أوس.

(٢) رواه أحمد والترمذى عن ابن عمرو وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٧٣).

(١٠) الدعاء:

ولا ينبغى أبدًا أن يغفل المسلم عن الدعاء.. فالدعاء من أعظم أسباب النجاة فى الدنيا والآخرة.

سمع النبى ﷺ رجلاً يقول فى التشهد: (اللهم إنى أسألك بأنَّ لك الحمدُ، لا إله ألا أنت، وحدك لا شريك لكَ، المنَّانُ يا بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم إنى أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار).

ـ فقال ﷺ لأصحابه: «تدرونَ بما دعا؟» قالوا: الله ورسولهُ أعلم. قال: «والذى نفسى بيده؛ لقد دعا الله باسمه العظيم (وفى رواية: الأعظم) الذى إذا دُعى به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى»[1].

فعلينا أن نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُليا وبإسمه الأعظم أن ينجينا من عذاب القبر (ونحن مُوقنون بالإجابة).

(١١) شرب ماء زمزم بنية النجاة من عذاب القبر:

قال ﷺ: «ماء زمزمٍ لما شُرب له»[2].

وكان ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إذا شرب ماء زمزم قال: «اللهم إنى أسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وشفاءً من كل داء».

فمن كان مريضًا أو صاحب حاجة فليشرب منه وليدع بما شاء.

وأوصى نفسى وإخوانى وأخواتى بأن يشربوا ماء زمزم بنية أن يُنزل الله نصره على المسلمين وأن يجيرنا من عذاب القبر وعذاب النار وأن يرزقنا صُحبة الحبيب ﷺ فى جنته ودار كرامته.

أخى الحبيب... أختى الفاضلة:

* كانت هذه بعض أسباب النجاة من عذاب القبر...

فأسأل الله (جل وعلا) أن ينجينا وإياكم من عذاب القبر ومن عذاب النار وأن يجمعنا جميعًا فى جنته ودار كرامته إخوانًا على سُررٍ متقابلين.

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) رواه أحمد ابن ماجه والبيهقى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٠٢).

• فتنة القبر وسؤال الملكين •

* يقول «شارح الطحاوية»: «وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول. فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا» اهـ.

* وقال ابن القيم: «أما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة، متواترة عن النبي ﷺ »[1].

* ويقول ﷺ: «ما من شيء لم أكن رأيته، إلا رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، ولقد أُوحي إليَّ أنكم تُفتنون في قبوركم، مثلَ أو قريبًا من فتنة المسيح الدجال...»[2].

* قال ﷺ: «.. وأما فتنة القبر فبي تُفتنون وعني تُسألون فإذا كان الرجل الصالح أُجلس في قبره غير فزعٍ، ثم يقالُ له ما هذا الرجلُ الذي كان فيكم؟ فيقولُ: محمدٌ رسولُ الله جاءَنا بالبيناتِ من عند الله، فصدَّقناهُ، فيفرجُ له فُرجةٌ قبل النار، فينظرُ إليها يحطمُ بعضُها بعضًا، فيقالُ له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يُفرجُ لهُ فُرجة إلى الجنة، فينظرُ إلى زهرتها وما فيها، فيقالُ له: هذا مقعدك منها، ويقالُ له: على اليقين كنتَ، وعليه متَّ، وعليه تُبعثُ إن شاء الله، وإذا كان الرجلُ السوءُ أجلس في قبره فزعًا، فيقالُ له: ما كنت تقول: فيقولُ: لا أدري، فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقولُ: سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا، فيفرج له فرجةٌ من قبل الجنة، فينظرُ إلى زهرتها وما فيها، فيقالُ له: انظر إلى ما صرفَ الله عنكَ، ثم يفرجْ له فرجةٌ قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضُها بعضًا، ويقالُ: هذا مقعدكَ منها، على الشكّ كنت، وعليه مت، وعليه تُبعثُ إن شاء الله، ثم يعذبُ»[3].

---

(١) الروح (ص: ٧٠).

(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر.

(٣) رواه أحمد عن عائشة وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٣٦١).

* وقال ﷺ: «إنَّ العبدَ المؤمن إذا كانَ فى انقطاع من الدُّنيا وإقبال من الآخرة نزلَ إليه منَ السماء ملائكةٌ بيض الوجوه، كأن وجوهَهُمَ الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة.. ـ إلى أن قال ـ فتعادُ روحه، فيأتيه ملَكان، فيجلسانه، فيقولان لهُ: من ربُّك؟ فيقولُ: ربى الله، فيقولان لهُ: ما دينُك؟ فيقولُ: دينى الإسلامُ، فيقولان لهُ: ما هذا الرجلُ الذى بُعثَ فيكم؟ فيقولُ: هوَ رسولُ الله، فيقولان لهُ وما علمُك؟ فيقولُ: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدَّقتُ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى، فأفرشوهُ من الجنة، وألبسوهُ من الجنَّة، وافتحوا لهُ بابًا إلى الْجنَّة، فيأتيه من رَوحها وطيبها، ويفسحُ لهُ فى قبره مدَّ بصره، ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثّياب، طيِّب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرّك هذا يومك الذى كنت توعد. فيقولُ لهُ: من أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجىءُ بالخير، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ، فيقولُ: ربّ أقم الساعةَ، رب أقم الساعةَ، حتى أرجعَ إلى أهلى ومالى.

وإنَّ العبد الكافرَ إذا كان فى انقطاع من الدُّنيا، وإقبال منَ الآخرة، نزلَ إليه من السماء ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهمُ المُسوحُ، فيجلسون منهُ مدَّ البصرـ إلى أن قال ـ فتُعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان لهُ: منْ ربكَ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ لا أدرى، فيقولان لهُ: ما دينُك؟ فيقولُ: هاه هاه لا أدرى، فيقولان لهُ: ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى، فينادى مناد من السماء، أن كذب عبدى، فأفرشوهُ من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار فيأتيه من حَرّهَا وسَمومُها، ويضيق عليه قبرهُ، حتَّى تختلف أضلاعهُ، ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه، قبيحُ الثياب، منتنُ الريح، فيقولُ: أبشر بالذى يسؤوك، هذا يومك الذى كنت توعدُ، فيقولُ: من أنت فوجهك الوجهُ يجىءُ بالشرّ؟ فيقولُ: أنا عملك الخبيث، فيقولُ: ربِّ لا تُقمِ الساعة»[1].

• سؤال القبر للروح والبدن معًا •

* قال «شارح الطحاوية»[2]: «وليس السؤال فى القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح! والأحاديث الصحيحة ترد القولين. وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا، باتفاق أهل السنة والجماعة،

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن البراء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٥١).

تُنعم النفس وتُعذب مفردة عن البدن ومتصلة به».

قال الإمام ابن القيم: فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى[1].

• هل السؤال فى القبر عام فى حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق؟ •

قال أبو عمر بن عبد البر فى (كتاب التمهيد): والآثار الدالة تدل على أن الفتنة فى القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق، من كان منسوبًا إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة.

وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يُسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام، فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر والمسلم، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (إبراهيم:٢٧). وقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يُسأل: من ربك وما دينك ومن نبيك؟

وفى حديث البراء بن عازب الطويل: «وأما الكافر إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزل عليه ملائكة من السماء معهم مسوح»، وذكر الحديث إلى أن قال: ثم تعاد روحه فى جسده فى قبره، وذكر الحديث.

وفى لفظ: «فإذا كان كافرًا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه».

وفى لفظ آخر فى حديث البراء: «وإن الكافر إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا».

* وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه: وأما الكافر بالجزم

(١) الروح (ص: ٦٩).

وبعضهم قال: وأما الفاجر، وبعضهم قال: وأما المنافق والمرتاب، وهذه اللفظة من شك بعض الرواة، وهكذا في الحديث لا أدري أي ذلك قال، وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك، ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع انفراده على أنه لا تناقض بين الروايتين، فإن المنافق يُسأل كما يسأل الكافر والمؤمن، فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين، وهم الكفار والمنافقون.

* وعن أبي سعيد، قال: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جنازة ـ فذكر الحديث ـ وقال: وإن كان كافرًا أو منافقًا يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، وهذا صريح في أن السؤال للكافر والمنافق، وقول أبي عمر رحمه الله: وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يُسأل عن ربه ودينه ونبيه، فيقال له: ليس كذلك بل هو من جملة المسئولين وأولى بالسؤال من غيره، وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:٦٥) وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر:٩٢) وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف:٦) فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يُسألون في قبورهم فليس لما ذكره أبو عمر رحمه الله وجه[1].

• هل سؤال منكر ونكير مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها •

* قال الإمام ابن القيم في كتابه «الروح»[2].

«وأما المسألة الثانية عشرة وهي أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها؟.

فهذا موضع قد تكلم فيه الناس، فقال أبو عبد الله الترمذي: إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة؛ لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة، فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم، وعوجلوا بالعذاب، فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة إمامًا للخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ الإيمان في قلبه فأُمهلوا فمن ها هنا ظهر أمر النفاق، وكانوا يسرون

(١) الروح (ص: ١١٢: ١١٥) بتصرف.

(٢) الروح (ص: ١١٦: ١١٧).

الكفر ويعلنون الإيمان، فكانوا بين المسلمين فى ستر، فلما ماتوا قيض الله لهم فتانى القبر، ليستخرج سرهم بالسؤال وليميز الله الخبيث من الطيب، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.

وخالف فى ذلك آخرون منهم عبد الحق الإشبيلى والقرطبى، وقالوا: السؤال لهذه الأمة ولغيرها، وتوقف فى ذلك آخرون منهم أبو عمر بن عبد البر فقال: فى حديث زيد ابن ثابت، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها»[1] ومنهم من يرويه: تُسأل.

وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك، فهذا أمر لا يقطع عليه. وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها». وبقوله: «أُوحى إلىّ أنكم تفتنون فى قبوركم»، وهذا ظاهر فى الاختصاص بهذه الأمة. قالوا: ويدل على قول الملكين له: «ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فيقول: المؤمن أشهد أنه عبد الله ورسوله، فهذا خاص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم، وقوله فى الحديث الآخر: «إنكم بى تُمتحنون وعنى تُسألون»، وقال آخرون ولا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم فإن قوله: «إن هذه الأمة»، إما أن يراد به أمة الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام:٣٨).

وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة، وفى الحديث: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها». وفيه أيضًا حديث النبى الذى قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله. وإن كان المراد به أمته ﷺ الذى بعث فيهم لم يكن فيه ما ينفى سؤال غيرهم من الأمم، بل قد يكون ذكرهم إخباراً بأنهم مسئولون فى قبورهم، وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم. وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم». وكذلك إخباره عن قول الملكين: «ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟» هو إخبار لأمته بما تمتحن به فى قبورها،والظاهر والله أعلم أن كل نبى مع أمته كذلك وأنهم معذبون فى قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم، كما يعذبون فى الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة. والله سبحانه وتعالى أعلم» اهـ.

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧)، وأحمد (١٠٧٧٤).

• هل يُمتحن الأطفال والمجانين فى قبورهم؟ •

واختلف فى غير المكلفين من الصبيان والمجانين، فذهب جمع من العلماء إلى أنهم لا يُفتنون منهم القاضى أبو يعلى وابن عقيل، ووجهة نظر هؤلاء أن المحنة تكون لمن كُلف، أما من رُفع عنه القلم فلا يدخل فى المحنة، إذ لا معنى لسؤاله عن شىء لم يكلف به.

* قال الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه «الروح»[1].

«أما المسألة الثالثة عشرة وهى أن الأطفال هل يُمتحنون فى قبورهم؟

اختلف الناس فى ذلك على قولين: هما وجهان لأصحاب أحمد.

وحجة من قال: إنهم يسألون أنه يشرع الصلاة عليهم والدعاء لهم وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر.

كما ذكر مالك فى موطئه عن أبى هريرة رضى الله عنه: « أن النبى ﷺ صلى على جنازة صبى فسمع من دعائه: اللهم قه عذاب القبر».

واحتجوا بما رواه على بن معبد عن عائشة رضى الله عنها، أنه مر عليها بجنازة صبى صغير، فقيل لها ما يبكيك يا أم المؤمنين؟ فقالت: هذا الصبى بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر.

واحتجوا بما رواه هناد بن السرى: ثنا أبو معاوية، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: إن كان ليصلى على المنفوس ما إن عمل خطيئة قط، فيقول: اللَّهم أجره من عذاب القبر. قالوا: والله سبحانه يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلتهم ويلهمون الجواب عما يُسألون عنه. قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة، التى فيها أنهم يمتحنون فى الآخرة.

وحكاه الأشعرى عن أهل السنة والحديث: فإذا امتحنوا فى الآخرة لم يمتنع امتحانهم فى القبور.

قال الآخرون: السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل، فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا؟ فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فأما الطفل

---

(١) الروح (ص: ١١٧، ١١٩).

الذى لا تمييز له بوجه ما فكيف يقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ ولو رُدَّ إليه عقله فى القبر، فإنه لا يُسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به، ولا فائدة فى هذا السؤال، وهذا بخلاف امتحانهم فى الآخرة، فإن الله سبحانه يرسل إليهم رسولاً ويأمرهم بطاعة أمره وعقولهم معهم، فمن أطاعه منهم نجا، ومن عصاه أدخله النار، فذلك امتحان بأمر يأمرهم به ويفعلونه ذلك الوقت لا أنه سؤال عن أمر مضى لهم فى الدنيا من طاعة أو عصيان، كسؤال الملكين فى القبر.

وأما حديث أبى هريرة رضى الله عنه فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل، على ترك طاعة أو فعل معصية قطعًا، فإن الله لا يعذب أحدًا بلا ذنب عمله، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذى يحصل للميت بسبب غيره، وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه»، أى: يتألم بذلك ويتوجع منه لا أنه يعاقب بذنب الحى ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤). وهذا كقول النبى ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»[1] فالعذاب أعم من العقوبة.

ولا ريب أن فى القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسرى أثره إلى الطفل، فيتألم به فيشرع للمصلى عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب. والله أعلم» اهـ.

• وما أنت بمُسمعٍ مَن فى القبور •

ذهب جمع من أهل العلم إلى نفى سماع الأموات وممن ذهب إلى ذلك ابن عابدين، وابن الهمام، وابن نجيم والحصفكى وغيرهم من أئمة الأحناف، والمازرى والباجى والقاضى عياض من المالكية والقاضى أبو يعلى من الحنابلة ومال إليه الشيخ الألبانى فى تحقيقه «للآيات البينات» فى عدم سماع الأموات.

* وهناك من رأى أنهم يسمعون فى الجملة ولا يسمعون فى كل الأحوال... وهناك من رأى أنهم يسمعون فى كل الأحوال لكنهم لا يستطيعون الانتفاع بما يسمعونه أو حتى مجرد الرد.

* قال الإمام ابن القيم: «وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) فسياق الآية يدل على أن المراد منها: أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعًا ينتفع به، كما أن من فى القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعًا ينتفعون به ولم يُرد

(١) رواه البخارى (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧)، وابن ماجه (٢٨٨٢).

سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئًا ألبتة، كيف وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين؟ وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه. وشُرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذى يسمع. وأخبر أن من سلَّم على أخيه المؤمن ردَّ عليه السلام. وهذه الآية نظير قوله: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (النمل:٨٠)، وقد يقال نفى إسماع الصم مع نفى إسماع الموتى، يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع. وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعًا بمنزلة خطاب الميت والأصم، وهذا حق ولكن لا ينفى إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان فى وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفى والله أعلم.

وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تُسمع من لم يشأ الله أن يُسمعه، ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾.. أى إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذى كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه»[1].

* قال الشيخ عمر الأشقر فى «القيامة الصغرى»:

«ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن الميت يسمع قرع نعال أصحابه، بعد وضعه فى قبره، فعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم...»[2].

ووقف الرسول ﷺ بعد ثلاثة أيام من معركة بدر على قتلى بدر من المشركين فنادى رجالاً منهم، فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أميّة بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا»، فقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله! كيف يسمعوا أنى يجيبوا وقد جُيفوا»[3] قال: «والذى نفسى بيده! ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»، ثم أمر فسُحبوا، فألقوا فى قليب بدر»[4].

---

(١) الروح (ص: ٦٠: ٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٣/ ح ٢٨٧٤) كتاب الجنة.

(٣) أي: أنتنوا، وصاروا جيفًا.

(٤) رواه البخارى، كتاب الجنائز: باب ما جاء فى عذاب القبر. ورواه مسلم فى كتاب الجنة: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢٢٠٠/ ح ٢٨٧٠)، ورواه أبو داود، والنسائى أيضًا، انظر: «جامع الأصول» (١١/ ١٨٠).

* وقد ساق ابن تيمية جملة من الأحاديث التى تدل على أن الموتى يسمعون، ثم قال: «فهذه النصوص وأمثالها تُبين أن الميت يسمع فى الجملة كلام الحى، ولا يجب أن يكون السمع له دائمًا، بل قد يسمع فى حال دون حال، كما قد يعرض للحى، فإنه يسمع أحيانًا خطاب من يخاطبه، وقد لا يسمع لعارض يعرض له»(١).

وقد أجاب شيخ الإسلام على إشكال من يقول: إن الله نفى السماع عن الميت فى قوله: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ ، وكيف تزعمون أن الموتى يسمعون؟ فقال: «وهذا السمع سمع إدراك، ليس يترتب عليه جزاء، ولا هو السمع المنفى بقوله: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ ، فإن المراد بذلك: سمع القبول والامتثال، فإن الله جعل الكافر كالميت الذى لا يستجيب لمن دعاه، وكالبهائم التى تسمع الصوت، ولا تفقه المعنى، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى، فإنه لا يمكنه إجابة الداعى، ولا امتثال ما أُمر به، ونُهى عنه، فلا ينتفع بالأمر والنهى، وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهى، وإن سمع الخطاب وفهم المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾ ، وقد جاءت النصوص دالة أيضًا على أن الميت مع سماعه يتكلم، فإن منكرًا ونكيرًا يسألونه، فالمؤمن يوفق للجواب الحق، والكافر والمنافق يضل عن الجواب، ويتكلم أيضًا فى غير سؤال منكر ونكير، وكل هذا مخالف لما عهده أهل الدنيا من كلام، فإن الذى يسأل ويتكلم الروح، وهى التى تجيب وتقعد وتُعذَّب وتنعم، وإن كان لها نوع اتصال بالجسد، وقد سبق القول أن بعض الناس قد يسمعون الكلمة من الميت، وأن الرسول ﷺ كان يسمع من هذا شيئًا كثيرًا»(٢).

• هل هناك أناسٌ سمعوا عذاب القبر؟ •

إن الله تبارك وتعالى إذا شاء أطلع بعض عباده فى دار الدنيا على عذاب أهل القبور، وقد شاهده أناس كثيرون وسمعوا أصوات المعذبين فى قبورهم ورأوهم بعيونهم يعذَّبون فى قبورهم فى آثار معروفة(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٤).

(٣) «الروح» ص (٩٦). و«شرح الطحاوية» (٤٠١).

• سماع النبى ﷺ أصوات المعذبين:

وقد أعطى الله رسوله القدرة على سماع المعذبين فى قبورهم، ففى الحديث الذى يرويه مسلم فى «صحيحه» عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: «بينما النبى ﷺ فى حائط لبنى النجار، على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به[١]، فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟» فقال رجل: أنا، قال: «فمتى مات هؤلاء؟» قال: ماتوا فى الإشراك، فقال: «إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا[٢]، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه»[٣].

وفى «صحيحى» البخارى ومسلم و«سنن النسائى» عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه: «خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: «يهود تُعذَّب فى قبورها»[٤].

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذبين فى قبورهم الحديث الذى يرويه البخارى ومسلم فى«صحيحهما» عن ابن عباس وفيه أن الرسول ﷺ مرّ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير...» الحديث.

• سماع غير النبى ﷺ أصوات المعذَّبين:

* قال الشيخ عمر الأشقر:

«لم يزل بعض الناس يتحدثون عن سماعهم أو رؤيتهم للمعذبين فى قبورهم، ومن هؤلاء ثقات أعلام لا مطعن فى دينهم وأمانتهم.

يقول ابن تيمية فى ذلك: «قد يكشف لكثير من أبناء زماننا يقظة ومنامًا، ويعلمون ذلك ويتحققونه، وعندنا من ذلك أمور كثيرة»[٥].

وقال فى موضع آخر فى معرض رده على المكذبين بعذاب القبر: «وإذا عرف أن النائم يكون نائمًا وتقعد روحه وتقوم وتمشى، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالا وأمورًا بباطن بدنه مع روحه، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب، مع أن جسده مضطجع،

---

(١) حادت به: أى مالت عن الطريق ونفرت.

(٢) لا تدافنوا: أى مخافة أن لا تدافنوا.

(٣) رواه مسلم فى «صحيحه»، كتاب الجنة: باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢١٩٩).

(٤) «جامع الأصول» (١١/ ١٧٢).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٧٦).

وعينيه مغمضة، وفمه مطبق، وأعضاؤه ساكنة، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة، وقد يقوم ويمشى ويتكلم ويصيح، لقوة الأمر فى باطنه، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت فى قبره، فإن روحه تقعد، وتجلس، وتُسأل، وتنعم، وتعذب، وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعًا فى قبره، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك فى بدنه، وقد يُرى خارجًا من قبره، والعذاب عليه، وملائكة العذاب موكلة به، فيتحرك بدنه، ويمشى ويخرج من قبره، وقد سمع غير واحد أصوات المعذبين فى قبورهم، وقد شوهد من يخرج من قبره وهو معذب، ومن يقعد بدنه أيضًا إذا قوى الأمر، لكن ليس هذا لازمًا فى حق كل ميت، كما أن قعود بدن النائم لما يراه، ليس لازمًا لكل نائم، بل هو بحسب قوة الأمر»(١).

• عذاب القبر تسمعه البهائم •

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت: «دخلت علىَّ عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت: إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم. قالت: فكذبتها، ولم أنعم أن أصدقها قالت: فخرجت ودخل علىَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله، إن عجوزًا من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم، قال: «صدقت إنهم يُعذَّبون عذابًا تسمعه البهائم كلها قالت: فما رأيته بعد فى صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر».

وقال بعض أهل العلم: ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالإسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بنى عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام، فإن أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى، قال: فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعًا وحرارة تذهب بالمغل.

• حكاية عجيبة لاستماع الدابة عذاب القبر بمرأى الناس •

وقد قال عبد الحق الإشبيلى: حدثنى الفقيه أبو الحكم بن برخان ـ وكان من أهل العلم والعمل ـ أنهم دفنوا ميتًا بقريتهم فى شرف إشبيلية، فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعى قريبًا منهم، فإذا بالدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر، فجعلت

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٥) ـ والقيامة الصغرى (ص: ٥٢: ٥٣) نقلاً من سكب العبرات.

أذنها عليه كأنها تسمع، ثم ولت فارة ثم عادت إلى القبر، فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع، ثم ولت فارَّة، فعلت ذلك مرة بعد أخرى، قال أبو الحكم: فذكرت عذاب القبر، وقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: «إنهم ليعذبون عذابًا تسمعه البهائم»[١].

• ما الحكمة فى ستر عذاب القبر عن الناس دون البهائم؟ •

ولما كانت هذه الحكمة منفية فى حق البهائم، سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله ﷺ بغلته وكادت تلقيه لما مر بمن يُعذَّب فى قبره.

* قال الإمام ابن القيم: وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال: فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور، فإذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج، والميت فى وسطه، فجعلت أمسح عينى وأقول: أنائم أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة، وقلت: والله ما أنا بنائم، ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش، فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس[٢] قد توفى ذلك اليوم، فرؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحيانًا لمن شاء الله أن يريه ذلك[٣].

• هل النار التى فى القبور من نار الدنيا؟ •

* قال الإمام ابن القيم: «إن النار التى فى القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا، فيشاهده من شاهد نار الدنيا، وخضرها وإنما هى من نار الآخرة وخضرها وهى أشد من نار الدنيا، فلا يحس به أهل الدنيا فإن الله سبحانه يحمى عليه ذلك التراب والحجارة التى عليه وتحته حتى يكون أعظم حرًا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك. بل أعجب من هذا أن الرجلين يُدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا فى حفرة من حر النار لا يصل حرها إلى جاره، وذلك فى روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره، وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا الله من آيات قدرته فى هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تُحط به علمًا إلا من وفقه الله وعصمه، فيفرش للكافر لوحان

(١) الروح (ص: ٧٠: ٧١).
(٢) المكّاس: هو جابى المال.
(٣) الروح/ للإمام ابن القيم (ص: ٨٩: ٩٠).

من نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التنور، فإذا شاء الله سبحانه أن يُطلع على ذلك بعض عبيده أطلعه وغيَّبه عن غيره، إذ لو اطلع العباد كلهم لزالت كلمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس كما في «الصحيحين» عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر ما أسمع»(١).

• مشاهد تخلع القلوب •

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني عبد المؤمن بن عبد الله بن عيسى القيسي أنه قيل لنباش قد تاب: ما أعجب ما رأيت؟ قال: نبشت رجلاً، قال: فإذا هو مُسمَّر بالمسامير في سائر جسده ومسمار كبير في رأسه، وآخر في رجليه، قال: وقيل لنباش آخر: ما أعجب ما رأيت؟ قال رأيت جمجمة إنسان مصبوب فيها رصاصا. قال: وقيل لنباش آخر ما كان سبب توبتك؟ قال: عامة من كنت أنبش كنت أراه مُحوَّل الوجه عن القبلة.

وقال ابن القيم: قلت: وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلاهي - وكان من خيار عباد الله، وكان يتحرى الصدق - قال: جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد، فباع مسامير صغار المسمار برأسين، فأخذها الحداد وجعل يحمى عليها فلا تلين معه حتى عجز عن ضربها فطلب البائع فوجده فقال من أين لك هذه المسامير؟ فقال: لقيتها فلم يزل به حتى أخبره أنه وجد قبراً مفتوحًا وفيه عظام ميت منظومة بهذه المسامير، قال: فعالجتها على أن أُخرجها فلم أقدر، فأخذت حجراً فكسرت عظامه وجمعتها قال: وأنا رأيت تلك المسامير. قلت له فكيف صفتها؟ قال: المسمار صغير برأسين(٢).

• هل عذاب القبر دائم أو منقطع؟ •

* وقال الإمام ابن القيم: جوابها أنه نوعان:

• **نوع دائم:** سوى ما ورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين، فإذا قاموا من قبورهم قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ (يس:٥٢).

ويدل على دوامه قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ (غافر:٤٦)، ويدل

---

(١) الروح (ص: ٨٩).
(٢) الروح (ص: ٩٢: ٩٣).

عليه ما تقدم فى حديث سمرة، الذى رواه البخارى فى رؤيا النبى صلى الله عليه وآله وسلم وفيه: «فهو يُفعل به ذلك إلى يوم القيامة». وفى حديث ابن عباس فى قصة الجريدتين، لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا. فجعل التخفيف مقيدًا بمدة رطوبتهما فقط. وفى حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى هريرة: «ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شىء». وقد تقدم. وفى «الصحيح» فى قصة الذى لبس بُردين وجعل يمشى يتبختر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

وفى حديث البراء بن عازب فى قصة الكافر: «ثم يُفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة». رواه الإمام أحمد فى بعض طرقه ثم يخرق له خرقًا إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة.

• النوع الثانى: إلى مدة ثم ينقطع:

وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه كما يعذب فى النار مدة، ثم يزول عنه العذاب. وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم[١]، وهذا كما يشفع الشافع فى المعذب فى الدنيا، فيخلص من العذاب بشفاعته، ولكن هذه شفاعة قد لا تكون بذلك بإذن المشفوع عنده، والله سبحانه وتعالى لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه، فهو الذى يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له، ولا تغتر بغير هذا، فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه. ولا يشفعون إلا لمن ارتضى. ما من شفيع إلا من بعد إذنه. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له. قل لله الشفاعة جميعًا له ملك السموات والأرض[٢].

* و«العذاب يستمر إذا كان العبد كافرًا أو منافقًا نفاق كفر، وإن كان مسلمًا عاصيًا فيختلف باختلاف كبر المعصية وصغرها وحصول العفو عن بعض العصاة دون بعض، فقد يعذب بعض العصاة وقد لا يستمر التعذيب على بعض العصاة، وقد يُرفع عن بعض»[٣].

(١) هذا على مذهب الإمام ابن القيم فى وصول ثواب القراءة من الغير.

(٢) «الروح» لابن القيم ص (١١٩ ـ ١٢٠).

(٣) «فتاوى الحافظ ابن حجر» نقلاً عن كتاب «القبر» لأشرف عبد المقصود ص (١٦).

• أطفال المؤمنين فى الجنة •

* عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ذرارى المؤمنين يكفلهم إبراهيم عليه السلام فى الجنة»(١).

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «أولاد المسلمين فى جبل فى الجنة، يكفلهم إبراهيم وسارة ـ عليهما السلام ـ فإذا كان يوم القيامة دُفعوا إلى آبائهم»(٢).

* وذهبت طائفة إلى أنه يُشهد لأطفال المؤمنين عمومًا أنهم فى الجنة ولا يُشهد لآحادهم، كما يشهد للمؤمنين عمومًا أنهم فى الجنة، ولا يشهد لآحادهم وهو قول إسحاق بن راهويه، نقله عنه إسحاق بن منصور وحرب فى مسائلهما. ولعل هذا يرجع إلى الطفل المُعين لا يُشهد لأبيه بالإيمان، فلا يُشْهَد له حينئذ أنه من أطفال المؤمنين، فيكون الوقف فى آحادهم كالوقف فى إيمان آبائهم.

وحكى ابن عبد البر عن طائفة من السلف القول بالوقف فى أطفال المؤمنين.

* واستدل القائلون بالوقف، بما أخرجه مسلم، من حديث فضيل بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، قالت: توفى صبى، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «أو لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً»(٣).

* ويعارض هذا ما خرّجه مسلم، من حديث أبى السليل، عن أبى حسان، قال: قلت لأبى هريرة: إنه قد مات لى ابنتان، فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا، قال: نعم، صغارهم دَعَاميص أهل الجنة، يتلقى أحدهم أباه ـ أو قال أبويه ـ فيأخذ بثوبه، أو قال بيده: فلا ينتهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة»(٤).

---

(١) ابن حبان رقم (١٨٢٦) «موارد»، والحاكم (٢/ ٣٧٠)، وأحمد فى «المسند» (٢/ ٣٢٦)، وهو حديث حسن «الأحاديث الصحيحة» رقم (٦١٣).

(٢) صححه الحاكم (١/ ٣٨٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٢) القدر ـ والنسائى (٤/ ٥٧) ـ وأبو داود (٤٧١٣).

(٤) مسلم رقم (٢٦٣٥) فى البر والصلة والآداب: باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه.

وفى «الصحيحين» عن أنس رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما من الناس مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنْث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»[1]. ولهذا قال الإمام أحمد: هو يرجى لَأبويه، فكيف يُشك فيه. يعنى: أنه يرجى لأبويه بسببه دخول الجنة.

ولعل النبى ﷺ نهى أولاً عن الشهادة لأطفال المسلمين بالجنة قبل أن يطلع على ذلك؛ لأن الشهادة على ذلك تحتاج إلى علم به، ثم اطلع على ذلك فأخبر به، والله أعلم.

* قال الإمام ابن رجب الحنبلى فى «أهوال القبور»[2]:

بقيّة المؤمنين سوى الشهداء ينقسمون إلى: أهل تكليف، وغير أهل تكليف، فهذان قسمان.

أحدهما: غير أهل التكليف، كأطفال المؤمنين.

فالجمهور على أنهم فى الجنة. وقد حكى الإمام أحمد الإجماع على ذلك.

وكذلك نص الشافعى على أن أطفال المسلمين فى الجنة.

وجاء صريحًا عن السلف على أن أرواحهم فى الجنة.

• الفرق بين حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين •

قال الإمام ابن رجب الحنبلى: «والفرق بين حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين الذين أرواحهم فى الجنة من وجهين:

أحدهما: أن أرواح الشهداء تُخلق لها أجساد، وهى الطير التى تكون فى حواصلها، ليكمل بذلك نعيمها، ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد، فإن الشهداء بذلوا أجسادهم للقتل فى سبيل الله، فعُوضوا عنها بهذه الأجساد فى البرزخ.

والثانى: أنهم يُرزقون فى الجنة، وغيرهم لم يثبت له فى حقه مثل ذلك، فإنه جاء أنهم يعلقون فى شجر الجنة. وروى يعلقون بفتح اللام وضمها، فقيل: إنهما بمعنى وأنَّ المراد الأكل من الشجر. قال ابن عبد البر. وقيل: بل رواية الضم معناها الأكل، ورواية

---

(١) البخارى رقم (١٢٤٨) فى الجنائز: باب فضل من مات له ولد فاحتسب، ورقم (١٣٨٢) باب ما قيل فى أولاد المسلمين، والنسائى (٤/ ٢٤) فى الجنائز: باب ثواب من احتسب ثلاثة من صلبه.

(٢) أهوال القبور (ص: ١٣٢، ١٣٧).

الفتح معناها التعلق. وهو التستر. وبكل حال فلا يلزم مساواتهم للشهداء فى كمال تنعمهم بالأكل، والله أعلم»[(١)].

* وقال الإمام ابن القيم عن نعيم الشهداء وعُلو درجتهم:

نصيبهم (أى الشهداء) من هذا النعيم فى البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم، فله نعيم يختص به ولا يشاركه فيه من هو دونه، ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر، فإنهم بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها فى البرزخ أبدانًا خيرًا منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن فى صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد فى جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال: «نسمة المؤمن طير» فهذا يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: «فى جوف طير»، ومعلوم أنها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنها طير، فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضًا، ويدل على أنه حق من عند الله.

• الأنبياء أحياء... يصلون فى قبورهم •

* عن ثابت البنانى عن أنس مرفوعًا: «الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أحياء فى قبورهم يصلون»[(٢)].

---

(١) أهوال القبور (ص: ١٦٥).

(٢) قال الشيخ الألبانى ـ رحمه الله ـ فى «السلسلة الصحيحة» (٢/ ١٨٧/ ح ٦٢١)، أخرجه البزار فى «مسنده» (٢٥٦)، وتمام الرازى فى «الفوائد» وعنه ابن عساكر فى «تاريخ دمشق»، وابن عدى فى «الكامل»، والبيهقى فى «حياة الأنبياء».

* قال الشيخ الألبانى ـ رحمه الله ـ فى «السلسلة الصحيحة» (٢/ ١٩٠ ـ ١٩١):

«قد كنت برهة من الدهر أرى أن هذا الحديث ضعيف لظنى أنه مما تفرّد به ابن قتيبة ـ كما قال البيهقى ـ ولم أكن قد وقفت عليه فى «مسند أبى يعلى» و«أخبار أصبهان»: فلما وقفت على إسناده فيهما تبين لى أنه إسناد قوى، وأن التفرد المذكور غير صحيح، ولذلك بادرت إلى إخراجه فى هذا الكتاب تبرئة للذمة، وأداء للأمانة العلمية، ولو أن ذلك قد يفتح الطريق لجاهل أو حاقد إلى الطعن والغمز واللمز، فلست أُبالى بذلك ما دمت أنى أقوم بواجب دينى أرجو ثوابه من الله تعالى وحده.

فإذا رأيت أيها القارىء الكريم فى شىء من تآليفى خلاف هذا التحقيق فاضرب عليه، واعتمد هذا وعض عليه بالنواخذ، فإنى لا أظن أنه يتيسر لك الوقوف على مثله والله ولىّ التوفيق».

* وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مررت على موسى، وهو قائم يصلى فى قبره» وفى رواية: «أتيت على موسى ليلة أُسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره»(١).

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتنى فى الحجر وأنا أُخبر قريشًا عن مسراى فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أُثبتها فكَرُبت كربًا ما كربت مثله قط، فرفعه الله عز وجل لى أنظر إليه ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتنى فى جماعة الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلى فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفى، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم ـ يعنى: نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لى قائل: يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلِّم عليه، فالتفتُّ إليه فبدأنى بالسلام»(٢).

* قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما كونه رأى موسى قائمًا يصلى فى قبره، ورآه فى السماء أيضًا فهذا لا منافاة بينهما فإن أمر الأرواح من جنس أمر الملائكة فى اللحظة الواحدة تصعد وتهبط كالملك، ليست فى ذلك كالبدن.

وهذه الصلاة ونحوهما مما يتمتع بها الميت، ويتنعم بها كما يتنعم أهل الجنة بالتسبيح، فإنهم يُلهمون التسبيح كما يلهم الناس فى الدنيا النَفَس، فهذا ليس من عمل التكليف الذى يطلب له ثواب منفصل، بل نفس هذا العمل هو من النعيم الذى تتنعم به الأنفس وتتلذذ به.

وقول النبى ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»، يريد به العمل الذى يكون له ثواب، ويتنعمون بذكره وتسبيحه، ويتنعمون بقراءة القرآن، ويقال لقارىء القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها.

ويتنعمون بمخاطبتهم لربهم ومناجاته، وإن كانت هذه الأمور فى الدنيا أعمالاً يترتب عليها الثواب فهى فى الآخرة أعمال يتنعم بها صاحبها أعظم من أكله وشربه ونكاحه، وهذه كلها أعمال أيضًا، والأكل والشرب والنكاح فى الدنيا مما يؤمر به ويُثاب عليه مع

(١) أخرجه مسلم والنسائى وأحمد وأبو يعلى.

(٢) أخرجه مسلم والنسائى وابن سعد وابن منده.

النية الصالحة وهو فى الآخرة نفس الثواب الذى يتنعم به... والله أعلم»(١).

* وأخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن سعيد بن جبير قال:

«أنا ـ والله الذى لا إله إلا هو ـ أدخلت ثابتًا البنانى لحده، ومعى حميد الطويل، فلما سوّينا عليه اللبن، سقطت لبنة، فإذا أنا به يصلى فى قبره، وكان يقول فى دعائه: «اللهم إن كنت أعطيت أحدًا من خلقك الصلاة فى قبره فأعطينيها فما كان الله تعالى ليردّ دعاءه»(٢).

* وعن يوسف بن عطية قال: سمعت ثابتًا يقول لحميد الطويل: هل بلغك أن أحدًا يصلى فى قبره إلا الأنبياء؟ قال: لا. قال: ثابت: اللَّهم إنْ أذنت لأحد أن يصلى فى قبره فأذن لثابت أن يصلى فى قبره»(٣).

* وأخرج ابن سعد فى «الطبقات»، وابن أبى شيبة فى «المسند» عن ثابت البنانى قال: «اللَّهم إن كنت أعطيت أحدًا الصلاة فى قبره فأعطنى الصلاة فى قبرى»(٤).

• الموتى يعرفون زيارة الأحياء ويستبشرون بها •

* فى «الصحيحين» عنه ﷺ من وجوه متعددة: «أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًا، فقال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من أقوام قد جُيفوا، فقال: «والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابًا».

وثبت عنه ﷺ: «أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين إذا نصرفوا عنه».

* وقد شرع النبى ﷺ لأمته إذا سلّموا على أهل القبور أن يسلّموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين،... وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل. ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد. والسلف مُجمعون على

---

(١) مجموع الفتاوى (ص: ٣٢٩: ٣٣٠).

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ٣١٩) ـ والسيوطى فى «بشرى الكئيب بلقاء الحبيب» (ص: ٧٢).

(٣) سنده صحيح: رواه أبو نعيم فى «الحلية» (٢/ ٣١٩). انظر: «التحرير المرسّخ فى أحوال البرزخ» لمحمد بن طولون الصالحى ص (٢٤٢).

(٤) سنده حسن: أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٢/ ٣١٩).

هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به.

* ويكفى فى هذا تسمية المسلّم عليهم زائرًا ولولا أنهم يشعرون به لما صحّ تسميته زائرًا، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يُقال زاره، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك السلام عليهم أيضًا، فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم مُحال، وقد علم النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية».

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد، وإذا صلى الرجل قريبًا منهم شاهدوه وعلموا صلاته وغبطوه على ذلك.

وقد ثبت فى «الصحيح» أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه فروىٰ مسلم فى «صحيحه».. عن عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت...»، «ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تُنحر جَزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم»[١].

* وصح عن عمرو بن دينار أنه قال: «ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم».

وصح عن مجاهد أنه قال: «إن الرجل ليبشر فى قبره بصلاح ولده من بعده»[٢].

• أعمال الأحياء تعرض على الموتى •

* عن أبى الدرداء قال: «إن أعمالكم تُعرض على موتاكم فيُسرّون، ويُساءون»[٣].

فكان أبو الدرداء يقول عند ذلك: اللَّهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملاً أُخزى به عند عبد الله بن رواحة»[٤].

* وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرًا استبشروا، وإن كان غير ذلك، قالوا:

(١) «الروح» لابن القيم ص (٥ ـ ١٢).
(٢) الروح (ص: ١٥).
(٣) قال الألبانى فى «الصحيحة» (٦/ ١/ ٦٠٧): وهذا إسناد رجاله ثقات.
(٤) «أهوال القبور» ص (١١٧).

اللَّهم لا تُمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[١].

* «دخل عبَّاد بن عبَّاد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال عظنى، قال:بم أعظك أصلحك الله؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى فانظر ما يُعرض على رسول الله ﷺ من عملك فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته»[٢].

• أرواح الموتى تتلاقى وتتزاور •

* قال الإمام ابن القيم:

«المسألة الثانية فى أن أرواح الموتى تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا؟».

فهى أيضًا مسألة شريفة كبيرة القدر وجوابها أن الأرواح قسمان: أرواح معذبة، وأرواح مؤمنة.

* فالمعذّبة: فى شغل بما هى فيه من العذاب عن التزاور والتلاقى.

* والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة: تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها فى الدنيا، وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح مع رفيقها الذى هو على مثل عملها، وروح نبينا ﷺ فى الرفيق الأعلى. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء:٦٩).

وهذه المعية ثابتة فى الدنيا، وفى البرزخ، والمرء مع من أحب فى هذه الدور الثلاثة».

* وعن أبى قتادة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا ولى أحدكم أخاه فليُحسِّن كفنه، فإنهم يُبعثون فى أكفانهم ويتزاورون فى أكفانهم»[٣].

* وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال: «إذا قُبضت نفْس العبد تلقّاه أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير فى الدنيا، فيقبلون عليه ليسألوه، فيقول بعضهم لبعض: أنْظروا أخاكم حتى يستريح؛ فإنه كان فى كرب، فيقبلون عليه؛ فيسألونه: ما

---

(١) رواه أحمد فى «المسند» (٣/ ١٦٤ ـ ١٦٥)، وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» رقم (٨٦٣)، ثم عاد عن ذلك، وصححه فى «الصحيحة» (٦/ ١/ ٦٠٥/ ح ٢٧٥٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٣).

(٣) رواه سمويه والخطيب البغدادى عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٤٥).

فعل فلان؟ ما فعلتُ فلانة؟ هل تزَوّجت؟ فإذا سألوا عن الرجل قد مات قبله، قال لهم: إنه قد هلك، فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذُهب به إلى أمه الهاوية (النار) فبئست الأم وبئست المربية. قال: فيُعرض عليهم أعمالهم، فإذا رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا وقالوا: هذه نعمتك على عبدك فأتمها، وإن رأوا سوءًا قالوا: اللَّهم راجع بعبدك»(١).

* وعن أبى حازم عن أبى هريرة ـ أحسبه رفعه ـ قال: قال رسول ﷺ: «إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين، فودّ لو خرجتْ ـ يعنى: نفسه ـ والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يُصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركتُ فلانًا فى الدنيا أعجبهم ذلك، وإذا قال: إن فلانًا قد مات، قالوا: ما جيء به إلينا.

وإن المؤمن يُجلَس فى قبره فيُسأل: من ربه؟ فيقول: ربى الله. فيُقال: من نبيك؟ فيقول: نبيى محمد ﷺ. قال: فما دينك؟ قال: دينى الإسلام. فيُفتح له باب فى قبره فيقول أو يُقال: انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر، فكأنما كانت رقدة.

فإذا كان عدوًا لله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبدًا، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس فى قبره أو أُجلس، فيُقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدرى! فيُقال: لا دَرَيتْ. فيُفتح له باب من جهنم، ثم يُضرب ضربة تُسمع كل دابة إلا الثقلين، ثم يُقال له: نَمْ كما ينام المنهوش ـ فقلت لأبى هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذى ينهشه الدواب والحيّات ـ ثم يُضيق عليه قبره»(٢).

• أرواح الأحياء والأموات تتلاقى •

* قال الإمام ابن القيم: «المسألة الثالثة: هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟

فشواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى، والحس والواقع من

---

(١) صحيح موقوف على أبى أيوب الأنصارى وله حكم الرفع: أخرجه ابن المبارك فى «الزهد» (١٤٩/ ٤٤٣). وقال الألبانى: إسناده صحيح «الصحيحة» رقم (٢٧٥٨)، ثم قال: وكونه موقوفًا لا يضرّ فإنه يتحدث عن أمور غيبية لا يمكن أن تُقال بالرأى، فهو فى حكم المرفوع يقينًا.

(٢) صحيح: أخرجه البزار فى «مسنده»، وقال السيوطى فى «شرح الصدور» ص (٣٨): سنده صحيح. قال الألبانى: الحديث صحيح، انظر: «الصحيحة» (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٥/ ح ٢٦٢٨).

أعدل الشهود بها، فتلتقى أرواح الأحياء والأموات كما تلتقى أرواح الأحياء، وقد قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر:٤٢).

* عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال: بلغنى أن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

* وقال ابن كثير عند تفسير الآية السابقة: «فيه دلالة على أنها تتجمع فى الملأ الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن منده وغيره»(١).

* وقال ابن القيم: «وهذا باب طويل جداً، فإن لم تسمح نفسك بتصديقه، أو قلت: هذه منامات هى غير معصومة، فتأمل من رأى صاحبًا له، أو قريبًا، أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا، أو أخبره بمال دفنه أو حذره من أمر يقع، أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذاً وكذا، فيقع كما أخبر أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة، أو مرض، أو بغرض له فوقع كما أخبره، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله والناس مشتركون فيه.

وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب. وأبطل من قال: إن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم، وهذا عين الباطل والمحال، فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت، ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما؟ ونحن لا ننكر أن الأمر قد يقع كذلك. وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد، بل كثير من مرائى الناس إنما هى مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق».

* وقال ابن القيم: «وبالجملة فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها»(٢).

* وفى وصية ثابت بن قيس بعد موته خير دليل.

فإنه لما قُتل فى يوم اليمامة، وعليه درع له نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فأخذها

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥).

(٢) انظر: كتاب «الروح» وفيه هذه المسألة بالتفصيل (٢٦ ـ ٤٥).

فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت فى منامه، فقال له: أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إنى لما قُتلت أمس مرّ بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستن فى طوله، وقد كفأ على الدرع بُرمة، وفوق البرمة رحل، فأت خالد بن الوليد فمُره أن يبعث إلى درعى فيأخذها، وإذا قدمت إلى المدينة على خليفة رسول الله ﷺ ـ يعنى أبا بكر الصديق ـ فقل له: إن علىّ من الدّيْن كذا وكذا وفلان من رقيقى عتيق وفلان.... فأتى الرجل خالدًا فأخبره فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدَّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته.

أنفذ أبو بكر رضى الله عنه وصية ثابت بن قيس التى أوصى بها فى المنام بعد الممات.

ولا نعلم أحدًا أُجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس ـ رحمه الله.

فقد اتفق خالد وأبو بكر الصديق والصحابة معه على العمل بهذه الرؤيا وتنفيذ الوصية بها، وانتزاع الدرع ممّن هى فى يده بها وهذا محض الفقه»[1].

* ولله در الصالحين: قال حمّاد بن زيد: قال هشام بن حسان، حدثتنى أم عبد الله ـ وكانت من خيار نساء أهل البصرة ـ قالت: رأيت فيما يرى النائم كأنى دخلت داراً حسنة، ثم دخلت بستانًا، فذكرت من حسنه ما شاء الله. فإذا أنه فيه برجل متكيء على سرير من ذهب وحوله الوصفاء بأيديهم الأكاويب، قالت: فإنى لمتعجبة من حسن ما أرى، إذ قيل: هذا مروان المحملى أقبل، فوثب فاستوى جالسًا على سريره،... قالت: واستيقظت من منامى، فإذا جنازة مروان قد مرّ بها على بابى الساعة»[2].

• أشياء لا يشملها حكم الفناء (فى القبر) •

وهناك أشياء لا يشملها حكم الفناء منها:

١ ـ الروح، فالروح لا تفنى.

٢ ـ الولدان المخلدون.

٣ ـ الحور العين.

---

(١) «الروح» ص (١٩).

(٢) الروح (ص: ٢٤) نقلاً من سكب العبرات.

٤ ـ خزان النار وخزنة الجنة.

٥ ـ العرش.

٦ ـ الكرسى.

٧ ـ الجنة.

٨ ـ النار.

٩ ـ اللوح المحفوظ.

١٠ ـ القلم.

١١ ـ عَجْب الذنب من الإنسان فمنها يُركَّب الخلق يوم القيامة كما جاء فى الحديث الصحيح.

١٢ ـ أجساد الأنبياء، جاء فى «شرح النونية الكافية الشافية» (١/ ٩٧):

ثمانيــة حكـم البقــاء يعمّـهـا ... من الخلـق والباقـون فـى حيّـز العـدم

هى العـرش والكرسـى ونـار وجنـة ... وشجب[1] وأرواح كذا الروح والقلم

* وقال الإمام ابن القيم فى النونية:

والعـرش والكرسـى لا يفنيهمـا ... أيـضًا وأنهمـــا لمخلـوقـــان

والحـور لا تفنى كذلـك جنـة الـ ... مـأوى ومــا فيهــا مـن الولـدان

ولأجـل هـذا قــال جـهـم إنهـا ... عـدم ولـم تُخلـق إلـى ذا الآن

والأنبيـاء فإنهـم تحـت الثـرى ... أجسامـهم حُفظـت مـن الديدان

ما للبلـى بلحومهـم وجسومهـم ... أبدًا وهـم تحـت التراب يـدان

وكـذا عجـب الظـهـر لا يبلـى ... بلى منه تُركَّب خلقة الإنسان»[2]

١٣ ـ أجساد الشهداء: فقد روى البخارى رحمه الله عن جابر رضى الله عنه قال: (لما حضر أُحد دعانى أبى من الليل فقال لى: ما أرانى إلا مقتولاً فى أول من يُقتل من أصحاب النبى ﷺ وإنى لا أترك بعدى أعز علىّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن

(١) الشَجب: الهلاك والحزن.

(٢) «النونية الكافية الشافية» لابن القيم (١/ ٩٥، ٩٦) شرح ابن عيسى.

عليّ دينًا فاقض واستوص بأخواتك خيرًا. فأصبحنا وكان أول قتيل، فدفنت معه آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته غير أذنه)[١].

• ما ينتفع به الميت •

* قال الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في «أحكام الجنائز»:

* ويَنتَفعُ الميتُ من عمل غيره بأمور:

• **أولاً: دعاء المسلم له:** إذا توفرت فيه شروطُ القبول، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر:١٠).

وأما الأحاديثُ فهي كثيرةٌ جدًا، وقد سبق بعضها، ويأتي بعضها في زيارة القبور، ودُعاء النبي ﷺ لهم، وأمره بذلك، ومنها قوله ﷺ: «دعوةُ المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مُستجابةٌ، عند رأسه ملكٌ موكلٌ، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملكُ المُوكل به: آمين ولك بمثل»[٢].

بل إن صلاة الجنازة جُلها شاهد لذلك؛ لأن غالبها دعاءٌ للميت، واستغفار له.

• **ثانيًا: قضاءُ ولي الميت صومَ النذر عنه، وفيه أحاديثُ:**

الأول: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

«من ماتّ وعليه صيامٌ، صامَ عنه وليه»[٣].

الثاني: عن ابن عباس رضي الله عنه:

«أن امرأةً ركبت البحر فنذرت، إن الله تبارك وتعالى أنجاها أن تصوم شهرًا، فأنجاها الله عز وجل، فلم تصم حتى ماتت، فجاءت قرابةٌ لها ـ إما أختها أو ابنتها ـ إلى النبي ﷺ ، فذكرت ذلك له، فقال:

«أرأيتُك لو كان عليها دينٌ كنت تقضينه؟» قالت: نعم. قال: «فدينُ الله أحقُّ أن

(١) مختصر معارج القبول (ص: ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ٨٦: ٨٧) والسياق له ـ وأبو داود (١/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٥٦) ومسلم (٣/ ١٥٥).

يُقضى، فاقضِ عن أمك»[١].

الثالث: عنه أيضًا:

«أن سعد بن عُبادة رضي الله عنه استفتى رسول الله ﷺ: إن أمي ماتت وعليها نذرٌ؟ فقال: «اقضه عنها»[٢].

ثالثًا: قضاء الدَّين عنه من أي شخصٍ وليًا كان أو غيره وفيه أحاديث كثيرة:

رابعًا: ما يفعله الولد الصالح من الأعمال الصالحة فإن لوالديه مثل أجره، دون أن ينقص من أجره شيءٌ؛ لأن الولد من سعيهما وكسبهما، والله عز وجل يقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم:٣٩).

وقال رسول الله ﷺ: «إن أطيبَ ما أكل الرجلُ من كسبه، وإن ولده من كسبه»[٣].

* ويُؤيدُ ما دلت عليه الآية والحديث، أحاديث خاصةٌ وردت في انتفاعِ الوالد بعمل ولده الصالح كالصدقة والصيام والعتقِ ونحوه، وهي هذه:

الأول: عن عائشة رضي الله عنها:

«أن رجلاً قال: إن أمي افتُلتت[٤] نفسُها ولم تُوص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجرٌ إن تصدقتُ عنها ولي أجرٌ؟ قال: «نعم، فتصدق عنها»[٥].

الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أبي مات وترك مالاً ولم يُوص فهل يُكفِّر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: «نعم»[٦].

خامسًا: ما خلفه من بعده من آثار صالحة وصدقات جارية لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس:١٢) وفيه أحاديثُ:

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٥٨: ١٥٩) ومسلم (٣/ ١٥٦) ـ وأبو داود (٢/ ٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٤٤٠، ٤٩٤) ومسلم (٦/ ٧٧).

(٣) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه ـ وله شاهد من حديث ابن عمرو رواه أبو داود وابن ماجه بسند حسن.

(٤) افتُلتت: أي ماتت فجأة.

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٩٨) ومسلم (٣/ ٨١).

(٦) أخرجه مسلم (٥/ ٧٣) والنسائي (٢/ ١٢٩).

الأول: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله[١] إلا من ثلاثة أشياء، إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالح[٢] يدعو له».

الثانى: عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن مما يلحقُ المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علمًا نشره، وولدًا صالحًا تركه، ومُصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناهُ، أو بيتًا لابن السبيل بناهُ، أو نهرًا أجراهُ، أو صدقةً أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته»[٣].

الثالث: حديث جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال ﷺ:

«من سنَّ فى الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىءٌ، ومن سن سنةً فى الإسلام سيئةً كان عليه وزرُها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقُص من أوزارهم شىءٌ»[٤]، ثم تلى هذه الآية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ، قال: «فقسَّمه بينهم».

* وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«سبع يُجرى للعبد أجرهن وهو فى قبره بعد موته: مَنْ علّم علمًا، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجدًا، أو ورّث مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته»[٥].

---

(١) أى: فائدة عمله وتجديد ثوابه، قال الخطابى فى «المعالم»:

«فيه دليلٌ على أن الصوم والصلاة وما دخل فى معناهما من عمل الأبدان لا تجرى فيها النيابة وقد يستدل به من يذهب إلى أن من حج عن ميت فإن الحج فى الحقيقة للحاج دون المحجوج عنه، وإنما يلحقهُ الدعاء، ويكون له الأجرُ فى المال الذى أعطى إن كان حج عنه بمال».

(٢) قُيد بالصالح؛ لأن الأجر لا يحصلُ من غيره، وأما الوزرُ فلا يلحقُ بالوالد من سيئة ولده إذا كان نيته فى تحصيل الخير، وإنما ذكر الدعاء تحريضًا على الدعاء لأبيه، لا لأنه قيدٌ؛ لأن الأجر يحصلُ للوالد من ولده الصالح، كلما عمل عملاً صالحًا، سواء أدعا لأبيه أم لا، كمن غرس شجرة يحصل له من أكل ثمرتها ثوابٌ سواء أدعا له من أكلها أم لم يدعُ، وكذلك الأم.

كذا فى «مبارق الأزهار فى شرح مشارق الأنوار» لابن الملك.

(٣) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٣١).

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ٨٨، ٨٩) والنسائى (١/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٥) حسن: رواه البزار وسمويه، وحسنّه الألبانى فى «صحيح الجامع» رقم (٣٦٠٢).

* وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت: من مات مرابطًا فى سبيل الله، ومن علّم علمًا أجرى له عمله ما عُمل به، ومن تصدّق بصدقة فأجرها يجرى له ما وُجدت، ورجل ترك ولدًا صالحًا يدعو له»(١).

* * *

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٧٧).

أشراط الساعة الصغرى والكبرى

• أشراط الساعة الصغرى •

١- بعثة النبي ﷺ:

قال ﷺ: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وضمَّ السبابة والوسطى(١).

قال الإمام القرطبي عن أشراط الساعة: أولها النبي ﷺ لأنه نبي آخر الزمان وقد بُعث وليس بينه وبين القيامة نبي.

٢- موت النبي ﷺ:

قال ﷺ: «اعدُد ستًا بين يدي الساعة: موتي...»(٢).

فموت النبي ﷺ من أشراط الساعة.. فبموته انقطع الوحي من السماء وارتد الكثير من قبائل العرب وظهرت الفتن، وأظلمت الدنيا في عيون أصحابه - رضي الله عنهم - .

٣- فتح بيت المقدس:

قال ﷺ: «اعدُد ستًا بين يدي الساعة - وذكر منها - فتح بيت المقدس»(٣).

وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

٤- طاعون عمواس:

قال ﷺ: «اعدُد ستًا بين يدي الساعة - وذكر منها - ثم مُوتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم»(٤).

الموتان هو: الموت الكثير.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٨٩ - ٩٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٧) كتاب الجزية والموادعة.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٧).

والقعاص هو داء يصيب الدواب فتموت فجأة.

وكان هذا الطاعون قد ظهر فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ومات فيه خمسة وعشرون ألفًا من بينهم أبوعبيدة عامر بن الجَّراح.. أمين هذه الأمة.

٥ـ ظهور الفتن:

قال ﷺ: «إن بين يدى الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسى كافرًا، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشى، والماشى فيها خيرٌ من الساعي، فكسِّروا قسيَّكُم، وقطِّعوا أوتارَكُم، واضْربوا بسيوفِكُمُ الحجارةَ؛ فإن دُخِل على أحدكُم؛ فليكن كخيرِ ابنى آدم»[1].

ولقد حذرنا النبى ﷺ من تلك الفتن وأمرنا بالتعوذ منها، فقال ﷺ: «تعوّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»[2].

٦ـ ضياع الأمانة:

فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة» قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[3].

٧ـ انتشار الزنا:

قال ﷺ: «إن من أشراط الساعة ـ وذكر منها ـ ويظهر الزنا»[4].

ولم يقتصر الأمر على انتشار الزنا فحسب، بل لقد وصل الأمر إلى استحلال الزنا، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ ، حيث قال: «ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الحِرَ والحرير...»[5] والحِرَ: هو الزنا.

٨ـ انتشار المعازف والغناء:

وهذا مما عمَّت به البلوى فى هذا الزمان. فلا تكاد تجد بيتًا إلا وتسمع الغناء والمعازف

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن أبى موسى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٠٣) كتب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) أخرجه البخارى (١١/ ٣٣٣ مع الفتح) كتاب الرقاق.

(٤) أخرجه البخارى (١/ ١٧٨) ومسلم (١٦/ ٢٢١).

(٥) أخرجه البخارى (١٠/ ٥١) كتاب الأشربة.

تنبعث منه، ولا نجد من ينكر عليه.

ولقد جاء الوعيد الشديد لمن يستمع الغناء ولمن يستحله.

قال ﷺ: «ليكوننَّ من أمتى أقوامٌ يستحلُّون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنَّ أقوامٌ إلى جنب علمٍ يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم ـ يعنى: الفقير ـ لحاجة، فيقولوا: ارجع إلينا غدًا، فيبيِّتهم الله، ويضع العَلَم، ويمسخُ آخرين قردةً وخنازيرَ إلى يوم القيامة»[1].

والعَلَم: هو الجبل.

وقال ﷺ: «سيكون فى آخر الزمان خسفٌ وقذفٌ ومسخٌ».

قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا ظهرت المعازف والقينات»[2]. والقينات هن: المغنيات.

٩ـ ظهور مدّعى النبوة:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجّالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»[3].

ومن بين هؤلاء: مسيلمة الكذاب، والأسود العنسى، وسجاح وغيرهم.

١٠ـ كثرة الأموال:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهِمَّ رب المال من يقبله منه صدقة ويُدعى إليه الرجل فيقول: لا أرب لى فيه»[4].

ولقد كثر المال فى عهد الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ واقتسموا أموال الفرس والروم، وكثر المال فى عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وسيكثر المال فى عهد المهدى وعيسى ـ عليه السلام ـ حتى لا يجد الرجل من يأخذ منه صدقته.

١١ـ كثرة القتل:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج» قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال:

---

(١) أخرجه البخارى (١٠/ ٥١) كتاب الأشربة.

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (٣٦٦٥).

(٣) أخرجه البخارى (٦/ ٦١٦) كتاب المناقب.

(٤) أخرجه البخارى (١٣/ ٨١ ـ ٨٢) ومسلم (٧/ ٩٧).

«القتل القتل»[١].

وهذا كله قد حدث بسبب انتشار الحروب واستخدام الأسلحة المدمرة، وانتشار الفتن وابتعاد الناس (إلا من رحم الله) عن الدين.. وكثرة المعاصى وخفة العقول.

١٢ـ شرب الخمور واستحلالها:

قال ﷺ: «من أشراط الساعة ـ وذكر منها ـ ويُشرب الخمر»[٢].

وقال ﷺ: «ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف...»[٣].

١٣ـ قتال العجم:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خُوزًا وكرمان من الأعاجم.. حُمر الوجوه، فُطس الأنوف، صغار الأعين كأن وجوههم المجان المَطرقة نعالهم الشَّعر»[٤].

خوزًا: هى من بلاد الأهواز من عراق العجم.. بلاد خوزستان. كرمان: هى بلاد مشهورة يحدها من الغرب بلاد فارس، ومن الشمال خراسان.

١٤ـ قتال الترك:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التُرك.. قومًا وجوههم كالمجان المطرقة، يلبسون الشعر، ويمشون فى الشعر»[٥].

ولقد قاتل المسلمون الترك فى عصر الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وذلك فى أول خلافة بنى أمية فى عهد معاوية ـ رضى الله عنه ـ

١٥ـ كثرة الزلازل:

عن سلمة بن نفيل السكونى قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ... (فذكر الحديث وفيه): «وبين يدى الساعة مَوَتان شديد وبعده سنوات الزلازل»[٦].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى

---

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ١٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.
(٢) أخرجه مسلم (١٦/ ٢٢١) كتاب العلم.
(٣) أخرجه البخارى (١٠/ ٥١) كتاب الأشربة.
(٤) أخرجه البخارى (٦/ ٦٠٤) كتاب المناقب.
(٥) أخرجه مسلم (١٨/ ٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.
(٦) قال الهيثمى: رواه أحمد والطبرانى ورجال ثقات. [مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٦)].

تكثر الزلازل»[١].

وهذا هو الذى نراه ونسمع عنه بكثرة فى أكثر بلدان العالم.

١٦ـ قبض العلم وكثرة الجهل:

قال ﷺ: «إن بين يدى الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل ويُرفع العلم»[٢].

وقال ﷺ: «من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويثبت الجهل»[٣].

وقبض العلم يكون بقبض العلماء.. فقد قال ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهّالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا»[٤].

١٧ـ رفع القرآن من الصدور والمصاحف:

قال رسول الله ﷺ: «يَدرُس الإسلام كما يدرُسُ وَشْىُ الثوب، حتى لا يُدرى ما صيامٌ، ولا صلاةٌ، ولا نُسكٌ، ولا صدقةٌ؟ ويُسرى على كتاب الله فى ليلة فلا يبقى فى الأرض منه آية، وتبقى طوائفُ من الناس: الشيخ الكبير، والعجوزُ يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة، يقولون: (لا إله إلا الله)، فنحن نقولها». فقال له صلةُ: ما تُغْنى عنهم (لا إله إلا الله) وهم لا يدرون ما صلاةٌ، ولا صيامٌ، ولا نُسكٌ، ولا صدقةٌ؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردَّدها عليه ثلاثًا، كلٌّ ذلك يُعرضُ عنه حذيفة، ثم أقبل عليه فى الثالثة، فقال: يا صلة! تُنجيهم من النار ثلاثًا[٥].

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «لَيُنزعنَّ القرآن من بين أظهركم؛ يُسرى عليه ليلاً، فيذهب من أجواف الرجال، فلا يبقى فى الأرض منه شيء»[٦].

قال ابن تيمية: «يُسرى به فى آخر الزمان منَ المصاحف والصدور فلا يبقى فى الصدور منه كلمة، ولا فى المصاحف منه حرفٌ»[٧].

---

(١) أخرجه البخارى (١٣/ ٨١ ـ ٨٢) كتاب الفتن.

(٢) أخرجه البخارى (١٣/ ١٣) كتاب الفتن.

(٣) أخرجه البخارى (١/ ١٧٨) ومسلم (١٦/ ٢٢٢).

(٤) أخرجه البخارى (١/ ١٩٤) ومسلم (١٦/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٥) رواه ابن ماجه والحاكم عن حذيفة ـ صحيح الجامع (٨٠٧٧).

(٦) رواه الطبرانى وقال ابن حجر: سنده صحيح ولكنه موقوف [فتح البارى ١٣/ ١٦].

(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

وأعظم من هذا أن لا يُذكَرَ اسمُ الله تعالى فى الأرض؛ كما فى الحديث عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال فى الأرض: الله، الله»[(١)].

١٨ ـ شهادة الزور وكتمان شهادة الحق:

قال ﷺ: «إن بين يدى الساعة:..... شهادة الزور وكتمان شهادة الحق»[(٢)].

وما أبشعها والله من جريمة تقشعر منها القلوب المؤمنة.. فكم تسببت فى ظلم اليتامى والمساكين وحرمانهم من أدنى حقوقهم، وكم تسببت فى ضياع الأموال والأعراض (ولا حول ولا قوة إلا بالله).

١٩ ـ انتشار الأمن فى البلدان:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق»[(٣)].

وفى حديث خبَّاب بن الأرت قال ﷺ: «والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون»[(٤)].

وهذا قد وقع فى زمن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وسيكون ذلك فى زمن المهدى وعيسى ـ عليه السلام ـ.

٢٠ ـ تطاول رعاء الشاة فى البنيان:

ففى الحديث المتفق عليه أن النبى ﷺ قال لجبريل ـ عليه السلام ـ حينما سأله عن وقت قيام الساعة: «ولكن سأحدثك عن أشراطها.. ـ فذكر منها ـ وإذا تطاول رعاء البهائم فى البنيان فذاك من أشراطها»[(٥)].

وفى رواية مسلم: «وأن ترى الحفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان»[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٧٨) كتاب الإيمان.

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٣٣) وقال أحمد شاكر: صحيح.

(٣) قال الهيثمى: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٧/ ٣٣١)].

(٤) أخرجه البخارى وأحمد والنسائى ـ صحيح الجامع (٤٤٥٠).

(٥) أخرجه البخارى (١/ ١١٤) ومسلم (١/ ١٦١ ـ ١٦٤).

(٦) أخرجه مسلم (١/ ١٥٨) كتاب الإيمان.

وهذا كله بسبب حُب الدنيا والتنافس عليها حتى وصل الأمر أن الناس يتفاخرون فيما بينهم بتطاول البنيان وزخرفته، وغير ذلك من حظوظ الدنيا الفانية.

٢١- خروج نار من أرض الحجاز:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»(١).

ولقد خرجت تلك النار في منتصف القرن السابع الهجري في عام أربع وخمسين وست مائة، وكانت ناراً عظيمة ظهرت بالمدينة.

ونقل ابن كثير أن غير واحد من الأعراب ممن كان بحاضرة بصرى شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت من أرض الحجاز»(٢).

٢٢- كثرة الشرطة:

قال ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس...»(٣).

وقال ﷺ: «سيكون في آخر الزمان شرطة يغدون في غضب الله ويروحون في سخط الله»(٤).

قال النووي - رحمه الله -: «وهذا الحديث من معجزات النبوة فقد وقع ما أخبر به ﷺ، فأما أصحاب السياط فهم غلمان والي الشرطة»(٥).

٢٣- ذهاب أهل الخير والدين:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته - أي أهل الخير والدين - من أهل الأرض فيبقى فيها عجاجة - وهم الأراذل ومن لا خير فيهم - لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكراً»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٧٨) ومسلم (١٨/ ٣٠).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٧/ ١٩٠) باب جهنم أعاذنا الله منها.

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة - صحيح الجامع (٣٦٦٦).

(٥) مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٩٠).

(٦) رواه أحمد (١١/ ١٨١) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وتلك العلامة تكون عند كثرة المعاصى، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. فإن الصالحين إذا رأوا المنكر ولم يغيروه عمَّهم العذاب.. وذلك قوله تعالى: ﴿ واتَّقُوا فتْنةً لاَّ تُصيبنَّ الَّذين ظَلمُوا منكُمْ خاصَّةً واعْلمُوا أنَّ اللَّه شديدُ الْعقاب ﴾ (الأنفال:٢٥)، حتى ظهر فى تلك الأمة من يفتخر، بل ويتفاخر بأنه يعبد الشيطان من دون الله ـ جل وعلا ـ بالرغم من أن الله حذرنا من عبودية الشيطان، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بنى آدم أن لاَّ تعْبُدُوا الشَّيْطانَ إنَّهُ لكُمْ عدُوٌّ مُّبينٌ (٦٠) وأن اعْبُدُوني هذا صراطٌ مُّسْتقيمٌ ﴾ (يس:٦٠، ٦١).

٢٤ ـ ظهور الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يظهر الفُحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة»[١].

والفُحش هو كل ما يشتد قُبحه من الذنوب والمعاصى.

وقد وقع كل ذلك فانتشرت المعاصى فى بلاد المسلمين بصورة لم تخطر على قلب بشر، وقُطعت الأرحام حتى بين الأبناء والآباء، وأما سوء الجوار؛ فإنى والله أجد نفسى عاجزاً عن وصف سوء الجوار الذى يحدث بين الناس فى تلك الأيام (وإنا لله وإنا إليه راجعون)... وذلك كله من ضعف الإيمان.

٢٥ ـ انتشار الربا وأكل الحرام:

قال ﷺ: «بين يدى الساعة يظهر الربا»[٢].

بل ولم يقتصر الأمر على ظهور الربا، بل لقد استشرى أكل الحرام بين الناس بصورة عجيبة.. وهذا ما أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال أمِن حلالٍ أم من حرامٍ»[٣].

٢٦ ـ ارتفاع الأراذل والسفهاء:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لُكع ابن لُكع»[٤].

واللكع هو صغير العلم والعقل، وكذلك تُطلق على اللئيم.

---

(١) رواه أحمد (١٠/ ٢٦ ـ ٣١) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) رواه الطبرانى كما فى (الترغيب والترهيب) للمنذرى (٣/ ٩) وقال: رواته رواة الصحيح.

(٣) أخرجه البخارى (٤/ ٣١٣) كتاب البيوع.

(٤) رواه أحمد والترمذى عن حذيفة ـ صحيح الجامع (٧٤٣١).

بل قال ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خداعات يُصدَّق فيها الكاذب ويُكذَّب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»[1].

وهذا هو الذي نراه في تلك الأيام فقد نجد الناس يعظِّمون رجلاً، وهو من أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين.. وقد يحتقرون رجلاً هو من أكثر الناس بذلاً وتضحية من أجل نُصرة دين الله (جل وعلا) فإلى الله المشتكى.

٢٧ـ تباهي الناس في المساجد وزخرفتها:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»[2].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لَتزخرفنّها كما زخرفت اليهود والنصارى.

وقال أنس ـ رضي الله عنه ـ: يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً. فالتباهي بها: العناية بزخرفتها.

ولا شك أن عمارة المسجد الحقيقية لا تكون إلا بالطاعة والذكر، ولذلك نهى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن زخرفة المساجد خوفًا أن ينشغل الناس عن العبادة، فقال للقائمين على تجديد المسجد النبوي: «أكِنَّ الناس من المطر وإياك أن تُحمِّر أو تُصفِّر فتفتن الناس»[3].

٢٨ـ انتشار الشرك في الأمة:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد الأوثان...»[4].

وما زال الشرك يزداد في الأمة شيئًا فشيئًا حتى وقع الكثير من أبناء الأمة المسلمة في الشرك الأكبر، فضلاً عن الشرك الأصغر الذي قضى على الأخضر واليابس.. فنسأل الله أن يرد الأمة إليه وإلى توحيده ردًا جميلاً.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٣٦٥٠).

(٢) رواه أحمد وابن حبان عن أنس ـ صحيح الجامع (٧٤٢١).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٥٣٩) مع الفتح.

(٤) رواه الترمذي والحاكم عن ثوبان ـ صحيح الجامع (٧٤١٨).

٢٩ـ اتخاذ المساجد طرقًا:

قال ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل بالمسجد لا يصلي فيه ركعتين»[١].

وهذا ليس فيه تعظيم لشعائر الله، فالمساجد ما جُعلت لمرور الناس من خلالها، وإنما جُعلت للعبادة.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل وصل الأمر في كثير من بلدان المسلمين أن أصبحت المساجد آثارًا سياحية يدخلها الكفار ونساؤهم كاسيات عاريات.. بل وربما تتعطل الصلاة حتى تنتهي تلك الزيارة.. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

٣٠ـ أن تلد الأمة ربتها:

قال ﷺ لجبريل ـ عليه السلام ـ عن علامات الساعة: «وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها»[٢].

وفي رواية لمسلم: «إذا ولدت الأمة ربها»[٣].

واختلف العلماء في معنى تلك العلامة.

وخلاصة القول هو: أن يكثر العقوق فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من القسوة والضرب... أو أن يبيع السادة أمهات أولادهم فيتداولونهم إلى أن يشتري الولد أمه وهو لا يعرفها.

٣١ـ وقوع الخسف والمسخ والقذف:

قال ﷺ: «بين يدي الساعة مسخٌ وخسفٌ وقذفٌ»[٤].

ولقد جاء الوعيد الشديد لأهل المعازف والخمور بتلك العقوبات.

قال ﷺ: «في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف»، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «إذا ظهرت القيان والمعازف وشُربت الخمور»[٥].

---

(١) أخرجه ابن خزيمة والبغوي ـ السلسلة الصحيحة للألباني (٦٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١١٤) ومسلم (١/ ١٥٨) الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٦٣) كتاب الإيمان.

(٤) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٢٨٥٦).

(٥) رواه الترمذي عن عمران بن حصين ـ صحيح الجامع (٤٢٧٣).

٣٢ـ التناكر بين الناس:

عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الساعة؟ فقال: علمها عند ربى، لا يجلِّيها لوقتها إلا هو، ولكن أخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها، إنَّ بين يديها فتنة وهرجًا». قالوا: يا رسول الله! الفتنةُ قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال: «بلسان الحبشة: القتل. ويُلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحدٌ أن يعرف أحدًا»[1].

وتلك العلامة نراها بين الخواص، فضلاً عن العوام.. فالتناكر انتشر بين المسلمين انتشار النار فى الهشيم.. فالكل (إلا من رحم الله) يسعى لحظوظ نفسه، ولو كان ذلك على حساب الآخرين.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣٣ـ تسليم الخاصة:

قال ﷺ: «إن بين يدى الساعة تسليم الخاصة»[2].

وقال ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة»[3].

فكثير من الناس لا يسلمون إلا على من يعرفون، وهذا أمرٌ مخالف لسنة الحبيب ﷺ الذى حثَّ الناس على إفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف. فالسلام سبب فى إشاعة الحب والرحمة بين المسلمين، والحب سبب لزيادة الإيمان، والإيمان هو جنة الدنيا التى تثمر جنة الآخرة.

٣٤ـ كثرة موت الفجاة:

قال ﷺ: «إن من أمارات الساعة... أن يظهر موت الفجأة»[4].

ولقد كثر موت الفجأة فى تلك الأيام حتى أنك تقف مع الرجل وبه من الصحة والعافية ما لا يعلمه إلا الله، وفجأة تجده قد سقط ميتًا.

ولذلك فلابد أن يكون المؤمن دائمًا على طاعة الله فى جميع أحواله، فإنه لا يدرى متى يأتيه الموت.

---

(١) قال الهيثمى: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٩)].

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٣٣) ـ السلسلة الصحيحة للألبانى (٦٤٧).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٢٦) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط والضياء وحسنه الألبانى.

٣٥ـ تقارب الزمان:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة وتكون الجمعة كاليوم ويكون اليوم كالساعة وتكون الساعة كالضرمة بالنار»[(١)].

وللعلماء أقوال فى ذلك.. وخلاصة أقوالهم أن المراد بتقارب الزمان:

١ ـ سرعة مرور الوقت (قلة البركة).

٢ ـ المراد ما يكون فى زمن المهدى وعيسى ـ عليه السلام ـ من كثرة الرغد يشعرون أن الوقت يمر بسرعة.

٣ ـ تقارب أحوال الناس فى قلة الدين.

٤ ـ تقارب المسافات بسبب تقدّم وسائل المواصلات.

٣٦ـ ظهور الكاسيات العاريات:

قال ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: ـ وذكر منهما ـ ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[(٢)].

تالله إننى لا أتصور أبدًا أن مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر تقرأ هذا الحديث وتعلم أن النبى ﷺ أخبر أنها من أهل النار إن لم تلتزم بحجابها، ثم تستمر بعد ذلك، بل وتصر على أن تكون كاسية عارية.

والعجب كل العجب ليس من النساء فحسب، بل من الرجال الذين يرضون بخروج نسائهم بتلك الهيئة.

فإن لم يكن عنده الوازع الدينى، فأين النخوة والرجولة والغيرة التى تجعل الرجل العفيف يغار على عرضه، بل أين الرجل الذى يتدبر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:٦). وقول رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته...»[(٣)]. فإنا لله وإنا إليه راجعون على ضياع النخوة والرجولة

(١) رواه أحمد والترمذى عن أنس ـ صحيح الجامع (٧٤٢٢).

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة (١٧/ ١٩٠) باب جهنم.

(٣) متفق عليه عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٤٥٦٩).

والمروءة، فضلاً عن هوان الدين فى قلوب أكثر المسلمين (إلا من رحم الله).

٣٧ـ حسر الفرات عن جبلٍ من ذهب:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبلٍ من ذهب يقتتل الناس عليه فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلى أكون أنا الذى أنجو»[1].

ولقد نهى النبى ﷺ عن أخذ شىء من ذلك الجبل، فقال ﷺ: «يوشك الفرات أن يُحسر عن جبلٍ من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا»[2]، وقد رجّح الحافظ ابن حجر أن سبب المنع من الأخذ من هذا الذهب لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه[3].

٣٨ـ انتفاخ الأهلة:

قال ﷺ: «من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلَّة»[4].

وفى رواية قال ﷺ: «من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلاً، فيقال: لليلتين». ومعنى ذلك أننا نجد الهلال كبيرًا حين طلوعه عما هو معتاد فى أول كل شهر فنراه وهو ابن ليلة كأنه ابن ليلتين.

٣٩ـ الرؤيا الصادقة للمؤمن:

قال ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمسٍ وأربعين جزءًا من النبوة»[5].

وخلاصة ما قاله العلماء فى تفسير الحديث أن رؤيا المؤمن فى آخر الزمان تقع على الوجه الذى لا يحتاج إلى تعبير فلا يدخلها الكذب، وذلك لأن المؤمن فى آخر الزمان يشعر بالغربة الشديدة، فتأتى الرؤيا فتؤنس غربته. ويحدث ذلك عند كثرة الفتن وغلبة الكفر والجهل.... وقيل إن ذلك خاص بزمان عيسى عليه السلام.... وكلما كان المؤمن صادقًا فى إيمانه كانت رُؤياه لا تكذب أبدًا.. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخارى (١٣/ ٧٨) الفتن ـ ومسلم (١٨/ ١٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨/ ١٩) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) فتح البارى (١٣/ ٨١).

(٤) رواه الطبرانى فى الكبير ـ السلسلة الصحيحة للألبانى (٢٢٩٢).

(٥) أخرجه البخارى (١٢/ ٤٠٤) التعبير ـ ومسلم (١٥/ ٢٠) الرؤيا.

٤٠ـ غزارة الأمطار وقلة الإنبات:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يُمطَر الناس مطراً عامًا ولا تُنبت الأرض شيئًا»(١).

وهذا من كثرة المعاصى التى تنزع البركة من الزرع والماء، بل ومن الأرض والسماء.

٤١ـ فشو التجارة (كثرتها):

قال ﷺ: «إن بين يدى الساعة تسليم الخاصة وفُشُوّ التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة..»(٢).

وهذا كله من أجل التنافس على تلك الدنيا التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

٤٢ـ تقارب الأسواق:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الكذب وتتقارب الأسواق»(٣).

ولقد تقاربت الأسواق بتقدم وسائل المواصلات، وكذلك بمعرفة الأسعار فى كل الأقطار من خلال وسائل الاتصال، وبذلك تتقارب الأسعار فى أكثر الأسواق لاقترابها من بعضها البعض ومعرفة التجار بأسعار الأسواق المجاورة.. والله أعلم.

٤٣ـ التماس العلم عند الأصاغر:

قال ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يُلتَمس العلم عند الأصاغر»(٤).

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ ومن أكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قِبَل أصاغرهم وتفرقت أهواؤهم هلكوا».

٤٤ـ أن تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارا»(٥).

وهذا دليل على أن أرض العرب كانت مروجًا وأنهارًا، وأنها ستعود مرة أخرى

---

(١) رواه أحمد وقال ابن كثير: إسناده جيد [النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ١٨٠)].

(٢) رواه أحمد (٥/ ٣٣٣) ـ السلسلة الصحيحة للألبانى (٦٤٧).

(٣) قال الهيثمى: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سمعان وهو ثقة [مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٧)].

(٤) رواه الطبرانى عن أبى أمية الجُمحى ـ صحيح الجامع (٢٢٠٧).

(٥) أخرجه مسلم (٧/ ٩٧) كتاب الزكاة.

مروجًا وأنهاراً كما كانت.

٤٥ـ كثرة النساء وقلة الرجال:

قال ﷺ: «من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد»(١).

قال العلماء في تفسير الحديث ما معناه: أن ذلك يكون بسبب كثرة الفتن والحروب، فيُقتل الرجال ويكثر عدد النساء، وقيل إنه يكون لكثرة الفتوح فتكثر السبايا، وقيل إن الله يقدِّر في آخر الزمان أن يقل عدد المواليد من الذكور، ويكثر من يولد من الإناث. والله أعلم.

٤٦ـ إشاعة الكذب وكثرته:

قال ﷺ: «سيكون في آخر أمتي أُناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم»(٢).

وهذا مما عمَّت به البلوى فلقد انتشر الكذب بين الناس، بل وبين بعض الذين لا يتثبتون من صحة الحديث الذي ينقلونه للناس عن رسول الله ﷺ.. ولقد حذّر النبي ﷺ من ذلك فقال: «..ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(٣).

٤٧ـ أن يتمنى الرجل الموت من شدة البلاء:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه»(٤).

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ «سيأتي عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يُباع لاشتراه».

وهذا كله بسبب كثرة الفتن التي يتعرض لها أهل الإيمان الذين يعيشون الغربة في كل زمان ومكان.

٤٨ـ تشبُّب المشيخة:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٧٨) العلم ـ ومسلم (١٦/ ٢٢١).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٧٨) المقدمة.

(٣) أخرجه البخاري وأحمد عن ابن عمرو ـ صحيح الجامع (٢٨٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٣/ ٨١) الفتن ـ ومسلم (١٨/ ٣٤).

قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة»[١].

قال ابن الجوزى: «يحتمل أن يكون المعنى لا يريحون رائحة الجنة لفعل يصدر منهم أو اعتقاد لا لعلة الخضاب ويكون سيماهم كما قال فى الخوارج: سيماهم التحليق، وإن كان تحليق الشعر ليس بحرام»[٢].

وقال النووى: «يحرم خضابه بالسواد على الأصحّ وقيل: يُكره كراهية تنزيه والمختار التحريم لقوله ﷺ: «واجتنبوا السواد»[٣].

٤٩ـ كلام الدواب والجمادات للإنسان:

قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنس وحتى يكلم الرجلَ عذبةُ سوطه وشراكُ نعله، ويخبره فخذُه بما يحدث أهلُه بعده»[٤].

٥٠ـ ظهور القلم (كثرة الكتابة):

قال ﷺ: «إن بين يدى الساعة... ظهور القلم»[٥].

والمراد به: كثرة الكتابة والتقدم المذهل فى وسائل التصوير والطباعة وكثرة الكتب وقلة العلم فى آنٍ واحد. والله أعلم.

٥١ـ اتباع سنن الكافرين:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبراً بشبرٍ وذراعًا بذراع قيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: ومَن الناس إلا أولئك!»[٦].

وقال ﷺ: «لتتّبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر أو ذراعًا بذراعٍ حتى لو سلكوا جُحر ضبٍ لسلكتموه. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!»[٧].

فإنا لله وإنا إليه راجعون على أمة تركت شرع ربها وسُنة نبيها ﷺ وذهبت تلهث

---

(١) رواه النسائى وأبو داود عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٨١٥٣).

(٢) الموضوعات لابن الجوزى (٣/ ٥٥).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٨٠).

(٤) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (٧٠٨٣).

(٥) رواه أحمد (٥/ ٣٣٣) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٦) أخرجه البخارى (١٣/ ٣٠٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٧) أخرجه البخارى (١٣/ ٣٠٠) ومسلم (١٦/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

وراء الغرب الكافر والشرق الملحد تلتمس العزة عنده، فأذلها الله لأذل الأمم.. فاللهم رُدَّ المسلمين إلى دينك وسُنة نبيك ﷺ ردًا جميلاً.

٥٢ـ كثرة القول وترك العمل:

قال ﷺ: «من أشراط الساعة ـ وذكر منها ـ ويُفتح القول ويُخزن العمل..»[1]. فترى الرجل يتكلم كلامًا جميلاً ولا يعمل بشيء منه ولقد ذمَّ الله هذا الصنف من الناس فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف:٢ ـ ٣).

٥٣ـ قتال بين الروم والمسلمين:

قال ﷺ: «اعدُد ستًا بين يدى الساعة.. ـ وذكر منها ـ ثم هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر ـ أى الروم ـ فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية ـ أى راية ـ تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا»[2].

وهذا القتال سيكون فى أرض الشام فى آخر الزمان قبل ظهور الدجال، ويكون انتصار المسلمين على الروم تمهيدًا لفتح القسطنطينية.

٥٤ـ فتح القسطنطينية (إسطنبول):

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «سمعتُم بمدينة جانبٌ منها فى البر وجانبٌ منها فى البحر؟». قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بنى إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم؛ قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها ـ قال ثور (أحد رواة الحديث): لا أعلمه إلا قال: ـ الذى فى البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا، فبينما هم يقتسمون الغنائم، إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»[3].

(١) رواه الحاكم وابن عساكر ـ السلسلة الصحيحة للألبانى (٢٨٢١).
(٢) أخرجه البخارى عن عوف بن مالك ـ صحيح الجامع (١٠٤٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٨/ ٤٣ ـ ٤٤) الفتن وأشراط الساعة.

٥٥- خروج القحطاني:

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»(١).

وهذا الرجل يخرج عند كثرة الفتن وتغير الزمان فيقود الناس إلى طاعة الله - جل وعلا - فهو رجل صالح يحكم بالعدل ويحبه الناس ويطيعونه.

٥٦- قتال اليهود ونطق الشجر والحجر:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهوديٌّ خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»(٢).

هكذا يُسخّر الله الكون كله للمسلم عندما يعيش الإسلام قلبًا وقالبًا ويحقق العبودية لله - جل وعلا - .

٥٧- المدينة تنفي شرارها وتخرب في آخر الزمان:

قال ﷺ: «... لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خَبث الحديد»(٣).

وقد حمل القاضي عياض نفي المدينة لخبثها في زمن النبي ﷺ.. وحمله النووي على زمن الدجال.. وذكر الحافظ ابن حجر أنه يُحتمل أن يكون المراد كلاً من الزمنين. وأما خروج الناس بالكلية من المدينة وخرابها، فذلك سيكون في آخر الزمان قريبًا من قيام الساعة.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تتركُونَ المدينة على خيرِ ما كانت، لا يغشاها إلا العوافي - يريد عوافي السباع والطير - وآخر من يُحشر راعيان من مُزينة، يُريدان المدينة، ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشًا، حتى إذا بلغا ثنيَّة الوداع؛ خرَّا على وجوههما»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٧٦) الفتن - ومسلم (١٨/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٠٣) الجهاد - ومسلم (١٨/ ٤٤ - ٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٩/ ١٥٣) كتاب الحج.

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٨٩ - ٩٠) فضائل المدينة.

٥٨ـ الريح الطيبة تقبض أرواح المؤمنين:

عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدَّجَّال... (فذكر الحديث، وفيه:) فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه، فيُهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبَل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلتهُ عليه حتى تقبضه»[1].

فلا يبقى على الأرض إلا شرار الناس... كما فى الحديث الآخر: «إذ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارُج الحُمُر فعليهم تقوم الساعة»[2].

٥٩ـ هدم الكعبة:

قال ﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»[3].

وذلك عندما لا يبقى فى الأرض أحدٌ يقول: الله الله.

فيأتى هذا الرجل من الحبشة فيهدمها ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ولا تُبنى الكعبة بعد ذلك لأن الساعة ستقوم على شرار الناس.

* عن سعيد بن سمعان؛ قال: سمعت أبا هريرة يخبر أبا قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «يبايَع لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحلوه؛ فلا يُسأل عن هلكة العرب، ثم تأتى الحبشة، فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنزه»[4].

* وعن عبد الله بن عمر؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرب الكعبة ذو السويقتين[5] من الحبشة، ويسلبها حليتها، ويجردها من كسوتها، ولكأنى أنظر إليه:

---

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٧٥ ـ ٧٦) الفتن وأشراط الساعة.

(٢) أخرجه مسلم (١٨/ ٧٠) باب ذكر الدجال.

(٣) أخرجه البخارى (٣/ ٤٦٠) ـ ومسلم (١٨/ ٣٥).

(٤) رواه أحمد (١٥/ ٣٥) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح ـ وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد قوى وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٧٩).

(٥) (السويقتين): السويقة: تصغير الساق، وهى مؤنثة، فلذلك ظهرت التاء فى تصغيرها، وإنما صغر الساق؛ لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموشة. «النهاية فى غريب الحديث والأثر» (٢/ ٤٢٣).

أصيلع[١]، أفيدع[٢]، يضرب عليها بمسحاته ومعوله».

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كأني أنظر إليه: أسود، أفحج[٣]، ينقضها حجراً حجراً (يعني: الكعبة)»[٤].

● **شبهة.. والرد عليها:**

فإن قيل: إن هذه الأحاديث تخالف قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت:٦٧]، والله تعالى قد حبس عن مكة الفيل، ولم يمكن أصحابه من تخريب الكعبة، ولم تكن إذ ذاك قبلة، فكيف يسلط عليها الحبشة بعد أن صارت قبلة للمسلمين؟!.

* قيل جوابًا عن ذلك: «إن خراب الكعبة يقع فى آخر الزمان، قرب قيام الساعة، حين لا يبقى فى الأرض أحد يقول: الله، الله، ولهذا جاء فى رواية الإمام أحمد السابقة عن سعيد بن سمعان قوله ﷺ: «لا يعمر بعده أبدًا»[٥]، فهو حرم آمن؛ ما لم يستحله أهله.

وليس فى الآية ما يدل على استمرار الأمن المذكور فيها.

* وقد حدث القتال فى مكة مرات عديدة، وأعظم ذلك ما وقع من القرامطة[٦] فى القرن الرابع الهجرى، حيث قتلوا المسلمين فى المطاف، وقلعوا الحجر الأسود، وحملوه

(١) (أصيلع): تصغير أصلع، وهو الذى انحسر الشعر عن رأسه. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٤٧).

(٢) (أفيدع): تصغير أفدع، والفدع بالتحريك زيغ بين القدم وبين عظم الساق، وكذلك يكون فى اليد، وهو أن تزول المفاصل عن أماكنها. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٤٢٠).

(٣) (أفحج): فى «القاموس»: «فحج فى مشيته؛ أى: تدانى صدور قدميه، وتباعد عقباه». وقال ابن الأثير: «الفحج: تباعد ما بين الفخذين». انظر: «ترتيب القاموس» (٣/ ٤٥١)، و«النهاية» (٣/ ٤٥١).

(٤) أخرجه البخارى (٣/ ٤٦٠) الحج ـ وأحمد (٢٠١٠).

(٥) رواه أحمد (٨٠٨٠) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٦) (القرامطة): طائفة من الباطنية تنتسب لرجل اسمه حمدان قرمط، من أهل الكوفة، ولهذه الطائفة الخبيثة فى تاريخها الطويل المخزى أعمال شنيعة، ومن أعظمها ما وقع منهم سنة (٣١٧هـ)، حيث هاجموا الحُجاج يوم التروية، واستباحوا أموالهم ودماءهم، فقتلوا فى رحاب مكة وشعابها وفى المسجد الحرام وفى جوف الكعبة من الحجاج خلقًا كثيرًا، وهدموا قبة زمزم، وقلعوا باب الكعبة، ونزعوا كسوتها، وقلعوا الحجر الأسود، ونقلوه إلى بلادهم، ومكث عندهم اثنين وعشرين سنة... انظر: (فضائح الباطنية) للغزالى (ص١٢ ـ ١٣) تحقيق عبد الرحمن بدوى و«البداية والنهاية» (١١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، و«رسالة القرامطة وآراؤهم الاعتقادية» (ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣) لسليمان السلومى.

إلى بلادهم، ثم أعادوه بعد مدة طويلة، ومع ذلك لم يكن ما حدث معارضًا للآية الكريمة؛ لأن ذلك إنما وقع بأيدى المسلمين والمنتسبين إليهم، فهو مطابق لما جاء فى رواية الإمام أحمد من أنه لا يستحل البيت الحرام إلا أهله، فوقع ذلك كما أخبر النبى ﷺ، وسيقع ذلك آخر الزمان؛ لا يعمر مرة أخرى، حين لا يبقى على ظهر الأرض مسلم»[1].

• ظهور المهدى •

إن الكلام عن المهدى (عليه السلام) فى تلك الأيام أصبح موضوع الساعة بين أكثر الناس ولعل السبب فى ذلك أن أكثر الناس الآن يعانون أشد المعاناة من تلك الحياة المادية الجامدة التى تكاد أن تخلو من المودة والرحمة فبدأ الناس يتطلعون إلى طوق النجاة من تلك الحياة المليئة بالفتن والابتلاءات... وقد علموا أن النبى ﷺ قد أخبر أن المهدى سيأتى فى آخر الزمان وسيملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا، فتعلقت قلوبهم بهذا اليوم الذى سيظهر فيه المهدى ظنًّا منهم أن ظهور المهدى سيكون بداية عصر الاسترخاء والدعة... وهذا فهمٌ خاطئ؛ لأن النصوص تشير إلى أن ظهور المهدى سيكون بداية للفتوح والجهاد والبذل فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله.

بل لابد أن نعلم أن المهدى (عليه السلام) لن يظهر إلا إذا تهيأ العالم الإسلامى لذلك من خلال إتمام مرحلة التصفية والتربية وقيام خلافة إسلامية راشدة.. أو على الأقل فإنه لن يظهر إلا إذا قامت فى الأمة نهضة إسلامية شاملة بحيث تستقيم الأمة على شرع الله وسُنة رسول الله ﷺ ولا يبقى إلا القائد الربانى الذى يقودها إلى التمكين فى الأرض - بإذن الله - ألا وهو المهدى.

وأكبر دليل على ذلك أن عيسى (عليه السلام) سيصلى خلف المهدى فى المسجد الأقصى، ولن يكون ذلك إلا بعودة المسجد الأقصى إلى المسلمين.. ولن يعود الأقصى إلا إذا رفعت الأمة راية الجهاد فى ظل الخلافة الراشدة التى تكون على منهاج النبوة.

إذن فالحاصل أننا يجب علينا جميعًا أن نجتهد فى طاعة الله وأنبذل الغالى والنفيس لنُصرة دين الله، ولا نتكاسل بحُجة أننا ننتظر المهدى الذى سيقود المسلمين إلى النصر والتمكين.. بل لابد أن نُهئ المناخ الإيمانى الذى سيظهر فيه المهدى، وذلك من خلال

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٦١ - ٤٦٢).

بذل الجهود المخلصة فى التصفية والتربية على النبع الصافى - على كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ فإذا ظهر المهدى (عليه السلام) ونحن أحياء، فالحمد لله على تلك النعمة... وإذا متنا قبل ظهوره نكون قد أدينا الواجب الذى علينا فنحن عبيدٌ لله فى كل زمان ومكان، وما علينا إلا أن نكون أنصاراً لله ولرسوله ﷺ... أسأل الله (جل وعلا) أن يستعملنا لنُصرة دينه إنه ولى ذلك والقادر عليه..

• من المهدى ؟ •

قال جمهور أهل السنة: «إنه من أهل بيت النبى ﷺ، من ولد الحسن بن على رضى الله عنهما، يخرج فى آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض ظلمًا وجوراً، فيملؤها قسطًا وعدلاً، وهذا هو القول الصحيح الذى تشهد له الأحاديث الصحيحة عن النبى ﷺ، وأقره كبار المحدِّثينَ، والحُفَّاظ، والمحققين فى القديم، والحديث، إلا من لا يعتد بخلافه.

إنَّ المهدىَّ المُبشَّر به لا يدعى نُبوة، بل هو من أتباع النبى ﷺ، وما هو إلا خليفة راشد مهدى، من جملة الخلفاء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «فعليكم بسُنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»... الحديث.

وهو عند أهل السنة والجماعة بشر من البشر، ليس بنبى ولا معصوم، وما هو إلا رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ، وحاكم عادل يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جَوراً، يخرج فى وقت تكون الأمة أحوج ما تكون إليه، فيُحيى السنة، ويُزيلُ الجور، ويبسط العدل[1].

ولذلك فلقد أخطأ الذين كذبوا بتلك الأحاديث التى وردت بشأن المهدى بحُجة أن النبى ﷺ هو خاتم الأنبياء وأنه لا نبى بعده!!!

وهل هناك أحد يقول: إن المهدى (عليه السلام) يزعم أنه نبى؟... إن المهدى كما قلنا خليفة راشد من آل بيت النبى ﷺ يملأ الدنيا عدلاً ويقود المسلمين إلى النصر والتمكين - بإذن الله جل وعلا -.

* * *

(١) انظر: «عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية»، للأستاذ أحمد بن سعد بن حمدان الغامدى.

• اسمه وصفته •

عن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً منى - أو من أهل بيتى - يُواطئ اسمه اسمى، واسم أبيه اسم أبى»، زاد فى رواية: «يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما مُلئت ظُلمًا وجورًا». وفى رواية للترمذى: «لا تذهب - أو: لا تنقضى - الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى، يُواطئ اسمه اسمى»[1].

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه كاسم أبى النبى ﷺ، فيكون اسمه محمد - أو أحمد - بن عبد الله، وهو من ذُرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم من ولد الحسن بن على رضى الله عنهم.

قال ابن كثير رحمه الله فى المهدى: «وهو محمد بن عبد الله العلوى الفاطمى الحسنى رضى الله عنه»[2].

أما عن صفته الواردة فهو أجلى الجبهة أقنى الأنف، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «المهدى منى[3]، أجلى الجبهة[4]، أقنى الأنف[5]، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما مُلئت ظُلمًا وجورًا، ويملكُ سبع سنين»[6].

• من أين يخرج المهدى ؟ •

والراجح أن خروج المهدى يكون من قِبَل المشرق... فقد جاء فى الحديث الذى رواه ثوبان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتِلُ عند كنزكم ثلاثة؛ كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله

(١) رواه أبو داود والترمذى، وحسنه الألبانى فى المشكاة (٥٤٥٢).

(٢) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ٢٩).

(٣) أى من نسلى وذريتى.

(٤) جلاء الجبهة: هو انحسار مقدم الرأس من الشعر، أو نصف الرأس، أو هو دون الصلع، فمعنى «أجلى الجبهة» منحسر الشعر من مقدم رأسه، أو واسع الجبهة.

(٥) أقنى الأنف: قال فى «النهاية»، (٤/ ١١٦): «القنا فى الأنف طوله، ودقة أرنبته، مع حدب فى وسطه، يقال: رجل أقنى، وامرأة قنواء» اهـ قال القارى: «والمراد أنه لم يكن أفطس؛ فإنه مكروه الهيئة». اهـ من «المرقاة»، (٥/ ١٨٠).

(٦) رواه أبو داود والحاكم وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٣٦).

قومٌ... (ثم ذكر شيئًا لا أحفظه، فقال:) فإذا رأيتموه؛ فبايعوه، ولو حبواً على الثلج؛ فإنه خليفة الله المهدى»[١].

قال ابن كثير رحمه الله: «والمراد بالكنز المذكور فى هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذوه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدى، ويكون ظهوره من بلاد المشرق، لا من سرداب سامرا؛ كما يزعمه جهلهة الرافضة من أنه موجود فيه الآن، وهم ينتظرون خروجه فى آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان، شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان؛ لا من كتاب، ولا سنة، ولا معقول صحيح، ولا استحسان».

وقال أيضًا: «ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سودٌ أيضًا، وهو زى عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: العقاب».

إلى أن قال: «والمقصود أن المهدى الممدوح الموعود بوجوده فى آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت؛ كما دل على ذلك بعض الأحاديث»[٢].

***

(١) رواه ابن ماجة والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى. وقال ابن كثير: «هذا إسناد قوى صحيح». «النهاية/ الفتن والملاحم» (١/ ٢٩) تحقيق د. طه زينى.
وقال الألبانى: «الحديث صحيح المعنى دون قوله: «فإن فيها خليفة الله المهدى»؛ فقد أخرجه ابن ماجه من طريق علقمة عن ابن مسعود مرفوعًا نحو رواية عثمان الثانية، وإسناده حسن، وليس فيه: «خليفة الله»، وهذه الزيادة: «خليفة الله» ليس لها طريق ثابت، ولا ما يصلح أن يكون شاهدًا لها، فهى منكرة... ومن نكارتها أنه لا يجوز فى الشرع أن يقال: خليفة الله. لما فيه من إبهام ما لا يليق بالله تعالى من النقص والعجز».
ثم نقل عن «الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلامًا يردُّ فيه على من قال: إن الخليفة هو الخليفة عن الله؛ لأن الله تعالى لا يجوز له خليفة، فهو الحى الشهيد المهيمن القيوم الرقيب الحفيظ الغنى عن العالمين، وإن الخليفة إنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة، والله منزّه عن ذلك.
انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة»، المجلد الأول، (ص١١٩ ـ ١٢١) (ح٨٥).
(٢) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ٢٩، ٣٠).

• كثرة الخيرات في عهده •

وفي عهد المهدي تكثر الخيرات وتعمُّ البركات وتنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط.. فتُخرج الأرض خيراتها وتُنزل السماء بركاتها، ويكثر المال ويفيض ويسعد الناس سعادة لا يعلم قدرها إلا الله (جل وعلا).

قال ابن كثير رحمه الله: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»[١].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي؛ يسقيه الله الغيث، وتُخرج الأرض نباتها، ويُعطي المال صحاحًا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا أو ثمانيًا (يعني: حججًا)»[٢].

ولأن عيسى (عليه السلام) ينزل ويصلي خلف المهدي فإنني سأذكر بعض الخيرات التي ستكون في تلك الحقبة المباركة.

فقد جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل في ذكر الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى (عليه السلام) ودعائه عليهم وهلاكهم، وفيه قوله ﷺ: «ثم يرسل الله مطرًا لا يُكِنُّ منه بيتُ مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة - المرآة - ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل - اللبن - حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس»[٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل... فيهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم»[٤].

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣١).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٤/ ٥٥٧، ٥٥٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: «هذا سند صحيح، رجاله ثقات»، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٧١١).

(٣) أخرجه مسلم (١٨/ ٦٣) كتاب الفتن.

(٤) رواه أحمد وقال ابن حجر: سنده صحيح [فتح الباري (٦/ ٤٩٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن عيسى بن مريم حكمًا عادلاً... وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص - الناقة الشابة - فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال؛ فلا يقبله أحد»[١].

• كيف نعلم بظهور المهدي •

عن حفص بن غياث قال: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله إن الناس قد أكثروا في المهدي فما تقول فيه؟ قال: إن مرَّ على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه[٢].

ولقد أخبر الحبيب المصطفى ﷺ عن علامات نعرف من خلالها أن هذا الرجل الذي سيظهر هو المهدي... وعلى رأس تلك العلامات أنه سيصلي خلفه عيسى (عليه السلام).

قال البرزنجي رحمه الله: «ومن العلامات التي يُعرفُ بها المهدي أنه يجتمع بعيسى ابن مريم عليه السلام، ويصلي عيسى خلفه»[٣]. اهـ.

وقال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري رحمه الله تعالى: (من ادَّعى من المفتونين أنه المهدي المنتظر، ولم يخرج الدجال في زمانه، فإنه دجال كذاب، وكذلك من ادعى أنه المسيح ابن مريم، ولم يكن الدجال قد خرج قبله، فإنه دجال كاذب، وللمسيح ابن مريم علامتان لا تكونان لغيره من الناس، إحداهما: أنه يقتل الدجال كما تواترت بذلك الأحاديث، والثانية: أنه لا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه[٤]، وفي هاتين العلامتين قطع لأطماع كل دجال يدعي أنه المسيح ابن مريم)[٥]. اهـ.

ومن العلامات المحكمة أن يُخسف بالجيش الذي يقصد المهدي، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «عبث[٦] رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: «يا رسول الله،

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٢) باب نزول عيسى عليه السلام.

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٣١).

(٣) الإشاعة (ص:٩١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) (٤/ ٢٢٥٣).

(٥) إقامة البرهان في الرد على من أنكر المهدي والدجال.

(٦) عبث: بكسر الباء، أي تحرك جسمه الشريف، أو بعضه ﷺ وقيل: حرك أطرافه كمن يأخذ شيئًا، أو يدفعه، انظر «شرح النووي»، (١٨/ ٦، ٧).

صنعت شيئًا في منامك لم تكن تفعله»، فقال: «العجبُ أن ناسًا من أمتي يؤمون[١] البيت لرجل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء[٢] خُسف بهم»، فقلنا: «يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس»، قال: «نعم، فيهم المستبصر[٣]، والمجبور[٤]، وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى[٥]، يبعثهم الله على نياتهم»[٦].

وعن عبد الله بن صفوان عن أم المؤمنين رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «سيعوذ بهذا البيت ـ يعني الكعبة ـ قوم، ليست لهم منعة[٧]، ولا عدد، ولا عدة، يبعث إليهم جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم»[٨].

وفي رواية عنه عن أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ليؤمَّنَّ هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم، وينادي أولهم آخرهم، ثم يخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذي يخبر عنهم»[٩]، فقال رجل: أشهد عليك أنك لم تكذب على حفصة، وأشهد على حفصة أنها لم تكذب على النبي ﷺ.

* * *

(١) يؤم البيت: يقصده.

(٢) البيداء: المفازة، وهي الأرض الواسعة القفر، وفي رواية: «ببيداء المدينة»، وفي رواية أبي يعلى عن أم سلمة رضى الله عنها: «بالبيداء من ذي الحليفة»، والبيداء أرض واسعة ملساء بين مكة والمدينة، وهي معروفة بالقرب من ذي الحليفة.

(٣) المستبصر: المستبين للأمر، القاصد له.

(٤) المجبور: المكره المقهور.

(٥) «المصادر: المراجع، ورد ثم صدر؛ أي: جاء ثم رجع، شتى: متفرقة، والمقصود أن مهلك هذا الجيش مهلك واحد يخسف بهم جميعًا، إلا أنهم يصدرون عن الهلكة مصادر متفرقة، فواحد إلى الجنة، وآخر إلى النار، على قدر أعمالهم ونياتهم». اهـ

(٦) رواه البخاري: (٤/ ٣٣٨ ـ فتح) في البيوت: باب ما ذُكر في الأسواق، ومسلم، واللفظ له (٤/ ٢٢١٠).

(٧) منعة: فلان في عز ومنعة: أي قوة تمنع من يريدهم بسوء، وقد تفتح النون، وقيل: هي بالفتح جمع مانع؛ مثل كافر وكفرة، انظر: «النهاية» (٤/ ٣٦٥).

(٨) رواه مسلم برقم (٢٨٨٣)، في الفتن: باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، وفي رواية أن عبد الله بن صفوان قال: «أما والله ما هو بهذا الجيش»، يعني الآتي من الشام إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما.

قال في «التاج»: «حقًا ليس هو هذا الجيش؛ لأنه لم يُخسف به، وما سمعنا بجيش خُسف به للآن، ولو وقع لاشتهر أمره كأصحاب الفيل». اهـ

(٩) رواه الإمام أحمد (٦/ ٢٨٦)؛ ومسلم (١٨/ ٥ ـ نووي) والنسائي (٥/ ٢٠٧).



• تواتر أحاديث المهدى •

إن الأحاديث التى وردت بشأن المهدى متواترة تواترًا معنويًا، وقد نصَّ على ذلك بعض الأئمة والعلماء.. وسأذكر بعض أقوال أهل العلم:

قال الشوكانى: «الأحاديث فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر التى أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهى متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما هو دونها فى جميع الاصطلاحات المحررة فى الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدى؛ فهى كثيرة أيضًا، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك»[١].

وقال الحافظ أبو الحسن الآبرى: «قد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله ﷺ بذكر المهدى، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلاً، وأن عيسى عليه السلام يخرج، فيساعده على قتل الدجال، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلى عيسى خلفه»[٢].

وقال العلامة محمد السفارينى: «وقد كثُرت بخروجه - أى: المهدى - الروايات، حتى بلغت حد التواتر المعنوى، وشاع ذلك بين علماء السنة، حتى عُدَّ من معتقداتهم»[٣].

وقال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: «أما إنكار المهدى المنتظر بالكلية، كما زعم ذلك بعض المتأخرين، فهو قول باطل؛ لأن أحاديث خروجه فى آخر الزمان، وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطًا، كما ملئت جورًا، قد تواترت تواترًا معنويًا، وكثرت جدًا، واستفاضت كما صرح بذلك جماعة من العلماء، بينهم أبو الحسن الآبرى السجستانى من علماء القرن الرابع، والعلامة السفارينى، والعلامة الشوكانى، وغيرهم، وهو كالإجماع من أهل العلم، ولكن لا يجوز الجزم بأن فلانًا هو المهدى، إلا بعد توافر العلامات التى بينها النبى ﷺ فى الأحاديث الثابتة، وأعظمها وأوضحها كونه يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت جورًا وظلمًا»[٤]. اهـ.

---

(١) من رسالة للشوكانى اسمها: «التوضيح فى تواتر ما جاء فى المهدى المنتظر والدجال والمسيح».

(٢) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال (٣/ ١١٩٤) لأبى الحجاج يوسف المزى.

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/ ٨٤).

(٤) جريدة عكاظ - ١٨ محرم ١٤٠٠هـ.

• الأدلة من السنة على ظهوره [(١)] •

ولقد وردت جملة من الأحاديث الصحيحة والحسنة التى تدل على ظهور المهدى فى آخر الزمان كحلقة الوصل ما بين علامات الساعة الصغرى والكبرى... وسأكتفى بذكر بعضها.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلمًا وعدوانًا، قال: ثم يخرج رجل من عترتى ـ أو من أهل بيتى ـ يملؤها قسطًا وعدلاً، كما ملئت ظلمًا وعدوانًا»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «أبشركم بالمهدى؛ يبعث على اختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جوراً وظلمًا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، يقسم المال صحاحًا». فقال له رجلاً: ما صحاحًا؟ قال: «بالسوية بين الناس».

قال: «ويملأ الله قلوب أمة محمد ﷺ غنى، ويسعهم عدله، حتى يأمر مناديًا، فينادى، فيقول: من له فى مال حاجة؟ فما يقوم من الناس إلا رجل، فيقول: ائت السدان ـ يعنى: الخازن ـ فقل له: إن المهدى يأمرك أن تعطينى مالاً. فيقول له: احث، حتى إذا حجره وأبرزه؛ ندم، فيقول: كنتُ أجشع أمة محمد نفسًا، أوَ عجز عنى ما وسعهم؟!». قال:

(١) استقصى الشيخ عبد العليم عبد العظيم فى رسالته «الأحاديث الواردة فى المهدى فى ميزان الجرح والتعديل» لنيل درجة الماجستير الكلام على المهدى، وذكر من أخرجها من الأئمة، وذكر أقوال العلماء فى إسناد كل حديث، والحكم عليه، ثم النتيجة التى توصل إليها، فمن أراد التوسع فعليه بهذه الرسالة، فإنها أوسع مرجع فى الكلام على أحاديث المهدى؛ كما قال ذلك الشيخ عبد المحسن العباد فى «مجلة الجامعة الإسلامية» (العدد ٤٥/ ص٣٢٣).

وجملة ما ذكره فى هذه الرسالة من الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة وغيرهم ست وثلاثون وثلاث مائة رواية، منها اثنان وثلاثون حديثًا، وأحد عشر أثرًا، ما بين صحيح وحسن، الصريح منها فى ذكر المهدى تسعة أحاديث وستة آثار، والباقى فيها أوصاف وقرائن تدل على أنها فى المهدى.

وقد صحح كثير من الحفاظ أحاديث المهدى، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه «منهاج السنة فى نقض كلام الشيعة والقدرية» (٤/ ٢١١)، والعلامة ابن القيم فى كتابه «المنار المنيف فى الصحيح والضعيف» (ص ١٤٢ ـ وما بعدها)، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وصححها أيضًا الحافظ ابن كثير فى كتابه «النهاية/ الفتن والملاحم» (١/ ٢٤ ـ ٣٢)، تحقيق د. طه زينى، وغيرهم من العلماء؛ كما سيأتى ذكر ذلك.

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه. ووافقه الذهبى.

«فيرده، فلا يقبل منه. فيقال له: إنا لا نأخذ شيئًا أعطيناه، فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين، ثم لا خير فى العيش بعده»، أو قال: «ثم لا خير فى الحياة بعده»[١]. وفى هذا دليل على أنه بعد موت المهدى يظهر الشر والفتن العظيمة.

وعن أبى سعيد الخدرى أنه قال: «خشينا أن يكون بعد نبينا حدث؛ فسألنا نبى الله ﷺ فقال: «إن فى أمتى المهدى يخرج، يعيش خمسًا، أو سبعًا، أو تسعًا، قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: سنين، قال: فيجىء إليه الرجل، فيقول: يا مهدى، أعطنى، أعطنى، قال: «فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمله»[٢].

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدى من عترتى، من ولد فاطمة»[٣].

• عيسى (عليه السلام) يصلى خلف المهدى •

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منا الذى يصلى عيسى بن مريم خلفه»[٤].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم؟!»[٥].

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة». قال: «فينزل عيسى بن مريم ﷺ، فيقول أميرهم: تعالَ صلِّ لنا. فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض إمراء، تكرمة الله هذه الأمة»[٦].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفى صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأمة ـ مع كونه فى آخر الزمان، وقرب قيام الساعة ـ دلالة للصحيح من الأقوال أن الأرض لا

(١) قال الهيثمى: «رواه الترمذى وغيره باختصار كثير، ورواه أحمد بأسانيد، وأبو يعلى باختصار كثير، ورجالهما ثقات». «مجمع الزوائد» (٧/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) رواه الترمذى وأحمد وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٨٢٠).

(٣) رواه أبو داود وابن ماجة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٣٤).

(٤) رواه أبو نعيم فى أخبار المهدى ـ صحيح الجامع (٥٩٢٠).

(٥) أخرجه البخارى (٦/ ٤٩١) أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢/ ١٩٣) الإيمان.

(٦) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٣، ١٩٤) الإيمان.

تخلو عن قائم لله بحجة، والله أعلم»[1]. اهـ.

• شبهة... والرد عليها •

أنكر بعضهم ما ورد من أن عيسى عليه السلام إذا نزل يصلى خلف المهدى صلاة الصبح، وصنَّف فى ذلك كتابًا، وقال فى توجيه ذلك:

«إن النبى عليه السلام أجلُّ مقامًا من أن يصلى خلف غير نبى». وجواب هذا من أوجه:

الأول: أن صلاة عيسى خلف المهدى ثابتة فى عدة أحاديث بإخبار رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، وقد تقدم ذكرها.

الثانى: أن الحكمة من ذلك ـ كما نقلنا عن ابن الجوزى آنفًا ـ أن لا يتدنس عيسى عليه السلام بغبار الشبهة؛ إذ لو تقدم عيسى إمامًا لوقع فى النفس إشكال، ولقيل: أتراه نائبًا، أو مبتدئًا شرعًا؟

الثالث: «لا شك أن عيسى أكمل من المهدى؛ لأنه نبى الله»[2]، إلا أن الثابت شرعًا جواز إمامة المفضول للفاضل؛ وهذا رسول الله ﷺ، وهو من أجل الأنبياء مقامًا، وأرفعهم درجة ـ قد صلى فى غزوة تبوك خلف عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، ففى حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: «فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف قد صلى لهم، فأدرك النبى ﷺ إحدى الركعتين معه، وصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلَّم عبد الرحمن، قام رسول الله ﷺ وأتم صلاته، فأفزع ذلك المسلمين، وأكثروا التسبيح، فلما قضى النبىَ ﷺ صلاته، أقبل عليهم، ثم قال: «أحسنتم»، أو قال: «أصبتم»، يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها»[3].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «صلى النبى ﷺ خلف أبى بكر، فى مرضه الذى مات فيه، قاعدًا»[4].

---

(١) فتح البارى (٦/ ٤٩٤).

(٢) نقل هذه العبارة فى (الإذاعة) (ص:١٣٥) عن الشوكانى فى (التوضيح).

(٣) رواه الشافعى فى مسنده (١/ ٢٨، ٢٩)، ومسلم (٢٧٤) (١/ ٣١٧).

(٤) رواه الترمذى (٣٦٢) الصلاة.

• الله يصلحه في ليلة •

قال ﷺ: «المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة»[١].

وقوله: يصلحه الله في ليلة» يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المراد بذلك أن الله يصلحه للخلافة؛ أي يهيؤه لها.

والثاني: أن يكون متلبسًا ببعض النقائص، فيصلحه الله، ويتوب عليه»[٢]. اهـ. وهذا المعنى هو الذي قرره الحافظ ابن كثير رحمه الله، حيث قال: «ومعنى قوله: «يصلحه الله في ليلة»؛ أي: يتوب عليه، ويوفقه، ويلهمه رشده، بعد أن لم يكن كذلك»[٣]. اهـ.

وقال القاري في «المرقاة»: «يُصلحه الله في ليلة»، أي: يصلح أمره، ويرفع قدره، في ليلة واحدة، أو في ساعة واحدة من الليل؛ حيث يتفق على خلافته أهل الحل والعقد فيها»[٤]. اهـ.

• شبهة... والرد عليها •

قدح بعض العصريين في هذا الحديث؛ لاستبعاد معناه، «وأي غرابة في معناه، والله على كل شيء قدير، وهو الفعال لما يريد، ومن يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا؟!

ومن أوضح الأمثلة في ذلك ما حصل لمن هو أفضل من المهدي، ومن سائر الأمة سوى أبي بكر رضي الله عنه؛ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد كان من أشد الناس على المسلمين، ثم تحول بقدرة الله وتوفيقه، فصارت شدته على أعداء الإسلام والمسلمين، وأصبح ذلك الرجل العظيم الذي إذا سلك فجًا سلك الشيطان فجًا غيره، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ»[٥]. اهـ.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٣٥).

(٢) «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر»(ص:٢٦٣)، ط. ثانية.

(٣) «نهاية البداية والنهاية»، (١/ ٤٣).

(٤) «من مرقاة المفاتيح»، (٥/ ١٨٠).

(٥) «الرد على من كذَّب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي»، لفضيلة الشيخ عبد المحسن العباد،(ص:٧٩).

• شبهات المكذبين لأحاديث المهدى [1] •

ولقد سلك المكذبون لأحاديث المهدى مسالك شتَّى، وأرادوا الشُبهات التى توافق مذهبهم... وسأذكر بعضها مصحوبًا بالرد عليها ـ بإذن الله ـ:

١ ـ الشبهة الأولى:

وهى قولهم: (التصديق بخروج المهدى من القضايا النظرية فى الدين التى لا يترتب عليها عمل، وما يفيدنى فى دينى إذا صدقت به؟ وماذا يضيرنى إن كذبت به؟).

والجواب على ذلك فى النقاط الآتية:

أولاً: لابد أن نعلم أن هذه الأمور العلمية الخبرية التى أخبر بها الوحى يلزم تصديقها واعتقادها؛ لأنها أصل الدين وجوهر التوحيد.

ثانيًا: إن الإيمان بهذه القضايا من مستلزمات الشهادة بأن محمداً ﷺ رسول الله، والتى تقتضى: طاعته فيما أمره، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبدَ الله إلا بما شرع.

ثالثًا: إن التصديق بها من مستلزمات الإيمان باليوم الآخر؛ لأن أشراط الساعة التى منها خروج المهدى من مقدمات اليوم الآخر.

رابعًا: إن التصديق بخروج المهدى داخل فى الإيمان بالقدر.

خامسًا: إن الإيمان بأشراط الساعة من مقتضيات الإيمان بالغيب، وعليه فمن الإيمان بالغيب: الإيمان بما أخبر به النبى ﷺ عن المهدى الذى يخرج فى آخر الزمان.

٢ ـ الشبهة الثانية:

وهى قولهم: (كيف يملأ المهدى الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا فى سبع سنين فقط، وهذا رسول الله ﷺ مكث ثلاثًا وعشرين سنة، يجاهد ويدعو إلى الله، وما ملأ الأرض كلها عدلاً؟).

والجواب على ذلك فى النقاط الآتية:

أولاً: إن الله تعالى قال: ﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا لا تُقدِّمُوا بين يدى اللَّه ورسُوله﴾ [الحجرات:١].

---

(١) سأذكرها بتصرف من كتاب (المهدى وفقه أشراط الساعة) للشيخ محمد إسماعيل ـ حفظه الله ـ.

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

وكل ما ثبت عن النبى ﷺ أنه أخبر به، فالواجب تصديقه، وأن لا يجد المسلم فى نفسه حرجًا مما أخبر به رسول الله ﷺ، وأن لا يعارض خبره بكيف؟ ولم؟ وهل؟ فإن هذا عنوان فساد العقيدة.

ثانيًا: إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أمرًا هيأ أسبابه، ويسَّر الوصول إليه، وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قد ملأ الأرض قسطًا وعدلاً فى عشر سنين، وقد كانت قد انتشار الإسلام فى خلافته قد مُلئت ظلمًا وجورًا، وهذا عمر بن عبدالعزيز قد ملأ الأرض قسطًا وعدلاً فى سنتين وخمسة أشهر، وأخبر النبى ﷺ أن المهدى يملأ الأرض قسطًا وعدلاً فى سبع سنين، وخبر الصادق المصدوق ﷺ واقع لا محالة، ولا يستبعد وقوعه إلا من يشك فى عموم قدرة الرب تبارك وتعالى، ونفوذ مشيئته.

ثالثًا: إن المهدى سيهيئه الله ويعده لتجديد الدين بأن يصلحه فى ليلة، ثم يؤيده الله تعالى بكرامة خارقة للعادة، وهى أن يُخسف بالجيش الذى يقصده حينما يعوذ بالبيت الحرام.

رابعًا: ومن المعلوم أن ثمار دعوة الأنبياء وآثارها فى العالمين أحد أعلام نبوتهم، وكل ما وقع فى هذه الأرض من آثار نبوة رسول الله، فما وقع من الخلفاء الراشدين، وما سيقع بإذن الله من المهدى، إنما هو أثر من آثار نبوة رسول الله ﷺ، وثمرة من ثمرات بعثه المباركة، وقبس من مشكاة نبوته ﷺ.

٣- الشبهة الثالثة:

ومن أخطر الشبهات التى اعتمد عليها كل من أنكر وجود المهدى أن أحاديث المهدى لم تثبت فى الصحيحين ـ أى البخارى ومسلم ـ وأن تلك الأحاديث قد تسرب إليها كثير من الإسرائيليات.

وأما دعوى أن الشيخين لم يعتدا بشىء من الأحاديث فى المهدى؛ فنقول: إن السنة كلها لم تُدوَّن فى الصحيحين فقط، بل ورد فى غيرهما أحاديث كثيرة صحيحة فى السنن والمسانيد والمعاجم وغيرها من دواوين الحديث.

قال ابن كثير رحمه الله: «إن البخارى ومسلمًا لم يلتزما بإخراج جميع ما يُحكم بصحته من الأحاديث، فإنهما قد صححا أحاديث ليست فى كتابيهما؛ كما ينقل

الترمذي وغيره عن البخاري تصحيح أحاديث ليست عنده، بل في السنن وغيرها»[١].

وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات؛ فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث قد بيَّنوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات، وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين[٢].

٤- الشبهة الرابعة:

وهي قولهم: (الاعتقاد في خروج المهدي خرافة، تسربت إلى أهل السنة من طريق المؤانسة، والمجالسة، والاختلاط بالشيعة، دون أن يكون لها أصل في عقيدتهم).

والجواب على ذلك في النقاط التالية:

أولاً: أن أحاديث المهدي مدونة في كتب السنة الشريفة بأسانيد تنتهي إلى رسول الله ﷺ عن طريق صحابته الكرام رضي الله عنهم، أما أحاديث الشيعة، فهي تنتهي إلى أئمتهم المعصومين في زعمهم. وما صح من الأحاديث الواردة في المهدي عن رسول الله ﷺ لا علاقة له بالشيعة، ولم ينقل عن الشيعة. ثم إن المهدي عند الشيعة هو محمد بن الحسن العسكري صاحب السرداب، أما المهدي عند أهل السنة فهو محمد بن عبد الله.

فعقيدة أهل السنة في المهدي في واد، وعقيدة الشيعة في مهديهم في واد آخر.

ثانيًا: أنه لا يجوز أن ندع حقًا لباطل؛ فكون الرافضة كذبوا في ادعاء المهدية لإمامهم الوهمي لا يسوغ لنا لا عقلاً، ولا نقلاً أن نرفض الأدلة الصحيحة من سنته ﷺ التي تؤكد أن المهدي حقيقة لا خرافة.

ثالثًا: أن دعوى اقتباس السنة التصديق بخروج المهدي من الرافضة لا تستند إلى دليل إلا الظن.

رابعًا: قد تقدم بيان صفة المهدي وأحواله في اعتقاد أهل السنة، يبقى أن نتعرف على

---

(١) «الباعث الحثيث/ شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير» (ص:٢٥)، تأليف أحمد شاكر، طبع دار الكتب العلمية.

(٢) «أشراط الساعة» يوسف الوابل (ص:٢٧٠).

اعتقاد الشيعة فى مهديهم المزعوم:

فهو فى اعتقادهم آخر الأئمة الإثنى عشر المنصوص عليهم.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله فى شأن ذلك المعدوم، الموجود فى خيالاتهم الفاسدة: (إنه الحاضر فى الأمصار، الغائب عن الأبصار، الذى ورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامرا طفلاً صغيراً، من أكثر من خمس مائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر، ولا أمر، وهم ينتظرونه كل يوم يقفون بالخيل على باب السرداب، ويصيحون به أن يخرج إليهم: «اخرج يا مولانا»، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه)، ثم قال: (ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بنى آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل)[1]. اهـ.

ما آن للسرداب أن يلد الذى ... كلمتموه بجهلكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثم العنقاء والغيلانا[2]

فإذا كان الفرق بين المهدى عند الشيعة، والمهدى عند السنة كالفرق بين الثرى والثريا، فكيف يسوغ لنفسه أن يسوى بين الحق والباطل؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

٥- الشبهة الخامسة:

وهى قولهم: (إن الاعتقاد فى خروج المهدى يترتب عليه من المضار، والمفاسد، والفتن، ما يشهد به التاريخ، والواقع، أما اعتقاد بطلانه، وعدم التصديق به، فإنه يجلب الراحة والأمان، والسلامة من الزعازع والفتن.

والجواب على ذلك فى النقاط الآتية:

أولاً: أن الواجب تصديق رسول الله ﷺ فيما يخبر به من أمور الغيب، سواء كانت ماضية أو مستقبلة، موجودة أو غائبة عنا، والذين حكموا بصحة أحاديث المهدى هم العلماء الجهابذة، والنقاد المحققون من أهل الحديث، فلم يبق عذر لمن دونهم فى أن يرد بجهلهم حكمهم، وينازع الأمر أهله.

ثانيًا: أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن المهدى يقيم القسط، ويبسط العدل، ويرفع الجور، ويزيل الظلم، أما الفتن والزعازع، فإنما تكون من الدجالين الكذابين، الذين

---

(١) المنار المنيف (ص:١٥٢، ١٥٣).

(٢) «الصواعق المحرقة» لابن حجر الهيثمى، (ص:١٦٨) والعنقاء: طائر معروف الاسم لا الجسم.

يدعون المهدية.

ثالثًا: أن المضار والمفاسد تترتب ـ أيضًا ـ على التكذيب بالأحاديث الصحيحة؛ مما ينافي الإيمان، قال عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، **وقال الإمام أحمد رحمه الله: «من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة».**

رابعًا: أن إنكار خروج المهدى فى آخر الزمان ليس هو الذى يمنع من وقوع الفتن، ويحصل به الأمن والاطمئنان، بدليل أن الله تعالى قال فى كتابه العزيز: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، **وقال ﷺ: «وأنا خاتم النبيين، لا نبى بعدى»، ومع ذلك وجد كثيرون ممن ادعوا النبوة، وحصل بذلك للمسلمين أضرار كبيرة؛ فقد قاتل المسلمون المتنبئين على دعواهم النبوة، وأراقوا دماءهم، كما وقع مع مسيلمة الكذاب، والأسود العنسى، وطليحة الأسدى، وسجاح، والمختار بن أبى عبيد، وغيرهم من الكذابين الدجالين، الذين كانت لهم شوكة وأتباع.**

أما الأسباب الحقيقية للنجاة من الفتن، فتكمن فى التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ والاعتصام بحبله.

خامسًا: أما زعمهم أن التكذيب بأحاديث المهدى يجلب الراحة والأمان، والسلامة من الزعازع والفتن، فجوابه أن العكس هو الصحيح، فإن الذى يجلب ذلك كله هو الإيمان بكل ما جاء عن الله تعالى، وكل ما ثبت عن رسوله ﷺ والتنزه من الشكوك والأوهام فى أنباء الغيب مما كان، وما سيكون.

٦ـ الشبهة السادسة:

لما عجزوا عن إنكار صحة الأحاديث التى وردت بشأن المهدى قالوا: (نعم، صحت الأحاديث فى إثبات حقيقة المهدى، ولكننا نؤولها بأن المهدى: رمز للخير، والهدى، والصلاح.

والجواب: أن القائلين بهذا التأويل الفاسد هم فى الحقيقة مكذبون لا مثبتون، فمثل هذه الصورة من التأويل الفاسد توأم التكذيب، ورد الحديث.

ناهيك عن الأضرار، والفتن، والمفاسد، التى قد تنشأ عن مثل هذا التأويل، حيث يكثر مدعو المهدية؛ ممن يرى فى نفسه الخير، والهدى، والصلاح، أو يرى الناس فيه ذلك.

وإذا كانت أحاديث المهدى الحقيقى قد استغلت أسوأ الاستغلال من مدعى المهدية، مع أن محورها شخص معين، له صفات محصورة، فماذا نتوقع أن يحصل إذا عممنا صفة المهدى بأنه كل خيِّر، ومهتد، ومصلح؟

• حديث لا يصح •

احتج بعض المنكرين لأحاديث المهدى بالحديث الذى رواه ابن ماجه والحاكم عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارًا، ولا الناس إلا شحًا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا المهدى إلا عيسى بن مريم».

ويُجاب عليهم بأن هذا الحديث ضعيف؛ لأن مداره على محمد بن خالد الجندى، قال الذهبى: «قال الأزدى: منكر الحديث. وقال أبو عبد الله الحاكم: مجهول. قلت ـ القائل الذهبى ـ: حديثه «لا مهدى إلا عيسى بن مريم»، وهو خبر منكر، أخرجه ابن ماجه»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا الحديث ضعيف»[2].

• لا لتعطيل الأسباب بحجة انتظار المهدى •

فمن الناس من يعطل العمل اكتفاء بالأمل، ويهرب من إصلاح الواقع المرير للأمة، بحجة أنه تسبب فيه من قبلنا، وسيصلحه من بعدنا، ويتوقف عن السعى للتمكين لدين الله؛ بحجة أن المهدى هو الذى سيفعل.

إنه هروب إلى الأمانى، مع تعطيل الأسباب الشرعية.

ولقد حثنا الحق (جل وعلا) على العمل والأخذ بالأسباب فقال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

---

(١) ميزان الاعتدال (٣/ ٥٣٥).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/ ٢١١).

وأمر الله مريم عليها السلام أن تأخذ بالأسباب، وهى فى أشد ضعفها، فقال عز وجل: ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾ [مريم:٢٥]، وكان رسول الله ﷺ يعد لكل أمر عدته، ويرسم له خطته، كما حدث فى رحلة الهجرة، فقد أعد الرواحل، والدليل، واختار الرفيق، وحدد مكان الاختفاء إلى أن يهدأ الطلب، وأحاط ذلك كله بسياج من الكتمان، وكذلك كانت سيرته فى غزواته كلها، وعليه ربى أصحابه الكرام، فكانوا يلقون عدوهم متحصنين بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، والبيضة على رأسه، مع أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة:٦٧]، وكان إذا سافر فى جهاد، أو حج، أو عمرة، حمل الزاد والمزاد.

قال ابن القيم رحمه الله: «فحال النبى ﷺ، وحال أصحابه، محك الأحوال، وميزانها، بها يعلم صحيحها من سقيمها، فإن هممهم كانت فى التوكل أعلى من همم من بعدهم»(١).

وعن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(٢).

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ليس فى الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق»(٣).

وندد عمر رضى الله عنه بالكسالى القاعدين عن طلب الرزق: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقنى، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا، ولا فضة، وإن الله تعالى يقول: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ [الجمعة: ١٠].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافى السعى فى الأسباب التى قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها، وجرت سنته فى خلقه بذلك؛ فإن الله تعالى أمر بتعاطى الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعى فى الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به»(٤).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٥).

(٢) رواه أحمد والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٥٤).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٦٦، ٦٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (ص:٤٠٩).

• لابد من العمل لنصرة الإسلام •

قال الشيخ الألبانى رحمه الله رحمة واسعة: لا يجوز للمسلمين اليوم أن يتركوا العمل للإسلام وإقامة دولته على وجه الأرض؛ انتظاراً منهم لخروج المهدى، ونزول عيسى عليهما السلام يأسًا منهم، أو توهمًا أن ذلك غير ممكن قبلهما، فإن هذا توهم باطل، ويأس عاطل؛ فإن الله تعالى أو رسوله ﷺ، لم يخبرنا أن لا عودة للإسلام، ولا سلطان له على وجه الأرض، إلا فى زمانهما، فمن الجائز أن يتحقق ذلك قبلهما إذا أخذ المسلمون بالأسباب الموجبة لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

ولقد كان هذا التوهم من أقوى الأسباب التى حملت بعض الأساتذة المرشدين، والكتاب المعاصرين، على إنكار أحاديث المهدى وعيسى عليهما السلام على كثرتها، وتواترها؛ لما رأوا أنها عند المتوهمين مدعاة للتواكل عليها، وترك العمل لعز الإسلام من أجلها، فأخطئوا فى ذلك أشد الخطأ من وجهين:

الأول: أنهم أقروهم على هذا التوهم؛ على اعتبار أن مصدره تلك الأحاديث المشار إليها، وإلا، لم يبادروا إلى إنكارها.

والآخر: أنهم لم يعرفوا كيف ينبغى عليهم أن يعالجوا التوهم المذكور؟ وذلك بإثبات الأحاديث، وإبطال المفاهيم الخاطئة من حولها ـ إلى أن قال رحمه الله ـ: وكذلك أقول فى أحاديث نزول عيسى عليه السلام وغيرها، فإن الواجب فيها إنما هو الإيمان بها، ورد ما توهمه المتوهمون منها؛ من ترك العمل، والاستعداد الذى يجب القيام به فى كل زمان ومكان، وبذلك نكون قد جمعنا بين صواب هؤلاء وهؤلاء ورددنا باطل هؤلاء وهؤلاء، والله المستعان»[1]. اهـ.

• ستزول الغربة فى زمن المهدى... ولكن •

إن البشريات الغالية التى أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ لتجعل القلب يمتلئ ثقة ويقينًا فى أن غربة الإسلام ستزول ـ إن شاء الله ـ فى زمن المهدى، ولكن هل يعنى ذلك أن نتواكل ولا نقوم بالتكاليف الشرعية ونترك العمل لنصرة هذا الدين؟! كلا، بل علينا

(١) قصة المسيح الدجال، للألبانى (ص:٣٦ ـ ٣٨) بتصرف.

أن نسعى بكل ما نملك لنصرة دين الله (جل وعلا).

قال الشيخ محمد إسماعيل المقدم ـ حفظه الله ـ: ولئن وقع منا تردد في: هل زماننا هو زمان ظهور المهدي؟ فلا ينبغي أن نتردد في الجزم بأننا ـ سواء كان هذا زمان ظهوره أو لا ـ ملزمون بكافة التكاليف الشرعية: من طاعة الله، والجهاد في سبيله، وطلب العلم، والدعوة إلى دينه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في ذلك كله، وغير ذلك من الواجبات، فما يتوهمه بعض الكسالى من أن ظهور المهدي سيكون بداية عصر الاسترخاء والدعة ـ باطل باطل، بل النصوص تشير إلى أنه سيكون بداية للفتوح، والجهاد، والبذل في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل[1].

وسُئل الشيخ عبد الله ابن الصديق سؤالاً نصه:

(إذا كانت القيامة تقوم على المهدي وعيسى، ودين الإسلام حسب ما ذكرنا، فما معنى قوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»؟

فأجاب: (تواتر عن النبي ﷺ أنه قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»[2]، وهو يشير إلى وقتنا هذا؛ فإن الإسلام فيه غريب بمعنى الكلمة، وسيظل كذلك، بل ستزداد غربته إلى أن يأتي المهدي فيظهر الإسلام، ويحيى العدل، وتزول الفتن والإحن بين المسلمين، ويبقى الحال كذلك مدة المهدي، ومدة عيسى عليهما السلام، ثم بعد ذلك تأتي ريح طيبة تأخذ نفس كل مؤمن، فلا يبقى على الأرض من يعرف الله أو يذكره، وإنما يبقى أقوام يتهارجون كما تتهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة كما جاء في صحيح مسلم، وغيره والله أعلم)[3]. اهـ.

• صحوة مباركة قبل ظهور المهدي •

وليكن معلومًا لدى الجميع أن الخلافة الراشدة تعود قبل ظهور المهدي؛ وليس كما يعتقد الناس، وتزعم بعض الجماعات الإسلامية أن الخلافة يرجعها المهدي، وهم ينتظرونه؛ فإن هذا ما لا دليل عليه، بل هو وهم، وخرص، وتخمين.

ومن الأدلة الدامغة على أن الخلافة ترجع قبل هذا الخليفة الصالح أن المسلمين

---

(١) المهدي وفقه أشراط الساعة (ص:٧٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) الإيمان.

(٣) المهدي المنتظر (ص:٥١، ٥٢).

يسترجعون بيت المقدس من اليهود، أي أن بيت المقدس يكون في أيدي المسلمين، وبيت المقدس الآن يرزح تحت نير الاحتلال الصهيوني اليهودي البغيض، فلابد من قيام الخلافة قبل المهدي، لأنها هي السبيل الوحيد لاسترجاع مجد الإسلام التليد»[1]. اهـ.

• عودة الأقصى.. قبل ظهور المهدي •

أجل والله... إن الأقصى سيعود مرة أخرى للمسلمين، ولكن لابد أن نعلم أن الأقصى لن يعود إلا إذا عادت الأمة إلى شرع ربها وسُنة نبيها ﷺ وإلى رفع راية الجهاد في سبيل الله (جل وعلا).

ويقتضي هذا كله أن القتال في فلسطين سيعود إسلاميًا خالصًا في سبيل الله وحده لا قوميًا رغم أنف العلمانيين والقوميين وأذنابهم، ولا يقدر على ردع الشيطان اليهودي سوى نور القرآن؛ يحرقه ويبيده، ولن يهزم شركهم إلا توحيدنا، ولعل تعقيب الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فيه إشارة لطيفة إلى أن سلاح العودة إلى بيت المقدس، وقبلتنا الأولى هو كتاب ربنا لا غير، وعودة الأقصى للمسلمين بالمثابة التي ذكرنا تستلزم قيام خلافة راشدة على منهاج النبوة؛ فقد قال ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون،ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكًا عاضًا؛ (أي وراثيًا)، فيكون جبريًا، (أي قهريًا) فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»[2].

* * *

(١) الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة (ص:٤١ ـ ٥٨) لمؤلفه سليم الهلالي، وزياد الدبيج.

(٢) رواه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما الإمام أحمد (٤/ ٢٧٣) والطيالسي (٤٣٨) في «مسنديهما»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٨٩): رواه أحمد، والبزار أتم منه، والطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات)، وقال الحافظ العراقي: (هذا حديث صحيح)، كما نقله عنه الألباني في «الصحيحة» الحديث الرابع (ص:٩).

• الرد على من زعم أن الخلافة لن تعود قبل ظهور المهدى •

قال الشيخ الألبانى رحمه الله فى معرض رده على من زعم أن دولة الخلافة الإسلامية لن تعود قبل ظهور المهدى:

«واعلم يا أخى المسلم أن كثيرًا من المسلمين اليوم قد انحرفوا عن الصواب فى هذا الموضوع، فمنهم من استقر فى نفسه أن دولة الإسلام لن تقوم إلا بخروج المهدى، وهذه خرافة وضلالة ألقاها الشيطان فى قلوب كثير من العامة، وبخاصة الصوفية منهم، وليس فى شيء من أحاديث المهدى ما يشعر بذلك مطلقًا، بل هى كلها لا تخرج عن أن النبى ﷺ بشَّر المسلمين برجل من أهل بيته، ووصفه بصفات، أبرزها: أنه يحكم بالإسلام، وينشر العدل بين الأنام، فهو لفى الحقيقة من المجددين الذين يبعثهم الله فى رأس كل مائة سنة، كما صح عنه ﷺ، فكما أن ذلك لا يستلزم ترك السعى وراء طلب العلم، والعمل به لتجديد الدين، فكذلك خروج المهدى لا يستلزم التواكل عليه، وترك الاستعداد والعمل لإقامة حكم الله فى الأرض، بل العكس هو الصواب؛ فإن المهدى لن يكون أعظم سعيًا من نبينا محمد ﷺ الذى ظل ثلاثة وعشرين عامًا، وهو يعمل لتوطيد دعائم الإسلام، وإقامة دولته، فماذا عسى أن يفعل المهدى لو خرج اليوم، فوجد المسلمين شيعًا وأحزابًا، وعلماءهم - إلا القليل منهم - اتخذهم الناس رءوسًا، لما استطاع أن يقيم دولة الإسلام إلا بعد أن يوحد كلمتهم، ويجمعهم فى صف واحد، وتحت راية واحدة، وهذا - بلا شك - يحتاج إلى زمن مديد الله أعلم به، فالشرع والعقل معًا يقضيان أن يقوم بهذا الواجب المخلصون من المسلمين، حتى إذا خرج المهدى، لم يكن بحاجة إلا أن يقودهم إلى النصر، وإن لم يخرج، فقد قاموا بواجبهم، والله يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:١٠٥]»[1].

* * *

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٤٢، ٤٣).

• لا بد من التصفية والتربية قبل ظهور المهدى •

قال العلامة ناصر الدين الألبانى رحمه الله فى معرض مناقشته للذين ادعوا اقتراب ظهور المهدى:

«ما أظن أن هذا أوان ظهوره، فهذا مقتضى السنة الكونية، وما أحسب المهدى يقدر - خلال سبع سنين - على أن يحدث من التغيير فى العالم أكثر مما أحدثه رسول الله ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة، وظنى أن المهدى سيكون رجلاً فريداً فى كل باب: فريداً فى علمه، فريداً فى ورعه، فريداً فى عبادته، فريداً فى خُلقه، وأنه سيظهر، وقد تهيأ للعالم الإسلامى وضع صلح فيه أمر الأمة، وتمت فيه مرحلتنا «التصفية والتربية»، ولم يبق إلا ظهور الزعيم المصلح الذى يقوده، وهو المهدى». اهـ.

فعلى هذا لابد أن يهتم الدعاة والمصلحون بتربية هذا الجيل تربية إيمانية كما ربَّى النبى ﷺ أصحابه على النبع الصافى حتى تتهيأ الأمة لاستقبال الزعيم المصلح الذى يقود الأمة بشرع الله وبسنة رسول الله ﷺ فيكون التمكين - بإذن الله - على يديه.

أسأل الله (جل وعلا) أن يعجل بهذا اليوم وأن يجعلنا ممن يشاركون فى بناء الدولة المسلمة، وأن نكون من جنود الخلافة الراشدة، وأن يُقر أعيننا بنصرة الإسلام وعز الموحدين إنه ولى ذلك والقادر عليه.

* * *

• أشراط الساعة الكبرى •

لا تكاد تجد نصًا صريحًا يبين ترتيب أشراط الساعة الكبرى فلقد ذكرها النبى ﷺ أكثر من مرة بترتيب يختلف اختلافًا واضحًا، وهذا يؤكد أن هناك خلافًا فى هذا الترتيب.

وإليكم هذا المثال الذى يُوضح ذلك.

فعن حذيفة بن أسيد الغفارى ـ رضى الله عنه ـ قال: اطَّلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات» فذكر: الدُخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[1].

وروى مسلم هذا الحديث عن حذيفة بن أسيد بلفظ آخر، وهو: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس».

وفى رواية: «والعاشرة: نزول عيسى بن مريم»[2].

فهذا حديث واحد عن صحابى واحد جاء بلفظين مختلفين فى ترتيب الأشراط.

• أشراط الساعة الكبرى تتتابع بسرعة شديدة •

وإذا ظهرت علامة واحدة من علامات الساعة الكبرى فإن باقى العلامات تكون على إثرها فى تتابعٍ شديد.

قال ﷺ: «خروج الآيات بعضُها على إثر بعض يتتابعن كما تتابع الخرز فى النظام»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٢٧ ـ ٢٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) أخرجه مسلم (١٨/ ٢٨ ـ ٢٩) مع شرح النووى.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٢٢٧).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة»[١].

وإليك أخي الكريم وأختي الفاضلة أشراط الساعة الكبرى بإيجاز شديد.

• المسيح الدجال •

وتعالوا بنا لنتعرف على أخطر وأعظم الفتن التي ستمر على البشرية كلها عبر تاريخها الطويل ـ ألا وهي فتنة المسيح الدجال.

• السر في تسميته بالمسيح الدجال •

ولفظة (الدجال): أصبحت علمًا على المسيح الأعور الكذَّاب، فإذا قيل: الدجال؛ فلا يتبادر إلى الذهن غيره.

وسُمِّي الدجَّال مسيحًا؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يومًا[٢].

والقول الأوَّل هو الراجح؛ لما جاء في الحديث: «إن الدَّجَّال ممسوح العين»[٣].

* أما المسيح عيسى (عليه السلام) فسُمي بذلك لأنه كان يمسح المريض فيبرأ بإذن الله (جل وعلا).

وسُمي الدجال دجالاً؛ لأنه يغطي الحق بالباطل، أو لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم، وقيل: لأنه يغطي الأمر بكثرة جموعه. والله أعلم[٤].

• صفات الدجال •

الدجال رجل من بني آدم، له صفات كثيرة جاءت بها الأحاديث؛ لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره، حتى إذا خرج؛ عرفه المؤمنون، فلا يُفتنون به، بل يكونون على علم بصفاته التي أخبر بها الصادق ﷺ، وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس، فلا يغتر به

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٧٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٨/ ٦١) الفتن وأشراط الساعة.

(٤) لسان العرب (١١/ ٢٣٧).

إلا الجاهل الذى سبقت عليه الشقوة،... نسأل الله العافية.

ومن هذه الصفات أنه رجل، شابٌّ أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة[1]، ولا جحراء[2]، كأنها عنبة طافئة، وعينه اليسرى عليها ظفرة[3] غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب، ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له.

* وهذه بعض الأحاديث الصحيحة التى جاء فيها ذكر صفاته السابقة، وهى من الأدلة على ظهور الدجال.

* عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم أطوف بالبيت... (فذكر أنه رأى عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم رأى الدجال، فوصفه، فقال:) فإذا رجل جسيم، أحمر، جعد الرأس، أعور العين، كأن عينه عنبة طافئة؛ قالوا: هذا الدجال أقرب الناس به شبهًا ابن قطن[4]» رجل من خُزاعة[5].

* وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرانى الناس، فقال: «إن الله تعالى ليس بأعور، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى؛ كأن عينه عنبة طافية»[6].

* وفى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مسيح

---

(١) (ناتئة) مأخوذة من النتوء، وهو الارتفاع والانتفاخ؛ أى: أن عينه ليست بارزة. انظر: «ترتيب القاموس» (٤/ ٣١٨)، و«عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٢) (جحراء): بفتح الجيم وسكون الحاء؛ أى: ليست غائرة منجحرة فى نقرتها. انظر: «لسان العرب» (٤/ ١١٨)، و «عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٣) (ظفرة): بفتح الظاء المعجمة والفاء، لحمة تنبت عند المآقى، وقد تمتد إلى السواد فتغشاه. انظر «النهاية فى غريب الحديث» (٣/ ١٥٨). و(المآقى): هو مقدمة العين. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (٤/ ٢٨٩).

(٤) ابن قطن: اسمه عبد العزى بن قطن بن عمرو الخزاعى، وقيل: من بنى المصطلق من خزاعة، وأمه هالة بنت خويلد، وليس له صحبة، فقد هلك فى الجاهلية. وما ورد أنه قال للنبى ﷺ «أيضرنى شبهه؟ قال: لا، أنت مسلم وهو كافر»، فهى زيادة ضعيفة مَن رواية المسعودى عند أحمد، وقد اختلط عليه بحديث آخر. انظر: «تعليق أحمد شاكر على مسند أحمد» (١٥/ ٣٠ ـ ٣١)، وانظر: (الإصابة فى تمييز الصحابة» (٤/ ٢٣٩)، و«فتح البارى» (٦/ ٤٨٨ و١٣/ ١٠١).

(٥) أخرجه البخارى (١٣/ ٩٠) الفتنة ـ ومسلم (٢/ ٢٣٧) الإيمان.

(٦) أخرجه البخارى (١٣/ ٩٠) الفتن ـ ومسلم (١٨/ ٥٩) الفتن.

الدجال رجل، قصير، أفجع، جعد، أعور، مطموس العين، ليس بناتئة ولا جحراء، فإن أُلبس عليكم؛ فاعلموا أن ربكم ليس بأعور»[١].

* وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «وأما مسيح الضلالة؛ فإنه أعور العين، أجلى الجبهة، عريض النحر، فيه دفا[٢]»[٣].

* وفى حديث حذيفة رضى الله عنه؛ قال ﷺ: «الدجال أعور العين اليسرى، جفال الشعر[٤]»[٥].

* وفى حديث أنس رضى الله عنه؛ قال ﷺ: «وإن بين عينيه مكتوب كافر»[٦].

وفى رواية: «ثم تهجاها (ك ف ر)؛ يقرؤه كل مسلم»[٧].

وفى رواية عن حذيفة: «يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»[٨].

* قال النووى: (الصحيح الذى عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية، جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله؛ يُظهرها الله تعالى لكل مسلم؛ كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته،ولا امتناع فى ذلك»[٩].

«فهذا يراه المؤمن بعين بصره، وإن كان لا يعرف الكتابة، ولا يراه الكافر، ولو كان يعرف الكتابة؛ كما يرى المؤمن الأدلة بعين بصيرته، ولا يراها الكافر، فيخلق الله للمؤمن الإدراك دون تعلم؛ لأن ذلك الزمن تنخرق فيه العادات»[١٠].

ومن صفاته أيضًا ما جاء فى حديث فاطمة بنت قيس ـ رضى الله عنها ـ فى قصة الجساسة، وفيه قال تميم ـ رضى الله عنه ـ: «فانطلقنا سراعًا حتى دخلنا الدير، فإذا فيه

(١) رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٦٣٠).
(٢) الدفا: الانحناء ـ ورجل أدفى (بغير همز): فيه انحناء.
(٣) رواه أحمد (١٥/ ٢٨) وصححه أحمد شاكر.
(٤) جفال الشعر: أى كثيره.
(٥) أخرجه مسلم (١٨/ ٦٠) الفتن.
(٦) أخرجه البخارى (١٣/ ٩١) ـ ومسلم (١٨/ ٥٩).
(٧) أخرجه مسلم (١٨/ ٥٩) الفتن.
(٨) أخرجه مسلم (١٨/ ٦١).
(٩) مسلم بشرح النووى (١٨/ ٦٠).
(١٠) فتح البارى (١٣/ ١٠٠).

أعظم إنسان رأيناه قط، وأشده وثاقًا»[١].

* بل وأخبر النبي ﷺ أن الدجال «عقيم لا يولد له»[٢].

• بطلان دعوى الربوبية •

إذا كانت تلك صفات الدجال، وهي صفات بها نقص كبير، فكيف يصح لهذا المخلوق الضعيف دعوى الربوبية، إنه يدعي أنه رب الناس... ورب الناس لا يُرى في الدنيا، يقول ﷺ «تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت»[٣]، ثم هو غير سوي الخلقة، فيه عيوب لا تخفى،... منها عوره.

ومن صفاته المعيبة في الأحاديث أنه أفحج، والفحج «تباعد ما بين الساقين»، أو الفخذين، وقيل تداني صدور القدمين، مع تباعد العقبين، وقيل «هو الذي في رجله اعوجاج»[٤].

وصدق ابن العربي في قوله: «في اختلاف صفات الدجال بما ذكر من النقص بيان أنه لا يدفع النقص عن نفسه كيف كان، وأنه محكوم عليه في نفسه»[٥].

ومراده أنه لو كان ربًا لأزال النقص الذي في نفسه، فعدم إزالته دليل على أنه مربوب مقهور لا يستطيع أن يتخلص من عيوبه.

وتركيز الرسول ﷺ على كونه أعور «لكون العور أثرًا محسوسًا يدركه العالم والعامي، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية»[٦]، وإلا فإن أصحاب العلم يمكن أن يدركوا أمره، ويصلوا إلى حقيقة دعواه[٧].

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٨١) كتاب الفتن ـ باب قصة الجساسة.
(٢) أخرجه مسلم (٤ / ٢٢٤٢).
(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٤٥).
(٤) فتح الباري: (١٣/ ٩٧).
(٥) فتح الباري: (١٣/ ٩٨).
(٦) فتح الباري: (١٣/ ٩٦).
(٧) القيامة الصغرى/ د. عمر الأشقر (ص ٢٣٦: ٢٣٧).

• أكبر فتنة إلى قيام الساعة •

وإن فتنة المسيح الدجال هي أكبر فتنة منذ خلق الله آدم (عليه السلام) وإلى أن تقوم الساعة... وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التى تبهر العقول وتحير الألباب.

* قال ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال» وفى رواية «أمرٌ أكبر من الدجال»[1].

• صور من فتنة المسيح الدجال •

إن الدجال سيدعى أنه إله من دون الله (جل وعلا)... وسيعطيه الله (عز وجل) من القدرات والإمكانات ما يكون سببًا للفتنة ولذا فإنه لا يثبت أمام فتنة الدجال إلا من اعتصم بالله وتسلح بالإيمان والتوحيد.

* وأما عن القدرات والإمكانات التى ستكون مع الدجال... والتى ستكون سببًا فى فتنة أصحاب القلوب المريضة فهى:

١- جنته وناره:

فقد ورد أن معه ما يشبه الجنة والنار أو أن معه ما يشبه نهرًا من ماء ونهرًا من نار... وليس الأمر كما يراه الناس فإن الذى يرونه نارًا فإنما هو ماءٌ بارد وإن الذى يرونه ماءً باردًا فإنه نارٌ.

* قال رسول الله ﷺ: «معه (أى الدجال) جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار»[2].

* وفى صحيحى البخارى ومسلم عن حذيفة أيضًا عن النبى ﷺ قال فى الدجال: «إن معه ماءً ونارًا، فناره ماء بارد، وماؤه نار» زاد فى رواية مسلم: «فلا تهلكوا»[3].

* ولقد أخبرنا النبى ﷺ عن سبيل النجاة من هذه الفتنة فقال ﷺ: «... وإن من فتنته أن معه جنةً ونارًا، فناره جنة، وجنته نارٌ، فمن ابتُلى بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف..»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٤) الفتن.

(٣) أخرجه البخارى (١٣/ ٩٠) الفتن - ومسلم (٢٩٣٤) الفتن.

(٤) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

* وفى رواية عند مسلم فى صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان، أحدهما: رأى العين ماء أبيض، والآخر: رأى العين نار تأجج، فإما أدركن أحد، فليأت الذى يراه ناراً وليغمض، ثم ليطأطئ رأسه فيشرب منه، فإنه ماء بارد»[1].

* وفى رواية أخرى فى صحيح مسلم عن حذيفة أيضًا: «إن الدجال يخرج، وإن معه ماءً وناراً، فأما الذى يراه الناس ماء فنار تحرق، وأما الذى يراه الناس ناراً، فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع فى الذى يراه ناراً، فإنه ماء عذب طيب»[2].

٢- سرعة انتقاله بين البلدان:

ومن فتنة الدجال أنه يتجول بين البلدان بسرعة تفوق الخيال فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ، كما عند مسلم ـ فقالوا: يا رسول الله وما إسراعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح».

ولذلك فهو سيدخل كل بلد على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

٣- استجابة السماء والأرض لأمره!!!

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ويدعو الماشية فتتبعه ويأمر الخرائب أن تُخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

* قال ﷺ: «... فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له. فيأمر السماء فتمطر. والأرض فتنبت. فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر. ثم يأتى القوم. فيدعوهم فيردون عليه قوله. فينصرف عنهم. فيصبحون مُمحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل...»[3].[4]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٤) الفتن.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٥) الفتن

(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٧) الفتن.

(٤) قال الإمام النووى: أما (تروح) فمعناه ترجع آخر النهار، و(السارحة) هى الماشية التى تسرح أى تذهب أول النهار إلى المرعى، وأما (الذرى) وهى الأعالى، و(الأسنمة) جمع ذروة وقوله: (وأسبغه) أى أطوله لكثرة اللبن، وكذا (أمده خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع. قوله ﷺ (فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل) هى ذكور النحل هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون قال القاضى: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه =

• هو أهون على الله من ذلك:

عن المغيرة بن شعبة، قال: ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال أكثر مما سألته. قال: «وما سؤالك؟» قال قلت: إنهم يقولون: معه جبال من خبز ولحم، ونهر من ماء. قال: «هو أهون على الله من ذلك»[(1)].[(2)]

* وهنا نجد أن النبي ﷺ مع أنه أخبر أن الدجال هو أكبر فتنة فى هذا الكون إلا أنه ﷺ يركز على جانب هام من جوانب العقيدة ألا وهو: أنه لن يكون فى هذا الكون إلا ما قدره الله (عز وجل)... فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فمع أن الدجال سيكون معه كل هذه الإمكانات إلا أنه لن يستطيع أن يفعل شيئًا بخلاف ما قدره الله ولذا قال ﷺ عن الدجال: «هو أهون على الله من ذلك» أى أنه لن يستطيع أن يتحكم فى مقادير العباد وإنما هو مجرد فتنة عابرة.

٤- الدجال يستعين بالشياطين:

قال ﷺ: «... وإن من فتنته أن يقول للأعرابى: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أنى ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان فى صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بنى اتبعه، فإنه ربك ..»[(3)].

٥- يقتل شابا ثم يحييه (بإذن الله):

* عن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال: حدثنا رسول الله ﷺ يومًا حديثًا طويلاً عن الدجال. فكان فيما حدثنا قال: «يأتى، وهو مُحرَّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة. فينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة. فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس. فيقول له: أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله ﷺ حديثه: فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، أتشكون فى الأمر؟ فيقولون: لا. قال فيقتله ثم يحييه. فيقول حين يحييه. والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة منى الآن.

= كنّى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم. [مسلم بشرح النووى (١٨/ ٨٩)].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٩) الفتن.

(٢) قال الإمام النووى: قال القاضى: معناه هو أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله تعالى على يده مضلاً للمؤمنين ومشككًا لقلوبهم، بل إنما جعله له ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويثبت الحجة على الكافرين والمنافقين ونحوهم، وليس معناه أنه ليس معه شئ من ذلك. [مسلم بشرح النووى (١٨/ ٩٨ - ٩٩)].

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

قال فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسلَّط عليه»[1].

* وفى رواية قال ﷺ «... وإن من فتنته أن يُسلَّط على نفس واحدة فيقتلها، ينشرها بالمنشار حتى تُلقى شقين، ثم يقول: انظروا إلى عبدى هذا، فإنى أبعثه ثم يزعم أن له ربًا غيرى، فيبعثه الله، ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربى الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت قط أشدَّ بصيرة بك منى اليوم..»[2].

• هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين •

عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فيتوجه قِبَله رجل من المؤمنين. فتلقاه المسالح، مسالح الدجال. فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أَعمد إلى هذا الذى خرج. قال فيقولون له: أوَمَا تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدًا دونه. قال فينطلقون به إلى الدجال. فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذى ذكر رسول الله ﷺ. قال فيأمر الدجال به فيُشبَّح. فيقول: خذوه وشُجُّوه. فيوسع ظهره وبطنه ضربًا. قال فيقول: أوَمَا تؤمن بى؟ قال فيقول: أنت المسيح الكذاب. قال فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه. قال ثم يمشى الدجال بين القطعتين. ثم يقول له: قم فيستوى قائمًا. قال ثم يقول له: أتؤمن بى؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرةً. قال ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدى بأحد من الناس. قال فيأخذه الدجال ليذبحه. فيُجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا. فلا يستطيع إليه سبيلاً. قال فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به. فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار. وإنما أُلقى فى الجنة».

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين»[3].

• الأنبياء يحذرون أقوامهم من فتنة الدجال •

ولأن الأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم) يعلمون يقينًا خطر فتنة الدجال فإنه ما من نبى إلا وقد أنذر قومه من فتنة الدجال.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٨) الفتن.

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٨) الفتن.

ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذره قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، إنه أعور وإن الله ليس بأعور»[1].

* وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر»[2].

• تميم الداري... وخبره العجيب •

عن فاطمة بنت قيس أنها سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة... قالت: فخرجت إلى المسجد. فصليت مع رسول الله ﷺ. فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك. فقال: «ليلزم كل إنسان مُصلاه». ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إني، والله! ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة. ولكن جمعتكم، لأن تميمًا الداري، كان رجلاً نصرانيًا، فجاء فبايع وأسلم. وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال حدثني أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام. فلعب بهم الموج شهرًا في البحر. ثم أرْفَئوا[3] إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس. فجلسوا في أقرُب السفينة[4]. فدخلوا الجزيرة. فلقيتهم دابة أهْلَبُ[5] كثير الشعر. لا يدرون ما قُبُله من دُبره. من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم! انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سمَّت لنا رجلاً فرقنا منها (خفنا) أن تكون شيطانة. قال فانطلقنا سراعًا. حتى دخلنا الدير. فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا. وأشده وثاقًا. مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه، بالحديد قلنا: ويلك! ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري. فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب. ركبنا في سفينة

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٩٠) الفتن.

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٩١) الفتن ـ ومسلم (٢٩٣٣) الفتن.

(٣) التجؤوا إليه.

(٤) أقرب: جمع قارب.

(٥) أهلب: كثير الشعر غليظه.

بحرية. فصادفنا البحر حين اغتلم[١]. فلعب بنا الموج شهراً. ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه. فجلسنا فى أقربها. فدخلنا الجزيرة. فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر. لا يُدرى ما قُبله من دُبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك! ما أنت! فقالت: أنا الجساسة. قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل فى الدير. فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعًا. وفزعنا منها. ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبرونى عن نخل بَيْسَان[٢]. قلنا: عن أى شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر. قال: أخبرونى عن بحيرة الطبرية[٣]. قلنا: عن أى شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هى كثيرة الماء قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب قال: أخبرونى عن عين زُغَر[٤]. قالوا: عن أى شأنها تستخبر؟ قال: هل فى العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم. هى كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبرونى عن نبى الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه. وإنى مخبركم عنى. إنى أنا المسيح. وإنى أوشك أن يؤذن لى فى الخروج. فأخرج فأسير فى الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة. غير مكة وطيبة[٥]. فهما محرمتان علىَّ. كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحدًا منهما، استقبلنى ملك بيده السيف صَلْتًا[٦]. يصدنى عنها. وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته فى المنبر «هذه طَيبة. هذه طيبة. هذه طيبة» يعنى المدينة «ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم. قال: «فإنه أعجبنى حديث تميم أنه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة. ألا إنه فى بحر الشام أو بحر اليمن. لا بل من قبل المشرق ما هو[٧] من قبل

(١) اغتلم: هاج وجاوز حده المعتاد.

(٢) بيسان: إحدى مدن فلسطين.

(٣) بحيرة عذبة الماء فى فلسطين.

(٤) بلدة فى الجانب القبلى من الشام.

(٥) المدينة.

(٦) أى: مسلولاً.

(٧) قال النووى: قال القاضى: لفظة: (ما هو) زائدة، صلة للكلام، ليست بنافية، والمراد إثبات أنه فى جهة المشرق.

المشرق، ما هو. من قبل المشرق، ما هو» وأومأ بيده إلى المشرق... قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ[(١)].

• ابن صياد.. والمسيح الدجال •

ويتبادر إلى ذهن كثير من الناس: هل ابن صياد هو المسيح الدجال أم لا؟

وإليك أخي الكريم نبذة عن ابن صياد لتعرف من هو.

ابن صياد: اسمه صافي ـ وقيل: عبد الله ـ بن صياد أو صائد.

كان من يهود المدينة، وكان صغيراً عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة وترجم له الذهبي في كتابه «تجريد أسماء الصحابة»، فقال: «عبد الله بن صياد، أورده ابن شاهين، وقال: هو ابن صائد، كان أبوه يهوديًا، فولد عبد الله أعور مختونًا، وهو الذي قيل: إنه الدجال، ثم أسلم، فهو تابعي، له رؤية»[(٢)].

* قال الحافظ ابن حجر: «وفي الجملة لا معنى لذكر ابن صياد في الصحابة؛ لأنه إن كان الدجال؛ فليس بصحابي قطعًا، لأنه يموت كافرًا، وإن كان غيره؛ فهو حال لقيه النبي ﷺ لم يكن مسلمًا»[(٣)].

* قال الإمام النووي: قال العلماء: وقصته مشكلة، وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة.

قال العلماء: وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يُوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره، وإنما أُوحي إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره[(٤)].

* * *

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: (٤/ ٢٢٦١) (٢٩٤٢).

(٢) تجريد أسماء الصحابة (١/ ٣١٩) (رقم ٣٣٦٦) للحافظ الذهبي.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة/ للحافظ ابن حجر (٣/ ١٣٣) (رقم ٦٦٠٩).

(٤) مسلم بشرح النووي (١٨/ ٦٤).

• أحوال ابن صياد •

كان ابن صياد دجالاً وكان يتكهن أحيانًا فيصدق ويكذب فانتشر خبره بين الناس، وشاع أنه الدجال كما سيأتى فى ذكر امتحان النبى ﷺ له.

• النبى ﷺ يبحث عن حقيقة ابن صياد •

لما شاع بين الناس أمر ابن صياد، وأنه هو الدجال؛ أراد النبى ﷺ أن يطلع على أمره، ويتبين حاله، فكان يذهب إليه مختفيًا حتى لا يشعر به ابن صياد؛ رجاء أن يسمع منه شيئًا، وكان يوجه إليه بعض الأسئلة التى تكشف عن حقيقته.

ففى الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما: أن عمر انطلق مع النبى ﷺ فى رهط قِبَل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أُطُم[١] بن مَغَالة[٢]، وقد قارب ابن صياد الحلم، فلم يشعر حتى ضرب النبى ﷺ بيده، ثم قال لابن صياد: «أتشهد أنى رسول الله؟». فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد للنبى ﷺ: أتشهد أنى رسول الله؟ فرفضه، وقال: «آمنت بالله وبرسله». فقال له: «ما ترى؟». قال ابن صياد: يأتينى صادق وكاذب. فقال النبى ﷺ «خُلِّط عليك الأمر». ثم قال له النبى ﷺ: «إنى خبأت لك خبيئًا».فقال ابن صياد: هو الدُّخ[٣]. فقال: «اخسأ فلن تعدو قدرك». فقال عمر رضى الله عنه: دعنى يا رسول الله أضرب عنقه. فقال النبى ﷺ: (إن يكنه، فلن تُسلَّط عليه، وإن لم يكنه؛ فلا خير لك فى قتله»[٤].

أى إن يكن ابن صياد هو المسيح الدجال فإنه لن يقتله إلا عيسى ابن مريم (عليه السلام) وإن لم يكن ابن صياد هو المسيح الدجال فلاً خير لك فى قتله.

* وفى رواية أن النبى ﷺ قال له: «ما ترى؟». قال: أرى عرشًا على الماء. فقال رسول الله ﷺ: «ترى عرش إبليس على البحر، وما ترى؟». قال: أرى صادقين وكاذبًا،

---

(١) (أطم)؛ بضمتين: بناء مرتفع كالحصن، وجمعه آطام. انظر: «النهاية فى غريب الحديث» (١/ ٥٤)، و«فتح البارى» (٣/ ٢٢٠).

(٢) (مغالة): بفتح الميم والمعجمة الخفيفة: بطن من الأنصار. «فتح البارى» (٣/ ٢٢٠).

(٣) يريد الدخان لكنه قطعها على طريقة الكهان؛ كما سيأتى بيان ذلك.

(٤) أخرجه البخارى (٣/ ٣١٨) الجنائز.

أو كاذبين وصادقًا. فقال رسول الله ﷺ: «لُبِّس عليه... دعوه»[١].

* وقال ابن عمر رضي الله عنهما: انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأُبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد، وهو يختِل[٢] أن يسمع من ابن صياد شيئًا قبل أن يراه ابن صياد، فرآه النبي ﷺ وهو مضطجع - يعني: في قطيفة له فيها رمزة أو زمرة[٣]، فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صياد: يا صاف - وهو اسم ابن صياد -! هذا محمد ﷺ فثار ابن صياد، فقال النبي ﷺ «لو تركته بيَّن»[٤] - أي وضح أمره.

* وقال أبو ذر رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ بعثني إلى أمه، قال: «سلها كم حملت به؟». فأتيتها، فسألتها، فقالت: حملت به اثني عشر شهراً. قال: ثم أرسلني إليها، فقال: «سلها عن صيحته حين وقع؟». قال: فرجعت إليها، فسألتها، فقالت صاح صيحة الصبي ابن شهر. ثم قال له رسول الله ﷺ: «إني قد خبأت لك خبئًا». قال: خبأت لي خطم شاة عفراء[٥] والدخان. قال: فأراد أن يقول الدخان، فلم يستطع، فقال: الدخ، الدُّخ[٦].

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٤٩ - ٥٠) الفتن.

(٢) قال الإمام النووي: هو بكسر التاء أي يخدع ابن صياد ويستغفله ليسمع من كلامه ويعلم هو والصحابة حاله في أنه كاهن أم ساحر ونحوهما، وفيه كشف أحوال من تخاف مفسدته، وفيه كشف الإمام الأمور المهمة بنفسه [مسلم بشرح النووي (١٨/ ٧٤)].

(٣) (رمزة أو زمرة) على الشك في تقديم الراء على الزاي أو تأخيرها. ومعنى (رمزة): فعلة من الرمز، وهو الإشارة. وأما (زمرة): من الزمر، والمراد حكاية صوته. انظر: «فتح الباري» (٣/ ٢٢٠ - ٢٢١).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٣١٨) الجنائز.

(٥) (خطم شاة) أصل الخطم في السباع مقاديم أنوفها وأفواهها. انظر «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٥٠).
و(العفراء): هي التي لونها غير ناصع كلون عفر الأرض؛ أي: وجهها. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٢٦١).

(٦) «مسند أحمد» (٥/ ١٤٨ - بهامشه منتخب الكنز). قال ابن حجر في سنده: «صحيح». «فتح الباري» (١٣/ ٣٢٥).

• ولماذا اختبره النبي ﷺ بالدخان؟ •

فامتحان النبي ﷺ له بـ (الدخان)؛ ليتعرف على حقيقة أمره.

والمراد بالدخان هنا قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان:١٠]، فقد وقع في رواية ابن عمر عند الإمام أحمد: «إني قد خبأت لك خبيئًا... وخبأ له: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾»[1].

قال ابن كثير: «إن ابن صياد كاشف على طريقة الكهان، بلسان الجان، وهم يقرطون - أي: يقطعون - العبارة، ولهذا قال: هو الدخ، يعني: الدخان، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته، وأنها شيطانية، فقال له: «اخسأ؛ فلن تعدو قدرك»[2].

• هل ابن صياد هو المسيح الدجال؟ •

لقد علمنا أن النبي ﷺ كان يبحث عن حقيقة ابن صياد، ولذلك كان ﷺ متوقفًا في أمره؛ لأن الله لم يوح إليه شيئًا في شأنه.

وكان عمر - رضي الله عنه - يحلف عند النبي ﷺ أن ابن صياد هو الدجال، ولم ينكر عليه ذلك رسول الله ﷺ.

وكان بعض الصحابة - رضي الله عنهم - يرى رأي عمر، ويحلف أن ابن صياد هو الدجال؛ كما ثبت ذلك عن جابر، وابن عمر، وأبي ذر.

وكان ابن صياد يسمع ما يقوله الناس فيه، فيتأذى من ذلك كثيرًا، ويدافع عن نفسه بأنه ليس الدجال، ويحتج على ذلك بأن ما أخبر به النبي ﷺ من صفات الدجال لا تنطبق عليه.

* ولقد اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا في شأن ابن صياد؛ فذهب الإمام الشوكاني وابن حجر والقرطبي والنووي أن ابن صياد هو الدجال، وذهب الإمام ابن تيمية وابن كثير والبيهقي إلى أن ابن صياد ليس هو الدجال.

---

(١) رواه أحمد (٦٣٦٠) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٣٤).

ولذا قال الإمام ابن تيمية: «إن أمر ابن صياد قد أشكل على بعض الصحابة، فظنوه الدجال، وتوقف فيه النبي ﷺ حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، وإنما هو من جنس الكهان أصحاب الأحوال الشيطانية، ولذلك كان يذهب ليختبره»[١].

وقال ابن كثير: «والمقصود أن ابن صياد ليس بالدجال الذي يخرج في آخر الزمان قطعًا، لحديث فاطمة بنت قيس الفهرية، وهو فيصل في هذا المقام»[٢].

ـ يقصد حديث تميم الداري وقصة الجساسة وذلك عندما رأوا المسيح الدجال.

• ابن صياد ينتفخ حتى يملأ السكة •

عن نافع، قال: لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة. فقال له قولا أغضبه. فانتفخ حتى ملأ السكة. فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها. فقالت له: رحمك الله! ما أردت من ابن صائد؟ أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «إنما يخرج من غضبة يغضبها»[٣].

* وفي رواية أن ابن عمر (رضي الله عنهما) لقي ابن صياد وقد نفرت عينه وأصبحت بارزة وناتئة فقال له: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري. قال قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه قال فنخر كأشد نخير حمار سمعت. قال فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصًا كانت معي حتى تكسرت. وأما أنا، فوالله! ما شعرت... وجاء (ابن عمر) حتى دخل على أم المؤمنين فحدثها فقالت: ما تريد إليه؟ ألم تعلم أنه قد قال: «إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه»[٤].

ـ وكأنها كانت تحذره من أن يُغضبه لئلا يكون هو الدجال فيخرج من تلك الغضبة فيُفسد في الأرض.

* * *

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ٧٧).

(٢) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٧٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٢) الفتن.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٣٢) (٩٩) الفتن.

• قصة ابن صياد مع أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) •

عن أبى سعيد الخدرى قال: خرجنا حجاجًا أو عماراً ومعنا ابن صائد. قال فنزلنا منزلاً. فتفرق الناس وبقيت أنا وهو. فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه. قال وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعى. فقلت: إن الحر شديد. فلو وضعته تحت تلك الشجرة. قال ففعل. قال فرفعت لنا غنم. فانطلق فجاء بعُسٍّ. فقال: اشرب. أبا سعيد! فقلت: إن الحر شديد واللبن حار. ما بى إلا أنى أكره أن أشرب عن يده ـ أو قال آخذ عن يده ـ فقال: أبا سعيد! لقد هممت أن آخذ حبلا فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول لى الناس، يا أبا سعيد! من خفى عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفى عليكم، معشر الأنصار! ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو كافر» وأنا مسلم؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: «هو عقيم لا يولد له» وقد تركت ولدى بالمدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المدينة ولا مكة» وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة؟.

قال أبو سعيد الخدرى: حتى كدت أن أعذره. ثم قال: أما، والله! إنى لأعرفه، وأعرف مولده وأين هو الآن. قال قلت له: تبا لك. سائر اليوم[(١)].

* وفى رواية: قال فما زال حتى كاد أن يأخذ فى قوله. قال فقال له: أما والله! إنى لأعلم الآن حيث هو. وأعرف أباه وأمه. قال وقيل له: أيسرك أنك ذاك الرجل؟ قال فقال لو عرض على ما كرهت[(٢)].

• وفاة ابن صياد •

وقد مكث ابن صائد بعد الرسول مدة من الزمن، وادعى أنه أسلم، ولكن الناس لم يثقوا بإسلامه، وبقوا يتشككون فى أمره.

* وفى معركة (الحرة) التى كانت بين (الحجاج) وبين أهل المدينة فقدوا ابن صياد فلم يجدوه فى القتلى أو الأسرى ـ أى أنه اختفى منذ تلك اللحظة ولم يره أحد بعدها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٧) (٩١) الفتن.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٢٧) (٩٠) الفتن.

عن جابر رضى الله عنه قال: «فقدنا ابن صياد يوم الحرة»[(١)].

وقد صحح ابن حجر هذه الرواية، وضعَّف قول من ذهب إلى أنه مات فى المدينة، وأنهم كشفوا عن وجهه، وصلوا عليه[(٢)].

• حال المسلمين فى العصر الذى يخرج فيه الدجال •

قبيل خروج الدجال يكون للمسلمين شأن كبير، وقوة عظيمة، ويبدو أن خروجه إنما هو للقضاء على تلك القوة، ففى ذلك الوقت يصالح المسلمون الروم، ويغزون جميعًا عدوًا مشتركًا فيُنصرون عليه، ثم تثور الحرب بين المسلمين والصليبيين.

ففى سنن أبى داود عن ذى مخبر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحًا آمنا، فتغزون أنتم وهم عدوًا من ورائكم، فتُنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون، حتى تنزلوا بمرج ذى تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة،... وزاد بعضهم: «فيثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة»[(٣)].

فأنت ترى قوة المسلمين فى ذلك الوقت، حيث إنهم يغزون ويُنصرون ويغنمون ويرجعون سالمين وترى إلى أى مدى هم متمسكون بدينهم، فإن ذلك الصليبى عندما يرفع الصليب زاعمًا أن الانتصار الذى شارك المسلمون فى تحقيقه كان للصليب، يقوم مسلم غيور على دينه فيدق ذلك الصليب ويكسره، وتثور العصابة التى تكون فى ذلك الموقع من المسلمين إلى سلاحهم، ويقاتلون الروم على الرغم من قلتهم فى ذلك الموقع، ويشهد الرسول ﷺ لهم بأنهم شهداء، وأن الله أكرمهم بذلك، ويكون غدر الروم ذلك، وما جرى بعده سببًا فى وقوع الملحمة[(٤)].

* * *

(١) «سنن أبى داود» (١١/ ٤٧٦ ـ مع عون المعبود).

(٢) انظر: «فتح البارى» (١٣/ ٣٢٨).

(٣) صحح إسناده الشيخ الألبانى فى مشكاة المصابيح (٥٤٢٨).

(٤) القيامة الصغرى (٢٢٦: ٢٢٧).

• النبي ﷺ يصف تلك الملحمة •

ولقد وصف النبي ﷺ تلك الملحمة التي ستدور بين المسلمين والصليبيين... والتي سيكون سببها هو السبب الذي أشار إليه في الحديث السابق.. فتأمل معي كيف وصف النبي ﷺ هول تلك الملحمة وشدتها وكيف ثبت فيها المسلمون حتى جاءهم نصر الله (جل وعلا).

* قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق. فيخرج إليهم جيش من المدينة. من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سُبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا. والله! لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم. فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا. ويُقتل ثلثهم، أفضل الشهداء عند الله. ويفتتح الثلث. لا يُفتنون أبدًا. فيفتحون قسطنطينية. فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون... وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج. فبينما هم يُعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فينزل عيسى ابن مريم (ﷺ). فأمّهم. فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء. فلو تركه لانذاب حتى يهلك. ولكن يقتله الله بيده. فيُريهم دمه في حربته»(١).

* وقد حدثنا الرسول ﷺ في حديث آخر عن هول تلك المعركة، وعن الفدائية التي تكون في صفوف المسلمين، حتى إن مجموعات من المسلمين يتبايعون على القتال حتى النصر أو الموت ثلاثة أيام متوالية، ويبدو أن أعداد المسلمين في تلك الأيام قليلة، بدليل أن المسلمين ينتصرون عندما يصلهم المدد من بقية أهل الإسلام(٢).

* عن يسير بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل ليس له هجيرى إلا: يا عبد الله بن مسعود! جاءت الساعة. قال فقعد وكان متكئًا. فقال: إن الساعة لا تقوم، حتى لا يُقسم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة. ثم قال بيده هكذا (ونحّاها نحو الشام) فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٧) (٣٤) الفتن.

(٢) القيامة الصغرى (ص: ٢٢٨).

نعم. وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة. فيشترط المسلمون شُرطة للموت لا ترجع إلا غالبة. فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل. فيفيء هؤلاء وهؤلاء. كلٌ غير غالب. وتفنى الشرطة. ثم يشترط المسلمون شرطة للموت. لا ترجع إلا غالبة. فيقتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة ليقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة.فإذا كان يوم الرابع، نهد إليهم بقية أهل الإسلام. فيجعل الله الدَّبرة عليهم. فيقتلون مقتلة لم يُر مثلها حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم، فما يخلفهم حتى يخر ميتًا. فيتعادُّ بنو الأب، كانوا مائة فلا يجدونه بقى منهم إلا الرجل الواحد. فبأى غنيمة يفرح، أو ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا بيأس، هو أكبر من ذلك. فجاءهم الصريخ، إن الدجال قد خلفهم فى ذراريهم. فيرفضون ما فى أيديهم. ويُقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة... قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم. هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ. أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»[1].

• متى سيظهر الدجال؟ •

ويظهر الدجال بعدما يفتح المسلمون القسطنطينية.. ولذا قال ﷺ: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال»[2].

* ووضح النبى ﷺ كيف يفتح المسلمون القسطنطينية وكيف يظهر الدجال بعد فتحها.

* عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «سمعتم بمدينة جانب منها فى البر وجانب منها فى البحر؟» قالوا: نعم يا رسول الله ! قال: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بنى إسحاق. فإذا جاءوها نزلوا. فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم. قالوا: لا إله إلا الله والله اكبر . فيسقط أحد جانبيها. الذى فى البحر. ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٩) (٣٧) الفتن.

(٢) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٩٦).

والله أكبر. فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيُفرج لهم. فيدخلوها فيغنموا. فبينما هم يقتسمون المغانم، إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج. فيتركون كل شئ ويرجعون»[1].

● قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد ●

وقبل خروج الدجال بثلاث سنوات يحدث جدب وقحط شديد فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «... وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثانية فتحبس ثلثى مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثى نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا يبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله، قيل: فما يعيش الناس فى ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتحميد، ويجزئ ذلك عليهم مجزأة الطعام»[2].

● من أين يخرج الدجال؟ ●

يخرج الدجال من المشرق؛ من خُراسان، من يهودية أصبهان، ثم يسير فى الأرض، فلا يترك بلدًا إلا دخله؛ إلا مكة والمدينة، فلا يستطيع دخولهما؛ لأن الملائكة تحرسهما.

* عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدجال يخرج من أرض بالمشرق؛ يقال لها: خراسان»[3].

* وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال من يهودية أصبهان، معه سبعون ألفًا من اليهود»[4].

* قال الحافظ ابن حجر: «وأما من أين يخرج؟ فمن قِبَل المشرق جزمًا»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٠) الفتن.

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٠٤).

(٤) رواه أحمد وقال ابن حجر: صحيح [فتح البارى (١٣/ ٣٢٨)].

(٥) «فتح البارى» (١٣/ ٩١).

وقال ابن كثير: (فيكون بدء ظهوره من أصبهان، من حارة يقال لها: اليهودية)[١].

ولكن ظهور أمره للمسلمين يكون عندما يصل إلى مكان بين العراق والشام.

ففي حديث في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان يرفعه: «إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا»[٢]. والخلة ما بين البلدين كما يقول الإمام النووي.

• أتباع الدجال •

أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك، وأخلاط من الناس، غالبهم الأعراب والنساء.

روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة»[٣].

وفي رواية للإمام أحمد: «سبعون ألفا عليهم التيجان»[٤].

* واسم الدجال عند اليهود المسيح بن داود، وهم يزعمون أنه يخرج آخر الزمان، فيبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار، وهم يزعمون أنه آية من آيات الله، يرد إليهم الملك[٥].

* وأما كون أكثر أتباعه من الأعراب؛ فلأن الجهل غالب عليهم، ولما جاء في حديث أبي أمامة الطويل قوله ﷺ: «وإن من فتنته ـ أي: الدجال ـ أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك؛ أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له الشيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك»[٦].

* وأما النساء؛ فحالهن أشد من حال الأعراب، لسرعة تأثرهن، وغلبة الجهل عليهن.

---

(١) «النهاية/ الفتن والملاحم» (١/ ١٢٨)، تحقيق د. طه زيني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) الفتن.

(٣) أخرجه مسلم (١٨/ ٨٥) الفتن.

(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح ـ انظر فتح الباري (١٣/ ٢٣٨).

(٥) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١١٢).

(٦) رواه ابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

* ففي الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما؛ قال: قال النبي ﷺ: «ينزل الدجال في هذه السبخة بمرقناة[1]، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل يرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطًا؛ مخافة أن تخرج إليه»[2].

• كم يمكث الدجال في الأرض؟ •

ولقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن المدة التي يمكثها المسيح الدجال في الأرض فقالوا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يومًا. يوم كسنة ويوم كشهر. ويوم كجمعة. وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا... اقدروا له قدره»[3].

قال الإمام النووي: قال العلماء: هذا الحديث على ظاهره وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور في الحديث يدل عليه قوله ﷺ. وسائر أيامه كأيامكم[4].

• هكذا يكون الحرص على الدين •

وتأملوا معي كيف أن النبي ﷺ لما أخبر أصحابه بأن الدجال سيمكث أربعين يومًا ـ منهم يوم كسنة ـ وإذا بأصحابه يسألونه عن الصلاة ويقولون: أتكفينا فيه صلاة يوم؟... فهذا الذي يشغلهم وذلك لأن الدين هو قضيتهم الأولى والأخيرة (رضى الله عنهم وأرضاهم)

• ملائكة الرحمن تحرس مكة والمدينة من الدجال •

ولقد حرم الله (جل وعلا) على الدجال دخول مكة والمدينة. فإن الله حمى مكة والمدينة من الدجال والطاعون.

---

(١) (مرقناة): واد بالمدينة يأتي من الطائف، ويمر بطرف القدوم في أصل قبول الشهداء بأحد، انظر «معجم البلدان» (٤/ ٤٠١).

(٢) رواه أحمد (٥٣٥٣) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٧) (١١٠) الفتن.

(٤) مسلم بشرح النووي (١٨/ ٨٨).

* قال ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»[١].

وروى البخارى أيضًا عن أنس يرفعه: «لا يدخل المدينة رعب المسيح، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»[٢].

وفى سنن الترمذى، ومسند أحمد عن أبى هريرة «يأتى المسيح من قِبل المشرق، وهمته المدينة، حتى إذا جاء دُبر أُحد تلقته الملائكة، فضربت وجهه قِبل الشام، هنالك يهلك، هنالك يهلك»[٣].

وفى حديث فاطمة بنت قيس ـ رضى الله عنها ـ أن الدجال قال: «فأخرج، فأسير فى الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة، غير مكة وطيبة (المدينة) فهما محرمتان علىَّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة ـ أو واحدًا ـ منهما؛ استقبلنى ملك بيده السيف صلتا يصدنى عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها»[٤].

وثبت أيضا أن الدجال لا يدخل أربعة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد الطور، والمسجد الأقصى.

* قال ﷺ عن الدجال: «وإنه يمكث فى الأرض أربعين صباحًا، يبلغ فيها كل منهل، ولا يقرب أربعة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد الطور، ومسجد الأقصى»[٥].

• وكيف يخرج المنافقون من المدينة •

فإذا عجز الدجال عن دخول مكة والمدينة فلا بد أن يخرج إليه المنافقون حتى يتبعوه... ولذا أخبرنا النبى ﷺ عن كيفية خروج المنافقين من المدينة المنورة فقال ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه

---

(١) أخرجه البخارى (١٣/ ١٠١) الفتن.

(٢) أخرجه البخارى (١٣/ ٩٠) الفتن.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ٣٧٢)، ورقمه (١٧٧١)، وقال المحقق: وإسناده على شرط مسلم، وقد أخرجه مسلم مفرقًا فى موضعين.

(٤) أخرجه مسلم (١٨/ ٨٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٥) رواه أحمد وقال ابن حجر: رجاله ثقات [فتح البارى (١٣/ ١٠٥)].

الملائكة حافين، تحرسها، فينزل بالسبخة[١] فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق»[٢].

* وقال ﷺ: «.... وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، لا يأتيهما من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة، حتى ينزل عند الضريب الأحمر، عند منقطع السبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفى الخبيث منها، كما ينفي الكير خَبث الحديد، ويُدعى ذلك اليوم يوم الخلاص، قيل: فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل،...»[٣].

• نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان •

بعد خروج الدَّجَّال، وإفساده في الأرض، يبعث الله عيسى عليه السلام، فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام، وعليه مهروَدتان[٤]، واضعًا كفَّيْه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمانٌ كاللؤلؤ، ولا يَحِلُّ لكافرٍ يجدُ ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُهُ ينتهي حيث ينتهي طرفه.

ويكون نزوله على الطائفة المنصورة، التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدَّجَّال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلي خلف أمير تلك الطائفة.

قال ابن كثير: هذا هو الأشهر في موضع نزوله أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق.

وذكر ابن كثير أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبعمائة جدَّد المسلمون منارة من حجارة بيض، وكان بناؤها من أموال النصارى الذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها، ولعلَّ هذا يكون من دلائل النبوَّة الظاهرة،حيث قيَّض الله بناء هذه المنارة من أموال النصارى، لينزل عيسى ابن مريم عليها، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل منهم

---

(١) السبخة: الأرض الرملية التي لا تنبت لملوحتها، وبعض أراضي المدينة كذلك.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٤) مهرودتان: روي بالدال المهملة والذال المعجمة، والمهملة أكثر، والمعنى: لابس مهرودتين؛ أي ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران. انظر: «شرح النووي لمسلم» (١٨/ ٦٧).

جزية، ولكن من أسلم وإلا قُتِل، وكذلك غيرهم من الكفار[١].

ففي حديث النواس بن سمعان الطويل في ذكر خروج الدَّجَّال ثم نزول عيسى عليه السلام قال ﷺ: «إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّرَ منه جُمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه - أي: يطلب الدَّجَّال - حتى يدركه بباب لُد، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح وجوههم، ويحدثُهم بدرجاتهم في الجنة»[٢].

• صفة عيسى (عليه السلام) •

ولقد وصفه النبي ﷺ وصفا دقيقًا حتى إذا رأيناه عرفناه.

* وصفة عيسى (عليه السلام) التي جاءت في تلك الروايات تفيد أنه رجلٌ مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أحمر، جعدٌ، عريض الصدر، سبط الشعر، كأنما خرج من ديماس - أي: حمَّام - له لمة[٣] قد رجَّلها تملأ ما بين منكبيه.

الأحاديث الواردة في ذلك:

منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أُسري بي لقيت موسى.. (فنعتَهُ إلى أن قال:) ولقيتُ عيسى.. (فنعته فقال:) ربعةٌ، أحمرُ، كأنما خرج من ديماس (يعني: الحمَّام)»[٤].

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى؛ فأحمر جعدٌ عريضُ الصَّدر»[٥].

وروى مسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨/ ٦٧ - ٦٨) الفتن وأشراط الساعة.

(٣) (اللمة)؛ بكسر اللام: شعر الرأس. يقال له إذا جاوز شحمة الأذنين: لمة وإذا زاد عن ذلك فهو: جمة. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٢٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٧٦) أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢/ ٢٣٢).

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٤٧٧) أحاديث الأنبياء.

الحجر وقريشٌ تسألني..(فذكر الحديث، وفيه:) وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائمٌ يصلي، أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفي»[١].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أراني ليلة عند الكعبة، فرأيت رجلاً آدم[٢] كأحسن ما أنت راءٍ من أدم الرجال».

* والجمع بين هذه الروايات من كونه في بعضها أحمر، وبعضها آدم، وما جاء أنه سبط الشعر، وفي بعضها بأنه جعد:

إنه لا منافاة بين الحُمرة والأُدْمَة؛ لجواز أن تكون أدمته صافية[٣].

وأما كونه في رواية سبط الشعر، وفي أخرى أنه جعدٌ، والجعد ضد السبط، فيمكن أن يجمع بينهما بأنه سبط الشعر، وأما وصفه بأنه جعدٌ؛ فالمراد بذلك جعودةٌ في جسمه لا شعره، وهو اجتماع اللحم واكتنازه[٤].

• وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته •

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٩].

عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى عليه السلام. وقال أبو مالك: ذلك عند نزول عيسى وقبل موته عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به وهذا القول هو الحق، وقيلت تفاسير شتى في تفسير هذه الآية ولكن أولى الأقوال بالصحة القول الأول وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام. وهذا هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادّعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة في ذلك، فأخبر الله أنه

---

(١) هو الصحابي الجليل عروة بن مسعود الثقفي.

(٢) (آدم): الآدم هو الأسمر الشديد السمرة، وقيل: هو من أدمة الأرض؛ أي: لونها، وبه سمي آدم عليه السلام. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٣٢).

(٣) «الإشاعة» (ص١٤٣).

(٤) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٨٦).

لم يكن الأمر كذلك، وإنّما شُبِّه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٌّ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف. والمراد بهذا الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، ليكذب هؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه، وتصادمت وتعاكست، وتناقضت، وخلت من الحق، ففرط هؤلاء اليهود، وأفرط هؤلاء النصارى، تنقصّه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم، وأطراه النصارى بحيث ادّعوا فيه ما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً، وتنزّه وتقدس لا إله الا هو[1].

• أدلة نزوله (عليه السلام) من القرآن الكريم •

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ثابتٌ في الكتاب والسُّنَّة الصحيحة المتواترة، وذلك علامة من علامات الساعة الكبرى.

قال الله تعالى: ﴿ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٥٧ ـ ٦١].

أي: نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة علامةٌ على قرب الساعة ويدلُّ على ذلك القراءة الأخرى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾؛ بفتح العين واللام؛ «أي: علامة وأمارة على قيام الساعة، وهذه القراءة مرويّةٌ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من أئمة التفسير»[2].

وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ ؛ قال: «هو خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣) بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ١٠٥) تفسير الطبري (٢٥/ ٩٠ ـ ٩١).

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٢٩) (ح ٢٩٢١) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

يكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٧ ـ ١٥٩].

فهذه الآيات؛ كما أنها تدلُّ على أن اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السلام، ولم يصلبوه، بل رفعه الله إلى السماء؛ كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥].

فإنها تدلُّ على أنَّ من أهل الكتاب مَن سيؤمن بعيسى عليه السلام آخر الزمان، وذلك عند نزوله[1] وقبل موته؛ كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة الصحيحة.

• أدلة نزوله من السنة المطهرة •

إن الأدلة على نزوله في آخر الزمان كثيرة ومتواترة:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها».

ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتُم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[2].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أُمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة؛ قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ، فيقول أميرُهم: صلِّ لنا. فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة»[3].

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتَّى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه؛ فاعرفوه»[4].

---

(١) نزولاً حقيقًا بروحه وجسده.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٩٠ ـ ٤٩١) مع الفتح ـ ومسلم (٢/ ١٨٩ ـ ١٩١) مع شرح النووي.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤) مع شرح النووي ـ باب نزول عيسى ابن مريم ﷺ حاكمًا.

(٤) رواه أحمد (٢/ ٤٠٦) والحاكم (٢/ ٥٩٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

• الحكمة فى نزول عيسى (عليه السلام) دون غيره •

تلمَّس بعض العلماء الحكمة فى نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان دون غيره من الأنبياء، ولهم فى ذلك عدة أقوال:

١ ـ الردُّ على اليهود فى زعمهم أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فبيَّن الله تعالى كذبهم، وأنه الذى يقتلهم ويقتل رئيسهم الدَّجَّال.

ورجَّحَ الحافظ ابن حجر هذا القول على غيره.

٢ ـ إن عيسى عليه السلام وجد فى الإنجيل فضل أمة محمد ﷺ ؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح:٢٩]، فدعا الله أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه، وأبقاه حتى ينزل آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام.

قال الإمام مالك رحمه الله: «بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا»[1].

وقال ابن كثير: «وصدقوا فى ذلك؛ فإن هذه الأمة معظَّمة فى الكتب المتقدمة والأخبار المتداولة»[2].

وقد ترجم الإمام الذهبى لعيسى عليه السلام فى كتابه «تجريد أسماء الصحابة»، فقال: «عيسى بن مريم عليه السلام صحابىٌّ؛ ونبىٌّ؛ فإنه رأى النبىَّ ﷺ ليلة الإسراء، وسلَّم عليه، فهو آخر الصحابة موتًا»[3].

٣ ـ إن نزول عيسى عليه السلام من السماء؛ لدُنُوِّ أجله، ليُدفنَ فى الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت فى غيرها، فيوافق نزوله خروج الدجال، فيقتله عيسى عليه السلام.

٤ ـ إنه ينزل مكذبًا للنصارى، فيُظهر زيفهم فى دعواهم الأباطيل، ويُهلك الله المللَ كلها فى زمنه إلا الإسلام؛ فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.

---

(١) (٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٣).

(٣) تجريد أسماء الصحابة (١/ ٤٣٢).

٥ ـ إن خصوصيته بهذه الأمور المذكورة لقول النبى ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، ليس بينى وبينه نبىٌّ»[(١)].

فرسول الله ﷺ أخص الناس به، وأقربهم إليه؛ فإن عيسى بشَّر بأن رسول الله ﷺ يأتى من بعده، ودعا الخلق إلى تصديقه والإيمان به[(٢)]؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وفى الحديث: «قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك؟ قال: نعم؛ أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى»[(٣)].

• هلاك الدجال على يديه •

يكون هلاك الدَّجَّال على يدى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك أنَّ الدجال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه، وتعمُّ فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين، وعند ذلك ينزل عيسى بن مريم عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عبادُ الله المؤمنون، فيسير بهم قاصدًا المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى متوجهًا نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لُد)[(٤)]، فإذا رآه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح، فيقول له عيسى عليه السلام: «إن لى فيك ضربة لن تفوتنى»، فيتداركه عيسى، فيقتله بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودىٌّ خلفى، تعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود[(٥)].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال فى خفقة من الدين وإدبار من العلم.. (فذكر الحديث، وفيه:) ثم ينزل عيسى بن

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨) مع الفتح ـ ومسلم (١٥/ ١١٩) مع شرح النووى.

(٢) المنهاج فى شُعب الإيمان (١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥) للحليمى ـ وفتح البارى (٦/ ٤٩٣).

(٣) قال ابن كثير فى إسناده: «هذا إسناد جيد»، وروى له شواهد من وجوه أخر، رواها الإمام أحمد فى «المسند». «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٦)، و«مسند الإمام أحمد» (٤/ ١٢٧ و٥/ ٢٦٢ ـ بهامشه منتخب الكنز).

(٤) (لُد): بلدة فى فلسطين قرب بيت المقدس. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ١٥).

(٥) انظر: «النهاية فى الفتن والملاحم» (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩)، تحقيق د. طه زينى.

مريم، فينادى من السَّحَر، فيقول: أيها الناس! ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذَّاب الخبيث.

فيقولون: هذا رجلٌ جنىٌّ. فينطلقون، فإذا هم بعيسى بن مريم ﷺ، فتقام الصلاة، فيُقال له: تقدَّم يا روح الله! فيقول: ليتقدَّم إمامُكُم، فليصلِّ بكم، فإذا صلَّى صلاة الصبح؛ خرجوا إليه. قال: فحين يرى الكذاب ينماث[1] كما ينماث الملح فى الماء، فيمشى إليه فيقتله، حتى إنَّ الشجر والحجر ينادى: يا روح الله! هذا يهودىٌّ، فلا يَتْرُكُ مِمَّن كان يتبعه أحدًا إلا قتله»[2].

وبقتله ـ لعنه الله ـ تنتهى فتنته العظيمة، وينجى الله الذى آمنوا من شره وشر أتباعه على يدى روح الله وكلمته عيسى بن مريم عليه السلام وأتباعه المؤمنين.

• بماذا يحكم عيسى (عليه السلام)؟ •

يحكم بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد ﷺ، فإنه لا ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة، لا يُنسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجِّددًا لأمر الإسلام، إذ لا نبى بعد محمد ﷺ.

فمرحى بأمة رسول الله ﷺ نبيها أعظم الأنبياء، وآخر مجدديها نبى على ملة رسول الله وشريعته، بل آخر صحابى نبى.

• عيسى (عليه السلام) يحج إلى بيت الله الحرام •

عن حنظلة الأسلمى قال: سمعت أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ يحدِّث عن النبى ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده ليُهلَّن ابن مريم بفجِّ الروحاء[3] حاجًا أو معتمرًا أو ليثنِّيَنَّهما»[4]. أى يجمع بين الحج والعمرة.

---

(١) (ماث الشىء ميثًا) أى: مرسه. وماث الملح فى الماء؛ أى: أذابه. انظر: «لسان العرب» (٢/ ١٩٢).

(٢) «الفتح الربانى ترتيب مسند أحمد» (٢٤/ ٨٥ ـ ٨٦) قال الهيثمى: «رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح». انظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤٤).

(٣) فج الروحاء: موضع بين مكة والمدينة.

(٤) مسلم بشرح النووى (٨/ ٢٣٤) كتاب الحج ـ باب جواز التمتع فى الحج والقرآن.

• وضعه للجزية ليس نسخًا لحكم الجزية •

أما وضع عيسى - عليه السلام - الجزية عن الكفار - مع أنها مشروعة في الإسلام قبل نزوله عليه السلام -؛ فليس هذا نسخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيَّد بنزول عيسى عليه السلام بإخبار نبينا محمد ﷺ فهو المبيِّن للنَّسخ[1] بقوله لنا: «والله لينزلَنَّ ابنُ مريم حكمًا عدلاً، فليكسرنَّ الصليب، وليقتلنَّ الخنزير، وليضعنَّ الجزية»[2].

• انتشار الأمن وظهور البركات في عهده (عليه السلام) •

ولأن الكون كله قد أسلم واستسلم لله - جل وعلا - فإن الإنسان كلما ازداد طاعة لله كلما سخَّر الله له الكون كله.

ولذلك فعند نزول عيسى - عليه السلام - يعلم الناس أن نزوله علامة على قُرب القيامة فينشغل الناس جميعًا بالعبادات والطاعات فيأمر الله الأرض أن تُخرج بركتها ويأمر السماء أن تُنزل بركتها فيفيض المال ولا يجد من يأخذه وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد.

• طوبى لعيش بعد المسيح •

* قال ﷺ: «طوبى لعيش بعد المسيح، يؤذَن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات، حتى لو بذرت حبَّك على الصفا لنبت، وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره، ويطأ على الحية فلا تضره... ولا تشاحَّ، ولا تحاسد ولا تباغض»[3].

• فضل الذين يصحبون عيسى (عليه السلام) •

* قال النبي ﷺ: «عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار، عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم»[4].

---

(١) انظر «فتح الباري» (٦/ ٤٩٢).

(٢) «صحيح مسلم»، باب نزول عيسى عليه السلام حاكمًا، (٢/ ٢٩٢ - مع شرح النووي).

(٣) رواه أبو سعيد النقاش في فوائد العراقيين والديلمي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٩).

(٤) رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠١٢).

• كم يمكث عيسى (عليه السلام) فى الأرض •

وأما مدة بقاء عيسى عليه السلام فى الأرض بعد نزوله؛ فقد جاء فى بعض الروايات أن يمكث سبع سنين، وفى بعضها أربعين سنة.

ففى رواية الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما: «فيبعث الله عيسى ابنَ مريم... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردةً من قِبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته»[1].

وفى رواية الإمام أحمد وأبى داود: «فيمكث فى الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلى عليه المسلمون»[2].

وكلا هاتين الروايتين صحيحة، وهذا مشكل؛ إلا أن تُحمل رواية السبع سنين على مدة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافًا إلى مُكثه فى الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة على المشهور[3].[4]. والله أعلم.

• لماذا لم يذكر اسم الدجال فى القرآن؟ •

تساءل كثير من العلماء، بل ومن العامة عن الحكمة فى عدم التصريح بذكر الدجال فى القرآن مع أنه أعظم فتنة فى الحياة كلها.

وجاءت الإجابة من بعض أهل العلم فقالوا:

١ ـ أنه مذكور ضمن الآيات التى ذُكرت فى قوله تعالى: ﴿يومَ يأتى بعْضُ آيات ربّك لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيرا﴾ [الأنعام:١٥٨].

والآيات هى: الدجال وطلوع الشمس من مغربها والدابة.

قال ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى

(١) «صحيح مسلم»، باب ذكر الدجال، (١٨/ ٧٥ ـ ٧٦ مع شرح النووى).
(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢/ ٤٠٦ ـ بهامشه منتخب الكنز). قال ابن حجر: «صحيح» (٦/ ٤٩٣).
(٣) انظر: «النهاية/ الفتن والملاحم» (١/ ١٤٦)، تحقيق د. طه الزينى.
(٤) أشراط الساعة/ يوسف الوابل (ص:٣٦٤).

إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»[١].

٢ ـ أن القرآن ذكر نزول عيسى عليه السلام، وعيسى هو الذى يقتل الدجال، فاكتفى بذكر مسيح الهدى عن ذكر مسيح الضلالة، وعادة العرب أنها تكتفى بذكر أحد الضدين دون الآخر.

٣ ـ أنه مذكور فى قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وإن المقصود بالناس هنا الدجال، من إطلاق الكل على البعض.

٤ ـ أن القرآن الكريم لم يذكر الدجال احتقاراً له، لأنه سيدعى الربوبية.

• شبهة.. والرد عليها •

فإن اعتُرض بأن القرآن ذكر فرعون وهو قد ادعى الربوبية والألوهية، فيقال: إن أمر فرعون انقضى وانتهى، وذُكر عبرة للناس وعظة، وأما أمر الدجال؛ فسيحدث فى آخر الزمان، فتُرك ذكره امتحانًا به، مع أن ادعاءه الربوبية أظهر من أن يُنَبَّه على بطلانه؛ لأن الدجال ظاهر النقص، واضح الذم، أحقر وأصغر من المقام الذى يدعيه، فترك الله ذكره؛ لما يعلم تعالى من عباده المؤمنين؛ أن مثل هذا لا يخيفهم ولا يزيدهم إلا إيمانًا وتسليمًا لله ورسوله؛ كما يقول الشاب الذى يقتله الدجال ويحييه: «والله ما كنت فيك أشد بصيرة منى اليوم»[٢].[٣]

• كيف ننجو من فتنة الدجال •

إنه ما من نبى إلا وأنذر أمته فتنة الدجال.

وها هو الحبيب ﷺ يحذر أمته من تلك الفتنة الشديدة، وذلك لأن الدجال خارج فى تلك الأمة لا محالة؛ لأنها آخر الأمم، ورسولنا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين.

وإليكم جميعًا الوسائل التى تجعلنا ننجو بإذن الله من فتنة الدجال:

أولاً: الاعتصام بالله ـ جل وعلا ـ والتمسك بالإيمان والتعرف على أسماء الله

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٥) كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه البخارى (١٣/ ١٠١) الفتن.

(٣) أشراط الساعة (ص: ٣٣٢).

وصفاته الحسنى، فنعلم أن الله ﴿ليس كمثله شيءٌ﴾ [الشورى:١١] أما الدجال فهو أعور والله ليس بأعور، وأننا لن نرى ربنا حتى نموت، أما الدجال فيراه الناس عند خروجه مؤمنهم وكافرهم.

ثانياً: التعوذ من فتنة المسيح الدجال:

وخاصة في الصلاة بعد التشهد وقبل التسليم.

* قال رسول الله ﷺ «إذا تشهَّد أحدكم؛ فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»[١].

وروى البخاري عن مصعب[٢]؛ قال: كان سعد يأمر بخمس ويذكرهن عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بهن... (منها:) «وأعوذ بك من فتنة الدنيا (يعني: فتنة الدجال)»[٣].

«وفي إطلاق الدنيا على الدجال إشارة إلى أن فتنة الدجال أعظم الفتن الواقعة في الدنيا»[٤].

قال السفاريني: «مما ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال... وقد ورد أن من علامات خروجه نسيان ذكره على المنابر»[٥].

ثالثاً: حفظ آيات من سورة الكهف:

فقد أمر النبي ﷺ بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال، وفي بعض الروايات خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان الطويل... (وفيه قوله ﷺ:) «من أدركه منكم؛ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٥/ ٨٧) المساجد.

(٢) هو مصعب بن سعد بن أبي وقاص - انظر فتح الباري (١١/ ١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ١٧٤) الدعوات.

(٤) فتح الباري (١١/ ١٧٩).

(٥) ورد في ذلك حديث صححه الهيثمي في «مجمع الزوائد» عن الصعب بن جثامة؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره، وحتى تترك الأئمة ذكره على المنابر». انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧/ ٣٣٥).

(٦) أخرجه مسلم (١٨/ ٦٥) الفتن.

وروى مسلم أيضًا عن أبي الدرداء رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عُصم من الدجال»؛ أي: من فتنته.

قال مسلم: «قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف»[1].

● **وقفة لطيفة:**

وقد يقال: لِمَ كانت قراءة فواتح سورة الكهف، وخواتمها أمانًا من الدجال؟

قال بعضهم: لأن الله أخبر فى طليعة هذه السورة أن الله أمَّن أولئك الفتية من الجبار الطاغية الذى يريد إهلاكهم، فناسب أن من قرأ هذه الآيات وحاله كحالهم أن ينجيه كما أنجاهم.

وقيل: لأن فى أولها من العجائب والآيات التى تثبِّت قلب من قرأها بحيث لا يُفتن بالدجال، ولا يستغرب ما جاء به الدجال، ولم يُلهه ذلك، ولم يؤثر فيه[2].

رابعًا: الفرار من الدجال، والابتعاد منه:

والأفضل سكنى مكة والمدينة، فقد سبق أن الدجال لا يدخل الحرمين، فينبغى للمسلم إذا خرج الدجال أن يبتعد منه، وذلك لما معه من الشبهات والخوارق العظيمة التى يجريها الله على يديه فتنة للناس؛ فإنه يأتيه الرجل وهو يظن فى نفسه الإيمان والثبات، فيتبع الدجال.

قال ﷺ: «من سمع بالدجال؛ فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات»[3].

* فأسأل الله (جل وعلا) أن يحفظنا جميعًا من فتنة الدجال وأن يثبت قلوبنا على الإيمان والتوحيد حتى نلقاه.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٦/ ٩٢) صلاة المسافرين.

(٢) القيامة الصغرى (ص: ٢٤٧).

(٣) رواه أحمد وأبو داود عن عمران بن حصين ـ صحيح الجامع (٦٣٠١).

• يأجوج ومأجوج •

ويأجوج ومأجوج من ذرية يافث أبي الترك، ويافث من ولد نوح عليه السلام[1].

والذى يدل على أنهم من ذرية آدم عليه السلام ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول لبيك وسعديك، والخير في يديك. فيقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين. فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد». قالوا: وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا؛ فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف»[2].

• صفة يأجوج ومأجوج •

أما صفتهم التى جاءت بها الأحاديث؛ فهى أنهم يُشبهون أبناء جنسهم من الترك الغتم المغول، صغار العيون، ذلف الأنوف، صهب الشعور، عراض الوجوه، كأن وجوههم المجانُّ المطرقة، على أشكال الترك وألوانهم[3].

• الأدلة على خروج يأجوج ومأجوج •

والأدلة على خروج يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان ثابتة فى القرآن والسُّنة المطهرة.

• أما عن أدلة القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٩٦ ـ ٩٧).

وقال تعالى فى سياقه لقصة ذى القرنين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

---

(١) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ١٥٣).

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٣٨٢) باب قصة يأجوج ومأجوج.

(٣) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ١٥٣).

مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (الكهف:٩٢:٩٩).

فهذه الآيات تدل على أن الله تعالى سخَّر ذا القرنين الملك الصالح لبناء السد العظيم؛ ليحجز بين يأجوج ومأجوج القوم المفسدين في الأرض وبين الناس، فإذا جاء الوقت المعلوم، واقتربت الساعة؛ اندك هذا السد، وخرج يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة، وجمعٍ كبير، لا يقف أمامه أحد من البشر، فماجوا في الناس، وعاثوا في الأرض فسادًا.

وهذا علامة على قرب النفخ في الصور، وخراب الدنيا، وقيام الساعة[1].

• أما عن أدلة السنة المطهرة؛

إن الأحاديث التي تخبر عن ظهور يأجوج ومأجوج بلغت حدَّ التواتر المعنوي وسأكتفي بذكر حديث واحد.

فعن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها)». قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم؛ إذا كثُرَ الخبث»[2].

• قصة بناء السد •

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف:٩٢، ٩٣].

* ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي سلك طريقًا ثالثًا بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٣٤١ـ ٣٤٢) وابن كثير (٥/ ١٩١ ـ ١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٨١) ومسلم (١٨/ ٢ ـ ٤) كتاب الفتن.

حيث الجبال الشاهقة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أى حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلى أرمينية وأذربيجان.

* قال ابن كثير فى تفسيره:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحان، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل[1].

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:٩٤، ٩٥].

وعندما وجدوه فاتحًا قويًا، وتوسموا فيه القدرة والصلاح.. عرضوا عليه أن يقيم لهم سدًا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون فى أرضهم فسادًا، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم.. وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم.

وتبعًا للمنهج الصالح الذى أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد فى الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذى عرضوه من المال؛ وتطوع بإقامة السد؛ ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هى ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين؛ فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[2].

وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوع ببناء السد واكتفى بعون الرجال ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أى أعطونى قطع الحديد واجعلوها لى فى ذلك المكان ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أى حتى إذا ساوى البناء بين جانبى الجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أى انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أى جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أى أعطونى أصب عليه النحاس المذاب.

قال الرازى: لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلدًا[3] ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٩٢).
(٢) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩٢).
(٣) التفسير الكبير (٢١/ ١٧٢).

يَظْهَرُوهُ﴾ أى فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملابسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أى وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته، وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أى قال ذو القرنين هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أى فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أى جعله الله مستويًا بالأرض وعاد متهدمًا كأن لم يكن بالأمس ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أى كان وعده تعالى بخراب السد وقيام الساعة كائنًا لا محالة[1].

● كيف يخرجون؟!!! ●

وأما عن كيفية خروجهم فى آخر الزمان فلقد أخبر الحبيب ﷺ عن ذلك...

* عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حضروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، واستثنوا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون سهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم الذى اجفظ، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نَغَفًا[2] فى أقفائهم فيقتلهم بها، والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشكُرُ شُكرًا[3] من لحومهم ودمائهم»[4].

● وما يعلم جنود ربك إلا هو ●

إن الاستدراج سُنة ثابتة وهى تتغير بتغير الأحوال والأشخاص والأزمان.. وفى آخر الزمان سيبلغ الاستدراج درجة عالية مع يأجوج ومأجوج ففى الوقت الذى يخرجون فيه ويعيثون فى الأرض فسادًا وإفسادًا فيمرون على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٢) هو: دود تكون فى أنوف الإبل والغنم.

(٣) أى: تسمن وتمتلئ شحمًا.

(٤) رواه أحمد والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٧٦).

آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. «ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر - جبل بيت المقدس - وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا مَن فى الأرض، هلم فلنقتل مَن فى السماء، فيرمون بنشابهم - نبالهم وسهامهم - إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا»[1].

وعن كيفية هلاكهم يقول ﷺ: «إذا أوحى الله إلى عيسى أنى قد أخرجتُ عبادًا لى لا يُدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون فيمر أولئك على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصرُ نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب إلى الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف - دود يكون فى أنوف الإبل والغنم - فى رقابهم، فيصبحون فرسى - قتلى - كموت نفسٍ واحدة، ثم يُهبطُ بنى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلاّ ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخت - الإبل - فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله»[2].

• وقفة لطيفة •

والعجب كل العجب أنه بعد هلاك يأجوج ومأجوج فإن المسلمين سيوقدون من أسلحتهم سبع سنين كما ثبت فى الحديث الذى رواه الترمذى أن النبى ﷺ قال: «سيوقد المسلمون من قِسى يأجوج ونشابهم وأسلحتهم وأترستهم سبع سنين»[3].

وهذا يدلنا على شيئين:

١ - يدل على كثرة أعدادهم بدليل أن المسلمين يوقدون سبع سنين من مخلفات أسلحتهم.

٢ - يدل على أن الناس سيرجعون مرة أخرى إلى القتال على الخيول واستعمال الرماح والقسى ونحو ذلك بعدما كانوا يقاتلون بالصواريخ والقنابل والأسلحة النووية

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٧٠ - ٧١) باب ذكر الدجال.
(٢) أخرجه مسلم (١٨/ ٦٨ - ٦٩) باب ذكر الدجال.
(٣) السلسلة الصحيحة (١٩٤٠) (٤/ ٥٧٩).

وذلك لأن تلك الأسلحة الحديثة ستزول وتتلاشى ويرجع الناس إلى ما كانوا عليه من قبل.

• الخسوفات الثلاثة •

وتلك الخسوفات الثلاثة من علامات الساعة الكبرى الثابتة.

ومعنى الخسف: يُقال: خسف المكان يخسف خسوفًا إذا ذهب فى الأرض وغاب فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ (القصص:٨١).

• أدلة السنة على ظهور الخسوفات:

وسأكتفى بذكر حديث واحد للاستدلال على ذلك، فعن حذيفة بن أسيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الساعة لن تقوم حتى تروا عشر آيات... (فذكر منها:) وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب»[1].

• الدخان •

وظهور الدخان فى آخر الزمان علامة من علامات الساعة الكبرى الثابتة فى الكتاب والسُّنة المطهرة.

• الأدلة من القرآن الكريم على ظهور الدخان:

قال الله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ۝١٠ يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ (الدخان:١٠ ـ ١١).

والمعنى: انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين واضح يغشى الناس ويعمهم، وعند ذلك يُقال لهم: هذا عذاب أليم؛ تقريعًا لهم وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض ذلك[2].

وفى المراد بهذا الدخان؟ وهل وقع؟ أو هو من الآيات المرتقبة؟ قولان للعلماء:

الأول ـ أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشًا من الشدة والجوع عندما دعا عليهم النبى

---

(١) أخرجه مسلم (١٨/ ٢٧ ـ ٢٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) تفسير القرطبى (١٦/ ١٣٠) وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

ﷺ حين لم يستجيبوا له، فأصبحوا يرون فى السماء كهيئة الدخان.

وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وتبعه جماعة من السلف[1].

الثانى ـ أن هذا الدخان من الآيات المنتظرة، التى لم تجىء بعد، وسيقع قرب قيام الساعة.

وإلى هذا القول ذهب ابن عباس وبعض الصحابة والتابعين.

على أن بعض العلماء ذهب إلى الجمع بين هذه الآثار بأنهما دخانان ظهرت إحداهما وبقيت الأخرى، وهى التى ستقع فى آخر الزمان، فأما التى ظهرت؛ فهى ما كانت تراه قريش كهيئة الدخان، وهذا الدخان غير الدخان الحقيقى، الذى يكون عند ظهور الآيات التى هى من أشراط الساعة[2].

قال القرطبى: «قال مجاهد: كان ابن مسعود يقول: هما دخانان قد مضى أحدهما، والذى بقى يملأ ما بين السماء والأرض، ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة، وأما الكافر؛ فتثقب مسامعه»[3].

● الأدلة من السنة المطهرة:

وسأكتفى بذكر حديثين للاستدلال على ذلك.

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًا: الدجال، والدخان»[4].

وجاء فى حديث حذيفة فى ذكر أشراط الساعة الكبرى: «الدخان»[5].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٣٣) وتفسير الطبرى (١٥/ ١١١ ـ ١١٣).
(٢) مسلم بشرح النووى (١٨/ ٢٧).
(٣) التذكرة (ص ٦٥٥).
(٤) أخرجه مسلم (١٨/ ٨٧) مع شرح النووى.
(٥) أخرجه مسلم (١٨/ ٢٧ ـ ٢٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

• طلوع الشمس من مغربها •

وطلوع الشمس من مغربها علامة من علامات الساعة الكبرى الثابتة فى الكتاب والسُّنة المطهرة.

• الأدلة من القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ (الأنعام:١٥٨).

أى يوم يأتى بعض أشراط الساعة حينئذ لا ينفع الإيمان نفسًا كافرة آمنت فى ذلك الحين ولا نفسًا عاصية لم تعمل خيرًا.

قال الطبرى: أى لا ينفع من كان قبل ذلك مشركًا بالله أن يؤمن بعد مجىء تلك الآية العظيمة الهول الوارد عليهم من أمر الله فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة[1].

ولقد دلت الأحاديث الصحيحة أن المراد ببعض الآيات المذكورة فى الآية هو طلوع الشمس من مغربها، وهو قول أكثر المفسرين[2].

• الأدلة من السنة المطهرة:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، فرآها الناس؛ آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا»[3].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها»[4].

* * *

(١) الطبرى (١٢/ ٢٦٦).

(٢) تفسير القرطبى (٧/ ١٤٥).

(٣) أخرجه البخارى (١١/ ٣٥٢) ومسلم (٢/ ١٩٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٨/ ٨٧) باب فى بقية من أحاديث الدجال.

• ما السبب فى عدم قبول الإيمان والتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها؟!!!! •

وهذا سؤال قد يخطر ببال كثير من الناس... ويتولى الرد على هذا السؤال باقة من أئمتنا ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

قال القرطبى: «قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسًا إيمانها عند طلوع الشمس من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم ـ لإيقانهم بدنو القيامة ـ فى حالِ من حضره الموت؛ فى انقطاع الدواعى إلى أنواع المعاصى عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب فى مثل هذه الحال؛ لم تُقبل توبته؛ كما لا تقبل توبة من حضره الموت»[1].

وقال ابن كثير: «إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لا يُقبل منه، فأما مَن كان مؤمنًا قبل ذلك؛ فإن كان مصلحًا فى عمله، فهو بخير عظيم، وإن كان مخلطًا فأحدث توبة؛ حينئذ لم تقبل منه توبة»[2].

* وعن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[3].

* ويرى بعض العلماء أن الذين لا يُقبل إيمانُهم هم الكفار الذين عاينوا طلوع الشمس من مغربها، أما إذا امتدَّ الزمان، ونسى الناس ذلك؛ فإنه يُقْبل إيمان الكفار وتوبة العصاة.

والجواب عن هذا كله: «أن النصوص دلَّت على أن التوبة لا تُقبل بعد طلوع الشمس من مغربها، وأن الكافر لا يُقبل منه الإسلا، ولم تفرِّق النصوص بين مَن شاهد هذه الآية وبين من لم يشاهدها».

* ولقد ذكر الحافظ ابن حجر (رحمه الله) أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يشدُّ بعضها بعضًا متَّفقة على أن

(١) التذكرة (ص٧٠٦) وتفسير القرطبى (٧/ ١٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧١).
(٣) أخرجه مسلم (١٧/ ٧٦) كتاب التوبة.

الشمس إذا طلعت من المغرب؛ أُغلق باب التوبة، ولم يفتح بعد ذلك، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع، بل يمتدُّ إلى يوم القيامة»(١).

• الدابة •

وخروج الدابة فى آخر الزمان علامة من علامات الساعة الكبرى الثابتة فى الكتاب والسنة.

• الأدلة من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:٨٢). أى أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها: ألا لعنة الله على الظالمين الذين لا يصدقون ولا يؤمنون بآيات الله(٢).

قال ابن كثير: هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة. قال ابن عباس وعطاء: تكلمهم كلامًا فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون(٣).

• الأدلة من السنة المطهرة:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»(٤).

وعن ابن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها؛ فالأخرى على أثرها قريبًا»(٥).

---

(١) فتح البارى (١١/ ٣٥٥).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٤١٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٨٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٥) كتاب الإيمان.

(٥) أخرجه مسلم (١٨/ ٧٧ ـ ٧٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.



● من أين تخرج الدابة ●

اختلف العلماء فى ذلك اختلافًا واضحًا فمنهم من قال: إنها تخرج من مكة المكرمة من أعظم المساجد، ومنهم من قال أنها تخرج ثلاث خرجات.. فالله تعالى أعلم.

● ماذا تفعل الدابة إذا خرجت ●

قال ﷺ: «تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يُعَمَّرُن فيكم حتى يشترى الرجل الدابة فيقال: ممن اشتريت؟ فيقول: من الرجل المخطَّم»[1].

فالدابة إذا خرجت فإنها تسم المؤمن والكافر؛ فأما المؤمن؛ فإنها تجلو وجهه حتى يشرق، ويكون ذلك علامة على إيمانه.

وأما الكافر؛ فإنها تخطمه على أنفه، علامة على كفره والعياذ بالله.

وجاء فى الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ (النمل:٨٢).

● ما المراد بتكليم الدابة للناس؟!!! ●

وفى معنى هذا التكليم اختلفت أقوال المفسرين:

١ ـ أن المراد: تكلمهم كلامًا؛ أى: تخاطبهم مخاطبة، ويدل على هذا قراءة أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ: (تنبئهم).

٢ ـ تجرحهم، ويؤيد ذلك قراءة (تكلمهم)؛ بفتح التاء وسكون الكاف، من الكَلْم، وهو الجَرْح، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس رضى الله عنهما، أى: تسمهم وسمًا[2].

وهذا القول يشهد له حديث أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: «تخرج الدابة، فتسم الناس على خراطيمهم»[3].

وروى عن ابن عباس أنه قال: «كلاً تفعل»؛ أى: المخاطبة والوسم.

قال ابن كثير: «وهو قولٌ حسن، ولا منافاة، والله أعلم»[4].

---

(١) رواه أحمد عن أبى أمامة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٢٧).

(٢) تفسير الشوكانى (٤/ ١٥٢) وتفسير القرطبى (١/ ٢٣٧).

(٣) رواه أحمد عن أبى أمامة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٢٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٠).

وأما الكلام الذى تخاطبهم به؛ فهو قولها: «إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون».

• النار التى تحشر الناس •

وهى آخر علامة من علامات الساعة الكبرى، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة.

• من أين تخرج تلك النار؟ •

جاءت الروايات بأن خروج هذه النار يكون من اليمن، من قعرة عدن، وتخرج من بحر حضرموت؛ كما جاء فى روايات أخرى.

وإليك طائفة من الأحاديث التى تبيِّن مكان خروج هذه النار، وهى من الأدلَّة على ظهورها.

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن عبد الله بن سلام لما أسلم سأل النبى ﷺ عن مسائل، ومنها: ما أول أشراط الساعة؟ فقال النبى ﷺ: «أما أول أشراط الساعة؛ فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»[1].

وجاء فى حديث حذيفة بن أسيد فى ذكر أشراط الساعة الكبرى قوله ﷺ: «وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم»[2].

* وقال رسول الله ﷺ: «ستخرج نارٌ من حضرموت أو من بحر حضرموت، قبل يوم القيامة، تحشر الناس»[3].

* والجمع بين ما جاء أن هذه النار هى آخر أشراط الساعة الكبرى وما جاء أنها أول أشراط الساعة: أن آخريتها باعتبار ما ذُكر معها من الآيات الواردة فى حديث حذيفة، وأوليتها باعتبار أنها أوَّل الآيات التى لا شىء بعدها من أمور الدنيا أصلاً، بل يقع بانتهاء هذه الآيات النفخ فى الصور؛ بخلاف ما ذُكِرَ معها من الآيات الواردة فى حديث حذيفة؛ فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا»[4].

وأما ما جاء فى بعض الروايات بأن خروجها يكون من اليمن، وفى بعضها الآخر أنها تحشر الناس من المشرق إلى المغرب؛ فيجاب عن ذلك بأجوبة:

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٣٦٢) (ح ٣٣٢٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٨/ ٢٧ ـ ٢٩) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) رواه الترمذى وأحمد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٠٩).

(٤) فتح البارى (١٣/ ٨٢).

١ ـ أنه يمكن الجمع بين هذه الروايات بأن كون النار تخرج من قعر عدن لا ينافى حشرها الناس من المشرق إلى المغرب، وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن، فإذا خرجت انتشرت فى الأرض كلها، والمراد بقوله: «تحشر الناس من المشرق إلى المغرب»؛ إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب[1].

٢ ـ أن النار عندما تنتشر يكون حشرها لأهل المشرق أولاً، ويؤيد ذلك ان ابتداء الفتن دائمًا من المشرق، وأما جعل الغاية إلى المغرب؛ فلأن الشام بالنسبة إلى المشرق مغرب.

٣ ـ يحتمل أن تكون النار المذكورة فى حديث أنس كناية عن الفتن المنتشرة التى أثارت الشر العظيم والتهبت كما تلتهب النار، وكان ابتداؤها من قِبَلِ المشرق، حتى خرب معظمه، وانحشر الناس من جهة المشرق إلى الشام ومصر، وهما من جهة المغرب؛ كما شوهد ذلك مراراً من عهد جنكزخان ومن بعده.

وأما النار التى فى حديثى حذيفة بن أسيد وابن عمر، فهى نار حقيقية، والله أعلم[2].

● كيف تحشر النار الناس إلى أرض المحشر؟ ●

عند ظهور هذه النار العظيمة من اليمن؛ تنتشر فى الأرض، وتسوق الناس إلى أرض المحشر، والذين يحشرون على ثلاثة أفواج:

الأول ـ فوجٌ راغبون طاعِمون كاسون راكبون.

والثاني ـ وفوجٌ يمشون تارة ويركبون أخرى، يعتقبون على البعير الواحد.

والفوج الثالث ـ تحشرهم النار، فتحيط بهم من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر، ومن تخلف أكلته النار[3].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار؛ تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسى معهم حيث أمسوا»[4].

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٨٢).

(٢) فتح البارى (١١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) بتصرف.

(٣) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٤) أخرجه البخارى (١١/ ٣٧٧) ومسلم (١٧/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

• هل هذا الحشر في الدنيا أو الآخرة ؟ •

وقد يتساءل البعض: هل النار التي تحشر الناس إلى أرض المحشر تكون في الدنيا أم في الآخرة؟!

والحق أن هذا الحشر في الدنيا وليس في الآخرة.

ذكر القرطبي أن الحشر معناه الجمع، وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة:

أما حشرا الدنيا:

فالأول ـ إجلاء بني النضير إلى الشام.

والثاني ـ حشر الناس قبل القيامة إلى الشام، وهي النار المذكورة هنا في الأحاديث»[1].

وذهب بعض العلماء كالغزالي والحليمي إلى أن هذا الحشر ليس في الدنيا وإنما هو في الآخرة.

وهذا مخالف لما جاءت به النصوص.

قال النووي: «قال العلماء: وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل القيامة، وقبيل النفخ في الصور، بدليل قوله ﷺ: تحشر بقيتهم النار؛ تبيت معهم وتقيل وتصبح وتمسي»[2].

وإلى هذا الرأي ذهب ابن كثير وابن حجر.

وأما حشر الآخرة؛ فإنه قد جاء في الأحاديث أن الناس مؤمنهم وكافرهم يُحشرون حُفاة عُراة غُرلاً بُهمًا، ففي الصحيح عن ابن عبَاس؛ قال: قام فينا النبي ﷺ ، فقال: «إنكم محشورون حفاة عراة غُرلاً؛ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (الأنبياء:١٠٤)، وإن أول الخلق يُكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل»[3].

فدلَّ هذا على أن هذا الحشر يكون في الدنيا قبل يوم القيامة[4].

---

(١) التذكرة (ص١٩٨ ـ ١٩٩) ـ تفسير القرطبي (١٨/ ٢ ـ ٣).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٣٧٧) كتاب الرقاق ـ باب الحشر.

(٤) أشراط الساعة (ص٤٢٩ : ٤٣٠).

أسماء يوم القيامة

لقد ذكر الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ ليوم القيامة أكثر من ثمانين اسمًا ولكنني سأكتفي بأشهر أسماء يوم القيامة:

(١) يوم القيامة: قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (النساء:٨٧).

(٢) يوم التغابن: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (التغابن:٩).

(٣) يوم التلاق: قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ (غافر:١٥) لأنه يلتقى فيه العباد ليحاسبهم الله جميعًا على كل ما قدموه.

(٤) الغاشية: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (الغاشية:١) وسُميت بذلك لأنها تغشى الناس بأفزاعها وأهوالها.

(٥) اليوم الآخر: قال تعالى: ﴿... يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (البقرة:٢٣٢).

(٦) الساعة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا﴾ (غافر:٥٩).

(٧) يوم البعث: قال تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ (الروم:٥٦).

(٨) يوم الدِّين: قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة:٤).

(٩) يوم الحسرة: قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ (مريم:٣٩) وسُمى بذلك لشدة تحسر العباد فى ذلك اليوم وندمهم.

(١٠) الدَّار الآخرة: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٦٤).

(١١) يوم التَّناد: قال تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (غافر:٣٢). وسُمى بذلك

لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم.

(١٢) دار القرار: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (غافر:٣٩).

(١٣) يوم الفصل: قال تعالى: ﴿هذا يومُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (الصافات:٢١).

(١٤) يوم الجَمْعِ: قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ (الشورى:٧).

(١٥) يوم الحِساب: قال تعالى: ﴿هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص ٥٣).

(١٦) يوم الوعيد: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (ق:٢٠) لأنه اليوم الذي أوعد الله به عباده.

(١٧) يوم الخُلود: قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (ق:٣٤).

(١٨) يوم الخُروج: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (ق:٤٢).

(١٩) الواقعة: قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (الواقعة:١).

(٢٠) الحاقَّة: قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة ١ ـ٣). وسُميت بذلك لأنها يتحقق فيها الوعد والوعيد.

(٢١) الطامة الكبرى: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ (النازعات ٣٤) وسُميت بذلك لأنها تطم على كل أمرٍ هائل مفزع.

(٢٢) الصاخَّة: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ (عبس:٣٣).

(٢٣) الآزفة: قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ (النجم:٥٧). وسميت بذلك لاقترابها.

(٢٤) القارعة: قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ (القارعة:١:٣) وسُميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها وشدائدها.

• السر في كثرة أسماء يوم القيامة •

يقول القرطبي: وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته، وكثرت أسماؤه، وهذا مهيع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه، وتأكد نفعه لديهم وموقعه، جمعوا له خمسمائة اسم، وله نظائر.

فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى فى كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة[(١)].

• اقتربت الساعة •

قال ﷺ: «اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصًا ولا يزدادون من الله إلا بُعدًا»[(٢)].

تدلُّ الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الصحيحة على قرب الساعة ودنوِّها؛ فإن ظهور أكثر أشراط الساعة دليلٌ على قُربها وعلى أننا فى آخر أيام الدُّنيا:

قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:١). وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب:٦٣). وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٦، ٧). وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:١).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالَّة على قرب نهاية هذا العالم الدنيوى، والانتقال إلى دار أخرى، ينالُ فيها كل عاملٍ عملَه، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًا؛ فشرّ.

قال ﷺ: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين»، ويشير بأصبعيه، فيمدهما[(٣)].

وقال ﷺ: «بُعثتُ فى نسم الساعة»[(٤)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أجلكم - فى أجل مَن خلا من الأمم - ما بين صلاة العصر ومغرب الشمس»[(٥)].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما؛ قال: كنا جُلوسًا عند النبى ﷺ ، والشمس على قعيقعان[(٦)] بعد العصر فقال: «ما أعماركم فى أعمار مَن مضى إلا كما بقى من النهار

---

(١) التذكرة (ص: ٢١٤).

(٢) رواه الحاكم عن ابن مسعود وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٤٦).

(٣) أخرجه البخارى (١١/ ٣٤٧) الرقاق/ باب بُعثت أنا والساعة كهاتين.

(٤) رواه الدولابى فى (الكنى) (١/ ٢٣) وابن منده فى (المعرفة) (٢/ ٢٣٤/ ٢) وأورده الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٠٨).

(٥) «صحيح البخارى»، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بنى إسرائيل، (٦/ ٤٩٥ - مع الفتح).

(٦) (قعيقعان)؛ بضم القاف الأولى، وكسر الثانية، بلفظ التصغير: جبل بمكة فى جنوبها بنحو اثنى عشر ميلاً =

وفيما مضى منه»[١].

وهذا يدلُّ على أن ما بقي بالنسبة إلى ما مضي شيءٌ يسير، لكن لا يعلم مقدار ما مضى إلا الله تعالى، ولم يجيء فيه تحديدٌ يصح سنده عن المعصوم حتى يصارَ إليه، ويُعْلَم نسبة ما بقي بالنسبة إليه، ولكنه قليلٌ جداً بالنسبة إلى الماضي»[٢].

وليس هناك أبلغ من قوله ﷺ في تقريب الساعة: «بُعثتُ أنا والساعة جميعًا، إن كادت لتسبقني»[٣]. فهذا إشارة إلى شدةً قُربها من بعثته ﷺ ، حتى خشي سبقها له لعظم القرب.

• قل إنما علمها عند ربي •

علم الساعة غيبٌ لا يعلمهُ إلا الله تعالى؛ كما دلَّت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبويَّة؛ فإنَّ علم الساعة مما استأثر الله به، فلم يُطلع عليه مَلكاً مقربًا ولا نبيًا مرسلاً[٤]، فلا يعلم أحدٌ متى تقوم الساعة؛ إلا الله تعالى.

وكان النبي ﷺ يكثر من ذكر الساعة وأهوالها، فكان الناس يسألونه عن وقت قيام الساعة، فكان يخبرهم أن ذلك غيبٌ لا يعمله إلا الله، وكانت الآيات القرآنية تتنزَّل مبيِّنةً أن علم الساعة مما اختصَّ الله تعالى به نفسه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:١٨٧).

فالله تعالى يأمر نبيه محمداً ﷺ أن يخبر الناس أن علم الساعة عند الله وحده، فهو

= وسمي تعيقعان؛ لأن جُرهمًا لما تحاربوا كثرت قعقعة السلاح هناك. ويظهر أن كلام النبي ﷺ هذا كان في حجة الوداع أو في غزوة فتح مكة، وكان ابن عمر شهدهما مع الصحابة.

انظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٨٨)، و«شرح مسند أحمد» (٨/ ١٧٦) لأحمد شاكر.

(١) رواه أحمد (٨/ ١٧٦) وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٢) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٩٥).

(٣) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد والطبراني وسنده حسن (فتح الباري) (١١/ ٣٤٨).

(٤) ذهب البرذنجي في الإشاعة إلى أن النبي ﷺ علم وقت الساعة، ونهى عن الإخبار بها، وهذا غلطٌ فاحشٌ منه.

انظر: «الإشاعة لأشراط الساعة» (ص ٣).

الذي يعلم جَلِيَّة أمرها، ومتى يكون قيامها؛ لا يعلم ذلك أحدٌ من أهل السماوات والأرض:

كما قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (الأحزاب:٦٣). وكما قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ (النازعات:٤٢ ـ ٤٤).

فمنتهى علم الساعة إلى الله وحده.

ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ـ كما في حديث جبريل الطويل ـ قال النبي ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[١].

• الساعة تأتي بغتة •

والساعة تأتي بغتة لأنه لا يعلم موعدها ولا وقتها على الحقيقة إلا الله (عز وجل).

قال ﷺ: «... ولتقومن الساعةُ وقد نشرَ الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرفَ الرجلُ بلبن لقحته فلا يطعمهُ، ولتقومن الساعةُ وهو يَليط حوضهُ فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعةُ وقد رفعَ أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[٢].

وقال ﷺ: «تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة فما يصل الإناء إلى فيه ـ أي فمه ـ حتى تقوم والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم. والرجل يَلطُ في حوضه[٣] فما يصدر حتى تقوم»[٤].

• لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق •

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»[٥].

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: الله الله»[٦].

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له، (١/ ١١٤ ـ مع الفتح).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٧٤١١).

(٣) يلط في حوضه: أي يُطينه ويُصلحه.

(٤) أخرجه مسلم (١٤٠) (٢٩٥٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٥) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٧٤٠٧).

(٦) أخرجه مسلم والترمذي وأحمد عن أنس ـ صحيح الجامع (٧٤٢٠).

* بل لقد أخبر الحبيب ﷺ عن حال هؤلاء الذين تقوم عليهم الساعة بكل ما فيها من شدائد وأهوال... فبعد أن ذكر النبي ﷺ هلاك المسيح الدجال على يدى عيسى (عليه السلام) قال: «ثُمَّ يَمكُثُ النَّاسُ سَبعَ سِنين. لَيس بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ. ثُمَّ يُرْسِلُ الله ريحًا بَاردَةً مِنْ قبلِ الشَّام. فَلا يَبْقى على وَجْه الأَرْضِ أحدٌ فى قَلْبه مثْقَالُ ذَرة مَنْ خَيْرِ أَوْ إيمانٍ إلا قَبَضتْهُ. حتَّى لوْ أنَّ أحَدَكُمْ دَخَلَ فى كَبَد جَبَل لَدَخَلَتْهُ عَلَيْه، حتَّى تَقبضهُ»... ثم قال ﷺ: «فَيَبْقى شِرارُ الناسِ فى خفَّة الطَّيْر وأحْلام السِّبَاعِ. لاَ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ولاَ يُنكِرُونَ مُنكرًا. فيتمثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: ألا تَسْتجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأمرُنا؟ فَيَأمُرُهُمْ بِعبَادَةِ الأوثَانِ. وَهُمْ فِى ذَلِكَ دَارٌ رِزقُهُمْ، حَسَنٌ عَيشُهُمْ. ثم يُنفخُ فى الصُّورِ...»[1].

* * *

(١) أخرجه مسلم (١١٦) (٢٩٤٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

بداية إفناء الخلائق

• كل شيء يبلى إلا عجب الذنب •

قال رسول الله ﷺ: «ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمٌ واحد وهو عجب الذنب ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة»[1].

وعجب الذنب: هو عظم صغير فى نهاية العمود الفقارى فى الإنسان.

• الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ولا الشهداء •

قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[2].

وأما الشهداء فقد قال تعالى عنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩ : ١٧٠).

• بداية الانقلاب الحقيقى •

إذا أذن الله جل جلاله، وعظم سلطانه بانقراض الكون،وانتهاء هذه الحياة الأولى أمر ملكًا يدعى إسرافيل أن ينفخ فى الصور نفخة واحدة للفناء فينفخ نفخة فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة فتنحل بها كل الروابط التى كانت تربط بين أجزاء الكون، فترتج الأرض رجًا عنيفًا، وتتزلزل زلزالاً مروعًا[3]، وتندك مع جبالها دكًا، فتصير هباء مُنبثًا.

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٠٥) ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٨) وأبو داود (١٠٤٧) وإسناده صحيح.

(٣) أما الإنسان الذى يزعم أنه سيد هذا الكون، ولم يبرح يتطاول ويتعالى حتى على خالقه جل وعلا فإنه عندما يشاهد هذه الأهوال بعينه. ويسمع دويها بأذنيه يفقد كل رشده، وتخف أحلامه، ويطير لُبُّه ويفقد صوابه حتى يصبح كالفراش فى حمقه. وقلة نعقله. هائجًا مائجًا سكران من شدة الفزع والهول وما هو بسكران، مراضعه عما ترضع ذاهلة، وحوامله لما فى بطنها واضعة.

وتُصاب السماء بانفطار عظيم يبطل معه قانون الجاذبية المعروف الآن، فتتناثر الكواكب، وتنكدر الشمس، ويذهب ضوء الكل، ويفقد الجميع كيانه، فتنصهر تلك الأجرام السماوية بجميع مجراتها فإذا هي كالنحاس المذاب تمامًا[1]، وإذا العالم كله سَديم وبخار كما كان قبل وجوده وخلق الله تعالى له[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:١، ٢).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج:٨، ٩).

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ (الزلزلة:١:٣).

• ما الصور؟ وما صاحبه؟ •

أما عن الصور فلقد سُئل عنه الحبيب ﷺ فقال: «الصور قرنٌ يُنفخ فيه»[3].

* وأما صاحبه الذي ينفخ فيه فهو «إسرافيل» ـ عليه السلام ـ وهو ملكٌ كريم من ملائكة الرحمن (جل وعلا).

• إسرافيل ينتظر الأمر بالنفخ في الصور •

ولقد أخبرنا النبي ﷺ أن إسرافيل ـ صاحب الصور ـ في حالة استعداد دائمة ينتظر الأمر من الملك (جل وعلا) بالنفخ في الصور ولذلك فهو ينظر إلى العرش ولا تطرف عينه لحظة واحدة خشية أن يأتيه الأمر فجأة.

قال رسول الله: «إن طَرْف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دُرِّيان»[4].

---

(١) مصداقه في قوله تعالى: «يوم تكون السماء كالمهل» سورة المعارج الآية (٨) وقوله «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان» سورة الرحمن الآية (٣٧).

(٢) عقيدة المؤمن (ص: ٣٤٦).

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عمرو وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٦٣).

(٤) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ـ وأورده الألباني في الصحيحة (١٠٧٨).

• النفخ في الصور •

وهنا يأمر الله إسرافيل (عليه السلام) أن ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قال تعالى: ﴿ويوم يُنفخ في الصُّور ففزع من في السَّموات ومَن في الأرْض إلاَّ من شاء اللَّهُ وكُلٌّ أتوْهُ داخرين﴾ (النمل:٨٧).

وقال ﷺ: «... ثم يُنفخ في الصور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى لِيتًا ورفع لِيتًا...»[(١)] أي رفع وأمال صفحة العنق.

وتمتلىء القلوب رعبًا وفزعًا من هول تلك النفخة وشدتها.. ثم يأمر الحق (جل جلاله) إسرافيل (عليه السلام) بنفخة الصعق ﴿ونُفخ في الصُّورِ فصعق من في السَّموات ومن في الأرْض إلاَّ من شاء اللَّهُ ثُمَّ نُفخ فيه أُخْرَىٰ فإذا هُمْ قيامٌ ينظُرُون﴾ (الزمر:٦٨).

وهي نفخة هائلة مدمرة يسمعها الإنسان فلا يستطيع أن يوصي بشيء ولا يقدر على العودة إلى أهله وأحبابه ﴿ويَقُولُون متىٰ هذا الْوعْدُ إن كُنتُمْ صادقين (٤٨) ما ينظُرُون إلاَّ صيحة واحدة تأخُذُهُم وهُم يخصّمُون (٤٩) فلا يستطيعُون توْصية ولا إلىٰ أهْلهمْ يرْجعُون﴾ (يس:٤٨:٥٠).

• كيف أنعم وقد التقم صاحبُ القرن القرنَ •

قال ﷺ: «كيف أنْعَمُ وقد التقمَ صاحبُ القرنِ القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ، قال: المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربّنا»[(٢)].

هكذا يخبرنا الحبيب ﷺ ماذا نقول... فهو الذي لم يترك خيرًا إلا دلّنا عليه ولم يترك شرًا إلا وقد حذّرنا منه فجزاه الله عنا خير الجزاء.

• اليوم الذي يكون فيه النفخة •

وأخبرنا الحبيب ﷺ أن الساعة تقوم في يوم الجمعة وفيها يُبعث العباد.

قال ﷺ: «إنَّ من أفضل أيامِكمْ يومَ الجُمعةِ، فيه خُلقَ آدمُ، وفيه قُبضَ وفيه النَّفخةُ،

(١) أخرجه مسلم (١١٦) (٢٩٤٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٧٩).

وفيه الصَّعقةُ، فأكثروا عليَّ منَ الصلاة فيه، فإنَّ صلاتكم مَعروضةٌ عليَّ، إن الله حرمَ على الأرضِ أنْ تأكلَ أجسادَ الأنبياء»[١].

وقال ﷺ: «عُرِضتْ عليَّ الأيَّامُ، فعُرِضَ عليَّ فيها يوْم الجمعة، فإذا هيَ كمرآةٍ بيضاءَ وإذا في وسطها نُكتةٌ سوداءُ، فقُلتُ: ما هذه؟ قيلَ: السَّاعةُ»[٢].

• الدواب تشفق من قيام الساعة •

قال ﷺ: «خيرُ يومٍ طَلعتْ فيه الشَّمسُ يومُ الجُمعة، فيه خُلقَ آدمُ، وفيه أهبط، وفيه تِيبَ عليه، وفيه قُبِضَ، وفيه تقومُ السَّاعةُ، ما على وجهِ الأرض منْ دابَّة إلا وهي تُصبحُ يومَ الجُمعة مُصيخةً؛ حتى تطلُعِ الشَّمسُ شفقًا منَ السَّاعة؛ إلا ابنَ آدم، وفيه ساعةٌ لا يُصادفُها عبدٌ مُؤمنٌ وهو في الصَّلاة يسأل الله شيئًا إلا أعطاهُ إيَّاهُ»[٣].

• ما بين النفختين أربعون •

أما عن المدة التي تكون بين نفخة الصعق ونفخة البعث فلقد أخبر عنها الحبيب ﷺ.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال أبيت»[٤].

وأخرج البيهقي بسند قويّ عن ابن مسعود موقوفا: «ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، والصور قرن، فلا يبقى خلق في السموات ولا في الأرض إلا مات إلا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون»[٥].

* وقال القرطبي: وقول أبي هريرة: أبيت: فيه تأويلان.

الأول، أبيت: أي امتنعت من بيان ذلك، وتفسيره، وعلى هذا كان عنده علم من ذلك أي سمعه من النبي ﷺ.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن أوس بن أوس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٢).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٠٠).

(٣) رواه مالك وأحمد والترمذي عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (١١/ ٥٥١) التفسير - ومسلم (٢٩٥٥).

(٥) فتح الباري (١١/ ٣٧٠).

الثاني، أبيت أي.. أبيت أن أسأل عن ذلك النبي ﷺ وعلى هذا لم يكن عنده علم من ذلك. والأول أظهر وإنما لم يبينه ولأنه لم ترهق لذلك حاجة، لأنه ليس من البينات والهدى الذي أمر بتبليغه[1].

• كم مرة يُنفخ في الصور؟ •

ولقد اختلف أهل العلم في عدد المرات التي يُنفخ فيها في الصور... فذهب الحافظ ابن حجر والإمام القرطبي إلى إن إسرافيل ينفخ نفختين فقط (نفخة الصعق والبعث) وذهب الإمام ابن العربي وابن تيمية وابن كثير والسفاريني إلى أنها ثلاث نفخات وهي نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث... فأما أصحاب الرأي الأول فدليلهم قول النبي ﷺ: «ما بين النفختين أربعون». وأما الذين ذهبوا إلى أنها ثلاث نفخات فدليلهم أن الله (عز وجل) فرَّق بين الثلاث نفخات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (النمل:٨٧).

ثم أخبر عن النفختين في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨).. فالله أعلم.

• من الذين استثناهم الله من الفزع والصعق؟ •

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨).

وقد يسأل سائل ويقول: من الذين استثناهم الحق (جل وعلا) في قوله: «إلا من شاء الله».

فذهب طائفة من العلماء إلى أنهم الملائكة... ومنهم من قال أنهم الأنبياء أو الشهداء أو الحور العين... إلخ.

والصحيح أنه لم يرد نصٌّ صريح في كتاب الله أو في سُنة رسول الله ﷺ يحدد لنا من الذين استثناهم الله في تلك الآية.. ونحن لسنا في حاجة إلى أن نتكلف معرفة شيء قد سكت الله عنه ولو كان في معرفته أي خيرٍ لأخبرنا الله عنه.

(١) التذكرة (١/ ٣٢٠).

قال ﷺ: «لا تُخيروا بينَ الأنبياء؛ فإن الناس يَصعقونَ يومَ القيامة، فأكونُ أولَ من تنشق عنه الأرض، فإذا موسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدرى كان فيمن صعق، أم حوسبَ بصَعْقَته الأولى؟»(١).

وقال ﷺ: «لا تخيرونى على موسى، فإن الناس يَصعقون يوم القيامة، فأصعقُ معهم، فأكون أولَ من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدرى أكانَ فيمن صعق، فأفاق قبلى، أو كانَ ممن استثنى الله»؟(٢).

وقال ﷺ: «لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنهُ ينفخ فى الصور فيصعقُ من فى السماوات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله، ثم ينفخ فيه أُخرى، فأكونُ أول من بُعثَ، فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أدرى أحوسبَ بصعقته يومَ الطور، أمْ بُعثَ قبلى، ولا أقولُ إن أحداً أفضلُ من يونس بن متى»(٣).

* قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

فإذا كان النبى ﷺ لم يُخبرَ بكل من استثنى الله، لم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال ذلك مما لم يخبر الله به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم»(٤).

• كل شيء هالكٌ إلا وجهه •

وبعد نفخة الصعق تموت الخلائق كلها.. يموت كل حى ويبقى الحى الذى لا يموت (جل وعلا) فيصبح الكون كله فى سكون رهيب موحش فيطوى الله السماوات بيمينه ويطوى الأرض بشماله ويقول: أنا الملك أيْن الجبارون؟ أين المتكبرون؟.

قال ﷺ: «يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملكُ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنَا الملكُ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (٧٢٥٧).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٧٢٥٨).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٧٣٧٧).

(٤) مجموع الفتاوى/ لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٦١).

(٥) أخرجه مسلم وأبو داود عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٨١٠١).

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن:٢٦،٢٧).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٨٨).

وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر:١٥، ١٦).

فلا أحد يسأل ولا أحد يجيب إلا الله (عز وجل).

ثم يُحيي اللهُ إسرافيل مرة أخرى ويأمره بأن ينفخ في الصور نفخة البعث لتقوم الخلائق كلها من القبور إلى أرض المحشر للفصل والحساب بين يدي الكريم التواب (جل وعلا).

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:١٧:١٩).

* * *

المكذبون بالبعث والنشور

ويخبرنا الحق (جل وعلا) عن الذين يكذبون بالبعث والنشور فيقول: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء:٤٩:٥١).

ولقد توعدهم الحق (جل وعلا) على ذلك التكذيب بالعذاب الشديد فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام:٣٠، ٣١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الرعد:٥).

• وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه •

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس:٧٧:٨٣).

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتّه ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد



أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ : «نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة...﴾ إلى آخرهن.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاصي بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء... وذكر الحديث ـ وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاصي بن وائل أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث... ﴿أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ أي أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين. كما قال عز وجل ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرارٍ مكين إلى قدرٍ معلوم﴾ فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته.

وقال تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ولهذا قال عز وجل: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت[1].

• أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا •

وتدبر معي (أخي الحبيب) هذا الحديث جيداً.

«تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين، عن اليمين وعن الشمال عزين، أيطمع كل امرىء منهم أن يُدخل جنة نعيم. كلا إنا خلقناهم مما يعلمون﴾، ثم بزق رسول الله ﷺ على كفه فقال»

«يقول الله تعالى: يا ابن آدم! أنَّى تُعجزني وقد خلقتُك من مثل هذا؟ حتى إذا سوَّيتُك وعَدلتُك، مشَيتَ بين بُردين وللأرض منك وئيدٌ، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغَتِ التَّراقيَ قلت: أتصدَّق، وأنَّى أوانُ الصدقة؟!»[2].

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩).

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن بسر بن جحاش وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٤٤).

* وقال ﷺ «قالَ اللهُ تعالى: شَتَمَى ابنُ آدمَ؛ وما يَنبغى لهُ أنْ يَشتمنى، وكذَّبنى؛ وما يَنبَغى لهُ أنْ يُكذِّبَنى، أمَّا شتمه إيَّاى فقولهُ: إنَّ لى ولَدًا، وأنَا الله الأحدُ الصَّمدُ لم ألدْ ولم أولَدْ ولم يكنْ لى كُفُوًا أحدٌ، وأما تكذيبُهُ إيَّاىَ، فقولهُ: ليس يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته»[1].

* وقال ﷺ «أسرف رجلٌ على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقالَ: إذا أنا متُّ فأحرقونى، ثمَّ اسحقُونى، ثم أذْرونى[2] فى البحر، فوالله لئنْ قدرَ علىَّ ربى ليُعذبنى عَذابًا ما عذبهُ أحدًا، ففعلوا ذلكَ به، فقالَ الله للأرض: أدِّى ما أخذت، فإذا هو قائمٌ، فقَالَ: ما حملَكَ على ما صنَعتَ؟ قَالَ خشيتُك يارب، فغفرَ لهُ بذَلكَ»[3].

• الحكمة من البعث والمعاد •

إن الحكمة من المعاد الأخروى الذى هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم، أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا، لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء قال تعالى: ﴿كُلُّ نفسٍ ذائقةُ الْموْت وإنَّما تُوفَّوْنَ أُجُوركُم يوْمَ الْقيامَة فَمن زُحْزح عَنِ النَّار وأُدْخلَ الْجنَّةَ فقدْ فَازَ وما الْحيَاةُ الدُّنْيا إلاَّ متاعُ الْغُرُور﴾(آل عمران:١٨٥).

فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتًا كبيراً فى أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وفى سعادتهم، وشقائهم، فمنهم الظالم الغشوم، ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغنى الثرى، ومنهم الفقير الشقى ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن، ومنهم المسىء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم، ولا يُبعثون لكان ذلك منافيًا للحكمة، مجانبًا للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء، وحكم بهما. فهما كائنان لا محالة، فقد أمر رسوله محمداً ﷺأن يقسم عليهما فى قوله من سورة التغابن: ﴿زعَمَ الَّذين كفرُوا أن لَّن يُبْعثُوا قُلْ بلَىٰ وربِّى لَتُبْعثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بما عملْتُم وذَلك عَلَى اللَّه يسيرٌ﴾(التغابن:٧).

---

(١) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٤٣٢٣).

(٢) أى: طيِّروا رمادى فى الجو.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٩٦٥).

وقال تعالى من سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل:٣٨: ٤٠)[١].

• أدلة البعث والنشور[٢] •

لقد سلك القرآن الكريم فى إثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هى غاية فى الوضوح والسهولة منها:

أولاً: إعادة خلق الشىء أيسر من خلقه أول مرة:

* أن الشىء إذا لم يكن ثم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه، وأفناه. فالذى بنى داراً، ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا فى حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت.

والذى يصنع آلة من الآلات مخترعًا لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذا هو كسرها بإرادته وإختياره ليحولها إلى آلة أفضل منها قبل.

ورد هذا المسلك من الاستدلال فى سورة الروم إذ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم:٢٧).

كما ورد فى سورة يس فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس:٧٩).

ثانياً: إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة:

أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق تبارك وتعالى بذلك، فمن آمن بالله، وصدَّق برسوله الذى أرسل، وكتابه الذى أنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنَّة والنار.

---

(١) عقيدة المؤمن (ص: ٣٢٩: ٣٣٠).

(٢) بتصرف من عقيدة المؤمن/ للشيخ أبو بكر الجزائرى ـ والقيامة الكبرى/ د. عمر الأشقر.

وقد نوَّع تبارك وتعالى أساليب الإخبار ليكون أوقع فى النفوس وآكد فى القلوب.

١ - ففى بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخبارًا مؤكدًا «بإن»، أو «بإنَّ واللام» كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ (طه:١٥) وقوله: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥).

٢ - وفى مواضع أخرى يقسم الله تعالى على وقوعه ومجيئه كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (النساء:٨٦) ويقسم على تحقق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله: ﴿وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (الطور:١:٨).

٣ - وفى بعض المواضع يأمر رسوله بالإقسام على وقوع البعث وتحققه، وذلك فى معرض الردّ على المكذبين به المنكرين له، كقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ (التغابن:٧).

٤ - وفى مواضع أخرى يذمُّ المكذبين بالمعاد، كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (يونس:٤٥).

٥ - وأحيانًا يمدح المؤمنين بالمعاد ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ⑦ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ⑧ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران:٧:٩).

٦ - وأحيانًا يخبر أنه وعد الصادق وخبرٌ لازم وأجلٌ لا شك فيه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ (هود:١٠٣، ١٠٤).

٧ - وفى بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقترابه كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٦:٧) وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النحل:١) وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:١).

٨ - وفى مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم، ويذم

الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل:٦٤).

٩ ـ وبينَّ في مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث الذي يعجز العباد ويذهلهم سهلٌ يسير عليه، ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (لقمان:٢٨).

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة:٣، ٤).

ثالثا: الاستدلال بإحياء الأرض بالنبات:

* الاستدلال بالأرض الميتة بسبب المحل، والجدب، والقحط، حيث تنعدم فيها الحياة تمامًا، ثم ينزل بها الغيث، أو تسقى بالماء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهاراً.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحج:٥:٦).

رابعًا: الاستدلال على النشأه الأخرى بالنشأة الأولى:

استدلَّ القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول، فنحن نشاهد في كلِّ يوم حياة جديدة تخلق: أطفال يولدون، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها، وأسماك تملأ البحر والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرة أخرى بعد أن يبيد الله هذه الحياة.

إن الذين يطلبون دليلا على البعث بعد الموت يغفلون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل، فالقادر على خلقهم، قادر على إعادة خلقهم، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مريم:٦٦، ٦٧).

خامسا: الاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما:

* الاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما، فالنوم يعتبر موتًا مصغراً،

والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضًا. فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما.

جاء هذا الاستدلال فى قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:٦٠).

سادسًا: الاستدلال بضرورة الجزاء فى الآخرة:

* الاستدلال باختلاف سلوك الناس فى هذه الحياة بالخير والشر والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يُجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر، لعدم استكمال المجازاة فى هذه الحياة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس:٤).

سابعًا: إحياء بعض الأموات فى هذه الحياة:

شاهد بعض البشر فى فترات مختلفة من التاريخ عودة الحياة إلى الجثث الهامدة، والعظام البالية، بل شاهدوا الحياة تدب فى بعض الجماد، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن شىء من هذه المعجزات الباهرة، فمن ذلك أن قوم موسى قالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة:٥٥). فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:٥٥، ٥٦).

وقتل بنو إسرائيل قتيلاً واتهم كل قبيل القبيل الآخر بقتله، فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة، فذبحوها بعد أن تعنتوا فى طلب صفاتها، ثم أمرهم نبيهم بعد ذبحها أن يضربوا القتيل بجزء منها، فأحياه الله وهم ينظرون، فأخبر عمن قتله، ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٧٣).

وأخبرنا عن الذين فرُّوا من ديارهم وهم ألوف خشية الموت، فأماتهم الله ثم أحياها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ

الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ (البقرة:٢٤٣).

وحدثنا عن الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها، فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، فلما سُئل كم لبثت ظنَّ أنه لم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم، وبعد إحيائه أحيا الله له حماره وهو ينظر إلى قدرة الله كيف تعيد الخلق: العظام تتشكل وتتكون أولا ثم تُكسى باللحم، ثم تنفخ الروح، أما طعامه الذى كان معه قبل أن يموت فقد بقى تلك الأزمان الطويلة سليمًا، لم يفسد، ولم يتعفّن، وتلك آية أخرى تدل على قدرة الله الباهرة: ﴿ أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ (البقرة:٢٥٩).

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، فكان هذا المشهد الذى حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (البقرة:٢٦٠).

أمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فيذبحها، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال، ثم ناداها آمراً إياها بالاجتماع، فكان كل عضو يأتى ويقع فى مكانه، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح، وانطلقت محلقة فى الفضاء.

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وكان يحيى الموتى بإذن الله، فقد قال لقومه: ﴿ ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ﴾ (آل عمران:٤٩).

وأصحاب الكهف ضرب الله على آذانهم فى الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة، ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ (الكهف:١٢). ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما

أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ (الكهف:١٩) ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ (الكهف:٢٥).

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول ـ بقدرة الله ـ إلى ثعبان مبين ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الشعراء:٣٢)، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ألقى موسى عصاه فإذا هى تبتلع تلك العصى والحبال على كثرتها ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (الشعراء:٤٥).

* * *

نفخة البعث.. وصفة حشر الخلائق

وبعد مضى أربعين لا ندرى هل أيامها وشهورها مقدرة بأيام حياتنا هذه أو بأيام وشهور أخرى لا تخضع للنظام الشمسى الذى كانت به أيامنا وأعوامنا هذه؟؟ بعد مضى هذا الزمن ينزل من السماء ماء، فتنبت الأجسام تحت الأرض كما ينبت البقل، وذلك بواسطة تفاعل الماء مع بذرة الحياة التى هى عبارة عن عُظَيم صغير يوجد فى آخر فقرات الظهر من كل إنسان وجد فى هذه الحياة الدنيا، يسمى عَجب الذَنب. فإذا تم الخلق، واكتمل النمو، وأصبحت الأجسام هياكل تامة التكوين تحت الأرض لا ينقصها إلا أن تحلها الأرواح فتدب فيها الحياة وتتحرك وتقوم... أرسل الله الخالق سبحانه وتعالى الأرواح التى قبضها ملك الموت يوم وفاة كل إنسان فى هذه الحياة، وأودعت فى مستودعات بعضها فى العالم العلوى وهى الأرواح الطاهرة الطيبة نتيجة إيمان صاحبها، وعمله الصالح، وتركه الشرك والمعاصى. وبعضها فى العالم السفلى وهى الأرواح الخبيثة نتيجة كفر صاحبها، وارتكاب الجرائم والآثام. فتدخل تلك الأرواح الآتية من مستودعاتها الأجسام التى هُيئت لها فتحيا: ثم ينادى مناد الله تبارك وتعالى: أن قوموا لربكم، فتسمع وتجيب، وتنشق الأرض عنهم بسرعة ويقومون من قبورهم أحياء للحشر بعد أن تم النشر[1].

• كيف تنبت الأجساد •

* قال ﷺ: «... ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال: وليس من الإنسان شىء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عجْب الذَّنبِ، ومنهُ يُركَّب الخلق يوم القيامة»[2].

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذلك الماء الذى ينبتها يماثل إنبات النبات

(١) عقيدة المؤمن (ص: ٣٤٩: ٣٥٠).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم واللفظ له.

من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا، ولذا فإن الله قد أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات عقب نزول الغيث، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:٥٧).

وقال في موضع آخر: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر:٩).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٣:١٨).

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق:٤١:٤٤).

وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (القمر:٦:٨).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (المعارج:٤٣:٤٤).

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس:٥١:٥٣).

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة)

• تخيل معى هذا المشهد المهيب •

* تخيل معى هذا المشهد المهيب... ها هى القبور تتشقق فى كل أنحاء الأرض والناس يخرجون بعد رقاد طويل فى تلك القبور الموحشة على العصاة والكافرين المنيرة للطائعين والموحدين.

الكل يخرج من القبر ينفض التراب من على جسده وهو يشخص ببصره فى اتجاه واحد إلى هذا الداعى (الملك الكريم) الذى يقود الناس إلى أرض المحشر للحساب والوقوف بين يدى الله (عز وجل).

قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ (طه:١٠٨:١١٢).

* أيتها العظام البالية... أيتها الأجساد العارية... أيها الناس لقد حان وقت القيام للوقوف بين يدى الله (عز وجل).

* فها هو الكون كله يتجه إلى أرض المحشر للوقوف فى تلك الأرض لانتظار بدء الحساب.

• صفة حشر العباد •

يُحشر العباد حُفاة عراة غرلاً أى غير مختونين، ففى صحيح البخارى ومسلم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: «إنكم محشورون عُراة غُرلاً» ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٤).

* وقد جاء فى بعض النصوص أن كل إنسان يُبعث فى ثيابه التى مات فيها... عن أبى سعيد الخدرى أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد، فلبسها، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يُبعث فى ثيابه التى يموت فيها»(١).

* ولقد وفّق البيهقى بين هذا الحديث وسابقه بثلاثة أوجه:

(١) رواه أبو داود والحاكم وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٧١).

الأول، أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم، فإذا وافوا الموقف يكونون عراة، ثم يلبسون من ثياب الجنة.

الثانى، أنه إذا كُسى الأنبياء ثم الصديقون، ثم من بعدهم على مراتبهم فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه، ثم إذا دخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة.

الثالث، أن المراد بالثياب هاهنا الأعمال، أى يبعث فى أعماله التى مات فيها من خير أو شر، قال الله تعالى: ﴿ولِبَاسُ التقوى ذلكَ خيرٌ﴾ (الأعراف:٢٦) وقال: ﴿وثيابَكَ فَطهِرْ﴾ (المدثر:٤).

واستشهد البيهقى على هذا الجواب الأخير بحديث الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[١].

وحديث جابر هذا رواه مسلم فى صحيحه[٢]، ولا يفقه منه أن العبد يبعث فى ثيابه التى كُفِّن فيها أو مات فيها، وإنما يبعث على الحال التى مات عليها من الإيمان والكفر، واليقين والشك، كما يبعث على العمل الذى كان يعمله عند موته... يدلُّ على هذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذابا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم»[٣].

فالذى يموت وهو مُحرم يُبعث يوم القيامة ملبيًا، ففى صحيح البخارى ومسلم ومسند أحمد عن عبد الله بن عباس قال: إن رجلا كان مع النبى ﷺ فوقصته[٤] ناقته وهو مُحرم فمات، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه فى ثوبيه، ولا تُمسُّوه بطيب، ولا تخمروا رأسه[٥]، فإنه يُبعث يوم القيامة ملبيًا».

والشهيد يُبعث يوم القيامة وجرحه يثعب اللون لون الدم والريح ريح المسك.

ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله، لعله يموت على التوحيد، ثم يبعث يوم القيامة ناطقا بهذه الكلمة الطيبة[٦].

---

(١) النهاية لابن كثير: (١/ ٢٨٨).

(٢) رواه مسلم: (٤/ ٢٢٠٦) ورقم الحديث (٢٨٧٨).

(٣) صحيح مسلم (٢/ ٢٢٠٦) ورقم الحديث (٢٨٧٩).

(٤) أى أسقطته فكسرت عنقه.

(٥) أى لا تغطوا رأسه.

(٦) القيامة الكبرى (٥٩: ٦١) بتصرف.

• لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه •

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم:٨٥، ٨٦) قال ابن عباس رضي الله عنهما: وفداً: ركبانًا.

أما الورد: الجماعة العطاش، وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضًا.

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يُحشر الناس على ثلاث طرائق[١] راغبين راهبين[٢]، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير[٣]، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلاً» ـ أي غير مختونين ـ قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك» وفي روايات النسائي وابن أبي حاتم والترمذي[٤]: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس:٣٧).

(١) قال الخطابي: هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة، تحشر الناس أحياء إلى الشام، وأما الحشر من القبور إلى الموقف فهو على خلاف هذه الصورة من الركوب على الإبل والتعاقب عليها وإنما هو على ما ورد في حديث ابن عباس في الباب «حفاة عراة مشاة» وكذا رجحه ابن حجر رحمه الله. الفتح (١١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩).

(٢) يحتمل أن هؤلاء عوام المؤمنين وهم من خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا فيترددون بين الخوف والرجاء وهؤلاء يحشرون مشاة، والصنف الثاني أفاضل المؤمنين يحشرون ركبانًا، ويحتمل العكس فيكون الراغبون الراهبون الأبرار يحشرون ركبانًا، والصنف الثاني دونهم في الفضل فيحشرون مشاة وذلك على القول بأنهم يعتقبون الإبل فلا يسلمون من المشي ويحتمل أن يكون البعير المذكور من بدائع فطرة الله حتى يقوى على ما لا يقوى عليه غيره من البعران، فيقوى على حمل العشرة معًا. انظر الفتح (١١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩).

(٣) وإنما لم يذكر الخمسة والستة إلى العشرة إيجازًا واكتفاءً بما ذكر من الأعداد. الفتح (١١/ ٣٨٧).

(٤) صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٢).

• ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم •

وفي الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلاً قال: يا نبى الله كيف يُحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟» قال قتادة: بلى وعزة ربنا، قلت: وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧)[١].

• أرض المحشر •

وها هى أرض المحشر التى يحشر عليها الناس جميعًا يوم القيامة ليس فيها شجر ولا حجر ولا بنيان فليس فيها مكان يختبى وراءه الخلائق بل هى أرض مستوية كما أخبر النبى ﷺ بذلك فقال: «يُحشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء كقرصة النَّقى ليس فيها معلمٌ لأحد»[٢].

قال الخطابى: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلا. وقال ابن فارس: معنى عفراء خالصة البياض.

والنَقى: بفتح النون وكسر القاف، أى الدقيق النَقىّ من الغش والنخال.

والمعلَم: العلامة التى يهتدى بها إلى الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالا على الطرقات، أو على قسمة الأراضى.

وقد جاءت نصوص كثيرة عن عدة من الصحابة تفيد معنى الحديث الذى سقناه هنا ورواه صاحبا الصحيح، فقد أخرج عبد بن حميد والطبرى فى تفاسيرهم والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق عمرو بن ميمون عن عبد الله ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ الآية. قال: تبدل الأرض أرضًا كأنها الفضة لم يُسفك عليها دم حرام، ولم يعمل عليها خطيئة،... ورجاله رجال الصحيح، وهو موقوف، وأخرجه البيهقى من وجه آخر مرفوع. وقال: الموقوف أصح[٣].

---

(١) مختصر معارج القبول (ص: ٢٣٦: ٢٣٧).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (٨٠٤٤).

(٣) فتح البارى (١١/ ٣٧٥).

وقال ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خُبزةً واحدة يتكفَّأها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نُزلاً لأهل الجنة»(١).

• أين أرض المحشر •

جاءت الأحاديث الصحيحة لتخبر أن أرض المحشر هي أرض الشام وسأكتفي بذكر بعضها للاستدلال بها.

روى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه... (فذكر الحديث، وفيه قوله ﷺ:) «ها هُنا تُحشرون، ها هُنا تُحشرون، ها هُنا تُحشرون (ثلاثًا)؛ ركبانًا، ومشاة، وعلى وجوهكم».

قال ابن أبي بكير: فأشار بيده إلى الشام، فقال: «إلى ها هُنا تُحشرون».

وفي رواية الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده؛ قال: قلت: يا رسول الله! أين تأمرني؟ قال: «هاهنا (ونحا بيده نحو الشام)»(٢).

• ما السبب في كون أرض الشام هي أرض المحشر •

وقد يسأل سائل ويقول: فما هو السبب في كون أرض الشام هي أرض المحشر؟

وتأتي الإجابة على لسان الإمام المحدِّث الجليل ابن حجر ـ رحمه الله ـ .

قال ابن حجر: «وفي تفسير ابن عيينة عن ابن عباس: من شك أن المحشر هاهنا ـ يعني: الشام ـ فليقرأ أول سورة الحشر، قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ: اخرجوا. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر»(٣).

والسبب في كون أرض الشام هي أرض المحشر أن الأمن والإيمان حين تقع الفتن في آخر الزمان يكون بالشام.

وقد جاء في فضله والترغيب في سكناه أحاديث صحيحة:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي سعيد ـ صحيح الجامع (٢٩٨٨).

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال ابن حجر في الروايتين: «أخرجه الترمذي والنسائي وسنده قوي». [فتح الباري (١١/ ٣٨٠)].

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٨٤ ـ ٨٥) ـ فتح الباري (١١/ ٣٨٠).

عن عبد الله بن حوالة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ ليلة أُسرى بى عمودًا أبيض كأنه لواءٌ تحمله الملائكة، فقلتُ: ما تحملون؟ قالوا: عمود الكتاب؛ أُمرنا أن نضعه بالشام»[١].

وقال ﷺ: «عليكم بالشام فإنها صفوة بلاد الله يُسكنها خيرته من خلقه فمن أبىَ فليلحق بيمنه وليُسقَ من غُدُره فإن اللهَ عز وجل تكفَّل لى بالشام وأهله»[٢].

وقد دعا رسول الله ﷺ للشام بالبركة؛ كما ثبت فى «الصحيح» عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «اللهم بارك لنا فى شامنا، اللهم بارك لنا فى يمننا»[٣].

وقد تقدم أن نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان يكون بالشام وبه يكون اجتماع المؤمنين لقتال الدجال.

• يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات •

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، وذكر الحديث وفيه: فقال اليهودى أين يكون الناس ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم فى الظلمة دون الجسر»[٤].

وعن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ فأين يكون الناس يومئذ؟ قال: «على الصراط»[٥].

* وقال ابن عباس وابن مسعود: تُبدل الأرض أرضًا بيضاء كالفضة لم يُسفك عليها دمٌ حرام ولم يُعمل عليها خطيئة قط... قال ابن مسعود وأيضًا تُبدل الأرض نارًا والجنة من ورائها يرى أكوابها وكواعبها[٦].

* وبذلك نعرف أن النبى ﷺ قد أخبر أن الوقت الذى يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل.

(١) رواه أحمد وقال ابن حجر: سنده صحيح [فتح البارى (١٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)].
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن واثلة ـ صحيح الجامع (٤٠٧٠).
(٣) أخرجه البخارى (١٣/ ٤٥) كتاب الفتن.
(٤) أخرجه مسلم (٣١٥) والبيهقى (١/ ١٦٩) وأبو عوانة (١/ ٢٩٤).
(٥) أخرجه مسلم (٢٧٩١) والترمذى (٣١٢١) وابن ماجه (٤٢٧٩).
(٦) خبر صحيح: أخرجه ابن المبارك (٣٨٨) كما فى زوائد الزهد.



مشاهد وأهوال يوم القيامة

إن يوم القيامة خَطْبُه جليل وشأنه عظيم لا يستطيع عقل بشر أن يتخيل شدائده وأهواله... فلقد وصفه الحق (جل وعلا) بأنه يوم عظيم فقال تعالى: ﴿أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:٤:٦) ووصفه في موضع آخر بأنه عسير فقال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (المدثر:٩، ١٠) ووصفه في موضع آخر بأنه ثقيل فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ (الإنسان:٢٧).

* بل إن الطفل الوليد الذي لم يفعل سيئة واحدة ولم يرتكب جُرمًا فإنه يشيب شعر رأسه إذا عاين ورأى يوم القيامة... قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ (المزمل:١٧، ١٨).

* وها هي الأم التي تتمنى أن تفدي وليدها بنفسها... ها هي تذهل عنه في ذلك اليوم... والحامل تُسقط حملها وترى الناس كأنهم سُكارى من هول ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:١، ٢).

* وها هي الأنساب تنقطع بين الناس كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون:١٠١).

فكل واحد يريد النجاة بنفسه ولا يهتم بغيره بل إنه يفر من أحب الناس إليه... قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس:٣٣:٣٧).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ

جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان:٣٣).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة:٤٨).

* وها هى أبصار الظالمين تشخص من هول ذلك اليوم فلا تطرف أبدًا من شدة الخوف ولا تلتفت يمينًا ولا شمالاً بل تصبح أفئدتهم خاوية لا تعقل شيئًا.. قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم:٤٢، ٤٣).

بل ترتفع قلوبهم من شدة الهول إلى حناجرهم فلا هى تخرج ولا تستقر فى مكانها.

* قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ (غافر:١٨). فالقلوب زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم. قال قتادة: وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها... ومعنى كاظمين: أى ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ:٣٨)[1].

* ويزداد هول ذلك اليوم بسبب طول الإنتظار .

قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٤:٧) ولذلك فهم يظنون أنهم لم يلبثوا إلا يومًا أو جزءًا يسيرًا من اليوم.

قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (المؤمنون:١١٢) وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات:٤٦) وقال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ (طه:١٠٤) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (الروم:٥٥).

* وحسبنا أن نعرف أن الكافر يأتى يوم القيامة فيرى أهوالها وشدائدها فيتمنى أن يفدى نفسه بكل ما فى هذا الكون.... قال تعالى مصورًا هذا المشهد المهيب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) مختصر معارج القبول (ص: ٢٣٨).

كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ (آل عمران:٩١) وقال تعالى: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ (يونس:٥٤) بل إنه لو كان يملك ضعف ما فى الأرض لافتدى به ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ (الرعد:١٧).

قال ﷺ: يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سألتك ما هو أيسر من ذلك...»[1].

بل يصل الحال بهذا الكافر فى ذلك اليوم إلى أنه يتمنى أن يفدى نفسه من العذاب ولو دفع بأعز الناس عنده فى النار... قال تعالى: ﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه (١١) وصاحبته وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤويه (١٣) ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى﴾ (المعارج:١١:١٥).

• أول من ينشق عنه القبر •

فإذا نفخ إسرافيل (عليه السلام) نفخة البعث يكون حبيبنا ﷺ أول من ينشق عنه القبر ـ أى أول من تنشق عنه الأرض ـ .

قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشقُّ عنه القبر وأول شافع وأول مشفع»[2].

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «استبَّ رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال: المسلم: والذى اصطفى محمد على العالمين، فقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودى، فذهب اليهودى إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذى كان من أمره وأمر المسلم، فقال: لا تُخيرونى على موسى، فإنَّ الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق، أو كان ممن استثنى الله عز وجل».

(١) أخرجه البخارى (١١/ ٤٠٠) كتاب الرقاق/ باب: من نوقش الحساب عُذب.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٤٦٧).

وفى رواية لهما «... فإنه ينفخ فى الصور، فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدرى: أحوسب بصعقة الطور، أم بُعث قبلى؟».

• أول من يكسى يوم القيامة •

لقد أخبرنا الحبيب ﷺ أن الناس يوم القيامة يُحشرون حفاة عُراة غُرلاً ثم يكسى العباد بعد ذلك... فالصالحون يُكسون الثياب النفيسة الكريمة والطالحون يُسربلون بسرابيل القطران ودروع الجرب وغيرها من الملابس التى تليق بكفرهم ومعصيتهم.

ولكن يا تُرى من أول من يُكسى يوم القيامة؟

والجواب يأتينا على لسان الحبيب ﷺ حيث يقول: «أول من يُكسى من الخلائق إبراهيم»[1].

وفى الصحيحين أنه ﷺ قال: «إن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل».

* وعن على (رضى الله عنه) قال: «أول من يكسى خليل الله إبراهيم قبطيتين[2] ثم يُكسى محمد ﷺ حُلة حبرة[3] عن يمين العرش»[4].

قال ابن حجر: «وأخرج البيهقى من طريق ابن عباس نحو حديث البابَ وزاد: «وأول من يكسى من الجنة إبراهيم، يكسى حُلة من الجنة، ويؤتى بكرسى فيُطرح عن يمين العرش، ثم يؤتى بى فأكسى حُلة من الجنة لا يقوم لها البشر»[5].

* وتكلم العلماء فى حكمة تقديم إبراهيم عليه (الصلاة والسلام) بالكسوة، فروى أنه لم يكن فى الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخوف من إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فتعجل له كسوته أمانًا له ليطمئن قلبه، ويحتمل أن يكونَ ذلك لما جاء به الحديث من أنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة فى التستر، وحفظًا لفرجه من أن يماس مصلاه ففعل ما أمر به، فيُجزى بذلك أن يكون أول من يُستر يوم القيامة،

---

(١) رواه البزار عن عائشة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٨٤).

(٢) قبطيتين: مثنى قبطية وهى ثوب من كتان أبيض رقيق.

(٣) حبرة: الثوب الناعم الموشى: أى المنقوش.

(٤) خبر صحيح: أخرجه ابن المبارك كما فى زوائد الزهد (٣٦٤) وابن أبى شيبة (٨/ ٣٤٨).

(٥) فتح البارى (١١/ ٣٨٤).

ويحتمل أن يكون الذين ألقوه فى النار وجردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يُفعل بمن يراد قتله، وكان ما أصابه من ذلك فى ذات الله عز وجل، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله تعالى دفع الله عنه شر النار فى الدنيا والآخرة، وجزاه بذلك العرى أن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهذا أحسنها، والله أعلم.

وإذا بدىء فى الكسوة بإبراهيم وثنى بمحمد ﷺ أوتى محمد بحُلة لا يقوم لها البشر لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة، فيكون كأنه كُسى مع إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. قاله الحليمى[1].

• كم يبلغ طول هذا اليوم •

وأما عن طول يوم القيامة فلقد أخبر عنه الحق (جل وعلا) بقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج:١:٤).

وكل ذلك فى انتظار بدء الحساب... ومع ذلك فهناك صنف كريم أخلص العبادة لله (جل وعلا) فيمر عليه يوم القيامة كما بين صلاتى الظهر إلى العصر.

قال ﷺ: «يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر»[2] ومع ذلك فإنهم لا يقفون فى أرض المحشر فى تلك الشمس الحارقة بل يجلسون فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا) يأكلون من تلك الوجبة التى أعدَّها لهم الملك (جل جلاله) وهى زيادة كبد الحوت ثم يذهبون لحوض النبى ﷺ فيشربون من يديه شربة هنيئة مريئة لا يظمأون بعدها أبدًا.

• من سره أن ينظر إلى يوم القيامة •

قال ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿إذا الشمس كُورت﴾ و﴿إذا السماء انفطرت﴾ و﴿إذا السماء انشقت﴾»[3].

(١) فتح البارى (١١/ ٣٨٤، ٣٨٥) ـ الفتن والملاحم (ص: ١٩٨) لابن كثير.

(٢) رواه الحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٩٣).

(٣) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٣).

وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة، لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها، وتكور شمسها وانكدار نجومها، وتناثر كواكبها، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم، بعد نشر صحفهم، وقراءة كتبهم، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم، أو من وراء ظهورهم فى موقفهم على ما يأتى بيانه.

قال الله تعالى: ﴿إذا السماءُ انشقَّت﴾ (الانشقاق:١) وقال: ﴿إذا السماءُ انفطرت﴾ (الانفطار:١) وقال ﴿ويومَ تشققُ السماءُ بالغمامِ﴾ (الفرقان:٢٥) فتراها واهية منفطرة متشققة، كقوله تعالى: ﴿وفُتحَت السماءُ فكانتْ أبوابًا﴾ (النبا:١٩) ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض، وقيل إن الباء بمعنى عن، أى تشقق عن سحاب أبيض، ويقال: انشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم، وذلك إذا بطلت المياه، وبرزت النيران، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن، وتنشق لما يريد الله من نقض هذا العالم، ورفعه. وقد قيل: إن السماء تتلون، فتصفر، ثم تحمر، أو تحمر. ثم تصفر، كالمهرة تميل فى الربيع إلى الصفرة، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة، ثم إلى الغبرة. قاله الحليمى.

وقوله تعالى: ﴿إذا الشمسُ كُورَتْ﴾ (التكوير:١) قال ابن عباس رضى الله عنه: تكويرها إدخالها فى العرش. وقيل: ذهاب صفوها... قاله الحسن وقتادة.

* فهى تُكوَّر، ثم يمحو ضوؤها ثم يُرمى بها والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وإذَا النُّجُومُ انكدَرَتْ﴾ (التكوير:٢) أى انتثرت، قيل: تتناثر من أيدى الملائكة، لأنهم يموتون، وفى الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدى الملائكة. وقال ابن عباس رضى الله عنه: انكدرت تغيرت، وأصل الانكدار الانصباب، فتسقط فى البحار، فتصير معها نيرانا، إذا ذهبت المياه.

وقوله: ﴿وإذَا الجبالُ سُيِّرتْ﴾ (التكوير:٣) هو مثل قوله ﴿يَومَ نُسيرُ الجبالَ﴾ أى تحول عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبًا مهيلاً، أى رملاً سائلاً، وتكون كالعهن، وتكون هباءً منبثًا، وتكون سرابا، مثل السراب الذى ليس بشىء. وقيل: إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم، كما تصير السماء من حرها كالمهل.

وقوله: ﴿وإذا العشَارُ عُطلتْ﴾ (التكوير:٤) أى عطلها أهلها، فلم تُحلب من الشغل بأنفسهم. والعشار: الإبل الحوامل، وأحدها عشر، وهى التى أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعدما تضع،... وإنما خص العشار بالذكر،

لأنها أعز ما يكون على العرب.

وقوله: ﴿وإذا الوُحُوشُ حُشِرتْ﴾ (التكوير:٥) أى جُمعت، والحشر الجمع.

وقوله ﴿وإذَا البحارُ سُجِّرتْ﴾ (التكوير:٦) أى أوقدت، وصارت ناراً. رواه الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنه. وقال قتادة: غار ماؤها، فذهب. وقال الحسن والضحاك: فاضت ويقال: أن الشمس تُلف، ثم تُلقى فى البحار، فمنها تحمى، وتنقلب ناراً. قال الحليمى: ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار فى قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة، فإذا كُورت، وأُلقيت فى البحر، فصارت نارا، ازدادت امتلاءً.

وقوله: ﴿وإذَا النُّفُوسُ زُوِّجتْ﴾ (التكوير:٧) تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد من دون الله شيئًا يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقال عكرمة: المعنى تُقرن بأجسادها، أى تُرد إليها، وقيل: يُقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان. وقيل: يُقرن المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين.

وقوله: ﴿وإذَا الموءُودَةُ سُئِلتْ﴾ (التكوير:٨) يعنى بنات الجاهلية، كانوا يدفنوهن أحياء، لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية: مخافة الحاجة والإملاق، وسؤال الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضُرب: لِمَ ضُربت؟ وما ذنبك؟ وقال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها، لأنها قُتلت بغير ذنب. وبعضهم يقرأ: وإذا الموؤدة سألت، تعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأى ذنب قتلتنى؟ وقيل: معنى سئلت، يسأل عنها كما قال: ﴿إنَّ العهدَ كانَ مسئُولاً﴾ (الإسراء:٣٤).

وقوله: ﴿وإذَا الصُّحُفُ نُشرتْ﴾ (التكوير:١٠) أى للحساب.

وقوله: ﴿وإذَا السماءُ كُشطَتْ﴾ (التكوير:١١) قيل: معناه طُويت، كما قال الله تعالى: ﴿يومَ نَطوِى السماءَ كطى السجلِ للكتبِ﴾ (الأنبياء:١٠٤) أى كطى الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى «على»، يقال: كشطتَ السقف، أى قلعته، فكان المعنى: قُلعت، فطويت والله أعلم، والكشط والقشط سواء، وهو القلع، وقوله ﴿وإذَا الجحيمُ سُعِّرتْ﴾ (التكوير:١٢) أى أوقدت. وقوله: ﴿وإذَا الجنَّةُ أُزلفَتْ﴾ (التكوير:١٣) أى قربت لأهلها، وأدنيت.

﴿علمتْ نفسٌ ما أحضرتْ﴾ (التكوير:١٤) أى من عملها، وهو مثل قوله ﴿علمتْ نفسٌ ما قدَّمتْ وأخَّرتْ﴾ (الانفطار:٥)[1].

• يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم •

فمثّل لنفسك وقد بُعثت من قبرك مبهوراً من شدة الصاعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الرعب مضافًا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر.... قال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨).

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور واسترت عن الخلائق فقارفت الفجور وظننت أن يوم الفصل بعيد.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ① مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ③﴾ (الأنبياء:١:٣).

فأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سُئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم.

ومن أُخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه ـ الذى أخبر ـ صدقت، ثم مد يديه لتناوله؛ كان مصدقًا بلسانه ومكذبًا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان.

فتفكر فى الخلائق وذلهم. وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفًا من هذه الصعقة، وانتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل إن كنت فى الدنيا من المترفين والأغنياء المتنعمين فملوك الأرض فى ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم.... يوطئون

---

(١) التذكرة (١/ ٤١٠: ٤١٥) بتصرف.

بالأقدام مثل الذر، وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسه رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها، ولكن حشرنهم شدة الصعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (التكوير:٥).

فانظر يا مسكين فى هول ذلك اليوم وشدته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطُمس ضوء الشمس والقمر، وأظلمت الأرض لخمود سراجها. فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ويا هيبةً ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها! ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صُفرة فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة.

إنه اليوم الذى قال عنه الحق جل وعلا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (طه ١٠٥:١٠٧).

إنه اليوم الذى قال عنه الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج:١:٢).

• يوم القيامة... يا له من يوم •

* إنه اليوم الذى يقبض فيه الحق (جل وعلا) الأرض بيده ويطوى السماوات بيمينه كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧) بل لقد أخبر عن كيفية طيه للسماوات فقال (عز وجل): ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٤).

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود أن يهوديا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ، حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (الزمر:٦٧).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوى الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرض بشماله - وفي رواية: يأخذهن بيده الأخرى - ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟».

* وإنه اليوم الذي تتفجر فيه البحار وتشتعل ناراً «وإذا البحار فُجرت» «وإذا البحار سُجرت».

* بل وتُنسف فيه الجبال الراسيات وتصبح كثيبًا مهيلاً ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء... قال تعالى: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا﴾ (المزمل:١٤).

وقال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة (١٣) وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة (١٤) فيومئذ وقعت الواقعة (١٥) وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾ (الحاقة:١٣:١٦).

بل إن الحق (جل وعلا) يزيل هذه الجبال عن مواضعها.... قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا (١٠٥) فيذرها قاعا صفصفا (١٠٦) لا ترى فيها عوجا ولا أمتا﴾ (طه:١٠٥:١٠٧).

وقال تعالى: ﴿وسيرت الجبال فكانت سرابا﴾ (النبأ:٢٠).

* حتى هذه السماء الجميلة التي تسعد القلوب والعيون برؤيتها فإنها تضطرب اضطرابًا عظيمًا وتمور مورانًا وتتشقق «إذا السماء انفطرت» «إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحُقت» فتصبح السماء واهية ضعيفة «وانشقت السماء فهي يومئذ واهية».

أما لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب، وتأخذ السماء في التلون في ذلك اليوم كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء، وتارة صفراء، وأخرى خضراء، ورابعة زرقاء، كما قال تعالى: ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾ (الرحمن:٣٧).

* حتى هذه الشمس التي جعلها الله سببًا من أسباب الحياة فإنها تُجمع وتُكور ويذهب ضوؤها كما قال تعالى: «إذا الشمس كُورت».

بل وهذا القمر الذي نراه في أبهى وأجمل صورة ويأنس به المسافرون فإنه يخسف ويذهب ضوؤه كما قال تعالى: ﴿فإذا برق البصر (٧) وخسف القمر﴾ (القيامة:٧، ٨).

وهذه النجوم التي تُزين السماء فإنها تنكدر وتتناثر كما قال تعالى: «وإذا الكواكب انتثرت» وقال تعالى: «وإذا النجوم انكدرت».

فيا له من يومٍ ما أصعبه... فنسأل الله (عز وجل) أن يربط على قلوبنا وأن يرزقنا الأمان في يوم الفزِع الأكبر.

• فاستعد يا مسكين لهذا اليوم •

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سُيرت، والعشار قد عُطلت، والوحوش قد حُشرت، والبحار قد سُجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت، والجحيم قد سُعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نُسفت، والأرض قد مُدت، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليروا أعمالهم، يوم تُحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، يومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة .يوم تُرج الأرض فيه رجًا وتبس الجبال بسًا فكانت هباءً منبثًا، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذابَ الله شديد، يوم تُبدل الأرضَ غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تُنسف فيه الجبال نسفًا فتترك قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوِجًا ولا أمتا، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يُمنع فيه العاصي من الكلام، ولايسأل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا، يوم تعلم فيه كل نفس ماً أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يومٌ شيّب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله قال: «شيبتني هود وأخواتها»[1].

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة ـ صحيح الجامع (٣٧٢٠).

وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت، فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، حيث أُغلقت الأبواب وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء:١:٣) ثم يعرفنا قُرب القيامة فيقول:﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:١) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٦، ٧) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلا تتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يدركنا الله بواسع رحمته[1].

مثّل لقلبك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمورُ
قد كُورت شمس النهار وأضعفت	حراً على روس العباد تفورُ
وإذا الجبال تعلقت بأصولها	فرأيتها مثل السحاب تسيرُ
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت	وتبدلت بعد الضياء كدورُ
وإذا العشار تعطلت عن أهلها	خلت الديار فما بها معمورُ
وإذا الوحوش لدى القيامة أُحضرت	وتقول للأملاك أين نسيرُ
فيقال سيروا تشهدون فضائحًا	وعجائبًا قد أُحضرت وأمورُ
وإذا الجنين بأمه متعلقٌ	خوف الحساب وقلبه مذعورُ
هذا بلا ذنب يخاف لهوله	كيف المقيم على الذنوب دهورُ؟؟

• مجيء جهنم •

تأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا، ينتظرون حقيقة أنبائها، وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ـ صفة نفخ الصور وأرض المحشر ـ كتاب ذكر الموت ـ بتصرف.

ذات شُعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تُفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق الأتقياء من سوء المنقلب. وخرج المنادى من الزبانية قائلا: أين فلان بن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل، المضيع عمره فى سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه فى قعر الجحيم، ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان:٤٩) فأسكنوه داراً ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قد شُدت أقدامهم إلى النواصى، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى، ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها: يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يامالك قد نضجت منا الجلود، يامالك أخرجنا منها فإنا لا نعود، فتقول لهم الزبانية: هيهات هيهات لا خروج لكم من دار الهوان. فلا ينجيهم الندم، ولا يغنيهم الأسف فهم غرقى فى النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران، وسرابيل القطران، وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون فى مضائقها، ويتحطمون فى دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلى بهم النار كغلى القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صُبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يُصهر به ما فى بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها.... وكسرت عظامهم، وجُدعت آذانهم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وغُلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم، وهم يمشون على النار بوجوههم، ويطأون حسك الحديد[1] بأحداقهم، فلهيب النار سار فى بواطن أجزائهم، وحيات الهاوية وعقاربها منشبثةً بظواهر أعضائهم. هذا بعض جملة أحوالهم[2].

قال ﷺ «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران وأذنان يسمعان ولسان

(١) الحَسَكُ: نبات له ورق وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شُعب ويعمل على مثال شوكه أداة للحرب من حديد أو قصب فيلقى حول المعسكر ويسمى باسمه. القاموس المحيط (ص ١٢٠٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤) بتصرف.

ينطق يقول: إني وكلت بثلاثة..... بكل جبارٍ عنيد وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر وبالمصورين»[1].

وقال ﷺ «يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[2]. فياله من مشهد مهيب تتفطر منه القلوب فإذا جئ بجهنم لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه وقال: يارب سلم سلم.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:٢١:٢٤).

تأمل معى هذه الحسرة الشديدة لكل من فرط فى حق الله جل وعلا ـ أو رأى جهنم فإنه يصرخ ويقول: (يا ليتنى قدمت لحياتى) كلمة يقولها كل من فرط فى الصلاة وكل من عق والديه وكل من ظلم العباد وكل من حارب الله جل وعلا وتقولها كل من تركت حجابها وخرجت سافرة متبرجة ناسيةً قول الله جل وعلا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٩).

وناسيةً قول رسول الله ﷺ «صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساءٌ كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[3].

أما آن الأوان يا أختاه أن تلبسي حجابك ليكون حجابًا لك من النار..... أما آن الأوان لتلبسي لباس الستر والعفاف وتنقادى لأمر الله وأمر رسول الله ﷺ حتى لا تكونى من أهل النار الذين أخبر عنهم النبي ﷺ فى الحديث السابق....إنها كلمة فى أذن كل فتاة مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر ـ يا أختاه أنقذى نفسك من النار قبل أن تصرخي وتقولي: «يا ليتنى قدمت لحياتى» .

(١) رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٥١) الصحيحة (٢٥١٢).

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود ـ كتاب صفه النار ـ صحيح الجامع (٨٠٠١).

(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٧٩٩).

فها هى الفرصة أمامك فتوبى إلى الله وأسرعى الخُطا ولسان حالك ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (طه:٨٤) واسجدى بين يدى الله عز وجل واطلبى منه المغفرة والرحمة فهو القائل ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (الحجر:٤٩، ٥٠)

ويا من تظلم وتتجبر لا تنس هذا المشهد المهيب عند مجئ جهنم فتب إلى الله وتحلل من المظالم. قبل أن تصرخ وتقول: «يا ليتنى قدمت لحياتى» فتندم حيث لا ينفع الندم ولا تُدفع النِقم.

• فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا) •

* ومع كل هذه الأهوال والكُربات فهناك صنفٌ كريم يكون فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا).

قال ﷺ : «سبعةٌ يظلهمُ الله فى ظله يومَ لا ظلَّ إلا ظلهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ فى عبادة الله، ورجُلٌ قلبُهُ معلقٌ بالمسجد إذا خرجَ منهُ حتىً يعودَ إليه، ورجُلان تحابَّا فى الله فاجتمعا على ذلكَ وافترقا عليه، ورجُلٌ ذكرَ الله خاليًا ففاضت عيناهُ، ورجُلٌ دعتهُ امرأة ذاتُ منصب وجَمال فقالَ: إنى أخافُ الله ربَّ العالمينَ، ورجُلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالهُ ما تنفقُ يمينُهُ»[(١)].

والإظلال فى ظل عرش الرحمن ليس مقصوراً على السبعة المذكورين فى الحديث بل لقد أخبر النبى ﷺ عن غيرهم أنهم يكونون فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا).

قال ﷺ : «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون لجلالى اليوم أُظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»[(٢)].

وقال ﷺ : «من أنظر مُعسراً أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»[(٣)].

وقال ﷺ : «من نفَّس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٦٠٣).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٩١٥).

(٣) رواه أحمد والترمذى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٠٧).

(٤) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى قتادة ـ صحيح الجامع (٦٥٧٦).

مشاهد أهل الجحود والكفران

• المشركون ومشاهد الحسرة •

إنها الحسرة على كل من أشرك بالله (جل وعلا).

وذهب يطلب المدد من البدوى وغيره وذهب يذبح وينذر لغير الله ويعتقد أن النفع والضر بيد المخلوقين وليست بيد الله جل وعلا ليعيش فى تلك الحياة، وقد انسلخ من ثوب الإيمان وارتدى ثوب الجحود والكفران فيُحرم من نعيم القرب من الرحمن ويعيش عيشة الذل والحرمان..... إنها الحسرة عندما يخرج أهل الشرك على تلك الهيئة التى يصورها القرآن لنا، حيث يقول جل وعلا ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج:٤٣:٤٤).

وقال ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ثم يطّلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كان يعبد؟ فيُمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون فيطلع عليهم رب العالمين...»[1].

ثم بعد ذلك ينادى المشركون على آلهتهم فلا تستجيب لهم. ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ (الكهف:٥٢).

وفى النهاية فالنار تجمع المشركين وآلهتهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأنبياء ٩٨:١٠٠)[2].

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٢٥).

(٢) وأنذرهم يوم الحسرة/ للمصنف (ص: ١٤٧، ١٤٨).

* قال ﷺ: «إذا جمعَ اللهُ الأولينَ والآخرينَ، ليومٍ لا ريبَ فيه، نادَى منادٍ: منْ كانَ أشركَ فى عَملٍ عملهُ لله أحداً فليطلبْ ثوابهُ مِنْ عِنده فإنَ اللهَ أغنى الشُركاءِ عنِ الشرك»[1].

وقال ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم الشركُ الأصغرُ الرِّياءُ، يقولُ الله يومَ القيامة إذا جزَى الناسَ بأعمالهم: اذهبُوا إلى الذينَ كنتمْ تراؤونَ فى الدُّنيا، فانظروا هلْ تجدونَ عندهم جزاءً»[2].

• هل يلقى الكافر ربه ويسأله؟ •

فإن قيل: فهل يلقى الكافر ربه ويسأله؟ قلنا: نعم بدليل ما ذكرنا. وقد قال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أُرسل إليهم﴾ (الأعراف:٦) في أحد التأويلين وقال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ (الأنعام:٣٠) وقال: ﴿أولئك يُعرضون على ربهم﴾ (هود:١٨) وقال: ﴿وعرضوا على ربك صفًا﴾ (الكهف:٤٨) الآيتين. وقال: ﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ (الغاشية:٢٥:٢٦).

وقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ إلى قوله: ﴿وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ (العنكبوت:١٢، ١٣) والآية فى هذا المعنى كثير.

فإن قيل: فقد قال (الله) تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين:١٥) وقال: ﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ (القصص:٧٨) وقال: ﴿ولا يكلمهم الله﴾ (البقرة:١٧٤) وهذا يتناول بعمومه جميع الكفار.

* فنقول ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض، وقد وفَّق أهل العلم بينهما بوجوه عدةً.

الأول، أن الكفار لا يُسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لِمَ عملتم كذا وكذا؟ وكذا يقال فى تكليمهم واعتذارهم، أى لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ[3].

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن أبى سعيد بن أبى فضالة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٢).
(٢) رواه أحمد عن محمود بن لبيد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥٥).
(٣) التذكرة (١/ ٥٥١: ٥٥٣) بتصرف.

الثانى: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لِمَ فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة(١).

الثالث: أنهم يُسألون فى يوم القيامة فى موطن دون موطن وقال القرطبى: «القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك»(٢).

الرابع: قال القرطبى: «إن معنى قوله تعالى: ﴿ولا يُسْئَلُ عن ذُنُوبِهِمُ المُجرِمُونَ﴾ (القصص:٧٨) سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أى إن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحداً يوم القيامة أن يقال: ما دينك؟ وما كنت تصنع فى الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنا أو كان كافرا، لكن المؤمنين يكونون ناضرى الوجوه منشرحى الصدور، ويكون المشركون سود الوجوه زرقا مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم فى الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم...»(٣).

• الكافر ليس له حسنات •

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣).

وقال ﷺ «إن الله تعالى لا يظلم المؤمن حسنةً يُعطى عليها فى الدنيا ويُثاب عليها فى الآخرة وأما الكافر فيُطعمَ بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعطى بها خيراً»(٤).

• لماذا يحاسب الكفار مع أن أعمالهم حابطة •

أما لماذا يحاسَبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة فلأمور:

الأول: إقامة الحجة عليهم، وإظهار عدل الله فيهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، وهو صاحب العدل المطلق، ولذلك يسألهم ويحاسبهم، ويطلعهم على سجلاتهم التى حوت أعمالهم، ويُظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم.

---

(١) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٧٤).

(٢) التذكرة (١/ ٥٥٣).

(٣) التذكرة (١/ ٥٥٥).

(٤) أخرجه مسلم وأحمد عن أنس ـ صحيح الجامع (١٨٥٣).

الثانى، أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم.

يقول شيخ الإسلام: «يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الإعتبار.

وإن أريد به المعنى الثانى فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر»[1].

قال ابن كثير: «وأما الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس الخلائق»[2].

الثالث، أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها، فيُسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق،... يقول القرطبى: «وفى القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها (أى فروع الشريعة) مسؤولون عنها، محاسبون بها، مجزيون على الإخلال بها، لأن الله تعالى يقول: ﴿وويلٌ للمشركينَ * الذينَ لا يؤتون الزكاة﴾ (فصلت:٦:٧).

فتوعدهم على منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المدثر:٤٢:٤٦) فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها، مجزيون بها.

الرابع، أن الكفار يتفاوتون فى كفرهم وذنوبهم، ومعاصيهم، ويحلون فى النار بمقدار هذه الذنوب، فالنار دركات بعضها تحت بعض، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض، وكلما كان المرء أشد كفرًا وضلالا كلما كان أشد عذابا، وبعض الكفرة يكون فى الدرك الأسفل من النار، ومنهم المنافقون ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء:١٤٥)..

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قَلَّت سيئاته، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذابا من أبى لهب.. فكان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٠٥).

(٢) النهاية/ لابن كثير (٢/ ٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٠٥).

• يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين •

قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومن شاء الله معهم من أهل القبلة. قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. فيقولون: ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار، فيقولون: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع الله عز وجل ما قالوا. فيأمر بإخراج من كان فى النار من أهل القبلة، فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أُخرجوا»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾[1].

فيا لها من فرحة لأهل الإسلام والتوحيد... فيا إخوانى اعرفوا قدر الإسلام، بل اعرفوا قدر أنفسكم فى ظل الإسلام.

• ظلمات بعضها فوق بعض •

إن الشدائد التى تمر بالكفار والمنافقين لا تنتهى أبداً... فالعذاب لا يفارقهم أبداً منذ اللحظة التى يأتيهم فيها ملك الموت وإلى أن يدخلوا نار جهنم ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ.

* فها هم يخرجون من قبورهم فى حالة شديدة من الذلة والمهانة كما وصفهم الحق (جل وعلا) فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾(المعارج:٤٣، ٤٤).

* بل إنهم ينادون بالويل والثبور إذا نُفخ فى الصور وقاموا من القبور... قال العزيز الغفور: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾(يس:٥١، ٥٢).

* وها هم فى أرض المحشر شاخصة أبصارهم وأفئدتهم خالية إلا من الهول والشدائد التى تحيط بهم من كل جانب.. قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١١١٠٤): رواه الطبرانى وفيه: خالد بن نافع الأشعرى قال أبو داود: متروك. قال الذهبى: هذا تجاوز فى الحد فلا يستحق الترك فقد حدَّث عنه أحمد بن حنبل وغيره وبقية رجاله ثقات.

طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم:٤٢، ٤٣).

* فإذا برزوا للواحد القهار جيء بهم في حالة شديدة من الذل والصغار مقرَّنين في الأصفاد مُسربلين بالقطران تغشى وجوههم النار... قال العزيز الجبار: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم:٤٨:٥٠).

* ويتحسر الكافر يوم القيامة على كفره ويندم على عمره الذي ضاع في الشرك والكفران بدلاً من أن يستعمله في نعمة التوحيد والإيمان... قال ذو الجلال والإكرام: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان:٢٧:٢٩).

* فيتمنى الكافر في ذلك اليوم أن يُهلكه الله وأن يجعله ترابًا ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ﴾ (النساء:٤١).

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (النبأ:٤٠).

* ويزداد الأمر سوءاً عندما يجد الكافر أعماله أصبحت يوم القيامة هباءً منثوراً... كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣).

ـ فأعمال الكفار تنقسم إلى قسمين:

أعمال باطلة وفاسدة لا يُرجى من ورائها أي خير فهذه ظُلمات بعضها فوق بعض... كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور:٤٠).

والنوع الثاني، أعمال طيبة كالإنفاق والعتق وصلة الأرحام وغير ذلك... ولكنها لا تنفعه لأن الكفر قد أحبط تلك الأعمال كلها ولذلك شبَّهها الحق (جل وعلا) بالسراب الذي لا حقيقة له فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور:٣٩).
وشبهها في موضع آخر بالرماد الذي فرقته الرياح فلا يستطيع صاحبه أن يجمعه مرة

أخرى... فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم:١٨).

وشبهها فى موضع ثالث بالرياح الشديدة الباردة التى تهب على الزروع والثمار فتهلكها... فقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١١٧).

ـ فهؤلاء يأتون يوم القيامة وهم يظنون أن أعمالهم ستنفعهم وإذا بهم يجدون أعمالهم هباءً منثوراً... وعلى رأس هؤلاء اليهود والنصارى ـ بعد البعثة النبوية ـ وكذلك بعض المنتسبين إلى الإسلام الذى أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً... قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (الكهف:١٠٣:١٠٦).

• فتنة الاتباع والمتبوعين •

إنه مشهد الخزى الذى تتفطر له القلوب المؤمنة إنها اللحظة الحاسمة التى يتبرأ فيها أهل الطغيان من الأتباع الذى اتبعوهم فى كفرهم وضلالهم.

وكانت البداية فى الحياة الدنيا كما سطرها الله فى كتابه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت:١٢).

وهذه هى البداية وهذا هو دأب أهل الضلال فى مكرهم بأهل الإيمان فهم يطلبون منهم أن يتبعوهم فى كفرهم ويعطونهم العهود والمواثيق أنهم سيحملون خطاياهم يوم القيامة «وهذا على سبيل المكر والخداع» فمن تبعهم من المؤمنين فى الدنيا فسوف يذوق الحسرة الدائمة التى لا تنقطع فى الآخرة ولذا قال الله جل وعلا رداً على هؤلاء الكافرين: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (العنكبوت:١٢، ١٣).

ولكى يزداد الأمر وضوحاً وجلاءً فإن الحق تبارك وتعالى يصور لنا تلك المشاهد

محذراً لنا من اتباع أهل الباطل ومحذراً لنا من حسرات يوم القيامة. فقال جل وعلا ﴿وبرزوا لله جميعًا فقال الضعفاء للذين استكبروا﴾ (إبراهيم:٢١).

أى قال الأتباع وهم ضعاف الإيمان للكبراء والكفار ﴿إنا كنا لكم تبعًا﴾ لقد سرنا وراءكم فى كل ما يغضب الله جل وعلا وما عصينا أمركم أبداً بل عصينا الله من أجل أن ترضوا عنا ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ يسألونهم هل ستدفعون عنا شيئًا من عذاب الله كما أطعناكم فى سخط الله ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم:٢١).

فيا لها من حسرة شديدة!!!

وما زالت المشاهد تتوالى وتتوالى ـ يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار﴾ (غافر:٤٧). فإذا بالسادة أذلة قد عنت وجوههم للحى القيوم ولا يملكون لأنفسهم شيئًا ولا يستطيعون وهم يقولون ﴿إنا كلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ (غافر:٤٨).

فكم من ظالم يردد ﴿اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (العنكبوت:١٢، ١٣).

فالعقلاء بمقالتهم لا يغترون وإن فعلوا فهم فى العذاب والخزى والحسرة يومئذ مشتركون.

وتصور معى يا أخى هذا الجو من الحسرة والخزى والندامة والمخيمة على المستضعفين والمستكبرين ـ فالأتباع الضعفاء يتهمون زعماءهم بالحيلولة بينهم وبين الإيمان.... والمستكبرون يقولون لأتباعهم أنتم المجرمون دعوناكم فكنتم مجيبين..... فلو رأيتهم إذ وقفوا بين يدى ربهم من غير إرادة منهم ولا اختيار ترهقهم ذلة وهم ينتظرون الجزاء!!

يتراجعون فيرجع بعضهم إلى بعض القول ويلوم بعضهم بعضًا ويؤنب بعضهم بعضا، ويُلقى بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض فيقول أتباع الضلال الذين استُضعفوا لقادة الضلال الذين استكبروا ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ (سبأ:٣١).

يقولونها جاهلين بها صادعين فى وقت لم يكونوا فى الدنيا بقادرين على تلك المواجهة، فكان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام وبيع الحرية التى وهبها الله لهم

والكرامة التى منحهم الله إياها.

فاليوم فى تلك الحسرة قد سقطت القيم الزائفة وواجهوا العذاب فهم يقولونها غير خائفين ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ لقد كنتم حائلاً بيننا وبين الإيمان لقد زينتم لنا الفسق والكفران فأنتم المجرمون وبالعذاب أنتم جديرون وله مستحقون.... وفى تلك اللحظات يضيق الذين استكبروا بهم ذرعا فهم فى البلاء سواء.... وعندها يردون عليهم فى ذلة مصحوبة بفظاظة وفحشاء ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ الله أكبر!! كانوا فى الدنيا لا يقيمون للضعفاء وزنا ولا يأخذون لهم رأيًا ولا يعتبرون لهم وجودا ولا يحتملون منهم مخالفة أو حتى مناقشة، أما اليوم فى تلك الحسرة فهم يسألونهم فى ذل وحقار ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ (سبأ:٣٢).

وهذا اعتراف منهم بأنهم زينوا لهم الإجرام والكفر ولكنهم لم يقهروهم عليه بل لقد كان الضعفاء مستعدين لقبول هذا الكفر والإجرام.

وتأتى الردود الحاسمة من المستضعفين الذين لم يكونوا فى الدنيا قادرين على أن ينطقوا بكلمة واحدة، ولكن بعد أن سقطت القناعات الزائفة وظهرت الحقائق واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار قالوا: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونْنا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ (سبأ:٣٣).

أى أن مكركم لم يفتر ليلاً ولا نهاراً فى الصد عن الهدى فأنتم تزينون لنا الضلال وتشجعوننا على الفساد وتقولون إنه الحق ثم تقدحون فى الحق وتزعمون أنه باطل فما زال مكركم بنا حتى أغويتمونا وفتنتمونا!!

وتالله يا إخوانى إن صور المكر تتنوع وتتغير من عصر لآخر ففى وقت نزول القرآن كانت تتخذ أشكالاً من الأشعار فى المنتديات الجاهلية توجه بها التهم الباطلة لرسول الله ﷺ ومن معه أو لصد الناس عن سماع الحق، أو لإثارة نعرة القوميات والآباء والأجداد، لكن ماذا يساوى هذا المكر بالنسبة للمكر فى زماننا الحاضر فما يكاد التلفاز وما فيه من الرذيلة يبث على مدى الأربع وعشرين ساعة الرذيلة فى بيوت المسلمين وينهاهم عن كل فضيلة وما يكاد التلفاز يغلق حتى يأتى دور الفيديو ثم يأتى البث المباشر ثم المجلة الهابطة والقصة الخليعة، وهكذا ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ ولكننا نسأل أنفسنا هذا السؤال: هل يُعذر المسلم لمعايشة هذا المكر؟!

كلا والله لا يُعذر لأنه هو الذى أتى به إلى بيته واستأنس بكل ما فيه من الرذيلة

﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾.

ويرد هؤلاء المستضعفون ﴿بل مكر الليل والنهار﴾.

ومن هنا ندرك أن هذا الحوار اليائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء إلا براءة بعضهم من بعض لأنه قد علم كل واحد منهم أنه ظالمٌ لنفسه مستحقٌ للعذاب فندم حين لا ينفع الندم وتمنى أن لو كان على الحق والإيمان ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سبأ:٣٣)، فقضى الأمر وسكت الحوار وانتهى الجدل.

وفى سورة البقرة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله﴾ (البقرة:١٦٥)، أى مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطان الله وجليل قدرته وُجد فى الناس من يتخذ معه سبحانه ندًا يعبده من الأصنام ويحبه «كحب الله»، أى كحب المؤمنين لله... أو كما يحب المشركون الله يحبون أندادهم ﴿والذين آمنوا أشد حبًا لله﴾ أى أشد فى حبهم لله من حب الكفار للأنداد ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾ (البقرة:١٦٥).

أى ولو أن الذين ظلموا بمحبتهم الأنداد كحب الله لو يرون حالهم عند رؤيتهم العذاب يوم القيامة ومعاينتهم قوة الله وبطشه وعجز آلهتهم عن أن تدفع عنهم شيئا من عذاب الله ﴿إذ تبرأ الذين اُتبعوا﴾ أى تبرأ السادة والرؤساء وأئمة الكفر ممن تبعهم على الكفر ﴿ورأوا العذاب﴾ يعنى التابعين والمتبوعين ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ (البقرة:١٦٦) الصلات والعلاقات التى كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من الرحم وغيره ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة:١٦٧).

ففى هذا المشهد يتمنى الأتباع أن يعودوا إلى الدنيا ويعملوا صالحًا ويتبرأوا من أئمة الكفر كما تبرأوا منهم فى الآخرة، ولكن هيهات هيهات ويا لها من حسرة!!!

• وتتوالى المشاهد •

ومازالت المشاهد تتوالى لتوضح لنا صورة واضحة جلية من مخاصمة الضعفاء للسادة من الرؤساء والملوك والأمراء.

قال تعالى: ﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ (إبراهيم:٢١).

* «وبرزوا لله جميعًا»...

الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين. ومعهم الشيطان.. ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات.. برزوا «جميعًا» مكشوفين. وهم مكشوفون لله دائمًا. ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب، ولا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق.. برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار، وبدأ الحوار:

﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾.

والضعفاء هم الضعفاء. هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه؛ وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله. والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعًا عن نصيبه في الحرية - التي هي ميزته ومناط تكريمه - أو أن ينزل كارهًا. والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير. أما الروح. أما العقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال!

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالاً أو منصبًا أو مقامًا.. كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفًا يلحق صفة الضعف بالضعفاء. إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان!

إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة. فمن ذا الذى يُخضع الكثرة للقلة؟ وماذا الذى يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلى عن الكرامة التى وهبها الله لبنى الإنسان!

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير. فهى دائمًا قادرة على الوقوف لهم لو أرادت. فالإرادة هى التى تنقص هذه القطعان!

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء.. وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة!! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم «إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء»؟..

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟!

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة، وتعريضهم إياهم للعذاب؟ إن السياق يحكى قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال!

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال:

«قالوا: لو هدانا الله لهديناكم! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص!»..

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق:

«لو هدانا الله لهديناكم»..

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم فى طريق واحد إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتد ونضللكم. ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله. فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابًا لقدرة القاهر الجبار. وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله.. والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه: «إن الله لا يأمر بالفحشاء».. ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفى، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر. فقد حق العذاب، ولا راد له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذى كان الجزع فيه من العذاب يجدى فيرد الضالين إلى الهدى؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدى فتدركهم رحمة الله. لقد انتهى كل شىء، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص:

«سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»!

لقد قُضي الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار.. وهنا نرى على المسرح عجبًا. نرى الشيطان.. هاتف الغواية، وحادى الغواة.. نراه الساعة يلبس مسوح الكهان، أو مسوح الشيطان! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الله! الله أما إن الشيطان حقًا لشيطان! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين فى هذا الحوار...

إنه الشيطان الذى وسوس فى الصدور، وأغرى بالعصيان، وزيّن الكفر، وصدهم عن استماع الدعوة... هو هو الذى يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة، حيث لا يملكون أن يردوها عليه ـ وقد قضى الأمر ـ هو الذى يقول الآن، وبعد فوات الأوان:

«إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم»!

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له، وليس له عليهم من سلطان، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله:

«وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى»!

ثم يؤنبهم، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم. يؤنبهم على أن أطاعوه!:

«فلا تلومونى ولوموا أنفسكم»!

ثم يخلى بهم، وينفض يده منهم، وهو الذى وعدهم من قبل ومنّاهم، ووسوس لهم أن لا غالب لهم، فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ:

«ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ»..

وما بيننا من صلة ولا ولاء!

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك:

«إنى كفرت بما أشركتمون من قبل»!

ثم ينهى خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه:

«إن الظالمين لهم عذاب أليم»!

فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذى هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه؛ ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه!

وقبل أن يُسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة، الأمة الفائزة، الأمة الناجية:

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾.

ويسدل الستار..

فيا له من مشهد! ويا لها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة![1].

* بل يذكر الحق (جل وعلا) تخاصم الضعفاء والسادة فى موضع آخر فيقول: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ (غافر:٤٧، ٤٨).

* وها هى صورة أخرى من تخاصم الأتباع مع قادة الضلال من أصحاب المبادىء المناقضة للإسلام.

قال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الصافات:٢٢:٣٥).

---

(١) فى ظلال القرآن/ سيد قطب ـ رحمه الله ـ (٤/ ٢٠٩٥:٢٠٩٨).

* بل ها هى صورة أخرى من مخاصمة العابدين للمعبودين.

قال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ (الشعراء:٩١:٩٩).

إنهم يخاطبون آلهتم التى كانوا يعبدون، معترفين بضلالهم إذ كانوا يعبدونها، ويسوون بينها وبين الخالق، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى مرتبة الخالق، وكل من عبد من دون الله آلهة، فقد سوى بين الخالق والمخلوق، وهذا هو الظلم العظيم، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣).

أما الصالحون الأخيار الذين عُبدوا وهم لا يعلمون، أو عُبدوا بغير رضاهم كالملائكة وصالحى البشر، فإنهم يتبرؤون من عابديهم، ويكذبون زعم العابدين وافتراءهم فإن الملائكة ما طلبت هذه العبادة ولا رضيت بها، والذين طلبوها هم الجن، كى يضلوا البشر ويوبقوهم، فهؤلاء الضالون عبَّادون للجن لا للملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ:٤٠، ٤١)[1].

* بل إنه فى ذلك اليوم ـ يوم القيامة ـ يقع التخاصم بين الكافر وبين قرينه الشيطان.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (ق:٢٣:٢٩).

* ويخاصم البدن فى يوم القيامة الروح.

قال ابن كثير: «وقد روى ابن مندة فى كتاب «الروح» عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد، فتقول الروح للجسد: أنت فعلت. ويقول الجسد للروح: أنت أمرت، وأنت سولت.

---

(١) القيامة الكبرى (ص: ١٢٩).

فيبعث الله ملكا يفصل بينهما، فيقول لهما:

إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير، والآخر ضرير دخلا بستانا. فقال المقعد للضرير: إنى أرى هاهنا ثمارا، ولكن لا أصل إليها.

فقال له الضرير: اركبنى فتناولها. فركبه فتناولها. فأيهما المعتدى؟

فيقولان: كلاهما.

فيقول لهما الملك: فإنكما قد حكمتما على أنفسكما. يعنى أن الجسد للروح كالمطية، وهو راكبه»[1].

* وفى ذلك الموقف يمقتون أنفسهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (غافر:١٠)، كما يمقتون كل الذين كانوا لهم أنصاراً وخلانًا فى الدنيا، ويدعون عليهم، ويطلبون لهم المزيد من العذاب ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٦٦:٦٨) ولشدة حنقهم على من أضلهم يسألون الله أن يريهم الذين أضلوهم ليدوسوهم بأقدامهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (فصلت:٢٩)[2].

• الجوارح والأركان تعترف بجرائم الإنسان •

بل إن الجوارح والأركان تنطق وتعترف بجرم كل مَنْ كفر بالله جل وعلا، وبذنب كل مَنْ عصى الله سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٤). ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس:٦٥). ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٩٢).

(٢) القيامة الكبرى (ص: ١٤٠: ١٤١).

مِمَّا تعملون ﴿٢٢﴾ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴿٢٣﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ (فصلت:١٩:٢٤).

قال ﷺ: «هل تُضارّون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليست فى سحابة؟ قالوا: لا قال: هل تُضارّون، فى رؤية القمر ليلة البدر ليس فى سحابة؟ قالوا: لا قال: فوالذى نفسى بيده لا تضارّون فى رؤية ربكم عز وجل إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما فيلقى العبد فيقول: أى فُل - يعنى يا فلان - ألم أكرمك وأسوِّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أى رب! فيقول: أفظننت أنك ملاقىَّ؟ فيقول: لا فيقول: فإنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى الثانى فيقول له: أى فُلُ؟ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أى رب! فيقول: أفظننت أنك ملاقىَّ؟ فيقول: لا فيقول: إنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: رب آمنت بك وبكتابك. وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع فيقول: هاهنا إذن. ثم يقال: الآن نبعث شاهداً عليك ويتفكر فى نفسه: مَن ذا الذى يشهد علىَّ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه: انطقى فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذَر من نفسه، وذلك المنافق الذى يسخط الله عليه»[1].

فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاها، فيقول لك: ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته، ألم أمهل لك من العمر ففيماذا أفنيته، ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبه، وفيماذا أنفقته، ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت. فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساوئك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك.. قال أنس رضى الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: «أتدرون مما أضحك» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تُجرنى من الظلم؟» قال: «يقول: بلى» قال: «فيقول: فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا وبالكرام الكاتبين شهودًا» قال: «فيُختم على فيه ويقال لأركانه انطقى» قال: «فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه: بعداً لكنَّ وسُحقًا فعنكن كنت أناضل»[2].

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٧٠٣٢).

(٢) أخرجه مسلم عن أنس - صحيح الجامع (٨١٣٤).

فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره.

فاتق الله يا أخى فى تلك الجوارح ولا تسعَ بها إلى المعاصى، بل اجعلها تعمل فى طاعة الله جل وعلا، فإن الجوارح ستنطق وتتكلم وتخبر بما عملته، وهذا ليس بعجيب إذا ما علمت أن الأرض التى هى من الحجارة والصخور سوف تتكلم وتُخبر بكل ما حدث على ظهرها ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة:٤، ٥).

* * *

مشاهد أهل العصيان يوم القيامة

إننا لابد أن نعلم يقينًا أنه ما من ذنب إلا وكانت عاقبته الحسرة والندامة فى الدنيا والآخرة ولكننى سوف أُلقى الضوء علىٰ بعض الذنوب التى تصاحبها مشاهد الحسرة يوم القيامة.

يقول ابن الجوزى: لتعظمن على أهل المخالفات الآفات ولتقطعن أفئدة المفرطين بالزفرات وليشهرن الفاجر فى الخلوات بالجلوات ولتمورن السُّوق يوم السَّوق إلى سُوق المحاسبات ولتسلين الدماء بعد الدموع على الوجنات وليتحسرن أهل المعاصى إذا لاحت درجات الجنات وليناديِن منادى الجزاء يخبر بتفاوت العطاء ووقوع السيئات ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الجاثية:٢١).

* وقال أبو حامد فى كتاب (كشف علم الآخرة): ومن الناس من يُحشر بفتنته الدنيوية، فقوم مفتونون بالعود معتكفون عليه دهرهم، فعند قيام أحدهم من قبره يأخذه بيمينه فيطرحه من يده ويقول: سحقًا لك، شغلتنى عن ذكر الله، فيعود إليه، يقول: أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، وكذلك يبعث السكران سكران، والزامر زامرًا، وكل واحد على الحال الذى صده عن سبيل الله. قال: ومثل الحديث الذى روى فى الصحيح، أن شارب الخمر يحشر والكوز معلق فى عنقه، والقدح بيده، وهو أنتن من كل جيفة على الأرض، يلعنه كل من يمر به من الخلق[1].

• من قتل نفسًا بغير حق •

إنها الحسرة على كل من قتل نفسًا بغير حق.

فقد قال جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٩٣).

---

(١) نقلاً من التذكرة/ للقرطبى (١/ ٣٩٥).

وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢).

وأما حسرته في الآخرة فقد أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ ، فقال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة ـ وذكر منهم ـ ومطّلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه»[١]. فهو من أبغض الخلق إلى الله جل وعلا في الدنيا والآخرة.

أما المشهد الثاني فيصوره لنا النبي ﷺ قائلاً: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دمًا فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش»[٢].

قال ابن العربي: «ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك فكيف بقتل الآدمي فكيف بالمسلم فكيف بالتقي الصالح»[٣][٤].

• الذين يأكلون الربا •

إنها الحسرة على من ترك البيع الحلال وذهب يتعامل بالربا الذي حرّمه الله (عز وجل).

فأما حسرته في الدنيا فيقول النبي ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه وهم فيه سواء»[٥]. وقال: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد عند الله من ستة وثلاثين زنية»[٦]. وقال: «الربا اثنان وسبعون بابًا أدناها مثل إتيان الرجل أمه وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه»[٧].

بل إنه إذا ظهر الربا في قوم فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله عز وجل: قال ﷺ «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[٨].

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٤٠) ـ الصحيحة (٧٧٨).
(٢) رواه الترمذي والنسائي عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣١).
(٣) فتح الباري (١٢/ ١٩٦).
(٤) وأنذرهم يوم الحسرة/ للمصنف (ص: ١٥٠).
(٥) أخرجه مسلم وأحمد عن جابر ـ صحيح الجامع (٥٠٩٠).
(٦) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن عن الله بن حنظلة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٧٥).
(٧) رواه الطبراني في الأوسط عن البراء وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧).
(٨) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٩).

وأما حسرة آكل الربا فى القبر فيقول ﷺ فى جزء من حديث طويل: «فانطلقا فأتينا على نهر ـ حسبت أنه كان يقول: «أحمر مثل الدم» ـ وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر فاه فليقمه حجراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر فاه فألقمه حجراً.

فلما سأل النبى وقال: ما هذان؟ قالا ـ: «وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا»[1]. فهذا عذابه في قبره وأما عن عذابه وحسرته يوم القيامة فقد قال جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة:٢٧٥).

أى أن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وذلك أنه يقوم قياماً منكراً .

يقول ابن عباس: آكل الربا يُبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق[2].

• الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً •

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء:١٠).

قال ابن كثير: أى إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج فى بطونهم يوم القيامة[3].

وقال السدى: يُحشر آكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ـ فمه ـ ومن مسامعه وأنفه وعينه كل من رآه يعرفه أنه آكل مال اليتيم[4].

* * *

(١) أخرجه البخارى عن سمرة بن جندب ـ كتاب التعبير ـ باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح.

(٢) وأنذرهم يوم الحسرة/ للمصنف (ص: ١٥١).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٦).

(٤) الكبائر/ للإمام الذهبى (ص: ١١٨).

• تارك الصلاة •

وها هو تارك الصلاة عندما تنكشف له الحقائق يوم القيامة يريد أن يسجد فيُحال بينه وبين السجود لله (جل وعلا).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ (القلم:٤٢، ٤٣).

قال سعيد بن المسيب: كانوا يسمعون «حي على الصلاة حي على الفلاح» فلا يجيبون وهم أصحاء سالمون.... فكل من حافظ على الصلاة في الدنيا يسجد لله في الآخرة أما من تركها في الدنيا فإن الله يسلبه نعمة السجود في الآخرة.

* وروى الإمام أحمد بسند جيد أن النبي ﷺ قال عن الصلاة: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بنّ خلف».

قال بعض العلماء رحمهم الله: وإنما يُحشر تارك الصلاة مع هؤلاء الأربعة لأنه إنما يشتغل عن الصلاة بماله أو بملكه أو بوزارته أو بتجارته... فإن اشتغل بماله حُشر مع قارون وإن اشتغل بملكه حُشر مع فرعون وإن اشتغل بوزارته حشر مع هامان وإن اشتغل بتجارته حُشر مع أبي بن خلف تاجر الكفار بمكة[1].

وروى أنه أول من يسوّد يوم القيامة وجوه تاركي الصلاة وأن في جهنم وادياً يقال له: (لملم) فيه حيات: كل حية بثخن رقبة البعير طولها مسيرة شهر تلسع تارك الصلاة فيغلي سمها في جسمه سبعين سنة ثم يتهرى لحمه.

فيا لها من حسرة.

• الذين لا يؤدون الزكاة •

وأما عن مشاهد الحسرة للذين لا يؤدون الزكاة فهي كثيرة وسأكتفي بمشهدين منها:

أما المشهد الأول فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا

(١) الكبائر للإمام الذهبي ـ تحقيق د. أسامة عبد العظيم ـ (ص ٤٩).

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة:٣٤، ٣٥).

وياله من مشهد عظيم... والسؤال هنا لماذا اختار الله الجبهة والجنب والظهر دون سائر الجسد؟!

والجواب عن ذلك أن الفقير كان في الدنيا إذا ذهب إلى الغنى ليسأله أن يعطيه مما أعطاه الله فإن الغنى يعبس بجبهته فى وجه الفقير فإذا تكرر السؤال من الفقير فإن الغنى يعطيه جانبه فإذا ازداد إلحاح الفقير فإن الغنى يعطيه ظهره!! فاختار الله عز وجل تلك المواطن الثلاث التى أعرض بها الغنى عن الفقير لتعذب بنفس أمواله بعد أن يُحمى عليها فى نار جهنم... وهذا ما أخبر عنه النبى ﷺ أيضًا حيث يقول:

«ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى فيها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمى عليها فى نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أُعيدت عليه، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها، ومن حقها حَلَبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر[1]، أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلا واحدا، تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخراها، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار»[2].

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى فيها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئًا، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء[3]، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى الله بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[4].

---

(١) بطح لها بقاع قرقر: بسط لها ومدّ لها بأرض مستوية.

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة.

(٣) العقصاء: الملتوية القرون، والجلحاء: التى لا قرون لها. والعضباء: التى انكسر قرنها الداخل.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه، فى كتاب الزكاة، باب اثم مانع الزكاة، (٢/ ٦٨٠) ورقمه: ٩٨٧، والحديث فى الصحاح والسنن عن أكثر من صحابى، راجع جامع الأصول: ٤/ ٥٥٤.

* وأما المشهد الثاني: فإنه يُمثَّل لصاحب المال ماله شجاعًا أقرع، له زبيبتان، فيطوق عنقه، ويأخذ بلهزمتي صاحبه، قائلا له أنا مالك، أنا كنزك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مُثِّل ماله يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران:١٨٠).

والشجاع الأقرع: الحية الذكر المتمعط شعر رأسه لكثر سمّه.

والزبيبتان: نقطتان سوداوان فوق عيني الحيّة.

• المتكبرون •

ويا له من مشهد رهيب للمتكبرين الذين ملأوا الدنيا كبراً وعناداً واستعلاءً.

ها هم يُحجبون عن آيات الله في الدنيا كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦).

وفي الآخرة يُحشرون في صورة مهينة ذليلة أخبر عنها الحبيب ﷺ فقال: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذّر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يُسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يُسقون من عصارة أهل النار»[1] فيا له من عذاب شديد!!!

* والذر: صغار النمل... ومن المعلوم أن الناس لا يعبأون به ولذلك فهم يطؤونه بأرجلهم وهم لا يشعرون.

• هؤلاء لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم •

ومن الذين يغضب الله عليهم يوم القيامة، فلا يكلمهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم. الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه ويشترون بأيمانهم ثمنا قليلا، فيحلفون الأيمان

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠).

الكاذبة تحقيقا لكسب دنيوى تافه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:٧٧).

وقد ساق ابن كثير أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية:

منها الحديث الذى رواه مسلم وأهل السنن وأحمد عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم». قلت: يا رسول الله، من هم؟ خسروا وخابوا. قال: وأعاده رسول الله ثلاث مرات. قال: «المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان».

* ومنها ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم، لقى الله ـ عز وجل ـ وهو عليه غضبان».

* ومنها ما رواه البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى أن رجلا أقام سلعة له فى السوق، فحلف بالله لقد أعطى فيها مالم يعطه، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (آل عمران:٧٧).

بل لقد أخبر الصادق ﷺ عن أصناف كثيرة من البشر لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

* قال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يُكلمهم الله يومَ القيامة ولا ينظرُ إليهم رجُلٌ حلفَ على سلعته لقدْ أُعطى بها أكثرَ ممَّا أعطىَ؛ وهو كاذبٌ، ورجُلٌ حلفَ على يمينٍ كاذبة بعدَ العصر؛ ليقتطعَ بها مالَ رجُلٍ مسلمٍ، ورجلٌ منعَ فضلَ مائه، فيقولُ الله: اليومَ أمنعكَ فضلى كما منعت فضل ما لمْ تعملْ يداكَ»[١].

* وقال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يُكلمهمُ اللهُ يومْ القيامة ولا ينظرُ إليهم ولا يزكيهمْ ولهمْ عذابٌ أليمٌ: المُسبل إزارهُ، والمنانُ الذى لا يعطى شيئًا إلا منَّهُ، والمنَفِّقُ سلعتَهُ بالحلف الكاذب»[٢].

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٠٦٦).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن أبى ذر ـ صحيح الجامع (٤٠٦٧).

* وقال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يُكلمهُمُ اللهُ يوم القيامة؛ ولا ينظرُ إليهم؛ ولا يزكيهمْ؛ ولهمْ عذابٌ أليمٌ: رجُلٌ على فضلِ ماء بالفلاة يمنعهُ من ابن السَّبيل، ورجلٌ بايعَ رجلاً بسلعة بعد العصر؛ فحلفَ له بالله لأخذَها بكذا وكذا فصدقهُ وهوَ على غير ذلكَ، ورجلٌ بايعُ إمامًا لا يبايعُهُ إلا لدُنيا، فإن أعطاه منها وفَّى، وإنْ لم يعطه لمْ يَفِ»[1].

وقال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يكلمُهُمُ الله يومَ القيامة؛ ولا يزكيهمٌ؛ ولا ينظرُ إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذابٌ، وعائلٌ مُستكبرٌ»[2].

وقال ﷺ: «ثلاثة لا ينظرُ الله إليهم غدًا: شيخٌ زانٍ، ورجلٌ اتخذ الإيمان بضاعةً يحلفُ في كل حق وباطل، وفقيرٌ مختالٌ يزهو»[3].

وقال ﷺ: «ثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم يومَ القيامة: العاقُّ لوالديه والمرأةُ المتَرجِّلةُ المتشبهةُ بالرِّجال، والدَّيوثُ. وثلاثةٌ لا يدخلونَ الجنةَ: العاقُّ لوالديه، والمدمنُ الخمرَ، والمنَانُ بما أعطى»[4].

* وقال ﷺ: «إن الذى يأتى امرأته فى دُبرها لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[5].

وقال ﷺ: «إن الذى يجرُّ ثيابه من الخُيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[6].

• لجام من النار لمن كتم علمًا •

قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة:١٥٩).

وقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (البقرة:١٧٤:١٧٥).

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٠٦٨).
(٢) أخرجه مسلم والنسائى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٠٦٩).
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن عصمة بن مالك وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٧٠).
(٤) رواه أحمد والنسائى عن ابن عمرو وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٧١).
(٥) رواه البيهقى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٩١).
(٦) أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (١٦٩٣).

وقال ﷺ: «من سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار»[١].

• الغيبة •

قال ﷺ: «الربا اثنان وسبعون بابًا أدناها مثل إتيان الرجل أمه وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه»[٢].

وأما عن حسرته في الآخرة يقول النبي ﷺ واصفًا تلك الحسرة: «لما عرج بي ربي عز وجل مررت بقومٍ لهم أظفار من نحاسٍ يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[٣]. قال الطيبي: لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات جعلها جزاء من يقع في أعراض المسلمين إشعارًا بأنهما ليستا من صفات الرجال بل هما من صفة النساء في أقبح حالة وأبشع صورة.

وفي حديث أبي هريرة يرفعه: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرب له يوم القيامة فيقال له: كله ميتًا كما أكلته حيًا فيأكله ويكلح ويصيح»[٤].

• الذين لا يخشون الله بالغيب •

قال ﷺ: «لأعلَمَنَّ أقوامًا منْ أمَّتي، يأتونَ يومَ القيامة بحسنات أمثال جبال تهامةَ بيضاءَ، فيجعلُها الله هباءً منثورًا، أما إنهم إخوانُكم ومن جلدتِكم، ويأخذونَ من الليل كما تأخذون، ولكنهم قومٌ إذا خَلَوْا بمحارمِ الله انتهكوها»[٥].

• الذين يكذبون على الله (عز وجل) •

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود:١٨) ويا له من مشهد كله خزيٌ وحسرة وندامة.

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن البراء وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧).

(٣) رواه أحمد وأبو داود عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٣).

(٤) أخرجه أبو يعلى بسند حسن ـ وقاله ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤٨٥) كتاب الأدب ـ باب الغيبة.

(٥) رواه ابن ماجه عن ثوبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٢٨).

بل تدبر معنى قوله تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ (الزمر: ٦٠).

ويا له من يوم تسود فيه وجوه الكاذبين فى الوقت الذى تبيض فيه وجوه الصادقين... قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦) وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ (آل عمران: ١٠٦، ١٠٧).

• الحاكم الذى يحتجب عن رعيته •

قال ﷺ: «من ولى من أمور المسلمين شيئًا، فاحتجبَ دونَ خلَّتهم، وحاجتهم، وفقرِهم، وفاقتهم، احتجب اللهُ عنهُ يومَ القيامةِ، دونَ خَلَّته، وحاجته، وفاقته، وفَقره»[١].

• من كان له وجهان •

قال ﷺ: «من كان له وجهان فى الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار»[٢].

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «... تجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

• الغلول •

الغلول هو الأخذ من الغنيمة على وجه الخفية، وهو ذنب يخفى تحته شيء من الطمع والأثرة، وقد توعد الله تبارك وتعالى الغال بفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وذلك لتحميله ما غله فى ذلك اليوم: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ (آل عمران: ١٦١).

يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية: «أى يأتى به حاملاً له على ظهره وعلى رقبته، معذبًا بحمله وثقله، ومرعوبًا بصوته، وموبخا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد»[٣].

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى مريم الأزدى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٩٥).
(٢) رواه أبو داود عن عمار وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٩٦).
(٣) تفسير القرطبى (٤/ ٢٥٦).

ومن الغلول غلول الحكام والموظفين والعمال والولاة من الأموال العامة، وقد وضح الرسولﷺ كيف يحمل الغالون يوم القيامة ما غلوه فى أكثر من حديث»[١].

قالﷺ : «من غلَّ بعيرًا أو شاةً أتى يحمله يوم القيامة»[٢].

وقالﷺ : «من استعملناه منكم على عملٍ فكتمنا مخيطًا فما فوقه كانت ذلك غُلولاً يأتى به يوم القيامة»[٣].

قال ﷺ لأحد الصحابة «انطلق أبا مسعود لا ألفينَّك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعيرٌ من إبل الصدقة له رغاءٌ قد غللته»[٤].

وقال ﷺ : «لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته بعيرٌ، لهُ رغاءٌ يقولُ: يا رسول الله أغثنى، فأقولُ: لا أملكُ لك شيئًا، قد أبلغتكَ، لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته فرسٌ، لهُ حمحمةٌ، فيقولُ: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملكُ لك شيئًا، قد أبلغتكَ، لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته شاةٌ لها ثغاءٌ، يقولُ: يا رسول الله أغثنى، فأقولُ: لا أملكُ لك شيئًا، قد أبلغتكَ، لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته نفسٌ، لها صياحٌ، فيقول: يا رسول الله أغثنى، فأقولُ: لا أملك لكَ شيئًا، قدْ أبلغتكَ، لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته رقاعٌ تخفقُ، فيقولُ: يا رسول الله أغثنى، فأقولُ: لا أملك لكَ شيئًا، قدْ أبلغتكَ، لا ألفينَّ أحدكمْ يجيءُ يوم القيامة على رقبته صامتٌ، فيقولُ: يا رسول الله أغثنى فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك»[٥].

وقد ساق ابن كثير فى تفسيره الأحاديث المرهبة من الغلول، ومنها أحاديث غلول العمال من الصدقات، وساق حديث أبى حميد الساعدى قال: «استعمل رسول اللهﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أُهدى لى.

فقام رسول اللهﷺ على المنبر، فقال: «ما بال العامل نبعثه على عمل، فيقول: هذا لكم، وهذا لى، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذى نفس

---

(١) القيامة الكبرى (ص: ١٥١: ١٥٢).

(٢) رواه أحمد والضياء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٠٩).

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود عن عدى بن عميرة ـ صحيح الجامع (٦٠٢٤).

(٤) رواه أبو داود عن ابن مسعود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٠٣).

(٥) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٧١٧٣).

محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» رواه البخاري ومسلم[(١)].

● لكل غادرٍ لواء ●

قال ﷺ: «إن الغادر يُنصب له لواءٌ يوم القيامة فيقال: ألا هذه غدرة فلان ابن فلان»[(٢)].

وقال ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادرٍ لواء فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان»[(٣)].

● من شرب الخمر ولم يتب ●

قال ﷺ: «من شربَ الخمرَ وسكِر لم تقبَل له صلاةٌ أربعين صباحًا، فإن ماتَ دخلَ النارَ، فإن تابَ تابَ اللهُ عليه، وإن عادَ فشربَ فسكِر، لم تقبلْ له صلاةٌ أربعين صباحًا، فإنْ ماتَ دخل النار وإن تابَ تابَ اللهُ عليه، وإن عادَ فشربَ فسكِر لم تقبل له صلاةٌ أربعين صباحًا، فإن مات دخل النارَ، وإن تاب تابَ الله عليه، فإن عاد كان حقًا على الله أن يَسقيهُ من ردغة الخبالِ يومَ القيامة: عُصارة أهلِ النارِ»[(٤)].

● من لبس ثوب شهرة ●

قال ﷺ: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوبًا مثله ثم يُلهب فيه النار»[(٥)].

● من منع فضل الماء ●

قال ﷺ: «من منع فضل ماءٍ أو كلأ منعه الله فضله يوم القيامة»[(٦)].

* * *

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، فتح الباري: (٥/ ١٠٣).
(٢) أخرجه البخاري ومسلم ومالك عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (١٦٨٢).
(٣) أخرجه مسلم عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٤٨٣).
(٤) رواه ابن ماجه عن ابن عمرو وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣١٣).
(٥) رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٢٦).
(٦) رواه أحمد عن ابن عمرو وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٦٠).

• النياحة على الميت •

قال ﷺ: «النِّياحةُ على المَيت من أمرِ الجاهلية، وإنَّ النائحةَ إذا لم تتبْ قبْلَ أن تموتَ، فإنها تُبعثُ يومَ القيامة عليها سرابيلُ من قطرانٍ، ثم يُغلى عليها بدُروعٍ من لَهبِ النارِ»[١].

وقال ﷺ: «النائحة إذا لم تتُب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران ودرعٌ من جرب»[٢].

• الشح •

قال ﷺ: «لا يسأل الرجل مولاه من فضلٍ هو عنده فيمنعه إياه إلا ادُّعى له يوم القيامة فضلُه الذى منعه شجاعًا أقرع»[٣].

• لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء •

قال ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[٤].

وهذا كله بسبب كثرة اللعن الذى يقع فيه كثير من الناس ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ .

• المصورون •

قال ﷺ: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[٥].

وقال ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يُعذَّبونَ يوم القيامة فيقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[٦].

---

(١) رواه ابن ماجه عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٩).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى مالك الأشعرى ـ صحيح الجامع (٦٧٩٢).

(٣) رواه أبو داود عن معاوية بن حيدة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٠٩).

(٤) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى الدرداء ـ صحيح الجامع (٧٧٧٣).

(٥) رواه أحمد عن ابن عمر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٩٩).

(٦) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد ومالك عن عائشة ـ صحيح الجامع (١٥٦٥).

• حسرة يوم القيامة لمن غفل عن ذكر الله •

قال ﷺ: «ما من قومٍ يقومون من جلسٍ لا يذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمارٍ وكان ذلك المجلس عليهم حسرةً يوم القيامة»(١).

• من تفل تجاه القبلة •

إن القبلة لها قدسيتها ومكانتها ولذلك نهانا النبي ﷺ أن نستقبل القبلة أو نستدبرها أثناء البول والغائط وكذلك نهى النبي ﷺ عن البصاق تجاه القبلة.

قال ﷺ: «من تفل تجاه القبلة جاء يوم القيامة تفلُه بين عينيه...»(٢).

وقال ﷺ: «تُبعث النُخامة في القبلة يوم القيامة وهي في وجه صاحبها»(٣).

• من كذب في حلمه... ومن استمع إلى حديث قوم وهم كارهون •

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من تحلَّم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يفرون منه، صُبَّ في أذنه الآنك يوم القيامة»(٤).

والآنك: الرصاص المذاب.

• الذي يسأل وله ما يغنيه •

قال ﷺ: «من سألَ الناسَ أموالهم تكثُّرًا، فإنما يَسألُ جمر جهنَّم، فليستقلَّ منه أو ليستكثر»(٥).

وقال ﷺ: «من سألَ الناسَ وله ما يُغنيه، جاء يومَ القيامة ومسألتُه في وجهه خموشٌ، أو خُدوشٌ، أو كُدوحٌ، قيل: وما الغنى؟ قال: خمسون درهمًا، أو قيمتُهاَ

(١) رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٥٠).
(٢) رواه أبو داود وابن حبان عن حذيفة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٦٠).
(٣) رواه البزار عن ابن عمر وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩١٠).
(٤) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٢٧) كتاب تفسير الرؤيا/ باب: من كذب في حلمه.
(٥) أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٦٢٧٨).

من الذهب»[١][٢].

وقال ﷺ: «من سأل شيئًا وعندَه ما يُغنيه، فإنما يستكثِرُ من جمرِ جهنَّم، قالوا: وما يُغنيه؟ قال: قدْر ما يغدِّيه ويعشيه»[٣].

• الذى منع الأجير حقه •

لقد رغَّب النبى ﷺ فى سرعة إعطاء الأجير حقه فقال: «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»[٤]. فمن خان تلك الأمانة فإنه يجنى الحسرة فى الدنيا بدعوة المظلوم ونزع البركة من ماله وأولاده وأما حسرته فى الآخرة فقد أخبر عنها النبى ﷺ بقوله: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ـ وذكر منهم: ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[٥].

• من غصب أرضًا بغير حق •

إن الناس لما ضاع الإيمان والأمان بينهم وغابت مراقبتهم للواحد الديان أصبحت القوة هى اللسان لمن أراد أن يتكلم وهى البيان لمن أراد أن يفصح وهى السلاح لمن أراد أن يحارب.

فأما الحسرة التى يجنيها من غصب أرضًا فى الدنيا فإنه يجنى كراهية الخلق والخالق جل وعلا ويكون صدره وقلبه هدفًا يوجه إليه سهام المظلومين (دعاؤهم) ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

وأما فى الآخرة فإن النبى ﷺ قال: «من أخذ من الأرض شيئًا بغير حق خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[٦].

(١) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى عن ابن مسعود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٧٩).
(٢) هذه الألفاظ متقاربة المعانى، جمع (خمش) و(خدش) و(كدح)، قال الخطابى: الخموش هى الخدوش، يقال: خمشت المرأة وجهها إذا خدشته بظفر أو حديده أو نحوها، والكدوح: الآثار من الخدوش والعض ونحوه، والخمش أبلغ فى معناه من الخدش، وهو أبلغ من الكدح، إذا خمش فى الوجه، الخدش فى الجلد، والكدح فوق الجلد. انتهى ملخصًا من «عون المعبود».
(٣) رواه أحمد وأبو داود عن سهل بن الحنظلية وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٨٠).
(٤) رواه ابن ماجه عن ابن عمر وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٥٥).
(٥) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ باب إثم من باع حرًا ـ كتاب البيوع.
(٦) أخرجه البخارى عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (٥٩٨٣).

وقال ﷺ: «أيما رجلٍ ظلم شبراً من الأرض كلفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين ثم يطوقه يومَ القيامة حتى يقضى بين الناس»[1].

وقال ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئًا ظلمًا جاء يوم القيامة يحمل ترابها إلى المحشر»[2].

• من قذف مملوكه وهو برىء •

قال ﷺ: «من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال»[3].

وقال: «من قذف مملوكه وهو برىء مما قال جُلد يوم القيامة حدًا إلا أن يكون كما قال[4]. فإن كان هذا هو الحال مع المملوك فكيف بالحرة الطاهرة؟.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:٢٣، ٢٤).

• الأثرياء المنعمون •

الذين يركنون إلى الدنيا، ويطمئنون إليها، ويكثرون من التمتع بنعيمها، يُضيَّق عليهم فى يوم القيامة، فقد أخبر الرسول ﷺ أن الذى يكثر شبعه فى الدنيا، يطول جوعه يوم القيامة، ففى سنن الترمذى وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم أن الرسول ﷺ قال لأحد أصحابه: «كُفَّ عنا جشاءَك، فإن أكثرهم شبعًا فى الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة»[5]. كما أخبر أن أصحاب المال الكثير والمتاع الدنيوى الواسع يكونون أقل الناس أجراً فى يوم القيامة، مالم يكونوا قد بذلوا أموالهم فى سبل الخيرات، ففى الصحيحين عن أبى ذر قال: «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله تعالى خيراً، فنفح فيه بيمينه وشماله، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيراً».

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن يعلى بن مرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٧٢٢).

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن يعلى بن مرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٨٤).

(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٦٤٦٢).

(٤) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٦٤٦٣).

(٥) رواه الترمذى وابن ماجه عن ابن عمر وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٩١).

وقلة الحسنات تؤخرهم، ونجعل الآخرين يتقدمونهم، بعدما كانوا فى الدنيا مقدمين... فعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا، وهكذا، وكسبه طيب»[١].

وأخبرنا الرسول ﷺ أن الذين أثقلوا أنفسهم بالنعيم الدنيوى، والغنى والثراء لا يستطيعون أن يتجاوزوا فى يوم القيامة العقبات والأهوال.

ففى شُعب الإيمان عن أم الدرداء قالت: قلت لأبى الدرداء: مالك لا تطلب كما يطلب فلان؟ فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أمامكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون»[٢][٣].

• الذى لا يعدل بين أزواجه •

إنها الحسرة على كل من لم يعدل بين أزواجه فإنه يجنى الحسرة فى الدنيا بأن يتعرض لدعوة المظلوم التى ليس بينها وبين الله حجاب وذلك لأنه ظلم إحدى زوجاته وفضّل عليها الأخرى.

وأما حسرته فى الآخرة فإنه يأتى يوم القيامة أمام الخلائق وشقه مائل كما قال النبى ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[٤].

* * *

(١) رواه الحاكم والبيهقى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٠١).

(٢) رواه البيهقى وابن حبان وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٧٨٥).

(٣) القيامة الكبرى (ص: ١٤٩: ١٥٠).

(٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٥).

مشاهد أهل الإيمان يوم القيامة

وها هى مشاهد أهل الإيمان والتوحيد يوم القيامة فإن الله (عز وجل) سيكرمهم فى أرض المحشر أمام الخلائق كلها قبل أن يُدخلهم الجنة... وسأكتفى ببعض تلك المشاهد المهيبة.

• يُبعث يوم القيامة مُلبيًا •

عن ابن عباس أن رجلاً كان مع النبى ﷺ محرمًا فوقصته[1] ناقته فمات، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه فإنه يُبعث يوم القيامة ملبيًا» وفى رواية «ملبدًا»[2][3].

• أصحاب النور يوم القيامة •

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الحديد:١٢).

وها هم أهل الأنوار الذين أخبر عنهم الحبيب ﷺ فقال: «من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة»[4].

وقال ﷺ: «لا تنتفوا الشيب ما من مسلم يشيب شيبة فى الإسلام إلا كانت له نورًا يوم القيامة»[5].

---

(١) وقص: وقصت الدابة براكبها: رمت به، فكسرت عنقه.

(٢) ملبدًا: تلبيد الشعر أن يجعل فيه شىء من صمغ عند الإحرام، لئلا يشعث ويقمل إبقاء على الشعر، وإنما يلبد من يطول مكثه فى الإحرام.

(٣) أخرجه البخارى (١٢٦٥) ومسلم (١٢٠٦).

(٤) رواه أحمد والترمذى عن كعب بن مرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٠٧).

(٥) رواه أبو داود عن ابن عمر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٦٣).

* وقال ﷺ: «بشّر المشّائين فى الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[١].

• أهل القرآن •

قال ﷺ «يأتى القرآنُ وأهلُهُ الذين كانوا يعملون به فى الدنيا، تقدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران، يأتيان كأنهما غيايتان وبينهما شَرْقٌ أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظُلَّتان من طير صواف يجادلان عن صاحبهما»[٢].

• الأمن يوم الفزع الأكبر •

صنف من عباد الله لا يفزعون عندما يفزع الناس، ولا يحزنون عندما يحزن الناس، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله، وعملوا بطاعة الله استعدادا لذلك اليوم فيؤمنهم الله فى ذلك اليوم، وعندما يُبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدىء من روعهم، وتطمئن قلوبهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء:١٠١-١٠٣).

والفزع الأكبر، هو ما يصيب العباد عندم يبعثون من القبور ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (إبراهيم:٤٢).

ففى ذلك اليوم ينادى منادى الرحمن أولياء الرحمن مطمئنًا لهم ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الزخرف:٦٨-٦٩).

وقال فى موضع آخر: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (يونس:٦٢-٦٤).

والسر فى هذا الأمن الذى يشمل الله به عباده الأتقياء، أن قلوبهم كانت فى الدنيا عامرة بمخافة الله، فأقاموا ليلهم، وأظمئوا نهارهم، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدى الله، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولون: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (الإنسان:١٠) ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن بريدة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٢٣).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن النواس بن سمعان ـ صحيح الجامع (٧٩٩٤).

شرَّ ذلك اليومِ ولقّاهم نضرة وسرورا (١١) وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ (الإنسان:١١:١٢).

* وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: وعزتى وجلالى، لا أجمع لعبدى أمنين ولا خوفين، إن هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادى، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادى»[١].

وكلما كان العبد أكثر إخلاصا لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمنًا فى يوم القيامة فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشىء من الشرك، لهم الأمن التام يوم القيامة، يدلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم، فأجابهم قائلا: ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون (٨١) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (الأنعام:٨١:٨٢)[٢].

• الشهداء والمرابطون •

قال ﷺ: «ما من مجروح يُجرح فى سبيل الله ـ والله أعلم بمن يُجرح فى سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه كهيئته يوم جُرح اللون لون الدم والريح ريح المسك»[٣].

وقال ﷺ: «من راح روحة فى سبيل الله كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكًا يوم القيامة»[٤].

وقال ﷺ: «من مات مرابطًا فى سبيل الله أجرى الله عليه عمله الصالح الذى كان يعمل عليه وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمنًا من الفزع»[٥].

* وقال ﷺ: «للشهيد عند الله سبع خصال: يُغفر له فى أول دَفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلى حُلة الإيمان، ويُزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتةُ منه خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أهل بيته»[٦].

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية عن شداد بن أوس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٢).

(٢) القيامة الكبرى (ص: ١٥٧: ١٥٨).

(٣) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٥٣).

(٤) رواه ابن ماجه والضياء عن أنس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٦٠).

(٥) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٤٤).

(٦) رواه أحمد والترمذى عن المقدام بن معدى كرب وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٨٢).

* وقال ﷺ: «أفضل الشهداء الذين يُقاتلون فى الصف الأول، فلا يَلْفتُون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك يتلبطون[١] فى الغرف العُلا من الجنة، يضحك إليهم ربُّك، فإذا ضحك ربُّك إلى عبدٍ فى موطنٍ، فلا حساب عليهم»[٢].

• الحجر الأسود يشهد لك يوم القيامة •

قال ﷺ عن الحجر الأسود: «إن لهذا الحجر لسانًا وشفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحقٍ»[٣].

وقال ﷺ: «ليأتين هذا الحجر يوم القيامة له عينان يُبصر بهما ولسانٌ ينطق به يشهد على من استلمه بحقٍ»[٤].

• عتق الرقاب المسلمة •

قال ﷺ: «أيُّما رجُلٍ مُسلمٍ أعتق رجُلاً مُسلمًا، فإنَّ الله تعالى جاعلٌ وقاءَ كلِّ عظم منْ عظامه عظمًا منْ عظَامِ محرَّرِه منَ النار، وأيُّما امرأة أعتقت امرأةً مسلمة، فإنَّ الله تعالىَ جاعلٌ وقاء كلِّ عظمٍ منْ عِظامِها عظمًا من عظام محرَّرتها مِنَ النارِ يومَ القيامة»[٥].

• الصبر على البلاء •

قال ﷺ عن أهل البلاء الذين صبروا على بلائهم ورضوا بقضاء ربهم (عز وجل): «يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطىَ أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قُرِضت فى الدنيا بالمقاريض»[٦].

* * *

(١) أى: يتمرغون.

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن نعيم بن همار وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٠٧).

(٣) رواه ابن حبان والحاكم عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٨٤).

(٤) رواه ابن ماجه والبيهقى عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٤٦).

(٥) رواه أبو داود وابن حبان عن أبى نجيح السلمى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٧٢٦).

(٦) رواه الترمذى عن جابر وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٧٧).

● أهل العدل والرحمة ●

قال ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكّه العدل أو يوبقه الجور»[١].

وقال ﷺ: «إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولُّوا»[٢].

● من أراد أن يفرج الله عنه كربات يوم القيامة ●

قال ﷺ: «من نفَّس عن مؤمنٍ كُربةً من كُرب الدنيا نفسَ الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومَن ستَر مسْلمًا، ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عوْن العبد، ما كانَ العبدُ فى عون أخيه..»[٣].

*** وقال ﷺ: «من ستر أخاه المسلم فى الدنيا ستره الله يوم القيامة»[٤].**

● الكاظمون الغيظ ●

إن كظم الغيظ من الأخلاق السامية التى جاء بها الإسلام ليعلم أبناءه كيف أن المسلم لا يغضب لنفسه أبداً.. بل لقد وصف الله المتقين وكان من بين صفاتهم الجميلة (كظم الغيظ).

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣: ١٣٤).

ويأتى التكريم من الله (عز وجل) يوم القيامة لكل من اتصف بهذا الخُلق الكريم.. قال ﷺ: «من كظم غيظًا وهو قادر على أن يُنفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره من الحور العين يزوجه منها ما شاء»[٥].

---

(١) رواه البيهقى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٩٥).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن ابن عمرو ـ صحيح الجامع (١٩٤٣).

(٣) أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٦٥٧٧).

(٤) رواه أحمد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٨٧).

(٥) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٢٢).

• الرحماء •

قال ﷺ: «من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة»(١).

فالرحمة نعمة عظيمة أودعها الله في قلوب من يشاء من عباده.. فالراحمون يرحمهم الله (جل وعلا).

• المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة •

قال ﷺ: «من أذَّن ثنتى عشرة سنة وجبت له الجنة، وكُتب له بتأذينه فى كل يومٍ ستون حسنة، وبإقامته ثلاثون حسنة»(٢).

وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مَدَّ صوته وأجره مثل أجر من صلى معه»(٣).

وقال ﷺ: «المؤذن يُغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطبٍ ويابس»(٤).

وقال ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»(٥).

* إنهم كانوا يرفعون أصواتهم فى الدنيا بكلمة التوحيد فرفع الله أعناقهم بين الناس يوم القيامة ليُظهر فضلهم ومكانتهم.

• التجاوز عن المعسر •

ففى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، قال: فلقى الله فتجاوز عنه».

وقال ﷺ: «أتى الله عزّ وجلّ بعبد منْ عباده آتاهُ اللهُ مالاً، فقالَ لهُ: ماذا عملتَ فى الدنيا؟ فقالَ ما عملتُ منْ شىء يا ربِّ، إلا أنكَ آتيتنى مالاً، فكنتُ أبايعُ الناسَ، وكانَ منْ خلقى أنْ أيسر على الموسرِ، وأُنظر المعسِر، قالَ الله تعالى: أنا أحقّ بذلكَ منكَ، تجاوزوا عنْ عبدى»(٦).

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٦١).
(٢) رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٠٢).
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٣).
(٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٤٤).
(٥) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه عن معاوية ـ صحيح الجامع (٦٦٤٥).
(٦) رواه الحاكم عن حذيفة وعقبة بن عامر وأبى مسعود الأنصارى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٥).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز، لعل الله يتجاوز عنا.

فلما هلك قال: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا، إلا أنه كان لي غلام، وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر، واترك ما عسر، وتجاوز، لعل الله أن يتجاوز عنا. قال الله: قد تجاوزت عنك»[1].

• من ترك اللباس تواضعاً •

قال ﷺ: «من ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حُلل الإيمان شاء يلبسها»[2].

• تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء •

قال ﷺ: «أنتم الغُرُّ المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء...»[3].

وهذه الغرة وذلك التحجيل تكون للمؤمن حلية في يوم القيامة.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك».

فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟

قال: «هم غُرٌّ محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم».

* * *

(١) رواه النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٧٨).

(٢) رواه الترمذي والحاكم عن معاذ بن أنس وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٥).

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (١٤٨٩).

• لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت •

قال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»(١).

وقال ﷺ: «تعلَّموا أنه لن يرى أحدٌ منكم ربه حتى يموت»(٢).

ومن أجل ذلك فإن العبد يحب الموت من أجل لقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم (سبحانه وتعالى)... كما قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»(٣).

• إذا أراد الله بعبد خيرًا •

قال ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة»(٤).

لكننا نطمع فى رحمة الله (جل وعلا) فنسأله أن يعفو عنا وأن يرحمنا فى الدنيا والآخرة كما علَّمنا الحبيب المصطفى ﷺ أن نقول: «اللهمَّ أصلحْ لى دينى الذى هوَ عصمةُ أمرى، وأصلحْ لى دُنيايَ التى فيها مَعاشى، وأصلحْ لى آخرتى التى فيها مَعادى، واجعل الحياةَ زيادةً لى فى كل خير، واجعل الموت راحةً لى منْ كلِّ شرٍّ»(٥).

ويقول ﷺ: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أُحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٦).

* * *

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن جرير ـ صحيح الجامع (٢٣٠٦).
(٢) أخرجه مسلم والنسائى ـ صحيح الجامع (٢٩٦٣).
(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن عائشة وعن عبادة ـ صحيح الجامع (٥٩٦٤).
(٤) رواه الترمذى والحاكم عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٨).
(٥) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٢٦٣).
(٦) أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة ـ صحيح الجامع (١٢٨٠).

• خذوا جُنتكم من النار •

قال ﷺ: «خُذوا جُنَّتَكُمْ منَ النّارِ؛ قولوا: سُبحان الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، والله أكبر، فإنهنَّ يأتينَ يومَ القيامة مُقدمات، ومُعقبات، ومُجنِّبات، وهُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ»(١)... خذوا جُنتكم: أى وقايتكم.

• خير يوم طلعت عليه الشمس •

ويوم الجمعة هو خير يوم طلعت عليه الشمس فهو عيدٌ للمؤمنين فى الدنيا وهو عيدٌ لهم فى الآخرة أيضًا.

قال ﷺ: «خيرُ يوم طَلَعتْ عليه الشَّمسُ يومُ الجُمعة، فيه خُلقَ آدمُ، وفيه أُدخلَ الجنَّةَ، وفيه أخرجَ منها، ولا تقومُ الساعةُ إلا فى يومِ الجُمعة»(٢).

وقال ﷺ: «إنَّ الله يبعثُ الأيامَ يومَ القيامة على هيئتها، ويبعثُ الجمعةَ زهراء منيرةً لأهلها، فيحفُّونَ بها كالعروس تُهدَى إلى كَريمها تضيء لهم، يمشون فى ضوئها، ألوانُهم كالثلجِ بياضًا، رياحُهم تسطعُ كالمسك، يخوضونَ فى جبال الكافور، ينظرُ إليهمُ الثَّقلانِ ما يطرقونَ تعجبًا، حتى يدخلوا الجنةَ، لا يخالطُهم أحدٌ إلا المؤذِّنونَ المحتَسبونَ»(٣).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم حسنًا وجمالاً»(٤).

* * *

---

(١) رواه النسائى والحاكم عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢١٤).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٣٣٣).

(٣) رواه الحاكم والبيهقى عن أبى موسى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٧٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٧ ـ ٢٤٩/ ح١٣) الجنة.

• ورحمتي وسعت كل شيء •

قال تعالى: ﴿ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٥٦).

وقال ﷺ: «إنَّ لله مائةَ رحمة، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنس والبهائم والهَوامِّ، فبها يتعاطَفُونَ، وبها يتراحَمونَ، وبها تَعطف الوُحوشُ على وَلَدِها، وأخَّر تسعًا وتسعينَ رحمةً، يَرحَمُ بها عبادَهُ يومَ القيامة»[1].

* وإليك أخي الحبيب مشهدين فقط من مشاهد رحمة الله (جل وعلا) بعباده يوم القيامة.

قال ﷺ: «يُعذَّب ناسٌ من أهل التوحيد، فيُطرحون فى النار، حتى يكونوا فيها حممًا، ثم تدركهم الرحمة، فيُخرَجون، ويُطرحون على أبواب الجنة، فيرشُّ عليهم أهل الجنة الماء، فينبتون، كما ينبت الغُثاء فى حمالة السيل، ثم يدخلون الجنة»[2].

* وقال ﷺ: «هل تَمارُونَ فى القمر ليلةَ البدر ليسَ دونَه سَحابٌ؟ هل تَمارونَ فى رؤية الشمس ليسَ دونَها سَحابٌ؟ فإنكم ترَونَه كذلكَ، يَحشُرُ الله الناس يومَ القيامة، فيقولُ: مَن كانَ يعبُدُ شيئًا فليتبعْه، فيَتَّبِع مَن كانَ يعبُدُ الشمسَ الشمسَ، ويتَّبعُ مَن كانَ يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبِعُ من كان يعبدُ الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمةُ فيها منافقوها، فيأتيهمُ اللهُ فى صورة غير صورته التى يعرفونَ، فيقولُ: أنا ربُّكم. فيقولونَ: نعوذُ بالله منكَ، هذا مكانُنا حتى يأتينَا ربُّنا، فإذا جاءنا عرَفْناهُ، فيأتيهمُ اللهُ فى صورته التى يعرفونَ، فيقولُ: أنا ربُّكم. فيقولونَ: أنت ربُّنا، فيتبعونهُ، ويُضرَبُ الصراطَ بينَ ظهرانَيْ جهنَم، فأكُونُ أوَّلَ مَن يجوزُ مِن الرُّسل بأمَّته، ولا يتكلمُ يومئذ أحدٌ إلا الرُّسلُ، وكلامُ الرُّسل يومئذ: اللهمَّ سلِّم سلِّم، وفى جهنَّم كلاليبُ مثلُ شوْك السعدان، غيرَ أنهُ لا يَعلمُ ما قدْرُ عظمِها إلا الله، تخطَفُ الناسَ بأعمالِهمْ، فمنهم مَن يوبَقُ بعمله، ومنهم مَن يُخردَلُ ثم ينْجو، حتى إذا فرَغ الله من القضاءِ بينَ العباد، وأراد أن يُخرج برحمته من

---

(١) أخرجه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢١٧٢).

(٢) رواه أحمد والترمذى عن جابر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٠٣).

أرادَ من أهل النار، أمرَ الملائكة أن يُخرجوا من النارِ مَن كانَ لا يُشركُ بالله شيئًا، ممَّن يقولُ لا إلهَ إلا اللهُ، فيُخرجونهم، ويَعرفونهم بآثارِ السجود، وحرَّم الله على النار أن تأكل آثار السجود فيخرجون من النار وقد امتُحشوا فيُصب عليهم ماء الحياة. فيَنبُتونَ كما تنبُتُ الحبةُ فى حميل السيل ثم يفرُغُ الله من القضاء بينَ العباد، ويبقى رَجلٌ بينَ الجنة والنار، وهو آخرُ أهلِ النارِ دُخولاً الجنةَ، مقبلاً بوجهه قِبَلَ النار، فيقولُ: يا ربِّ اصرفْ وجهى عن النار، فقد قشَبنى ريحُها، وأحرقَنى ذكاؤُها، فيقولُ: هلْ عسَيتَ إنْ فُعلَ ذلك بكَ أنْ تَسألَ غيرَ ذلكَ، فيقولُ: لا وعزَّتك، فيُعطى الله ما يشاءُ من عهد وميثاق، فيَصرفُ الله وجهَه عن النار، فإذا أقبلَ به على الجنة، ورأى بهجتَها سكتَ ما شاءَ الله أنْ يسكُتَ، ثم قالَ: يا ربِ! قدِّمنى عندَ بابِ الجنة، فيقولُ اللهُ: أليسَ قد أعطيتَ العهدَ والميثاق أنْ لا تَسألَ غيرَ الذى كنتَ سألتَ؟ فيقولُ: يا ربِّ لا أكونُ أشقى خلقكَ، فيقولُ: فما عسَيتَ إن أعطيتُك ذلكَ أن لا تَسأل غيرَه؟ فيقولُ، لا وعزَّتك، لا أسألُك غيرَ ذلكَ، فيُعطى ربَّه ما شاءَ منْ عهد وميثاق، فيقدِّمه إلى بابِ الجنة، فإذا بلغَ بابَها فرأى زهرتَها وما فيها من النَّضرة والسُّرور، فيسكُتُ ما شاءَ الله أن يسكت، فيقولُ: يا ربِّ أدْخلنى الجنةَ، فيقولُ اللهُ: ويحَكَ يا ابن آدمَ! ما أغدركَ! أليسَ قد أعطيتَ العهدَ والميثاقَ أن لا تسألَ غير الذى أعطيتَ؟ فيقولُ: يا ربِّ لا تجعلنى أشقى خَلقك، فيضحكُ اللهُ منهُ، ثم يأذنُ له فى دخول الجنة، فيقولُ: تمنَّ، فيتمنىً، حتى إذا انقطعَتْ أُمنيتهُ، قال الله تعالى: زدْ من كذا وكذا، أقبَلَ يذكِّرُه ربُّه، حتى إذا انتهتْ به الأمانىُّ، قال الله عزَّ وجلَّ: لكَ ذلكَ، ومثلُهُ معهُ»[1].

* * *

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة وأبى سعيد ـ صحيح الجامع (٧٠٣٣).

الشفاعة العظمى

قال صاحب معارج القبول رحمه الله: «ولنبينا ﷺ (الشفاعة العظمى) يوم القيامة، وهو المقام المحمود الذى قال الله تعالى عنه: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾ (الإسراء:٧٩) ولذا قلنا (قد خصه الله بها) بالشفاعة (تكرمًا) من الله عز وجل على النبى ﷺ وعلى أمته به.

كما فى الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلى: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

* قال ﷺ: «إنَّ النَّاسَ يصيرونَ يومَ القيامة جُثًا[1]، كلُّ أمة تتبعُ نبيَّها، يقولونَ: يا فُلانُ اشفع يا فُلانُ اشفَعْ، حتَّى تنتهى الشفاعةُ إلَى مُحمد ﷺ، فذلكَ يوْمَ يبعثُه الله المقامَ المحمودَ»[2].

• النبى ﷺ أول شافع وأول مشفع •

عندما يشتد البلاء بالناس فى الموقف العظيم ويطول بحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم، كى يأتى لفصل الحساب وتخليص الناس من كربات الموقف وأهواله، فيطلبون من أبيهم آدم أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة، ويذكِّرونه بفضله وإكرام الله له، فيأبى ويعتذر، ويذكر عصيانه ربه بأكله من الشجرة التى حرّم الله عليه الأكل منها، ويحيلهم إلى نوح أول رسول أرسله الله إلى البشر، الذى سماه الله عبدًا شكورًا، فيأبى ويذكر ما كان منه من تقصير فى بعض الأمور تجاه ربه ومولاه، وهكذا

---

(١) أى جماعة. وتروى هذه اللفظة «جثى» بتشديد الياء جمع جاث، وهو الذى يجلس على ركبتيه. «نهاية».
(٢) أخرجه البخارى عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (١٩٧٨).

يحيلهم إلى من بعده من أولى العزم من الرسل، والآخر يدفعها إلى من بعده، حتى يأتوا الرسول الخاتم: محمد ﷺ ، الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيقوم مقامًا يحمده عليه الأولون والآخرون، وتظهر به منزلته العظيمة، ودرجته العالية[1].

* قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»[2].

وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مُشفَّع»[3].

وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذٍ آدمُ فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول شافعٍ وأول مشفَّعٍ ولا فخر»[4].

ولما كان ذكر مناقب النفس إنما يُذكر افتخاراً فى الغالب أراد النبى ﷺ أن يقطع وهم من توهَّم أنه يذكر ذلك افتخاراً فقال: «ولا فخر».

• النبى ﷺ يختبىء دعوته شفاعة لأمته •

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

فها هو الحبيب ﷺ يختبىء دعوته شفاعة لأمته.

قال رسول الله ﷺ: «لكل نبى دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعةً لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا»[5].

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (إبراهيم:٣٦) وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

(١) القيامة الكبرى/ د. عمر الأشقر (ص: ١٧٣).
(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨١).
(٣) أخرجه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٤٦٧).
(٤) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وصححة الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٦٨).
(٥) أخرجه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٥١٧٦).

أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة:١١٨) فرفع يديه وقال: اللهم أمتى، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله: ما يبكيك. فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنُرضيك فى أمتك ولا نسوؤك»[١].

• كيف نفوز بشفاعة النبى ﷺ •

* وقد يسأل سائل ويقول: كيف أفوز بشفاعة النبى ﷺ ؟.

أقول لك: هذا هو الطريق فافتح قلبك لكلام النبى ﷺ .

قال ﷺ : «... وإنى اختبأت دعوتى شفاعةً لأمتى وإنها نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا»[٢].

وقال ﷺ : «إذا سمعتُم المؤذِّن فقُولوا مثل ما يقولُ، ثمَّ صلُّوا علىَّ؛ فإنهُ منْ صلى علىَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثمَّ سلُوا الله لى الوسيلةَ؛ فإنها مَنزِلةٌ فى الجنة، لا تُنبغى إلا لعبد منْ عباد الله، وأرجُو أنْ أكونَ أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حَلَّت عليه الشفاعةُ»[٣].

وقال ﷺ : «من قال حين يسمعُ النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوةِ التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة»[٤].

وقال ﷺ : «من صلَّى علىَّ حين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتى يوم القيامة»[٥].

وقال ﷺ : «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ٧٨) الإيمان/ باب: بشارة الأمة.
(٢) أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة.
(٣) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن ابن عمرو.
(٤) أخرجه أحمد والبخارى والنسائى والترمذى عن جابر.
(٥) رواه الطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٥٧).
(٦) رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠١٥).

• شروط الشفاعة •

إن الشفاعة الثابتة فى الشرع هى التى يتوفر فيها شرطان:

- إذن الله للشافع. - الرضا عن المشفوع له.

وتلك الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذن الله عز وجل، سواء فى ذلك شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة من دونه، وذلك الإذن يتعلق بالشافع والمشفوع فيه وبوقت الشفاعة، فليس يشفع إلا من أذن الله له فى الشفاعة، وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن الله تعالى أن يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:٢٥٥)، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (يونس:٣)، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سبأ:٢٢، ٢٣)، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم:٢٦)، ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر:٤٤)، ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف:٨٦)، ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (مريم:٨٧)، ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ:٣٨)، ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه:١٠٩)، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء:٢٨)، وقال تعالى فى الكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:٤٨)، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر:١٨)، وقال عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء:١٠٠، ١٠١)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة:٢٥٤). فالنبى ﷺ

(يشفع أولاً إلى الرحمن فى فصل القضاء بين أهل الموقف)
(من بعد أن يطلبها الناس إلى كل أولى العزم الهداة الفضلا)[1]

ولذلك فإن والد إبراهيم لما مات كافراً فإن الله لم يقبل شفاعة خليله فيه فى ذلك اليوم: روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر فى يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم

(١) معارج القبول/ حافظ بن أحمد الحكمى (٢/ ٢١٠).

أقل لك: لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يارب، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال لإبراهيم: ما تحت قدميك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيُلقى في النار»[1].

• أنواع الشفاعات يوم القيامة •

وقال صاحب شرح العقيدة الطحاوية رحمه الله:

الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أُتي رسول الله ﷺ بلحم، فُدفع إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لَمَ ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد (واحد)، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي (نفسي نفسي)، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي (نفسي نفسي)، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى (إلى) ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذْباته، نفسي نفسي (نفسي نفسي)،

(١) مشكاة المصابيح (٣/ ٥٨).

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى: فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسى نفسى (نفسى نفسى)، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، قال: هكذا هو، وكلَّمتَ الناس فى المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى (إلى) ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده (مثله، ولم يذكر له ذنبًا)، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتونى، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ذنبك، ما تقدم منه وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم، فآتى تحت العرش، فأقع ساجدًا لربى عز وجل، ثم يفتح الله علىَّ ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى، فيقال: يا محمد، ارفعْ رأسك، سلْ تعطه، اشفع تُشفع، فأقول: (يا) رب أمتى أمتى، (يا رب أمتى أمتى، يارب أمتى أمتى)، فيقول: أدخلْ من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذى نفسى بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصرَى»[1].

النوع الثانى والثالث من الشفاعة: شفاعته ﷺ فى أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفى أقوام آخرين قد أمِر بهم إلى النار، أن لا يدخلوها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ فى رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة فى أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يُستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مُخرَّج فى الصحيحين.

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ـ واللفظ للإمام أحمد فى المسند (٢/ ٤٣٥) بسند الصحيحين.

* قال ﷺ «وعدني ربي أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بلا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثيات ربي»(١).

* وقال ﷺ: «سألت الله الشفاعة لأمتي فقال: لك سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. قلت: رب زدني فحثا لي بيديه مرتين وعن يمينه وعن شماله»(٢).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدخلُ الجنة من أمتي زُمرةٌ هم سبعون ألفًا تُضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر... وقال أبو هريرة: فقام عُكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه فقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم قال: اللهم اجعله منهم.

ـ وفي رواية أنه ﷺ قال: «أنت منهم» ـ ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال: سبقك بها عكّاشة»(٣).

النوع السادس، الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه. ثم قال القرطبي في «التذكرة» بعد ذكر هذا النوع: «فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾: قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يُخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع، شفاعته ﷺ في استفتاح باب الجنة.

فعن أنس قال: قال ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»(٤)،... وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول محمد، فيقول بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك».

وقال ﷺ: «يجمعُ الله الناس يوم القيامة، فيقوم المؤمنون حين تُزلَفُ لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولونَ: يا أبانا! استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئةُ أبيكم آدمَ، لستُ بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله، فيقول إبراهيم، لستُ بصاحب ذلك؛ إنما كنت خليلاً من وراء وراء، اعمدوا إلى موسى الذي كلّمه الله تكليمًا، فيأتونَ موسى، فيقول: لستُ بصاحبِ ذلك، اذهبوا إلى عيسى كلمة

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي أمامة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١١١).

(٢) رواه هناد عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٢) ومسلم (٢١٦).

(٤) أخرجه مسلم عن أنس بن مالك ـ صحيح الجامع (١٤٥٧) ـ الصحيحة (١٥٧٠).

الله وروحه، فيقول عيسى لستُ بصاحب ذلك، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً، فيقومُ فيُؤْذَنَ له، وترسل الأمانة والرَّحِمُ، فتقومان جَنَبَتَي الصراط يمينًا وشمالاً، فيمرُّ أولُكم كالبرق، ثم كمرِّ الريح، ثم كمرِّ الطيرِ وشدِّ الرجال، تجرى بهم أعمالهم، ونبيُّكم قائمٌ على الصراط يقول: يارب سلم سلم، حتى تعجزَ أعمالُ العباد، وحتى يجىء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا، وفى حافتى الصراط كلاليب معلقةٌ، مأمورةٌ، تأخذ من أُمِرَت بأخذه فمخدوشٌ ناجٍ، ومكدوسٌ فى النار»[١].[٢]

وأما النوع الثامن، فقد قال صاحب معارج القبول رحمه الله: «هى شفاعته ﷺ فى أقوام ماتوا على دين الإسلام وأوبقتهم كثرة الآثام فيشفع لهم النبى ﷺ ليخرجوا من النار ويدخلوا الجنة فهذه الشفاعة حقٌ يؤمن بها أهل السنة والجماعة، كما آمن بها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ودرج على الإيمان بذلك التابعون لهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه، وأنكرها فى آخر عصر الصحابة (الخوارج)، وأنكرها فى عصر التابعين (المعتزلة)، وقالوا بخلود من دخل النار من عصاة الموحدين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويشهدون أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت الحرام ويسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار فى كل صلاة ودعاء، غير أنهم ماتوا مصرين على معصية عملية عالمين بتحريمها معتقدين مؤمنين بما جاء فيها من الوعيد الشديد فقضوا بتخليدهم فى جهنم مع فرعون وهامان وقارون، فجحدوا قول الله عز وجل ﴿أم نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعلُ المتقين كالفجار﴾ (ص:٢٨)، وقوله عز وجل: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون (٢١)﴾ (الجاثية:٢١)، وقوله تعالى: ﴿أفنجعلُ المسلمين كالمجرمين (٣٥) ما لكم كيف تحكمون﴾ (القلم:٣٥:٣٦).

* قال ﷺ: «يُجمع المؤمنون يوم القيامة، فيهتمُّون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربِّنا، فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجدَ لكَ ملائكته، وعلَّمَكَ أسماء كلِّ شىء، فاشفع لنا عند ربِّك، حتى يُريحَنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هُناكم، ويذكر ذنبه الذى أصابه، فيستحى ربه عز

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٨٠٢٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٢٢٩: ٢٣٣ ، بتصرف.

وجل من ذلك، ويقول: ولكن إئتوا نوحًا، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحًا، فيقول: لست هناكم ـ ويذكر لهم خطيئة سؤاله ربَّه ما ليس له به علمٌ، فيَستحى ربَّهُ من ذلك ـ ولكن إئتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتونهُ، فيقولُ: لستُ هناكم، ولكن ائتوا موسى عبدًا كلَّمة الله، وأعطاهُ التوراة، فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم ـ ويذكر لهم النَّفسَ التى قَتَلَ بغير نفس، فيستحى ربَّهُ من ذلك ـ ولكن ائتوا عيسى عبدَ الله ورسوله، وكلمَتَهُ وَرُوحَهُ، فيأتون عيسى، فيقول لهم: هناكم، ولكن ائتوا محمدًا عبدًا غَفَرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأقومُ، فأمشى بين سماطين من المؤمنين، حتى استأذنَ على ربِّى، فيُؤذنُ لى، فإذا رأيتُ ربى وقعتُ ساجدًا لَربِّى تبارك وتعالى، فيدَعنى ما شاء أن يَدَعنى، ثم يقول: ارفع محمدٌ. قل: يُسمَعْ، وسل تُعْطَهُ، واشفَع تُشَفَّعْ، فأرفعُ رأسى، فأحْمدُهُ بتحميد يُعلمنيه، ثم أشفع فيحُدُّ لى حدًا فأُدخلهم الجنة ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا لربى تباركَ وتعالى، فيدعُنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: إرفع محمَّدً! قل يسمعْ، وسل تعطهُ، واشفعْ تشفَعْ، فأرفعُ رأسى، فأحمده بتحميد يُعلمنيه، ثم أشفعُ، فيَحُدُّ لى حدًا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة، فإذا رأيت ربى تبارك وتعالى، وقعتُ ساجدًا لربِّى، فيدعنى ما شاء أن يَدَعنى، ثم يقول: ارفع محمَّدُ! قل: يُسمع، وسلْ تعطَه، واشفع تُشفَّع، فإذا رفعت رأسى، فأحمَدُهُ بتحميد يعلِّمُنيه، ثم أشفع، فيحُدُّ لى حدًا، فأدخلُهُمُ الجنة، ثم أعود الرابعةَ فأقول: يارب! ما بقىَ إلا من حَبَسَهُ القرآن، فيُخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يَزنُ شعيرةً، ثم يُخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يَزنُ بُرَّةً، ثم يُخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يَزنُ ذرةً»(١).

• شفاعة الملائكة •

قال ﷺ عن شفاعة الملائكة: «... حتى إذا فرغ الله تعالى من فصل القضاء بين العباد وأراد أن يُخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله فيعرفونهم

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى عن أنس ـ صحيح الجامع (٨٠٢٦).

فى النار بأثر السجود تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتُحشوا فيُصب عليهم ماء الحياة فينبتون تحته كما تنبت الحبة فى حميل السيل، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ويبقى رجل مُقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة...»[1].

• شفاعة المؤمنين •

إن صُحبة أهل الإيمان تُثمر لك الخير كله فى الدنيا والآخرة.

فأما فى الدنيا: فإنه يُذكرك بالله ويعينك على طاعته وينصرك إذا كنت فى حاجة إلى النُصرة ويبذل لك كل ما يستطيع من أجل أن يُدخل عليك السرور والسعادة.

وفى الآخرة يشفع لك عند الله (عز وجل).

قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧) ولذلك فعلينا أن نتعاهد من الآن على أنه من أذن الله له بالشفاعة يوم القيامة أن يشفع لإخوانه المؤمنين.

قال ﷺ موضحًا هذا المشهد المهيب من مشاهد يوم القيامة ـ عندما يشفع المؤمنون لإخوانهم: «... ثم يُضرب الجسرُ على جهنّم، وتحلُّ الشفاعة، ويقولون: اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ. قيل: يا رسولَ الله، وما الجسرُ؟ قال: دَحضٌ مَزَلَّةٌ، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ، وحسَكةٌ تكون بنجد، فيها شوَيكةٌ، يقالُ لها: السَّعدانُ، فيمرُّ المؤمنونَ كطرْف العَين؛ وكالبرق، وكالريحِ، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركّابِ، فَناجٍ مسلَّمٌ، ومَخدوشٌ مرسلٌ، ومكدوسٌ فى نار جهنم، حتى إذا خلصَ المؤمنون من النارِ، فوالذى نفسى بيده ما منْ أحد منكم بأشدَّ مناشدةً لله فى استيفاء الحقِّ من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهمُ الذين فى النار، يقولونَ: ربَّنا كانوا يصومونَ معَنا، ويصلونَ، ويحجُّون، فيقالُ لهمْ: أخرجوا من عرَفتم، فتحرَّمُ صورهم على النار، فيُخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه. فيقولون: ربَّنا ما بقى فيها أحدٌ ممَّن أمرتنا به. فيقول الله عزَّ وجلَّ: ارجعوا، فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيُخرجونَ خلقًا كثيرًا، ثم يقولونَ ربَّنا لم نذرْ فيها أحدًا ممن أمرتنا به. ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم فى

(١) أخرجه أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد ـ صحيح الجامع (٧٠٣٣).

قلبه مثقالَ نصف دينار من خيرٍ فأخرجوهُ، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربَّنا لم نذرْ فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربَّنا! لم نذرْ فيها خيرًا»[1].

• شفاعة أرحم الراحمين •

قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلقَ الرحمة يومَ خلقها مائةَ رحمة، فأمسكَ عندهُ تسعًا وتسعينَ رحمةً، وأرسل فى خلقه كلهمْ رحمةً واحدةً، فلوْ يعلمُ الكافرُ بكُلِّ الذى عندَ اللهِ منَ الرحمةِ لم ييأسْ منَ الجنة، ولوْ يعلمُ المؤمنَ بالذى عند الله منَ العذاب لم يأمنَ من النار»[2].

وقال ﷺ: «إنَّ الله خلق مائة رحمة، فبثَّ بينَ خلقه رحَمةً واحدةً، فهُم يتراحمون بها، وادَّخرَ عندهُ لأوليائه تسعةً وتسعين»[3].

وقال ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلقَ يومَ خلقَ السَّموات والأرض مائةَ رحمة، كلُّ رحمة طباقُ ما بين السماء والأرض، فجعل منها فى الأرض رحمةً، فبها تعطفُ الوالدةُ علىَ ولدها، والوحشُ والطيرُ بعضُها على بعضٍ، وأخَّر تسعًا وتسعين، فإذا كانَ يومُ القيامة أكملَها بهذه الرحمة»[4].

* فمن هذه الرحمات العظيمة لرب الأرض والسماوات أنه لا يأذن بشفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين فحسب بل يقبض قبضة من النار ليُخرج قومًا ـ من النار ـ لا يعلم عددهم إلا الله فيدخلهم الجنة... ولا يعلمُ أحدٌ من الخلق قدر قبضة الخالق (جل وعلا) فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧).

قال ﷺ: «... فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيُّونَ، وشَفَعَ المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الرَّاحمينَ، فيقبضُ قبضةً من النارِ، فيُخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قطُّ، قد

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (٧٠٣١).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٧٦٣).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن معاوية بن حيدة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٦٦).

(٤) أخرجه مسلم وأحمد عن سلمان ـ صحيح الجامع (١٧٦٧).

عادوا حُممًا، فيُلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقالُ له: نهرُ الحياة، فيخرجون كما تخرجُ الحبَّة فى حميل السَّيل، ألا تَرونها تكونُ إلى الحجر أو الشجر، ما يكونُ إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكونُ منها إلى الظل يكُونُ أبيض، فيَخرجونَ كاللُّؤلؤ، فى رقابهم الخواتيمُ، يعرفُهم أهلُ الجنة: هؤلاء عُتقاءُ الله من النار، الذينَ أدخلهُم الجنة بغير عمل عملوهُ، ولا خير قدَّموه، ثم يقولُ: ادخُلوا الجنة فَما رأيتموهُ فهو لكم، فيقولون: ربَّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندى أفضل من هذا؟ فيقولون: يا ربَّنا أى شيءٍ أفضلُ من هذا؟ فيقولُ: رضاى فلا أسخط عليكم بعدهَ أبداً»[1].

• أسباب سقوط العقوبة عن العُصاة •

إذا وقع العبد المؤمن فى المعصية فإن الله سبحانه وتعالى قد فتح لعباده أبواب رحمته، للخلاص من عقوبة ما يقعون فيه، إذا أخلصوا واتقوا.

فالحسرة كل الحسرة لمن لم يتعرض لتلك الأسباب التى تُسقط عنه العقوبة.

هذا وقد استقرأ بعض العلماء الأسباب التى تُسقط العقوبة عن المعاصى فى نصوص القرآن والسنة، ونلخص للأخ القارئ ما خلص إليه شارح العقيدة الطحاوية فى هذا الموضوع. فقد قال: «إن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، عُرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة»، ثم ذكر منها ما يلى:

السبب الأول، التوبة فقد قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم:٥٩-٦٠).

وقال أيضا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٦٠).

والتوبة التى تُسقط العقوبة هى التوبة النصوح، وهى الخالصة النابعة من القلب، لا المقتصرة على النطق باللسان،.... وهى ما يصحبها الندم على ما فات من المعاصى، والعزم على عدم العودة إليها، وعمل الصالحات.

وكون التوبة سببًا لغفران الذنوب، وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة.

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (٧٠٣١).

وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يا عبادى الَّذين أسرفوا علىٰ أنفسهمْ لا تقنطُوا من رَّحمة الله إنَّ الله يغفرُ الذُّنوب جميعًا إنَّهُ هُو الغفُورُ الرَّحيمُ﴾ (الزمر:٥٣).

السبب الثانى: الاستغفار فقد قال تعالى: ﴿وما كانَ اللَّهُ مُعذِّبهُمْ وهُمْ يستغفرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣)، والواقع أن الاستغفار يدخل فى معنى التوبة، فإن الاستغفار طلب مغفرة الذنوب التى وقع فيها العبد، وهو مايدخل فى الندم على ما قدم الإنسان، فإن طلب المغفرة عنوان هذا الندم، وتزيد التوبة عن الاستغفار أن فى معناها العزم على اجتناب المعاصى فى المستقبل.

السبب الثالث: فعل الحسنات.

فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ الحسنات يُذْهبن السَّيِّئات﴾ (هود:١١٤).

السبب الرابع: الوقوع فى المصائب الدنيوى.

لقوله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[١].

واعلم أن تكفير الخطايا يكون بسبب وقوع المعصية نفسها، فإذا صبر المبتلى فاز بثواب جديد فوق تكفير خطاياه، وإن سخط اكتسب إثما جديدا، ويبقى تكفير خطاياه بوقوع المصية.

السبب الخامس: عذاب القبر.

السبب السادس: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب السابع: شفاعة من أذن الله لهم بالشفاعة يوم القيامة.

السبب الثامن: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة.

كما قال تعالى: ﴿ويغفرُ ما دُون ذلك لمن يشاءُ﴾ (النساء:٤٨).

السبب التاسع: دعاء المؤمنين واستغفارهم فى الحياة وبعد الممات.

السبب العاشر: ما رواه البخارى أن النبى ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا نُقوا

(١) متفق عليه من حديث أبى سعيد وأبى هريرة معًا ـ صحيح الجامع (٥٨١٨).

وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه فى الجنة أدل منه بمسكنه كان له فى الدنيا»[١].

السبب الحادى عشر: ما يُهدى للعبد المؤمن من ثواب صدقة أو قراءة أو حج أو نحو ذلك. فقد اتفق أهل السنة على أن الأموات من المؤمنين ينتفعون من سعى الأحياء بأمرين:

الأمر الأول: ما تسبب إليه الميت فى حياته، لما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده»[٢].

الأمر الثانى: دعاء المسلمين واستغفارهم والصدقة والحج، واختلفوا فى العبادات البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر.

فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعى ومالك عدم وصولها.

والدليل على انتفاع الميت بأشياء لم يتسبب فيها قوله تعالى ﴿والَّذين جاءُوا منْ بعْدهم يقُولُون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الَّذين سبقُونا بالإيمان﴾ (الحشر:١٠).

فأثنى سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة.

والأدعية التى وردت بها السنة فى صلاة الجنازة مستفيضة، وكذلك الدعاء له بعد الدفن. وكان رسول الله ﷺ يُعلم الصحابة رضوان الله عليهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»[٣].

ويدل على وصول ثواب الصدقة للميت ما ورد فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها، أن رجلا أتى النبى ﷺ ، فقال: يا رسول الله إن أمى افتلتت نفسها ولم توص،

---

(١) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (٥١٠).

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٧٩٣).

(٣) أخرجه مسلم عن بريدة ـ باب ما يقال عند دخول القبر والدعاء لأهلها ـ كتاب الجنائز.

وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم[1].

وقد ورد أكثر من حديث في هذا المعنى.

ويدل على وصول ثواب الصوم ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[2].

ويدل على وصول ثواب الحج ما ورد في صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جُهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: حُجى عنها، أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته؟ أقضوا الله فالله أحق بالوفاء»[3].

وهذا لا يتناقض مع قوله تعالى: ﴿وأن لَّيس للإنسان إلاَّ ما سعى﴾ (النجم:٣٩).

وقوله: ﴿لها ما كسبت﴾ (البقرة:٢٨٦)، وقوله: ﴿ولا تُجزوْن إلاَّ ما كنتمْ تعمَلُون﴾ (يس:٥٤)، لأن الإنسان بدخول الإسلام وارتباطه بذلك مع إخوانه المسلمين برباط الأخوة الإيمانية وبحسن عشرته وإسداء الخير للناس، رتودده لهم، يكون ساعيا فى حثهم على الدعاء له بعد مماته، والاستغفار والترحم عليه. وإهداء ثواب الطاعات له. فكان هذا الكسب أثرًا من آثار سعيه. فالقول بانتفاع الميت بما يُهدى إليه من إخوانه لا يتعارض مع تلك الآيات الكريمات، فإنها آيات محكمة تقتضى عدل الله تعالى وتقتضى أنه لا يعاقب أحد بجرم غيره ولا يؤخذ بجريرة غيره وتقتضى أنه لا يفلح أحد إلا بعمله، لينقطع طمعه بعمل آبائه وسلفه ومشايخه.

إلا أنه يجدر بالملاحظة أن هناك بعض العادات والبدع لا تدخل فيما تقدم. وليس عليها دليل من الشرع ولم يقل بجوازها أحد من العلماء، مثل استجار قوم يقرأون القرآن، ويهدونه للميت، فهذا العمل لم يجزه أحد. وإنما اختلف الفقهاء فى جواز الاستئجار على تعليم القرآن. وأما الاستئجار لقراءته وإهدائه للميت، أو الاستئجار لمن يصلى ويصوم ويهدى للميت، فهذا لا خلاف فى عدم جوازه. ولكن الذى يدخل فيما سبق يقتصر على قراءة القرآن وإهدائها للميت تطوعا بغير أجر[4].

---

(١) أخرجه مسلم عن عائشة ـ باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه ـ كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه عن عائشة ـ صحيح الجامع (٦٥٤٧).

(٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس ـ باب الحج والنذور عن الميت والرجل يحج عن المرأة ـ كتاب جزاء الصيد.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٢٧: ٣٣٠) ..... بتصرف

مشهد الحساب والجزاء

• يا له من مشهد جليل •

إنه مشهد الحساب يوم القيامة... هذا المشهد الذى قال عنه الحق (جل وعلا): ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٧)... فالكل موقوف بين يدى الله (عز وجل) والكل مسئول يوم القيامة عن كل صغيرة وكبيرة.

ستقف الخلائق كلها صفًا للحساب بين يدى فاطر السماوات والأرض.. قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف: ٤٨) وياله من مشهد مهيب عندما يعاين الناس تلك الأهوال وإذا بالأمم كلها تجثوا على الركب كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٧) بل ويأتى المجرمون وقد علاهم الذل والصغار بسبب كفرهم بالواحد القهار كما قال العزيز الغفار: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (إبراهيم: ٤٩: ٥١).

ومع تلك الأهوال فهناك صنف كريم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فنسأل الله أن يجعلنا من هذا الصنف الكريم.

* * *

• يوم يقوم الناس لرب العالمين •

حتى إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حسّ يُسمع، ولا شخص يُرى، وقد بقى الجبار الأعلى كما لم يزل أزليًا واحدًا منفردًا بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادى لكل الخلائق معك للعرض على الله عز وجل بالذل والصغار منك ومنهم. فتوهم كيف وقوع الصوت فى مسامعك وعقلك وتفهّم بعقلك بأنك تُدعى إلى العرض على الملك الأعلى، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء، لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذى الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء ـ فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك، فوثبت مغبرًا من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك، شاخص ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبّرون من غبار الأرض التى طال فيها بلاؤهم.

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك فى زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدّة المنادى، والخلائق مقبلون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساعٍ بالخشوع والذلة، حتى إذا وافيت الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة، قد نُزع المُلك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصَّغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوّهم وتجبرهم على عباد الله عز وجل فى أرضه.

ثم أقبلت الوحوش من البرارى وذرى الجبال مِنكسة رؤوسها لذلّ يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيئة أصابتها، فتوهم إقبالها بذلها فى اليوم العظيم ليوم العرض والنشور.

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذى جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور.

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووجوشها وسباعها وأنعامها وهوامّها، واستووا جميعًا في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطُمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها. فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هَوْل صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربّها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (المعارج: ٨، ٩).

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عز وجل. فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آت، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم. فتوهمهم، وقدّ تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد وعظم الأجساد، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفا.

حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كُسيت الشمس حر عشر سنين وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظلّ عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرِّها واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضًا وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر

الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجل بالسعادة والشقاء، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من كاد أن يغيب فى عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه.

* قال ﷺ: «إذا كانَ يومُ القيامة أدنيت الشمسُ من العباد حتى تكونَ قيدَ ميلٍ أو اثنينِ، فتُصهرهَمْ الشمسُ، فيكونونَ فى العَرَق كقدرْ أعمالَهمْ، فمنهم منْ يأخذهُ إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيهِ، ومنهُمْ منْ يأخذه إلى حقويه، ومنهم منْ يُلجمهُ إلجامًا»[١].

* وقال ﷺ: «إن العرق يوم القيامة ليذهب فى الأرض سبعين باعًا وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم»[٢].

* وقال ﷺ: «يَعرَقُ الناس يوم القيامة حتى يذهب عَرَقُهُم فى الأرض سبعين ذراعًا، ويُلجمُهُم حتى يبلغ آذانهم»[٣].

* وقال ﷺ: «تدنُو الشَّمس يومَ القيامة منَ الخلق، حتى تكونَ منهُمْ كمقدار ميلٍ، فيكونُ الناسُ على قدرِ أعمالهمْ فى العرقِ، فمنهُم من يكونُ إلى كعبيه، ومنهُم من يكونُ إلى ركبتيهِ، ومنهُم منْ يكونُ إلى حقويه، ومنهم من يُلجمهُ العرقُ إلجامًا»[٤].

وقال أبو حامد الغزالى: واعلم أن كل عَرَق لم يُخرجه التعب فى سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر، فسيُخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب، ولو سلم ابن آدم من الجهل (والغرور) لعلم أن تعب (العرق) فى تحمل مصاعب الدنيا أهون أمرًا وأقصر زمانًا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة، فإنه يوم عظيم شديد طويل مدته[٥].

* وعن عبد الله رفعه إلى النبى ﷺ «إن الكافر يُلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن المقداد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٧).

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٦٧٩).

(٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٨١٠٤).

(٤) أخرجه مسلم عن المقداد بن الأسود ـ صحيح الجامع (٢٩٣٣).

(٥) نقلاً من التذكرة (١/ ٤٦٧).

اليوم، حتى يقول: رب أرحنى ولو إلى النار». وأنت لا محالة أحدهم، فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك فى صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون فى أمورهم.

عن قتادة أو كعب، قال: يوم يقوم الناس لرب العالمين». قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام، قال سمعت الحسن يقول: ما ظنك بأقوام قاموا لله عز وجل على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار، فسُقوا من عين آنية قد آن حرها، واشتد نفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضًا فى طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم فى الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم، كلهم يقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عز وجل وينادى بالشغل بنفسه فيقول: نفسى نفسى، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لإهتمامه بنفسه وخلاصها، وكذلك يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (النحل: ١١١).

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم، منفرد كل واحد منهم بنفسه، ينادى نفسى نفسى، فلا تسمع إلا قول نفسى نفسى، فيا هول ذلك وأنت تنادى معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما ظنك بيوم ينادَى فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله ـ عز وجل ـ وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل، كل ينادى: نفسى نفسى، شفقًا من شدة غضب ربه، فأين أنت منهم فى إشفاقك فى ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم، ويحزنك ويخوفك؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبى محمدًا ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها، ثم قام إلى ربه عز وجل واستأذن عليه فأذن له ثم خرَّ لربه ساجدًا، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق، حتى أجابه ربه عز وجل إلى تعجيل عرضهم والنظر فى أمورهم[1].

---

(١) كتاب التوهم والأهوال/ للحارث المحاسبى (ص: ٥، ٦).

• مجيء الرب (جل وعلا) •

وها هو الحق (جل وعلا) يتنزل تنزلاً يليق بجلاله وكماله ليقضي بين الخلائق وليبدأ مشهد الحساب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفرقان: ٢٥، ٢٦).

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظُلَلُ النور العظيم الذى يبهر الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغمام والملائكة﴾ (١).

* وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢١: ٢٤).

* وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٣: ١٨).

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع. ثم يعقبها نفخة الصعق، حين يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله. ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة، وقد أكدها هنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد. وقال الربيع هى النفخة الأخيرة والظاهر ما قلناه ولهذا قال هاهنا ﴿وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أى فمدت مد الأديم وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٠).

أي قامت القيامة ﴿وانشقت السماء فهي يومئذ واهية﴾ كقوله تعالى: ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابًا﴾.

﴿والملك على أرجائها﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء أي أطرافها وقوله تعالى: ﴿ويحمل عرشَ ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العظيم أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم. وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذنَ لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعنقه مخفق الطير سبعمائة عام». وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات وقد رواه داود في كتاب السُّنَّة من سننه. وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، في ذكر حمَلة العرش أنَّهم ثمانية أو عال: وعن سعيد بن جبير أنها ثمانيةُ صفوف من الملائكة وكذا عن ابن عباس. وقوله تعالى: ﴿يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالمٌ بالظواهر والسرائر والضمائر. ولهذا قال تعالى: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾[1].

• الوقوف بين يدي الله (عز وجل) •

تذكَّر وقوفك يوم العرض عُريانا	مستوحشًا قَلِقَ الأحشاء حيرانا
والنار تَلهب من غيظ ومن حَنَق	على العُصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدُ على مَهَلٍ	فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا
فلما قرأت ولم تُنكر قراءته	وأقررت إقرار مَنْ عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي	وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا
المشركون غدًا في النار يلتهبوا	والموحدون بدار الخُلد سكّانا

إنه مشهد عظيم لا يستطيع إنسان أن يعلم مدى رهبته فإن الإنسان إذا ما وقف أمام ملك من ملوك الدنيا فإنه يرتجف فؤاده خوفًا وفزعًا أن يصدر منه ما يُغضب صاحب السلطان فما ظنكم بالوقوف بين يدي الواحد الديان ﴿ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤/٤١٦).

فبينما أنت فى أرض المحشر إذ يأتيك النداء «أين فلان ابن فلان» فيُلقى الله فى روعك أنك أنت المقصود من بين الخلائق فتقبل على عرش الواحد الديان ويا له من موقف عصيب.

قال ﷺ : «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه تُرجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة»[1].

فأعظم به من موقف وأعظِم به من سائل سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٨).

يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: «أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديًا به؟ فيقول نعم؟ فيقول الله: كذبت قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك»[2].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران:٩١). أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ ، أى من مات على الكفر فلن يُقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة، كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جدعان ـ وكان يقرى الضيف ويفك العانى (الأسير) ويطعم الطعام ـ هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا! إنه لم يقل يومًا من الدهر: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين»، وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبًا ما قُبل منه كما قال تعالى: ﴿ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة﴾ (البقرة:١٢٣)، وقال: ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ (إبراهيم: ٣١)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٦).

ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها.

وقال ﷺ : «يؤتَى بالرجل يوم القيامة من أهل الجنة فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت

---

(١) متفق عليه عن عدى بن حاتم ـ صحيح الجامع (٥٧٩٨).

(٢) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٨١٢٣).

منزلك؟ فيقول: أى رب! خير منزل فيقول: سل وتمنَّ. فيقول: يارب ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأُقتل فى سبيلك عشر مرات.... لما يرى من فضل الشهادة..... ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم: كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أى رب! شرَّ منزل فيقول له: أتفتدى منه بطلاع الأرض ذهبًا؟ فيقول: أى رب: نعم فيقول: كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيُردُّ إلى النار»[1].

فهذا موقف عصيب لكل من أشرك بالله جل وعلا......، أما المؤمن فله موقف يسير أمام الله جل وعلا، ولكن والله لو أننا سنقف أمام الله جل وعلا لمناقشة الحساب فقط وقد علمنا أننا من أهل الجنة لكان الموقف عصيبا فكيف بنا ونحن لا نعلم مصيرنا إلى جنة أم إلى نار، والحال كما قال النبى ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب»[2].

يا واحدًا صمدًا بغير قرين	ارحم ضراعة عبدك المسكينِ
واعطف علىَّ إذا وقفت مروعًا	حيران بين يديك يوم الدينِ
يا حسرتى بين العباد إذا همُو	خافوا الحسابَ فخفَّ عنهم دونى
ما حيلتى فى نشر صحيفتى	إذ قيل لى خُذها بغير يمينِ
ما حيلتى عند الحساب وهوله	إذ قصَّرت بى قوتى ويقينى
لا حيلة عندى ولا موئل	إن خاننى طمعى وحُسن ظنونى
يا رب لا تترك عبدك هالكا	وارحم بفضلك عَبرتى وشجونى

وعن صفوان بن محرز قال:قال رجل لابن عمر رضى الله عنهما:كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدنَى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أى رب أعرف. قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم فيُعطى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله»[3].

فيا لها من حسرة شديدة أن يقف الكافر والمنافق فى أرض المحشر أمام كل الخلائق من لدُن آدم إلى قيام الساعة وينادى عليه أمام الخلائق ويقال هؤلاء الذين كذبوا على

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن أنس - صحيح الجامع (٧٩٩٦).

(٢) متفق عليه عن عائشة - صحيح الجامع (٦٥٧٨).

(٣) أخرجه مسلم - باب فى النجوى وتقرير العبد بذنوبه - كتاب التوبة..

الله....... بل إن الله جعل لهم هيئةً يعرفهم الناس بها ﴿ويومَ القيامةِ ترى الَّذين كذَبُوا علَى اللَّه وُجُوهُهم مُسْودَّةٌ﴾ (الزمر: ٦٠).

وتصور حين يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولُبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدّة الهول مظلم، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتُقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيمْ كلامه: يا ابن آدم ادن منى، فدنوت منه بقلب خافق محزون وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأُعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟ وكم من طاعة غفلت عنها؟ فكم لك من خجل وجبن؟ وكم لك من حصر وعجز؟ فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقل ما تقول؟ ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكّرك ذنوبك فعندها يقول: يا عبدى! أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادى، استخففت بنظرى إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى، ألم أنعم عليك: فماذا غرّك بى؟ أظننت أنى لا أراك وأنك لا تلقانى؟.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول يا ابن آدم ما غرّك بى؟ يا ابنَ آدم ما عملت فيما علمت،؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين،؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيبًا على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك؟ ألم أكن رقيبًا على أذنيك؟ وهكذا حتى عدّ سائر أعضائه.... وقال مجاهد: لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ـ فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأوّلون والآخرون ـ وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرًا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك بدنيادنيئة لم تبق معك!

• الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب •

قال ﷺ: «عُرِضت عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبي ومعهُ الرَّهطُ، والنبي ومعهُ الرَّجلُ والرجلانِ، والنبي وليسَ معهُ أحدٌ، إذ رُفِعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنَّهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومُهُ، ولكنْ أنظر إلى الأفق، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظرْ إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغَير حساب ولا عذاب، هم الذين لا يرقونَ،[1] ولا يسترقونَ، ولا يتطيرونَ، ولاَ يكتوون، وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ»[2].

وقال ﷺ: «ليدخُلنَّ الجنةَ من أمتي سبعون ألفًا، أو سَبعُمائة ألف، متماسكون، آخذٌ بعضُهم بيدِ بعضٍ، لا يدخُلُ أولُهمْ حتى يَدخلَ آخرُهم، وجوهُهَم على صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ»[3].

وقال ﷺ: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاثَ حثيات من حثيات ربي»[4].

وقال ﷺ: «أعطيتُ سبعين ألفًا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب وجوهُهم كالقمر ليلةَ البدر، قلوبهمْ على قلبِ رجلٍ واحدٍ، فاستزدتُ ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا»[5].

فيا لها من فرحة لمن يدخل الجنة بغير حساب، وذلك لأن المؤمن يعلم أنه لو جاءه من يبشره بالجنة، ولكن بعد أن يحاسبه الله ثم يدخله الجنة لكان ذلك عذابًا شديدًا؛ لأن النبي ﷺ قال: «من نُوقش الحساب عُذِّب»[6].

وفي رواية: «من نُوقش المحاسبة هلك»[7].

---

(١) قال الشيخ الألباني: قلت قوله «لا يرقون»، هو مما تفرد به مسلم دون البخاري وغيره، ثم هو شاذ سندًا ومتنًا، كما بينته في محل آخر، ! وحسبك دليلاً على شذوذه أن النبي ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة!

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٣٩٩٩).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (٥٣٦٥).

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١١١).

(٥) رواه أحمد عن أبي بكر وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٧).

(٦) متفق عليه عن عائشة ـ صحيح الجامع (٦٥٧٨).

(٧) رواه الطبراني في الكبير عن ابن الزبير ـ صحيح الجامع (٦٥٧٩).

فمجرد مناقشة الحساب عذاب شديد، فحسبك أيها المؤمن أن يعدد الله عليك ذنوبك وأوزارك.

فكيف بمن يحاسبه الله وهو لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟! وبذلك تستطيع أن تستشعر مدى فرحة هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب «فاللهم اجعلنا منهم».

• من نوقش الحساب عذب •

قال ﷺ: «من حوسبَ يوم القيامة عُذِّب. قالت عائشة: أوليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: ليسَ ذلك بالحساب، إنما ذلك العرض، ولكن منْ نوقش الحسابَ يَهلك»[1].

وفي رواية - في الصحيحين - أنه ﷺ قال: «من نوقش الحساب عُذِّب».

وفي رواية الطبراني: «من نوقش المحاسبة هلك»[2].

• اللحظة الحاسمة التي يتحدد من خلالها مصير العبد •

وها هو الإمام القرطبي يصور لنا تلك اللحظة الحاسمة التي يتحدد من خلالها مصير العبد: إما إلى ظلٍ ظليل أو إلى شرٍ مقيل... قال الإمام القرطبي: فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتبُ، ونُصبت الموازين، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان بن فلان؟ هلمّ إلى العرض على الله تعالى. وقد وُكلت الملائكة بأخذك، فقربتك إلى الله، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك، فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغير لونك، وطار قلبك، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه، والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، وأنت في أيديهم، وقد طار قلبك، واشتد رعبك، لعلمك أين يراد بك.

فتوهَّم نفسك، وأنتَ بين يدى ربك، فى يدك صحيفة مخبرة بعملك، لا تغادر بليَّة كتمتها، ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل، وقلب منكسر، والأهوال

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن عائشة - صحيح الجامع (٦٢٢٠).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن الزبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٧٩).

محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بليّة قد كنت نسيتها ذكّرك الله إياها! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها! وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فردّه عليك فى ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيما! فيا حسرة قلبك، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك.

فأما من أوتى كتابه بيمينه، فعلم أنه من أهل الجنة، فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه، وذلك حين يأذن الله، فيقرأ كتابه، فإذا كان الرجل رأسًا فى الخير يدعو إليه، ويأمر به، ويكثر تبعه عليه، دُعى باسمه واسم أبيه، فيتقدم حتى إذا دنى أُخرج له كتاب أبيض، فى باطنه السيئات، وفى ظاهره الحسنات، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب، وجد فيه: هذه سيئاتك، وقد غفرت لك، فيفرح عند ذلك فرحًا شديدا، ثم يقلب كتابه، فيقرأ حسناته، فلا يزداد إلا فرحًا، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك، قد ضوعفت لك، فيبيض وجهه، ويؤتى بتاج، فيوضع على رأسه، ويُكسى حُلتين، ويحلَّى كل مفصل فيه، ويطول ستين ذراعًا، وهى قامة آدم. ويقال له: انطلق إلى أصحابك فبشرهم، وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أدبر قال: ﴿هَآؤُمُ اقرَؤوا كتابيه * إنى ظَنَنتُ إنى مُلَق حسابيَه﴾. قال الله تعالى: ﴿فهوَ فى عيشَة راضية﴾ ، أى مرضية، قد رضيها، ﴿فى جَنَّة عَاليَة﴾ فى السماء، ﴿قُطُوفُها﴾ ثمارها وعناقيدها ﴿دَانيَةٌ﴾ أدنيت منهم. فيقول لأصحابه: هَل تعرفونى؟ فيقولون: قد غمرتك كرامة الله، من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿كُلُوا وأشربُوا هنيئَا بما أسلَفتُم فى الأيَّام الخالية﴾ أى قدمتم فى أيام الدنيا.

وإذا كان الرجل رأسًا فى الشر يدعو إليه، ويأمر به، فيكثر تبعه عليه، ونودى باسمه واسم أبيه، فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود، بخط أسود، فى باطنه الحسنات، وفى ظاهره السيئات، فبدأ بالحسنات فيقرؤها، ويظن أنه سينجو، فإذا بل آخر الكتاب، وجد فيه: هذه حسناتك، وقد رُدت عليك، فيسود وجهه، ويعلوه الحزن، ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه، فيقرأ سيئاته، فلا يزداد إلا حزنا، ولا يزداد وجهه إلا سوادًا. فإذا بلغ آخر الكتاب، وجد فيه: هذه سيئاتك، وقد ضوعفت عليك، أى يضاعف عليه العذاب، ليس المعنى أنه يزاد عليه مالم يعمل. قال فيعظم إلى النار، وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى القطران.

ويقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا فينطلق وهو

يقول: ﴿يا ليتنى لَم أُوتَ كتبيه ۞ ولَم أدرِ مَا حسَابيَه ۞ يا ليتها كَانت القَاضية﴾ يعنى الموت ﴿هلَكَ عنى سُلطانيه﴾ تفسير ابن عباس رضى الله عنهما: هلكت عنى حجتى. قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الجحيم صلُّوهُ﴾ أى اجعلوه يصلى الجحيم ﴿ثُمَّ فِى سلسلة ذَرعُهَا سبعُونَ ذراعًا فَاسلكُوهُ﴾ الله أعلم بأى ذراع. قال الحسن وقال ابن عباس رضى الله عنهما: سبعون ذراعًا بذراع الملك. ﴿فاسلُكوهُ﴾ قيل: يدخل عنقه فيها، ثم يُجر بها، ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب.

فينادى أصحابه فيقول: هل تعرفونى؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرى ما بك من الحزن. فمن أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، لكل إنسان منكم مثل هذا.

وأما من أوتى كتابه وراء ظهره، تخلع كتفه اليسرى، فيجعل يده خلفه، فيأخذ بها كتابه. وقال مجاهد: يحول وجهه فى موضع قفاه، فيقرأ كتابه كذلك.

فتوهم نفسك إن كنت من السعداء، وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه، قد حل بك الكمال والحسن والجمال، كتابك فى يمينك، أخذ بضبعيك ملك ينادى على رؤوس الخلائق: هذا فلان بن فلان، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا. وأما إن كنت من أهل الشقاوة، فيسود وجهك وتتخطى الخلائق كتابك فى شمالك، أو من وراء ظهرك، تنادى بالويل والثبور، وملك أخذ بضبعيك ينادى على رؤوس الخلائق: ألا إن فلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا[1].

• القواعد التى يحاسب العباد على أساسها [2] •

لو عَذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالمًا لهم، لأنهم عبيده وملكه، والمالك يتصرف فى ملكه كيف يشاء.

ولكن الحق تبارك وتعالى يحاكم عباده محاكمة عادلة، لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل، وقد بين لنا ربنا فى كثير من النصوص جملة القواعد التى تقوم عليها المحاكمة والمحاسبة فى ذلك اليوم.

وسنذكر من ذلك ما ظهر لنا من تلك القواعد.

---

(١) التذكرة (١/ ٤٩٦: ٤٩٩) بتصرف.

(٢) بتصرف من (القيامة الكبرى) د. عمر الأشقر.

١ـ العدل التام الذي لا يشوبه ظلم:

يوفّي الحق عز وجل ـ عباده في يوم القيامة أجورهم كاملة غير منقوصة، ولا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١).

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفًا إياه بعدل الله ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:١٦).

٢ـ لا يؤخذ أحد بجريرة غيره:

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه أن الله يجازي العباد بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرا فشر، ولا يُحمل الحق تبارك وتعالى أحدًا وزر غيره، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٤). وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه، فالمهتدي يقطف ثمار هدايته، والضال ضلاله على نفسه.

• الذين يجمعون أثقالاً مع أثقالهم •

قد يعارض بعض أهل العلم هذا الذي ذكرناه من أن الإنسان لا يحمل شيئًا من أوزار الآخرين بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (العنكبوت: ١٣)، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (النحل: ٢٥).

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص، وليس بمعارض لها، فإن هذه النصوص تدلّ على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه، ومثل أجر من اهتدى بهديهم، واستفاد بعلمهم، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه.

٣ـ اطلاع العباد على ما قدموه من أعمال:

من إعذار الله لخلقه، وعدله في عباده أن يُطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم، وطالحها، حتى يحكموا على أنفسهم، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر.

قال تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (المائدة: ١٠٥)، وقال: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾ (آل عمران: ٣٠).

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم. وقراءتهم لها، فقد أخبرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها، فإذا مات ختم على كتابه، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه، وقيل له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا.

٤ـ مضاعفة الحسنات دون السيئات:

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ (التغابن: ١٧).

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ (الأنعام: ١٦٠) أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ (الأنعام: ١٦٠) وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى.

* قال الله تبارك وتعالى: «الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد. والسيئة واحدة أو أغفرها، ولو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بى، لقيتك بقرابها مغفرة»[1].

ومن الأعمال التى أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن، ففى الحديث الذى يرويه الترمذى والدارمى بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول: (الم) حرف. ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

* وحدثنا رسولنا ﷺ فى حديث الإسراء الذى يرويه البخارى وغيره تردده ﷺ بين ربه وموسى، حيث كان يشير عليه موسى فى كل مرة أن يرجع إلى ربه، فيسأله أن يخفف عنه من الصلاة، حتى أصبحت خمسًا بعد أن كانت خمسين. قال فى ختام ذلك: «قال الجبار تبارك وتعالى: إنه لا يبدل القول، كما فرضت عليك فى أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهى خمسون فى أم الكتاب، وهى خمس عليك. فرجع إلى

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٢٤١) وصححه ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٢٨).

موسى. فقال: كيف فعلت؟ قال: خُففت عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها».

وقد يضاعفها أكثر من ذلك، وقد تصل المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، وأكثر من ذلك، ومن ذلك أجر المنفق فى سبيل الله، قال تعالى: ﴿مثلُ الَّذين يُنفقُون أموالهُمْ فى سبيل الله كمثل حبَّة أنبتتْ سبْع سنابل فى كُلِّ سُنْبلة مائةُ حبَّة والله يُضاعفُ لمن يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

ومن الأعمال التى تضاعف أضعافًا لا تدخل تحت حصر، ولا يحصيها إلا الذى يجزى بها: الصوم، ففى الحديث الذى يرويه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: «إلا الصوم فإنه لى: وأنا أجزى به».

والسر فى كون الصائم يُعطَى من غير تقدير، أن الصوم من الصبر، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب، قال تعالى: ﴿إنما يُوفَّى الصَّابرُون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر:١٠)

قال القرطبى: وقال أهل العلم: كل أجر يُكال كيلا، ويوزن وزنًا إلا الصوم، فإنه يحثى حثوًا ويغرف غرفًا»[(١)].

* وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قُرِضتْ بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين.

قال ﷺ: «لَيودَّن أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قُرِضت بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء»[(٢)].

٥- تبديل السيئات حسنات:

قال تعالى: ﴿إلاَّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأُولئك يُبدِّلُ اللهُ سيِّئاتهم حسنات وكان اللهُ غفورًا رَّحيمًا (٧٠) ومن تاب وعمل صالحًا فإنَّهُ يتُوبُ إلى الله متابًا﴾ (الفرقان:٧٠:٧١).

وقال ﷺ: «إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها. رجل يؤتى به يوم القيامة. فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا.

---

(١) تفسير القرطبى (١٥/ ٢٤٠).

(٢) رواه الترمذى والضياء عن جابر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٨٤).

فيقول نعم: لا يستطيع أن ينكر. وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه.

فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة.

فيقول: رب، عملت أشياء لا أراها ها هنا!».

فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1].

٦- إقامة الشهود على الكفرة والمنافقين:

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم، الذى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

قال تعالى: ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ .

وأول من يشهد على الأمم رسلها، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ ﴿فكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١).

وكما يشهدون على أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة:١٠٩).

ثم إن الأمم تكذب رسلها، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير، فتأتى هذه الأمة: أمة محمد ﷺ وتشهد للرسل بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أُمَّةً وسطا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).

* ومن الأشهاد: الأرض والأيام والليالى تشهد بما عمل فيها وعليها ويشهد المال على صاحبه.

* ويشهد على العبد أيضا ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق:٢١) والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس.

وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون ﴿ويَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ (هود:١٨) فإذا لجَّ العبد فى الخصومة، وكذَّب ربه، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه، أقام الله عليه شاهدا منه، فتشهد على المرء أعضاؤه.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٧٧) (ح: ١٩٠).

• نحن آخر الأمم... وأول من يحاسب •

قال تعالى عن أمة الحبيب ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠).

وقال ﷺ: «إنكم تُتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»[1].

وقال ﷺ: «أمتي هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة إنما عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل والبلايا»[2].

بل لقد وصف النبي ﷺ أمته وكيف يكون حالها يوم القيامة وكيف يكون حسابها وأخبر أنهم أكثر أهل الجنة.

* قال ﷺ: «إن أمتي يُدعون يوم القيامة غُرًا مُحجلين من آثار الوضوء»[3].

* وقال ﷺ: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسَب يقال: أين الأمة الأميّة نبيها فنحن الآخرون الأولون»[4].

* فنحن أول من يُحاسَب يوم القيامة.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

• وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس •

ويظهر فضل أمة الحبيب ﷺ يوم القيامة عندما يجعلها الله (جل وعلا) أمة شاهدة على البشرية كلها.

قال ﷺ: «يجيءُ نوحٌ وأمتُه، فيقولُ الله: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم أي ربِّ! فيقول لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولونَ: لا؛ ما جاء لنا من نبي، فيقول لنوح، من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته، وهو قوله تعالى: «وكذلك جعَلناكم أمَّة وسطًا لتكُونوا شُهداء على الناس» والوسط: العدل، فيُدعونَ، فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد علَيكم»[5].

* والأمة لا تشهد لنوح (عليه السلام) فحسب بل تشهد لجميع الأنبياء كما أخبر

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن معاوية بن حيدة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٢) رواه أبو داود والطبراني في الكبير عن أبي موسى ـ صحيح الجامع (١٣٩٦).

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٢٠٠٥).

(٤) رواه ابن ماجه عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٤٩).

(٥) أخرجه البخاري وأحمد والترمذي عن أبي سعيد ـ صحيح الجامع (٨٠٣٤).

بذلك سيد الأتقياء ﷺ فقال: «يجيء النبيُّ يوم القيامة ومعه الرَّجل، والنَّبي ومعه الرجلان، والنبيُّ ومعه الثلاثة، وأكثرُ من ذلك، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومَه، فيقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيُقال له: من يشهدُ لكَ؟ فيقول: محمدٌ وأمته، فيُدعى محمدٌ وأمته فيُقالُ لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيُقال: وما علمُكم بذلك؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا، فأخبرنا أن الرُّسل قد بلَّغوا فصدَّقناه، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أمةً وسَطًا لِتكُونُوا شُهداء على النَّاسِ ويكون الرَّسولُ عليكم شهيدًا﴾»[1].

• آدم (عليه السلام)... وبعث النار •

قال ﷺ: «أولُ منْ يُدعى يومَ القيامة: آدمُ، فَتراءَى [له] ذريَّتُهُ فيقالُ: هذا أبوكمْ آدمُ، فيقولُ: لبَّيك وسَعديكَ فيقولُ: أخرجْ بَعث جهنم منْ ذرِّيتك: فيقولُ: يا ربِّ كم أخرجُ؟ فيقولُ: أخرج منْ كلِّ مائة تسعةً وتسعين، قالوا: يا رسول الله إذا أُخذ منا من كل مائة تسعةٌ وتسعون فماذا يبقى منا؟ قال: إن أمتى فى الأمم كالشعرة البيضاء فى الثورِ الأسود»[2].

• خطاب الله (عز وجل) لعيسى (عليه السلام) •

قال تعالى: ﴿وإذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِى وأُمِّيَ إلَهيْنِ من دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أنْ أقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٦:١١٨).

قال ابن كثير: هذا أيضًا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه آلهين من دون الله ﴿يا عيسى ابن مريم أأنت

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه عن أبى سعيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٣٣).
(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٥٨٣).

قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد[١].

• يوم يجمع الله الرسل •

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (المائدة:١٠٩).

هذا إخبار عما يخاطب الله تعالى به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم اليهم، كما قال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أُرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ وقول الرسل: ﴿لا علم لنا﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلاَّ علم أنت أعلم به منا رواه ابن جرير ثم اختاره على غيره من الأقوال.

ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله، أى لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شىء، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه وأنت العليم بكل شىء المطلع على كل شىء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم، فإنك ﴿أنت علام الغيوب﴾[٢].

• أخى الحبيب... أختى الفاضلة:

إن كان الله (عز وجل) سيسأل الرسل والملائكة والشهداء فهل نُترك بعد هؤلاء بغير سؤال ولا حساب؟!!. ألم تسمعوا قول الله (عز وجل): ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (الزمر:٦٨:٧٠).

* * *

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٣).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٩٩).

• تالله لتسألن عما كنتم تفترون •

وإن أعظم سؤال يوجَّه إلى العبد يوم القيامة هو السؤال عن التوحيد... فيُسأل العبد: هل حققت التوحيد لله (عز وجل) أم أنك عشت على الشرك والكفر بالله (جل وعلا).

* والله يسألهم عن عبادتهم لغيره وتقديم القرابين لآلهتهم المزعومة.. قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ (النحل:٥٦).

* ويسألهم أيضًا عن الشركاء والأنداد الذين كانوا يصرفون لهم العبادة من دون الله... قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص:٦٢) وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (الشعراء:٩٢:٩٣).

* بل ويسألهم عن تكذيبهم الرسل.. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (القصص:٦٥، ٦٦).

• ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان •

وها هو الحق (جل وعلا) يوبخ هؤلاء المجرمين الذين صرفوا العبودية للشيطان من دون رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (يس:٥٩:٦٢).

قال ابن كثير: يخبر تعالى عما يؤول إليه الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا أى يفترقوا عن المؤمنين فى موقفهم كقوله عز وجل: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ وقوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بنى آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم﴾ أى قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتى وهذا هو الصراط المستقيم فخالفتم أمرى وأطعتم الشيطان ولهذا قال عز وجل: ﴿ولقد

أضل منكم جبلاً كثيرًا﴾ أى خلقًا كثيرًا ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أى أفما كان لكم عقل لما خالفتم ربكم وعبدتم معه غيره وأطعتم الشيطان وهو عدوكم الظاهر العداوة.

«هذه جهنم التى كنتم توعدون» يقال للكفار توبيخًا: هذه جهنم التى كنتم تكذبون الرسل بوجودها، والتى كنتم بها توعدون ذوقوا عذابها وحريقها جزاء كفركم وتكذيبكم[1].

• الحمد لله على نعمة التوحيد •

قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أعطى الله تعالى كل رجلٍ من هذه الأمة رجلاً من الكفار فيقال له: هذا فداؤك من النار»[2].

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة بعث الله إلى كل مؤمن ملكًا معه كافر فيقول الملك للمؤمن: يا مؤمن هاك هذا الكفار فهذا فداؤك من النار»[3].

وقال ﷺ: «يجىء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم ويضعها على اليهود»[4].

فالحمد لله على نعمة التوحيد.

• لا يثقل مع اسم الله تعالى شىء •

إن كلمة التوحيد هى أعظم كلمة فى الكون كله فهى التى من أجلها خلق الله السماوات والأرض وأرسل الرسل وأنزل الكتب وخلق الجنة والنار... فإذا جاء بها العبد يوم القيامة خالصة من قلبه ولم يأت بما ينقضها فإن ميزانه يصبح ثقيلاً بالحسنات لأنه لا يثقل مع اسم الله تعالى شىء فتعالوا بنا لنتأمل هذا المشهد المهيب.

فعن ابن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلّص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثلُ مدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٣ - ٥٧٤) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم عن أبى موسى - صحيح الجامع (٧٧٨).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى «الكُنى» عن أبى موسى - صحيح الجامع (٧٧٩).

(٤) أخرجه مسلم عن أبى موسى - صحيح الجامع (٨٠٣٥).

يارب. فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنةً وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يارب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: فإنك لا تُظلم.. فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شىء»[1].

• أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة •

قال ﷺ: «إنَّ أولَ ما يحاسبُ به العبدُ يومَ القيامة منْ عمله الصلاةُ، فإنْ صلَحتْ فقد أفلحَ وأنجح، وإنْ فسدت فقد خابَ وخسرَ، وإن انتقص منْ فريضة قالَ الربُّ: أنظروا هَلْ لعبدى منْ تطوُّع؟ فيكملُ بها ما انتقص من الفريضة، ثمَّ يكونُ سائرُ عمله على ذلك»[2].

وقال ﷺ: «أولُ ما يحاسبُ الناسُ به، يومَ القيامة منْ أعمالهم الصلاة، يقولُ ربُّنا عزَّ وجلَّ لملائكته وهو أعلمُ: انظُروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقَصها؟ فإن كانتْ تامَّةً كُتبت له تامةً، وإنْ كَانَ انتقصَ منها شيئًا، قال: انظُروا هل لعبدى من تطوُّع؟ فإن كانَ له تطوعٌ قال: أتموا لعَبدى فريضتهُ، ثم تُؤخذُ الأعمالُ على ذاكم»[3].

• ثم لتسألن يومئذ عن النعيم •

قال ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصحَّ لك جسمك ونرويك من الماء البارد؟»[4].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لتُسألن يومئذ عن النعيم﴾ قال الناس يا رسول الله: عن أى نعيم نُسأل، فإنما هما الأسودان والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا؟ قال: «إن ذلك سيكون»[5].

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن ابن عمر ـ صحيح الجامع (١٧٧٦).

(٢) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢٥٧١).

(٤) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٢).

(٥) رواه الترمذى وأحمد وابن أبى شيبة بإسناد حسن.

* إن نعم الله كثيرة لا تُعد ولا تُحصى... قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم:٣٤).

ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمه «وقليل من عبادى الشكور».

ولذلك قال ﷺ: «إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»[١].

وقال ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[٢].

• والله ما تركنا شيئًا نحاسَب عليه •

عن عبد الرحمن بن سابط قال: أرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر الجمحى: إنا مستعملوك على هؤلاء، تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم (فذكر حديثًا طويلاً) فقال فيه: قال سعيد: وما أنا بمختلف عن العُنُق الأول بعد إذ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى فقراء المسلمين: «يُزَفُّون كمًا يُزَفُّ الحمامُ فيُقَالُ لهم: قفوا للحساب، فيقولون: والله ما تركنَا شيئًا نُحاسبُ به، فيقولُ اللهُ عز وجل: صدق عبادى فيدخلون الجنةَ قبلَ الناسِ بسبعين عامًا»[٣].

• إن العهد كان مسئولاً •

ومن الأشياء التى يحاسب الله عليها عباده ـ العهود والمواثيق ـ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء:٣٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (الأحزاب:١٥).

* * *

(١) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن أنس ـ صحيح الجامع (١٨١٦).

(٢) أخرجه البخارى والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٦٧٧٨).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير وهو حسنٌ لغيره.

• السمع والبصر والفؤاد •

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦).

﴿ولا تقف﴾ أى لا تقلْ ﴿ما ليس لك به علم﴾ أى لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله وقوله تعالى: ﴿كل أولئك﴾ أى هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كان عنه مسؤولا﴾ أى سيُسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعما عمل فيها[١].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات:١٢).

وقال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذبُ الحديث...»[٢].

وقال ﷺ: «من تحلَّم كاذبًا كُلِّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ولن يعقد بينهما»[٣].

• مشهد أهل الرياء يوم القيامة •

إنها الحسرة على أهل الرياء الذين بذلوا الغالى والنفيس وصلوا وصاموا وفعلوا كل الطاعات وما أرادوا بها وجه رب الأرض والسماوات، وإنما أرادوا من ورائها السمعة والرياء... فيأتى أحدهم بتلك الأعمال فيجد أن الله عز وجل قد جعلها هباءً منثوراً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣).

فى الوقت الذى يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى حسنة واحدة ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الزمر:٤٧، ٤٨).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد ومالك ـ صحيح الجامع (٢٦٧٩).

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٦١٣٩).

وتكتمل حسرتهم عند معاينة هذا المشهد.

* قال ﷺ: «إن الله إذا كانَ يومُ القيامة ينزلُ إلى العبادِ ليقضى بينهُم، وكلُّ أمة جاثيةٌ، فأوَّلُ منْ يدعُو به رجلٌ جمعَ القرآن، ورجلٌ قُتل فى سبيلِ الله، ورجلٌ كثير المال، فيقولُ الله للقارىء: ألمْ أعلمكَ ما أنزلت على رسولى قال: بَلى يا ربٍّ قالَ: فماذا عملتَ فيما علمتَ؟ قالَ: كنتُ أقومُ به آناءَ الليل وآناءَ النهار، فيقولُ الله لهُ: كذبتَ، وتقولَ لهُ الملائكَةَ: كذبت، ويقولُ الله لهُ: بلْ أردتَ أنْ يقالَ فلانٌ قارىءٌ، فقد قيلَ ذلكَ. ويؤتى بصاحب المال فيقولُ الله لهُ: ألمْ أوسع عليك حتى لمْ أدعكَ تحتاجُ إلى أحد؟ قالَ: بلى يا ربٍّ، قالَ: فماذا عملت فيما آتيتُك؟ قالَ: كنت أصلُ الرَّحمَ، وأتصدقُ، فيقولُ الله لهُ: كذبتَ، وتقولُ الملائكةُ: كذبتَ، ويقول اللهُ: بلْ أردتَ أنْ يقالَ: فلانٌ جوادٌ، فقد قيلَ ذلكَ، ويؤتى بالذى قُتل فى سبيل الله فيقُول الله: فيماذا قُتلتَ؟ فيقولُ: أمرتُ بالجهاد فى سبيلكَ فقاتلتُ حتى قُتلتُ، فيقولُ الله لهُ: كذبتَ، وتقولُ لهُ الملائكة: كذبت، ويقولُ اللهُ: بلْ أردت أنْ يقالَ فلانٌ جرىءٌ، فقدْ قيلَ ذلكَ. يا أبا هريرةَ أولئكَ الثلاثةُ أولُ خلقِ الله تُسعرُ بهمُ النارُ يومَ القيامة»[1].

بل إن الله (عز وجل) يعاقب المرائى بضد مقصده... فهذا المرائى يريد السمعة والشهرة بين الناس ليحبوه وإذا بالحق (جل وعلا) يفضحه بين الناس ليكرهوه.

قال ﷺ: «من سمَّع سمَّع الله به ومن راءى راءى الله به»[2].

وقال ﷺ: «من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس»[3].

• يا ليتنى كنت ترابًا •

عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله عز وجل: ﴿أممٌ أمثالكم﴾ قال: «يُحشرُ الخلقُ كلهم يومَ القيامة البهائمُ والدوابُ والطيرُ وكلُ شىء فيبلغُ من عدل الله أن يأخذ للجمَّاء من القرناء، ثم يقولُ: كونى ترابًا فذلك يقولُ الكافرُ يا ليتنى كنتُ ترابًا»[4].

(١) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧١٣).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن عباس - صحيح الجامع (٦٣٠٣).

(٣) رواه الترمذى وأبو نعيم عن عائشة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠١٠).

(٤) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى.

• سيئات العبد وحسناته •

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال: قال الرب تبارك وتعالى: «يُؤتى بسيئاتِ العبدِ وحسناتِه فيقتص أو يقضي فإن بقيتْ له حسنةٌ وُسِّعَ له في الجنة»(١).

• أربعة يحتجون يوم القيامة •

عن الأسود بن سريع وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربعةٌ يحتجونَ يوم القيامة: رجلٌ أصمٌّ لا يسمعُ شيئًا، ورجلٌ أحمقُ، ورجلٌ هرمٌ، ورجلٌ ماتَ في فترة.

فأما الأصمُّ فيقولُ: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أسمعُ شيئًا.

وأمَّا الأحمقُ فيقولُ: ربِّ جاءَ الإسلامُ وما أعقلُ شيئًا، والصبيانُ يحذفُونني بالبعرِ.

وأمَّا الهرمُ فيقولُ: ربِّ لقدْ جاءَ الإسلامُ وما أعقلُ شيئًا.

وأمَّا الذي ماتَ في الفترةِ فيقولُ: ربِّ ما أتاني لك رسولٌ. فيأخذُ مواثيقهم ليطيعنَّهُ، فيرسلُ إليهم: أن ادخُلوا النَّارَ، فمنْ دخلها كانت بردًا وسلامًا ومن لم يدخلها سُحب إليها»(٢).

• سيسأل كل عبد عن أربعة أشياء •

قال ﷺ: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟»(٣).

وقال ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»(٤).

---

(١) رواه البزار وإسناده حسنٌ لغيره

(٢) رواه أحمد وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨١).

(٣) رواه الترمذي عن ابن مسعود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩٩).

(٤) رواه الترمذي عن أبي برزة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠).

• ستر فى الدنيا... ومغفرة فى الآخرة •

عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رضى الله عنهما: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كَنَفَه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أى رب أعرف. قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم، فيُعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله»[1].

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «يدنى الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه فى ذلك الستر فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك قال: فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسود لها وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدى؟ قال: فيقول نعم يا رب أعرف، قال: فيقول: (فإنى) أعرف بها منك، قد غفرتها لك، قال: فلا تزال حسنة تُقبل فيسجد وسيئة تُغفر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضا طوبى لهذا العبد الذى لم يعص قط فلا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه»[2].

• ستنسى كل شقاء بغمسة واحدة فى الجنة •

قال ﷺ: «يؤتَى بأنعم أهل الدُّنيا من أهل النار يومَ القيامة، فيُصبغُ فى جهنم صبغةً، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة فيُصبغ فى الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب! ما مرَّ بى بؤسٌ قط، ولا رأيت شدةً قط»[3].

* * *

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس - صحيح الجامع (٧٩٩٦).
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص: ٢١٥) فى زوائد الزهد بإسناد حسن.
(٣) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس - صحيح الجامع (٨٠٠٠).

• تدبَّر معي هذا الحوار الرقيق •

قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقولُ يومَ القيامة: يا ابن آدم مرضت فلمْ تعدني، قالَ: يا ربٌ كيفَ أعودك وأنت ربُّ العالمينَ؟ قالَ: أما علمت أنَّ عبدى فُلانًا مرض فلمْ تعده؟ أما علمت أنّك لوْ عُدتَهُ لوجدتنى عنده؟ يا ابن آدم استطعمتُك فلمْ تطعمنى، فقال: يارب وكيف أطعمُك وأنت ربُّ العالمينَ؟ قالَ: أما علمتَ أنهُ استطعمكَ عبدى فلانٌ فلمْ تطعمهُ؛ أما علمْت أنك لو أطعمته لوجدت ذلكَ عندى؟ يا ابن آدم استسقيتُك فلمْ تسْقنى، قالَ: يا ربٌ كيف أسقيكَ وأنت ربُّ العالمينَ؟ قال: استسقاكَ عبدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى»[1].

• تطاير الصحف •

ويا له من مشهد فاصل بين أهل الحق وأهل الباطل إنه مشهد استلام الصحف والذى سيتم الفصل فيه بين أهل الجنة وأهل النار، فالكل يتربص وينتظر وترتعد فرائصه وتنتفض جوارحه ويسأل نفسه: يا تُرى هل سآخذها بيمينى أم بشمالى؟!! وبينما هو يفكر إذ بالصحيفة تأتى فى يمينه فيصرخ بأعلى صوته ويجرى فى أرض المحشر، وهو يقول: ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية﴾ ، وتنادى عليه الملائكة وعلى أمثاله من أهلِ الجنة وتقول: ﴿كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم فى الأيام الخالية﴾ (الحاقة:١٩:٢٤).

وأما إن كان عياذًا بالله من أهل النار فتقع الصحيفة فى شماله ويصرخ بأعلى صوته فى حسرة شديدة ويقول: ﴿يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه﴾، فيأمر الله الملائكة ﴿خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه﴾ .

يقول القرطبى: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تُجمع يده إلى عنقه فذلك قوله تعالى «فغلوه» «ثم الجحيم صلوه»، ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة ليصْلَى حرها، ﴿ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه﴾ (الحاقة:٢٥:٣٢).

أى ثم أدخلوه فى سلسلة حديدية طولها سبعون ذراعًا.

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٩١٦).

قال ابن عباس: بذراع الملك تدخل السلسلة من دُبره وتخرج من حلقه، ثم يُجمع بين ناصيته وقدميه، ثم ينظمونه كما يُنظم الجراد فى العود حين يُشوى.

قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، ولو سقطت حلقة منها على الأرض ما حملها أهل الأرض، ولماتوا جميعًا من نتن ريحها.

يا له من موقف عصيب يقع الكتاب بين يديك تقلب صفحاته تجد فيه المال الحرام الذى أكلته والزنا الذى فعلته وعقوق الوالدين والغيبة والنميمة والغش وشهادة الزور وهجر القرآن وترك الصلاة.

وأما المؤمن فيفتح كتابه فيجد فيه الصلاة والصيام والصدقة وبر الوالدين وقيام الليل والاستغفار وقراءة القرآن فينظر لإخوانه فى أرض المحشر ويقول ﴿هاؤم اقرءوا كتابيه﴾ لماذا؟ ﴿إنى ظننت أنى ملاقٍ حسابيه﴾ .

لقد علم أنه محاسب أمام ربه وأنه موقوف أمام الحق تبارك وتعالى فأعد للسؤال جوابا فكانت النتيجة ﴿فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية﴾ [1].

* إن هذا المشهد المهيب يكون فى ختام مشهد الحساب.... وعندما يأخذ العباد كتبهم يقال لهم: ﴿هذا كِتابُنا يَنطِقُ عليكُم بالْحقِ إنَّا كُنَّا نَستَنسِخُ ما كُنتُمْ تعمَلُون﴾ (الجاثية:٢٩).

• هل تذكرون أهليكم يوم القيامة •

عن عائشة رضى الله عنها قالت: ذكرت النار فبكيت فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك»؟ قلت: ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: «أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدًا. عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه فى يمينه أم فى شماله أم من وراء ظهره وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم حتى يجوز»[2].

فاللهم احشرنا فى زمرة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب

* * *

(١) وأنذرهم يوم الحسرة/ للمصنف (ص: ٨٤، ٨٥).

(٢) رواه أحمد (٦/ ١٠١) وأبو داود بإسناد حسن.

مشاهد القصاص يوم القيامة

إن الله (عز وجل) جعل الظلم مُحرمًا بين العباد فقال تعالى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرمًا بينكم فلا تظالموا...»[١].

وأخبر الحبيب ﷺ بأن الظلم عاقبته وخيمة فى الدنيا والآخرة فقال ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٢].

* والظلم إيذان بهلاك الأمم... قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يونس:١٣).

ولذلك قال الإمام ابن تيمية: إن الله ليقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ويهدم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة.

* ومن أجل ذلك جاء الشرع بتحريم الظلم.

قال ﷺ: «أشد الناس عذابًا للناس فى الدنيا أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة»[٣].

وقال ﷺ: «إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فُحشه»[٤].

وقال ﷺ: «ألا من ظلم مُعاهَدًا أو انتقصه حقه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ منه فأنا حجيجه يوم القيامة»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى ذر ـ صحيح الجامع (٤٣٤٥).

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن ابن عمر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠١).

(٣) رواه أحمد والبيهقى عن خالد بن الوليد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٩٨).

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود عن عائشة ـ صحيح الجامع (٢٠٩٥).

(٥) رواه أبو داود والبيهقى عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٥٥).

وقال ﷺ: «من ضرب مملوكه ظالمًا أُقيد منه يوم القيامة»[١].

وقال ﷺ: «من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جُلد يوم القيامة حدًا إلا أن يكون كما قال»[٢].

* بل لقد حرَّم النبي ﷺ ظُلم الدواب العجماوات فقال ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تُطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»[٣].

• مغبة الظلم في الدنيا والآخرة •

إنها الحسرة على كل ظالم في الدنيا والآخرة.

فأما حسرته في الدنيا فإن الله (عز وجل) يحرمه نعمة الهداية...

قال تعالى: «والله لا يهدى القوم الظالمين».

وكذلك فإن الله يحرمه أعظم نعمة في هذا الكون ـ ألا وهى محبة الله له ـ قال تعالى: «والله لا يحب الظالمين».

* بل إن الله يُملى للظالم ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال ﷺ: «إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القُرى وهى ظالمةٌ إنَّ أخْذَهُ أليمٌ شديدٌ﴾ (هود:١٠٢)[٤].

وكذلك فإن الله جل وعلا يستجيب لكل من دعا عليه من المظلومين.... كما قال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين»[٥].

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فإنه ليس دونها حجاب»[٦].

وعن عبد الله بن سلام قال: إن الله ـ تعالى ـ لما خلق الخلق؛ واستووا على أقدامهم

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عمار وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٦٤٦٣).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٣٣٧٤).

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي موسى ـ صحيح الجامع (١٨٢٢).

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن خزيمة بن ثابت وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٧).

(٦) رواه أحمد وأبو يعلى عن أنس وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٩).

رفعوا رؤوسهم إلى السماء، وقالوا: يا رب مع من أنت؟

قال: مع المظلوم حتى يؤدَى إليه حقه.

• وأما حسرته يوم القيامة •

وأما عن حسرته يوم القيامة فعن أبي أمامة قال: يجيء الظالم يوم القيامة، حتى إذا كان على جسر جهنم لقيه المظلوم، وعرفه ما ظلمه به، فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات، فإن لم يجدوا لهم حسنات حَملوا عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموهم حتى يردوا إلى الدرك الأسفل من النار.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: يؤخذ بيد العبد أو الأمة ـ يوم القيامة ـ فينادى به على رؤوس الخلائق: هذا فلان ابن فلان، من كان له عليه حق فليأت إلى حقه.

قال: فتفرح المرأة أن يكون لها حق على أبيها أو أخيها أو زوجها، ثم قرأ: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ (المؤمنون:١٠١).

قال: فيغفر الله من حقه ما شاء، ولا يغفر من حقوق الناس شيئا.

فيُنصب العبد للناس ثم يقول الله ـ تعالى ـ لأصحاب الحقوق: ائتوا إلى حقوقكم قال ـ فيقول الله تعالى للملائكة: خذوا من أعماله الصالحة، فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته.

فإن كان وليًا لله، وفضل له مثقال ذرة، ضاعفها الله تعالى له حتى يدخله الجنة بها، وإن كان عبداً شقيا، ولم يفضل له شيء فتقول الملائكة: ربنا فنيت حسناته وبقي طالبوه: فيقول الله: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته. ثم صكّ له صكًا إلى النار.

ويؤيد ذلك ما تقدم من قول النبي ﷺ: «أتدرونَ من المفلس....».

وعن وهب بن منبه قال: بنى جبار من الجبابرة قصرا وشيده، فجاءت عجوز فقيرة فبنت إلى جانبه كوخا تأوي إليه.

فركب الجبار يومًا وطاف حول القصر، فرأى الكوخ فقال: لمن هذا؟

قيل: لامرأة فقيرة، تأوي إليه، فأمر به فهُدم.

فجاءت العجوز فرأته مهدومًا فقالت: من هدمه؟

فقيل: الملك رآه فهدمه.

فرفعت العجوز رأسها إلى السماء، وقالت: يارب إذا لم أكن أنا حاضرة، فأين كنت أنت؟

قال: فأمر الله جبريل أن يقلب القصر على من فيه؛ فقلبه!!!.

ومما ذُكر أن كسرى اتخذ مؤدبًا لولده يعلمه ويؤدبه، حتى إذا بلغ الولد الغاية فى الفضل والأدب استحضره المؤدب يومًا، وضربه ضربًا شديدًا من غير جرم ولا سبب، فحقد الولد على المعلم، إلى أن كبر، ومات أبوه، فتولى الملك بعده، فاستحضر المعلم، وقال له: ما حملك على أن ضربتنى ـ فى يوم كذا وكذا ـ ضربًا وجيعًا من غير جرم ولا سبب؟ فقال المعلم: اعلم أيها الملك لما بلغت الغاية فى الفضل والأدب، علمت أنك تنال الملك بعد أبيك، فأردت أن أذيقك ألم الضرب، وألم الظلم حتى لا تظلم أحدًا.

فقال: جزاك الله خيرًا، ثم أمر له بجائزة وصرفه[1].

* وعن جابر رضى الله عنه قال: لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال: ألا تحدثونى بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة»؟ فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائزها تحمل على رأسها قُلة من ماء فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كفيه ثم دفعها فخرت على ركبتها فانكسرت قُلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسى وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا. قال: يقول رسول الله ﷺ: «صدقت صدقت كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم»[2].

* ولذلك أمرنا النبى ﷺ أن نتحلل من المظالم فى الدنيا قبل أن نجنى ثمار الحسرة يوم القيامة فقال ﷺ: «من كانت لأخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم، فإن كان له عملٌ صالحٌ أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له عمل أُخذ من سيئات صاحبه فجُعلت عليه»[3].

* فمن جاء يوم القيامة بتلك المظالم ولم يتحلل منها فى الدنيا فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (طه:١١١).

---

(١) الكبائر/ للإمام الذهبى (ص: ٢١٠: ٢١٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠١٠) وابن حبان (٧/ ٢٥٩) بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٦٥١١).

وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (إبراهيم:٤٢:٥٢).

* بل أخبر النبي ﷺ عن حال هذا الظالم يوم القيامة بأنه سيكون مُفلسًا من الحسنات بسبب ظلمه للعباد فيأتيه المظلومون... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى تفنى كل حسناته ثم تُطرح عليه سيئاتهم ثم يُطرح فى النار ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ـ .

• هذا هو المفلس •

عَنْ أبى هُرَيْرَة، أنَّ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «أتدْرُونَ مَا الْمُفلسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلسُ فِينَا مَنْ لاَ درْهَمَ له ولاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: «إنَّ الْمُفلسَ منْ أمَّتى، يَأتى يوْمَ الْقيَامَةِ بصلاة وَصيام وزكَاة، ويَأتى قَدْ شَتَمَ هَذَا، وقَذَفَ هَذَا، وَأكلَ مالَ هَذا، وَسفَكَ دَمَ هَذا، وَضرَبَ هَذَا، فيُعطى هذا منْ حَسَنَاته وَهَذَا مَنْ حَسَنَاته. فإنْ فنيَتْ حَسَنَاتُهُ، قبْلَ أنْ يُقضىَ مَا علَيْه، أخذ منْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحتْ عَلَيْه. ثمَّ طُرِحَ فى النَّار»[1].

قال الإمام النووى: معناه أن هذا حقيقة المفلس، وأما من ليس له مال ومن قل ماله فالناس يسمونه مفلسًا، وليس هو حقيقة المفلس لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك فى حياته، وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور فى الحديث

(١) أخرجه مسلم (٥٩) (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

فهو الهالك الهلاك التام والمعدوم الإعدام المقطع فتؤخذ حسناته لغرمائه فإذا فرغت حسناته أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ثم ألقى فى النار فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه[١].

• أول ما يقضى بين الناس فى الدماء •

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ (المائدة:٣٢).

وقال ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء»[٢].

* قال ابن حجر العسقلانى: «ولا يعارض هذا حديث أبى هريرة رفعه: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته» الحديث أخرجه أصحاب السنن، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق. والثانى: فيما يتعلق بعبادة الخالق. وقد جمع النسائى فى روايته فى حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يقضى بين الناس فى الدماء»[٣].

* بل يوضح النبى ﷺ بشاعة هذه الجريمة فيقول: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمنٍ بغير حقٍ»[٤].

* ثم يوضح هذا المشهد المفزع من مشاهد يوم القيامة فيقول ﷺ: «يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخَبُ دمًا فيقول: يارب سَل هذا فيم قتلنى؟ حتى يُدنيه من العرش»[٥].

• القصاص بين الدواب يوم القيامة •

عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّ الأديم، وحُشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٢٥٧٧).
(٣) فتح البارى (١١/ ٣٩٦).
(٤) رواه ابن ماجه عن البراء وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٧٨).
(٥) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٣١).

نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب، قال لها كونى ترابا، قال فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (النبأ:٤٠).

* وأخرج أحمد فى مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء، وحتى الذرة من الذرة».

وفى المسند أيضا عن أبى هريرة يرفعه: «ألا والذى نفسى بيده ليختصمن كل شىء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا».

* وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنطحان، فقال: أبا ذر، هل تدرى فيم تنطحان؟.

قال: لا.

قال: ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما».

* عن أبى هُرَيْرَةَ؛ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوق إلى أهْلِهَا يَوْمَ القِيامَة. حتى يُقادَ للشَّاة الجَلْحَاء من الشَّاة القَرْنَاء»[1].

* قال الإمام النووى: هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة قال الله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حُشرت﴾ وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حمله على ظاهره قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة فى القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة،... والجلحاء: هى الجماء التى لا قرن لها[2].

* فإذا كان القصاص سيكون بين الدواب يوم القيامة فكيف بمن يظلم مسلمًا موحدًا لله (عز وجل)؟!!!.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠) (٢٥٨٢) كتاب البر.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

• البدار البدار قبل نزول الموت •

وإذا تقرر هذا، فيجب على كل مسلم البدار إلى محاسبة نفسه، كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحًا ويتدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله عز وجل، ويرد المظالم إلى أهلها حبة حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده (وسوء ظنه) بقلبه، ويطيب قلوبهم حتى يموت، ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب، فإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلبته، وهذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوؤني وهذا يقول: جاورتني فأسأت إلى جواري، وهذا يقول عاملتني فغششتني وهذا يقول: بايعتني وأخفيت عني عيب متاعك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول رأيتني محتاجًا وكنت غنيًا فما أطعمتني، وهذا يقول وجدتني مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظلم فداهنت الظالم وما راعيتني، فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو جناية أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر:١٧) فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله به على لسان رسوله ﷺ حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم:٤٢-٤٣).

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك[1] بأعراض الناس وتناولك أموالهم! وما أشد حسرتك في ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل، وشوفهت بخطاب السيئات، وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقًا أو تظهر عذرًا!! فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتُنقل إلى (خصمائك) عوضًا عن حقوقهم.

---

(١) التمضمض: معناه هنا كثرة كلامك عن الناس بالغيبة والنميمة.

* قال أبو حامد الغزالي: ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا (ينقضى) عليك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك. فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام، (والشبهات) والتقصير فى الطاعات؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء؟ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (النبأ:٤٠) فكيف بك يا مسكين فى يوم ترى فيه صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك؟ فتقول: أين حسناتى؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك، فتقول: يارب هذه سيئات ما قارفتها قط. فيقال: هذه سيئات الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء، وظلمتهم فى المعاملة والمبالغة والمجاورة والمخاطبة، والمناظرة والمذاكرة والمدارسة، وسائر أصناف المعاملة، فاتق الله فى مظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وأبشارهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة المغفرة إليه أسرع، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليُسر ببعض الحسنات بينه وبين الله تعالى بكمال الإخلاص من حيث لا يطلع عليه إلا الله (تعالى) وليكثر من الاستغفار لمن ظلمه، فعساه أن يقربه ذلك إلى الله فينال به لطفه الذى ادخره لأرباب المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم بإرضائه إياهم[1].

• القنطرة.. والقصاص بين المؤمنين •

إنها القنطرة التى لا يعلم عنها الكثير من الناس شيئًا. فهى القنطرة التى يقتص فيها المؤمنون من بعضهم البعض..... فبعد خروجك من تلك الأهوال التى تحدثنا عنها وبعد مرورك من على الصراط تظن أن الأمر قد انتهى عند ذلك ولم يبق سوى دخولك الجنة وفجأة تجد نفسك على قنطرة المظالم التى قال عنها النبى ﷺ «إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا نُقُّوا وهُذبوا أُذن لهم بدخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه فى الجنة أدل منه بمسكنه كان له فى الدنيا»[2].

---

(١) التذكرة (١/ ٥٢٣: ٥٢٦) بتصرف.

(٢) أخرجه البخارى ـ عن أبى سعيد الخدرى ـ كتاب المظالم ـ باب قصاص المظالم (٢٤٤٠).

قال القرطبي في التذكرة: ومعنى «ويخلص المؤمنون من النار» أي يخلصون من الصراط المضروب على النار ودل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفوا الحال.

قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيُقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذبوا وطُيبوا قال لهم رضوان وأصحابه سلامٌ عليكم بمعنى التحية طبتم فادخلوها خالدين.

ويا لها من حسرة شديدة أن تجد نفسك أمام من يأخذ حسناتك من أجل المظالم التي كانت بينكم في الدنيا.... هذا يقول لك لقد اغتبتني وهذا يقول لقد سرقتني وهذا يقول.. ومن أجل ذلك أقول لك ياأخي إياك ومظالم العباد وإياك أن تبيت ليلة ولأحد عندك مظلمة وإن كان هذا الإنسان كافراً فإن دعوة المظلوم مستجابة يرفعها الله فوقَ الغمام ويقول وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين..... قال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنه ليس دونها حجاب»[1].

وقد يسأل سائل ويقول ما الفرق بين القصاص عند الميزان وبين القصاص على تلك القنطرة؟

والجواب أن القصاص عند الميزان قد يكون بين مؤمن ومؤمن أو بين كافر وكافر، أو بين مؤمن وكافر، وهذا القصاص قد يؤدي إلى فناء حسنات أهل الظلم الذين هم أهل الظلمات يوم القيامة وبالتالي فيكون مصيرهم إلى النار وبئس المصير وقد لا يصل إلى فناء الحسنات ولكنه يُنقص منها بقدر المظالم التي ظلمها للناس وهذا ينقص من درجته في الجنة.

وإذا اقتص الحق تبارك وتعالى من المؤمن إلى الكافر فإن حسنات المؤمن تنقص بقدر المظلمة ولكنها لا تُحسب لهذا الكافر لأن الكافر ليس له رصيد يوضع فيه تلك الحسنات لأن الكفر يحبط العمل كله.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الزمر:٦٥).

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى عن أنس وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٩).

وقال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان:٢٣).

أما المظالم التى على القنطرة فهى بين المؤمنين الذين يدخلون الجنة فيقتص كل واحد منهم من الآخر بقدر مظلمته فيزداد ويرتفع المظلوم درجة فى الجنة ويخسر الظالم درجة فى الجنة فيا لها من حسرة فإياك ومظالم العباد!!.

* * *

صفة الميزان

تذكَّر يوم تأتي الله فرداً　　وقد نُصبت موازين القضاء

وهُتكت الستور عن المعاصي　　وجاء الذنب منكشف الغطاء

في ختام ذلك اليوم يُنصب الميزان لوزن أعمال العباد.

يقول القرطبي: «وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها»[1].

وقد دلت النصوص على أن الميزان ميزان حقيقي، لا يقدر قدره إلا الله تعالى، فقد روى الحاكم عن سلمان عن النبي ﷺ: قال «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يارب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[2].

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:٤٧).

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدده، فذهب بعضهم إلى أن لكل شخص ميزانًا خاصًا، أو لكل عمل ميزانا لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأنبياء:٤٧).

وذهب آخرون إلى أن الميزان واحد، وأن الجمع في الآية إنما هو باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص.

وقد رجح ابن حجر بعد حكايته للخلاف أن الميزان واحد، قال: «ولا يشكل بكثرة

---

(١) تذكرة القرطبي: (٢/ ٣).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢/ ٦٥٦). ورقم الحديث (٩٤١).

من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تكيَّف بأحوال الدنيا»[١].

وقال السفاريني: «قال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان. قال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد، لقوله تعالى: ﴿ونضع الموازين﴾، وقوله: ﴿فمن ثقلت موازينه﴾. قال: وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان. أورد هذا ابن عطية وقال: الناس على خلافه، وإنما لكل واحد وزن مختص به، والميزان واحد. وقال بعضهم إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم... وهو حسن»[٢].

• ما الذي يوزن في الميزان •

والقول في الموزون على أربعة أوجه:

١ ـ أن الأعمال هي التي توزن وأن أفعال العباد تُجسَّم فتوضع في الميزان، قال الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ (الزلزلة:٧، ٨).

ويقول النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[٣].

٢ ـ أن صحائف الأعمال هي التي توزن، يدل على ذلك حديث البطاقة عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثلُ مدّ البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنةً وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يارب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: فإنك لا تُظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء»[٤].

---

(١) فتح الباري: (٣/ ٥٣٧).

(٢) لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٨٦) نقلاً من القيامة الكبرى.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ باب في فضائل التسبيح ـ كتاب الذكر.

(٤) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمرو وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦).

٣ ـ أن الموزون ثواب العمل كما جاء فى حديث أبى أمامة الباهلى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهم غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما... اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة»[1]. قال معاوية: بلغنى أن البطلة: السحرة.

قال الترمذى رحمه الله تعالى: معنى هذا الحديث عند أهل العلم إنه يجىء ثواب قراءته.

٤ ـ أن الموزون هو العامل نفسه والدليل على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: كنت أجتنى لرسول الله ﷺ من الأراك (ليأتيه بالسواك) قال: فضحك القوم من دقة ساقى فقال النبى ﷺ مم تضحكون؟ قالوا: من دقة ساقيه. فقال: «والذى نفسى بيده لهى أثقل فى الميزان من أُحد»[2] أى من جبل أحد.

وفى المقابل يقول النبى ﷺ : «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا﴾ »[3].

والذى استظهر من النصوص والله أعلم أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن بالجمع بين النصوص ولا منافاة بينهم والله أعلم[4].

• الميزان حق.. ولا يكون فى حق كل أحد •

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ: الميزان حق ولا يكون فى حق كل أحد، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام، فيقال يا محمد، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه. الحديث، وقوله تعالى: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم﴾ الآية، وإنما يكون لمن بقى من أهل المحشر ممن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا من المؤمنين.

وقال أبو حامد: والسبعون الألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا يرفع لهم

(١) أخرجه مسلم ـ باب فى قراءة القرآن وسورة البقرة وآل عمران من كتاب فضائل القرآن.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) والطيالسى (٣٥٥) ـ وحسنه الألبانى فى الصحيحة (٢٧٥٠).

(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة باب فى قوله تعالى: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ ـ كتاب التفسير.

(٤) معارج القبول لحافظ بن أحمد الحكمى ـ (جـ ٢ ، صـ ١٨٢ : ١٨٥) بتصرف.

ميزان ولا يأخذون صحفًا، وإنما هى براءات مكتوبة... لا إله إلا الله محمد رسول الله. هذه براءة فلان ابن فلان قد غفر له وسعد سعادة لا يشقى بعدها (أبدًا) فما مر عليه شىء أسرّ من ذلك المقام[1].

• فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون •

أخى الحبيب: هل وقفت يومًا لتشترى طعامًا أو فاكهة ورأيت كفة الميزان وهى تميل وترجح على الأخرى.. فتذكرت ميزان الآخرة وقد رجحت كفة السيئات على كفة الحسنات فكان ذلك حاديًا لك لأن تبادر إلى التوبة ولتجتهد فى طاعة الله (عز وجل) لتملأ كفة الحسنات بكل أنواع الطاعات والقربات ليرضى عنك رب الأرض والسماوات.

قال تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف:٨:٩).

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠١:١٠٤).

وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧).

* قال أنس بن مالك (رضى الله عنه): إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا لنعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات.

هل تدبرت أخى الكريم فى كلمات أنس (رضى الله عنه).

إنه يقول تلك الكلمات لخير جيلٍ عرفته البشرية كلها... وكأنه يقصد أن الصحابة (رضى الله عنهم) كانوا فى عهد النبى ﷺ إذا وقع أحدهم فى صغيرة ينظر بقلبه إلى ميزان يوم القيامة وقد تساوت كفة الحسنات مع كفة السيئات فتأتى تلك الصغيرة فترجّح كفة السيئات فتكون سببًا فى دخوله النار فتكون بذلك من الموبقات. فهل تخيلت نفسك

---

(١) التذكرة/ للقرطبى (٢/ ٦: ٧).

عند الوقوع فى معصية - صغيرة كانت أو كبيرة - أن تلك المعصية ربما ترجح كفة سيئاتك فكان ذلك حاديًا لك لأن تتوب وتعود إلى الله وتجتهد فى طاعته لتكون من المفلحين فى الدنيا والآخرة.

• ما الأعمال التى تثقل فى الميزان •

إن كل أعمال البر والطاعة تثقل فى الميزان وتجعل كفة الحسنات راجحة على كفة السيئات ولكن هناك أشياء تجعل كفة الحسنات ثقيلة جدًا.

قال ﷺ: «ما من شيء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حُسن الخُلق وإن الله يُبغض الفاحش البذيّ»[1].

وقال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض...»[2].

وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[3].

وقال ﷺ: «من احتبس فرسًا فى سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده كان شبعه وريُّه وروثه وبوله حسنات فى ميزانه يوم القيامة»[4].

• ونضع الموازين القسط ليوم القيامة •

عن عائشة رضى الله عنها أن رجلاً قعد بين يدى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: «بحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل» قال: فتنحّى الرجل فجعل يبكى ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «أما تقرأ كتاب الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ (الأنبياء:٤٧) الآية؟

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٢٦).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن أبى مالك الأشعرى.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة.

(٤) أخرجه البخارى وأحمد والنسائى عن أبى هريرة.

فقال الرجل: والله، يا رسول الله، ما أجد لى ولهؤلاء شيئًا خيراً من مفارقتهم. أشهدك أنهم أحرار كلهم(١).

• مسألة هامة •

فإن قيل: أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه تقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن، والكافر لا يكون له حسنات، فما الذى يقابل بكفره وسيئاته وأنّى يتحقق فى أعماله الوزن؟.

فالجواب: إن ذلك على وجهين:

أحدهما: أن الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره أو كفره وسيئاته فى إحدى كفتيه، ثم يقال له: هل لك من طاعة تضعها فى الكفة الأخرى؟ فلا يجدها فيُشال الميزان فترتفع الكفة الفارغة وتقع الكفة المشغولة، فذلك خفة ميزانه وهذا ظاهر الآية، لأن الله تعالى وصف الميزان بالخفة لا الموزون، وإذا كان فارغا فهو خفيف.

والوجه الآخر: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس وعتق المملوك ونحوهما مما لو كانت من المسلم لكانت قربة وطاعة، فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تُجمع وتوضع فى ميزانه، غير أن الكفر إذا قابلها بها رجح بها ولم يخل من أن يكون الجانب الذى فيه الخيرات من ميزانه خفيفًا ولو لم يكن له إلا خير واحد أو حسنة واحدة لأحضرت ووزنت كما ذكرنا.

* فإن قيل: لو احتسبت خيراته حتى يوزن لجوزى بها جزاء مثلها وليس له منها جزاء، لأن رسول الله ﷺ سُئل عن عبد الله بن جدعان وقيل له: إنه كان يقرى(٢) الضيف ويصل الرحم ويعين فى النوائب(٣) فهل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا لأنه لم يقل يومًا رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين»(٤).

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٨٠) والترمذى (٣٣٧٥) بإسناد صحيح.

(٢) يقرى الضيف: يكرم أضيافه، ويقدم لهم القرى: أىّ الطعام وما يكرمهم به.

(٣) النوائب: جمع نائبة وهى المصيبة التى تنزل بالإنسان.

(٤) حديث صحيح. أخرجه أحمد (٦/ ٩٣، ١٢٠)، وأبو عوانة (١/ ١٠٠)، والحاكم (٢/ ٤٠٥) وصححه، وأقره الذهبى، وأبو نعيم (٣/ ٢٧٨) فى الحلية، والبغوى (٥/ ١٢٠) فى تفسيره، والطبرى (٣٠/ ١٧٤) فى تفسيره، وفى الباب عن أم سلمة.

* وسأله عدى بن حاتم عن أبيه مثل ذلك، فقال: «إن أباك طلب أمرًا فأدركه»[١] يعنى الذكر، فدل أن الخيرات من الكافر ليست بخيرات، وأن وجودها وعدمها بمنزلة واحدة سواء.

* والجواب: أن الله تعالى قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ولم يفصل بين نفس ونفس، فخيرات الكافر توزن ويجزى بها، إلا أن الله تعالى حرم عليه الجنة، فجزاؤه أن يخفف عنه بدليل حديث أبى طالب فإنه قيل له: يا رسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ فقال: «نعم، وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح[٢] ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار»[٣] وما قاله عليه (الصلاة والسلام) فى ابن جدعان وأبى عدى إنما هو فى أنهما لا يدخلان الجنة ولا يتنعمان بشىء من نعيمها والله أعلم[٤].

• إنما يوزن من الأعمال خواتيمها •

وعن وهب بن منبه فى قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، وإذا أراد الله بعبد خيرًا ختم له بخير، وإذا أراد الله به شرًا ختم له بشر عمله. ذكره أبو نعيم.

قال القرطبى: هذا صحيح، يدل عليه قوله عليه (الصلاة والسلام): «وإنما الأعمال بالخواتيم» والله تعالى أعلم[٥].

* * *

---

(١) حديث حسن. أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٨) ، وابن حبان (٣٣٣)، والطبرانى (١٧/ ١٠٤) فى الكبير، والبيهقى (٧/ ٢٧٩) فى سننه الكبرى.

(٢) الضحضاح: القليل الذى لا عمق فيه، فشبه قلة النار بالماء القليل، لأن الضحضاح يطلق على ما رقَّ من الماء وقل.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٩) بلفظه، والبخارى (٦٢٠٨) بنحوه، وأحمد (١/ ٢٠٦، ٢١٠).

(٤) التذكرة/ للقرطبى (٢/ ٨: ١٠) بتصرف.

(٥) التذكرة (٢/ ١٩).

• ميزان الدنيا وميزان الآخرة •

إن ميزان الدنيا غير ميزان الآخرة وإن مقاييس البشر تختلف كل الاختلاف عن مقاييس رب البشر (جل وعلا).

* قال ﷺ: «سيأتي على الناس سنواتٌ خدَّاعاتٌ، يُصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخونُ فيها الأمين، وينطقُ فيها الرُّويبضَةُ. قيلَ: وما الرُّويبَضةُ؟ قال: الرجلُ التافهُ يتكلمُ فى أمر العامَّة»[1].

فهذه هى مقاييس أكثر البشر لكن مقياس رب البشر (عز وجل): «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

* وها هو الحبيب ﷺ يوضح أن ميزان العبد يوم القيامة يثقل إذا كان صالحًا فى الدنيا فجاء يوم القيامة متزوداً بالتقوى والعمل الصالح.

فها هو عبد الله بن مسعود كان يجتنى سواكًا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبى الله من دقة ساقيه فقال: «والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أُحُد»[2] - أى من جبل أحد - .

- فلو وُضع عبد الله بن مسعود فى ميزان يوم القيامة ووُضع أمامه جبل أُحد لرجحت كفة ابن مسعود بإيمانه بالله (عز وجل).

وفى المقابل يقول الحبيب ﷺ: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[3].

* بل هناك صنف كريم من البشر لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه.

قال ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبَّره منهم البراء بن مالك»[4].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٥٠).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٢٠ - ٤٢١) والطبرانى فى الكبير وهو صحيح بمجموع طرقه.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٢٤٠٧).

(٤) رواه الترمذى والضياء عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٧٣).

* وفى معركة (تُستر) من بلاد فارس لما تحصن الفُرس فى إحدى القلاع واشتد القتال وبلغت القلوب الحناجر، قال بعض المسلمين للبراء: يا براء إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرَّك، فأقسِم على الله، فقال: أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم.

ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجعوا فى المسلمين، فقالوا: أقسِم يا براء على ربك، فقال: «أقسمت يارب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتنى بنبيى ﷺ»، فمنُحوا أكتافهم وقُتل البراء شهيدًا»[1].

• لا تحقرنّ من المعروف شيئًا •

أيها الأخ الحبيب... أيتها الأخت الفاضلة،

إن العبد يوم القيامة قد يحتاج إلى حسنة واحدة ليدخل الجنة.

وها هم أصحاب الأعراف الذين تساوت حسناتهم مع سيئاتهم فلو كان لأحدهم حسنة واحدة تُرجح كفة الحسنات لدخل الجنة ـ وإن كان الراجح من أقوال أهل العلم أن مصير أصحاب الأعراف فى النهاية إلى الجنة ولكن يكفيهم مرارة الانتظار ـ.

قال تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف:٤٦، ٤٧).

قال ابن كثير: والأعراف: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله[2].

* قال حذيفة (رضى الله عنه): هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم.

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٢) وصححه وأقره الذهبى.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٤).

قال ابن المبارك عن ابن مسعود قال: الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح.

وقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة، كُتب له بها عشر وإذا عمل سيئة، لم تُكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت آحاده عشراته.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك عنه... وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أى فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ولكن لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها قال الحسن: والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها الله بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال ابن مسعود: لما نظروا إلى أهل النار ورأوا منازلهم تعوذوا بالله من منازلهم وقالوا: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [1].

ومن أجل ذلك قال ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[2].

* فبكلمة واحدة يدخل العبد أعلى الجنة.. وبكلمة واحدة يدخل العبد نار جهنم.

قال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[3].

وقال ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ لا يرى بِها بأسًا، يهوى بها سبعين خريفًا فى النَّار»[4].

وقال ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليتكلم بالكلمة منْ رضوانِ الله تعالى ما يظنُّ أنْ تبلغَ ما بلغتْ؛ فيكتُبُ الله له بها رضوانهُ إلى يوم القيامةِ، وإنَّ الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ من سخط

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن أبى ذر ـ صحيح الجامع (٧٢٤٥).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٦٧٨).

(٤) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٨).

الله تعالى ما يظنُّ أنْ تبلغَ ما بلغتْ؛ فيكتبُ الله عليه بها سخطهُ إلى يوم القيامة»[١].

* بل لقد أخبر النبى ﷺ أن أى عمل يعمله العبد ولو كان صغيراً قد يُدخله الجنة أو يوبقه فى نار جهنم.

قال ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تُطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»[٢].

* وفى المقابل قال ﷺ: «غُفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث كاد يقتله العطش فنزعت خُفَّها فأوثقته بخمارها فنزَعت له من الماء فغُفر لها بذلكَ»[٣].

فإذا كانت الرحمة بالكلاب تغفر الخطايا للبغايا فكيف بمن يعبد ويوحد رب البرايا.

* ومن أجل ذلك قال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[٤].

* فافعل الخير أيها الأخ الحبيب ولا تحتقر أى عمل صالح ولو كان صغيراً فى عينيك... فقد يجعل الله نجاتك فى هذا العمل فلو أنفقت ربع جنيه فلا تقل: هذا قليل فإنك لا تدرى من المقبول.

قال ﷺ: «سبق درهمٌ مائة ألف درهم: رجلٌ له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به ورجلٌ له مالٌ كثير فأخذ من عُرضه مائة ألف فتصدق بها»[٥].

• كيف تنجو من خطر الميزان •

يقول صاحب الإحياء رحمه الله: واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحًا ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة، فهذا

(١) رواه مالك وأحمد والترمذى عن بلال بن الحارث وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٩).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٣٧٤).

(٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٤١٦٣).

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن عدى ـ صحيح الجامع (١١٥).

(٥) رواه النسائى عن أبى ذر وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٠٦).

يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلبيه، هذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى، شتمتنى، وهذا يقول استهزأت بى، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك، وهذا يقول رأيتنى محتاجًا وكنت غنيًا فما أطعمتنى، وهذا يقول وجدتنى مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى. فبينا أنت كذلك وقد انشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم - حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر:١٧).

فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ (إبراهيم:٤٢:٤٤).

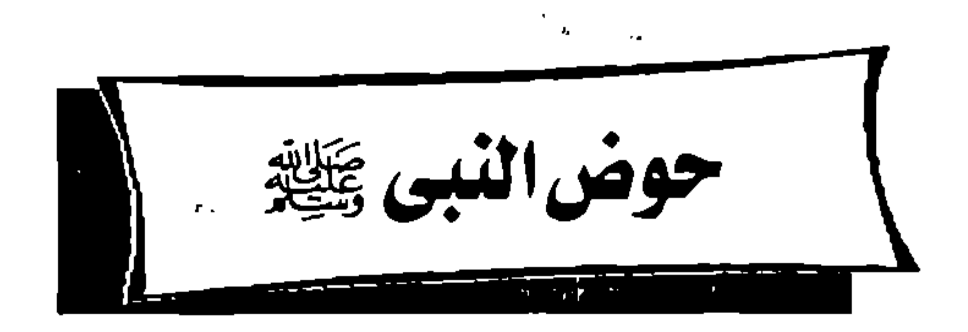
• سعادة لا شقاء بعدها أبداً •

فعن أنس رضى الله عنه قال: «يُؤتَى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكّل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق.... سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفّ ميزانه نادى بصوت يُسمع الخلائق... شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا...».

فتفكّر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد: كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء، وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء؟ وعند ذلك طار قلبك سروراً وفرحًا وابيّض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهّم تبخترك بين الخلائق رافعًا رأسك خاليًا عن الأوزار ظهرك، ونضرة

نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومداهتك وتصنّعك وتزينك؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه، بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله، فلن تدرك ذلك إلا به.

* * *



قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ (سورة الكوثر).

وقال ﷺ: «بينا أنا أسيرُ فى الجنة، إذْ عرضَ لى نهرٌ، حافتاهُ قبابُ اللؤلؤ المجوَّف، قلتُ: يا جبريلُ ما هذا؟ هذا الكوثرُ الذى أعطاكهُ الله، ثم ضربَ بيده إلى طينه فاستخرجَ مِسكًا، ثم رفعتْ لى سدرةُ المُنتهى، فرأيت عندها نوراً عظيمًا»[١].

وقال ﷺ: «دخلتُ الجنةَ، فإذا أنا بنهر حافتاهُ خيامُ اللؤلؤ، فضربْتُ بيدى إلى ما يَجرى فيه الماءُ، فإذا مسكٌ أذفرُ، فقُلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذى أعطاكهُ الله»[٢].

وقال ﷺ: «الكوثر نهرٌ أعطانيه الله فى الجنَّة، تُرابُهُ مسكٌ، أبيضُ من اللبن، وأحلى منَ العسل، تردهُ طائرٌ أعناقُها مثل أعناق الجُزر، آكلها أنعم منها»[٣].

وقال ﷺ: «الكوثرُ نهرٌ فى الجنة، حافتاهُ من ذهب، ومجراهُ على الدُّرِّ والياقوت، تُربتُهُ أطيبُ ريحًا من المسك، وماؤُهُ أحلى منَ العسل، وأشدُّ بياضًا من الثَّلج»[٤].

وعن مجاهد: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (الكوثر:١). قال: الخير الكثير. وقال أنس بن مالك: نهر فى الجنة. وقالت عائشة: هو نهر فى الجنة ليس يدخل أحد إصبعيه فى أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر، وهذا معناه والله أعلم: أن خرير ذلك النهر يشبه الخرير الذى يسمعه حين يدخل إصبعيه فى أذنيه.

(١) أخرجه البخارى والترمذى عن أنس ـ صحيح الجامع (٢٨٥٧).
(٢) أخرجه البخارى وأحمد والترمذى عن أنس ـ صحيح الجامع (٣٣٦٥).
(٣) رواه الحاكم عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦١٤).
(٤) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦١٥).

وقال ﷺ: «حَوضي كما بينَ صنعاء والمدينة فيه الآنيةُ مثلُ الكَواكب»[1].

وقال ﷺ: «حَوضي مسيرةُ شهر، وزَواياهُ سواءٌ، وماؤهُ أبيضُ من اللبن، وريحهُ أطيبُ من المسك، وكيزانُهُ كنُجوم السماء، من يشرب منهُ فلا يَظمأ أبدًا»[2].

وقال ﷺ: «حَوضي من علَنَ إلى عَمَّان البلقاء، ماؤهُ أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحْلى من العَسل، وأكوابُهُ عددُ نُجوم السماء، مَن يشربْ منهُ شربةً لم يظمأ بعدَها أبدًا، أول الناس ورُودًا عليه فُقراء المُهاجرين؛ الشُّعثُ رُؤوسًا، الدُّنسُ ثيابًا، الذين لا ينكحون المُتنعمات، ولا تُفتحُ لهمُ السُّددُ»[3].

• إن لكل نبي حوضًا •

قال ﷺ: «إن لكل نبيٍ حوضًا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني أرجو أن أكونَ أكثرهم واردة»[4].

• إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك •

وها هم أُناس يأتون يوم القيامة ويذهبون إلى حوض النبي ﷺ ليشربوا من يد النبي ﷺ شربة هنيئة مريئة لا يظمأون بعدها أبدًا... وإذا بالملائكة تدفعهم وتطردهم بعيدًا عن الحوض فلا يشربون منه شربة واحدة.

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما؛ قالت: قال النبي ﷺ: «إني على الحوض، حتى أنظر من يرد علي منكم، وسيؤخذ ناس دوني، فأقول: يا رب! مني ومن أمتي. فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟ والله؛ ما برحوا يرجعون على أعقابهم»[5].

* وقال ﷺ: «أُنزلتْ عليَّ آنفًا سورةٌ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم: إنَّا أعطيناكَ الكوثَر. فصلِّ لربكَ وانحرْ. إنّ شانئكَ هَو الأبترُ﴾ أتدرونَ ما الكوثر؟ فإنه نهرٌ وعدنيه

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب والمستورد - صحيح الجامع (٣١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمرو - صحيح الجامع (٣١٦١).

(٣) رواه الترمذي والحاكم عن ثوبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٦٢).

(٤) رواه الترمذي عن سمرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٥٦).

(٥) أخرجه البخاري (١١/ ٤٦٦ - فتح) ومسلم (١٥/ ٥٥ - نووي).

ربى، عليه خير كثيرٌ، هو حوضى تردُ عليه أمَّتى يومَ القيامة، آنيته كعدد النجوم، فيُختلجُ العبدُ منهمْ، فأقولُ: ربِّ إنهُ من أمتى، فيقولُ: ما تدرى ما أحدثَ بعدكَ»(١).

وقال ﷺ: «إنى فرَطُكمْ على الحوض، منْ مرَّ بى شربَ، ومنْ شربَ لم يَظمأ أبداً، وليردَنَّ عليَّ أقوام أعرفُهم ويَعرفونى، ثمَّ يُحالُ بينى وبينهُمْ، فأقولُ: إنهُم منى، فيُقالُ: إنكَ لا تَدرى ما أحدثُوا بَعدكَ، فأقولُ: سُحقًا سحقًا لمنْ بدَّل بَعدى»(٢).

وقال ﷺ: «تردُ عليَّ أمَّتى الحوضَ، وأنا أذودُ الناسَ عنهُ، كما يذودُ الرجُلُ إبلَ الرجُل عن إبله، قالوا: يا نبيَّ الله تعرفُنا؟ قال: نعمْ، لكم سيما ليسَت لأحد غيركمْ، تردونَ عليَّ غُرًا منْ آثار الوضوء، وليُصَدَنَّ عنى طائفةٌ منكمْ، فلا يَصلونَ، فأقولُ: يا ربِّ هؤلاء منْ أصحابى! فيُجيبُنى مَلكٌ فيقولُ: وهلْ تدرى ما أحدثُوا بعدكَ»(٣).

* وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابى - أو قال: من أمتى - فيُحَلؤون(٤) عن الحوض، فأقول: يا رب، أصحابى، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى» وفى رواية «فيُجلون».

وللبخارى: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا قائم على الحوض، إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم، فقال: هلمّ، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ فقال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة أخرى، حتى عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال لهم: هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم»(٥).

قال القرطبى: قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى عن أنس - صحيح الجامع (١٤٩٨).
(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد وأبى سعيد - صحيح الجامع (٢٤٦٨).
(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٢٩٣٦).
(٤) يحلؤون: أي يدفعون ويُطردون.
(٥) همل النعم: الإبل الضالة. والمعنى أن الناجى منهم قليل.

مبدلون. وكذلك الظَّلَمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع. ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد، وعلى هذا يكون نور الوضوء يُعرفون به، ثم يقال لهم: سحقا، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم: سحقًا سحقًا، ولا يخلد في النار إلا كل جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[1].

فاللهم ارزقنا شربة هنيئة مريئة من حوض النبي ﷺ لا نظمأ بعدها أبدًا

* * *

(١) التذكرة (١/ ٥٩٠).



الصراط

إنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسر دقيق منصوب على ظهر جهنم وهى عقبة فى طريق الذاهبين إلى دار السلام، وممر خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون، وهو: يدعو «رب سلمْ سلمْ»[١]. ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا، فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف. ومنهم من يمر دون ذلك إلى أن ينجو من ينجو ولو حبواً على يديه وركبتيه، ويهلك من يهلك بسقوطه فى جهنم دار الشقاء، والهوان، والبوار، والخسران[٢].

• الصراط وأهواله •

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم:٨٥، ٨٦)، وفى قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات:٢٣، ٢٤) فالناس من بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ـ وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر ـ فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خفّ على صراط الآخرة ونجا. ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر فى أوّل قدم من الصراط وتردى. فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كُلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشى على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

(٢) عقيدة المؤمن/ الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص: ٣٦٠).

وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتسفل إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعه ومُرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك، تلتفت يمينًا وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول: «يا رب سلم سلم» والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل الصراط من الخلائق، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك؟ فناديت بالويل والثبور وقلت: هذا ما كنت أخافه فيا ليتنى قدّمت لحياتى! يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً! يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانًا خليلاً! يا ليتنى كنت ترابًا! يا ليتنى كنت نسيًا منسيًا! يا ليت أمى لم تلدنى! وعند ذلك تختطفك النيران ـ عياذًا بالله ـ وينادى المنادى: ﴿اخْسَئُوا فيها ولا تُكَلِّمُون﴾ (المؤمنون:١٠٨).

فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم، وإن كنت به مؤمنًا وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاونًا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه! فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه ـ وإن سلمت ـ فناهيك به هولاً وفزعًا ورعبًا!.

قال ﷺ: «ويُضرب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان؟» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بقى بعمله ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه»[1].

وقال ﷺ: «ثم يُضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة (٧٤٣٧) ـ باب قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ ـ كتاب التوحيد.

بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلّم ومخدوش مُرسَل ومكدوسٌ فى نار جهنم» وفى رواية أخرى قال ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناسٌ أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أُذن بالشفاعة»[1].

* وفى بعض طُرق حديث أبى سعيد المتقدم قال أبو سعيد:

«بلغنى أن الجسر أدق من الشعرة وأحدّ من السيف».

* وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» قال الزهرى: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضيًا﴾ قال ابن مسعود: قسمًا واجبًا.

* وعن أبى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يسأل عن الورود ـ الحديث ـ وفيه رؤية الله تعالى: «فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم ويتبعونه ويعطى كل إنسان[2] منافق أو مؤمن ـ نوراً ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله تعالى، ثم يطفأ نور المنافقين ثم ينجو المؤمنون فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفًا لا يحاسَبون» وذكر الحديث.

«فتوهم نفسك ـ يا أخى ـ إذا صرت على الصراط، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة، قد لظى سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشى أحيانًا، وتزحف أخرى... ولله در القائل:

أبت نفسى تتوب فما احتيالى	إذا برز العباد لذى الجلال
وقاموا من قبورهم سكارى	بأوزار كأمثال الجبال
وقد نُصب الصراط لكى يجوزوا	فمنهم من يُكب على الشمال
ومنهم من يسير لدار عدن	تلقاه العرائس بالغوالى

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى (٣٠٢/ ١٨٣) (٣٠٦/ ١٨٥) باب معرفة طريق الرؤية، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ـ كتاب الإيمان.

(٢) فى صحيح مسلم: «ويعطى كل إنسان منهم» (شرح النووى ٣/ ٤٨).

يقــول لـه المهيـمـن يا ولـي غفـرت لك الذنوب فـلا تبـالى

وقال آخر:

إذا مُـد الصـراط على جحـيم تصول على العصاة وتـستطيـل

فقـومٌ فـى الجحـيم لهـم ثُبـور وقوم فى الجنان لهـم مقيـل

وبـان الحـق وانكشـف المُغطىً وطال الويـل واتـصل العويـل

• الأمانة والرحم على جنبتي الصراط •

وروى مسلم أيضًا عن أبى هريرة فى وصف المرور على الصراط، قال: قال رسول الله ﷺ: «وتُرسل الأمانة والرحم، فتقومان على جنبتى الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبى أنت وأمى، أى شىء كالبرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمرُ ويرجع فى طرفة عين؟ ثم كمرّ الريح، ثم كمرٌ الطير وشدٌ الرحال، تجرى بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب، سلم سلم. حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجىء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا، قال: وعلى حافتى الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به. فمخدوش ناج، ومكدوس فى النار»[1].

ويا له من موقف يشيب لهوله الولدان.

ها هي الأمانة تتعلق على الصراط لتقول لكل خائن يمر عليها: أين الأمانة التى ضيعتها؟.... أين أمانة الطاعة؟... أين أمانة الزوجة والأولاد؟ أين أمانة الأموال التى سرقتها؟ أين أمانة الشهادة لهذا الدين؟ أين الأمانات التى أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها أنت أيها الإنسان.

بل ها هى الرحم تتعلق على الصراط لتقول لكل من قطعها:

أين صلة الرحم التى قطعتها فى الدنيا؟ وماذا ستصنع اليوم أمام تلك الأهوال؟!.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى إذاَ فَرَغَ منْهُمْ قَامت الرَّحمُ، فَقَالَتْ: هذا مُقَامُ العائذ بكَ منَ القَطيعة، قال: نَعَمْ أمَا تَرضْيْنَ أنْ أصلَ مَنْ وَصَلَكَ وأقْطَعَ مَنْ قَطَعكَ؟ قالت: بَلَى، قال: فذلك لَكِ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إنْ

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٨٧) (ح: ١٩٥) كتاب الإيمان.

شئتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ (محمد:٢٢، ٢٣)[١].

* وقال ﷺ: «ما منْ ذنب أجدرُ أنْ يعجلَ الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدنيا، معْ ما يدَّخرُه لهُ فى الآخرة منْ قَطيعة الرَّحم، والخيانة، والكذب، وإنَّ أعجلَ الطاعة ثوابًا لصلةُ الرحم، حتى إنَّ أهل البيتِ لَيكُونوا فجرةً، فتنْمو أموالَهم، ويكثُرُ عددُهم، إذا تواصَلُوا»[٢].

• وإن منكم إلا واردها •

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم:٧١:٧٢).

* قال قتادة: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها.

* وعن ابن مسعود رضى الله عنه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس النار ثم يَصدُرون عنها بأعمالهم فأولهم كلمح البصر ثم كمرِّ الريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب فى رحله ثم كشدِّ الرحال ثم كمشيه»[٣].

* وقد رواه ابن أبى حاتم عنه موقوفًا قال: «يرد الناس جميعًا الصراط بأعمالهم: فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح...» الحديث، فهذا على القول بأن ورود الناس بالنسبة للمؤمنين هو المرور عليها على الصراط.

وهناك من فسر ورود المؤمنين بدخولهم فيها وتكون بردًا عليهم، فعن أبى سمية قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعًا. ثم ينجى الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا فى الورود، فقال: يردونها جميعًا.

(١) أخرجه البخارى (٤٨٣٠) ومسلم (١٦/ ٢٥٥٤).
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى بكرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٠٥).
(٣) رواه أحمد والترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٨١).

وتفسير الورود بالدخول مروى أيضًا عن ابن عباس رضى الله عنهما وأيد قوله بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ (١) يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ (هود:٩٨). وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم:٨٦). وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٩٨). فالورود فى ذلك كله الدخول(٢).

• كيف يُحشر الكفار إلى النار •

جاءت نصوص كثيرة تصور لنا كيف يكون حشر الكفار إلى النار هم وآلهتهم التى كانوا يعبدونها.

١ ـ فمن ذلك أنهم يُحشرون كقطعان الماشية جماعات، يُنهرون نهرا غليظا، ويصاح

---

(١) أى: فرعون.

(٢) وذكر المؤلف رحمه الله حديث أحمد عن جابر مرفوعًا: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم حتى أن للنار ضجيجًا من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا» والحديث ضعفه الألبانى (ضعيف الجامع الصغير ٦١٦٩) وأوله: الورود الدخول. وقال الشيخ أحمد البنا رحمه الله فى بلوغ الأمانى: أورده الهيثمى وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات، قال: ولجابر فى الصحيح فى الورود شىء موقوف غير هذا. (بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ج١٨ ص٢٠٩) ورجح الشنقيطى رحمه الله أن المراد بالورود فى الآية الدخول، وذكر فيها أربعة أقوال. انظر أضواء البيان ج٤ ص٣٧٦ ـ ٣٨٣، وفى الفتاوى لابن تيمية رحمه الله أن المراد بالورود المذكور فى الآية هو المرور على الصراط. (ج٤ ص٢٧٩)، ومن استعمال الورود فى غير الدخول قوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ (القصص: ٢٣)، وقال النووى رحمه الله: والصحيح أن المراد بالورود فى الآية المرور على الصراط. (صحيح مسلم بشرح النووى: ١٦/ ٥٨). وقال شارح الطحاوية: الأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين جثيًا﴾ وفى الصحيح أنه ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة» قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فقال: «ألم تسمعيه قال: ﴿ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا﴾» أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد أسبابه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هودًا﴾ (هود: ٥٨) ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا﴾ (هود: ٦٦) ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبًا﴾ (هود: ٩٥) ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.. (شرح الطحاوية ص٤٧١). وحديث الصحيح المذكور رواه مسلم فى فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة. وانظر شرح النووى (١٦/ ٥٨) وقال ابن باز حفظه الله: بأن المراد بالورود المرور على الصراط. الفتاوى الإسلامية ج١ ص١٥، ١٦ عن الدّعوة ٩١٩.

بهم من هنا وهناك، كما يفعل الراعي ببقره أو غنمه ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر:٧٢). ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ (الطور:١٣). وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (فصلت:١٩) ومعنى يوزعون أى يجمعون، تجمعهم الزبانية أولهم على آخرهم، كما يفعل البشر بالبهائم.

٢ ـ وأفادت النصوص أنهم يحشرون إلى النار على وجوههم، لا كما يمشون فى الدنيا على أرجلهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان:٣٤).

روى البخارى ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلا قال: يا رسول الله، كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» قال قتادة: بلى وعزة ربنا[1].

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يُحشرون عميًا لا يرون، وبكمًا لا يتكلمون، وصما لا يسمعون ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧).

٣ ـ ويزيد بلاءهم أنهم يحشرون مع آلهتهم الباطلة وأعوانهم وأتباعهم ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (الصافات:٢٢، ٢٣).

٤ ـ وهم فى هذا مغلوبون مقهورون أذلاء صاغرون ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران:١٢).

٥ ـ وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التى تملأ قلوبهم رعبًا وهلعًا ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان:١٢).

٦ ـ وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كى يؤمنوا ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الرقاق، باب الحشر، فتح البارى: (١١/ ٣٧٧). ومسلم: (٤/ ٢١٦١). ورقمه: (٢٨٠٦). واللفظ لمسلم.

الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:٢٧).

ولكنهم لا يجدون من النار مفراً ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (الكهف:٥٣).

٧ ـ وعند ذلك يؤمرون بالدخول فى النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النحل:٢٩)، ولا ينجو من النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم:٦٨:٧٢).. يقول سيد قطب رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآيات: «يقسم الله لنفسه وهو أعظم قسم وأجله؛ أنهم سيحشرون بعد الموت، فهذا أمر مفروغ منه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم﴾، ولن يكونوا وحدهم ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ فهم والشياطين سواء، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار، وبينهما صلة التابع والمتبوع، والقائد والمقود.. وهنا يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزى والمهانة، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، وهى صورة رهيبة، وهذه الجموع التى لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها، تشهد هولها، ويلفحها حرها، وتنتظر فى كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها، وهم جاثون على ركبهم فى ذلة وفزع.. وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتواً وتجبراً: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ وفى اللفظ تشديد، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع، تتبعها صورة القذف فى النار، وهى الحركة التى يكملها الخيال.

وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها، فلا يؤخذ أحد جزافًا من هذه الجموع التى لا تحصى، والتى أحصاها الله فردا فردا: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (مريم:٧٠) فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين»[1].

* وقد غيرت هذه الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم:٧١) أحوال الصالحين،

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/ ٢٣١٧).

فأسهرت ليلهم، وعكرت عليهم صفو العيش، وحرمتهم الضحك، والتمتع بالشهوات، فقد ذكر ابن كثير أن أبا ميسرة كان إذا أوى إلى فراشه قال: ياليت أمى لم تلدنى، ثم يبكى، فقيل له ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا الله أنا واردوها، ولم نُخبَر أنا صادرون عنها. وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصرى، قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رئى ضاحكا حتى لحق بالله، وقال ابن عباس لرجل يحاوره: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟[1][2].

• أنوار المؤمنين على الصراط •

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد:١٢، ١٣).

وفى هذا الموضع الرهيب يسقط المشركون فى نار جهنم ويبقى المؤمنون - وفيهم أصحاب الذنوب والمعاصى والمنافقون وتُلقى عليهم الظلمة دون الجسر.

ففى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت: سُئل الرسول ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: «هم فى الظلمة دون الجسر».

يقول شارح الطحاوية[3]: «وفى هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم، روى البيهقى بسنده عن مسروق، عن عبد الله، قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة» إلى أن قال: «فمنهم من يُعطَى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره فى إبهام قدمه، يضىء مرة ويطفأ أخرى، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا أطفأ قام،

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٦).

(٢) القيامة الكبرى (٢٦٨: ٢٧١) بتصرف.

(٣) شرح الطحاوية (ص: ٤٧٠).

قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة، ويقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشدِّ الرّجل، يرمل رملاً على قدر أعمالهم، حتى يمر الذى نوره على إبهام قدمه، تخرُّ يد، وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا، قالوا: الحمد لله الذى نجانا منك، بعد أن أراناك، لقد أعطانا مالم يعط أحد»[1].

• ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله؟ •

وها هو مشهد مهيب من مشاهد يوم القيامة... ألا وهو المشهد الذى يدور بين المؤمنين والمنافقين على الصراط.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد:١٢:١٥).

قال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

«والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد ـ بين المشاهد القرآنية ـ وهو من المشاهد التى يحييها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسمًا قويًا. فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهداً عجيباً. هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم. ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعًا لطيفًا هادئًا. ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم. فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعَّت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها.. إنه النور الذى أخرجها الله إليه وبه من الظلمات. والذى أشرق فى أرواحها فغلب على طينتها. أم لعله النور الذى خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه، ظهر

(١) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

بحقيقته فى هذه المجموعة التى حققت فى ذواتها حقيقتها!

«ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجَّه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير: «بُشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك هو الفوز العظيم»..

ولكن المشهد لا ينتهى عند هذا المنظر الطريف اللطيف.. إن هناك المنافقين والمنافقات، فى حيرة وضلال، وفى مهانة وإهمال. وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات: «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: انظرونا نقتبس من نوركم».. فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف. ولكن أنَّى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى الظلام؟ إن صوتًا مجهلاً يناديهم: «قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً».. ويبدو أنه صوت للتهكم، والتذكير بما كان منهم فى الدنيا من نفاق ودسٍّ فى الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا. إلى ما كنتم تعملون. ارجعوا فالنور يُلتمس من هناك. من العمل فى الدنيا. ارجعوا فليس اليوم يُلتمس النور!

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات. فهذا يوم الفصل إن كانوا فى الدنيا مختلطين فى الجماعة: «فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب».. ويبدو أن سوراً يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت. فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: «ألم نكن معكم؟».. فما بالنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم فى الدنيا نعيش فى صعيد واحد؟ وقد بُعثنا معكم هنا فى صعيد واحد؟ «قالوا: بلى!» كان الأمر كذلك. «ولكنكم فتنتم أنفسكم».. فصرفتموها عن الهدى. «وتربصتم».. فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة. «وارتبتم».. فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة. «وغرتكم الأمانى» الباطلة فى أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها! «حتى جاء أمر الله».. وانتهى الأمر. «وغركم بالله الغرور».. وهو الشيطان الذى كان يطمعكم ويمنيكم.

«فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير»[1].

ثم يأتى هذا العتاب الرقيق من الله (جل وعلا) حيث يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن

---

(١) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٤٨٥: ٣٤٨٦).

تخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم؛ واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها من فضله؛ فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها، ونزَّل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور؛ وأراها من آياته فى الكون والخلق ما يبصِّر ويحذِّر.

عتاب فيه الود، وفيه الحض، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله، والخشوع لذكره، وتلقِّى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء فى السؤال:

«ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟»..

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد. فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله. فالله يحيى الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبت والزهر، وتمنح الأكل والثمار.. وكذلك القلوب حين يشاء الله:

«اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها»..

• التوبة.. والنور على الصراط •

وها هى التوبة تضىء لك طريقك إلى الله فى الدنيا والآخرة. ففى الدنيا تعيش فى جنة الإيمان التى لو يعلم قدرها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف... والتوبة تضىء لك قبرك بنور العمل الصالح... والتوبة تضىء لك الطريق فوق الصراط يوم القيامة.. . والتوبة تقودك إلى جنة الرحمن (جل وعلا)[1].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨).

---

(١) أخى العاصى أقبل/ للمصنف (ص: ٤٨).

• المشركون لا يمرون على الصراط •

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي في كتاب التخويف من النار:

واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط، ويدل على ذلك ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه فيتبع الشمس من يعبدها، ويتبع القمر من يعبد القمر، ويتبع الطواغيت من يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها» فذكر الحديث إلى أن قال: «ويُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزه».

فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح والعُزير من أهل الكتاب فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط، إلا أن عبّاد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا، فترد النار مع معبودها أولاً؛ وقد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (هود:٩٨).

وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء ثم يردون في النار بعد ذلك.

وقد ورد في حديث آخر أن من كان يعبد المسيح يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه، وكذلك من كان يعبد العزير.

وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح وملك على صورة العزير، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر، سواء كان صادقًا أو منافقًا من هذه الأمة وغيرها، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم من السجود، وكذلك يمتاز المؤمنون بنورهم فوق الصراط.

* * *

• نعمة التوحيد... والسجود للعزيز الحميد •

إن نعمة التوحيد هى أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده.. وها هو مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة ـ حين يُكشف عن الساق ـ فلا يستطيع أحدٌ أن يسجد لله (عز وجل) إلا من كان من أهل التوحيد والإيمان والإخلاص.... أما المشركون والمنافقون فلا يستطيعون أن يسجدوا لله (جل وعلا).

* قال ﷺ موضحًا هذا المشهد المهيب: «هل تضارُّون فى رؤية الشمس بالظهيرة صَحواً ليسَ معَها سحَابٌ؟ وهل تُضارُّون فى رؤية القمرِ ليلة البدرِ صَحواً ليسَ فيها سحابٌ؟ ما تُضارُّونَ فى رؤية الله يوم القيامةِ إلا كما تُضارُّون فى رؤية أحدهما، إذا كان يومُ القيامة أذن مؤذنٌ: ليتبعْ كلُّ أمة ما كانَتْ تعبُدُ، فلا يبقى أحدٌ كانَ يعبُدُ غير الله منَ الأصنامِ والأنصاب إلا يتساقطون فى النار، حتى إذا لم يبقَ إلا من كانَ يعبدُ الله من بَرٍ وفاجر، وغير أهلِ الكتاب، فيُدعى اليهودُ، فيُقالُ لهم: ما كنتمْ تعبُدونَ؟ قالوا: كنّا نعبُدُ عُزيراً ابن الله! فيُقالُ: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغونَ؟ قالوا: عَطشنا يا ربَّنا فاسْقنا، فيُشار إليهم: ألا تَردونَ؟ فيُحشرونَ إلى النَّار كأنها سرابٌ يَحطمُ بعضَها بعضًا، فيتساقطون فى النار. ثمَّ يُدعى النصارى فيُقالُ لهم: ما كنتم تعبُدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيحَ ابن الله! فيُقال لهم: كذَبتم، ما اتَّخذ اللهُ من صاحبة ولا وَلَد، فيقالُ لهم: ماذا تبغونَ؟ فيقولون: عَطشنا يا ربنا فاسقنا، فيُشارُ إليهم، ألا تردُّونَ؟ فيحشرون إلى جهنمَ كأنها سرابٌ يَحْطمُ بعضها بعضًا، فيتساقطون فى النار، حتى إذا لم يبقَ إلا مَن كانَ يعبُدُ الله من برّ وفاجرٍ أتاهم ربُّ العالمين فى أدنى صورة من التى رأوْهُ فيها، قالَ: فَما تنتظرونَ؟ تتبعُ كلُّ أمَّةٍ ما كانتْ تعبُدُ، قالوا: يا ربَّنا فارقنا النَّاس فى الدنيا أفْقرَ ما كنَّا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقولُ: أنا ربكم فيقولون: نعوذُ بالله منكَ لا نشركُ بالله شيئًا، (مرَّتين أو ثلاثًا)، حتى إن بعضهم ليَكادُ أنْ ينقلب، فيقولُ: هل بينكم وبينه آيةٌ فتعرفونهُ بها؟ فيقولونَ: نعَم، الساق، فيُكشفُ عن ساقٍ، فلا يبقى من كان يسجُدُ لله من تلقاء نفْسه إلا أذن الله له بالسُّجود، ولا يبقى من كانَ يسجُد اتِّقاءً ورياءً إلا جعَلَ اللهُ ظهرهُ طَبقَةً واحدةً، كلَّما أرادَ أن يسجُدَ خرَّ على قفاهُ، ثمَّ يَرفعونَ رؤوسهم، وقد تحوَّل فى الصُّورةِ التى رأوهُ فيها أوَّلَ مرَّة، فيقولُ: أنا ربُّكم، فيقولون: أنت ربُّنا. ثم

يُضرب الجسر على جهنم وتحلُّ الشفاعة....»[١].

* ولذلك قال ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا مخلصًا من قلبه»[٢].

• منكرو الصراط •

وقد أنكر الصراط والمرور عليه أهل البدعة والهوى من الخوارج ومن المعتزلة، وتأولوا الورود برؤية النار لا أنه الدخول والمرور على ظهرها، وذلك لاعتقادهم أن من دخل النار لا يخرج منها ولو بالإصرار على صغيرة، فخالفوا الكتاب والسنة والجماعة وردّوا الآيات والأحاديث الواردة فى الورود والمقام المحمود والشفاعة، ولذا قال ابن عباس رضى الله عنهما فيما روى ابن عيينة عن عمرو ابن دينار أن نافع بن الأزرق مارى ابن عباس رضى الله عنهما فى الورود، فقال ابن عباس رضى الله عنهما: هو الدخول. وقال نافع: ليس الورود الدخول. فتلا ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء:٨٩). أدخلها هؤلاء أم لا؟ ثم قال: يا نافع، أما والله أنت وأنا سنردها وأنا أرجو أن يخرجنى الله منها، وما أرى الله عز وجل أن يخرجك منها بتكذيبك[٣].

• من دق عليه الصراط فى الدنيا عرض له فى الآخرة •

كان أبو سليمان يقول: إذا سمعت الرجل يقول لآخر: بينى وبينك الصراط، فاعلم أنه لا يعرف الصراط ولا يدرى ما هو، فلو عرف الصراط أحب أن لا يتعلق بأحد ولا يتعلق به أحد.

وكان أبو مسلم الخولانى يقول لامرأته: يا أم مسلم شدى رحلك فليس على جسر جهنم معبر.

وروى أن رجلاً كان شابًا أسود الرأس واللحية، فنام ليلة، فرأى فى نومه كأن الناس حُشروا وإذا بنهر من لهب النار، وإذا جسر يجوز الناس عليه يُدعون بأسمائهم، فإذا

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (٧٠٣١).

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٩٦٧).

(٣) مختصر معارج القبول (ص: ٢٥٧).

دُعي الرجل أجاب فناجٍ وهالك، قال: فدعاني باسمي فدخلت في الجسر، فإذا حده كحد السيف يمور بي يمينًا وشمالاً، قال: فأصبح الرجل أبيض اللحية والرأس مما رأى.

وسمع أسود بن سالم رجلاً ينشد هذين البيتين:

أمامي موقف قدام ربي ... يسائلني وينكشف الغطاء

وحسبي أن أمر على صراط ... كحد السيف أسفله لظاء

فغُشي عليه.

وقال سهل التُستري: من دق عليه الصراط في الدنيا عرض له في الآخرة، ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق عليه في الآخرة. ومعنى هذا أن من ضيق على نفسه في الدنيا باتباع الأمر واجتناب النهي وهو حقيقة الاستقامة على الصراط المستقيم في الدنيا، كان جزاؤه أن يتسع له الصراط في الآخرة، ومن وسّع على نفسه في الدنيا باتباع الشهوات المحرمة والشبهات المضلة حتى خرج عن الصراط المستقيم ضاق عليه الصراط في الآخرة، بحسب ذلك، والله أعلم.

رأى بعض السلف رجلاً يضحك، فقال له: ما أضحكك؟ إنك لن تقر عينك أبدًا حتى تترك جهنم وراءك[1].

فنحن جميعًا نسأل الله (جل وعلا) في كل صلاة أن يهدينا وأن يوفقنا إلى السير على صراطه المستقيم وذلك عندما نقرأ: «إهدنا الصراط المستقيم».

فوالله لو استقامت قلوبنا وجوارحنا على الصراط المستقيم في الدنيا لاستقام لنا الصراط في الآخرة ـ والجزاء من جنس العمل ـ.

أيها الأخ الحبيب... أيتها الأخت الفاضلة،

استقيموا على الصلاة والصيام والزكاة والحج وقراءة القرآن وصلة الرحم وسائر الطاعات لتفوزوا بالمغفرة والرحمات ولتظفروا برضوان رب الأرض والسماوات فيكشف عنكم الكُربات ويكتب لكم الخلود في نعيم الجنات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ

(١) التخويف من النار للإمام ابن رجب الحنبلي ـ (ص ١٨٦ : ١٨٧) بتصرف.

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (فصلت:٣٠-٣٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف:١٣، ١٤).

• لا يجمع الله على عبد خوفين •

قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي وإن هو خافني في الدنيا أمّنته يوم أجمع عبادي»[١].

فهذه أهوال الصراط وعظائمه، فطوّل فيه فكرك فإنّ أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك؟ فهذا ليس من الخوف في شيء! بل إن من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه. فلا ينجيك إلا خوفٌ يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته.

فلا تكن ممن قال استعنت بالله... نعوذ بالله... اللهم سلم سلم. وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم. فالشيطان يضحك من استعاذتهم. كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدّة بنيانه وإحكام أركانه؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنّى يغني عنه ذلك من السبع.. وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: «لا إله إلا الله» صادقًا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد عن الصدق في التوحيد وأمره مخطر في نفسه، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبًا لرسول الله ﷺ حريصًا على تعظيم سنته ومتشوقًا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركًا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة[٢].

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٢).

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ـ (جـ ٥ ، ص ٢٢٩).

• آخر رجل يمر على الصراط •

ويخبر الحبيب ﷺ عن حال آخر رجل يمر من على الصراط ليدخل جنة رب الأرض والسماوات فيقول ﷺ: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ـ أي على الصراط ـ ويكبو مرة وتسفعه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين....»[1].

فمن شدة هول الصراط ـ المنصوب على متن جهنم ـ أحس هذا الرجل بعد مروره من عليه أن الله (عز وجل) أعطاه شيئًا عظيمًا لم يعطه أحدًا من البشرية كلها.. مع أن هذا الرجل هو آخر من يدخل الجنة!!!.

فنسأل الله (جل وعلا) أن ييسر لنا المرور على الصراط

* * *

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود (٣ ـ ٥١/ ح٣١٠) إيمان.

وصف النار

قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٤).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦).

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ (المعارج:٢٧:٢٨).

وقال تعالى فى صفات عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥:٦٦).

وقال ﷺ: «اجعلوا بينكم وبين النار حجابًا ولو بشق تمرة»[1].

وقال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»[2].

* تالله لو عرف المؤمن ما فى النار من عذاب ونكال لم يهنأ بعيش ولم يغفل عن طاعة الله لحظة واحدة ولم يتجرأ على معصيته حتى يلقاه.

وقال يوسف بن عطية عن المعلى بن زياد: كان هرم بن حيان يخرج فى بعض الليالى وينادى بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها، وعجبت من النار كيف نام هاربها، ثم يقول: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (الأعراف:٩٧).

وقال أبو الجوزاء: لو وليت من أمر الناس شيئًا اتخذت منارًا على الطريق وأقمت عليها رجالاً ينادون فى الناس: النار النار.

* * *

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن فضالة بن عبيد وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٣).

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم عن عدى بن حاتم ـ صحيح الجامع (١١٥).

• التخويف من النار •

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ (الزمر:١٥:١٦).

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر:٤٨).

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴾ (الأحزاب:٦٦).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (المدثر:٣١ ـ ٣٧).

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ قال: «والله ما أُنذر العباد بشيء قط أدهى منها» خرجه ابن أبي حاتم.

وقال ﷺ: «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها» وفي رواية لمسلم «مثلي كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها» قال: «فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها»[1].

* وقال إبراهيم التيمي: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار. لأن أهل الجنة قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ (فاطر:٣٤) وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (الطور:٢٦).

* * *

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ باب قول النبي ﷺ أنا آخذ بحجزكم عن النار ـ كتاب الفضائل

• النبى ﷺ يستعيذ بالله من عذابها •

وها هو الحبيب ﷺ الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يستعيذ بالله من عذاب جهنم... بل لقد كان يأمر أصحابه (رضى الله عنهم) أن يستعيذوا بالله من عذاب النار ـ بعد التشهد ـ.

فقد كان ﷺ يقول: «إذا فرغ أحدكم من التشهد [الآخر] فليستعذ بالله من أربع [يقول: اللهم إنى أعوذ بك] من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر [فتنة] المسيح الدجال، ثم يدعو لنفسه بما بدا له»(١).

* وكان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار...»(٢).

* وكان ﷺ يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل ورب إسرافيل أعوذ بك من حرِّ النار ومن عذاب القبر»(٣).

وقال أنس: كان أكثر دعاء النبى ﷺ ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة:٢٠١)(٤).

وفى «سنن أبى داود» و«ابن ماجه» عن جابر أن النبى ﷺ قال لرجل «كيف تقول فى الصلاة» قال: أتشهّد، ثم أقول: اللهم إنى إسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إنى لا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبى ﷺ: «حولها ندندن»(٥).

* وكيف لا يستعيذ النبى ﷺ بالله من عذابها وهو الذى رآها.

قال ﷺ: «أُتيتُ بالبراق، وهو دابةٌ أبيضُ طويلٌ، يضعُ حافرهُ عند منتهى طرْفه فلمْ نُزايلْ ظهرهُ أنا وجبريل حتى أتيتُ بيتَ المقدسِ، ففتحتْ لى أبوابُ السماء، ورأيتُ الجنةَ والنارَ»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم وأبو عوانة والنسائى.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن عائشة.

(٣) رواه النسائى عن عائشة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٠٥).

(٤) متفق عليه عن أنس ـ صحيح الجامع (٤٨٠٢)

(٥) أخرجه أبو داود (٧٩٣) عن جابر بإسناد حسن.

(٦) رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم عن حذيفة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٨).

• وأنذر عشيرتك الأقربين •

ولما نزلت تلك الآية الكريمة قام النبي ﷺ ينذر قومه وعشيرته وابنته فاطمة (رضي الله عنها) من نار جهنم.

* عن أبي هريرة، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعمّ وخصّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا»[1].

• أولو الألباب يستعيذون بالله من النار •

إننا نؤمن جميعًا باليوم الآخر وبكل ما فيه من النعيم والعذاب لأننا نؤمن بالغيب الذي أخبر عنه ربنا (جل وعلا) وأخبر عنه نبينا ﷺ.

قال ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

* ولذلك قال تعالى عن المؤمنين أصحاب القلوب النقية والعقول السوية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (آل عمران:١٩٠:١٩٢).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس الذكر وفيه «إن الله عز وجل يسألهم وهو أعلم بهم، فيقول: مم يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول: وهل رأوها، قالوا: لا والله ما رأوها، فيقول:

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ باب في قوله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) ـ كتاب الإيمان

(٢) رواه البيهقي عن عمر وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٩٨).

كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا وأشد منها مخافة، قال: فيقول: إنى أُشهدكم أنى قد غفرت لهم»[١].

* وعن أنس عن النبى ﷺ قال: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة؛ ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار»[٢].

• خوف السلف من عذاب النار •

وها هى باقة عطرة من أحوال سلفنا الصالح وخوفهم من عذاب النار:

* عن وهب بن منبه، قال: ما عُبد الله بمثل الخوف.

وقال أبو سليمان الدارانى: أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل، وكل قلب ليس فيه خوف الله فهو قلب خرب.

وقال الفضيل بن عياض: الخوف أفضل من الرجاء ما كان الرجل صحيحًا، فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل.

وسُئل ابن المبارك عن رجلين أحدهما خائف والآخر قتيل فى سبيل الله عز وجل، قال: أحبهما إلىّ أخوفهما.

وقال عمر: لو نادى منادى من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحدًا لخفت أن أكون أنا هو.... خرجه أبو نعيم.

وخرّج الإمام أحمد من طريق عبد الله بن الرومى قال: بلغنى أن عثمان رضى الله عنه، قال: لو أنى بين الجنة والنار ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتها أصير.

وكان من السلف من إذا رأى النار اضطرب وتغيرت حاله،..... وقد قال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ (الواقعة:٧٣)..... قال مجاهد وغيره: يعنى أن نار الدنيا تذكّر بنار الآخرة.

وعن عطاء الخراسانى قال: كان أويس القرنى يقف على موضع الحدادين فينظر إليهم كيف ينفخون الكير، ويسمع صوت النار فيصرخ ثم يسقط.

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢١٧٣).

(٢) رواه الترمذى والنسائى والحاكم عن أنس ـ صحيح الجامع (٦٢٧٥).

وقال الحسن: كان عمر رضى الله عنه ربما توقد له النار ثم يدنى يديه منها، ثم يقول: يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر.

ولما أهديت معاذة العدوية إلى زوجها صلة بن أشيم أدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله بيتًا مطيبًا، فقام يصلى حتى أصبح، وفعلت معاذة كذلك، فلما أصبح عاتبه ابن أخيه على فعله، فقال له إنك أدخلتنى بالأمس بيتًا أذكرتنى به النار ثم أدخلتنى بيتًا أذكرتنى به الجنة فما زالت فكرتى فيهما حتى أصبحت.

وقال أبو نوح الأنصارى: وقع حريق فى بيت على بن الحسين وهو ساجد، فجعلوا يناودنه: يا ابن رسول الله..... النار، فما رفع رأسه حتى أطفئت، فقيل ما الذى ألهاك عنها؟ قال: النار الأخرى.

* وعوتب يزيد الرقاشى على كثرة بكائه وقيل له: لو كانت النار خُلقت لك ما زدت على هذا فقال وهل خلقت النار إلا لى ولأصحابى ولإخواننا من الجن والإنس أما تقرأ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ (الرحمن:٣١)...... أما تقرأ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾ (الرحمن:٣٥).... فقرأ حتى بلغ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ (الرحمن:٤٤).... وجعل يجول فى الدار ويصرخ ويبكى حتى غُشى عليه.

* ورُوى من غير وجه أن على بن فضيل مات من سماع قراءة هذه الآية ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:٢٧).

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً يتهجد فى الليل ويقرأ سورة الطور فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ (الطور:٧، ٨).... قال عمر: قسمٌ حق ورب الكعبة، ثم رجع إلى منزله فمرض شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه.

وعن أبى مهدى قال: ما كان سفيان الثورى ينام إلا أول الليل ثم ينتفض فزعًا مرعوبًا ينادى: النار النار، شغلنى ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقول على أثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتى غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتى من النار.

وفى هذا المعنى يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

وكان الأحنف بن قيس يجىء إلى المصباح بالليل فيضع إصبعه فيه ثم يقول: (حس.... حس)، ثم يقول: يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

وقال مالك بن دينار: قالت ابنة الربيع بن خثيم: يا أبت مالك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباك ينام.

وقال الحسن: إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار معذبين. وقال أيضًا: والله ما صدّق عبدٌ بالنار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدق بها حتى يهجم عليها.

وعن إبراهيم بن محمد البصرى قال نظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل عنده متغير اللون، فقال له: ما الذى أرى بك، قال: أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين، إن شاء الله، فأعاد عليه عمر، فأعاد عليه الرجل مثل ذلك ثلاث مرات، فقال: إذا أبيت إلا أن أخبرك، فإنى ذقت حلاوة الدنيا فصغر فى عينى زهرتها وملاعبها، واستوى عندى حجارتها وذهبها، ورأيت كأن الناس يُساقون إلى الجنة وأنا أُساق إلى النار، فأسهرت لذلك ليلى وأظمأت له نهارى، وكل ذلك صغير حقير فى جنب عفو الله وثواب الله عز وجل وجنب عقابه.

* وبالجملة فالخوف من عذاب جهنم لا ينجو منه أحد من الخلق، وقد توعد الله سبحانه خاصة خلقه على المعصية، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (الأسراء:٣٩).

وقال فى حق الملائكة المكرمين: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٢٩).

وكان بعض السلف يقول: من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن[1].

---

(١) بتصرف من مختصر التخويف من النار/ للإمام ابن رجب الحنبلى ـ اختصار وتحقيق المصنف.

• تحاجّت النار والجنة •

قال ﷺ: «احتجّت الجنّةُ والنارُ، فقالت الجنّةُ: يدخلني الضعفاءُ والمساكينُ، وقالت النّارُ: يدخلني الجبارونَ والمتكبرونَ، فقالَ اللهُ للنار: أنت عذابي، أنتقمُ بك ممنْ شئتُ، وقالَ للجنة: أنتِ رحمتي، أرحمُ بكِ منْ شئتُ، ولكلٍّ واحدة منكما ملؤُها»[١].

وقال ﷺ: «تحاجّت النّارُ والجنّةُ، فقالت النّارُ: أوثرتُ بالمتكبّرينَ، والمتجبرينَ، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلُني إلا ضُعفاءُ الناسِ وسقطُهم وعجّزُهم؟ فقالَ الله عزّ وجلّ للجنّة: إنما أنت رحمتي، أرحمُ بكِ منْ أشاءُ منْ عِبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذّبُ بكِ منْ أشاءُ منْ عبادي، ولكُلٍّ واحدة منكما ملؤها، فأمّا النارُ، فلا تمتليءُ حتى يضعَ الله قدمهُ عليها فتقولُ: قَط قَط، فهنالكَ تَمتليءُ، وينزوي بعضُها إلى بعض، فلا يظلم الله مِنْ خلقه أحداً، وأما الجَنَّة فإنَّ الله يُنْشيءُ لها خَلقًا»[٢].

• إنما الأعمال بخواتيمها •

قال ﷺ: «إنَّ أحدكمْ يُجمعُ خلقُهُ في بطنِ أمه أربعينَ يومًا نطفةً، ثمَّ يكونُ علقةً مثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مضغةً مثل ذلك، ثمَّ يبعثُ الله إليه ملكًا، ويؤمر بأربعَ كلمات، ويقالُ لهُ: اكتب عملهُ، ورزقهُ، وأجلهُ، وشقيٌّ أوْ سَعيدٌ؛ ثمَّ يَنفخ فيه الروحَ، فإنَّ الرجلَ منكم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنة، حتّى لا يكونُ بينهُ وبينَها إلاّ ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهلِ النار، فيدخلُ النارَ. وإنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ النار، حتّى ما يكونُ بينهُ وبينها إلاّ ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهل الجنة، فيدخلُ الجنةَ»[٣].

وقال ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليعملُ الزمنَ الطويلَ بعمل أهل الجنَّة، ثم يختمُ له عملهُ بعملِ أهلِ النَّار، وإنَّ الرجلَ ليعملُ الزمنَ الطويلَ بعملِ أهلِ النَّارِ ثمَّ يختمُ [له] عملهُ بعملِ أهلِ الجنَّة»[٤].

(١) أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (١٨٥).
(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٢٩١٩).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن مسعود.
(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (١٦٢٣).

وفي رواية قال ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ الجنَّة فيما يبدُو للناس، وهوَ منْ أهلِ النارِ، وإن الرجلَ ليعملُ عملَ النارِ فيما يبدوُ للناس، وهوَ منْ أهلِ الجنة»(١).

زاد البخاري: «وإنما الأعمال بخواتيمها».

• أهل النار ميسَّرون لعمل أهل النار •

قال ﷺ: «إن الله قبض قبضة فقال: هذه إلى الجنة برحمتي وقبض قبضة فقال: هذه إلى النار ولا أبالي»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً»(٣).

وقال ﷺ: «إنَّ الله أخَذَ ذُرِّيَّةَ آدمَ منْ ظَهره ثمَّ ﴿أشهدهمْ على أنفُسهم ألستُ بربكم قالوا بَلى﴾ ثم أفاضَ(٤) بهم في كفيه فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، فأهل الجنةِ ميسرون لعملِ أهلِ الجنة، وأهلُ النارِ ميسرونَ لعمل أهلَ النار»(٥).

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (الليل:٥:١٢).

﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي أعطى ما أُمر باخراجه، واتقى الله في أموره ﴿وصدق بالحسنى﴾ أي بالمجازاة على ذلك، قاله قتادة. وعن أبيّ بن كعب قال: [سألت رسول الله عن الحسنى، قال: الحسنى: الجنة].

وقوله تعالى: ﴿فسنيسره لليسرى﴾ قال ابن عباس: يعني للخير وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها ومن جزاء السيئة، السيئة بعدها. ولهذا قال تعالى ﴿وأما من بخل﴾ أي بما عنده ﴿واستغنى﴾ قال ابن عباس: أي بخل بماله واستغنى عن ربه عز وجل ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي بالجزاء في

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (١٦٢٤).
(٢) رواه أبو يعلى عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٤).
(٣) أخرجه مسلم عن عائشة ـ صحيح الجامع (١٧٦٠).
(٤) أفاض بهم: قلبهم ونثرهم.
(٥) رواه البزار والطبراني في الكبير عن هشام بن حكيم وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٠٢).

الدار الآخرة ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أى لطريق الشر. كما قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرّة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾. والآيات فى هذا المعنى كثيرة، دالة على أن الله عزّ وجل، يجازى من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر. والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة. روى البخارى بسنده عن على رضى الله عنه قال: [كنّا مع رسول الله ﷺ فى بقيع الغرقد فى جنازة فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خُلق له» ثم قرأ ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى - إلى قوله - للعسرى﴾[1].

● أنا عند ظن عبدى بى ●

قال ﷺ «لا يموتن أحدٌ منكم إلا وهو يُحسن الظن بالله تعالى»[2].

وقال تعالى فى الحديث القدسى: «أنا عند ظن عبدى بى إن ظنّ خيراً فله وإن ظن شراً فله»[3].

فإذا حقق العبد التوحيد لله (جل وعلا) ولكنه كان مُقصراً فى طاعة الله أو كان طائعًا لله ولكنه كان مصراً على بعض الذنوب والآثام فإن رجاءه فى الله وحُسن ظنه به ينفعه حتى وإن دخل النار.

قال ﷺ «يخرج من النار أربعة، فيُعرضون على الله عز وجل، فيلتفت أحدهم، فيقول: أى رب إذ أخرجتنى منها فلا تُعدنى فيها، قال: فينجيه منها»[4].

وخرجه ابن حبان فى «صحيحه» وعنده «فيلتفت فيقول: يا رب ما كان هذا رجائى فيك، فيقول: ما كان رجاؤك؟! قال: كان رجائى إذ أخرجتنى منها أن لا تعيدنى فيها، فيرحمه الله فيدخله الجنة»[5].

* * *

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٣: ٥٢٤).
(٢) أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود وابن ماجه عن جابر.
(٣) رواه أحمد عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٥).
(٤) أخرجه مسلم (٣/ ٦٥ ـ ح ١٩٢) عن أنس.
(٥) صحيح ابن حبان (٢/ ٦٣٢ ـ الإحسان).

• لا تأمن على نفسك من النار •

قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلقَ الرحمة يومَ خلقَها مائة رحمة، فأمسكَ عندهُ تسعًا وتسعينَ رحمةً، وأرسل في خلقه كلهمْ رحمة واحدةً، فلوْ يعلمُ الكافرُ بكُلِّ الذي عندَ الله من الرحمةِ لم ييأسْ منَ الجنَّةَ، ولوْ يعلمُ المؤمنُ بالذي عند الله منَ العذابِ لم يأمنْ منَ النارِ»(١).

* فلا تأمن على نفسك من النار أيها الأخ الحبيب فقد يدخل الإنسان تلك النار بكلمة يسيرة لا يُلقى لها بالاً.

قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوى بها سبعين خريفًا في النار»(٢).

وقال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»(٣).

* فالنار خلقها الله تعالى لعصاة الجن والإنس وبهما تمتلىء... قال الله تعالى: ﴿ولقدْ ذرأْنا لجهنَّم كثيرًا منَ الْجنِّ والإنسِ لهُمْ قلُوبٌ لاَّ يفْقهُون بها ولهُمْ أعْينٌ لاَّ يُبْصرُون بها ولهُمْ آذانٌ لاَّ يسْمعُون بها﴾ (الأعراف:١٧٩) وقال تعالى: ﴿وتمَّتْ كلمةُ ربِّك لأَمْلأَنَّ جهنَّم منَ الْجنَّة والنَّاس أجْمعين﴾ (هود:١١٩).

وقال تعالى حاكيًا عن الجن الذين استمعوا القرآن: ﴿وأنَّا منَّا الْمُسْلمُون ومنَّا الْقاسطُون فمنْ أسْلم فأُولْئك تحرَّوْا رشدًا (١٤) وأمَّا الْقاسطُون فكانُوا لجهنَّم حطبًا﴾ (الجن:١٤، ١٥)...

وقال تعالى: ﴿سنفْرُغُ لكُمْ أيُّها الثَّقلان (٣١) فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكذِّبان﴾ (الرحمن:٣١، ٣٢).

وأما سائر الخلق فأشرفهم الملائكة، وهم متوعدون على المعصية بالنار، وهم خائفون منها،... قال الله تعالى: ﴿وقالُوا اتَّخذ الرَّحْمنُ ولدًا سُبْحانهُ بلْ عبادٌ مُّكْرمُون (٢٦) لا يسْبقُونهُ بالْقوْل وهُم بأمْره يعْملُون (٢٧) يعْلمُ ما بيْن أيْديهمْ وما خلْفهُمْ ولا يشْفعُون إلاَّ لمن

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (١٧٦٣).
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٨).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (١٦٧٨).

ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ومن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٢٦ ـ ٢٩)[١].

• حفت النار بالشهوات •

قال ﷺ: «حُجبت النار بالشهوات وحُجبت الجنة بالمكاره»[٢].

وقال ﷺ: «حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات»[٣].

وقال ﷺ: «لما خلق الله النار أرسل إليها جبريل قال له: إذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها، قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها. فأمر بها فحُفت بالشهوات، ثم قال له: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها ورجع، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»[٤].

وفي حديث سمرة بن جندب عن النبي ﷺ: «إن ملكين أتياه في المنام، فذكر رؤيا طويلة وفيها: «قال: فانطلقت فأتينا على رجل كريه المرآة، كأكره ما أنت زاعم، فإذا هو عند نار يحشها ويسعى حولها، قال: قلت: ما هذا!! قالا لي: انطلق انطلق»... وفي آخر الحديث «قالا: فأما الرجل الكريه المرآة عند النار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم»[٥].

وقوله: «كريه المرآة» أي المنظر، وقوله: «يحشها» أي يوقدها.

• لها سبعة أبواب •

قال تعالى عن أبواب جهنم: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر:٤٣:٤٤).

---

(١) مختصر التخويف من النار (ص ١٤).

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٣١٢٦).

(٣) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي عن أنس ـ وأخرجه مسلم عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٥٢١٠).

(٥) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٩٥ ـ ح ١٣٨٦) ـ ومسلم (١٥/ ٥٠ ـ ح ٢٢٧٥).

وقال ﷺ: «الجنة لها ثمانية أبواب والنار لها سبعة أبواب»(١).

• الجنة درجات والنار دركات •

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء:١٤٥).... وقال بعضهم: الجنة درجات والنار دركات.

وقد تسمى النار درجات أيضًا كما قال تعالى بعد أن ذكر أهل الجنة وأهل النار ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ (الأنعام:١٣٢).

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. درجات الجنة تذهب علوًا ودرجات النار تذهب سفولا.

وعن ابن جريج فى قوله: (لها سبعة أبواب) قال: جهنم ثم لظى ثم الحُطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية وفيها أبو جهل.

وعن أبى هريرة فى قوله تعالى: ﴿لواحة للبشر﴾ قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة، فلا تترك لحمًا على عظم إلا وضعته على العراقيب.

وعن محمد بن كعب: زفروا فى جهنم فزفرت النار، وشهقوا فشهقت النار بما استحلوا من محارم الله.

وروى مالك عن زيد بن أسلم فى قوله عز وجل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم:٢١)، قال زيد: صبروا مائة عام ثم بكوا مائة عام ثم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم:٢١).

وروى ابن أبى الدنيا: إن رياحًا القيسى زار قومًا فبكى صبى لهم من الليل، فبكى رياح لبكائه حتى أصبح، فسُئل بعد ذلك عن بكائه فقال: ذكرت ببكاء الصبى بكاء أهل النار فى النار ليس لهم نصير، ثم بكى.

وقال الربيع بن أنس: الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر، وقال معمر عن قتادة: صوت الكافر فى النار مثل صوت الحمار أوله زفير وآخره شهيق. وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ (فاطر:٣٧).

---

(١) رواه ابن سعد عن عتبة بن عبد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١١٩).

• إنها عليهم مؤصدة •

وأهل النار يعانون من الشدائد بعد الشدائد.... فأبواب جهنم تُغلق على أهلها.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ (البلد:٢٠). وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (الهمزة:٨،٩).

بل إن سرادق جهنم يحيط بأهل النار... قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (الكهف:٢٩).

ولما كان إحاطة السرادق بهم موجب لهمهم وغمهم وكربهم وعطشهم لشدة وهج النار عليهم قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٩) وقال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ㉑ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج:٢١، ٢٢).

• عمق جهنم •

لقد ذكرنا قول النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوى بها في النار سبعين خريفًا»[١].

وعن أبي هريرة قال: كنا عند النبي ﷺ يومًا فسمعنا وجبة، (أي: سقطة) فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر أُرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن انتهى إلى قعرها»[٢].

وكان عمر يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

* وقال ﷺ: «إن الصخرة العظيمة لتُلقى من شفير جهنم فتهوى بها سبعين عامًا ما تُفضي إلى قرارها»[٣].

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٨).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن أبي هريرة (١٧/ ٢٦٢).

(٣) رواه الترمذي عن عتبة بن غزوان وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٦٢).

وقال ﷺ: «لو أن حجراً مثل سبع خَلِفات أُلقى عن شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفًا لا يبلغ قعرها»[1].

• النار سوداء مظلمة •

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم:٤٩-٥٠).

* وعن الضحاك قال: جهنم سوداء وماؤها وشجرها أسود وأهلها سود وقد دل على سواد أهلها قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس:٢٧).... وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران:١٠٦).

وعن أبي بن كعب قال: ضرب الله مثلاً للكافرين قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ (النور:٤٠)، فهو يتقلب في خمس من الظُلَم: كلامه ظُلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة ومصيره إلى الظلمات إلى النار.

* وعن أبي هريرة قال: «أُوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرتْ، ثم أوقدَ عليها ألفَ سنة حتى ابيضتْ، ثم أوقدَ عليها ألفَ سنة حتى اسودَّتْ، فهي سوداءُ مُظلمةٌ، كالليل المُظلم»[2].

* وعنه رضي الله عنه؛ قال: «أترونها حمراء كناركم هذه؟ لهي أسود من القار»[3].

• شدة حرها •

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة:٨١).

---

(١) رواه هناد عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٤٨).

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢١٢٥) وهو حسن بشواهده لكنه موقوف على أبي هريرة - ورفعه إلى النبي ﷺ ضعيف.

(٣) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٤) بإسناد صحيح.

وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (الليل:١٤:١٥).

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (المرسلات:٣٢).

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية:٢:٤).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال: «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية قال: «إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها»[1]، وخرجه الإمام أحمد وزاد فيه «ضُربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

* وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:«هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم»[2].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يارب أكل بعضي بعضًا فنفّسني، فأذن لها في نفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر سمومها وأشد ما تجدون من البرد زمهريرها»[3].

* وجهنم تُسجر كل يوم نصف النهار، وفي «صحيح مسلم» عن عمرو ابن عنبسة عن النبي ﷺ قال: «صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع، فإنها تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صلّ، فإن الصلاة مشهودة حتى يستقبل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة، فإنه حينئذ تُسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصلّ»[4].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا اشتد الحر، فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٨١ ـ ح ٣٢٦٥) ومسلم (١٧/ ٢٦١ ـ ح ٢٨٤٣).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٨٥٧٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٢٣ ـ ح ٥٣٧) ومسلم (٥/ ١٦٦ ـ ح ٦١٧).

(٤) أخرجه مسلم عن عمرو بن عنبسة (٦/ ١٦٥ ـ ح ٨٣٢) ـ صحيح الجامع (٣٧٧٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٢/ ٢٠ ـ ح ٥٣٣) ـ مسلم (٥/ ١٦٣ ـ ح ٦١٥).

* وتُسجر على أهلها بعد دخولهم إليها. قال الله ـ عز وجل: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧)، قال ابن عباس: كلما أطفئت أوقدت.

وقال كعب لعمر بن الخطاب: لو فُتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حره.

وقال عبد الله بن عمير: لو أن أهل النار كانوا فى نار الدنيا لقالوا فيها[1].

• أودية جهنم •

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم:٥٩).

قال ابن مسعود (رضى الله عنه) فى قوله تعالى: «فسوف يلقون غيًّا»: وادٍ فى جهنم بعيدٌ قعره خبيثٌ طعمه.

• سجن للمتكبرين فى نار جهنم •

قال تعالى ـ فى الحديث القدسى ـ: «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدًا منهما قذفته فى النار»[2].

فلا ينبغى لعبدٍ أن يتكبر أبدًا فمن فعل ذلك فقد حقّ عليه عذاب الله (عز وجل).

* قال ﷺ مصورًا هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة.

«يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صورة الناس يعلوهم كل شىء من الصَّغار حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم يقال له: بولس تعلوهم نار الأنيار يُسقون من طين الخبال عصارة أهل النار»[3].

فهؤلاء المتكبرون الذين يظنون أنهم خرقوا الأرض أو نافسوا الجبال طولاً، يُحشرون

(١) أى ناموا فيها (من القيلولة).

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١١).

(٣) رواه أحمد والترمذى عن ابن عمرو، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٤٠).

كالنمل هوانًا، يغشاهم الذلّ، ويساقون إلى سجن في النار، ويُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال جزاءً وفاقًا.

• سلاسل وأغلال جهنم •

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (غافر:٦٩:٧٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ (الإنسان:٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة:٢٥:٣٢).

قال ابن عباس: السلسلة تدخل في إسته، ثم تخرج من فيه، (أي: من فمه) ثم يُنظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حتى يُشوى.

وقال ابن المنكدر: لو جُمع حديد الدنيا كله ما خلا منها وما بقي ما عدل حلقة من الحلق التي ذكر الله في كتابه تعالى، فقال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة:٣٢).

• طعام أهل النار •

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (الدخان:٤٣:٤٦).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (الواقعة:٥١:٥٧).

ثم وصفها تعالى فقال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ

مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (الصافات:٦٢:٦٨).

وقد دل القرآن على أنهم يأكلون منها حتى تمتلىء منها بطونهم فتغلى فى بطونهم، كما يغلى الحميم، وهو الماء الذى قد انتهى حره، ثم بعد أكلهم منها يشربون عليه من الحميم شرب الهيم.

قال ابن عباس: الهيم: الإبل العطاش. وقال السدى: هو داء يأخذ الإبل فلا تروى أبدًا حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبدًا.

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢)، فقال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟»(١).

* وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ (الغاشية:٦).

قال ابن عباس عن الضريع: إنه شجر فى جهنم.

* وقال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ (الحاقة:٣٥:٣٦).

قال ابن عباس عن الغسلين: إنه صديد أهل النار.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (المزمل:١٢:١٣).

روى الإمام أحمد بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾. قال: شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج.

وكان كثير من الخائفين من السلف ينغص عليهم ذكر طعام أهل النار وشرابهم طعام الدنيا وشرابها حتى يمتنعوا من تناوله أحيانًا لذلك، فكان الإمام أحمد يقول: الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فلا أشتهيه.

روى شعبة عن سعد بن إبراهيم، قال: أُتى عبد الرحمن بعشائه وهو صائم فقرأ:

---

(١) رواه الترمذى (٦٣٩٨)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٥٠).

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (المزمل:١٢-١٣)، فلم يزل يبكي حتى رفع طعامه وما تعشى، وإنه لصائم.

• شراب أهل النار •

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٩).

وقال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم:١٦-١٧).

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد:١٥).

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (ص:٥٧-٥٨).

فهذه أربعة أنواع ذكرناها من شرابهم، وقد ذكرها الله في كتابه:

النوع الأول. الحميم:

قال شبيب بن عكرمة عن ابن عباس: حميم آن: الذي قد انتهى غليه.

النوع الثاني. الغساق:

قال ابن عباس: الغساق: ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه، وعنه قال: الغساق: الزمهرير البارد الذي يحرق من برده.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: الغساق: القيح الغليظ لو أن قطرة منه تهرق في المغرب لأنتنت أهل المشرق، ولو أهرقت في المشرق لأنتنت أهل المغرب.

النوع الثالث. الصديد:

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (إبراهيم:١٦)، قال: يعني القيح والدم.

وعن جابر عن النبي ﷺ قال: «إن على الله عهدًا لمن شرب المسكرات ليسقيه من طينة الخبال، قالوا: يا رسول الله؛ وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار»[١].

---

(١) أخرجه مسلم عن جابر (١٣/ ٢٤٩ ـ ح ٢٠٠٢).

النوع الرابع- الماء الذى كالمهل:

قال مجاهد: بماء كالمهل: مثل القيح والدم أسود كعكر الزيت.

وعن عبد الله بن عمر أنه شرب ماء باردًا، فبكى واشتد بكاؤه، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية من كتاب الله.... قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ:٥٤)، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا، شهوتهم الماء البارد، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (الأعراف:٥٠).

• ملابس أهل النار •

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم:٤٩:٥٠) فقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أى قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل، وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته ووحشة لونه، والقطران قيل فيه ما يطلى به الجمل الأجرب.

وعن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[1].

قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ (الحج:١٩)...، وكان إبراهيم التيمى إذا تلا هذه الآية يقول: سبحان من خلق من النار ثيابًا.

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذابا أبو طالب، ينتعل بنعلين يغلى منهما دماغه»[2].

* وقال ﷺ: «من أكل برجل مسلم أكلة فى الدنيا أطعمه الله مثلها فى جهنم، ومن كسى أو اكتسى برجل مسلم ثوبًا، كساه الله مثله فى جهنم»[3].

وفى «صحيح البخارى»، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «ما تحت الكعبين من

(١) رواه مسلم (٦/ ٢٣٥، ٢٣٦) الجنائز. وقال النووى: فيه دليل على تحريم النياحة وهو مجمع عليه وفيه صحة التوبة ما لم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧/ ١٨٠) الجنة.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٨١)، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٣٤).

الإزار ففي النار»[1]، أن المراد ما تحت الكعب من البدن والثوب معًا، وأنه يسحب ثوبه في النار، كما يسحبه في الدنيا خيلاء.

• أسرة أهل النار •

قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:٤١).

أي: لهم فراش من النار من تحتهم «ومن فوقهم غواش» أي ومن فوقهم أغطية من النار «وكذلك نجزى الظالمين» أي ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزى كل من ظلم وتعدّى حدود الله (عز وجل).

* وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ (الزمر:١٦).

أي تغشاهم نار جهنم من فوقهم ومن تحتهم، وتحيط بهم من جميع جوانبهم، ومعنى الظلل أطباقٌ من نار جهنم، وتسميتها ظُللاً تهكمٌ بهم، لأنها محرقة والظلةُ تقي من الحر.

• إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم •

فيا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أُخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم ٧١:٧٢).

فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك. فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شُعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، سمعوا لها زفيراً وجرجرة تُفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة (١٠/ ٢٦٨ ـ ح ٥٧٨٧).

الأمم على الركب حتى أشفق الأتقياء من سوء المنقلب. وخرج المنادى من الزبانية قائلا: أين فلان بن فلان المسوّف نفسه فى الدنيا بطول الأمل المضيع عمره فى سوء العمل؟ فيادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه فى قعر الجحيم ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان:٤٩).

فأسكنوا دارًا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شُدت أقدامهم إلى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى، ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها يا مالك قد حق علينا الوعيد. يا مالك قد أثقلنا الحديد. يا مالك قد نضجت منا الجلود. يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان! ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسأوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نُهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين...... طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل. ومهما دعوا بالثبور صُبّ من فوق رؤوسهم الحميم يُصهر به ما فى بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها. كلما نضجت جلودهم بُدلوا جلودًا غيرها، قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون قد أُعميت أبصارهم وأُبكمت ألسنتهم، وقُصمت ظهورهم، وكُسرت عظامهم، وجُدعت آذانهم، ومُزقت جلودهم، وغُلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم. وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سار فى بواطن أجزائها وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم. هذا بعض جملة أحوالهم.

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً فكما أن إكباب

الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، فلا تترادف أنواعَ العذاب على كل من فى النار كيفما كان، بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه.

قال رسول الله ﷺ: «أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل يوضع فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه»[1] فانظر الآن إلى من خُفف عليه واعتبر بمن شُدد عليه. ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به. ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا هو عذاب النار عُرف عذاب جهنم بها وهيهات! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربًا مما هم فيه.

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة، وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنها وحسرتها لا نهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فَوت نعيم الجنة وفَوت لقاء الله تعالى وفَوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أيامًا قصيرة وكانت غير صافية، بل كانت مكدرة منغصة فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا! وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أيامًا قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان؟ فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم من الخير ما فاتهم وبُلوا بما بُلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولذاتها، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم.

وقال أحمد بن حرب: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار.... وقال عيسى عليه السلام: كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح...... وقال داود: إلهى لا صبر لى على حر شمسك فكيف صبرى على حر نارك؟ ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك؟

فانظر يا مسكين فى هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وإن هذا أمر قد قُضى وفَرِغ منه الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ

(١) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (٢٥٣٣).

الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (مريم:٣٩).

فإن قلت: فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حقى؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كلاً ميسر لما خُلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار. فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (الانفطار:١٣:١٤).

فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين[١].

• صفات أهل النار •

لقد ذكر الله (جل وعلا) بعض صفات أهل النار.... وكذلك ذكر النبى ﷺ بعض صفاتهم فإليكم بعض هذه الصفات التى نسأل الله (عز وجل) ألا يجعل لنا فيها حظًا ولا نصيبًا.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (المدثر:٣٨:٤٧).

وفى «الصحيحين» عن حارثة بن وهب، عن النبى ﷺ ، قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النار كل عُتُلٍ جواظ مستكبر»[٢].

وقال ﷺ: «حُجِبت الجنة بالمكاره، وحجبت النار بالشهوات» وخرجه مسلم ولفظه «حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى - صفة جهنم وأهوالها (٥/ ٢٤١: ٢٤٢).
(٢) أخرجه البخارى (٨/ ٥٣٠ - ح ٤٩١٨) ومسلم (١٧/ ٢٧٢ - ح ٢٨٥٣).
(٣) أخرجه البخارى (١١/ ٣٢٧ - ح ٦٤٨٧) ومسلم (١٧/ ٢٤١ - ح ٢٨٢٢).

فتبين بهذا أن صحة الجسد وقوته وكثرة المال والتنعيم بشهوات الدنيا والتكبر والتعاظم على الخلق، وهى صفات أهل النار التى ذكرت فى حديث حارثة بن وهب هى جماع الطغيان والبغى كما قال تعالى: ﴿كلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق:٦، ٧)، والطغيان وإيثار الحياة وشهواتها من موجبات النار، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٣٧ـ٣٩).

وأما الضعف فى البدن والاستضعاف فى الدنيا من قلة المال والسلطان مع الإيمان فهو جماع كل خير، ولهذا يقال: من العصمة أن لا تجد،... فهذه صفة أهل الجنة التى ذكرت فى حديث حارثة.

• أهل النار خمسة •

وفى «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار أن النبى ﷺ قال فى خطبته: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال، وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زَبر له الذين هم فيكم تبع لا يبغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» وذكر البخل والكذب والشنظير الفاحش[1].

وأما أهل النار فقد قسمهم النبى ﷺ فى هذا الحديث خمسة أصناف:

الصنف الأول: الضعيف الذى لا زَبر له، ويعنى بالزبر: القوة والحرص على ما ينتفع به صاحبه فى الآخرة من التقوى والعمل الصالح. وهذا القسم شر أقسام الناس ونفوسهم ساقطة لأنهم ليس لهم همم فى طلب الدنيا، ولا الآخرة، وإنما همةَ أحدهم شهوة بطنه وفرجه كيف اتفق له، وهو تبع للناس، خادم لهم أو طواف عليهم سائل لهم.

الصنف الثانى: الخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه، أى يعنى لا يقدر على خيانة ولو كانت حقيرة يسيرة إلا بادر إليها واغتنمها.

قال بعض السلف: كنا نتحدث أن صاحب النار من لا تمنعه خشية الله من شىء خفى له.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٨٧ ـ ح ٢٨٦٥).

الصنف الثالث: المخادع الذى دأبه صباحًا ومساءًا مخادعة الناس على أهليهم، وأموالهم، والخداع من أوصاف المنافقين كما وصفهم الله تعالى بذلك، والخداع معناه إظهار الخير وإضمار الشر بقصد التوصل إلى أموال الناس وأهاليهم والانتفاع بذلك، وهو من جملة المكر والحيل المحرمة.

وفى حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ «من غشنا فليس منا، والمكر والخداع فى النار»[1].

الصنف الرابع: الكذب والبخل. والكذب والبخل كلاهما ينشأ عن الشح... فالشحيح أخذ المال بغير حقه، والبخيل منعه من حقه، وكذلك روى تفسير الشح والبخل عن ابن مسعود وطاووس وغيرهما من السلف،..... وفى الأثر «إن الشيطان قال: مهما غلبنى ابن آدم فلن يغلبنى بثلاث: يأخذ المال من غير حله، أو ينفقه فى غير وجهه، أو يمنعه من حقه».

وينشأ من الشح أيضًا الكذب والمخادعة والتحايل على ما لا يستحقه الإنسان بالطرق الباطلة المحرمة... وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «إن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار»[2].

الصنف الخامس: الشنظير وقد فُسِّر بالسىء الخلق، والفحاش هو الفاحش المتفحش، وفى «الصحيحين» عن عائشة عن النبى ﷺ قال: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فُحشه»[3][4].

* بل لقد ذكر النبى ﷺ أصنافًا من أهل النار غير هؤلاء

* فعن أبى هريرة رضى الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة؛ لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»[5].

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٦٤٠٨).
(٢) أخرجه البخارى مع الفتح (١٠/ ٥٢٣ ـ ح ٦٠٩٤) ومسلم (١٦/ ٢٤١ ـ ح ٢٦٠٧).
(٣) البخارى مع الفتح (١٠/ ٤٨٦ ـ ح ٦٠٥٤) ومسلم (١٦/ ٢١٧ ـ ح ٢٥٩١).
(٤) مختصر التخويف من النار (ص: ٧٤: ٧٨) بتصرف.
(٥) أخرجه مسلم (١٧/ ١٩٠ ـ نووى).

• أكثر أهل النار •

أهل النار الذين هم أهلها على الحقيقة هم الذين يخلدون فيها، ولهم أُعدت، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤).

روى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تُخرج بعث النار من ذريتك، قال: يارب وما بعث النار، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون...»[1].

فهذه الأحاديث وما فى معناها تدل على أن أكثر بنى آدم من أهل النار، وتدل أيضًا على أن أتباع الرسل قليل بالنسبة إلى غيرهم.

* وقد وردت الأحاديث على أن هذه الأمة ستفترق على بضع وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة واحدة، وكثير منهم أيضًا فُتن بالشهوات المحرمة المتوعد عليها بالنار ـ وإن لم يقتض ذلك الخلود فيها ـ فلم ينج من الوعيد بالنار، ولم يستحق الوعد المطلق بالجنة من هذه الأمة إلا فرقة واحدة، وهو ما كان على ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه. ظاهرًا وباطنًا وسلم من فتنة الشهوات والشبهات، وهؤلاء قليل جدًا لا سيما فى الأزمان المتأخرة.

فأما عصاة الموحدين فأكثر من يدخل النار منهم النساء.

ففى «صحيح مسلم» عن ابن عباس، عن النبى ﷺ ، قال: «اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[2].

وفى «صحيح مسلم» عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ ، قال: «إن أقل ساكنى الجنة النساء»[3].

وقد أشكل على بعض الناس الجمع بين هذا الحديث وبين حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى أهل الجنة: «لكل امرىء منهم زوجتان»[4].

---

(١) أخرجه البخارى مع الفتح (٦/ ٤٤٠ ـ ح ٣٣٤٨)، ومسلم (٣/ ١٢١ ـ ح ٢٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٩٤) والترمذى وأحمد عن ابن عباس ـ صحيح الجامع (١٠٣٠).

(٣) أخرجه مسلم ـ باب أقل ساكنى الجنة النساء ـ كتاب صفة الجنة.

(٤) أخرجه مسلم عن أبى هريرة (١٧/ ٢٥٠ ـ ح ٢٨٣٤).

فرام بعضهم الجمع بين الحديثين بأن قلة النساء فى الجنة إنما هو قبل خروج عصاة الموحدين من النار، فإذا خرجوا منها كان النساء حينئذ فى الجنة أكثر، والصحيح أن أبا هريرة إنما أراد أن جنس النساء فى الجنة أكثر من جنس الرجال، لأن كل رجل منهم له زوجتان، ولم يرد أن النساء من ولد آدم أكثر من الرجال.

ويدل على هذا أنه ورد فى بعض روايات حديث أبى هريرة هذا الصحيحة «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين»[١].

فهاتان الزوجتان من الحور العين لابد لكل رجل دخل الجنة منهما، وأما الزيادة على ذلك، فتكون بحسب الدرجات والأعمال، ولم يثبت فى حصر الزيادة على الزوجتين شىء.

وكذلك ورد فى الشهيد إذا استشهد أنه يتلده زوجتان من الحور العين؛ ولو كان أدنى أهل الجنة منزلة...» والله أعلم[٢].

• أصحاب النار وأصحاب الجنة •

عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ عز وجل خلقَ آدمَ ثم أخذَ الخلقَ من ظهره. وقال: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، وهؤلاء فى النَّار ولا أُبالى ـ قال فقال قائلٌ: يا رسولَ الله فعلى ماذا نعملُ؟ قَال: على مواقعِ القدرِ».

(صحيح الجامع:١٧٥٨).

قال الشيخ الألبانى فى سلسلته الصحيحة (جـ١/ ٥٠):

«إن كثيراً من الناس يتوهمون أن هذه الأحاديث ـ ونحوها أحاديث كثيرة ـ تفيد أن الإنسان مجبور على أعماله الاختيارية ما دام أنه حُكم عليه منذ القديم وقبل أن يُخلق بالجنة أو بالنار وقد يتوهم آخرون أن الأمر فوضى أو حظ فمن وقع فى القبضة اليمنى كان من أهل السعادة، ومن كان فى القبضة الأخرى كان من أهل الشقاوة فيجب أن يعلم هؤلاء جميعًا أن الله: ﴿ليس كمثله شىءٌ﴾ (الشورى:١١) لا فى ذاته ولا فى صفاته فإذا قبض قبضة فهى بعلمه وعدله وحكمته فهو تعالى قبض باليمنى على من علم أنه سيطيعه حين يؤمر بطاعته وقبض بالأخرى على من سبق فى علمه تعالى أنه سيعصيه

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٤٥) عن أبى هريرة بإسناد صحيح.

(٢) مختصر التخويف من النار (ص: ٧٢: ٧٤) بتصرف.

حين يؤمر بطاعته ويستحيل على عدل الله تعالى أن يقبض باليمنى على من هو مستحق أن يكون من أهل القبضة الأخرى والعكس بالعكس كيف والله عز وجل يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم:٣٥، ٣٦).

ثم إن كلاً من القبضتين ليس فيها إجبار لأصحابها أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار، بل هو حكم من الله تبارك وتعالى عليهم بما سيصدر منهم من إيمان يستلزم الجنة أو كفر يقتضي النار والعياذ بالله تعالى منها وكل من الإيمان أو الكفر أمران اختياريان لا يُكره الله تبارك وتعالى أحدًا من خلقه على واحد منهما ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

وهذا مشاهد معلوم بالضرورة ولولا ذلك لكان الثواب والعقاب عبثًا والله منزه عن ذلك.

• الحمى.. حظ المؤمن من نار جهنم •

إن العبد إذا كان يعيش على طاعة الله (عز وجل) وأصيب بالحُمى فإن الله يجعلها ـ برحمته ـ نصيبه من نار الآخرة.

قال ﷺ: «أبشر فإن الله تعالى يقول: هي ناري أُسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار يوم القيامة»[1].

• هذا نزلهم يوم الدين •

قال أبو عمران الجوني: بلغنا أن أهل النار يُبعثون عطاشًا ثم يقفون مشاهد القيامة عطاشًا، ثم قرأ: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (مريم:٨٧).... قال مجاهد في تفسير هذه الآية. متقطعة أعناقهم عطشًا.

قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الواقعة:٥١ ـ ٥٦)، والنُزل هو ما يُعد للضيف عند قدومه.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢).

وقال أيوب عن الحسن: ما ظنك بقوم قاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة حتى انقطعت أعناقهم عطشًا واحترقت أجوافهم جوعًا، ثم انصرف بهم إلى النار فيُسقون من عين آنية قد آن حرها واشتد نضجها.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد: عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة الطويل «إنه يقال لليهود والنصارى: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون في النار»[1].

* وعن أبي هريرة في قوله تعالى: «لواحة للبشر» قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحمًا على عظم إلا وضعته على العراقيب.

• (إبليس) أول من يكسى حلة من النار •

* عن أنس بن مالك [أن رسول الله ﷺ] قال:

«أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّة منَ النَّار إبْليسُ فَيضَعُهَا على حَاجبه أوْ حَاجِبَيْه - ويَسْحَبُهَا منْ بَعْده، وذُرِّيَّتُهُ منْ بَعْده - أوْ منْ خَلْفه - وَهُو يُنادي: يا ثُبُوراهُ، ويُنادُونَ يَا ثُبُورَهُمْ مَرتين، حَتَّى يقفُوا عَلَى النَّار، فَيَقُولُ: يا ثُبُوراهُ، ويقولُون: يا ثُبُورَهُمْ» فيُقَالُ لَهُمْ: ﴿لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُورًا واحدًا وادْعوا ثُبورًا كثيرًا﴾ (الفرقان:١٤)[2].

• النار يوم القيامة تسمع وتبصر وتتكلم!! •

* عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران، وأذنان يسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين»[3].

قال تعالى: ﴿بلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَة وأَعْتَدْنَا لمَن كَذَّبَ بالسَّاعة سَعيرًا ⦗١١⦘ إذَا رأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعيدٍ سَمعُوا لها تَغَيُّظًا وزَفيرًا﴾ (الفرقان:١١:١٢).

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح (٨/ ٩٨ - ح ٤٥٨١) ومسلم (٣/ ٣٢ - ح ١٨٣).

(٢) قال الهيثمي في المجمع (١٨٦١١): رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح غير علي بن زيد وقد وثق.

(٣) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٥١).

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك:٦:٨).

عن ابن عباس قال: إن العبد ليُجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف...... خرّجه ابن أبى حاتم.

وعن الضحاك قال: إن لجهنم زفرة يوم القيامة لا يبقى ملك مقرب، ولا نبى مرسل، إلا خرَّ ساجدًا يقول: رب نفسى نفسى.

• عينان لا تمسهما النار •

روى أبو هريرة عن النبى ﷺ قال: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع»[1].

وعن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار أبداً.... عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله»[2].

* بل إنه من السبعة الذين يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[3].

• بكاء أهل النار •

قال ﷺ: «يُرسَل البكاء على أهل النار فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يصير فى وجوههم كهيئة الأخدود لو أُرسلت فيها السفن لجرت»[4].

* * *

(١) رواه الترمذى وأحمد والنسائى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٧٧٧٨).
(٢) رواه أبو يعلى والضياء عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١١٣).
(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٦٠٣).
(٤) رواه ابن ماجه عن أنس وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٨٣).

• فداؤك من النار •

قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أعطى الله تعالى كل رجلٍ من هذه الأمة رجلاً من الكفار فيقال له: هذا فداؤك من النار»[١].

* وقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون:١٠:١١).

«ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزلٌ في الجنَّة، ومنزلٌ في النَّار، فإذا مات فدخل النَّار، ورث أهلُ الجنَّةِ منزلَه، فذلك قول: ﴿هُم الوارثُونَ﴾»[٢].

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خُلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أُمروا به مما خُلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل. وأبلغ من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قال: [يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى] وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: [إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهوديًا أو نصرانيًا، فيقال هذا فكاكك من النار] فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك، قال فحلف له][٣].

• أهون أهل النار عذابًا •

* وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا»[٤].

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذابًا

(١) أخرجه مسلم عن أبي موسى ـ صحيح الجامع (٧٧٨).

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٩٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٢).

(٤) رواه مسلم (٣/ ٨٦ ـ نووي).

أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه»[١].

* وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل توضع فى أخمص قدميه جمرة يغلى منها دماغه»[٢].

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذابًا ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه»[٣].

• يتمنى الكافر أن يفدى نفسه (من العذاب) بأهل الأرض جميعًا •

يا له من مشهد يخلع القلوب ويُفتت الجبال.

إنه مشهد رجل كافر يأتى يوم القيامة فيتمنى أن يفدى نفسه من عذاب النار بأولاده وزوجته وأخيه وعشيرته بل بأهل الأرض جميعًا.

قال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ (المعارج:١١: ١٨).

* بل إن الكافر لو جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا فلن يستطيع أن يفدى نفسه (بكل هذا الذهب) من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران:٩١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة:٣٦).

* * *

(١) رواه مسلم (٣/ ٨٥ ـ نووى).

(٢) رواه البخارى (١١/ ٤١٧ ـ فتح)، ومسلم (٣/ ٨٥ ـ نووى).

(٣) رواه مسلم (٣/ ٨٥ ـ نووى).

• الله يكلم أهون أهل النار عذابا •

قال ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقولُ لأهون أهلِ النار عذابًا: لوْ أنَّ لكَ ما في الأرض منْ شيء كنتَ تفتدي به؟ قالَ: نعم، قال: فقدْ سألتُك ما هو أهونُ منْ هذا وأنتَ في صُلبِ آدم أنْ لا تشركَ بي شيئًا فأبيتَ إلاَّ الشِّركَ!»[1].

• أول من تسعر بهم النار •

قال ﷺ: «إنَّ أولَ الناسِ يُقضى يومَ القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأُتيَ به، فعرَّفهُ نعمَهُ، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيكَ حتَّى استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنَّكَ قاتلتَ ليقالَ جريءٌ، فقد قيلَ، ثمَّ أمرَ به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجلٌ تعلمَ العلمَ وعلمَهُ، وقرأ القرآنَ، فأتي به فعرفه نعمهُ، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلمَ وعلمتهُ، وقرأت فيكَ القرآنَ، قالَ: كذبتَ، ولكنكَ تعلمتَ العلم ليقالَ عالمٌ، وقرأت القرآن ليقالَ: هو قارىءٌ فقد قيلَ، ثمَّ أمرَ به فسُحبَ على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ وسَّعَ الله عليه، وأعطاهُ من أصناف المال كُله، فأتي به فعرَّفهُ نعمهُ فعرفها، قالَ: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ منْ سبيلٍ يُحبُّ أنْ ينفقَ فيها إلا أنفقتُ فيها لكَ، قالَ: كذبتَ ولكنكَ فعلت ليقالَ: هوَ جوادٌ، فقدْ قيلَ: ثمَّ أمرَ بهِ فسحبَ على وجههِ، ثمَّ ألقي في النارِ»[2].

• تفاوت درجات العذاب على أهل النار •

قال تعالى عن أهل النار: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٨). وقال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ (ص:٦١).

* عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «منهم من تأخذه النار إلى

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أنس ـ صحيح الجامع (١٩١٢).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٢٠١٤).

كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته»[1].

* واعلم أن تفاوت أهل النار فى العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التى دخلوا بها النار، كما قال تعالى: ﴿ولكُلٍّ دَرَجَاتٌ ممَّا عملُوا﴾ (الأنعام:١٣٢)،..... وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وفَاقًا﴾ (النبأ:٢٦).... وقال ابن عباس: وافق أعمالهم، فليس عقاب من تغلظ كفره وأفسد فى الأرض ودعا إلى الكفر كمن ليس كذلك.

قال تعالى: ﴿الَّذينَ كفرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عذَابًا فوْقَ الْعَذَابِ بمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (النحل:٨٨).

وقال تعالى: ﴿ويوْمَ تقُومُ السَّاعَةُ أدْخلُوا آلَ فرْعوْنَ أشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦).

وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين فى النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكبائر كعقوبة أصحاب الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم العذاب بحسنات أخر له أو بما شاء الله من الأسباب.

* وأما الكفار إذا كان لهم حسنات فى الدنيا من العدل والإحسان إلى الخلق فهل يخفف عنهم بذلك من العذاب فى النار أم لا؟

وهذا فيه قولان للسلف وغيرهم... أحدهما ـ أنه يخفف عنهم بذلك أيضًا... وقد سبقت الأحاديث فى تخفيف العذاب عن أبى طالب بإحسانه إلى النبى ﷺ .

والقول الثانى: أن الكافر لا ينتفع فى الآخرة بشىء من الحسنات بحال، ومن حجة أهل هذا القول قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان:٢٣).

وعن أنس عن النبى ﷺ، قال: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة... يُعطى بها فى الدنيا ويُجزى بها فى الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»[2].

وفيه أيضًا عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله إن (ابن جدعان) كان فى الجاهلية

(١) أخرجه مسلم (٧/ ١٨٠ ـ نووى).

(٢) أخرجه مسلم عن أنس (١٧/ ٢١٩ ـ ح ٢٨٠٨).

يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه لأنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[١].

وهؤلاء جعلوا تخفيف العذاب عن أبي طالب من خصائصه بشفاعة النبي ﷺ له، وجعلوا هذه الشفاعة من خصائص النبي ﷺ لا يشركه فيها غيره[٢].

• زيادة أهل النار من العذاب •

وعن عبد الله بن مسعود في قول الله تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زِيدُوا عَقَارِبَ أَنيَابُهَا كَالنَّخْلِ الطِّوَالِ[٣].

* وعن ابن عباس أنه قالَ في قوْل الله تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قالَ: هِيَ خَمْسَةُ أنهارٍ تَحْتَ العَرْشِ يُعذَّبُونَ بِبعْضِهَا بالليْل وبِبعْضِهَا بِالنَّهار[٤].

• جملة من عذاب أهل النار •

وها هي جملة من أنواع وألوان العذاب الذي يُسلَّط على أهل النار في نار جهنم - أعاذنا الله وإياكم منها - فمن بين أنواع العذاب الذي يتعرضون له:

• تسويد وجوههم:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر:٦٠).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران:١٠٦).

• عذاب الصهر:

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان:٤٧:٤٩).

(١) أخرجه مسلم عن عائشة (٣/ ١٠٧ ـ ح ٢١٤).
(٢) مختصر التخويف من النار (ص: ٤٥: ٤٦).
(٣) قال الهيثمي في المجمع (١٨٦٠٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
(٤) قال الهيثمي في المجمع (١٨٦٠١): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

قال كثير من السلف: نزلت هذه الآية فى أبى جهل.

قال الأوزاعى: يؤخذ أبو جهل يوم القيامة فيخرق فى رأسه خرق، ثم يؤتى بسجل من الحميم فيصب فى ذلك الخرق، ثم يقال له: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

وقال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ (الحج:١٩:٢١).

● يسحبون على وجوههم فى النار:

ومن أنواع العذاب الذى يُصب على أهل النار أنهم يُسحبون على وجوههم فى النار.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر:٤٧، ٤٨).

وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (غافر:٧٠ـ ٧٢).

قال قتادة: يسحبون فى النار مرة وفى الحميم مرة. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ (الأحزاب:٦٦).

● تلفح وجوههم النار:

قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٤).

أى تحرقها بشدة حرها، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وهم فيها كالحون﴾ أى وهم فى جهنم عابسون مشوّهو المنظر.

قال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المُشيط بالنار، وفى الحديث (تشويه النارُ فتقلص شفته العليل حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السُفلى حتى تبلغ سُرته).

وقال أبو غندر الدمشقى، كان أويس إذا نظر إلى الرؤوس المشوية يذكر هذه الآية ﴿تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فيها كالحون﴾، فيقع مغشيًا عليه حتى يظن الناظرون إليه أنه مجنون.

● ينسى كل نعيم مع أول غمسة فى النار:

قال ﷺ: «يُؤتى بأنعمَ أهل الدُّنيا من أهل النار يومَ القيامة، فيُصبَغُ فى جهنم صبغَةً، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيتَ خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدُّنيا من أهل الجنة، فيُصبَغُ فى الجنة صبغةً، فيُقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب! ما مرَّ بى بؤسٌ قط، ولا رأيت شدَّةً قط»(١).

● يتمنى الموت ولا يجده:

قال تعالى: ﴿ويتجنَّبها الأشقى (١١) الذى يصلَى النار الكُبْرى (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فيها ولا يحيى﴾ (الأعلى:١١:١٣).

وقال تعالى: ﴿والَّذين كفرُوا لهُم نارُ جهنَّم لا يُقْضى عليْهِمْ فيمُوتُوا ولا يُخفَّفُ عنْهُم مِّنْ عذابها كذلك نجزى كُلَّ كفُورٍ﴾ (فاطر:٣٦).

وقال تعالى: ﴿يتجرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغُهُ ويأتيه الْموْتُ من كُلِّ مكانٍ وما هُو بميِّتٍ ومن ورائه عذابٌ غليظٌ﴾ (إبراهيم:١٧).

* وقال إبراهيم فى قوله: ﴿ويأتيه الْموْتُ من كُلِّ مكانٍ﴾ حتى من تحت كل شعرة فى جسده.

وقال الضحاك: حتى من إبهام رجليه، والمعنى أنه يأتيه مثل شدة الموت وألمه من كل جزء من أجزاء بدنه حتى شعره وظفره، وهو مع هذا لا تخرج نفسه فيستريح.

قال الأوزاعي عن بلال بن سعد: تنادى النار يوم القيامة: يا نار أحرقى يا نار اشتفى، يا نار أنضجى، كُلى ولا تقتلى.

وقال ﷺ: «أمَّا أهلُ النارِ الذينَ همْ أهلُها؛ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيونَ، ولكن ناسٌ أصابتهمُ النارُ بذنوبهم، فأماتتهم إماتةً، حتى إذا كانوا فحمًا أُذنَ بالشفاعةِ فجيءَ بهِم ضبائرَ ضبائرَ فبثُّوا على أنهارِ الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنةِ أفيضوا عليهم، فينبتون نباتَ الحِبةِ تكون فى حميل السيل»(٢).

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس ـ صحيح الجامع (٨٠٠٠).
(٢) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (١٣٥٠).

● منهم من يدور في النار ويجر أمعاءه:

وهذا مثلٌ لعالم من علماء السوء الذين كانوا يأمرون الناس بالمعروف ولا يفعلونه وينهون الناس عن المنكر ويفعلونه.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف:٢:٣).

وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[١].

● ومنهم من يقتل نفسه في النار كما فعل بنفسه في الدنيا:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن شرب سمًا فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»[٢].

● ومنهم من تأكله النار إلى فؤاده:

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ (الهمزة:٤ ـ ٧).

قال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ قال: تأكله النار إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده أُنشيء خلقه.

● ومنهم من له لسانان من النار:

وقد ورد أن بعضهم له لسانان من نار، ووجهان من نار، ففي «سنن أبي داود» عن

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٨١ ـ ح ٣٢٦٧) ومسلم (٨/ ١٥٩ ـ ح ٢٩٨٩).

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح (١٠/ ٢٥٨ ـ ح ٥٧٧٨) ـ ومسلم (٢/ ١٥٦ ـ ح ١٠٩).

عمار عن النبي ﷺ قال: «من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار»[١].

• ومنهم من تمسخ صورهم:

ومنهم من تمسخ صورته على صورة قبيحة........ وفي «الصحيح» أن إبراهيم - عليه السلام - إذا شفع في أبيه، قيل له: يا إبراهيم انظر ما وراءك، فإذا هو بذيخ ملطخ، فيؤخذ بقوائمه، ويلقى في النار»[٢]..... والذيخ: الضبع الذكر.

قال ابن مسعود: إذا أراد الله تعالى أن لا يُخرج منها أحدًا غيَّر صورهم وألوانهم فلا يعرف منهم أحد.

• ومنهم من يلقى في مكان ضيق:

ومنهم من يلقى في مكان ضيق لا يتمكن فيه من الحركة لضيقه،.. قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان:١٣)..... قال كعب: إن في جهنم تنانير ضيقها كضيق زج رمح أحدكم ثم يطبق على أناس بأعمالهم.

وعن سويد بن غفلة قال: إذا أراد الله أن ينسى أهل النار جعل للرجل صندوقًا على قدره من النار ولا ينبض عرق إلا فيه مسمار من نار، ثم تضرم فيه النار، ثم يقفل بقفل من نار، ثم يجعل ذلك الصندوق في صندوق من نار، ثم تضرم بينهما نار ثم يقفل، ثم يطرح - أو يلقى - في النار، فذلك قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ (الزمر:١٦)....... وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٠). قال: فما يرى أن في النار أحدًا غيره..... أخرجه البيهقي[٣].

• وعذابهم لا ينتهي أبدًا:

فعذاب أهل النار - الذين كتب الله عليهم الخلود فيها - لا ينتهي أبدًا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ

---

(١) صحيح بطرفه - رواه أبو داود (٢/ ٢٩٨) واللفظ له - السلسلة الصحيحة (٨٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤٤٥ - ح ٣٣٥٠).

(٣) مختصر التخويف من النار (ص: ٤٩).

عذابها كذلك نجزى كلَّ كفور﴾ (فاطر:٣٦).

وقال تعالى: ﴿إنَّ المُجْرِمينَ فى عذابِ جهنَّمَ خالدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفتَّرُ عنهُمْ وهُمْ فيه مُبْلسُون﴾ (الزخرف:٧٤:٧٥).

قال مبارك عن الحسن: ذكر الله السلاسل والأغلال والنار وما يكون فى الدنيا، ثم قرأ: ﴿وآخرُ من شكْله أزْواجٌ﴾ (ص:٥٨).

وقال أحمد بن أبى الحوارى: سمعت إسحاق بن إبراهيم يقول ـ على منبر دمشق ـ: لا يأتى على صاحب الجنة ساعة إلا وهو يزداد ضعفًا من النعيم لم يكن يعرفه،.... ولا يأتى على صاحب النار ساعة إلا وهو مستنكر لنوع من العذاب لم يكن يعرفه، قال الله عز وجل: ﴿فذُوقُوا فلَن نزيدكُمْ إلا عذَابًا﴾ (النبأ:٣٠).

• عظم خلق أهل النار وبشاعة منظرهم •

قال ﷺ: «إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا بذراع الجبار[١].

وإن ضرسه مثل أحد وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة»[٢].

* عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب السريع»[٣].

وخرّج مسلم أيضًا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ضرس الكافر ـ أو ناب الكافر ـ مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام»[٤].

وعن أبى هريرة أيضًا عن النبى ﷺ قال: «ضرس الكافر مثل أُحد، وفخذه مثل البيضاء، ومقعده من النار، كما بين قديد ومكة، وكثافة جلده اثنان وأربعون ذراعًا بذراع الجبار»[٥].

---

(١) أى جبار من جبابرة الآدميين ممن كان فى القرون الأولى ممن كان أعظم خلقًا وأطول ذراعًا من الناس ـ كذا فى المستدرك عن شيخه أبى بكر ابن إسحاق.

(٢) رواه الترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١١٤).

(٣) البخارى مع الفتح (١١/ ٤٢٣ ـ ح ٦٥٥١) ـ ومسلم (١٧/ ٢٧٢ ـ ح ٢٨٥٢).

(٤) أخرجه مسلم عن أبى هريرة (١٧/ ٢٧١ ـ ح ٢٨٥١).

(٥) رواه الترمذى وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٣٨٩١)ـ وهذا لفظ أحمد.

وفى رواية للحاكم: «وعرض جلده سبعون ذراعًا».

قال الحافظ المنذرى: وقد ورد أن من هذه لأمة من يعظم فى النار كما يعظم فيها الكافر، فروى ابن ماجه والحاكم وغيرهم من حديث عبد الله بن قيس قال: كنت عند أبي بريدة ذات ليلة فدخل علينا الحارث بن أقيش رضى الله عنه، فحدثنا الحارث لَيلَتئذ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أمتى من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مضر، وإن من أمتى من يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها»[1].

• كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب •

وقد يسأل سائل ويقول: وما السبب فى ضخامة جسد الكافر إلى هذا الحد؟ بل وما السبب فى كثافة جلده على وجه الخصوص؟.

والجواب: إن نار الآخرة كما وصفها الحبيب ﷺ أشد من نار الدنيا سبعين مرة ولا يتحملها جسد الإنسان فكان لا بد من تضخيم خلقة الكافر بشكل يتناسب مع حجم النار.

وأما عن كثافة الجلد ـ على وجه الخصوص ـ لأن مراكز الإحساس كلها لا تكون إلا فى الجلد فيكون الإحساس بلهيب النار من خلال الجلد ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:٥٦).

قال الحسن فى هذه الآية: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا.

• عذاب أهل النار المعنوى •

فهناك عذاب معنوى لأهل النار ـ فوق العذاب الحسى ـ.

* فمن عذابهم المعنوى أنهم إذا دخلوا النار يلعن بعضهم بعضًا.. قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف:٣٨).

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣٢٣) صفة النار والحاكم (١/ ٧) وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى وقال المنذرى وإسناده جيد وصححه الألبانى.

* ومن عذابهم المعنوى أنهم يسمعون خطبة إبليس فى النار وهو يعلن أنه خدعهم وزيّن لهم المعصية حتى وقعوا فى نار جهنم.... قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم:٢٢).

* ومن عذابهم المعنوى أن الملائكة تُبكتهم قبل أن يدخلوا إلى منازلهم فى نار جهنم... قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (الملك:٨:٩).

* ومن عذابهم المعنوى أن المؤمنين يسخرون منهم كما كانوا يسخرون منهم فى الدنيا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين:٢٩:٣٦).

* قال القرطبى: يقال لأهل النار وهم فى النار: اخرجوا، فتُفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها أغلقت دونهم، فيضحك منهم المؤمنون[1] ﴿هل ثُوِّب الكفَّار ما كانوا يفعلون﴾ أى هل جوزى الكفار فى الآخرة بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين من السخرية والاستهزاء؟ نعم.

* وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عز وجل وإبعادهم عنه وإعراضه عنهم وسخطه عليهم، كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة، وتجليه لهم ورؤيتهم إياه أعظم من جميع أنواع نعيم الجنة، قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٤ ـ ١٥).

---

(١) القرطبى (١٩/ ٢٦٨).

فكما حُجبت قلوبهم فى الدنيا عن الله حجبوا فى الآخرة عن رؤيته، وهذا بخلاف حال أهل الجنة..... قال الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ (يونس:٢٦)، والذين أحسنوا هم أهل الإحسان، والإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، كما فسره النبى ﷺ لما سأله عنه جبريل عليه السلام، فجعل جزاء الإحسان الحسنى وهو الجنة والزيادة وهى النظر إلى وجه الله عز وجل[1].

• النار لا تأكل أثر السجود •

قال ﷺ: «تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرَّم الله عز وجل على النار أن تأكل أثر السجود»[2].

وقال ﷺ: «إن أقوامًا يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارت وجوههم حتى يدخلون الجنة»[3].

ويا لها ـ والله ـ من كرامة فالنار تأكل كل جزء من جسد العبد ـ إن كان من عصاه الموحدين ـ إلا أثر السجود فى وجهه لأنه أكرم موضع فى جسده فهو موضع السجود والذل لخالق السماوات والأرض (جل وعلا).

• تلاعن أهل النار •

إن أهل النار إذا دخلوا النار يظن كل واحد منهم أن صاحبه كان سببًا فى دخوله النار، وهنا يبدأ التلاعن بينهم إضافة إلى عذابهم الذى لا يُخفف عنهم ولا ينتهى أبدًا فكلما دخلت أمة لعنت أختها. كما قال الحق تبارك وتعالى مصورًا لنا تلك المشاهد التى ستحدث يوم القيامة.

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف:٣٨:٣٩).

(١) مختصر التخويف من النار (ص: ٥١: ٥٢).
(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠٥).
(٣) أخرجه مسلم وأحمد عن جابر ـ صحيح الجامع (١٥٧٦).

ثم يذهب بنا القرآن إلى مشهد آخر فيقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾(الأحزاب:٦٤:٦٦).

إنها الحسرة على كل من فرَّط فى حق الله وفى شرع الله، وكل من سار على غير هدى رسول الله ﷺ.

فيا تُرى ما الذى جعلهم يبتعدون عن شرع الله وسنة رسول الله؟! ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٦٧:٦٨).

هكذا يتلاعنون فى النار ويدعوا بعضهم على بعض ويتمنى كل واحدٍ منهم للآخر زيادة الخزى والعذاب.

وكان السبب الرئيسى لهذا المشهد البئيس هو أنهم اتبعوا الرؤساء والقادة فى طرق الكفر والضلال. أما المؤمنون يقول عنهم الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(الحجر:٤٥:٤٨).

وتتوالى مشاهد الخزى والتلاعن بين أهل النار، فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾(غافر:٤٧:٥٠). فأيقن القادة والأتباع أنهم من أهل النار وعرفوا أنه الخلود والبوار فتوجهوا بهذا السؤال إلى خزنة النار ليشفعوا لهم عند ربهم ليخفف عنهم يومًا من عذاب النار.

يقول الحق جل وعلا مخبرًا أن الملائكة تبكت وتوبخ أهل النار قبل أن يدخلوا ويسكنوا منازلهم فى النار.

فقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا

نذيرٌ فكذَّبنا وقلنا ما نزَّل اللهُ من شيء ﴾ (الملك:٨:٩).

فجعلهم الله جل وعلا يُقرون على أنفسهم أنهم لم يدخلوا النار ظلمًا لأن الله هو الحَكَم العدل بل إنهم يعترفون على أنفسهم أنهم قد كذّبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم، وبذلك تقع الحُجة عليهم فيعرفون أن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون... وتأمل معى عذابهم وتلاعنهم فى هذا المشهد الذى يخبر عنه الحق جل وعلا.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ (ص:٥٥:٦١).

ثم يرون بعد ذلك الذين كانوا يسخرون منهم ويستهزءون بهم من أهل الإيمان قد فازوا بالرضا والرضوان ونجوا من غضب الواحد الديان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص:٦٢:٦٤).

وقد أخبر الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن هذا المشهد فى آيات كثيرة موضحًا مشهد سخرية الكفار من المؤمنين فى الدنيا وعقوبة الله للكافرين فى الوقت الذى يرحم فيه المؤمنين ويحل عليهم رضوانه ويدخلهم جنات النعيم. فقال تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٨:١١١). فحكم الله للمؤمنين بالفوز فى الجنة وحكم على الكافرين بالخسران ولم يأذن لهم بمجرد الكلام فقال: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ ثم سألهم الحق تبارك وتعالى سؤالاً عظيما، وذلك على وجه التوبيخ فقال جل وعلا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (المؤمنون:١١٢).

أى كم تمتعتم بالأموال والنساء والمناصب ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ (المؤمنون:١١٣) !! ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (المؤمنون:١١٤) والله ما

كانت تستحق تلك الدقائق والساعات أن تنسوا لقاء ربكم وتسخروا من أوليائه وتستكبروا من عبادة العزيز الجبار ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (المؤمنون:١١٥:١١٦).

• تحاور أهل الجنة وأهل النار •

وتعال معى أخى الكريم لنتأمل سويًا هذا المشهد المثير من مشاهد الآخرة إنه تحاور أهل الجنة وأهل النار.

فإنه إذا استقر أهل النار فى النار يذوقون عذابها ويشربون من حميمها ويأكلون من زقومها ينادى عليهم أهل الجنة وهم يشربون من أنهار الجنة ويأكلون من ثمارها ويقولون: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ (الأعراف:٤٤).

وهذا كما أخبر الله فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (الصافات: ٥٥:٥٩). أى ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال. وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور:١٤:١٦).

وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر (كما فى الصحيحين) فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يافلان ابن فلان يافلان ابن فلان: أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فقال عمر: يارسول الله ماتكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبى ﷺ «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لماأقول منهم (وفى رواية) ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يجيبون».

ولنرجع إلى تحاور أهل الجنة وأهل النار ... قال تعالى: ﴿فأذنّ مؤذن بينهم﴾ أى نادى مناد ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ ثم وصفهم الله تعالى بقوله ﴿الذين يصدون عن سبيل اللّه ويبغونها عوجًا﴾ أى يصدون عن سبيل الله·وعن شرعه ويبغون أن تكون

معوجة غير مستقيمة ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أى جاحدون مكذبون فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً.

ثم لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجابًا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة.

﴿وبينهما حجاب﴾ أى حاجز .... إنما سُمى الأعراف أعرافًا لأن أصحابه يعرفون الناس وأهل الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

قال حذيفة رضى الله عنه: عن أصحاب الأعراف هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٧). فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم.

قال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كُتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تُكتب إلا واحدة ثم قال: هلك من غلبت آحاده عشراته.

﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾ فعن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (الأعراف:٤٦).

أى فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلامًا عليكم ولكن لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها.

قال الحسن: والله ما جُعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها الله بهم ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٧). قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ وقال ابن مسعود: لما نظروا إلى أهل النار ورأوا منازلهم. تعوذوا بالله من منازلهم وقالوا ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ ثم يخبر تعالى عن تضرع أهل الأعراف وهم رجال تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم.

يخبر تعالى عن تقريعهم لأهل النار وهم رجال من صناديد قريش وصناديد المشركين وقادتهم ﴿ما أغنىٰ عنكم جمعكم﴾ كثرتكم ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ (الأعراف:٤٨). أى لا تنفعكم كثرتكم واستكباركم من عذاب الله الذى صرتم إليه وماتعانون من النكال ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ .

أى قال الله لأهل التكبر والأموال ﴿أهولاء﴾ أى أهل الأعراف ﴿الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾. فقال الله لأهل الأعراف: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ (الأعراف:٤٩). أى برغم أنوف الكافرين.

يقول حذيفة رضى الله عنه «كما ذكر الإمام ابن كثير فى تفسيره» بعد أن يذكر استشفاع أهل الأعراف بآدم ثم إبراهيم ثم بموسى ثم عيسى ثم محمدﷺ واعتذر الجميع إلا محمداً ﷺ فيقول «فيأتون فأضرب بيدى على صدرى ثم أقول أنا لها، فيشفع لهم كما جاء فى خبر حذيفة ثم يقول ﷺ «فآتى بهم الجنة فأستفتح فيفتح لى ولهم فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت فيغتسلون فيه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة».

فكل ماذكرناه آنفًا يمثل الجانب المشرق لأهل الإيمان الذين يتمتعون فى جنات النعيم ثم يأتى المشهد الثانى لأهل النار وهو مشهد الحسرة والذلة فنعوذ بالله من الحسرة والخزى والذلة.

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم. وطعامهم وأنهم لايجابون إلى ذلك فهذا معنى قوله تعالى ﴿ونادىٰ أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ (الأعراف:٥٠).

روى ابن أبى حاتم بسند صحيح عن ابن عباس أنه سئل أى الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ «أفضل الصدقة الماء. ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا ﴿أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾.

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يتعمدونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعبًا واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفتها عما أمروا به من العمل للآخرة.

﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ (الأعراف:٥١) أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شئ. ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿فى كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ (طه:٥٢). أي يتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

وفى الصحيح « إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أزوجك؟ ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى فيقول أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»[1].

والله يا إخواني إنها لمشاهد تتفطر لها القلوب الحية التي تخشى الله حق الخشية. فكيف بك يا عبد الله لا تعمل حتى تكون من أهل الجنة الذين ينادون على أهل النار ويقولون لهم ﴿إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا﴾ هل تريد أن تكون من أهل النار الذين ينادون وهم فى خشوع وذل ويقولون ﴿أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ فوالله للدنيا بمتاعها وكنوزها لا تساوى مشهدًا كهذا.

فلا تؤثر الفانى على الباقى ولا تجعل الدنيا تنسيك الآخرة واجتهد لفكاك رقبتك من النار قبل يوم الحسرة.

• مقارنة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار •

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[2].

أما أهل النار فليس لهم سوى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾.

بل إنه والله ما تعذّب أهل النار بعذاب أشد من حجبهم عن رؤية وجه الله عز وجل وما تلذذ أهل الجنة فى الجنة بنعيم أفضل من رؤية وجه الله عز وجل.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير لمحمد نسيب الرفاعى صـ٢٠٣: ٢٠٧، مجـ٢ بتصرف.

(٢) متفق عليه عن أبي سعيد الخدرى ـ صحيح الجامع (١٩١١).

قال ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ يقول الله تعالى تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ فيُكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم»(١).

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢:٢٣).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:٢٦).

فالحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله جل وعلا.

فالمؤمن يتلذذ برؤية وجه الله جل وعلا، أما الكافر فهو محجوب عن رؤيته سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥).

وعن أبي موسى رضي الله عنه (كما في الصحيحين) أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا».

فالمؤمن له خيمة من لؤلؤة مجوفة. أما الكافر فله أودية في قعر جهنم «وادي غي ووادي سقر وسجن بولُس ووادي ويل....». فشتّان بين الفريقين: فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.

والمؤمن يُداعب الحور العين ويتلذذ بهن ويتنعم مع كل واحدة منهن فلا يَملّها ولا تَملّه.

أما الكافر في النار فليس أمامه سوى الحيّات والعقارب والتلاعن بينه وبين قرنائه من أهل النار.

واسمع يا أخي وتجهّز لأن تكون من أهل الجنة. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ (الحجر:٤٥:٤٦).

أما الكفار ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ (ص:٥٩).

ويقول عن المؤمنين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧).

أما الكفار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف:٣٨).

---

(١) أخرجه مسلم عن صهيب ـ صحيح الجامع (٥٢٣).

وعن المؤمنين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الدخان:٥١:٥٣).

أما الكفار ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج:١٩:٢٢).

وعن المؤمنين: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (الدخان:٥٥).

وكذلك ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الواقعة:١٧:٢١).

أما الكفار ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الواقعة:٥١:٥٦).

وعن المؤمنين: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (الدخان:٥٦).

وأما الكفار ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (الأعلى:١٠:١٣).

فالمؤمن لا يموت إلا موتة واحدة ثم يحيا، ويتنعم في الجنة، أما الكافر في النار لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا فيتنعم فيا له من خزي ويا لها من حسرة.

ويقول الله جل وعلا عن المؤمنين: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين:٢٢:٢٣).

وكذلك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢:٢٣).

أما الكفار ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة ٢٤: ٢٥]

وكذلك ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين:١٥).

وعن المؤمنين ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (المطففين:٢٤).

أما الكفار ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ (المؤمنون:١٠٤).

وعن المؤمنين ﴿ يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٢٦) ومزاجه من تسنيم (٢٧) عينا يشرب بها المقربون ﴾ (المطففين ٢٥:٢٨).

وكذلك ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ (محمد:١٥).

أما عن الكفار ﴿ كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ (محمد:١٥).

﴿ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد (١٦) يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ (إبراهيم ١٦:١٧).

وعن المؤمنين ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ (مريم:٨٥).

أي راكبين على نوق الجنة عليها رخائم الذهب.

وعن الكفار ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ (مريم:٨٦).

أي يساقون كما تساق البهائم إلى جهنم وردا، أي عطاشا.... بل إنهم يتقون العذاب بوجوههم ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ (الزمر:٢٤).

وعن المؤمنين ﴿ سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ (محمد:٥:٦).

وعن الكفار ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ (مريم:٨٤).

﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ (الأعراف:١٨٣).

وعن المؤمنين ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾ (الإنسان:٢١).

وعن الكفار ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ (غافر:٧١:٧٢).

وعن المؤمنين ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم (٢٤) يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه

مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ (المطففين:٢٤:٢٦).

وعن الكفار ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا﴾ (الإسراء ٩٧).

بل وتعرف الملائكة أن هؤلاء هم أصحاب النار من غير أن تسأل عنهم؛ لأن ذلك يظهر على وجوههم ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ (الرحمن:٤١).

أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار كذلك.

وقال ابن عباس: فيؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنّور.

ولو استطردنا في الأمثلة لما انتهينا ولكن حسبنا ما قلناه في هذه المقارنة بين أحوال أهل النار وأهل الجنة! «أليس منكم رجل رشيد؟!!

فلابد أن نتجهز من الآن ونُعد العُدة فلا ندري متى يأتينا الموت... ولقد انتشر موت الفجأة الذي هو من علامات الساعة فلابد أن نتوب ونرجع قبل أن لا نستطيع أن نتوب!

يا نفس، قد أزف الرحيل وأظلك الخَطب الجليل

فتأهبي يا نفس لا يلعب بك الأمل الطويل

فلتنزلن بمنزلٍ ينسى الخليل به الخليل

وليركبن عليك فيه من الثرى ثقلٌ ثقيل

قُرن الفناء بنا جميعًا فما يبقى العزيز ولا الذليل

يا نفس قد أزف الرحيل

* يا نفس توبي قبل ألا تستطيعي أن تتوبي

واستغفري لذنوبك الرحمن غفّار الذنوبِ

إن المنايا كالرياح عليك دائمة الهبوب

والموت شرعٌ واحدٌ والناس مختلفوا الدروب

ولقلّما ينجو الفتى بتقاه من لُطَخ العيوب

يا نفس توبي قبل ألا تستطيعي أن تتوبي

* * *

• خمس دعوات لأهل النار •

قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل فى أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدًا.... يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر:١١) فيقول الله تعالى مجيبا لهم:﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر:١٢) ثم يقولون: ﴿ربنا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (إبراهيم:٤٤) فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر:٣٧) ثم يقولون ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون:١٠٦:١٠٨) فلا يتكلمون بعدها أبدًا وذلك غاية شدة العذاب.

قال مالك بن أنس رضى الله عنه: قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم:٢١).

قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مالنا من محيص﴾ .

• اخسئوا فيها ولا تكلمون •

لقد وصف الله تعالى حال أهل النار وهم يطلبون الخروج من النار فقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر:٣٧).

* ولكنهم قبل ذلك كله يطلبون من خزنة جهنم أن يشفعوا لهم عند ربهم ليخفف عنهم يومًا من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ

(٤٩) قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (غافر:٤٩: ٥٠).

فقالوا: ولماذا لا نلجأ لمالك (خازن النار) فأخذوا يصيحون ويقولون: ﴿يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ (الزخرف:٧٧).

قال الأعمش: نُبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك لهم ألف عام.

* وعن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل النار يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين عامًا، ثم يقول: ﴿إنكم ماكثون﴾، ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فلا يجيبهم مثل الدنيا، ثم يقول: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ ثم ييأس القوم فما هو إلا الزفير والشهيق تشبه أصواتهم أصوات الحمير أولها شهيق وآخرها زفير[١].

• آخر أهل النار خروجًا منها •

قال ﷺ: «إني لأعرفُ، آخر أهل النار خُروجًا من النار، وآخرَ أهلِ الجنة دُخولاً الجنَّة؛ رجلٌ يُؤتى به يومَ القيامة، فيُقالُ: اعرضوا عليه صغارَ ذُنوبه، وارفعوا عنهُ كبارهَا، فيُقال لهُ: عملتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا وعملتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا، فيقولُ: نعم، لا يستطيعُ أن يُنكرَ، وهو مُشفقٌ من كبار ذُنُوبه أن تُعرضَ عليه ليُقال لهُ: فإنَّ لكَ مكان كلِّ سيئة حسنةً، فيقولُ: ياربِّ عملتُ أشياء لا أراها ههُنا»[٢].

• ذبح الموت وخلود أهل الجنة وأهل النار •

قال تعالى: ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ (النحل:٢٩) وقال تعالى: ﴿إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ (طه:٧٤). وقال تعالى: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدًا فيها ذلك الخزي العظيم﴾ (التوبة:٦٣).

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالموت كهيئة

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٨٦٣٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي عن أبي ذر.

كبش أملح فينادى مناد: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت وكلهم قد رأوه ثم ينادى: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت. وكلهم قد رآه فيُذبح. ثم يقول. يا أهل الجنة ! خلودٌ فلا موت ويا أهل النار! خلود فلا موت ثم قرأ: وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضى الأمر وهم فى غفلة (وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا) وهم لا يؤمنون»[1].

وفى رواية أخرى فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جئ بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار ثم يُذبح ثم ينادى مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم ويزداد أهلُ النار حزنًا إلى حزنهم».

فيا لها من حسرة شديدة حيث يعلم الإنسان أنه من المخلدين فى النار فلا ماله ينفعه ولا ولده يشفع له ولا منصب ينجيه ولذا يقول أحد الصالحين والله لو علم أهل النار أنهم يمكثون فى النار مليون سنة لكانوا أسعد الناس فتعجب أحدهم وقال كيف ذلك؟ فقال له الرجل لأنهم يعلمون أنهم سيخرجون بعد مليون سنة ولكنهم سيخلدون فى النار.

ووالله إن أجسادنا لضعيفة لا تتحمل نار الدنيا فكيف بنار الآخرة التى هى أشد من نار الدنيا بسبعين مرة....... أوقد عليها ألف عام حتى احمرت وألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهى الآن سوداء قاتمة!!

فيالها من فرحة شديدة لأهل الجنان عندما يعرفون أنهم مخلدون فى الجنة يشربون من أنهارها ويأكلون من ثمارها وأشجارها ويتلذذون بالحور العين ثم يتم لهم النعيم الأعظم برؤية وجه الله عز وجل ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (القيامة ٢٢:٢٣).

دعونى على نفسى أنوح وأندب	بدمع غزير واكف يتصببُ
دعونى على نفسى أنوح فإننى	أخاف على نفسى الضعيفة تعطبُ
وإنى حقيق بالتضرع والبكا	إذا ما هدأ النوام والليل غيهبُ
وجالت دواعى الحزن من كل جانب	وغارت نجوم الليل وانقض كوكبُ
كفى أن عينى بالدموع بخيلة	وإنى بآفات الذنوب معذبُ

(١) متفق عليه عن أبى سعيد الخدرى - صحيح الجامع (٥٢٢).

فمن لى إذا نادى المنادى بمن عصى ... إلى أين الجانى إلى أين أهربُ؟

وقد ظهرت تلك الفضائح كلها ... وقد قرب الميزان والنار تلهبُ

فيا طول حزنى ثم يا طول حسرتى ... لئن كنت فى قاع الجحيم أعذبُ

فقد فاز بالملك العظيم عصابة ... تبيت قياما فى دجى الليل ترهبُ

إذا أشرف الجبار من فوق عرشه ... وقد زُينت حور الجنان الكواعبُ

فناداهم سهلاً وأهلاً ومرحبا ... أبحت لكم دارى وما شئتم اطلبوا

* * *

وصف الجنة

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

ولما علم الموفقون ما خُلقوا له وما أريد بإيجادهم رفعوا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رُفع لهم فشمروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول، ولا ينفذ بصبابة عيش، وإنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مَشُوب بالنَّغَص[1]، ممزوج بالغُصص[2]، وإن أضحك قليلاً أبكى كثيراً، وإن سر يومًا أحزن شهوراً، آلامه تزيد على لذاته، وأحزانه أضعاف مسراته، أوله مخاوف وآخره متالف، فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ عاقل، آثر الحظ الفاني الخسيس، على الحظ الباقي وباع جنة عرضها السموات والأرض، بسجن ضيق بين أرباب العاهات، والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، بأعطان[3] ضيقة آخرها الخراب والبوار، وأبكاراً عربًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان، بقذرات دنسات سيئات الأخلاق مسافحات أو متخذات أخدان وحوراً مقصورات في الخيام بخبيثات مسيبات بين الأنام، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين، ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم، بالتمتع برؤية الوجه القبيح الدميم، وسماع الخطاب من الرحمن، بسماع المعازف والغناء والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد، بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد، ونداء المنادي يا أهل الجنة: إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا وتحيوا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا[4] له وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين.

---

(١) (مشوب بالنغص): مخلوط بما يكدر أمره.

(٢) (ممزوج بالغصص): مخلوط بما يقف في حلقه فلا يكاد يسيغه. والمراد من ذلك كله أن لذات الحياة الدنيا ليست خالصة وإنما يخالطها دائمًا ما يكدرها.

(٣) (أعطان): جمع عَطن وهو مبرك الإبل، ومربض الغنم عند الماء.

(٤) (تظعنوا): ظَعَنَ ظَعْنًا وظُعُونا أي سار وارتحل.

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخرٌ عنه ولا متقدمُ
أجدُ الملامةَ فى هواك لذيذة حبًا لذكرك فليلمنى اللُّومُ

وإنما يظهر الغبن الفاحش فى هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسرة والندامة، إذا حُشر المتقون إلى الرحمن وفدًا وسيق المجرمون إلى جهنم وردًا، ونادى المنادى على رؤوس الأشهاد: ليعلمن أهل الموقف مَن أولى بالكرم من بين العباد، فلو توهم المتخلف عن هذه الفرقة ما أعد الله لهم من الإكرام، وادخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفى لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر، لعلم أى بضاعة أضاع، وأنه لا خير له فى حياته وهو معدود من سقط المتاع، وعلم أن القوم قد توسطوا ملكًا كبيرًا لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم فى جوار الكبير المتعال.

فهم فى روضات الجنة يتقلبون، وعلى أسرّتها تحت الحجال يجلسون، وعلى الفرش التى بطائنها من إستبرق يتكئون، وبالحورٓ العين يتنعمون، وبأنواع الثمار يتفكهون، ويطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يُصَدّعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون، ويطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون، تالله لقد نودى عليها فى سوق الكساد، فما قلَّب ولا استام[1] إلا أفراد من العباد. فواعجبًا لها كيف نام طالبها؟ وكيف لم يسمِحِ بمهرها خاطبها! وكيف طاب العيش فى هذه الدار بعد سماع أخبارها؟ وكيف قَرَّ للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها، وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟ وكيف صدفت[2] عنها قلوب أكثر العالمين؟ وبأى شىء تعوضت عنها نفوس المُعْرِضين؟

• شعر فى وصف الجنة •

ومـا ذاك إلا غيرةٌ أن ينالَها سوى كفئها والرب بالخلق أعلمُ
وإن حجبت عنا بكل كريهة وحفت بما يؤذى النفوس ويؤلمُ

(١) (فما قلَّبَ ولا استام): فما نظر فى هذه السلعة ولا سأل عن ثمنها يعنى الجنة.
(٢) (صدَفَت): أعرضت.

فلله مـا فـى حشوهـا مـن مسـر وأصنـاف لـذات بهـا يُتنعـمُ
ولله بـرد العيـش بـين خيامهـا وروضاتها والثغر فى الروض يَبسُمُ
ولله واديها الذى هـو موعـد المز يد لوفـد الحب لـو كنت منهـمُ
بذيالك الـوادى يهيـم صبـابة محـب يـرى أن الصبابة مغْنمُ
ولله أفـراحُ المحبيـنَ عندمـا يخاطبـهـم مَـنْ فوقهم ويسلِّمُ
ولله أبصـارُ تـرى الله جهـرةً فلا الضيـمُ يغشاهـا ولا هى تسأمُ
فيا نظرةً أهـدت إلى الوجـه نضـرةً أمـن بعدهـا يسلـوا المحبُ المتيـمُ
ولله كم من خيـرة إن تبسمت أضاء لها نـورٌ مـن الفجـر أعظـمُ
فيـا لـذةَ الأبصـار إن هـى أقبلت ويا لـذةَ الأسمـاع حين تكلـمُ
ويا خجلة الغصن الرطيبِ إذا انثنتْ ويا خجلةَ الفجرين حين تبسـمُ
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها فلـم يـبقَ إلا وصلهـا لك مرهـمُ
ولا سيمـا فى لثمها عنـد ضمها وقـد صار منها تحت جيدك معصـمُ
تراه إذا أبـدت لـه حسـن وجههـا يلـذ بـه قبـل الوصـال وينعـمُ
تفكه منهـا العين عنـد اجتلائهـا فواكه شتـى طلعها ليـس يعـدمُ
عناقيـد من كرم وتفـاح جنـة ورمان أغصان به القلب مغرمُ
وللورد ما قـد ألبسته خدودهـا وللخمر ما قـد ضمـه الريق والفمُ
تقسم منها الحسن فى جمع واحـد فيـا عجبًا من واحـد يتقسـمُ
لهـا فرق شتى من الحسن أجمعـت بجملتهـا إن السُلُوَ محـرمُ
تذكـر بالرحمـن من هـو ناظـر فينطـق بالتسبيـح لا يتلعثـم
إذا قابلت جيشَ الهموم بوجهها تولَّى على أعقـابه الجيشُ يهـزمُ
فيا خاطـب الحسنـاءِ إن كنت راغبًا فـهذا زمـان المهـر فهـو المقـدمُ
ولما جرى مـاء الشباب بغصنها تيقـن حقًا أنـه ليـس يهـرمُ
وكـن مبغضًا للخائنـات لحبهـا فتحظى بهـا من دونهـن وتنعمُ

وكن أيمًا ممن سواها فإنها ... لمثلك فى جنات عدن تأيمُ
وصمْ يومك الأدنى لعلك فى غد ... تفوزُ بعيد الفطرِ والناس صُوَّمُ
وأقدمْ ولا تقنع بعيشٍ منغصٍ ... فما فاز باللذاتِ منَ ليس يقدمُ
فحيٌّ على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلمُ
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه فهو مغرمُ
وأى اغتراب فوق غربتنا التى ... لها أضحت الأعداء فينا تحكمُ
وحىّ على السوق الذى فيه يلتقى المحـ ... ـبون ذاك السوق للقوم يعلمُ
فما شئت خذ منه بلا ثمن له ... فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
وحيٌّ على يوم المزيد الذى به ... زيارة رب العرش فاليوم موسمُ
وحيٌّ على وادٍ هنالك أفيح ... وتربتُه من إذفر المسك أعظمُ
منابرُ من نورٍ هنالك أفيح ... وتربته من إذفر المسك أعظمُ
وكثبان مسك قد جعلن مقاعدا ... لمن دون أصحاب المنابر يعلمُ
فبينا همو فى عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسمُ
إذا هم بنورٍ ساطع أشرقت له ... بأقطارها الجنات لا يتوهمُ
تجلى لهم رب السموات جهرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلمُ
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يسلمُ
يقول سلونى ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندى أننى أنا أرحمُ
فقالوا جميعًا نحن نسألك الرضا ... فأنت الذى تُولى الجميلَ وترحمُ
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرمُ
فيا بائعًا هذا ببخسٍ معجلٍ ... كأنك لا تدرى، بلى سوف تعلمُ
فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبةٌ ... وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظمُ[1]

(١) مختصر حادى الأرواح/ للإمام ابن القيم ـ تحقيق المصنف (ص: ١٦: ١٩).

• يا له من نعيم •

قال ﷺ: «لقيد سوط أحدكم من الجنة خيرٌ مما بين السماء والأرض»(١).

وقال ﷺ: «لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»(٢).

وقال ﷺ: «لو أن ما يقل ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السموات والأرض، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم»(٣).

• وفيها ما تشتهيه الأنفس •

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الزخرف:٧١).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يومًا يحدث وعنده رجل من أهل البادية: «أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال: أولست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع... فأسرع وبذر فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويره أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يُشبعك شيء، فقال الأعرابي: يا رسول الله، لا تجد هذا إلا قرشيًا أو أنصاريًا، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك رسول الله ﷺ»(٤).

* فيا من حرمت نفسك من شهوات الدنيا الفانية وعشت على طاعة الله (عز وجل) إعلم أنك إذا دخلت جنة الرحمن (جل وعلا) فإنك ستجد كل شيء تشتهيه نفسك... ولذلك لما سألوا الإمام أحمد (رحمه الله) وقالوا له: يا إمام متى الراحة؟ قال: لا راحة إلا في جنة الرحمن.

* * *

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٥٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٩٣) وأحمد (٢/ ٤٨٢) عن أبي هريرة.
(٣) رواه أحمد والترمذي عن سعد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٥١).
(٤) أخرجه البخاري (١٢/ ٧٥١٩).

• احتجاج الجنة والنار •

قال ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم، قال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله. تقول: قط قط فهنالك تمتلئ ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا»[1].

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «لا تزال جهنم يُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة»[2].

وأما اللفظ الذي وقع في صحيح البخاري في حديث أبي هريرة: «وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقى فيها فتقول هل من مزيد» فغلط من بعض الرواة.

فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه حجته وكذب رسله قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الملك: ٨ ـ ١٠)........ ولا يظلم الله أحدًا من خلقه.

• أسماء أهل الجنة وأهل النار •

قال ﷺ: «أتدرونَ ما هذان الكتابان؟ [فقالَ للذي في يده اليمنى] هذا كتابٌ من ربِّ العالمينَ، فيه أسماء أهل الجنةَ، وأسماءُ آبائهمْ وقبائلهمْ، ثم أجملَ[3] على آخرهم، فلا يزادُ فيهمْ، ولا يُنقصُ منهمْ أبدًا، [ثمَّ قالَ للذي في شماله] هذا كتابٌ من ربِّ العالمينْ، فيه أسماءُ أهلِ النار، وأسماءُ آبائهمْ وقبائلهمْ، ثم أجملَ على آخرهم، فلا يزادُ فيهمْ ولا يُنقصُ منهمْ أبدًا، سدِّدوا وقاربوا، فإنَّ صاحب الجنة يُختم لهُ بعملِ أهل الجنَّة، وإنْ عمل

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٨٥٠) ومسلم واللفظ له (١٧ ـ ٢٦٥ / ح ٣٦ الجنة).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣ / ٧٣٨٤) ومسلم واللفظ له (١٧ ـ ٢٦٨ / ح ٣٨ الجنة).

(٣) أي: أحصوا وجمعوا ولن يقبلوا زيادة.

أىَّ عمل، وإنَّ صاحب النارِ يختم له بعملِ أهلِ النارِ، وإنْ عملَ أىَّ عمل؛ فرغَ ربكم من العباد، ﴿فريقٌ فى الجنة وفريقٌ فى السعير﴾»[1].

• الجنة قريبة... فاجتهد •

قال ﷺ «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»[2].

فاجتهد أيها الأخ الحبيب... واجتهدى أيتها الأخت الفاضلة لتفوزوا بالنعيم والرضوان فى جنة الرحمن (جل وعلا).

• حُفت الجنة بالمكاره •

قال ﷺ «حُجبت النار بالشهوات وحُجبت الجنة بالمكاره»[3].

وفى رواية مسلم: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات».

وقال ﷺ «لما خلقَ اللهُ الجنةَ قالَ لجبريلَ: اذهب فانظر إليها، فذَهبَ فنظرَ إليها، ثمَّ جاءَ فقالَ: أىْ ربِّ! وعزَّتكَ لا يَسمعُ بها أحدٌ إلا دَخلَها، ثمَّ حفَّها بالمكاره، ثم قالَ: يا جبريلُ! اذهب فانظُر إليها، فذَهبَ، ثمَّ نظرَ إليها، ثمَّ جاءَ فقالَ: أى ربِّ! وعزَّتكَ لقدْ خَشيت أنْ لا يدخُلها أحدٌ، فلَّما خَلقَ الله النارَ، قالَ: يا جبريلُ! اذهبْ فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثمَّ جاء فقال: وعزَتك لا يَسْمَعُ بها أحدٌ فيدخلَها، فحفها بالشهوات، ثمَّ قال: يا جبريلُ اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها فقالَ: أى رب وعزَّتكَ لقدْ خشيت أن لا يبقى أحدٌ إلا دَخلَها»[4].

• كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبىَ •

قال ﷺ «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبىَ» قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى»[5].

---

(١) رواه أحمد والترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٨).

(٢) أخرجه البخارى وأحمد عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٣١١٥).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ وأخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن أنس.

(٤) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢١٠).

(٥) أخرجه البخارى عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٤٥١٣).

وقال ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شِراد البعير على أهله»[1]. فاللهم اجعلنا من أتباع حبيبك ﷺ.

• الدارُ الإسلام... والبيتُ الجنة •

قال ﷺ: «إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيل عند رجليَّ، يقولُ أحدهما لصاحبه: اضربْ له مثلاً، فقال: اسمع سمعت اذنُك، واعقلَ عقل قلبُكَ؛ إنما مثلكَ ومثلُ أمَتك كمثَلِ ملك اتخذ داراً، ثمَّ بنى فيها بيتاً، ثمَّ جعل فيها مائدةً، ثمَّ بعثَ رسولاً يدعو الناسَ إلى طعامه، فمنهم من أجابَ الرسولَ، ومنهم منْ تركهُ، فالله هو الملكُ، والدارُ الإسلامُ، والبيتُ الجنةُ، وأنتَ يا محمدُ رسولُ، منْ أجابكَ دخلَ الإسلامَ، ومن دخل الإسلام دخلَ الجنةَ، ومن دخل الجنةَ أكل ما فيها»[2].

• لن ندخل الجنة إلا برحمة الله (جل وعلا) •

قال ﷺ: «سَدِّدُوا وقاربوا وأبشروا واعلمُوا أنهُ لن يُدخلَ أحدكمُ الجنة عملهُ؛ قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا؛ إلا أنْ يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»[3].

وقال ﷺ: «لن يُدخلَ أحَداً عملهُ الجنة، ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني الله بفضلِ رحمته، فسدِّدُوا وقاربُوا، ولا يَتَمَنى أحدُكم الموْت، إمَّا مُحسِنٌ فلعلهُ يَزدادُ خيراً، وإمَّا مُسيءٌ، فلَعلَهُ أنْ يستعتِبَ»[4].

• أشياء نراها من الجنة •

وقد يسأل سائل ويقول: وهل هناك أشياء نراها فى هذه الدنيا وهى من الجنة؟.

والجواب: بلى هناك أشياء نراها وهى من الجنة وإليك بعضها.

* قال ﷺ «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله تعالى نورهما ولو

(١) رواه الطبراني في الأوسط والحاكم عن أبي أمامة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٧٠).
(٢) أخرجه البخاري والترمذي عن جابر ـ صحيح الجامع (٢٤٦٥).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن عائشة.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب»[١].

* وقال ﷺ: «الحجر الأسود من الجنة»[٢].

* وقال ﷺ: «بُطحان على بركة من بُرَك الجنة»[٣].

* وقال ﷺ: «قوائم منبرى رواتب فى الجنة»[٤].

* وقال ﷺ: «لولا ما مسَّ الحجر من أنجاس الجاهلية ما مسَّهُ ذو عاهة إلا شُفى وما على الأرض شىء من الجنة غيره»[٥].

• عقد ثمنه الجنة •

قال ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[٦].

ولذلك عرض الرب (جل وعلا) سلعته الغالية على عباده فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١١١).

• شبهة... والرد عليها •

وههنا أمر يجب التنبيه عليه وهو: أن الجنة إنما تُدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلاً بدخولها وإن كان سببًا. ولهذا فثبت الله تعالى دخولها بالأعمال فى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الزخرف:٧٢)، ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال بقوله: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله».

ولا تنافى بين الأمرين لوجهين:

---

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٣٣).

(٢) رواه أحمد عن أنس والنسائى عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٧٤).

(٣) رواه البزار عن عائشة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٢٧).

(٤) رواه أحمد والنسائى وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤١٢).

(٥) رواه البيهقى عن ابن عمرو وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٣٤).

(٦) رواه أبو نعيم والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

أحدهما، ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

والثانى، أن الباء التى نفت الدخول هى باء المعاوضة التى يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر، والباء التى أثبتت الدخول هى باء السببية التى تقتضى سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلاً بحصوله. وقد جمع النبى ﷺ بين الأمرين بقوله: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدخل أحداً الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة»[(١)][(٢)].

● تلك هى الجنة... فأين مهرها؟!!! ●

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه القيم «حادى الأرواح إلى بلاد الأرواح»: «وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ومُلكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره: وطهرها من كل عيب وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهى المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب».

وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب. وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل.

وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصفًّى. وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة فى صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها، فإنها تستفز

(١) أخرجه البخارى (١١/ ٦٤٦٧) ومسلم (١٧/ ٢٣٦ ـ ح ٧٨) واللفظ للبخارى.
(٢) مختصر حادى الأرواح (ص: ٥٦: ٥٧).

بالطرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المُجدّ السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير فى مُلكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفى عام.

وإن سألت عن خيامها وقبابها، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة، طولها ستون ميلاً فى السماء، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهى غُرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب فى الأفق الذى لا تكاد تناله الأبصار. وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة فى أعلى الرتب، وإن سألت عن أرائكها فهى الأسرّة عليها البشخانات وهى الحجال مزررة بأزرار الذهب، فما لها من فروج ولا خلال.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر. وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاث وثلاثين على صورة آدم عليه السلام أبى البشر، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبيين وأعلى منهما خطاب رب العالمين.

وإن سألت عن مطاياهم التى يتزاورون عليها، فنجائب إن شاء الله مما شاء تسير بهم، حيث شاء وا من الجنان. وإن سألت عن حليهم وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ على الرؤوس ملابس التيجان. وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون.

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم، فهن الكواعب الأتراب، اللائى جرى فى أعضائهن ماء الشباب، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، تجرى الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضىء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء فى تقابل النيّرين (الشمس والقمر) وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين. وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين، ويرى وجهه فى صحن خدها، كما يرى فى المرآة التى جلاها صقيلها، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها. لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحًا. وأفواه الخلائق تهليلاً وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن مَنْ

على ظهرها بالله الحى القيوم، ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيها، ولا يزداد على طول الأحقاب إلا حسنًا وجمالاً، ولا يزداد لها على طول المدى إلا محبة ووصالاً، مبرأة من الحمل والولادة والحيض والنفاس، مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يفنى شبابها، ولا تبلى ثيابها ولا يخلق ثوب جمالها، ولا يمل طيب وصالها، قد قصرت طرفها على زوجها، فلا تطمح لأحد سواه وقصر طرفه عليها فى غاية أمنيته وهواه، وإن نظر إليها سرته، وإن أمرها بطاعته أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو منها فى غاية الأمانى... هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جان، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورًا، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤًا منظومًا ومنثورًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورًا.

وإن سألت عن السن فأتراب فى أعدل سن الشباب، وإن سألت عن الحُسن، فهل رأيت الشمس والقمر، وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد فى أصفى بياض فى أحسن حَور، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان، وإن سألت عن النهود فهن الكواعب، ونهودهن كألطف الرمان، وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حُسن الخُلق فهن الخيرات الحسان، اللاتى جمع لهن بين الحسن والإحسان، فأعطين جمال الباطن والظاهر فهن أفراح النفوس وقرة النواظر. وإن سألت عن حُسن العشرة ولذة ما هنالك فهن العُرُب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعل التى تمتزج بالروح أى امتزاج.

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت فى وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها. وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت: هذه الشمس متنقلة فى بروج فلكها، وإذا حاضرت زوجها، فيا حُسن تلك المحاضرة، وإن خاصرته فيا لذة المعانقة والمخاصرة.

وإن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع، وإن آنست وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع. وإن قبّلت فلا شيء أشهى إليه من التقبيل، وإن نولت فلا ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل.

هذا وإن سألت عن يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترى الشمس فى الظهيرة والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه. فاستمع يوم ينادى المنادى: يا أهل الجنة، إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحى على زيارته، فيقولون: سمعًا وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين،

فإذا بالنجائب قد أُعدت لهم فيستوون على ظهورها مسرعين، وحتى إذا انتهوا إلى الوادى الأفيَح الذى جُعل لهم موعدًا. وجمعوا هناك فلم يغادر الداعى منهم أحدًا، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنُصب هناك، ثم نصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة. وجلس أدناهم وحاشاهم أن يكون فيهم دنى على كثبان المسك ما يرون أن أصحاب الكراسى فوقهم فى العطايا، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم نادى المنادى: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيِّض وجوهنا ويثقل موازيننا. ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار. فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه: وقد أشرف عليهم من فوقهم. وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى ويضحك إليهم، ويقول: يا أهل الجنة، فيكون أول ما يسمعون منه تعالى: أين عبادى الذين أطاعونى بالغيب، ولم يرونى، فهذا يوم المزيد، فيجتمعون على كلمة واحدة: قد رضينا فارض عنا، فيقول: يا أهل الجنة إنى لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتى. هذا يوم المزيد فاسألونى: فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليه. فيكشف لهم الرب جل جلاله الحُجب، ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا. ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة حتى إنه يقول: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ يذكِّره ببعض غدراته فى الدنيا، فيقول: يارب ألم تغفر لى؟ فيقول: بمغفرتى بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٢ ـ ٢٥).

فحى على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم[1]

* * *

(١) حادى الأرواح/ (ص: ٢٦٢: ٢٦٥) بتصرف.

• أسماء الجنة ومعانيها •

ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات.

الاسم الأول، الجنة، وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية ومنه الجنين لاستتاره في البطن والجان لاستتاره عن العيون والمجنون لاستتار عقله وتواريه عنه ومنه سمي البستان جنة؛ لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه.

الاسم الثاني، دار السلام، وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام:١٢٧). وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ (يونس:٢٥). وهي أحق بهذا الاسم، فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه، وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام الذي سلمها وسلم أهلها: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾ ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ (الرعد:٢٣، ٢٤). والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس:٥٧، ٥٨).

الاسم الثالث، دار الخلد، وسميت بذلك؛ لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:١٠٨). ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ (ص:٥٤). وقال: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد:٣٥). وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٨).

الاسم الرابع، دار المقامة، قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:٣٤، ٣٥).

قال مقاتل: أنزلنا دار الخلود، أقاموا فيها أبداً لا يموتون، ولا يتحولون منها أبداً.

الاسم الخامس، جنة المأوى، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ (النجم:١٥). والمأوى مفعل من أوى يأوى إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به. وقال عطاء عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة.

وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء.

والصحيح أنه إسم من أسماء الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠، ٤١). وقال في النار: ﴿فإن

الجحيم هي المأوى﴾.

الاسم السادس: جنات عدن: اسم لجملة الجنان وكلها جنات عدن.

قال تعالى: ﴿جنَّات عدْنٍ الَّتي وعد الرَّحْمنُ عبادهُ بالْغيْب﴾ (مريم:٦١).

والاشتقاق يدل على أن جميعها جنات عدن، فإنه من الإقامة والدوام يقال عدن بالمكان إذا أقام به، وعدنت البلد توطنته، وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه.

الاسم السابع: دار الحيوان: قال تعالى: ﴿وما هذه الْحياةُ الدُّنْيا إلاَّ لهْوٌ ولعبٌ وإنَّ الدَّار الآخرة لهي الْحيوانُ لوْ كانُوا يعْلمُون﴾ (العنكبوت:٦٤). المراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وإن الآخرة يعني الجنة لهي دار الحياة التي لا موت فيها.

الاسم الثامن: الفردوس: قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحات كانتْ لهُمْ جنَّاتُ الْفرْدوْس نُزُلاً (١٠٧) خالدين فيها لا يبْغُون عنْها حولاً﴾ (الكهف:١٠٧، ١٠٨) والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات. وأصل الفردوس: البستان.

الاسم التاسع: جنات النعيم: قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحات لهُمْ جنَّاتُ النَّعيم﴾ (لقمان:٨). وهذا أيضًا اسم جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج، والمساكن الواسعة. وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن.

الاسم العاشر: المقام الأمين: قال تعالى: ﴿إنَّ الْمُتَّقين في مقامٍ أمينٍ﴾ (الدخان:٥١). والمقام: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والمغص والنكد. وفي قوله تعالى: ﴿يدْعُون فيها بكُلِّ فاكهةٍ آمنين﴾ (الدخان:٥٥). فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتًا.

الاسم الحادي عشر والثاني عشر: مقعد الصدق، وقدم الصدق: قال تعالى: ﴿إنَّ الْمُتَّقين في جنَّاتٍ ونهرٍ (٥٤) في مقْعد صدْقٍ﴾ (القمر:٥٤، ٥٥). فسمى جنته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها[1].

---

(١) مختصر حادي الأرواح (ص: ٥٩: ٦٢).

• وربك يخلق ما يشاء ويختار •

وقد اتخذ الرب تعالى من الجنان داراً اصطفاها لنفسه وخصها بالقرب من عرشه وغرسها بيده، فهي سيدة الجنان، والله سبحانه وتعالى يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من الملائكة جبريل، ومن البشر محمداً ﷺ، ومن السموات العليا، ومن البلاد مكة، ومن الأشهر المحرم، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم الجمعة، ومن الليل وسطه، ومن الأوقات أوقات الصلاة، إلى غير ذلك فهو سبحانه وتعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص:٦٨).

قال عبد الله بن عمر: «خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش والقلم وعدن وآدم ـ عليه السلام ـ ثم قال لسائر الخلق كن فكان»[١].

وعن كعب قال: «لم يخلق الله بيده غير ثلاث: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده. ثم قال لها: تكلمي. قالت: قد أفلح المؤمنون»[٢].

• هؤلاء أهل الجنة •

لقد ذكر الله (عز وجل) ورسوله ﷺ بعض مواصفات أهل الجنة.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران:١٣٣:١٣٦).

فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين.

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠). فأخبر تعالى أنه أعدها للمهاجرين والأنصار وأتباعهم بإحسان،

---

(١) أخرجه الحاكم عن ابن عمر موقوفًا (٢/ ٣١٩) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) مختصر حادي الأرواح (ص: ٦٤: ٦٥).

فلا مطمع لمن خرج عن طريقتهم فيها (أى فى الجنة).

قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب، اذهب فناد فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[1]. قال: فخرجت فناديت أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

وعن عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال: «..... وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال....»[2].

وعن حارثة بن وهب قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة، ؟ قالوا: بلى. قال ﷺ: «كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا: بلى. قال: «كل عُتُلٍّ جواظ مستكبر»[3].

وفى رواية لأحمد: «.... وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون».

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبى فى الجنة، والشهيد فى الجنة، والصدّيق فى الجنة والمولود فى الجنة والرجل يزور أخاه فى ناحية المصر فى الله فى الجنة. ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟: الودود الولود العؤود التى إذا ظُلمت قالت: هذه يدى فى يدك لا أذوق غمضًا حتى ترضى»[4].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة من ملأ الله تعالى أذنيه من ثناء الناس خيرًا وهو يسمع، وأهل النار من ملأ الله تعالى أذنيه من ثناء الناس شرًا وهو يسمع»[5].

وقال ﷺ: «يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار، قالوا:بم ذاك يا رسول الله ؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيئ أنتم شهداء الله بعضكم على بعض»[6].

* * *

(١) أخرجه مسلم (جـ٢/ ١٦٧ ـ ح ١٨٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٢) مسلم (١٧/ ٢٨٧ ـ ح ٦٣) ، وأحمد (جـ ٤ ص ١٦٢). ـ صحيح الجامع (٢٦٣٧).

(٣) البخارى (جـ٨/ ٤٩١٨ ـ فتح البارى)، مسلم(١٧/ ٢٧٢ ـ ح ٤٦) .

(٤) رواه الدارقطنى فى «الأفراد»، والطبرانى فى الكبير كلاهما عن كعب بن عجرة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٢٦٠٤).

(٥) رواه ابن ماجه عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٧).

(٦) رواه ابن ماجه (٢/ ٤٢١١)، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجه.

• أبواب الجنة الثمانية.. ومضاعفة الرزق للمؤمن •

قال الإمام ابن القيم: فرِّغ خاطرك للهمِّ بما أُمرتَ به ولا تشغله بما ضُمن لك؛ فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان فما دام الأجل باقيًا كان الرزق آتيًا. وإذا سدَّ عليك بحكمته طريقًا من طرقه فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه.

فتأمَّل حال الجنين يأتيه غذاؤه، وهو الدم، من طريق واحد وهو السرة، فلمًّا خرج من بطن الأم، وانقطع ذلك الطريق، فتح له طريقين اثنين، وأجرى له فيهما رزقًا أطيب وألذ من الأول لبنًا خالصًا سائغًا. فإذا تمت مدة الرضاع، وانقطع الطريقان بالفطام، فتح طُرقًا أربعًا أكمل منها: طعامان وشرابان، فالطعامان من الحيوان والنبات، والشرابان من المياه والألبان، وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربع. لكنه سبحانه فتح له ـ إن كان سعيداً ـ طرقًا ثمانية، وهى أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيُّها شاء.

فهكذا الرب سبحانه، لا يمنع عبده المؤمن شيئًا من الدنيا، إلا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له، وليس ذلك لغير المؤمن. فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس. والعبد لجهله بمصالح نفسه، وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه، لا يعرف التفاوت بين ما مُنع منه وبين ما ذُخر له، بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئًا، وبقلة الرغبة فى الآجل وإن كان عليًا. ولو أنصف العبدُ ربه، وأنَّى له بذلك؟! لَعلمَ أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه. فـ ﴿ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الفرقان:٦٢) ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ (الإسراء:٩٩) والله المستعان[١].

• الوسيلة.. أعلى منزلة فى الجنة للنبى ﷺ •

والوسيلة هى أعلى منزلة فى جنة الرحمن جل وعلا وهى من نصيب حبيب الرحمن محمد بن عبد الله ﷺ.

---

(١) الفوائد للإمام ابن القيم (ص: ٨٧: ٨٨) ط. دار الخانى.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ (البقرة:٢٥٣).

قال مجاهد وغيره: منهم من كلم الله (موسى)، ورفع بعضهم درجات، هو محمد ﷺ.

وفي حديث الإسراء المتفق على صحته: أنه ﷺ لما جاوز موسى قال: «رب لم أظن أن ترفع عليَّ أحدًا»، ثم علا فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاوز سدرة المنتهى.

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة»[1].

• قصر النبي ﷺ في جنة عدن •

ولابد أن نعلم أن للنبي ﷺ قصورًا كثيرة في الجنة، ومن بينها قصره في (جنة عدن).

ففي الحديث الذي رواه البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجالٌ شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطرٌ كأقبح ما أنت راء قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة. قالا لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك. قالا: أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن، وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، تجاوز الله عنهم»[2].

• قصر مثل الربابة البيضاء •

وفي رواية أخرى في البخاري: قال ﷺ: «.... فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أرَ روضةً قطُّ أعظم منها ولا أحسن قال: قالا لي: ارق فيها قال: فارتقينا فيها فانتهينا إلى

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١١٢ ح١١) وأبو داود (١/ ٥٢٣) وأحمد (٢/ ١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في «التفسير»، باب: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم، خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا﴾ (٨/ ١٩٢)، (ح ٤٦٧٤).

مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففُتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطرٌ كأقبح ما أنت راء، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعُوا فى ذلك النهر. قال: وإذا نهرٌ مُعترضٌ يجرى كأنَّ ماءهُ المحضُ فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم فصاروا فى أحسن صورة قال: قالا لى: هذه جنة عدن وهذاك منزلك قال: فسما بصرى صُعُدًا، فإذا قصرٌ مثلُ الربابة البيضاء. قال: قالا لى: هذاك منزلك قال: قلتُ لهما: بارك الله فيكما ذرانى فأدخلهُ. قال: قالا: أما الآن فلا وأنت داخله...».

• قصرٌ على نهر الكوثر •

وجاء فى رواية أخرى فى البخارى أن للنبى ﷺ قصرًا على نهر الكوثر.

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن النبى ﷺ قال - فى جزء من حديث -: «.... ما هذانِ النهرانِ يا جبريل؟ قال: هذا النيل والفُراتُ عُنصرُهُمَا ثُم مضى به فى السماء فإذا هو بنهر آخرَ عليه قصرٌ من لؤلؤ وزبرجد فضرب يده فإذا هو مسكٌ أذفرُ قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذى خَبأ لك ربّك....».

• منزل مثل السحاب لسيد الأحباب ﷺ •

وفى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه عن سمرة ابن جندب قال: «كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد قصها، فيقول ما شاء الله. فسألنا يومًا فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا. قال: لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذا بيدى فأخرجانى إلى الأرض المقدسة، فإذا رجلٌ جالسٌ ورجلٌ قائم بيده كَلُّوب من حديد..... - إلى أن قال -: فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخٌ وصبيان، وإذا رجلٌ قريب من الشجرة بين يديه نارٌ يوقدها فصعدا بى الشجرة وأدخلانى دارًا لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجانى منها فصعدا بى الشجرة فأدخلانى دارًا أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب. قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت. قالا: نعم. أما الذى رأيته يشق شدقه.... - إلى أن قالا -: «والدار الأولى التى دخلت دار عامة المؤمنين. وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل وهذا ميكائيل. فارفع رأسك. فرفعت رأسى، فإذا فوقى مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك. قلت: دعانى

أدخل منزلي. قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أُتيت منزلك»[١].

• بيت في الجنة من قصب لخديجة (رضي الله عنها) •

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[٢].

والقصب: المراد به قصب اللؤلؤ المجوف.

قال السهيلي: النكتة في قوله: «من قصب» ولم يقل: من لؤلؤ؛ أن في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث[٣] اهـ.

وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها، إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها.

وقال السهيلي: لذكر البيت معنىً لطيف؛ لأنها كانت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها. قال: وجزاء الفعل يذكر غالبًا بلفظه، وإن كان أشرف منه، فلهذا جاء الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر اهـ.

ويلوح الجزاء من جنس العمل في قول الرسول ﷺ: «لا صخب فيه ولا نصب»، فالصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت، والنصب: التعب.

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين ـ أعني المنازعة والتعب ـ أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابته خديجة طوعًا، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها. اهـ[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) كتاب الجنائز.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) فتح الباري (٧/ ١٧١ ـ ١٧٢).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٧٢)، وفيض القدير للمناوي.

• قصر عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) •

عن بريدة رضى الله عنه قال: «دعا رسول الله ﷺ بلالاً، فقال: يا بلال بِمَ سبقتنى إلى الجنة؟ إنى دخلت الجنة البارحة فسمعت خشخشتك أمامى، فأتيت على قصر من ذهب مُربع فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: فأنا محمد. لمن هذا القصر؟ قالوا لرجل من العرب. قلت: أنا عربى. لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من قريش. قلت: فأنا قرشى، لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب. فقال بلال: يا رسول الله ما أذّنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابنى حَدَثٌ قط إلا توضأت عندها، فقال رسول الله ﷺ: بهذا»[1].

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «رأيتُنى دخلتُ الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة وسمعت خشفةً، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيتُ قصراً بفنائه جاريةٌ فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردتُ أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غَيرتك. فقال عمر: بأبى وأمى يا رسول الله أعليك أغار»[2].

• عدد أبواب الجنة وصفتها •

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر:٧٣).

وقال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ (ص:٤٩:٥٠).

وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:٢٣:٢٤).

وقال ﷺ: «الجنة لها ثمانية أبواب والنار لها سبعة أبواب»[3].

* وعن خليد عن قتادة قال: أبواب يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٠) والترمذى (٣٦٨٩) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٨٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه البخارى (٣٦٧٩) ومسلم مختصراً (٢٤٥٧).

(٣) رواه ابن سعد عن عتبة بن عبد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١١٩).

تتكلم وتكلم، وتفهم ما يقال لها، انفتحى انغلقى.

وفى حديث الشفاعة الطويل قال رسول الله ﷺ: «فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها»[1]، وهذا صريح فى أنها حلقة حسية تحرك وتقعقع.

• سعة أبوابها •

عن أبى هريرة - فى آخر حديث الشفاعة - قال ﷺ: «... فأقول: يارب أمتى أمتى، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن، من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبُصرى»[2].

* وقال ﷺ: «إن ما بين مصراعين فى الجنة لمسيرة أربعين سنة»[3].

ولما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض، كانت أبوابها كذلك، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التى تحتها، وكلما علت الجنة اتسعت، فعاليها أوسع مما دونه... وسعة الباب، بحسب وسع الجنة، ولعل هذا وجه الاختلاف الذى جاء فى مسافة ما بين مصراعى الباب، فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض.

• نداء من أبواب الجنة الثمانية •

إن الغاية التى يسعى إليها كل مؤمن أن يدخل الجنة، وأن ينجو من عذاب النار، فهذا هو الفوز الحقيقى مصداقًا لقول الله عز وجل: ﴿فمن زُحْزِح عن النَار وأُدْخل الْجنَّة فقدْ فاز وما الْحياةُ الدُّنْيا إلاَّ متاعُ الْغُرُور﴾ (آل عمران:١٨٥).

فما ظنك بمن يأتى يوم القيامة ويجد أن أبواب الجنة الثمانية تنادى عليه ليدخل من أى الأبواب شاء؟! فيا تُرى

* * *

(١) أخرجه الترمذى (٤/ ١٤٠) والدارمى (١/ ٢٧) - السلسلة الصحيحة (١٥٧٠).

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى.

(٣) رواه أحمد وأبو يعلى عن أبى سعيد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٩٠).

• من الذين ينادى عليهم من أبواب الجنة الثمانية!!! •

وسوف أسوق لحضراتكم باقة من الأحاديث العطرة التى تخبرنا عن هذا الصنف المبارك الذى يُنادى عليه من أبواب الجنة الثمانية.

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين فى سبيل الله، نُودى من أبواب الجنة، يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان ومن كان من أهل الصدقة دُعى من باب الصدقه». فقال أبو بكر رضى الله عنه: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما على من دعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[(١)].

وعن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ قال: «ما منكم من أحد توضأ فيُبلغ (أو فيسبغ) الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» زاد الترمذى بعد التشهد: «اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين»[(٢)].

وعن عتبة بن عبد الله السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث، إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية، من أيها شاء دخل»[(٣)].

* وعن عُتبَة بن عَبْد السُّلَمىّ ـ وكان من أصحاب النبى ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «القَتْلُ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ مؤمنٌ جَاهَدَ بنَفْسه وَمَاله فى سَبيلِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حَتَّى إذا لَقِىَ العَدُوَّ قَاتَلَهُمْ حتَّى يُقتَلَ، فذلكَ الشَّهيدُ المُفْتخرُ فى خَيمة الله ـ عز وجل ـ تَحتَ عَرْشه لا يَفْضُلُهُ النَّبيُّونَ إلا بدَرَجة النُّبوة، وَرَجُلٌ مُؤمنٌ قَرَفَ عَلى نفسه من الذُّنوب والخَطَايَا جَاهَدَ بنَفْسه وَماله فى سبيل الله حتى إذا لَقِىَ العَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتلَ فمَصْمَصَةٌ[(٤)] مَحَتْ

(١) أخرجه البخارى (جـ ٤/ ١٨٩٧ ـ فتح البارى). ومسلم (٧/ ١٦٢ ـ ح ٨٥) واللفظ للبخارى.
(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٩ ـ ح ١٧) وأحمد وأبو داود ـ صحيح الجامع (٥٨٠٣).
(٣) رواه أحمد عن عتبة بن عبد وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٧٢).
(٤) مصمصة: أى مُطهرة.

ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ، إنَّ السَّيْفَ محَّاءٌ للخَطَايَا، وأُدخلَ منْ أى أَبواب الجَنة شاءَ، فإن لها ثَمانيةَ أبواب، ولجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أبواب، وبَعْضُهَا أفضلُ من بَعض، وَرَجُلٌ مُنافقٌ جَاهدَ بنفسه وماله حتَّى إذا لقى العَدُوَّ قَاتَلَ فى سبيلِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حتَّى يُقتَلَ، فذَلك فى النَّار، إنَّ السَّيْفَ لا يَمْحُو النِّفَاقَ»[1].

* وعن عبادة رضى الله عنه؛ أن النبى ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌ، والنار حقٌ؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، وفى رواية: «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت زوجها. قيل لها: ادخلى الجنة من أى أبواب الجنة شئت»[3].

• تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين والخميس •

قال ﷺ: «تُفتح أبواب الجنَّة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفرُ لكل عبد مسلم لا يشرك بالله شيئًا؛ إلا رجلاً بينه وبين أخيه شحناء، فيُقالُ: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»[4].

* ولذلك كان الحبيب ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس.

قال ﷺ: «تُعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس فأحب أن يُعرض عملى وأنا صائم»[5].

* * *

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٩٥١١): رواه أحمد والطبرانى إلا أنه قال: «وادخلَ منْ أى أبْواب الجَنة شَاءَ، ولَها ثَمانيَة أبْواب وبَعضُها أفضلُ مِنْ بَعض». ورجال أحمد رجال الصحيح خلا المثنى الأملوكى (أو: المليكى) وهو ثقة.

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٤٧٤/ فتح) ومسلم (١/ ٢٢٧/ نووى).

(٣) رواه ابن حبان عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٠).

(٤) أخرجه مسلم (١٦/ ١٢٢ ـ نووى).

(٥) رواه النسائى عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٥٩).

• ويدخلهم الجنة عرّفها لهم •

إن الإنسان إذا ما ذهب لزيارة إخوانه فى الدنيا أو أقاربه، فقد لا يتمكن من الوصول إليه وقد لا يعرف بيته.

أما فى الجنة فإن الذى يُعرفك بيتك هو الله جل وعلا... قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد:٦).

بل قال ﷺ: «... فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم بمسكنه فى الجنة أدلُّ منه بمسكنه كان فى الدنيا»[١].

قال مجاهد: يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا لا يستدلون عليها أحدًا.

وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح: «هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم»... هذا قول جمهور المفسرين وتلخيص أقوالهم ما قاله أبو عبيدة: عرّفها أى بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال.

• أول من تفتح له أبواب الجنة •

قال ﷺ: «أنا أول الناس يشفع فى الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»[٢].

وقال ﷺ: «أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها»[٣] ـ أى: أحركها.

* وعن أنس بن مالك رضى الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة، وأنا أولُ من يقرع باب الجنة»[٤].

* وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «آتى باب الجنَّة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت، لا أفتح لأحد قبلك»[٥].

---

(١) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى سعيد ـ صحيح الجامع (٥١٠).
(٢) أخرجه مسلم عن أنس ـ صحيح الجامع (١٤٥٧).
(٣) رواه أحمد والترمذى وأنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٥٩).
(٤) رواه مسلم (٣/ ٧٣ ـ نووى).
(٥) رواه مسلم (٣/ ٧٣ ـ نووى).

وقال ﷺ: «أنا أول من يفتح الجنة، فإذا امرأة تبادرنى فأقول من أنت؟ فتقول: أنا امرأة تأيمت على أيتام لى»(١).

فقوله تبادرنى: أى لتدخل معى أو تدخل فى أثرى، ويحتمل أن يكون المراد مجموع الأمرين: سرعة الدخول وعلو المنزلة.... فيا له من مشهد جليل وشرف عظيم.

● أول من يدخل الجنة ●

قال ﷺ: «اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء...»(٢).

ولذلك فإن الله (عز وجل) يَجبر لهم كَسرهم فى الآخرة وذلك بأن يُدخلهم الجنة قبل أغنياء المؤمنين بخمسمائة سنة.

قال ﷺ: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»(٣).

وفى رواية قال ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا»(٤).

وقال ﷺ: «أتعلمُ أولُ زمرة تدخلُ الجنةَ من أمتى؟ فقراءُ المهاجرينَ، يأتون يومَ القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحونَ، فيقولُ لهمْ الخزنةُ: أوقدْ حوسبتمْ؟ قالوا بأىِّ شىء نحاسبُ، وإنما كانتْ أسيافُنا على عواتقنا فى سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ فيفتحُ لهمْ فيقيلون فيها أربعين عامًا، قبلَ أن يدخلها الناسُ»(٥).

* ولكن ههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يلزم من سبقهم لهم فى الدخول ارتفاع منازلهم عليهم، بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة، وإن سبقه غيره فى الدخول. والدليل على هذا أن من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب، وهم السبعون ألفًا، وقد يكون بعض من يحاسَب أفضل من أكثرهم والغنى إذا حوسب على غناه فوجد قد شكر الله تعالى فيه وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف كان أعلى درجة من الفقير الذى سبقه فى الدخول، ولم يكن له تلك الأعمال، ولا سيما إذا شاركه الغنى فى

---

(١) رواه أبو يعلى عن أبى هريرة وقال ابن حجر فى الفتح: وإسناده لا بأس به.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن ابن عباس ـ والبخارى والترمذى عن عمران بن حصين.

(٣) رواه الترمذى عن أبى سعيد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢٢٨).

(٤) أخرجه مسلم عن ابن عمرو ـ صحيح الجامع (٢١١٨).

(٥) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عمرو وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٦).

أعماله وزاد عليه فيها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً[١].

• باب من أبواب الجنة •

* قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟» قلت: بلى، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[٢]، وقد جعل الله لكل مطلوب مفتاحًا يفتح له، فجعل مفتاح الصلاة الطهور. كما قال ﷺ «مفتاح الصلاة الطهور» ومفتاح الحج الإحرام، ومفتاح البر الصدق، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء، ومفتاح النصر والظفر الصبر، ومفتاح المزيد الشكر، ومفتاح الولاية المحبة والذكر، ومفتاح الفلاح التقوى، ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة الدعاء، ومفتاح الرغبة فى الآخرة الزهد فى الدنيا، ومفتاح الإيمان التفكير فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، ومفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته له والإخلاص له فى الحب والبغض والفعل والترك، ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب، ومفتاح حصول الرحمة والإحسان فى عبادة الخالق والسعى فى نفع عبيده، ومفتاح الرزق السعى مع الاستغفار والتقوى، ومفتاح العز طاعة الله ورسوله، ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل، ومفتاح كل خير الرغبة فى الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل[٣].

• باب الريان للصائمين •

قال ﷺ: «إنَّ فى الجنَّة بابًا يقالُ لهُ: الريَّانُ، يدخُلُ منهُ الصائمونَ يومَ القيامة، لا يدخلُ منهُ أحدٌ غيرُهمْ، يقالُ: أينَ الصائمونَ؟ فيقومونَ، فيدخلونَ منهُ، فإذا دخلوا، أُغلقَ؛ فلم يدخل منهُ أحدٌ»[٤].

وقال ﷺ: «للصَّائمين بابٌ فى الجنة يقالُ لهُ الرَّيانُ. لا يدْخُلُ فيهِ أحدٌ غيرهمْ، فإذا

---

(١) مختصر حادى الأرواح (ص: ٦٩).

(٢) أخرجه أحمد والترمذى والحاكم عن قيس بن سعد بن عبادة، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (جـ٤/ ١٧٤٦)، وصحيح الجامع الصغير (٢٦٠٧).

(٣) مختصر حادى الأرواح (ص: ٤٧ : ٤٨).

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن سهل بن سعد.

دَخَل آخرهم أُغلِقَ، من دخل فيه شرِب، ومَنْ شَرِبَ لم يظمأ أبدًا»[1].

* مُسمّى الباب: «الريان» من الري، والري ضد الظمأ، مسمى الباب يبعث على الري، وأول الغيث قطرة،... إن ذكر الماء في الصحراء؛ يقلل من شدة العطش، فما ظنك بالداخل..؟!.

وفي حديث عبد الرحمن بن سمُرة، عن النبي ﷺ في منامه الطويل قال: «ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشًا، كلما ورد حوضًا مُنع منه، فجاءه صيامُ رمضان فسقاه وأرواه».

رى الدنيا عطش، والرى رى الآخرة، والجزاء من جنس العمل[2].

• طريق الجنة واحد •

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام:١٥٣).

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥: ١٦).

وقال ﷺ: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمعت أذنك. واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا، ثم بنى فيها بيتًا، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة وأنت يا محمد رسولٌ...، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»[3].

* * *

(١) رواه النسائي عن سهل بن سعد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٨٤).
(٢) الجزاء من جنس العمل/ د. سيد حسين (١/ ٥٤٥).
(٣) رواه الترمذي (جـ٥/ ٢٨٦٠)، عن جابر وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٦٥).

• وصفهم عند دخول الجنة •

قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٣: ٢٤).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٣٢).

وقال تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ (إبراهيم:٢٣).

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خُلق رجلٍ واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا فى السماء»[1].

وفى رواية البخارى: «ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيًا».

وعن ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون الذين تُسد بهم الثغور وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خَلقك أفتامرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال إنهم كانوا عباداً يعبدونى لا يشركون بى شيئًا وتُسد بهم الثغور وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[2].

* وعن سهل بن سعد رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: ليدخلن الجنَّة من أمتَّى

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٣٢٤٥ ـ ٣٢٤٦/ فتح) ومسلم (١٧/ ٢٥١ ـ ح ١٥) واللفظ لمسلم.

(٢) رواه أحمد (٦٢٨٢)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار والطبرانى ورجالهم ثقات.

سبعون ألفًا (أو: سبعمائة ألف) متماسكون، آخذٌ بعضهم ببعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[(١)].

وقال ﷺ «أولُ زُمرة تدخلُ الجنَّة، على صُورةِ القَمر ليلةَ البدرِ، والثانية على لون أحسنَ منْ كوكب دريٍّ في السَّماء، لكلِّ رجلٍ منهمْ زوجتَان، على كلِّ زَوجةٍ سبعُونَ حُلَّةً يبدو [مخُّ] ساقها منْ ورائها»[(٢)].

وقال ﷺ «أولُ زمرة تدخلُ الجنَّة على صورةِ القَمرِ ليلةَ البدرِ، والذينَ على أثرِهم كأشدِّ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السَّماء إضاءةً، قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحد، لا اختلافَ بينَهم، ولا تباغُضَ، ولا تحاسُدَ، لكلِّ امرىء منهمْ زَوجتان، كلُّ واحدة منهما يُرى مُخُّ سُوقِها منْ وراءِ لَحمها منَ الحُسنِ، يُسبِّحونَ الله بُكرةً وعشيًا، لا يسقمونَ، ولا يمتخطونَ، ولا يبصقونَ، آنيتُهم الذَّهبُ والفضةُ، وأمشاطهمُ الذَّهبُ، ووقودُ مجامرِهمُ الألُوَّة»[(٣)(٤)].

* وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جُردًا مُردًا كأنهم مُكحلون أبناء ثلاث وثلاثين»[(٥)].

جُردًا: أي بدون شعر على أجسادهم.

مُردًا: أي بدون لحية.

وأما الأخلاق فقد قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(الحجر:٤٧). فأخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم.

• مشهد عظيم عند دخول الجنة •

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمرًا، حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما كأنما أُمروا بها فشربوا منها، فأذهب ما في بطونهم من أذى وقذى

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٩ ـ فتح) ومسلم (٣/ ٩٢ ـ نووي).

(٢) رواه أحمد والترمذي عن أبي سعيد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٢٥٦٥).

(٤) مجامرهم الألُوّة: وهو العود الذي يتبخر منه.

(٥) رواه أحمد والترمذي عن معاذ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٢).

وبأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن تتغير أبشارهم بعدها أبدًا ولن تشعث أشعارهم كأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى خزنة الجنة، فقالوا: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين. قال: ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم يقدم من غيبته، فيقولون: أبشر بما أعد الله لك من الكرامة. كذا قال: ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين، فيقول: قد جاء فلان باسمه الذى يُدعى به فى الدنيا، فتقول: أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته، وهو ذا بأثرى، فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنائه، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأصفر وأحمر من كل لون، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه، فإذا مثل البرق، فلولا أن الله قدّره له لألمّ أن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فنظر إلى أزواجه، وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة، فنظروا إلى تلك النعمة، ثم اتكأوا وقالوا: الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، ثم ينادى مناد: تحيون فلا تموتون أبدًا، وتقيمون فلا تظعنون أبدًا، وتصحّون فلا تمرضون أبدًا»[1].

وعن النعمان بن سعد قال: كنا جلوسًا عند علىّ رضى الله عنه فقرأ هذه الآية: ﴿يوم نحشرُ المتقينَ إلى الرحمنِ وفدًا﴾ قال: لا والله ما على أرجلهم يُحشرون ولا يُحشر الوفد على أرجلهم ولكن على نُوق لم تر الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنّة»[2].

• أول الأمم دخولاً الجنة.. وأكثرهم عددًا •

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق»[3].

وقال ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»[4].

---

(١) حادى الأرواح، للإمام ابن القيم (ص ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٢) رواه أحمد عن النعمان بن سعد (١٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة (٦/ ٢٠٥ ـ ح ٢٠).

(٤) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٢٦).

• كيف يدخلون الجنة... وأول وجبة يأكلونها •

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (مريم:٨٥).

وعن النعمان بن سعد في هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (مريم:٨٥). قال: «والله لا يُحشر الوفد على أرجلهم، ولكن يؤتون بنوق لم تر الخلائق مثلها، عليها رحال الذهب، وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا باب الجنة».

* وفي الحديث الذي رواه مسلم... عندما جاء حَبر من أحبار اليهود يسأل النبي ﷺ عن عدة أشياء وكان من بينها أنه سأله عن أول طعام لأهل الجنة فقال: فما تُحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال ﷺ: «زيادة كبد النون ـ الحوت ـ» قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: «يُنحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تُسمى سلسبيلاً» قال: صدقت.

• مَن الذين تشتاق الجنة إليهم؟!! •

إنه ما من مؤمن إلا ونفسه تتوق إلى جنة الرحمن جل وعلا، ولكن يا تُرى من هم الذين تشتاق الجنة إليهم ؟!!!

قال ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمار وسلمان»[1].

ولكي تستشعر تلك الفرحة فتخيل نفسك مكان واحد من هؤلاء الصحب الكرام، وقد سمعت هذه البشرى من الحبيب ﷺ ، فيا تُرى كيف تكُون فرحتك وسعادتك؟!!!

• طعام أهل الجنة وشرابهم •

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الزخرف:٧١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المرسلات:٤١:٤٣).

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ

---

(١) رواه الترمذي والحاكم عن أنس ـ صحيح الجامع (١٥٩٨).

عُقْبى الَّذين اتَّقوا وَعُقْبى الْكافرين النّارُ﴾ (الرعد:٣٥).

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (الحاقة:١٩:٢٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ (الطور:٢٢:٢٣).

وقال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (الواقعة:٢٠).

وقال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين:٢٥:٢٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان:٥:٦).

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاء كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والحمد كما تُلهمون النَّفَس».

ورواه أيضًا من رواية طلحة بن نافع عن جابر وفيه: قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد»[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويًا»[2].

وعن عبد الله بن عمرو في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ...﴾ (الزخرف:٧١). قال: «يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة منها فيها لون ليس في الأخرى».

* وعن سليم بن عامر رضي الله عنه؛ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم. قال: أقبل أعرابي يومًا، فقال: يا رسول الله! ذكر الله عز وجل في الجنة شجرة مؤذية وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها. فقال

---

(١) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٥٤ ـ ح ١٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وأبو بكر البزار في البحر الزخار، وابن المبارك في الزهد والرقائق.

رسول الله ﷺ: «فما هي؟». قال: السدر؛ فإن له شوكًا مؤذيًا. قال رسول الله ﷺ: «أليس الله يقول: ﴿في سدر مَخْضُود﴾؟ خَضَدَ الله شوكه، فجعل مكان كلِّ شوكة ثمرة؛ فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام، ما فيها لونَ يشبه الآخر»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ طير الجنَّة كأمثال البُخت، ترعى في شجر الجنة». فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! إن هذه الطير ناعمة. فقال: «أكلتها أنعم منها (قالها ثلاثًا)، وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها»[2].

* قال الله عز وجل: ﴿إنَّ الأبرار يشْربُون من كأسٍ كان مزاجُها كافُورًا (٥) عيْنًا يشْربُ بها عبادُ الله يُفجّرُونها تفْجيرًا﴾ (الإنسان:٥، ٦).

والكأس هو الإناء الذي فيه الشراب، ويُطلق كذلك على نفس الخمر.

قال بعضهم:

وكَـأسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذة   وأخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

قوله: ﴿كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا﴾ أي يخالطها وتمزج به.

قال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا وإنما سمى ما عنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب.

قوله: ﴿يُفجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها إلى حيث يريدون وينتفعونَ بها كما يشاءون.

وقال تعالى: ﴿ويُسْقوْن فيها كأْسًا كان مزاجُها زنجبيلاً﴾ (الإنسان:١٧) أي كأسا من خمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته.

وذكر سعيد بن منصور... عن عبد الله في قوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾. قال: تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفًا.

وعن أبي الدرداء في قوله: ﴿ختامه مسك﴾ قال: هو شراب أبيض مثل الفضة

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، وقال الحافظ المنذري: «إسناده صحيح» «ترغيب» (٦/ ٣٠).

(٢) رواه أحمد بإسناد جيد، قاله المنذري في «الترغيب» (٦/ ٢٩٨)، وقال العراقي (٣٠٠٨): «إسناده صحيح».

يختمون به آخر شرابهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

• صفة أهل الجنة في خَلقهم وطولهم وخُلقهم •

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعًا فلما خلقه قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، قال: فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. قال: فزادوه: ورحمة الله. قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم طوله ستون ذراعًا فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن»[1].

وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جُردًا مُردًا كأنهم مُكحلون أبناء ثلاث وثلاثين»[2].

وقد تقدم أن أول زمرة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، وأن الذين يلونهم على ضوء أشد كوكب في السماء إضاءة، وأما الأخلاق فقد قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(الحجر:٤٧). فأخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم.

وفي الصحيحين: «أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ ستون ذراعًا في السماء».

• أهل الجنة يتزاورون ويتذاكرون ما كان بينهم •

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(الصافات:٥٠ ـ ٥٧).

---

(١) أخرجه البخاري (جـ١١/ ٦٢٢٧ ـ فتح الباري) ومسلم (١٧/ ٢٦٠ ـ ح ٢٨).

(٢) رواه أحمد والترمذي (٤/ ٢٥٤٥) عن معاذ بن جبل ـ صحيح الجامع (٨٠٧٢).

فأخبر سبحانه وتعالى أن أهل الجنة، أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويسأل بعضهم بعضًا، عن أحوال كانت فى الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة إلى أن قال قائل منهم: إنى كان لى قرين فى الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة، ويقول ما حكاه الله عنه يقول: أئنك لمن المصدقين، بأنا نُبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى، وكنا ترابًا وعظامًا، ثم يقول المؤمن لإخوانه فى الجنة: هل أنتم مطلعون فى النار لننظر منزلة قرينى هذا وما صار إليه.

قال كعب: «بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض تلك الكوى». أى النافذة أو الفتحة فى الحائط.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور:٢٥ ـ ٢٨)[1].

• ثياب أهل الجنة •

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف:٣٠:٣١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج:٢٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الدخان:٥١:٥٣).

وقال تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان:٢١).

وفى الحديث أن رجلاً قال يا رسول الله. أخبرنا عن ثياب أهل الجنة... خلقًا تُخلق أم نسجًا تُنسج؟ قال: فضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟ من

(١) مختصر حادى الأرواح (ص: ١٣١: ١٣٢).

جاهل يسأل عالمًا!!» ثم أكبّ رسول الله ﷺ ثم قال: «أين السائل؟» قال: هو ذا يا رسول الله، قال: «لا، بل تشقق عنها ثمر الجنة»(١).

وقال ﷺ: «لو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوءه ضوء الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم»(٢).

وعن أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة، فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه، فقلت له: يا أبا هريرة ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فروخ أنتم ههنا؟ لو علمت أنكم ههنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول: تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «القيد سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا ومثلها معها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها، ولنصيف امرأة من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها»، قال: قلت يا رسول الله وما النصيف؟ قال: الخمار»(٤).

وفي الصحيحين أيضًا من حديث البراء قال: أُهديت لرسول الله ﷺ حُلة حرير، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها، فقال رسول الله ﷺ: «تعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»(٥).

ولا يخفى ما في ذكر سعد بن معاذ بخصوصه ههنا، فإنه كان في الأنصار بمنزلة الصدّيق في المهاجرين واهتز لموته العرش، وكان لا يأخذه في الله لومة لائم، وختم الله له بالشهادة وآثر رضا الله ورسوله على رضا قومه وعشيرته وحلفائه، ووافق حكمه الذي حكم به حكم الله من فوق سبع سموات، ونعاه جبريل إلى النبي ﷺ يوم موته، فحق له أن تكون مناديله، التي يمسح بها يديه في الجنة أحسن من حُلل الملوك.

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والثانية على لون أحسن من كوكب دري في السماء، لكل رجل منهم زوجتان على كل

---

(١) رواه أحمد (٦٧٩٩) عن ابن عمرو وصحح إسناده أحمد شاكر (١٢/ ٧٠٩٥).

(٢) رواه أحمد (١٣٧١) عن سعد والترمذي (٢٤٦١) - كتاب صفة الجنة وصححه الألباني.

(٣) انظر الفتح (جـ١/ ١٣٦)، ومسلما (٣/ ١٧٨ - ح ٤٠) طهارة.

(٤) رواه أحمد والترمذي بنحوه وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٧٨).

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٣٢٤٩) ومسلم (١٦/ ٣٣ - ح ١٢٦).

زوجة سبعون حلة يبدو مخ ساقها من ورائها»[١].

وأصل الحديث في الصحيحين وفيه «يُرى مخ سوقها من وراء لحمها من الحسن».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢].

وعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال له يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، فقال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني» فقال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[٣].

وعن خالد الزميل أنه سمع أباه قال: «قلت لابن عباس: ما حلل الجنة؟ قال: فيها شجرة فيها ثمرة كأنها الرمان، فإذا أراد ولي الله كسوة انحدرت إليها غصنها، فانفلت عن سبعين حُلة ألوانا بعد ألوان، ثم تنطبق ترجع كما كانت».

• نعمة القرآن... وحلل الجنة •

وعن ابن بريدة عن أبيه يرفعه: «تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة، قال: ثم مكث ساعة، ثم قال: تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول له: ما أعرفك فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى المُلك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويُكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كُسينا

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي سعيد والطبراني عن ابن مسعود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٤).

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٢٥٥ ـ ح ٢١ الجنة) مختصراً، وأخرجه أحمد (جـ٢ ص٣٦٩) بتمامه هذا.

(٣) رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٢٣).

هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد فى درجة الجنة وغرفها فهو فى صعود ما دام يقرأ هذًا كان أو ترتيلاً»[1]... (البطلة) السحرة (والغياية) ما أظل الإنسان فوقه.

• فرش الجنة •

وأما الفرش فقد قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ (الرحمن:٥٤)..... وقال تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ (الواقعة:٣٤).

وعن عبد الله فى قوله: بطائنها من استبرق، قال: هذه البطائن قد خبرتم بها، فكيف بالظهائر؟

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «فى قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ (الواقعة:٣٤) قال: ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض.

وأما البُسط والزرابى فقد قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (الرحمن:٧٦).

وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (الغاشية:١٣ ـ ١٦).

وعن سعيد بن جبير قال: (الرفرف) رياض الجنة (والعبقرى) عتاق الزرابى، وعن الحسن فى قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (الرحمن:٧٦) قال: هى البُسط، وأما النمارق، فقال الواحدى: هى الوسائد.

• غرف الجنة وقصورها •

قال تعالى عن عباد الرحمن: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (الفرقان:٧٥).

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ (سبأ:٣٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ (التوبة:٧٢).

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢١٨٧٢)، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ ٧ ص ١٥٩) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح... (هذًا): سرعة القراءة.

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن:٧٢).

وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ (الزمر:٢٠).

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، قال أبو مالك الأشعرى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام»[1].

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا»[2].

• هل تريد بيتًا فى الجنة •

ففى هذا الزمان الذى طغت فيه الماديات والشهوات وانصرف فيه كثيرٌ من الناس عن طاعة رب الأرض والسماوات وانشغل فيه كثيرٌ من الناس بتشييد القصور والعمارات ظنًا منهم أنهم مُخلدون فى تلك الحياة... وهيهات هيهات، فلقد قال الله تعالى لحبيبه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٤:٣٥).

فكان لابد لنا من وقفة لنأخذ بقلوب الناس إلى جنة الرحمن لتشتاق تلك القلوب إلى مساكن وقصور الجنة فلا ينشغلوا بجمع حُطام الدنيا، بل ويوحدوا الهمم فيجعلوا مقصودهم تحقيق العبودية لله (جل وعلا) وبذلك يربح كل مسلم دُنياه وآخرته.

وإن كان المسلم قد حُرِم من قصور الدنيا وبيوتها الفانية الزائلة فليعلم يقينًا أن الله سيعوضه فى الجنة بقصور تجرى من تحتها الأنهار... جدرانها من الذهب والفضة وملاطها المسك وتربتها من الزعفران.

وتالله لو لم يكن فى الجنة إلا نعمة الرضوان والنظر إلى وجه الرحمن لكان ذلك كافيًا[3].

(١) رواه أحمد وابن حبان والبيهقى عن أبى مالك الأشعرى ـ صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٢) فتح البارى (٦/ ٣٢٤٣) ـ ومسلم (١٧/ ٢٥٦ ـ ح٢٣) واللفظ لمسلم.

(٣) هل تريد بيتًا فى الجنة/ للمصنف (ص: ٣: ٤).

• هذه خيمتك فى الجنة •

قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن:٧٢).

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى، عن النبى ﷺ: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا»(١).

وفى لفظ لمسلم: «فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً فى كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين. يطوف عليهم المؤمن».

وللبخارى وحده لفظ «طولها ثلاثون ميلاً» وهذه الخيم غير الغرف والقصور بل خيام فى البساتين وعلى شواطئ الأنهار.

وعن عبد الله بن مسعود، فى قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن:٧٢) قال: دُر مجوف.

وعن أبى الدرداء قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون بابًا كلها من درة».

وعن مجاهد: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن:٧٢).

قال: فى خيام اللؤلؤ والخيمة لؤلؤة واحدة.

وعن ابن عباس: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن:٧٢).

قال الخيمة درة من لؤلؤة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ ولها ألف باب من ذهب حولها سرادق طوله خمسون فرسخًا، يدخل عليه من كل باب منها ملك بهدية من عند الله عز وجل، وذلك قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ (الرعد:٢٣).... والله أعلم.

وأما السرر فقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الطور:٢٠) وقال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ (الواقعة:١٣:١٦)، وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ (الغاشية:١٣).

فأخبر تعالى عن سرورهم بأنها مصفوفة بعضها إلى جانب بعض ليس بعضها خلف

---

(١) أخرجه البخارى كما فى الفتح (٦/ ٣٢٤٣)، ومسلم (١٧/ ٢٥٦ ـ ح٢٣ الجنة) واللفظ لمسلم.

بعض ولا بعيدًا من بعض، وأخبر أنها موضونة، والوضن فى اللغة: النضيد والنسيج المضاعف.

قال عطاء عن ابن عباس: قال سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت. والسرير مثل ما بين مكة وأيلة.

وقال الكلبى: طول السرير فى السماء مائة ذراع، فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له حتى يجلس عليه فإذا جلس عليه ارتفع إلى مكانه[١].

• ألا تريد نخلاً حول بيتك فى الجنة ؟! •

أخى الحبيب: ألا تريد أن تزين بيتك فى الجنة بالنخيل من حوله؟!... وإن كان بيتك والله ليس فى حاجة إلى تزيين؛ لأن الذى أنشأ الجنة وغرس كرامتها هو الله (جل وعلا).

ولكن إن أردت المزيد فعليك بغراس الجنة.

قال ﷺ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له بها نخلةٌ فى الجنة»[٢].

وقال ﷺ: «لقيتُ إبراهيم ﷺ ليلةَ أُسرىَ بى، فقال: يا محمدُ أقرئْ أُمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبةُ التربة، عذبةُ الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سُبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ»[٣].

وقال ﷺ «أكثروا من غرسِ الجنة؛ فإنه عذبٌ ماؤها، طيبٌ تُرابها، فأكثروا من غراسها: لا حول ولا قوة إلا بالله»[٤].

• طوبى لك منزل الملوك •

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله تبارك وتعالى الجنة لبنةً من ذهب، ولبنةً من فضة، وملاطها المسك، وقال لها: تكلَّمى، فقالت:

(١) مختصر حادى الأرواح/ للمصنف (ص: ١١٠: ١١٢).
(٢) رواه الترمذى وابن حبان والحاكم عن جابر، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٢٩).
(٣) رواه الترمذى عن ابن مسعود وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٥٢).
(٤) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١٣).

قد أفلح المؤمنون. فقالت الملائكة: طوبى لك منزل الملوك»[1].

أخي الحبيب، اصبر على البلاء وارض بالقضاء فسوف تكون ملكًا في الجنة.... فاصبر أيها الملك.

• ما منكم من أحد إلا له منزلان •

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠، ١١).

وقال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهلُ الجنة منزلَه، فذلك قوله: ﴿هم الوارثون﴾»[2].

• المؤمن يبني بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار •

. قال مجاهد: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عز وجل.

بل قال ﷺ «إذا كان يوم القيامة أعطى الله تعالى كل رجلٍ من هذه الأمة رجلاً من الكفار، فيقال له: هذا فداؤك من النار»[3].

• من يكون في الفردوس الأعلى؟ •

قال تعالى عن وصف هؤلاء الذين يرثون الفردوس الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب (٤/ ٩٥١).

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٩٩).

(٣) أخرجه مسلم عن أبي موسى ـ صحيح الجامع (٧٧٨).

الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون:١:١١).

وقال ﷺ: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة»[١].

• من يريد المساكن الطيبة فى جنات عدن؟ •

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:٧٢).

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى وعدهم على إيمانهم بجنات وارفة الظلال، تجرى من تحت أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أى لابثين فيها أبدًا، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد ﴿ومساكن طيبةً فى جنات عدن﴾ أى ومنازل يطيب فيها العيش فى جنات الخلد والإقامة.

قال الحسن: هى قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد[٢] ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أى وشىء من رضوان الله أكبر من ذلك كله.

وفى الحديث يقول الله تعالى لأهل الجنة: «يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدًا من خلقك! فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الصف:١٠:١٢).

---

(١) أخرجه البخارى وأحمد عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (٢١٢٦).

(٢) الكشاف للزمخشرى (٢/ ٢٨٩).

(٣) الطبرى (١٠/ ١٨٢) والحديث فى الصحيح.

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة﴾ أى يا من صدقتم الله ورسوله وآمنتم بربكم حق الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق ﴿تنجيكم من عذاب أليم﴾ أى تخلِّصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم.. ثم بيَّن تلك التجارة ووضحها فقال: ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾ إيمانًا صادقًا، لا يشوبه شكٌ ولا نفاق ﴿وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾ أى وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله.

فشبَّه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة لقوله تعالى: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة﴾ قال الإمام الفخر: والجهاد ثلاثةُ أنواع:

١ ـ جهادٌ فيما بينه وبين نفسه، وهو قهرُ النفس ومنعها عن اللذات والشهوات.

٢ ـ وجهادٌ فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم.

٣ ـ وجهادُ أعداء الله بالنفس والمال نصرةً لدين الله[(١)] ﴿ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ أى ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد فى سبيل الله، خيرٌ لكم من كل شىء فى هذه الحياة، إن كان عندكم فهمٌ وعلم ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿تؤمنون بالله ورسوله﴾ لأن معناها معنى الأمر أى آمنوا بالله وجاهدوا فى سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم أى يسترها عليكم، ويمحها بفضله عنكم ﴿ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى ويدخلكم حدائق وبساتين، تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ومساكن طيبةً فى جنات عدن﴾ أى ويسكنكم فى قصور رفيعة فى جنات الإقامة ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أى ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه، والسعادة الدائمة الكبيرة التى لا سعادة بعدها[(٢)].

• من كان عبداً للرحمن... فاز بالغرفة فى أعلى الجنان •

قال تعالى عن صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ

(١) التفسير الكبير (٢٩/ ٣١٦).

(٢) صفوة التفاسير (٣/ ٣٧٤).

إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴿٦٧﴾ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴿٦٨﴾ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ﴿٦٩﴾ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴿٧٠﴾ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴿٧١﴾ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴿٧٢﴾ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ﴿٧٣﴾ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾ (الفرقان:٦٣:٧٤).

فمن اتصف بصفات عباد الرحمن كان جزاؤه في الآخرة كما قال تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ﴿٧٥﴾ خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾ (الفرقان:٧٥:٧٦).

قال الإمام القرطبي:وصف تعالى «عباد الرحمن» بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلي، والتحلي وهي «التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والبعد عن الشرك، والنزاهة عن الزنى والقتل، والتوبة، وتجنب الكذب، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله» ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا.

• الغرف العلى من الجنة لهؤلاء •

عن نعيم بن همار أن رجلاً سأل النبي ﷺ ، أي الشهداء أفضل؟ قال: «الذين إن يلقوا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك ينطلقون في الغرف العلى من الجنة. ويضحك إليهم ربهم، وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه»[1].

***

(١) أورده الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٩٢)، وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى، والطبراني في الأوسط بنحوه ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات» ثم ساق له شاهدًا آخر بنحوه، من حديث أبي سعيد الخدري، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط من طريق عتبة بن سعيد بن أبان الدارقطني، كما نقل الذهبي، ولم يضعفه أحمد، وبقية رجاله رجال الصحيح.

• الفائزون بالغرف فى الجنة •

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (العنكبوت:٥٨).

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل ﴿لنبوئنَّهم من الجنة غُرفًا﴾ أى لننزلنَّهم أعالى الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى تجرى من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها﴾ أى ماكثين فيها إلى غير نهاية لا يخرجون منها أبدًا ﴿نعم أجرُ العاملين﴾ أى نعمت تلك المساكن العالية فى جنات النعيم أجرًا للعاملين ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ هذا بيانٌ للعاملين أى هم الذين صبروا على تحمل المشاق من الهجرة والأذى فى سبيل الله، وعلى ربهم يعتمدون فى جميع أمورهم.

قال فى البحر: وهذان جماع الخير كله: الصبر، وتفويض الأمر إليه تعالى[1].

وقال تعالى: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ (الزمر:٢٠).

﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ أى لكنْ المؤمنون الأبرار، المتقون لله فى الدنيا، المتمسكون بشريعته وطاعته ﴿لهم غُرفٌ من فوقها غُرفٌ مبنيَّةٌ﴾ أى لهم فى الجنة درجات عالية وقصورٌ شاهقة بعضها فوق بعض مبنية من زبرجد وياقوت ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ أى تجرى من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة من غير أخدود ﴿وعد الله لا يخلفُ اللهُ الميعاد﴾ أى وعدهم الله بذلك وعدًا مؤكدًا لا يمكن أن يتخلف لأنه وعد العزيز القدير[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (سبأ:٣٧).

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلفى﴾ أى ليست أموالكم ولا

---

(١) البحر (٧/ ١٥٧).

(٢) صفوة التفاسير (٣/ ٧٥).

أولادكم التى تفتخرون بها وتكاثرون هى التى تقربكم من الله قربى، وإنما يقرّب الإيمان والعمل الصالح... قال الطبرى: الزلفى: القربى، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد[١]، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿إلا من آمن وعمل صالحًا﴾ أى إلا المؤمن الصالح الذى ينفق ماله فى سبيل الله، ويعلّم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذى يقرّب من الله[٢] ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أى تضاعف حسناتهم، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعمائة ضعف ﴿وهم فى الغرفات آمنون﴾ أى وهم فى منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه.

عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدريَّ الغابر فى الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»[٣].

• الشهداء ... وخير منزل •

عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤتَى بالرجل يوم القيامة من أهل الجنة، فيقول له: يا ابن آدم! كيف وجدتَ منزلك؟ فيقول: أى ربِّ! خيرَ منزل، فيقولُ: سلْ وتمنَّ، فيقول: يا ربِّ ما أسألُ ولا أتمنى إلا أن تردَّنى إلى الدنيا، فأُقتل فى سبيلك عشرَ مرار، لما يرى من فضلِ الشهادة، ويؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول له: يا ابن آدم! كيفَ وجدتَ منزلك؟ فيقول: أى ربِّ! شرَّ منزل، فيقول له: أتفتدى منه بطلاعِ الأرض ذهبًا؟ فيقول: أى ربِّ! نعم، فيقول: كذبت قد سألتك أقلَّ من ذلك وأيسر فلم تفعل فيُرد إلى النار»[٤].

* * *

(١) تفسير الطبرى (٢٢/ ٦٨).

(٢) تفسير البيضاوى (٢/ ١٢٦).

(٣) أخرجه البخارى (٣٢٥٦) بدء الخلق ـ ومسلم (٢٨٣١) الجنة.

(٤) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس ـ صحيح الجامع (٧٩٩٦).

• الشهيد فى خيمة الله تحت عرشه •

عن عتبة بن عبد السلمى، قال: قال رسول الله ﷺ: «القتلى ثلاثة: مؤمن جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله، إذا لقى العدو قاتل حتى قتل، قال النبى ﷺ فيه: «فذلك الشهيد الممتَحن، فى خيمة الله تحت عرشه لا يفضُله النبيون إلا بدرجة النبوة، ومؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله، إذا لقى العدو قاتل حتى يقتل»[1]... الحديث.

• بيت فى الجنة لمن آمن بالنبى ﷺ وهاجر وجاهد فى سبيل الله •

قال ﷺ: «أنا زعيمٌ لمن آمنَ بى وأسلمَ وهاجرَ ببيتٍ فى ربضِ الجنة، وبيت فى وسط الجنة، وبيتٍ فى أعلى غرف الجنة، وأنا زعيمٌ لمن آمنَ بى وأسلمَ وجاهدَ فى سبيل الله ببيت فى ربضِ الجنة، وبيت فى وسط الجنة، وبيت فى أعلى غرف الجنة، فمن فعل ذلك لم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشرِّ مهربًا، يموتُ حيث شاء أن يموت»[2].

• دَرج الجنة وغرفها... لقارئ القرآن •

عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنت جالسًا عند النبى ﷺ ، فسمعته يقول: «تعلَّموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة، ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلَّموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، وإنهما تظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غماماتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف. وإن القرآن يأتى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك بالهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطَى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويُكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال:

---

(١) أورده الحافظ المنذرى فى الترغيب (٢/ ١٩٢) وقال: رواه أحمد بإسناد جيد والطبرانى وابن حبان فى صحيحه والبيهقى.

(٢) رواه النسائى وابن حبان والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٦٥).

اقرأ واصعد فى درجة الجنة وغرفها، فهو فى صعود ما دام يقرأ هذًا كان أو ترتيلاً»[1].

• بيت فى أعلى الجنة لصاحب الخلق الحسن •

عن أبى أُمامة الباهلىِّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيمٌ ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء، وإن كان محقًا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحًا، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسَّنَ خُلُقَهُ»[2]. والزعيم: الضامن.

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من أحبكم إلىَّ، وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة، أحاسنَكُم أخلاقًا. وإنَّ أبغضكم إلىَّ وأبعدكُم منى يوم القيامة، الثرثارون والمُتشدقون والمُتفيهقون» قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارونَ والمُتشدقون، فما المُتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[3].

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه: أن النبى ﷺ قال: «ما من شىء أثقلُ فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حُسن الخُلُقِ. وإنَّ الله يُبغضُ الفاحش البذىَّ»[4].

«البذىُّ»: هو الذى يتكلَّم بالفُحش، وردىء الكلام.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحُسنُ الخُلُق» وسُئل عن أكثر ما يُدخلُ الناس النار فقال: «الفمُ والفرج»[5].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهُم خُلقًا، وخياركُم خياركُم لنسائهم»[6].

---

(١) أورده الحافظ الهيثمى فى «المجمع»، وقال: «قلت روى ابن ماجه منه طرفًا ـ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وأورده الحافظ ابن كثير فى التفسير وقال: حسن على شرط مسلم»، والبغوى فى شرح السنة (٤/ ٤٥٣)، وقال محققاه: أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨)، ولبعضه شواهد، منها حديث أبى أمامة عند أحمد، ومسلم، وحديث النواس بن سمعان عند أحمد ومسلم، فالحديث حسنٌ بشواهده.

(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٦٤) والصحيحة (٢٧٣).

(٣) رواه الترمذى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٠١) والصحيحة (٧٩١)

(٤) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٢٦).

(٥) رواه الترمذى وابن ماجه وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٦٣٠).

(٦) رواه الترمذى وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٣٣٢).

وعن عائشة رضى الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ المؤمن ليُدركُ بحُسنِ خُلُقه درجةَ الصائم القائم»(١).

• الحب فى الله .... وغرف الجنة •

قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٦٧). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات:١٠). وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر:١٠).

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «إن المتحابين لترى غُرفهم فى الجنة كالكوكب الطالع الشرقى أو الغربى، فيقال: من هؤلاء فيقال: المتحابون فى الله عز وجل»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أُظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»(٣).

وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»(٤).

• فرحة لمن يملك الثمن (قصر العفو) •

قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤).

فما أجمل أن يتخلق المؤمن بخُلق العفو.. فإن ذلك يكون سببًا لمغفرة الذنوب، بل وللتنعم بجنات النعيم عند علام الغيوب ـ جل وعلا ـ.

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٣٢).

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/ ٨٧)، وأورده الحافظ الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٢٧٢)، وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٦) البر والصلة والآداب.

(٤) رواه الترمذى عن معاذ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣١٢).

فعن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يارب خذ لي مظلمتي من أخي، قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته. قال: يارب لم يبق من حسناتي شيء، فقال الله تعالى للطالب:كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء. قال: رب فليحمل عني أوزاري». قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم»، قال: «فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر في الجنان فرفع رأسه، فقال: يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ.... لأي نبي هذا؟ أو لأي صدِّيق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه. قال: يارب ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه، قال: ماذا يارب؟ قال: تعفو عن أخيك. قال: يارب فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخلا الجنة، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يُصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[1].

وهذا تنبيه على أن ذلك إنما يُنال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.

• بيت في الجنة لمن ترك المراء والكذب •

قال ﷺ: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كَان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلقه»[2].

• بيت في الجنة... لمن فوّض أمره لله •

عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال: «إذا اضطجع الرجل فتوسد يمينه ثم قال: اللهم إليك أسلمت نفسي، وفوضت أمري إليك، وألجأت إليك ظهري، ووجهت إليك وجهي، رهبة منك ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي

(١) الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حُسن الظن بالله، والحاكم في المستدرك - وأورده ابن كثير في تفسيره، (٢/ ٢٧٣) من رواية أبي يعلى

(٢) رواه أبو داود والضياء وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٤).

أنزلت، وبنبيك الذى أرسلت، ومات على ذلك بُنى له بيت فى الجنة، أو بوئ له بيت فى الجنة»[١].

• غرف فى الجنة... لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام •

عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، قال أبو مالك الأشعرى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[٢].

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى، عن النبى ﷺ قال: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا»[٣].

• قصر الريَّان للصائمين •

عن سهل بن سعد رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «إن فى الجنة بابًا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»[٤].

فتدبر يا أخى..

مسمى الباب: «الريان» من الرى، والرى ضد الظمأ، مسمى الباب يبعث على الرى، وأول الغيث قطرة، إن ذكر الماء فى الصحراء؛ يقلل من شدة العطش، فما ظنك بالداخل..؟!.

وفى حديث عبد الرحمن بن سمُرة، عن النبى ﷺ فى منامه الطويل، قال: «ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشًا، كلما ورد حوضًا مُنِع منه، فجاءه صيامُ رمضان

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٩٦) ـ وأصل الحديث فى الصحيحين. رواه البخارى (٢٤٧) الوضوء ـ ومسلم (٢٧١٠) الذكر والدعاء والتوبة.

(٢) رواه أحمد وابن حبان عن أبى مالك الأشعرى ـ صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٣) أخرجه البخارى (٦/ ٣٢٤٣) ـ ومسلم (١٧/ ٢٥٦ ـ ح ٢٣) واللفظ لمسلم.

(٤) أخرجه البخارى (١٨٩٦) الصيام ـ ومسلم (١١٥٢) الصيام.

فسقاه وأرواه».

رى الدنيا عطش، والرى رى الآخرة، والجزاء من جنس العمل.

من صام عن شهوته فى الدنيا، أدركها غداً فى الجنة، ومن صام عما سوى الله، فعيده يوم لقائه.. ﴿من كان يرجو لقاء الله فإنَّ أجلَ الله لآتٍ﴾ (العنكبوت:٥).

وقد صُمتُ عن لذاتِ دهرىَ كلها ويوم لقـاكمْ ذاك فطـر صيـامى

بالله، انظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل.. صورة حسية تُشاهد وتُعاين: «الصيام والقرآن يشفعانِ للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى رب إنى منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعنىْ فيه، يقول القرآن: رب منعته النوم بالليل، فشفعنى فيه، فيشفعان»[1].

فطوبى..

لمن جوّع نفسه ليوم الشبع الأكبر..

طوبى..

لمن أظمأ نفسه، ليوم الرِّىّ الكامل..

طوبى..

لمن ترك شهوات حياة عاجلة لموعد غيب لم يره..

متى اشتد عطشك إلى ما تهوى، فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الرِّىّ الكامل[2].

• بيت فى الجنة... لمن بنى مسجداً لله •

قال ﷺ «من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة»[3].

وقال ﷺ «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاةٍ أو أصغر بنى الله له بيتًا فى الجنة»[4].

---

(١) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٨٢).

(٢) الجزاء من جنس العمل/ د. سيد حسين (١/ ٥٤٨).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن عثمان ـ صحيح الجامع (٦١٣١).

(٤) رواه ابن ماجه عن جابر. وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٢٨).

فيا من امتن الله عليك بنعمة المال لا تبخل وابن لله مسجداً لتنال الأجر والمثوبة فى الدنيا والآخرة، وذلك بأن الله يجعل صلاة من يصلى (فى هذا المسجد) فى ميزان حسناتك بل ويكرمك بأن يبنى لك بيتًا فى الجنة... ألا تريد بيتًا فى الجنة؟!.

يا هذا.... بيوت الدنيا من طين وحجر وتراب، ومدَر وحديد وخشب، وجريد وقصب، إن لم يُكنس كثرت فيه القمامة، وإن لم يسرج فما أشد ظلامه، وإن لم يتعاهد بالبناء فما أسرع انهدامه، وإن تعاهدته فمآله إلى الخراب، وعن قريب يصير كالتراب، يتفرق عنه السكان، وتنتقل عنه القطان، يعفو أثره، ويندرس خبره، يمحى رسمه، وينسى اسمه.

فأين أنت.. من دار باقية، قصورها عالية، أنهارها جارية، قطوفها دانية، أفراحها متوالية، لبنة من فضة، ولبنة من ذهب، لا تعب فيها كلا ولا نصب، وملاطها المسك الأذفر.. فهل سمعت عن ملاط من مسك؟! وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر.

فمن بنى لله بيتًا.. بنى الله له بيتًا فى الجنة والجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ (الفرقان:٧٥).

اليوم يحضر العبد بيته لأداء العبادة، وينقل أقدامه إلى المساجد، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطع المسافة، فهم فى مستقر عزهم يسمعون كلام الله، وينظرون إلى الله[١].

• بيت فى الجنة ... باثنتى عشرة ركعة كل يوم •

قال ﷺ: «من ثابر على اثنتى عشرة ركعة من السُّنة بنى الله له بيتًا فى الجنة أربع ركعات قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل الفجر»[٢].

وفى رواية قال ﷺ: «من صلى فى يومٍ وليلةٍ ثنتى عشرة ركعةً بُنى له بيتٌ فى الجنة...»[٣].

(١) الجزاء من جنس العمل/ د. سيد حسين (١/ ٤٨٤).

(٢) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٨٣).

(٣) رواه الترمذى عن أم حبيبة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٦٢).

• صلاة الضحى وبيت فى الجنة •

قال ﷺ: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويجزى من ذلك ركعتان تركعهما من الضحى»[1].

وقال ﷺ: «من صلى الضُحى أربعًا وقبل الأولى أربعًا بُنى له بيت فى الجنة»[2].

• بيت فى الجنة... لمن سد فرجة فى الصف •

قال ﷺ: «من سدَّ فُرجةً بنى الله له بيتًا فى الجنة ورفعه بها درجةً»[3].

• منزل فى الجنة ... لمن عاد مريضًا •

قال ﷺ: «من عاد مريضًا أو زار أخًا له فى الله ناداه منادٍ أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»[4].

وقال ﷺ: «إن المسلم إذا عاد أخاه لم يزل فى خُرفة الجنة حتى يرجع»[5].

• بيت فى الجنة بدعاء السوق •

قال ﷺ: «من دخل السُوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حيٌ لا يموت بيده الخيرُ، وهو على كل شىء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وبنى له بيتًا فى الجنة»[6].

وذلك لأن الغالب على أهل الأسواق أنهم فى غفلة شديدة عن ذكر الله.. بل ومنهم

---

(١) أخرجه مسلم والنسائى عن أبى ذر ـ صحيح الجامع (٨٠٩٧).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى موسى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٤٠).

(٣) أخرجه المحاملى فى الأمالى (٣٦/ ٢) ـ الصحيحة (١٨٩٢).

(٤) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٨٧).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٨) كتاب البر والصلة ـ باب: فضل عيادة المريض.

(٦) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٣١).

من يحلف بالله كاذبًا من أجل أن يبيع سلعته. فإذا جاء المسلم ودخل السوق وذكر الله (جل وعلا) بين أهل الغفلة فإن الله يُجزل له الأجر والمثوبة.

وهذا كله كشأن المؤمن فى أيام الفتن والهرج عندما يتمسك بدينه فإن الله يعطيه أجر خمسين شهيداً ـ كما جاء فى الحديث الصحيح ـ.

• بيت الحمد فى جنة الرحمن (جل وعلا) •

عن أبى موسى رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ماتَ ولدُ العبد قال اللهُ تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرةَ فؤاده؟ فيقولونَ: نعم، فيقولُ: ماذا قال عبدى؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقولُ اللهُ تعالى: ابنُوا لعبدى بيتًا فى الجنة، وسموه بيتَ الحمد»[1].

حمدك واسترجع: أى قال: الحمد لله وإنّا لله وإنا إليه راجعون.

وقد قال تعالى عن هذا الصنف الكريم: ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٥٥:١٥٧).

وهذه والله ثمرة من ثمرات الرضا بقضاء الله (جل وعلا).

• أهل الجنة لا ينامون •

قال ﷺ: «النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة»[2].

وهذا من كمال رحمة الله لأن الجنة دار النعيم... والنوم يُفوِّت على أهل الجنة بعض هذا النعيم فكان من رحمة الله (جل وعلا) أن جعل أهل الجنة فى نعيم دائم لا يفوتهم منه شيء.. بل إنهم ينتقلون من لذة إلى لذة أعلى ومن نعيم إلى نعيم أكبر.... فنسأل الله تعالى من فضله.

---

(١) رواه الترمذى عن أبى موسى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٨٧).

• خدم أهل الجنة •

قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ (الواقعة:١٧، ١٨). وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ (الإنسان:١٩).

وقد اختلف فى هؤلاء الولدان هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله فى الجنة إنشاءً؟ على قولين: قال على بن أبى طالب والحسن البصرى: هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدم أهل الجنة، وولدانهم إذ الجنة لا ولادة فيها.

ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين، فجعلهم الله خدمًا لأهل الجنة.

فعن أنس عن النبى ﷺ قال: «سألت ربى اللاهين من ذرية البشر ألا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدم أهل الجنة»[١]. واللاهون: يعنى الأطفال.

وقال ﷺ: «أطفال المشركين خدم أهل الجنة»[٢].

وأصحاب القول الأول لا يقولون: إن هؤلاء أولاد وُلدوا لأهل الجنة فيها، وإنما يقولون: هم غلمان أنشأهم الله فى الجنة كما أنشأ الحور العين.

* قال الإمام ابن القيم: والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدمًا لهم وغلمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الطور:٢٤) وهؤلاء غير أولادهم، فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلمانًا لهم[٣].

* * *

---

(١) رواه الضياء وابن عساكر وحسنه الألبانى بمجموع طرقه فى السلسلة الصحيحة (١٨٨١).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٢٤).

(٣) مختصر حادى الأرواح (ص: ١١٤).

• وأين أطفال المؤمنين •

وإن كان النبى ﷺ قد أخبر بأن أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة فيا تُرى ما هو حال أطفال المؤمنين؟.

قال ﷺ: «أطفال المؤمنين فى جبلٍ من الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردَّهم إلى آبائهم يوم القيامة»[1].

أى حتى يجمع الله بينهم وبين آبائهم فى الجنة لتكتمل فرحتهم وسعادتهم فى جنة الرحمن (جل وعلا)... قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور:٢١).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه فى درجته وإن كانوا دونه فى العمل لتقرّ بهم عينه ثم قرأ: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء﴾ قال: ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين» ـ الأبناء ـ.

• نساء أهل الجنة •

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥).

والأزواج: جمع زوج، والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، وهذا هو الأصح، وهو لغة قريش وبها نزل القرآن كقوله: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة:٣٥).

والمطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهر أثوابها من أن يعرضَ لها دنس أو وسخ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا

(١) رواه أحمد والحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٢٣).

يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (الدخان:٥١ ـ ٥٦).

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على الثمار والأنهار، وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضًا وتمام اللذة بالحور العين ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتًا.

وقال مقاتل: العِين حسان الأعين ومن محاسن المرأة اتساع عينها فى طول، وضيق العين فى المرأة من العيوب، وإنما يستحب الضيق منها فى أربعة مواضع: فمها وخرق أذنها وأنفها وما هنالك ويستحب السعة منها فى أربعة مواضع: عينها وكاهلها ـ وهو ما بين كتفيها ـ وجبهتها، ويستحب البياض منها فى أربعة مواضع: لونها وفرقها وثغرها وبياض عينها.

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ ؛ قال: «إنَّ الرجل ليتَّكىء فى الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول، ثم تأتيه امرأته، فينظر وجهه فى خدها؛ أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضىء ما بين المشرق والمغرب، فتسلم عليه، فيرد السلام، ويسألها من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد، وإنه ليكون عليها سبعون ثوبًا، أدناها مثل النعمان من طوبى، فينفذها حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها التيجان، وإن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب»[1].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن:٥٨).

قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت فى بياض المرجان، وشبههن فى صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان ويدل عليه ما قاله عبد الله: أن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حُلة من حرير، فيرى بياض ساقيها من ورائهن ذلك بأن الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن:٥٨). ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكًا ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر.

* وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن:٥٦ ـ ٥٨).

---

(١) رواه الطبرانى فى «الأوسط» بإسناد جيد، قاله الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٤١٨).

وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع: أحدها هذا.

والثاني: قوله تعالى: في الصافات: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ (الصافات:٤٨).

والثالث: قوله تعالى في (سورة ص): ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ (ص:٥٢). والمفسرون كلهم على أن المعنى قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم.

وعن الحسن قال: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم والله ما هن متبرجات ولا متطلعات.

وأما الأتراب فجمع ترب.

قال ابن عباس وسائر المفسرين: مستويات على سن واحدة وميلاً واحد بنات ثلاث وثلاثين سنة.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ (النبأ:٣١:٣٣).

فالكواعب: جمع كاعب وهي الناهد.

وأصل اللفظة من الاستدارة. والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «الروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم في الجنة أو موضع قيد ـ يعني سوطه ـ خير من الدنيا وما فيها. ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينها ولملأته ريحًا. ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[١].

وعن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله، هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء. يعني في الجنة»[٢].

---

(١) البخاري مع فتح الباري (جـ٦/ ٢٧٩٦)، (جـ١١/ ٦٥٦٨) بنحوه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (١٦٩/ ١) والضياء في صفة الجنة (٨٢/ ٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة بشاهد له من حديث ابن عباس مرفوعًا من طريق الطبراني.

وقال ﷺ: «إن الرجل من أهل الجنة ليُعطَى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والشهوة والجماع»[1].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة:٣٥:٣٨).

قال قتادة وسعيد بن جبير: خلقناهن خلقًا جديدًا، وقال ابن عباس: يريد نساء الآدميات، وقال الكلبى ومقاتل: يعنى نساء أهل الدنيا العجز الشمط، يقول تعالى: خلقناهن بعد الكبر والهرم.

وعن عائشة: أن النبى ﷺ أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يُدخلنى الجنة، فقال نبى الله ﷺ: «يا أم فلان! إن الجنة لا تدخلها عجوز» فذهب نبى الله ﷺ لصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «إن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حولّهن أبكارًا»[2].

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه؛ أن النبى ﷺ قال: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على أضوأ كوكب دُرى فى السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة أعزبُ»[3].

• أفضل نساء أهل الجنة •

قال ﷺ: «أفضل نساء أهلِ الجنة خديجة بنتُ خُويلدٍ، وفاطمة بنتُ محمدٍ، ومريم بنتُ عِمرانَ، وآسيةُ بنتُ مُزاحِمٍ، امرأةُ فرعون»[4].

ويالها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

* * *

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن زيد بن أرقم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٢٧).

(٢) أخرجه الترمذى فى الشمائل المحمدية (٢/ ٣٩) وعنه البغوى فى التفسير (٨/ ١٤) وأبو الشيخ فى أخلاق النبى ﷺ (٧٨/ ١٨٢). وحسنه الألبانى فى مختصر الشمائل المحمدية للترمذى برقم (٢٠٥).

(٣) أخرجه البخارى (٦/ ٣٢١/ فتح).

(٤) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والحاكم عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٣٥).

• إنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة •

وعن عبد الله مسعود فى قوله: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون﴾ قال شغلهم: افتضاض العذارى. وعن الأوزاعى قال: شغلهم: افتضاض الأبكار.

وعن سعيد بن جبير: «إن شهوته لتجرى فى جسده سبعين عامًا يجد اللذة ولا يلحقهم بذلك جنابة، فيحتاجون إلى التطهير، ولا ضعف ولا انحلال قوة بل وطؤهم وطء التذاذ ونعيم لا آفة فيه بوجه من الوجوه».

وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه فى هذه الدار عن الحرام، فكما أن من شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة، ومن لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن أكل فى صحاف الذهب والفضة فى الدنيا لم يأكل فيها فى الآخرة، كما قال النبى ﷺ «إنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة».

فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها فى هذه الدار حُرمها هناك، كما نعى سبحانه على من أذهب طيباته فى الدنيا واستمتع بها ولهذا كان الصحابة ومن تبعهم يخافون من ذلك أشد الخوف، وذكر الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله: «أنه رآه عمر ومعه لحم قد اشتراه لأهله بدرهم فقال: ما هذا ؟!! قال: لحم اشتريته لأهلى بدرهم، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا اشتراه !! أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾(الأحقاف:٢٠). فمن ترك اللذة المحرمة لله استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون، ومن استوفاها هنا حُرمها هناك أو نقص كمالها ، فلا يجعل الله لذة من وقع فى معاصيه ومحارمه كلذة من ترك شهوته لله أبدا» والله أعلم[١].

• غناء الحور العين •

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾(الروم:١٤، ١٥).

عن يحيى بن أبى كثير فى قوله عز وجل: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾(الروم:١٥) قال

---

(١) مختصر حادى الأرواح/ (ص: ١٢٥).

الحبرة: اللذة والسماع.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحور العين ليغنين فى الجنة، يقلن: نحن الحور الحسان، خُبئنا لأزواج كرام»[١].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط... إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرن بقُرة أعيان، وإن مما يغنين به نحن الخالدات فلا يمتنه نحن الآمنات فلا يخفنه، نحن المقيمات فلا يظعنه»[٢].

* وعن أبى أمامة رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنة؛ إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين؛ يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن، وليس بمزمار الشيطان، ولكن بتحميد الله وتقديسه»[٣].

وعن أبى هريرة قال: «إن فى الجنة نهراً بطول الجنة حافتاه العذارى قيام متقابلات، يغنين بأصوات حتى يسمعها الخلائق، ما يرون فى الجنة لذة مثلها، فقلنا: يا أبا هريرة وما ذاك الغناء؟ قال: إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقديس وثناء على الرب عز وجل».

وعن ابن عباس قال: «فى الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب فى ظلها مائة عام فيتحدثون فى ظلها فيشتهى بعضهم، فيذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحًا من الجنة، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا».

* ولهم سماع أعلى من هذا يضمحل دونه كل سماع، وذلك حين يسمعون كلام الرب جل جلاله وخطابه وسلامه عليهم ومحاضرته لهم، ويقرأ عليهم كلامه، فإذا سمعوه منه، فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك.

* * *

(١) رواه سمويه عن أنس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٠٢).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم والضياء فى صفة الجنة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٦١).

(٣) قال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء (٣٠١١): رواه الطبرانى بإسناد حسن.

• الحور العين تطلبك من الله (عز وجل) •

قال ﷺ: «لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[1].

- والمؤمن إذا دخل الجنة يكرمه الله عز وجل بزوجتين من الحور العين... وهذا هو الذى أخبر عنه الحق جل وعلا بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف:١٠٧)... فالنُزُل هو ما أُعد للضيف.

وهذا الأمر لا يتعارض مع كون عدد الأزواج قد يصل إلى سبعين أو أكثر، فإن الله يكرم المؤمن بالزوجتين عند دخول الجنة ثم يكرمه بعد ذلك بزوجات على قدر منزلته فى الجنة... والله أعلم.

وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى سليمان الدارانى قال: كان شاب بالعراق يتعبد فخرج مع رفيق له إلى مكة فكان إن نزلوا فهو يصلى وإن أكلوا فهو صائم، فصبر عليه رفيقه ذاهبًا وجائيًا، فلما أراد أن يفارقه قال له: يا أخى أخبرنى ما الذى هيّجك إلى ما رأيت؟ قال: رأيت فى النوم قصرًا من قصور الجنة، وإذا لبنة من فضة ولبنة من ذهب، فلما تم البناء إذا شرافة من زبرجدة وشرافة من ياقوت، وبينهما حوراء من حور العين مرخية شعرها، عليها ثوب من فضة يتثنى معها كلما تثنت، فقالت: جدّ إلى الله فى طلبى، فقد والله جددت إليه فى طلبك، فهذا الذى تراه فى طلبها.

قال أبو سليمان: هذا فى طلب حوراء، فكيف بمن قد طلب ما هو أكثر منها؟![2].

• فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرة أعين •

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:١٦-١٧).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادى

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن معاذ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١٩٢).

(٢) حادى الأرواح (ص: ٣٦٦).

الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1]. مصداق ذلك في كتاب الله ﴿فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون﴾ (السجدة:١٧).

وعن شفي بن ماتع أن رسول الله ﷺ قال: إن من نعيم أهل الجنة أنهم يتزاورون على المطايا والنُجب، وأنهم يؤتون في الجنة بخيل مسرجة ملجمة لا تروث ولا تبول. يركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله فيأتيهم مثل السحابة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فيقولون: أمطرى علينا فما يزال المطر عليهم حتى ينتهى ذلك فوق أمانيهم، ثم يبعث الله ريحًا غير مؤذية فتنسف كثبانًا من مسك عن أيمانهم وعن شمائلهم، فيأخذون ذلك المسك في نواصي خيولهم وفي مفارقهم وفي رؤوسهم ولكل رجل منهم جُمّةٌ على ما اشتهت نفسه، فيتعلق ذلك المسك في تلك الجمام، وفي الخيل وفيما سوى ذلك من الثياب، ثم يقبلون حتى ينتهوا إلى ما شاء الله، فإذا المرأة تنادى بعض أولئك: عبد الله أما لك فينا من حاجة؟ فيقول: ما أنت ومن أنت، فتقول: أنا زوجتك وحبك. فيقول: ما كنت علمت بمكانك، فتقول المرأة: أوما تعلم أن الله تعالى قال: ﴿فَلا تَعْلَمُ نفسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:١٧). فيقول: بلى وربي فلعله يشتغل عنها بعد ذلك الموقف أربعين خريفا، ما يشغله عنها إلا ما هو فيه من النعيم»[2].

• استقبال الحور العين لأزواجهن •

عن يحيى بن أبي كثير قال: «إن الحور العين يتلقين أزواجهن عند أبواب الجنة، فيقلن: طال ما انتظرناكم فنحن الراضيات فلا نسخط، والمقيمات فلا نظعن، والخالدات فلا نموت... بأحسن أصوات سُمعت وتقول: أنت حبي وأنا حبك وليس دونك تقصير ولا وراء ك معدل.

روى أبو نعيم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «يسطع نور في الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا هو من ثغر حوراء، ضحكت في وجه زوجها».

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٢٤٤) ومسلم واللفظ له (١٧/ ٢٤٢ ـ ح٢) الجنة.

(٢) حسنه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية للترمذي برقم (٢٠٥).

وعن ابن عباس قال: «كنا جلوسًا مع كعب يومًا فقال: لو أن يدًا من الحور دليت من السماء، لأضاءت لها الأرض كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، ثم قال: إنما قلت: يدها، فكيف بالوجه وبياضه وحسنه وجماله!!».

وقال عطاء السلمى لمالك بن دينار: «يا أبا يحيى شوّقنا، قال: يا عطاء إن فى الجنة حوراء يتباهى أهل الجنة بحسنها لولا أن الله تعالى كتب على أهل الجنة أن لا يموتوا لماتوا من حسنها، فلم يزل عطاء كمدًا من قول مالك».

وقال ابن أبى الحوارى: سمعت أبا سليمان يقول: «ينشأ خلق الحور العين إنشاء، فإذا تكامل خلقهن ضرب عليهن الملائكة الخيام».

وعن سعيد بن جبير، قال: سمعت ابن عباس يقول: «لو أن حوراء أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها، ولو أخرجت نصيفها لكانت الشمس عند حسنها مثل الفتيلة فى الشمس لا ضوء لها، ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض».

وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير: «إذا سبّحت المرأة من الحور العين لم يبق شجرة فى الجنة إلا ردّت».

• دلال الحور العين •

رُوى عن الحسن رضى الله عنه أنه قال: «بينما ولى الله فى الجنة مع زوجته من الحور العين على سرير من ياقوت أحمر وعليه قبة من نور، إذ قال لها: قد اشتقت إلى مشيتك، قال: فتنزل من سرير ياقوت أحمر إلى روضة مرجان أخضر، وينشئ الله عز وجل لها فى تلك الروضة طريقين من نور، أحدهما نبت الزعفران، والآخر نبت الكافور، فتمشى فى نبت الزعفران، وترجع فى نبت الكافور، وتمشى بسبعين ألف لون من الغنج[1].

* * *

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزى (ص: ١٣٧).

• يا ولى الله ! أما لنا فيك من دولة؟ •

قال ابن عباس رضى الله عنه: وذلك أن ولى الله فى الجنة على سرير والسرير ارتفاعه خمسمائة عام، وهو قول الله عز وجل ﴿وفرش مرفوعة﴾ (الواقعة:٣٤) قال: والسرير من ياقوت أحمر وله جناحان من زمرد أخضر، وعلى السرير سبعون فراشًا حشوها النور، وظواهرها السندس، وبطائنها من استبرق، ولو دلّى أعلاها فراشًا ما وصل إلى آخرها مقدار أربعين عامًا.

وعلى السرير أريكة وهى الحَجلة وهى من لؤلؤة عليها سبعون سترًا من نور، وذلك قوله عز وجل: ﴿هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون﴾ (يس:٥٦) يعنى ظلال الأشجار، ﴿على الأرائك﴾ يعنى الأسرّة فى الحجال، فبينما هو معانقها لا تمل منه ولا يمل منها والمعانقة أربعين عامًا، فإذا رفع رأسه فإذا هو بأخرى متطلعة تناديه: يا ولى الله أما لنا فيك من دولة؟ فيقول: حبيبتى من أنت؟ فتقول: أنا من اللواتى قال الله فيهن: ﴿ولدينا مزيد﴾ (ق:٣٥) قال: فيطير سريره، أو قال كرسى من ذهب له جناحان، فإذا رآها فهى تضعف على الأولى بمائة ألف جزء من النور فيعانقها مقدار أربعين عامًا لا تمل منه ولا يمل منها، فإذا رفع رأسه رأى نورًا ساطعًا فى داره، فيعجب فيقول: سبحان الله أمَلَك كريم زارنا؟ أم ربنا أشرف علينا؟ فيقول الملك وهو على الكرسى من نور بينه وبين الملك سبعون عامًا، والملك فى حجبته فى الملائكة: لم يزرك ملك ولم يشرف عليك ربك عز وجل، فيقول: ما هذا النور؟.

فيقول الملك: إنها زوجتك الدنيوية وهى معك فى الجنة، وإنها اطلعت عليك ورأتك معانقًا لهذه فتبسمت فهذا النور الساطع الذى تراه فى دارك هو نور ثناياها، فيرفع رأسه إليها فتقول: يا ولى الله أما لنا فيك من دولة؟ فيقول: حبيتى من أنت؟ فتقول له: يا ولى الله أما أنا فمن اللواتى قال الله عز وجل فيهن: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قرة أعين﴾ (السجدة:١٧) قال: فيطير سريره إليها، فإذا لقيها فهى تضعف عن هذه الأخرى بمائة ألف جزء من النور؛ لأن هذه صامت وصلت وعبدت الله عز وجل، فهى إذا دخلت الجنة أفضل من نساء الجنة؛ لأن أولئك أُنبتن نباتًا، فيعانق هذه مقدار أربعين عامًا لا تمل منه ولا يمل منها، ثم إنها تقوم بين يديه وخلاخلها من ياقوت، فإذا وطئت يسمع

من خلاخلها صوت صفير كل طير في الجنة، فإذا مس كفها كان ألين من المخ، ويشم من كفها رائحة طيب الجنة، وعليها سبعون حُلة من نور لو نشر الرداء منها لأضاء ما بين المشرق والمغرب، خُلقت من نور، والحلل عليها أسورة من ذهب، وأسورة من فضة، وأسورة من لؤلؤ، وتلك الحلل أرقّ من نسج العنكبوت، وهو أخف عليها من النقش، وأنه يرى مخ ساقها من صفائها ورقتها من وراء العظم واللحم والجلد والحلل، مكتوب على ذراعها اليمين بالنور ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ (الزمر:٧٤)، وعلى الذراع الآخر مكتوب بالنور ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ (فاطر:٣٤)[١].

• طوبى لك يا لعبة !!! •

ذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن ابن مسعود قال: «إن في الجنة حوراء يقال لها اللعبة، كل حور الجنات يعجبن بها يضربن بأيديهن على كتفها ويقلن: طوبى لك يا لعبة، لو يعلم الطالبون لك لجدّوا في طلبك... بين عينيها مكتوب: مَن كان يبتغي أن يكون له مثلي فليعمل برضاء ربي».

• الأخت المسلمة أجمل من الحور العين •

وعلى الرغم من كل ما ذُكر عن جمال الحور العين، إلا أن الأخت المؤمنة الصابرة على طاعة الله جل وعلا، وعلى طاعة زوجها المؤمن... يكون جمالها في الجنة أفضل من جمال الحور العين سبعين ضعفًا؛ لأنها هي التي صلت وصامت وتحملت أعباء الدعوة وتكاليف الإيمان.

فإن كنت أيتها الأخت المؤمنة تريدين أن تكوني جميلة مثل فلانة (من الفنانات أو غيرهن) فاعلمي أنك ستكونين في الجنة أجمل من أجمل حوراء في جنة الرحمن جل وعلا، بشرط أن تصبري حتى تلقى الله على الطاعة والإيمان... وأنت الآن والله ـ بحجابك وإيمانك وحيائك ـ أجمل من أجمل امرأة، فاصبري يا أختاه حتى تلقى رسول الله ﷺ على الحوض وحتى تنظري إلى وجه الله جل وعلا.

* * *

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزي (ص: ١٤٠ ـ ١٤١) ط. مكتبة الإيمان.

• سيدا شباب أهل الجنة •

قال ﷺ: «أتانى جبريل فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[١].

* لقد كان النبى ﷺ يحبهما حبًا جمًا ويقول: «هما ريحانتاى من الدنيا»[٢].

* وعن أبى هريرة الدوسى رضى الله عنه قال: خرج النبى ﷺ فى طائفة النهار لا يُكلمنى ولا أُكلمهُ حتى أتى سوق بنى قينُقاع فجلس بفناء بيت فاطمة فقال: أثمَّ لُكعُ[٣]، أثم لُكعُ؟ فَحَبَسَتْهُ شيئًا فظننت أنها تُلبسهُ سخابًا أو تُغسله فجاء يشتدُّ حتى عانقهُ وقبلهُ وقال: «اللهم أحبَّه وأحبَّ من يُحبُّهُ»[٤].

فاللهم إنا نُشهدك أننا نحبه فأحبنا يارب العالمين.

* وعن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يُصلى فإذا سَجدَ وثَبَ الحسنُ والحسينُ على ظهرِه فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم أن دَعُوهُما فإذا قضى الصلاة وضعهُما فى حجره قال: «من أحبنى فليُحب هَذْين»[٥].

* وعن أبى بكرة قال: «سمعت النبى ﷺ على المنبر والحسنُ إلى جنْبه، ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: ابنى هذا سيدٌ، ولعل الله أن يُصلِحَ به بين فئتين من المسلمين»[٦].

* وعن عقبة بن الحارث قال: «رأيت أبا بكر رضى الله عنه وحَمَلَ الحسن وهو يقول: بأبى شبيهٌ بالنبى، ليس شبيهٌ بعلى... وعلىٌّ يضحك»[٧].

* * *

(١) رواه ابن سعد عن حذيفة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣).

(٢) أخرجه البخارى (٥٩٩٤) والترمذى (٣٧٧٠).

(٣) المراد باللكع هنا الصغير.، وفى رواية البخارى (٥٨٨٤) أين لكع؟ ثلاثًا. ادع الحسن بن على...

(٤) أخرجه البخارى (٢١٢٢) ومسلم (٢٤٢١).

(٥) رواه أبو يعلى (٨/ ٤٣٤) والنسائى فى الفضائل (٦٧) وإسناده حسن.

(٦) أخرجه البخارى (٣٧٤٦) وأبو داود (٤٦٦٢) والترمذى (٣٧٧٣).

(٧) أخرجه البخارى (٣٧٥٠) وأحمد (١/ ٨).

● سوق الجنة ●

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حُسنًا وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً»(١).

● نداءات يسمعها أهل الجنة ●

وها هي جملة من النداءات التي يسمعها أهل الجنة.

* عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»(٢)... فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:٤٣).

* وعن صهيب أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا، يريد أن ينجزكموه فيقولون: وما هو؟ ألم يثقّل الله موازيننا ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، وينجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»(٣).

* وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقكم، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١٧ ـ ٢٤٩/ ح١٣ الجنة).

(٢) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٥٥ ـ ح ٢٢) الجنة.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ٢١ ـ ح ٢٩٧) رواه أحمد وابن ماجه ـ صحيح الجامع (٥٢١).

(٤) أخرجه البخاري (جـ١١/ ٦٥٤٩)، ومسلم (١٧/ ٢٤٦ ـ ح ٩) الجنة... واللفظ للبخاري.

• تربة الجنة •

قال ﷺ: «أرض الجنة خبزة بيضاء»(١).

وعن أبي هريرة قال: قلنا يا رسول الله: إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد. قال: «لو تكونون أو قال: لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم. قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه...»(٢).

وعن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «.... ثم أُدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»(٣). وهو قطعة من حديث المعراج.

فهذه ثلاث صفات في تربتها لا تعارض بينها، فذهبت طائفة من السلف إلى أن تربتها متضمنة للنوعين: المسك والزعفران. ويحتمل معنيين آخرين.

أحدهما: أن يكون التراب من زعفران، فإذا عُجن بالماء صار مسكًا، والطين يسمى ترابًا.

المعنى الثاني: أن يكون زعفرانًا باعتبار اللون مسكًا باعتبار الرائحة، وهذا من أحسن شيء يكون، البهجة والإشراق لون الزعفران والرائحة رائحة المسك(٤).

* * *

(١) رواه أبو الشيخ في (العظمة) عن جابر وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٩).

(٢) رواه أحمد (٧٧٠٠) والترمذي (٢٤٤٩ ـ صفة الجنة) وصححه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة (٩٦٩) ـ صحيح الجامع (٥٢٥٣).

(٣) البخاري (جـ١/ ٣٤٩ ـ فتح الباري)، ومسلم (٢/ ٢٨٤ ـ ح ٢٦٣) واللفظ لمسلم.

(٤) مختصر حادي الأرواح (ص: ٧٦: ٧٧).

• أنهار الجنة وعيونها ومجراها •

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الدخان:٥١:٥٢).

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (الرحمن:٥٠).

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ (الرحمن:٦٦).

قال تعالى: ﴿فيهما عينان نضاختان﴾، عن سعيد قال: «نضاختان بالماء والفواكه». وعن أنس قال: «نضاختان بالمسك والعنبر ينضخان على دور أهل الجنة، كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا». وعن البراء قال: اللتان تجريان أفضل من النضاختين، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد:١٥).

فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة، وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها. وآفة العسل عدم تصفيته[1].

وتأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس، فهذا لشربهم وطهورهم، وهذا لقوتهم وغذائهم، وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لشفائهم ومنفعتهم. والله أعلم.

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «رُفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران

(١) مختصر حادي الأرواح (ص: ٩٢).

ظاهران فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات»[١].

وفي صحيح مسلم[٢] من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة».

* وأما العيون فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان:٥، ٦).

وقال بعض السلف: معهم قضبان الذهب حيثما مالوا مالت معهم.

قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ (الإنسان:١٧، ١٨).

فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفًا... وأن شراب الأبرار يُمزج منها؛ لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله فأخلص شرابهم، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين:٢٢ ـ ٢٨).

فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين؟ بالكافور في أول السورة، والزنجبيل في آخرها، فإن في الكافور من البرد وطيب الرائحة، وفي الزنجبيل من الحرارة وطيب الرائحة، وما يحدث لهم باجتماع الشرابين. ومجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر، وما ألطف موقع ذكر الكافور في أول السورة، والزنجبيل في آخرها، فإن شرابهم مُزج أولاً بالكافور. وفيه من البرد ما يجيء الزنجبيل بعده فيعدله[٣].

قال ﷺ «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قُبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بُكرة وعشيًا»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٢٠٧ ـ فتح).

(٢) أخرجه مسلم (١٧/ ٢٥٧ ـ ح ٢٦) الجنة... (سيحان وجيحان) نهران في تركيا.

(٣) مختصر حادي الأرواح (ص: ٩٥: ٩٦) بتصرف.

(٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٤٢).

* وعن سماك: «أنه لقى عبد الله بن عباس بالمدينة بعدما كف بصره، فقال: يا ابن عباس! ما أرض الجنة؟ قال: مرمة بيضاء من فضة كأنها مرآة قلت: ما نورها؟ قال: ما رأيت الساعة التى يكون فيها طلوع الشمس؛ فذلك نورها؛ إلا أنه ليس فيها شمس ولا زمهرير. قلت: فما أنهارها؟ فى أخدود؟ قال: لا، ولكنها تجرى على أرض الجنة، مستكنة، لا تفيض ها هنا ولا ها هنا، قال الله لها: كونى! فكانت...»[1].

• من أنهار الجنة •

قال ﷺ: «سَيحان وجيحان والفرات والنيل كلٌ من أنهار الجنة»[2].

وقال ﷺ: «فُجرَت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل وسَيحان وجيحان»[3].

• قوة النبى ﷺ تعدل قوة اربعين رجلاً من أهل الجنة •

ففى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يطوف على نسائه فى ليلة واحدة وله تسع نسوة.

وفى رواية للبخارى عن قتادة أنه قال: حدثنا أنس بن مالك قال: كان النبى ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار وهُن إحدى عشرة. قال: قلت لأنس: أوَ كان يُطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أُعطى قوة ثلاثين... وفى رواية «قوة أربعين».

قال الحافظ فى الفتح: وفى صفة الجنة لأبى نعيم من طريق مجاهد مثله وزاد «من رجال أهل الجنة» وعند أحمد والنسائى وصححه الحاكم من حديث زيد بن أرقم رفعه «إن الرجل من أهل الجنة ليُعطَى قوة مائة فى الأكل والشُرب والجماع والشهوة» فعلى هذا يكون حساب قوة نبينا أربعة آلاف. (فتح البارى:١/ ٤٥٠).

* * *

(١) قال الحافظ المنذرى فى الترغيب (٦/ ٢٩١) رواه ابن أبى الدنيا بإسناد حسن.

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٣٦٥٢).

(٣) رواه أحمد عن أبى هريرة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٩٦).

• أشجار الجنة وبساتينها •

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة:٢٧:٣٣).

والمخضود: الذي قد خضد شوكه أي نُزع وقطع، فلا شوك فيه..... هذا قول ابن عباس ومجاهد.

وعن سليم بن عامر قال: (كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن شاء الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، وأقبل أعرابي يومًا، فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، قال رسول الله ﷺ «وما هي؟ قال: السدر، فإن له شوكًا مؤذيًا، قال: أليس الله يقول: في سدر مخضود؟! خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة»[1].

وأما الطلح، فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز.

وقالت طائفة أخرى: بل هو شجر عظام طوال، وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب. قال حاديهم:

بشرها دليلها وقالا   غدًا ترين الطلح والجبالا

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ (المرسلات:٤١).

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (الرحمن:٤٦:٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ﴾ (الرحمن:٦٢:٦٤).

وعن ابن عباس قال: «نخل الجنة جذوعها من زمرد أخضر، وكرفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة الجنة منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء، أشد بياضًا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (جـ٢ ص٤٧٦) من طريق سليم بن عامر عن أبي أمامة به، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس فيها عجم».

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها»(١).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فى الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»(٢).

وعن أبى سعيد الخدرى، أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، فقال: «طوبى لمن رآنى وآمن بى، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى» فقال رجل: يا رسول الله، وما طوبى؟ قال: شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»(٣).

وعن أبى هريرة(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة:١٧). وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها، واقرءوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥).

وعن جابر قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى صفوفنا فى الصلاة صلاة الظهر أو العصر فإذا رسول الله ﷺ يتناول شيئًا ثم تأخر فتأخر الناس فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب: شيئًا صنعته فى الصلاة لم تكن تصنعه؟ قال: «عُرِضت علىَّ الجنة بما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بينى وبينه ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه شيئًا»(٥).

---

(١) البخارى (جـ١١/ ٦٥٥٢، ٦٥٥٣)، ومسلم (١٧/ ٢٤٥ ـ ح٨) الجنة ـ واللفظ لمسلم.

(٢) رواه الترمذى (٢٤٤٨) ـ كتاب صفة الجنة ـ وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى.

(٣) رواه أحمد وابن حبان عن أبى سعيد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٩٢٣).

(٤) أخرجه البخارى (جـ٨/ ٤٧٧٩ ـ فتح البارى) ومسلم (١٧/ ٢٤٢ ـ ح٢) الجنة ـ واللفظ هنا للترمذى (٣٢١٤) ـ كتاب تفسير القرآن.

(٥) أخرجه مسلم (٦/ ٢٩٣ ـ ح٩ الكسوف) وأحمد (١٤٢٧٢) واللفظ لأحمد.

وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ (الدخان:٥٥). وهذا يدل على أمنهم من انقطاعها ومضرتها. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ (الزخرف:٧٢، ٧٣).

وقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (الحاقة:٢١ ـ ٢٣). أى ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها فيأخذها كيف يشاء،.... قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم. وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان:١٤).

قال ابن عباس: إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلت له حتى يتناول ما يريد.

وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ (البقرة:٢٥).

وأما قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وأتوا به متشابهًا﴾، قال الحسن: خيار كله لا رذل. ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه، وأن ذلك ليس فيه رذل؟

وقال عبد الرحمن بن زيد: يعرفون أسماءه. كما كانوا فى الدنيا... التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان. قالوا فى الجنة: هذا الذى رُزقنا من قبل وأتوا به متشابهًا يعرفونه. وليس هو مثله فى الطعم.

* قال ﷺ: «ليس فى الجنة شىءٌ مما فى الدنيا إلا الأسماء»[(٢)].

• ريح الجنة •

قال ﷺ: «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا»[(٣)].

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ١٠ ص ٤١٤). وقال: رواه الطبرانى والبزار إلا أنه قال: «أعيد فى مكانها مثلاها»، ورجال الطبرانى وأحد إسنادى البزار ثقات.

(٢) رواه الضياء عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤١٠).

(٣) رواه ابن ماجه والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٨).

* ونحن نعلم جميعًا كيف كان بعض أصحاب الرسولﷺ يجدون ريح الجنة وهم في أرض الشرف والجهاد.

فها هو أنس بن النضر (رضي الله عنه) يقول لسعد بن معاذ (رضي الله عنه): يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أُحد[1].

- بل وهذا سعد بن الربيع (رضي الله عنه) يقول لزيد بن ثابت (رضي الله عنه) لما أرسله إليه النبي ﷺ بعد غزوة أُحد فوجده في الرمق الأخير فقال له: يا سعد، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «أخبرني كيف تجدك؟» فقال : وعلى رسول الله ﷺ السلام ، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خَلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عينٌ تطرف. وفاضت نفسه من وقته[2].

وريح الجنة نوعان: ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد، وريح يدرك بحاسة الشم للأبدان، كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قُرب ومن بُعد، وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله، وهذا الذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من هذا القسم، وأن يكون من الأول. والله أعلم[3].

• درجات الجنة •

قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران:١٦٢:١٦٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال:٢:٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٨٠٥) ومسلم (١٣/ ٧١-ح ١٤٨).

(٢) رواه الحاكم (٣/ ٢٠١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) مختصر حادي الأرواح (ص: ٨٥).

وقال تعالى: ﴿ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ (طه:٧٥).

وقال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ (الإسراء:٢١).

وقال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما﴾ (النساء:٩٥:٩٦).

عن ابن محيريز قال: «فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا، درجات منه قال: هي سبعون درجة ما بين الدرجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين عامًا».

وتأمل قوله كيف أوقع التفضيل أولاً بدرجة. ثم أوقعه ثانيًا بدرجات، فقيل الأول بين القاعد المعذور والمجاهد.... والثاني بين القاعد بلا عذر والمجاهد... وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[1].

• الأعمال التي ترفع المؤمن في درجات الجنة •

إن للمؤمن همة عالية تجعله يتطلع دائمًا إلى الأفضل والأحسن، فبينما تجد أن الكثير من المؤمنين لا يريدون إلا النجاة من النار ودخول الجنان.. إلا أن هناك صنف همته عالية، فهو يتطلع دائمًا إلى أعلى درجات الجنة.

وها أنا أسوق لحضراتكم باقة من الأعمال التي ترفع المؤمن في أعلى درجات الجنة.

١ ـ الجهاد في سبيل الله:

قال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح (٦/ ٣٢٥٦) ومسلم (١٧/ ٢٤٧ ـ ح١١).

وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا سعيد من رضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا، وجبت له الجنة، فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها علىّ يا رسول الله ففعل، ثم قال: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: الجهاد فى سبيل الله الجهاد فى سبيل الله»[(٢)].

وعن أبى نجيح السلمى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بلغ بسهم فى سبيل الله فهو له درجةٌ فى الجنة فبلغت يومئذ ستة عشر سهمًا»[(٣)].

٢- التواضع لله (جل وعلا):

قال ﷺ: «... وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»[(٤)].

٣- قراءة القرآن وحفظه:

قال ﷺ: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد لكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»[(٥)].

وقال ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ ورتِّل، كما كنت تُرتِّل فى دار الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها»[(٦)].

٤- إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة:

قال ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط»[(٧)].

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة - كتاب الجهاد والسير (٢٥٨١) - صحيح الجامع (٢١٢٦).

(٢) أخرجه مسلم عن أبى سعيد - كتاب الإمارة (٣٤٩٦).

(٣) رواه النسائى عن أبى نجيح السلمى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٢٦).

(٤) أخرجه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٥٨٠٩).

(٥) رواه أحمد وابن ماجه عن أبى سعيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٢١).

(٦) رواه أحمد والنسائى والترمذى والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٢٢).

(٧) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى هريرة - صحيح الجامع (٢٦١٨).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمسًا وعشرين درجة، وذلك أن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لم يخطُ خطوةً إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه وتصلي الملائكة عليه ما دام في مجلسه الذي يُصلي فيه. يقولون: اللهم اغفر له. اللهم ارحمه. اللهم تُب عليه ما لم يُؤذ فيه أو يُحدث فيه»[1].

٥ـ من وصل الصفوف في الصلاة .... وسد فرجة:

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف، ومن سدَّ فُرجة رفعه الله بها درجة»[2].

٦ـ ذكر الله:

قال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ـ الفضة ـ وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله»[3].

٧ـ الصبر على البلاء:

قال ﷺ: «ما من مسلم يُشاك شوكة فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة ومُحيت عنه بها خطيئة»[4].

٨ـ طلب العلم:

قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة:١١).

٩ـ من شاب شيبة في الإسلام:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنتفوا الشيب، فإنه نور المسلم. ما من مسلم يشيب شيبةً في الإسلام إلا كُتب له بها حسنة ورُفع بها

(١) متفق عليه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٣٨٢٣).

(٢) رواه أحمد وابن ماجه عن عائشة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٣).

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي الدرداء وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٢٩).

(٤) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها ـ صحيح الجامع (٥٧٥٨).

درجة أو حُط عنه بها خطيئة»[١].

١٠- كثرة الطواف حول الكعبة:

قال ﷺ: «من طاف بهذا البيت أُسبوعًا يحصيه كُتب له بكل خطوة حسنة، وكفّر عنه سيئة، ورفعت له درجة، وكان عدل عتق رقبة»[٢].

أُسبوعًا: أي سبعة أشواط.

١١- كثرة السجود لله:

قال ﷺ: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحطَّ بها عنك خطيئة»[٣].

١٢- حسن الخلق:

قال ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة القائم الصائم»[٤].

وقال ﷺ: «إن المسلم المسدَّد ليدرك درجة الصوّام القوام بآيات الله بُحسن خُلقه وكرم ضريبته»[٥].

١٣- من قال دعاء السوق:

قال ﷺ: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتًا في الجنة»[٦].

١٤- استغفار الولد لأبيه:

قال ﷺ: «إن الرجل لتُرفع درجته في الجنة. فيقول: أنَّى لي هذا؟ فيقال: باستغفار

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عمرو - صحيح الجامع (٥٧٦٠) واللفظ لأحمد.
(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن ابن عمر - صحيح الجامع (٦٣٨٠) واللفظ لأحمد.
(٣) أخرجه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن ثوبان وأبي الدرداء - صحيح الجامع (٤٠٥٠).
(٤) رواه أبو داود وابن حبان عن عائشة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٣٢).
(٥) رواه أحمد والطبراني عن ابن عمرو، وصححه الألباني فيصحيح الجامع (١٩٤٩).
(٦) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٣١).

ولدك لك»[١].

١٥ـ محبة النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم (فالمرء مع من أحب):

عن أنس بن مالك قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعددت للساعة؟ قال: حُبُّ الله ورسوله. قال: فإنك مع من أحببت. قال أنسٌ: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبى ﷺ: فإنك مع من أحببت قال أنس: فأنا أحبُّ الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم»[٢].

ونحن نُشهدك يارب أننا نحبك حبًا يليق بجلالك وكمالك، ونحب رسولك ﷺ، ونحب الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ ونحب الصالحين فى كل زمان ومكان، ونسألك أن تحشرنا يوم القيامة فى زمرة المتقين. وإن لم نعمل بأعمالهم[٣].

• أعلى درجة فى الجنة •

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له شفاعتى»[٤].

وعن عائشة قالت: «جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إلىّ من نفسى، وإنك أحب إلىّ من أهلى، وأحب إلىّ من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإنى إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبى ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ (النساء:٦٩)[٥].

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٧).

(٢) أخرجه مسلم عن أنس (٤٧٧٧) ـ كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) مشاهد الفرحة يوم القيامة/ للمصنف (ص: ٧٥: ٧٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١١٢ ـ ح١١) وأحمد والترمذى.

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة، وقال: أخرجه أبو بكر بن مردويه عن عائشة، وذكره الهيثمى =

ولما كان رسول اللهﷺ أعظم الخلق عبودية لربه، وأعلمهم به. وأشدهم له خشية، وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى الله، وهى أعلى درجة فى الجنة، وأمر النبىﷺ أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زُلفى من الله وزيادة الإيمان.

وأيضًا، فإن الله سبحانه قدَّرها له بأسباب، منها: دعاء أمته له بها بما نالوه على يده من الإيمان والهدى، صلوات الله وسلامه عليه.

• إذا مات العبد بغير مولده •

قالﷺ : «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة»[1].

ولكن هذا لا يكون إلا لمن حقق التوحيد والعبودية لله (جل وعلا)... فلا يكون هذا لرجل يهودى أو مجوسى أو غير ذلك من أصحاب الملل الكافرة وإنما هذا الفضل للموحدين.

• الذين رآهم النبى ﷺ وسمع أصواتهم فى الجنة •

قالﷺ : «دخلتُ الجنَّة البارِحةَ فنظَرتُ فيها، فإذا جَعفرٌ يطيرُ مع الملائكةِ، وإذا حمزةُ مُتكِىءٌ على سرير»[2].

وقالﷺ : «دخلتُ الجنَّة، فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلتُ: لمن هذا القصرُ؟ قالوا: لشابٍّ من قُريش، فظننتُ أنى أنا هو، فقُلتُ: ومَنْ هو؟ قالوا: عمرُ بنُ الخطابِ، فلولا ما عَلمتُ من غيرَتِكَ لدَخلتهُ»[3].

وقالﷺ : «دخلتُ الجنَّةَ، فاستقبلتنى جاريةٌ شابَّةٌ، فقلتُ: لمنْ أنت؟ قالتْ لزيد بن حارثة»[4].

= فى مجمع الزوائد (٧/ ١٠) وقال: رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط عن عائشة ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمر العابدى وهو ثقة.

(١) رواه النسائى وابن ماجه عن ابن عمرو وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٦).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم عن ابن عباس وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٦٣).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن جابر ـ وأحمد والترمذى عن أنس.

(٤) رواه الرويانى والضياء عن بريدة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٦٦).

وقال ﷺ: «دخلتُ الجنَّة، فرأيتُ لزيدِ بن عمرو بن نُفَيلٍ درجتين»[١].

وقال ﷺ: «دخلتُ الجنَّة، فسمعتُ خشفةً بين يدى، فقلتُ: ما هذه الخشفةُ؟ فقيل: الغُميصاءُ بنتُ ملحان»[٢].

وقال ﷺ: «دخلتُ الجنَّة، فسمعتُ خَشفةً بينَ يدى، قلتُ: ما هذهِ الخشفةُ؟ فقيلَ: هذا بلالٌ يمشى أمامك»[٣].

وقال ﷺ: «دخلت الجنَّة فسمعت فيها قراءةً فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان. قلت: كذلكم البر كذلكم البر»[٤].

• أدنى أهل الجنة منزلة •

وعن المغيرة بن شعبة، عن النبى ﷺ قال: «سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أُدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة فيقول: أى رب. كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال فى الخامسة: رضيت رب فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك فيقول رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة. قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر»[٥].

وعن أبى هريرة قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وليس فيهم دنى، من يغدو عليه كل يوم ويروح خمسة عشر ألف خادم، ليس منهم خادم إلا ومعه طُرفة ليست مع صاحبه».

وعن أبى هلال حدثنا حميد بن هلال: قال: «ما من رجل من أهل الجنة إلا وله ألف خازن ليس منهم خازن إلا على عمل ليس عليه صاحبه».

---

(١) رواه ابن عساكر عن عائشة وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٦٧).

(٢) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس ـ صحيح الجامع (٣٣٦٨).

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٦٩).

(٤) رواه النسائى والحاكم عن عائشة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٧١).

(٥) أخرجه مسلم وأحمد والترمذى عن المغيرة بن شعبة ـ صحيح الجامع (٣٥٩٤).

وعن أبي عبد الرحمن الحبلي قال: «إن العبد أول ما يدخل الجنة يتلقاه سبعون ألف خادم كأنهم اللؤلؤ».

* وقال ﷺ: «إن أدنى أهلِ الجنَّة منزلاً رجلٌ صرفَ اللهُ وجههُ عن النار قبلَ الجنَّة، ومَثَّلَ لهُ شجرةً ذاتَ ظل، فقالَ: أى ربِّ قدِّمنى إلى هذه الشجرة فأكونَ فى ظلِّها، فقال اللهُ: هلْ عسيْتَ أنْ تسألنى غيرهُ؟ قالَ: لا وعزَّتك، فقدمهُ الله إليْها، ومثَّلَ لهُ شجرةً ذاتَ ظلٍ وثمرٍ، فقالَ: أى ربِّ قدمنى إلى هذه الشجرة فأكونَ فى ظلِّها، وآكل منَ ثمرها، فقالَ الله: هلْ عسيْتَ إن أعطيتُكَ ذلك أن تسألنى غيرهُ؟ فيقولُ: لا وعزتك، فيقدمهُ الله إليْها، فيمثل اللهُ لهُ شجرةً أخرَى ذات ظلٍ وثمرٍ وماء، فيقولُ: أى ربِّ قدمنى إلى هذه الشجرة فأكونَ فى ظلِّها، وآكل منْ ثمرها، وأشربَ منْ مائها، فيقولُ لهُ: هلْ عسيْتَ إنْ فعلتُ أنْ تسألنى غيرهُ؟ فيقولُ: لا وعزَّتك لا أسألكَ غيرهُ، فيقدمهُ الله إليْها، فيبرز لهُ بابُ الجنَّة، فيقولُ: أىْ ربِّ قدمنى إلى بابِ الجنة فأكونُ تحتَ سجاف الجنة[1] فأرى أهلَها، فيقدِّمهُ الله إليها فيرىَ الجنَّةَ وما فيها، فيقولُ: أىْ ربِّ أدخلنى الجنَّةَ، فيدخلُ الجنَّةَ، فإذا دخل الجنَّةَ قالَ: هذا لى؟ فيقولُ الله لهُ تمنَّ: فيتمنَّى، ويذكرهُ الله عزَّ وجلَّ سل منْ كذا وكذا حتَّى إذا انقطعت به الأمانى، قالَ الله: هوَ لك وعشرةُ أمثاله، ثمَّ يُدخلهُ الله الجنَّةَ، فيدخلُ عليه زوجتاهُ منَ الحور العين؛ فيقولان: الحمدُ لله الذى أحياكَ لنا، وأحيانا لكَ. فيقولُ: ما أُعطِىَ أحدٌ مثلَ ما أعطيتُ. وأدنى أهلِ النارِ عذابًا يُنعلُ من نار بنعلينِ يغلى دماغُه من حرارةِ نعليه»[2].

• آخر من يدخل الجنة •

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة، رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع، فيقول: يارب وجدتها ملأى، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة. قال: فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى. فيرجع فيقول: يارب وجدتها ملأى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فإن

(١) سجاف: أى الستر.

(٢) أخرجه مسلم وأحمد عن أبى سعيد - صحيح الجامع (١٥٥٧).

لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك عشرة أمثال الدنيا. قال: فيقول: أتسخر بى (أو أتضحك بى) وأنت الملك؟ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. قال: فكان يقال: ذاك أدنى أهل الجنة منزلة»[1]. متفق عليه واللفظ لمسلم.

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشى مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذى نجانى منك، لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين، فتُرفع له شجرة، فيقول: أى رب ادننى من هذه الشجرة، فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها، فيقول: لا يارب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم تُرفع له شجرة هى أحسن من الأولى، فيقول: أى رب ادننى من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدنى أنك لا تسألنى غيرها؟ فيقول: لعلى إن أدنيتك منها تسألنى غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم تُرفع له شجرة عند باب الجنة هى أحسن من الأوليين، فيقول: أى رب ادننى من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟ قال: بلى يارب، هذه لا أسألك غيرها. وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أى رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم ما يصريني منك؟ - والمعنى أى شيء يرضيك ويقطع السؤال بينى وبينك - أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يارب أتستهزئ منى وأنت رب العالمين. فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألونى مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ ، فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ بى وأنت رب العالمين؟ فيقول: إنى لا أستهزئ منك ولكنى على ما أشاء قادر»[2].

وفى رواية: «.. ويبقى رجلُ بين الجنَّة والنَّار (وهو آخر أهل النَّار دخولاً الجنَّة)، مقبل

---

(١) البخارى مع الفتح (١١/ ٦٥٧١) ومسلم (٣ - ٤٨/ ح ٣٠٨ - إيمان).

(٢) أخرجه مسلم عن ابن مسعود (٣ - ٥١/ ح ٣١٠ إيمان).

بوجهه قِبَلَ النَّار، فيقول: يا ربِّ! اصرف وجهي عن النَّار؛ فقد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها. فيقول: هل عسيت إن أفعل أن لا تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك. فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النَّار، فإذا أقبل به على الجنَّة؛ رأى بهجتها؛ سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يارب! قدِّمني عند باب الجنَّة. فيقول الله: أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي سألت؟ فيقول: يارب! لا أكونُ أشقى خلقك. فيقول: فما عسيت إن أعطيتك ذلك أن لا تسأل غيره؟ فيقول: لا؛ وعزَّتك لا أسأل غير هذا. فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدِّمه إلى باب الجنَّة، فإذا بلغ بابها؛ رأى زهرتها وما فيها من النَّضرة والسُّرور، فسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يارب! أدخلني الجنة. فيقول الله: ويحك ابن آدم! ما أغدرك! ألست قد أعطيتني العهود ألا تسأل غير الذي أُعطيت؟ فيقول: يارب! لا تجعلني أشقى خلقك. فيضحك الله منه، ثم يأذن له في دخول الجنَّة، فيقول: تمنَّ، فيتمنَّى، حتى إذا انقطعت أمنيَّته؛ قال الله: تمنَّ كذا وكذا (يذكِّرهُ ربُّه)، حتى إذا انقطعت به الأماني؛ قال الله: لك ذلك ومثله معه، وذلك الرَّجل آخر أهل الجنَّة دخولاً الجنَّة»[1].

• ولمن خاف مقام ربه جنتان •

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات:٤٠:٤١).

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن:٤٦:٥٣).

قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره... يقول الله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿ونهى النفس عن الهوى﴾ ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمَه فله يوم القيامة عند ربه جنتان. كما روى البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: [جنتان من فضة آنيتهما وما

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٢٩٢ ـ فتح)، ومسلم (٣/ ٨١ ـ نووي).

فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن].

* وهذه الآية عامة في الإنس والجن فهي من أدلّ الدليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء. فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال تعالى: ﴿ذواتا أفنان﴾ أي أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

* وقوله تعالى: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ثم قال تعالى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ أي من جميع أنواع الثمار ممّا يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿فبأي آلا ربكما تكذبان﴾ قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء يعني أن بين ذلك بونًا عظيمًا وفرقًا بيّنًا في التفاضل[1].

• الجنة دار الخلد •

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود:١٠٨).

وقد تقدم قول النبي ﷺ: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»[2] وقوله: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا. وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا. وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا» فذلك قوله عز وجل: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ (الأعراف:٤٣)[3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٢: ٢٨٣) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (١٧ ـ ٢٥٥ / ح ٢١ الجنة) .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة (١٧ ـ ٢٥٥ / ح ٢٢ الجنة).

قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت. قال ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم:٣٩) وأشار بيده إلى الدنيا...... [١].

• وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة •

وها هي أعظم لذة لأهل الجنة في الجنة... ألا وهي لذة النظر إلى وجه الله (عز وجل).

ولذلك كان النبي ﷺ يدعو دائمًا بهذا الدعاء: «... وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضرة ولا فتنة مضلة...»[٢].

* وعن أبي هريرة «أن ناسًا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك...[٣].

وأما حديث جرير بن عبد الله ففي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عنه قال: كنا جلوسًا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: «إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا، لا تضارون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا» ثم قرأ قوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾(ق:٣٩).

وأما حديث صهيب فرواه مسلم عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل: تريدون شيئًا أزيدكم؟ يقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح (جـ٨/ ٤٧٣٠)، ومسلم واللفظ له (١٧ ـ ٢٦٩ / ح ٤٠ الجنة).

(٢) رواه النسائي والحاكم عن عمار وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٨٠٦) ومسلم (١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٢) إيمان.

النظر إلى ربهم»، ثم تلا هذه الآية﴿للذينَ أحسنُوا الحُسنى وزيادةٌ﴾ (يونس:٢٦).

وأما حديث أبي موسى ففي الصحيحين عنه عن النبيﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وعن أبي موسى عن النبيﷺ قال: «يتجلى لنا ربنا تبارك وتعالى ضاحكًا يوم القيامة»[1].

وأما حديث عدي بن حاتم ـ وفيه قالﷺ ـ «... وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له...»[2].

وأما حديث أنس بن مالك وهو حديث الشفاعة وفيه قالﷺ ـ: «.... فيأتوني فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله، فيقال.، يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع[3].

* قرأ أبو بكر الصديق: ﴿للذينَ أحسنُوا الحُسنى وزيادةٌ﴾ (يونس:٢٦)، فقالوا: ما الزيادة يا خليفة رسول اللهﷺ ؟ قال: النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته والتمسك بأمره، والمعاهدة على ما حمَّلك الله من دينه، واستحفظك من كتابه، فإنه بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه، وبها رافقوا أنبياءه. وبها نضرت وجوههم، ونظروا إلى خالقهم، وهي عصمة في الدنيا من الفتن ومن كرب يوم القيامة.

قال الحسن: لو علم العابدون في الدنيا أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا.

قال علي بن المديني سألت عبد الله بن المبارك عن قوله تعالى: ﴿فمَن كان يرْجُو لقاء ربه فليعملْ عملا صالحا﴾ (الكهف:١١٠). قال عبد الله: من أراد النظر إلى وجه الله خالقه فليعمل عملاً صالحا ولا يخبر به أحداً.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١٥٣) والطبراني وصححه الألباني في الصحيحة لشواهده (٧٥٥)

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح عن عدي بن حاتم (٦/ ٣٥٩٥).

(٣) البخاري (٨/ ٤٤٧٦) ـ ومسلم واللفظ له (٣ ـ ٦٥/ ح٣٢٢ إيمان).

وقال نعيم بن حماد: سمعت ابن المبارك يقول ما حجب الله عز وجل أحداً عنه إلا عذبه ثم قرأ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(المطففين:١٥ ـ ١٧) قال: بالرؤية.

وقال مالك بن أنس: «الناس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم».

وقال الحارث بن مسكين: حدثنا أشهب قال: سئل مالك عن قوله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة:٢٢، ٢٣). أتنظر إلى الله عز وجل؟ قال: نعم، فقلت: إن أقواما يقولون تنظر ما عنده، قال: بل تنظر إليه نظراً وقد قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾(الأعراف:١٤٣)[1].

• أعياد المؤمنين في الجنة •

وأما أعياد المؤمنين في الجنة فهي أيام زيارتهم لربهم عز وجل فيزورونه، ويكرمهم غاية الكرامة، ويتجلى لهم وينظرون إليه، فما أعطاهم شيئا هو أحب إليهم من ذلك، وهو الزيادة التي قال الله تعالى فيها ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ ليس للمحب عيد سوى قرب محبوبه:

إن يومًا جامعًا شملي بهم ذاك عيدٌ ليس لي عيد سواه

كل يوم كان للمسلمين عيداً في الدنيا فإنه عيد لهم في الجنة، يجتمعون فيه على زيارة ربهم، ويتجلى لهم فيه، ويوم الجمعة يُدعى في الجنة يومَ المزيد، ويوم الفطر والأضحى يجتمع أهل الجنة فيهما للزيارة.

وروى أنه يشارك النساء الرجال فيهما كما كن يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة، فهذا لعموم أهل الجنة، فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد، يزورون ربهم كلَّ يوم مرتين بكرة وعشيًا.

الخواص كانت أيام الدنيا كلها لهم أعياداً فصارت أيامهم في الآخرة كلها أعياداً.

قال الحسن: كل يوم لا يُعصى الله فيه فهو عيد، كل يوم يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذكره وشكره فهو له عيد[2].

---

(١) مختصر حادي الأرواح (ص: ١٥٥: ١٥٦).

(٢) لطائف المعارف/ لابن رجب الحنبلي (ص: ٥٥١: ٥٥٢).

• يوم المزيد •

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبْريلُ ـ عَلَيْه السَّلامُ ـ وفي يَده مرآةٌ بَيْضاءُ، فيهَا نُكْتَةٌ سوداءُ، فقُلتُ: ما هَذه يا جبْريلُ؟ قال: هَذه الجُمعَةُ يَعْرضُها عليك ربُّكَ لتكُونَ لَكَ عيداً ولقومكَ من بَعْدكَ تكُونُ أنْتَ الأوَّلُ، وتكُونُ اليهودُ والنَّصارَى منْ بَعْدكَ» قال: «مَا لَنا فيها؟ قالَ: لَكُم فيها خيرٌ، لكُمْ فيها سَاعَة منْ دعَا ربَّهُ فيها بخير هُوَ لَهُ قَسَمٌ إلا أعْطَاهُ إيَّاهُ، وليْسَ لهُ بقَسَم إلا دَخر لَهُ مَا هُوَ أعْظَمَ منْهُ، أوْ تعوَّذَ فيها منْ شَرٍّ هُوَ عَلَيْه مكْتُوبٌ إلا أعاذَهُ منْ أعظَم منْهُ.

قلتُ: ما هَذه النُّكتَةُ السَّوْداءُ فيهَا؟ قالَ: هذه السَّاعةُ تقُومُ يَوْمَ الجُمُعَة، وهُوَ سَيِّدُ الأيام عنْدَنا، ونَحْنُ نَدْعوهُ في الآخرة يَوْمَ المزيد».

قال: قلتُ: لم تَدْعونَهُ يَوْمَ المَزيد؟ قالَ: إن ربَّكَ ـ عزَّ وجلَّ ـ اتَّخذَ في الجَنة وَاديًا أفْيحَ منَ المسْك[1]، أبيضَ، فإذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعة نَزَلَ ـ تَبارَكَ وتَعالى ـ منْ عليِّينَ على كُرْسيه حتى حُفَّ الكُرسي بمنابر منْ نور، وجاءَ النبيُّونَ حتى يَجلسُوا عَلَيْهَا، ثمَّ حفَّ المَنابرُ بكراسيَّ منْ ذَهَب، ثمَّ جاءَ الصِّديقُون والشهداءُ حتَّى يَجلسُوا عَليها ثُمَّ يجيءُ أهلُ الجنة حتى يجلسوا على الكثيب فَيتَجلَّى لهُمْ ربُّهُمْ ـ تباركَ وتعالى ـ حتَّى يَنْظُروا إلى وجْهه، وهُوَ يَقُول: أنَا الذى صدَقْتُكُم وَعدي، وأتْممْتُ عَلَيكُمْ نعمتي هَذا مَحَلُّ[2] كرامتي فسَلُوني، فَيسألُوهُ الرِّضَا فيَقُول الله عز وجلَّ رضَائي أحَلَّكُمْ داري وأنا لَكُمْ كَرَامتي فَسَلُوني فَيسْألُوهُ حتَّى تنْتهيَ رَغْبَتُهُمْ، فيفْتَحُ لهُمْ عندَ ذلكَ مَا لا عَينٌ رأت ولا أذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ عَلى قلب بَشر إلى مقدار مُنصَرف النَاس يَوْمَ الجُمعة، ثمَّ يَصْعَدُ ـ تَبَاركَ وتَعالى ـ عَلى كُرْسيه، فيَصْعَدُ مَعَهُ الشُّهداءُ والصِدِّيقونَ» أحسبه قَال: «ويَرجعُ أهْلُ الغُرف إلى غُرفهمْ درَّةً بيضاءَ لا قَصمَ فيهَا ولا فَصَمَ، أو يَاقُوتَةً حمراءَ أو زبَرْجَدَةً خَضراءَ، منْهَا غُرَفهَا وأبْوابُهَا مُطَرِدَةً فيها أنهارُهَا، مُتدلِّيَةً فيهَا ثمَارُهَا، فيهَا أزواجُهَا

(١) في البزار: من مسك. وفي أبي يعلى: من المسك الأبيض.

(٢) في البزار: نُحُل. وهو من النحل: أي العطية والهبة.

وخدمها، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا فيه كرامة، وليزدادوا فيه نظرًا إلى وجهه - تبارك وتعالى - ولذلك دعي يوم المزيد»[(١)].

• ورضوانٌ من الله أكبر •

قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران:١٥).

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التوبة:٧٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(البينة:٧:٨).

* وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنَّة! فيقولون: لبَّيك ربَّنا، وسعديك، والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[(٢)].

• وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين •

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑨ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس:٩:١٠).

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١٨٧٧١): رواه البزار والطبرانى فى الأوسط بنحوه، وأبو يعلى باختصار، ورجال أبى يعلى رجال الصحيح وأحد إسنادى الطبرانى رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد وثقه غير واحد، وضعفه غيرهم، وإسناد البزار فيه خلاف.

(٢) رواه البخارى (١١/ ٤١٥ - فتح)، ومسلم (١٧/ ١٦٨ - نووى).

وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:٣٣:٣٥).

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر:٧٣:٧٥).

• هل تستحق الدنيا أن نضحى من أجلها بالجنة •

وأخيرًا بعد أن عشنا سويًا رحلة الفرحة ومشاهدها التى تُثلج الصدور بقى لنا أن نسأل أنفسنا سؤالاً واحدًا: هل تستحق الدنيا أن تجعل المؤمن ينشغل بها عن طاعة الله جل وعلا، وأن يُحرم من تلك الفرحة الغامرة؟!!

كلا والله... لأن الدنيا بأسرها لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

ولذا قال الحبيب ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا»[1].

بل يكفى والله أن تعلم أن حب الدنيا يبعدك عن محبة الله جل وعلا، وأن الزهد فيها يجعلك تظفر بمحبته.

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس. فقال: «ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»[2].

بل تأمل معى لحال (أنعم أهل الدنيا) الذى انشغل بدنياه عن دينه وعن طاعة ربه عز وجل.

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة والطبرانى فى الأوسط عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٣٤١٤).

(٢) رواه الطبرانى وابن ماجه والحاكم عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (٩٢٢).

قال ﷺ: «يُوتَى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ فى جهنم صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يارب. ويُؤتى بأشد الناس بُؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغ فى الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بُؤسًا قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يارب! ما مرّ بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط»[1].

فيا له من مشهد تنخلع منه القلوب... فمتاع الدنيا بأسرها يُنسى مع أول غمسة فى نار جهنم.

بل إن الله جل وعلا حينما يسأل الكفار والمنافقين، ويقول لهم: «كم لبثتم فى الأرض عدد سنين» فإنهم يشهدون أن الدنيا بأسرها وبكل ما فيها من نعيم ولذة فانية لا تساوى يومًا «قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم فسئل العادين» فيبكتهم الله عز وجل بقوله: ﴿إن لَبِثْتم إلاَّ قليلاً لَوْ أنَّكُمْ كُنتُمْ تعلمُونَ﴾ (المؤمنون:١١٢ ـ ١١٤).

فهل تستحق ساعات للذة مؤقتة أن يفرط المسلم فى دينه وينسى ربه وخالقه ويترك الجنة ونعيمها؟ !

إذن فلنبدأ صفحة جديدة كلها فرحة بطاعة الله جل وعلا، عسى الله أن يجمعنا على أجمل فرحة إخوانًا على سُررٍ متقابلين وتنادينا الملائكة وتقول: ﴿هذا يومُكُم الذى كُنتم توعدون﴾ (الأنبياء:١٠٣).

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشرٍ خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسلطنة	حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها	وديارنا لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن فى الآفاق قد بُنيت	أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
إن المكارم أخلاقٌ مطهرةٌ	الدين أولها والعقل ثانيها

(١) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس ـ صحيح الجامع (٨٠٠٠).

والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل ساديها

والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها واللين باقيها

والنفس تعلم أنى لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها

واعمل لدارٍ غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهبٌ والمسك طينتها ... والزعفران حشيشٌ نابتٌ فيها

أنهارها لبنٌ مصفًّى ومن عسلٍ ... والخمر يجرى رحيقًا فى مجاريها

والطير تجرى على الأغصان عاكفةً ... تسبِّح الله جهراً فى مغانيها

فمن يشترى الدار فى الفردوس يَعْمُرُها ... بركعةٍ فى ظلام الليل يُحييها

* * *

التوبة قبل الندم

وبعد أن تعايشنا بقلوبنا مع تلك الرحلة الطويلة إلى الدار الآخرة كان لابد من وقفة مع النفس لنتوب إلى الله تعالى من كل الذنوب ولنغتنم كل لحظة فى طاعته لعل الله أن يرحمنا فى الدنيا والآخرة.

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

ومنزل «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هى بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها فى النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها فى البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

وهذه الآية فى سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجى، إيذانًا بأنكم إذا تُبْتُمْ كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.

جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١) قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسم ثالث ألبتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتُبْ. ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» وكان أصحابه يَعُدُّونَ له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة» وما صلى صلاة قط بعد إذ

أنزلت عليه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إلى آخرها. إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لي».

وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن يُنجِّيَ أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

• الله يدعو الكون كله للتوبة •

إن الله ـ عز وجل ـ دعا الناس جميعًا إلى التوبة الصادقة. فلقد دعا المشركين إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾(التوبة: ١١).

ودعا إليها أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ﴾(آل عمران: ١٨١). والذين قالوا ﴿يدُ الله مغلولةٌ﴾(المائدة: ٦٤)، فقال عز وجل: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيمٌ﴾(المائدة: ٧٤). ودعا المنافقين إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿إلاَّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما﴾(النساء: ١٤٦).

ودعا إليها المسرفين على أنفسهم بالمعاصي من أمة الحبيب ﷺ فقال تعالى: ﴿قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفرُ الذنوب جميعًا إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ﴾(الزمر: ٥٣)، كما دعا إليها المؤمنين الصادقين. فأمر الله عز وجل أصحاب النبي ﷺ بالتوبة بعد إيمانهم وهجرتهم وجهادهم وصبرهم، فقال تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾(النور: ٣١).

بل فتح الله باب التوبة لأصحاب الكبائر ليتوبوا، فقال تعالى: ﴿إنَّما جزاءُ الذين يُحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يُقتلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلُهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ﴾(المائدة:٣٣).

وعلى الرغم من تلك الجرائم والكبائر إلا أن الله جل وعلا فتح لهم باب التوبة،

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٨:١٩٩).

فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٤).

وها هم أصحاب الأخدود الذين حرّقوا المؤمنين والمؤمنات، وظلموهم بلا ذنب اقترفوه سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد،... هؤلاء الذين فرقوا بين الأم وولدها، وقذفوا ولدها أمام عينيها فى النار، وجلسوا يتلذذون بمشاهدة المؤمنين، وهم يموتون فى النيران، وعلى الرغم من ذلك يفتح الله لهم باب التوبة ليتوبوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج: ١٠)، فقوله تعالى ثم لم يتوبوا يفيد أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم.

وها هم أهل الشرك والقتل والزنا يفتح الله أمامهم باب التوبة، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ ، ثم بعد ذلك يفتح الله لهم باب التوبة، ويقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان: ٦٨: ٧١).

وهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يفتح الله أمامهم باب التوبة لكى يتوبوا ويقيموا الصلاة ويتركوا الشهوات ويقبلوا على فعل الطاعات، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٥٩: ٦٠).

ومع كل هذه الأمثلة التى تُثلج الصدور لسعة رحمة الله جل وعلا، إلا أننا لا ينبغى أن نتهاون بعواقب الذنوب والمعاصى، فإن الله كما وصف نفسه بأنه غفور رحيم، فقد وصف نفسه بأنه شديد العقاب، فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٨).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ...﴾ (غافر:٣). وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠).

فقد يستصغر الإنسان ذنبًا وهو عند الله عظيم، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥).

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة.. إن الجبال من الحصى

فلقد دخلت امرأة النار في هرة. قال ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»[1].

• نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم •

أخي الحبيب: هل تدبرت هذه الآية ولو مرة واحدة. أما علمت أن مغفرة الذنوب صفة من صفات الله وهي رحمة من الله يسوقها إلى عباده.

قال تعالى: ﴿غافرِ الذّنبِ وقَابلِ التّوْبِ شَديد الْعقَابِ ذى الطّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصيرُ﴾ (غافر:٣).

وقال تعالى: ﴿وهو الغفور الودود﴾ (البروج:١٤).

فهو غفور لمن تاب إليه.... ودودٌ يتودد إلى عباده وهو غنيٌ عنهم.

قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي! إنكم تُخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضُرى فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا..»[2].

• توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله (عز وجل) •

قال تعالى: ﴿واللهُ يُريدُ أن يَتوب عليكُم ويُريدُ الّذين يَتّبعُونَ الشّهوات أن تميلُوا مَيْلاً عظيما﴾ (النساء:٢٧).

وقال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيئو النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٣٣٧٤) ـ الصحيحة (٢٨).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي ذر ـ صحيح الجامع (٤٣٤٥).

مسيئو الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

وقال تعالى: «يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفرونى أغفر لكم»[2].

وقال تعالى: «يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرت فى ملأ خير منهم، وإن دنوت منى شبرًا دنوت منك ذراعًا، وإن دنوت منى ذراعاً دنوت منك باعًا، وإن أتيتنى تمشى أتيت إليك أهرول»[3].

فيا لها من رحمة من الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء... فتوبة العبد إلى الله عز وجل محفوفة بتوبتين من الله عز وجل: توبة قبلها، وتوبة بعدها. الأولى: إذن وتوفيق، والثانية: قبولٌ وإثابةٌ. قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٨)، فأخبر الله عز وجل أن توبته عليهم سبقت توبتهم. وأنها هى التى جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، وهذا القدر من سر اسميه «الأول والآخر» فهو المُعِدّ والمُمِدّ، ومنه السبب والمسبَب، والعبد توّابٌ والربّ تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الرب نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإثابة.

والتوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله عز وجل، بسلوك صراطه المستقيم الذى أمر بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام:١٥٣)، ونهايتها الرجوع إليه فى الميعاد، وسلوك صراطه الذى نَصَبَه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة، رجع إليه فى المعاد بالثواب، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان:٧١).

* * *

(١) رواه مسلم (١٧/ ٧٦) التوبة - صحيح الجامع (١٨٧١).

(٢) رواه مسلم عن أبى ذر - صحيح الجامع (٤٣٤٥).

(٣) رواه أحمد عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٧).

• الله يفرح بتوبتك •

يا لها من كلمات تجعل شمس التوبة تضيء القلب وتنير الصدر بنور الحق الذي جاء به النبيﷺ من عند الحق ـ جل جلاله ـ.

قالﷺ : «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال ـ من شدة الفرح ـ اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[1].

وقال الله جل وعلا: «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى. يا ابن آدم لو أنك أتيتنى بقُراب الأرض خطايا ـ أى بقرب ما يملأ الأرض من الخطايا ـ ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[2].

• كتب الله الرحمة بيده ليدل على عظم المغفرة •

إن الله خلق الكائنات بكُن فيكون، إلا أشياء؛ لشرفها وكرامتها على الله، خلقها بيده، وكتب أشياء لكرامتها عليه بيده، فخلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة لموسى بيده، وكتب كتاب الرحمة بيده.. فما أعظم كرم الرحمن.

قال رسول اللهﷺ : «كتب ربكم على نفسه بيده، قبل أن يخلق الخلق: رحمتى سبقت غضبى»[3].

وقال رسول اللهﷺ : «لما قضى الله الخلق، كتب فى كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى»[4].

والمغفرة رحمة قال تعالى:﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ

---

(١) متفق عليه عن ابن مسعود ـ صحيح الجامع (٥٠٣٣) وأخرجه مسلم عن أنس ـ صحيح الجامع (٥٠٣٠) ومتفق عليه عن أنس باختصار ـ صحيح الجامع (٥٠٣١).

(٢) رواه الترمذى والضياء عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٨).

(٣) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٧٥).

(٤) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد عن أبى هريرة.

اللَّه إِنَّ اللَّه يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٤٨)[١].

• تيسير التوبة لأمة الحبيب ﷺ •

احمد الله يا أخي على أنك من أمة الحبيب ﷺ فلقد يسَّر الله التوبة لأمته ﷺ فجعل مجرد الندم توبة مقبولة... قال ﷺ: «الندم توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٢]... بل جعل الله التوبة سببًا في تبديل السيئات إلى حسنات فقال (جل وعلا): ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان:٧٠).

وتدبر معي كيف كانت توبة الله (جل وعلا) على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:٥٤).

قال الإمام ابن كثير في تفسيره:

«هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل... عن ابن عباس. قال: قال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من ولد ووالد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن.

وعن ابن عباس أيضًا قال: أمر موسى قومه ـ من أمر ربه عز وجل ـ أن يقتلوا أنفسهم، واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر من أيديهم، وأصابتهم ظُلة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا، فانجلت الظلة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قُتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة»[٣].

---

(١) البحار الذاخرة في أسباب المغفرة/ د. سيد حسين (ص:٢٢).

(٢) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد الأنصاري، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ١٣١).

• الله يحجب التوبة عن المنافقين والكافرين •

ولما كانت التوبة محض فضل الله ورحمته حجبها عن المنافقين والكافرين لأنهم لا يستحقونها أبدًا.

قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة:٨٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء:١٦٨، ١٦٩).

• لمثل هذا اليوم فأعدوا •

أخي الحبيب: لو أنك تملك الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل ثم جاء اليوم الذي ستدخل فيه قبرك... فهل تعدل الدنيا كلها أول ليلة في هذا القبر؟.

هل تفكرت أخي الحبيب كيف سيكون حالك في هذا القبر الموحش؟ قال ﷺ يومًا لأصحابه: «لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم عذاب القبر»[1].

بل تدبر معي هذا المشهد المهيب. فعن البراء (رضي الله عنه) أنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟» فقيل: على قبر يحفرونه، ففزع رسول الله ﷺ ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا، حتى انتهى إلى القبر، فجثا على ركبتيه، فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع؟ فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: أي إخواني، لمثل هذا اليوم فأعدوا»[2].

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا	واذكر ذنوبك وابكها يا مذنبُ
لم ينسهُ الملكان حين نسيته	بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعبُ
والروح منك وديعة أودعتها	ستردها بالرغم منكَ وتُسلبُ
وغرور دنياك التي تسعى لها	دارٌ حقيقتها متاعٌ يذهبُ
الليل فاعلم والنهار كلاهما	أنفاسنا فيهما تُعدّ وتُحسبُ

(١) أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود عن أنس - صحيح الجامع (٥٣٢٥).

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة.

• لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا •

* عن أبي ذَرٍّ رضي اللَّهُ عنه، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «إنِّي أرى مالا تَرَوْنَ، أطَّت السَّماءُ وحُقَّ لَهَا أنْ تَئطَّ، مَا فيهَا موْضعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إلاَّ ومَلَكٌ واضعٌ جبهتهُ ساجدًا للَّه تَعَالَى، واللَّه لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لضَحكْتمْ قَليلاً، ولَبَكيْتُمْ كَثيرًا، وما تَلَذَّذتُم بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، ولَخرجْتُمْ إلى الصُّعُدات تَجْأَرُون إلى اللَّه تَعَالَى»[1].

* هل رأيت جنازة محمولة على الأعناق؟ هل تعلم أنك ستكون مكان هذا الرجل في يوم من الأيام؟ فيا تُرى كيف سيكون حالك؟

قال ﷺ: «إذا وُضعت الجنازة، واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق»[2].

* بل هل تفكرت في مشاهد الآخرة لتكون لك حاديًا إلى التوبة والعودة إلى طاعة الله (جل وعلا).

قال ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن - إسرافيل - قد التقم القرن؟ وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ، فقال أصحابه: كيف نقول: قال قولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»[3].

وقال ﷺ: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميلٍ فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يُلجمه العرق إلجامًا»[4].

وقال ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله - عز وجل - يوم القيامة»[5].

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٣١٦/ فتح) كتاب الجنائز.
(٣) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢).
(٤) أخرجه مسلم عن المقداد بن الأسود - صحيح الجامع (٢٩٣٣).
(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٧٩) الجنائز - ومسلم (٦٢، ٦٣) الجنة.

وقال ﷺ: «إذا صار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار جىء بالموت، حتى يوقف بين الجنة والنار. ثم يُذبح، ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»[١].

• حملة العرش يستغفرون لك أيها الحبيب •

بل إن حملة العرش يستغفرون لك أيها الأخ الحبيب.... فهل عرفت قدرك فى ظل هذا الدين؟.

إنك تستمد عزك ومكانتك من طاعتك للملك (جل وعلا) الذى يسخر لك الكون كله من أجلك.

فها هم حملة العرش يستغفرون لك.. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر:٧).

بل ها هو الكون كله يدعو لك إذا انشغلت بالدعوة إلى الله

قال ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جُحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على مُعلمى الناس الخير»[٢].

• النبى ﷺ خبأ دعوته شفاعة لأمته •

أما علمت أخى الحبيب أن النبى ﷺ خبأ دعوته ليشفع العصاة من أمته يوم القيامة.

قال ﷺ: «لكل نبى دعوة مستجابة يدعو بها وإنى اختبأت دعوتى»، وفى رواية: «وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة»، وفى رواية: «فتعجَّل كل نبى دعوته»، وزاد فى رواية: «فهى نائلة من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا»[٣].

وقال ﷺ: «أتانى آتٍ من عند ربى، خيَّرنى بين أن يُدخل نصف أمتى الجنة وبين

(١) أخرجه البخارى (٦٥٤٨) الرقاق ـ ومسلم (٢٨٥٠).

(٢) رواه الترمذى عن أبى أُمامة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٣) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه.

الشفاعة، فاخترت الشفاعة وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»[1].

فالحبيب ﷺ يفضل مغفرة الله (جل وعلا) للأمة المحمدية على دخول نصف أمته الجنة... وهذا هو القدر الحقيقى للتوبة ومغفرة الذنوب.

• خوف الصحابة (رضى الله عنهم) •

ومن تأمل أحوال الصحابة - رضى الله عنهم - وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فهذا الصدِّيق - رضى الله عنه - يقول: وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن.... بل كان يمسك بلسانه ويقول: هذا الذى أوردنى الموارد.

وكان يبكى كثيراً ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله - عز وجل - وأُتى بطائر، فأخذه فقلبه ثم قال: ما صِيد من صيد، ولا قُطعَت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح، فلما احتضر قال لعائشة: يا بنية إنى أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب وهذا العبد، فأسرعى به إلى ابن الخطاب، وقال: والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل وتُعضد. وقال قتادة: بلغنى أن أبا بكر قال: ليتنى خضرة تأكلنى الدواب.

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ (الطور:٧) فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه وهو فى الموت: ويحك ضع خدى على الأرض، عساه أن يرحمنى ثم قال: بل ويل أمى، إن لم يغفر الله لى، (ثلاثًا) ثم قضى - مات - وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فتخيفه، فيبقى فى البيت أياما يُعاد، يحسبونه مريضا، وكان فى وجهه - رضى الله عنه - خطان أسودان من البكاء.

وقال له ابن عباس: مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، فقال: وددت أنى أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا أبو الدرداء - رضى الله عنه - كان يقول: إن أشد ما أخاف على نفسى يوم القيامة أن يقال لى: يا أبا الدرداء، قد علمت، فماذا عملت فيما علمت؟.

وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون

(١) رواه أحمد عن أبى موسى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦).

صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أنى شجرة تُعضد ثم تؤكل. وكان عبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: يا ليتنى كنت شجرة تعضد، ووددت أنى لم أُخلق،... وعُرضت عليه النفقة فقال: عندنا عنز نحلبها وحمر ننقل عليها ومحرر يخدمنا، وفضل عباءة، وإنى أخاف الحساب فيها. وقرأ تميم الدارى ليلة سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الجاثية:٢١) جعل يرددها ويبكى حتى أصبح.

وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: «أنشدك الله هل سمانى لك رسول الله ﷺ، يعنى فى المنافقين؟ فيقول: لا. ولا أزكى بعدك أحدا»[١].

• أصحاب الأنبياء يسألون المغفرة •

وأين نحن ـ أخى الحبيب ـ من أصحاب الأنبياء ـ صلوات ربى وسلامه عليهم ـ وعلى الرغم من ذلك فلقد كانوا يحرصون كل الحرص على التوبة. وطلب المغفرة من الغفور الرحيم.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٦: ١٤٧).

وقال تعالى عن إبراهيم (عليه السلام) والذين آمنوا معه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الممتحنة:٥).

وقال تعالى عن قوم موسى (عليه السلام): ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:١٤٩).

وقال تعالى فى شأن المهاجرين: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر:١٠).

---

(١) الداء والدواء/ للإمام ابن القيم (ص: ٤٧: ٥٠) بتصرف.

• النبى ﷺ يتوب فى اليوم مائة مرة وأنت لا تتوب مرة!!!! •

* عَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: «واللَّه إنِّى لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إلَيْه فى اليَوْمِ أكثر مِنْ سَبْعِين مرَّة»[1].

* وعن الأغَرِّ بْن يَسار المُزنىِّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أَيُّها النَّاس تُوبُوا إلى اللَّهِ واسْتَغْفِرُوهُ فإنِى أتوبُ فى اليَوْمِ مائة مَرَّة»[2].

أخى الحبيب: النبى ﷺ يتوب فى اليوم الواحد مائة مرة... وأنت لا تتوب ولو مرة واحدة... وهو الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وعلى الرغم من ذلك يتوب فى اليوم مائة مرة ويقوم الليل حتى تتفطر قدماه.

فأين أنت أخى الحبيب من هدى النبى ﷺ ؟.

• اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عنا •

وها هو دعاء المؤمنين فى أعظم ليلة من ليالى العمر ـ ليلة القدر ـ يدور حول طلب العفو والمغفرة وذلك لنعرف قدر التوبة ونعيم المغفرة.

عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولى: اللهم إنك عفو تُحب العفو فاعف عنى»[3].

• إياك والمعصية •

عن معاذ قال: أوصانى رسول الله ﷺ فقال: «لا تشرك بالله شيئًا، وإن قُتلت أو حُرقت، ولا تعقن والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا، فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرًا، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن المعصية تحل سخط الله»[4].

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به، فإنه قطع اليد فى ثلاثة دراهم، وجلد

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١١/ ٦٣٠٧/ فتح) الدعوات.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٧٠٢) الذكر والدعاء.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى، وصححه الألبانى فى مشكاة المصابيح (٢٠٩١).

(٤) رواه أحمد عن معاذ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٣٩).

الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا على من غلها، وقد قُتل شهيدًا.

* أما علمت ـ أخي الحبيب ـ أنك ستُسأل عن كل لحظة من عمرك وستبكي الدماء بدل الدموع على كل لحظة ضاعت في غير طاعة الله (جل وعلا).

* عن أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي اللَّه عنه، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ «لا تَزُولُ قَدَمَا عبْد حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِه فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِه فِيم فَعَلَ فِيه، وعَنْ مالِه منْ أَيْنَ اكْتَسبهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَن جِسْمِه فِيم أَبْلاهُ»(١).

* وعن عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ رضي اللَّه عنه، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ «ما منْكُمْ منْ أَحَدٍ إلاَّ سيُكَلِّمُهُ ربُّهُ لَيْسَ بيْنَهُ وبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمنَ منْهُ، فَلا يَرَى إلاَّ ما قَدَّمَ، وينظرُ أَشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظُرُ بيْنَ يَدَيه، فَلا يَرَى إلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجهه، فاتَّقُوا النَّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(٢).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ إذ سَمِعَ وَجْبَةً فقال: «هَلْ تَدْرُونَ ما هذا؟» قُلْنَا: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يهْوِي في النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إلى قَعْرِهَا، فَسَمِعْتُمْ وجْبَتَهَا»(٣).

ـ الحجر يصل إلى قعر النار بعد سبعين سنة!!!. تالله لو كان الهبوط في الماء أو الهواء لمات الإنسان من هول الهبوط فكيف إذا كان الهبوط في دركات جهنم.... فاتق الله يا أخي واتق النار ولو بشق تمرة وإذا وقعت في معصية فبادر إلى التوبة واعلم أنك غير معصوم ـ فالعصمة دُفنت يوم أن دُفن الحبيب محمد ﷺ ـ ولكن احذر من الإصرار على المعصية... وتوجه إلى الله (جل وعلا) وتذلل إليه ليثبت أقدامك على طاعته وقُل بلسان الحال والمقال.

بك أستجير ومن يُجير سواك ... فأجِر ضعيفًا يحتمي بحماك

إني ضعيفٌ أستعين على قوى ... ذنبي ومعصيتي ببعض قواك

(١) [صحيح]: أخرجه الترمذي (٤/ ٢٤١٧) في صفة القيامة/ باب: ما جاء في شأن الحساب والقصاص، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠) والسلسلة الصحيحة (٩٤٦).

(٢) [صحيح]: أخرجه البخاري (١١/ ٦٥٣٩/ فتح) ومسلم (١٠١٦) الزكاة.

(٣) [صحيح]: أخرجه مسلم (٢٨٤٤) كتاب الجنة/ باب: في شدة حر نار جهنم (الوجبة: السقطة).

أذنبت يا رب وآذتني ذنوبٌ . ما لها من غافر إلاك
دنيايا غرتني وعفوك شدني . ما حيلتي في هذه أو ذاك
ربآه قلب تائب ناجاك . أترده وترد صادق توبتي
حاشاك ترفض تائبًا حاشاك
فليرضى عني الناس أو فليسخطوا . أنا لم أعد أسعى لغير رضاك

• كلا لا تطعه واسجد واقترب •

وإذا أراد شيطان من شياطين الإنس أن يأخذ بيديك إلى معصية الله فتذكر قوله تعالى:﴿ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق:١٩)... وتذكر رحمة الله التي وسعت كل شيء.

* عن أبي ذرٍّ رضيَ اللَّهُ عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ : «يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ جاءَ بالحَسَنَة، فَلَهُ عَشْرُ أمْثالها أوْ أزِيدُ، ومَنْ جاءَ بالسَّيِّئة ، فَجَزَاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُهَا أوْ أغفرُ. وَمَنْ تقرَّبَ منِّي شبرًا تَقَرَّبْتُ منْهُ ذراعًا، ومنْ تقرَّبَ منِّي ذراعًا، تَقَرَّبْتُ مَنْهُ باعًا، وَمَنْ أتاني يمشي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَني بقُرَابِ الأرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقيتُهُ بمثلها مغفرةً»[١].

* وعن عمرَ بنِ الخطاب رضي اللَّهُ عنه، قال: قَدمَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ بسَبْي فإذا امْرَأةٌ منَ السَّبي تَسْعَى، إذْ وَجَدتْ صبيًا في السبي أخَذَتْهُ فألزَقَتْهُ ببطنها، فَأرْضَعَتْهُ، فقال رسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أتُرَوْنَ هَذه المَرْأةَ طارحةً ولَدَهَا في النَّار؟» قُلْنَا: لاَ وَاللَّه. فَقَالَ: «اللَّهُ أرْحمُ بعباده منْ هَذه بولَدهَا»[٢].

* وعن أبي هريرة قال: سمعْتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «جعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مائَةَ جُزْء، فَأمْسَكَ عنْدَهُ تسْعَةً وتسْعينَ، وأنْزَلَ في الأرْضِ جُزْءًا واحدًا، فَمنْ ذَلكَ الجُزْء يتَراحمُ الخَلائقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافرَهَا عَنْ ولَدهَا خَشْيَةَ أنْ تُصيبَهُ»[٣].

(١) [صحيح]: أخرجه مسلم (٢٦٨٧) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.
(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٩٩٩) الأدب ـ ومسلم (٢٧٥٤) التوبة.
(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٦٠٠٠) الأدب ـ ومسلم (٢٧٥٢) التوبة.

* وعنه عن النَّبيِّ ﷺ فيمَا يَحكي عَن ربِّه تَبَارَكَ وتَعَالى، قال: «أذنَب عبدٌ ذَنبًا، فقالَ: اللَّهُمَّ اغفرْ لي ذَنبي، فقال اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعالى: أذنَبَ عبدي ذنبًا، فَعلم أنَّ لَهُ ربًا يَغفرُ الذَّنبَ، وَيأخُذُ بالذَّنب، ثُمَّ عَادَ فَأذنَبَ، فقال: أيْ ربِّ اغفرْ لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنبَ عبدي ذَنبًا، فَعَلَمَ أنَّ لَهُ ربًا يَغفرُ الذَّنبَ، ويَأخُذُ بالذنب، ثُمَّ عَادَ فَأذنَبَ، فقال: أي رَبِّ اغفرْ لي ذَنبي، فقال تَبَارَكَ وتَعَالى: أذنبَ عَبدي ذَنبًا، فعَلِمَ أنَّ لَهُ ربًا يَغفرُ الذَّنبَ، وَيأخُذُ بالذَّنب، قدَ غَفَرْتُ لعبدي، فَلْيَفعَلْ ما شَاءَ» (متفقٌ عليه).

وقوله تعالى: «فَلْيَفْعلْ ما شَاءَ» أي: مَا دَامَ يَفْعَلُ هكَذا، يُذْنِبُ ويَتُوبُ أغْفِرُ لَهُ، فإنَّ التَّوبَةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَهَا.

* وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه لَوْ لَمْ تُذنبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقوم يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّه تعالى، فَيَغْفرُ لَهُمْ» (رواه مسلم).

* وعن ابن عمَر رضي اللَّه عنهما، قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: «يُدْنَى المُؤْمنُ يَومَ القيَامَةِ منْ رَبِّه حتَّى يَضعَ كَنَفَهُ عليه، فَيُقَرِّرُهُ بذُنوبه، فيقولُ: أتَعرفُ ذنبَ كذَا؟ أتعرفُ ذَنبَ كَذَا؟ فيقول: رَبِّ أعْرِفُ، قال: فَإنِّي قَد سَتَرتُهَا عَلَيكَ في الدُّنيَا، وأنَا أغفرُهَا لَكَ اليَومَ، فَيُعطَى صَحيفَةَ حسَنَاته» (متفقٌ عليه).

لبثت ثوب الرجا والناس قد رقدوا ... وقمت أشكو إلى مولاي ما أجدُ
فقلت يا أملي في كل نائبة ... ومَن عليه لكشف الضر أعتمدُ
أشكو إليك ذنوبًا أنت تعلمها ... ما لي على حَملها صبرٌ ولا جَلَدُ
وقد مددت يدي بالذل مبتهلاً ... إليك يا خير من مُدّت إليه يدُ
فلا تردّنها يا رب خائبةً ... فبحر جودك يروي كل من يَرِدُ

• لا تشمت بك الأعداء •

* قال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تُشمت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصي الله فيُشمت به في يوم القيامة كل عدو.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في

الموتى، واعلموا أن قليلا يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، وأن الإثم لا يُنسى».

ـ أخي: إن هيئتك الجميلة وأنت تلبس القميص القصير والعمامة وتضع السواك والمصحف في قميصك وتُطلق لحيتك... إن هذا المنظر يغيظ أعداء الله... فكما امتلأت قلوبهم غيظًا في الدنيا بهيئتك الجميلة فاحرص على أن تمتلىء قلوبهم غيظًا يوم القيامة بطاعتك لله (جل وعلا).

• لا تغتر بحلم الله (جل وعلا) •

ومع ذلك ـ يا أخي ـ إياك أن تغتر بحلم الله، فلقد قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:٤٩، ٥٠).

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا.

وقيل للحسن: نراك طويل البكاء فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي.

وكان يقول: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم؛ لأني أحسن الظن بربي وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تنقطع؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه ـ الأمعاء ـ فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1].[2]

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٢٦٧) بدء الخلق ـ ومسلم (٤٩) الزهد.

(٢) الداء والدواء/ (ص:٢٩).

• لا تنظر إلى صغر المعصية •

كان هلال بن سعد يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت».

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا نُكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (المطففين:١٤)»[١].

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: إن الرب عز وجل قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل ـ: «إني إذا أُطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عُصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد»[٢].

وعن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيء، قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، فقرَّب ذبابًا، فخلوا سبيله فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا من دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة»، وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب[٣].

وقال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه»، وضرب لهن رسول الله ﷺ مثلاً: «كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا، فأنضجوا ما قذفوا فيها»[٤].

* * *

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وحسنه الألباني في صحيح الجامع

(٢) رواه أحمد وأبو يعلي والطبراني، وصححه أحمد شاكر (٤٣٨٠).

(٣) صحيح موقوفًا: رواه أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية.

(٤) رواه أحمد والطبراني والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٦) (٢٦٨٧).

• الذنوب ... وهلاك الأمم من قبلنا •

أخي الحبيب: هل سألت نفسك يومًا عن سبب هلاك الأمم من قبلنا؟ أما علمت أنهم هلكوا بسبب إعراضهم عن طاعة الله (جل وعلا) وعدم توبتهم.

وإذا لم تكن الذنوب هي سبب هلاكهم فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه فجُعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع؟.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رءوس الجبال؟.

وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟.

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟.

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل. فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرًا؟ وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة، حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية

فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرًا؟. وما الذى سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى ﴿ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومُهُم سُوءَ العذاب﴾ (الأعراف:١٦٧).

عن جبير بن نفير قال: «لما فُتحت قبرص فُرِّق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض. فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكى، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك، فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل، إذا أضاعوا أمره، بينما هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»[(١)(٢)]

• أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى •

فهيا أخى الحبيب ارفع يديك إلى من يسمع دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصمّاء فى الليلة الظلماء، واطلب منه أن يعينك على التوبة وأن يغفر ذنوبك.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-:

فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال: «أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى. أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير، وليس لى سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه».

يا من ألوذُ به فيما أؤملهُ ... ومن أعوذُ به مما أحاذرهُ
لا يجبرُ الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابرُهُ[(٣)]

• وقفة مع النفس •

أخى الحبيب: قف مع نفسك لتعرف ماذا تريد... بل ولتعرف ما الذى يشغلك عن طاعة الله والقُرب منه.

---

(١) الأثر رواه أحمد فى الزهد (ص:١٧٦).

(٢) الداء والدواء/ (ص:٥٢).

(٣) مدارج السالكين: ١/ ١٨٧.

* إن كان المال هو الذى يشغلك فاعلم أن المال لا ينفعك فى قبرك ولا فى آخرتك إلا إذا أنفقته فى طاعة الله (جل وعلا).

قال ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد يرجع أهله وماله ويبقى عمله»(١).

هذه هى الحقيقة... لا ينفعك إلا عملك الصالح.

* وإن كان الأولاد هم الذين يشغلونك عن الله فاعلم أن الأولاد نعمة لمن استعملهم فى طاعة الله... ونقمة لمن انشغل بهم عن الله، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن:١٤، ١٥).

وقال ﷺ: «إن الولد مبخلةٌ مجبنةٌ مجهلةٌ محزنةٌ»(٢).

أما إن استعملت أولادك فى طاعة الله وجعلتهم وقفًا لخدمة دين الله فإنهم بذلك يكونون نعمة تنتفع بها فى حياتك وبعد موتك.

قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٣).

* وإن كان المنصب والجاه هو الذى يشغلك عن الله، فاعلم أخى الحبيب أن المنصب زائل ولو دام لغيرك ما وصل إليك..

* وإن كانت الدنيا كلها تشغلك عن الله فقد قال خالقها (جل وعلا) عنها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:٢٠).

* وعن المُسْتَوْرِدِ بنِ شدَّادٍ رَضِيَ اللَّه عنه، قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فى

(١) أخرجه البخارى (١١/ ٦٥١٤) الرقاق ـ ومسلم (٢٩٦٠) الزهد.

(٢) رواه الحاكم عن الأسود بن خلف والطبرانى فى الكبير عن خولة بن حكيم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٩٠).

(٣) أخرجه مسلم والنسائى والترمذى وأبو داود عن أبى هريرة.

الآخِرَةِ إلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أحدُكُمْ أُصْبُعَهُ فى اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟»[1].

* وعن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وجنَّةُ الكَافِرِ»[2].

* وعن ابن عمر رضى اللَّه عنهما، قال: أَخَذَ رسول اللَّه ﷺ بِمنْكِبَيَّ، فقال: «كُنْ فى الدُّنْيَا كأنَّكَ غريبٌ، أوْ عَابِرُ سبيلٍ».

وكَانَ ابنُ عمرَ رضى اللَّه عنهما، يقول: إذَا أمْسيْتَ فَلا تَنْتظرِ الصَّباحَ، وإذَا أصْبحْتَ فَلا تَنْتَظرِ المساءَ، وخُذْ منْ صِحَّتِكَ لمرضِكَ ومنْ حياتك لموتك[3].

قالوا فى شرح هذا الحديث معناه: لا تَركَنْ إلى الدُّنْيَا ولا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، ولا تُحدِّثْ نَفْسَكَ بطُول البَقَاء فيهَا، وَلا بالاعْتنَاء بهَا، ولا تَتعلَّقْ منْهَا إلاَّ بمَا يَتَعلَّقُ به الغَريبُ فى غيْر وطَنِه، ولا تَشْتَغِلْ فِيهَا بِما لا يشْتَغِلُ بِه الغَرِيبُ الَّذِى يُرِيدُ الذَّهاب إلى أهْلِه. وَباللَّه التَّوْفِيق.

* وعن أبى العبَّاس سَهْل بن سعْد السَّاعديِّ رضى اللَّه عنه، قال: جاءَ رجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسول اللَّه دُلَّنِى عَلَى عمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ أحبَّنى اللَّه، وَأحبَّنى النَّاسُ، فقال: «ازْهَدْ فى الدُّنيا يُحِبَّكَ اللَّه، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»[4].

* وعنْ عبْد اللَّه بنِ الشِّخِّيرِ «بكسر الشين والخاء المشددة المعجمتين» رضى اللَّه عنه، أنَّهُ قَالَ: أتَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ وهُوَ يَقْرأُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقُولُ ابنُ آدَم: مَالى، مَالى، وَهَل لَكَ يَا ابن آدمَ مِنْ مالِكَ إلاَّ مَا أكَلت فَأفْنيْتَ، او لبِستَ فَأبْلَيْتَ، أوْ تصَدَّقْتَ فَأمْضيْتَ؟»[5].

* وعن عبد اللَّه بن مَسْعُود رضى اللَّه عنه، قال: نَامَ رسولُ اللَّه ﷺ على حَصير فَقَامَ وَقَدْ أثَّرَ فى جَنْبِه، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّه لو اتَّخَذْنَا لكَ وطَاءً، فقال: «مَا لى وَللدُّنْيَا؟ مَا أنَا فى الدُّنْيَا إلاَّ كَرَاكبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا»[6].

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) أول كتاب الزهد والرقائق.

(٣) أخرجه البخارى (٦٤١٦) الرقائق.

(٤) رواه ابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٢٢).

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٢٨) فى الزهد والرقائق.

(٦) رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٩٣٦).

فيا أيها الأخ الحبيب: اجعل الهموم همًا واحدًا ليكفيك الله هموم الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»(١).

* وعن عُبَيد اللَّه بن محْصَن الأنصاريُّ الخَطْميُّ رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «منْ أَصبح مِنكُمْ آمِنًا فى سِرْبِهِ، معافى فى جَسدِه، عِندهُ قُوتُ يَومِه، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحذافِيرِها»(٢).

* وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه عنهما، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَن أَسلَمَ، وكَانَ رِزقُهُ كَفَافًا، وقَنَّعَهُ اللَّه بِمَا آتَاهُ»(٣).

* فهيا أيها الأخ الحبيب: تُب إلى الله من كل المعاصى والذنوب واعلم أنك ستنسى كل شقاء بغمسة واحدة فى الجنة، كما أخبر الحبيب ﷺ.

فقد قال ﷺ مخبرًا عن هذا المشهد العظيم الذى يحدث يوم القيامة: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ فى جهنم صبغة ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا فى الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغ فى الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مرّ بى بؤسٌ قط، ولا رأيت شدة قط»(٤).

يا نفسى توبى فإن الموت قد حانا ... واعصى الهوى فالهوى ما زال فتانا
أما ترينا المنايا كيف تلقطنا ... لقطًا وتلحق أُخرانا بأولانا
فى كل يوم لنا ميت نشيعه ... نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفسى ما لى وللأموات أتركها ... خلفى وأخرج من دنياى عريانا
أبعد خمسين قد قضيتها لعبًا ... قد آن أن تقصرى قد آن قد آنا

(١) رواه الترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).
(٢) رواه الترمذى وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٩١٣).
(٣) أخرجه مسلم (١٥٠٤) الزكاة.
(٤) أخرجه مسلم وأحمد والنسائى عن أنس ـ صحيح الجامع (٨٠٠٠).

ما بالنا نتعامى عن مصائرنا ... ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
نزداد حرصًا وهذا الدهر يزجرنا ... كأن زاجرنا بالحرص أغرانا
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانت تخر له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلوا مدائن كان العز مفرشها ... واستفرشوا حفرًا غبرًا وقيعانا
يا راكضًا في ميادين الهوى مرحًا ... ورافلاً في ثياب الغي نشوانا
مضى الزمان وولى العمر في لعب ... يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا[1]

* أسأل الله (عز وجل) أن يرزقني وإياكم حُسن الخاتمة وأن يجعل قبورنا روضة من رياض الجنة وأن يحشرنا في زُمرة الصالحين ويرزقنا صُحبة سيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ وأن يرزقنا لذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأخيرًا: فمن استفاد من هذا الكتاب فائدة فأرجو ألا يبخل عليَّ بدعوة صالحة عسى الله أن يتغمدني برحمته وأن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم أُدرج في أكفاني وأن يجعله ذُخرًا لي في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

أفقر خلق الله إلى رحمة الرحيم الغفار

محمود المصري

(أبو عمار)

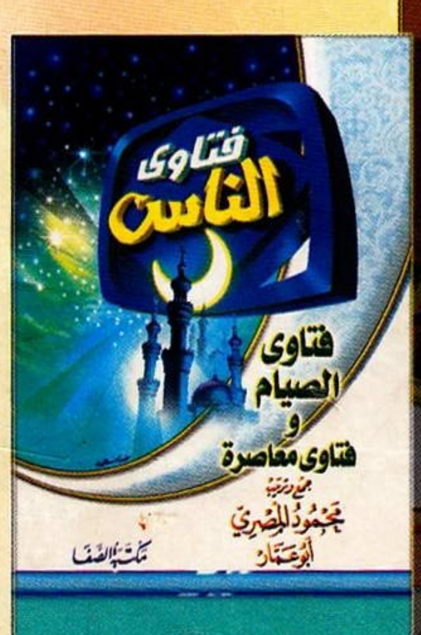
(١) المدهش (ص: ٣٨٩).

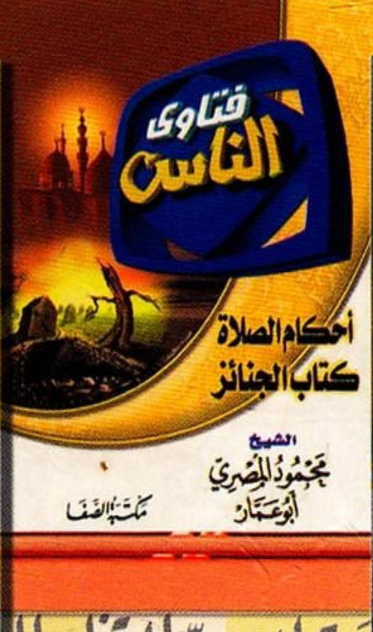
فهرس الموضوعات

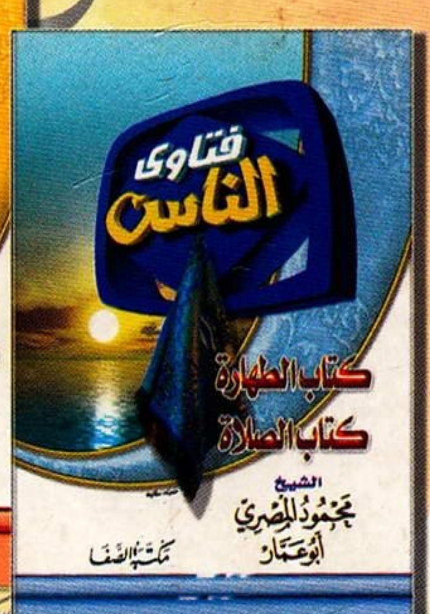
الموضـــــــــــــوع	الصفحة

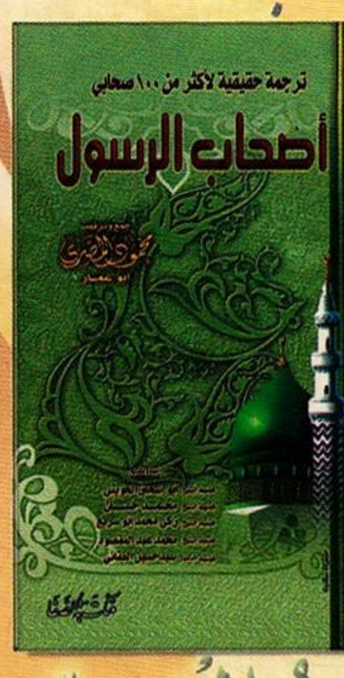
* * *

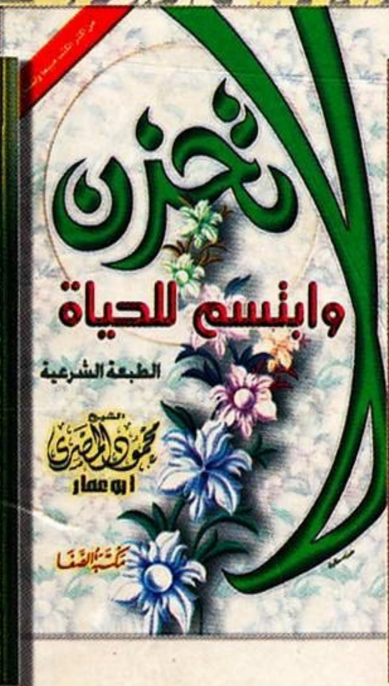
يسر مكتبة الصفا أن تقدم: سلسلة كتب فضيلة الشيخ / محمود المصرى (أبو عمار)

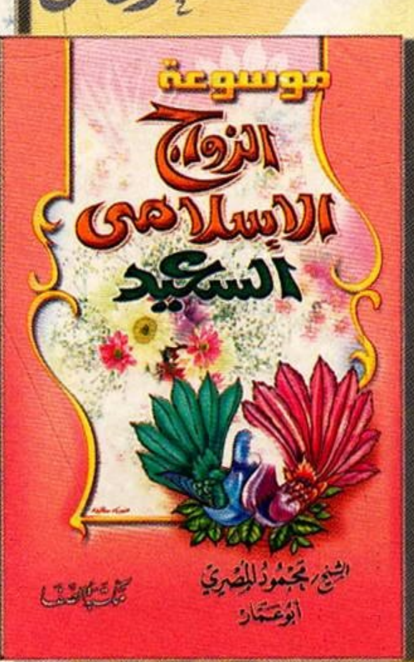


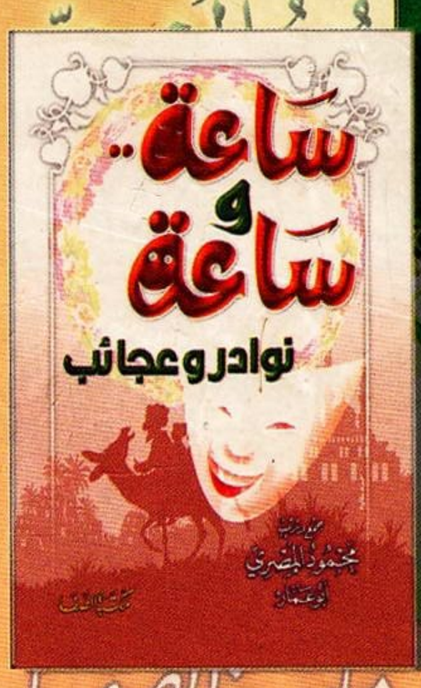


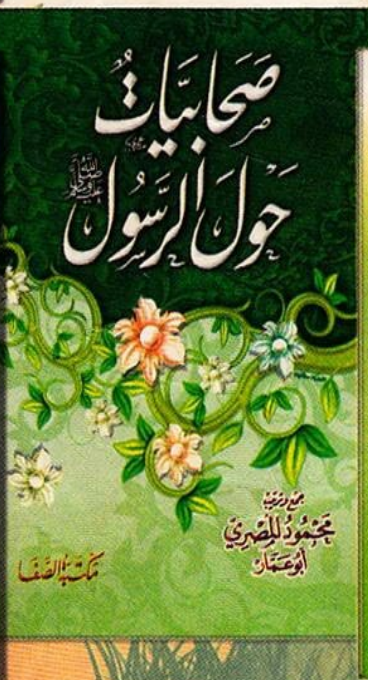


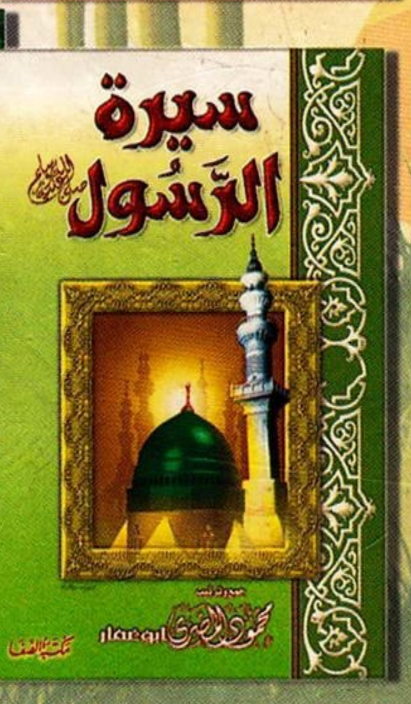












مكتبة الصفا


مصريات
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com